سُفَرَاءُ النَّبِيِّ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

تأليف

محمود شيت خطّاب

اللـواء الركن

الجزء الأوّل

دار الأندلس الخضراء

للنشر والتوزيع

جـدة

مؤسسة الريان

للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

(سورة الأنبياء، ٢١: ١٠٧)


سفراء النبي
صلى الله عليه وسلم

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
ص.ب: ٤٢٣٤٠ - جدة: ٢١٥٤١ - هاتف/فاكس: ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب ١٤/٥١٣٦ ، السجل التجاري في بيروت رقم ٥ / ٧٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى النبي المصطفى صلوات الله وتسليمه عليك



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾

(سورة الأعراف، ٧: ١٥٨)



بسم الله الرحمن الرحيم

عِبْرة
السّفارات النبوية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

كنت أسمع بالعاملين في السّفارات العربية في الدول العربية والأجنبية، باعتبارهم شخصيات مختارة ثقافةً وعلماً وخبرة وذكاء، ولكنّني لم أكن أعرف واحداً منهم حتى بمجرد الاسم والشّكل، لأن الصِّلة بين العاملين في الجيش والعاملين في السفارات نادرة جداً، إلا في حالة السّفر إلى الخارج، حيث يتيسّر الاتّصال بشكل أو بآخر.

وتيسّر لي السفر إلى دولة أجنبية في أوروبا سنة (١٣٧٤ هـ-١٩٥٤ م) للدراسة العسكرية، فتحقّق لي أمل من آمالي، طالما راود نفسي مرّات كثيرة، في الاجتماع بالعاملين في السفارات العربية خارج الوطن، لأستفيد من ثقافتهم وعلمهم وخبرتهم وذكائهم، وكان قد استقرَّ فيعقلي بأنهم من المصطفين الأخيار من رجال الدولة، وهم صفوة الموظفين كفايةً واقتداراً.

وكان لقائي الأول بهم في وليمة شبه رسمية، فتهيّبتُ هذا اللّقاء. وأصغيت إلى حوارهم بلهفة وشوق، حتى انقضى وقت اللّقاء، فلم استفد ثقافة ولا علماً ولا خبرة ولم ألمس ذكاء.

كان الحوار يدور في ثلاثة محاور: النساء، والسّيارات، والطعام، فقلت لنفسي: لعلّهم في اللقاء المُنْتَظَر يتداركون ما أغفلوه!

وتكرّرت اللّقاءات، وتكرّر حوارهم المعهود، وبقدر حماستي وشوقي للقائهم، كانت خيبة أملي بهم، وتمنيت على الله أن يكونوا من الصفوة المختارة، لأن الأنظار ترصدهم، فإن أحسنوا رفعوا مكانة بلادهم، وإن أساءوا انحدرت مكانتهم إلى الحضيض.

وجاءت سنة (١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م)، فابتلاني الله بالعمل في السياسة مُكرهاً لا بطلا، كما يقول المثل العربي المشهور، فشمل اتّصالي بالعاملين في السفارات العربية كافة ولم يقتصر على الاتّصال بالعاملين في السفارات العربية لدولة عربية واحدة، فلم أجد فرقاً ظاهراً بين زمرة العاملين في السفارات العربية من العرب، كلهم من غير الصفوة المختارة إلا مَن رحم الله، وقليل ما هم.

وفي سنة (١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م) دعيت للتدريس في كلية عسكرية لإحدى الدول العربية، فلبّيت الدّعوة وتبرّعت بمكافأة التدريس إلى مكتبة الكلية. وصادفت أن القائم على مكتبة الكلية - وكان يومها طالباً، قاد ثورة في بلاده، وشارك في الثورة قسم من زملائه الطلاب، فدعوني لزيارة بلادهم بعد نجاح ثورتهم، فزرتهم عدّة مرات. واقترحت في إحدى المرات، أن يرافقني السفير في زيارة المسؤولين ورئيسهم، فاعتذر السفير عن مرافقتي لأنه يخجل من لقاء الرئيس!

ولبّيت دعوة قطر عربي سنة (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) مع ستة من العلماء، عالم من كلّ بلد عربيّ، فدعينا إلى مأدبة رسمية حضرها المسؤول الأعلى في الدولة. وكان السفير برفقتي في الدعوة، وكان قد شغل هذا المنصب في هذا البلد أكثر من سنتين، بينما زرت هذا البلد لأول مرة في حياتي، فذهلت لأن المسؤولين في البلد كانوا لا يعرفون السفير،

فكان أحدهم يسألني: مَنْ هذا الذي يرافقك! أهو ابنك؟ وقد تبيّن لي أن السفير لا يبرح السفارة إلاّ إلى النوادي والملاهي، ولا يتّصل بمسؤولي البلد إلا نادرا.

وحصلت مشكلة بين طلاب دولة عربية يدرسون في جامعات دولة عربية أخرى، فحُجز على جميع الطلاب دون تفريق بين مذنب وبريء. ولم يستطع سفير الدولة التي حُجز على طلابها التوسط لإطلاق سراح المحتجزين، لأنه كان لا يعرف المسؤولين، وعمل على إطلاق سراحهم رجل من بلدهم ليس سفيراً، ولكن مكانته في ذلك البلد العربي التي أحرزها باستقامته وعلمه جعلته أكبر من السفير.

والبلاد العربية لا تخلو من الكفاءات العالية، فلا أدري لماذا لا يختار المسؤولون من هؤلاء مَنْ يعمل في السّفارات العربيّة داخل الوطن العربي وخارجه، لترتفع مكانة الدول العربية من جهة، ولتُصان مصالحها المشروعة من جهة أخرى.

إنّ الأمل في اختيار الرّجل المناسب للعمل المناسب، يراود مَنْ يحبّ العرب والمسلمين حقّاً وللعرب والمسلمين بعامة، وللذين بيدهم القرار في اختيار العاملين في السفارات العربية والإسلامية بخاصة، أقدِّم سفراء النبي ﷺ، الذين اختارهم قبل خمسة عشر قرناً، لنعرف جميعاً أي نوع من الرجال كانوا، وما هي سماتهم التي أهّلتهم لتولي مثل هذا المنصب الرفيع؟

ذلك هو أحد هدفين رئيسين، كانا الحافزين لي في اختيار موضوع هذا الكتاب، وهو: سفراء النبي ﷺ، فالنبي ﷺ هو المعلّم الأول لهذه الأمة، ولا يزال وسيبقى ما بقي الإسلام والمسلمون.

أما الهدف الثاني، فهو خدمة السِّيرة النبوية في ناحية مهمة من نواحيها، قد تسدّ حاجة وتملأ فراغاً في المكتبة العربية الإسلامية،

ينبغي ألا يبقى بعد اليوم بإذن الله.

لقد ورد ذكر رسل النبيّ ﷺ وهم سفراؤه في المصادر المعتمدة، وأوفى مَنْ عَدَّدَهُم الإمام النَّوَوي المتوفى سنة (٦٧٦ هـ) في كتابه المعروف: (تهذيب الأسماء واللغات) فقال: «أرسل عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِي إلى النَّجاشي، فأخذ كتاب رسول الله ﷺ ووضعه على عينيه، ونزل عن سريره فجلس على الأرض، ثم أسلم حين حضره جعفر بن أبي طالب وحَسُنَ إسلامه. وأرسل صلى الله عليه وسلم دِحْيَة بن خَلِيْفَة الكَلْبي بكتابٍ إلى هِرَقْل عظيم الرُّوم. وعبد الله بن حُذافة السَّهْمِيَّ إلى كِسْرى فارس، وحاطِب بن أبي بَلْتَعَة اللَّخمِيّ إلى المُقَوْقس ملك الإسكندريَّة ومِصْر، فقال خيراً وقارب أن يُسْلِم، وأهدى لرسول الله ﷺ مارية القِبْطِيَّة، وأُختها سِيرين فوهبها رسول الله ﷺ لحسّان بن ثابت وأرسل عمرو بن العاص إلى مَلِكَي عُمَان فأسلما، وخلَّيَا بين عمرو وبين الصَّدقة والحكم فيا بينهم، فلم يزل عندهم حتى تُوفِّي رسول الله ﷺ. وأرسل سَلِيْط بن عمرو العامِريّ إلى اليَمامة إلى هَوْذَة بن علي الحَنَفِيّ، وأرسل شجاع بن وَهْب الأَسَدي إلى الحارث بن أبي شَمِر الغَسَّانِي ملك البَلْقاء من أرض الشَّام، وأرسل المُهاجر بن أبي أُمَيَّة المخزومي إلى الحارث الحِمْيري، وأرسل العلاء بن الحَضْرَمِي إلى المنذِر بن سَاوَى ملك البحرين فصدّق وأسلم. وأرسل أبا موسى الأَشْعَرِي ومعاذ بن جَبَل إلى جُمْلَة اليمن داعيين إلى الإسلام، فأسلم عامة أهل اليمن ملوكهم وسوقتهم»[١].

وقلت: وأوفى مَنْ عَدّد رسل النبي ﷺ هو الإمام النَّووي رحمه الله، لأنه أضاف إليهم أبا موسى الأشعري، وكان مصيباً في إضافته إليهم، لأن النبي ﷺ أرسله ومُعَاذ بن جَبَل إلى اليمن في واجب واحد، في

---

١) تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٠).

وقت واحد، فهما رسولا النبي ﷺ إلى اليمن كما قرّر الإمام النّووي، وأخذت بهذا الرأي المصيب، وأضفت أبا موسى الأشعري إلى قائمة الرُّسل النّبويين.

ولكنّ الإمام النووي لم يذكر جَرِيْر بن عبد الله البَجَلِيّ مع جملة مَن ذكرهم من رُسل النبي ﷺ، وذكره بينهم غيره من ثقات المصنِّفين في مصادرهم المعتمدة[1]، ولا شك في أن جريراً أحد رُسل النبي ﷺ، فذكرته من الرسل أيضاً، وأضفت سيرته إلى سيَرهم.

وقد بعث النبي ﷺ عمرو بن حَزْم الأنصاري إلى بني الحارث بن كَعْب في نَجْران رسولا، ليفقِّههم في الدِّين، ويُعلِّمهم السُّنَّة النبويّة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم[2]، وبعث معه كتاباً على جانب عظيم من الأهمية[3]، لا تقل أهميته عن الكتاب النبوي الذي حمله مُعَاذ بن جَبَل إلى اليمن، وذِكْرُ الكتاب النبوي الذي حمله عمرو بن حزم مشهور في كتب الحديث والفقه والتاريخ وغيرها، ولا يزال العمل به قائماً منذ كُتِبَ حتى اليوم، وسيبقى العمل به قائماً ما بقيت السُّنَّة النبويّة المطَهّرة. وكان واجب عمرو بن حزم في اليمن كواجب مُعَاذ بن جَبَل وأبي موسى الأشعري تماماً، كما أنَّ الكتاب النبوي الذي حمله عمرو بن حزم إلى أهل نجران في أهميته وأثره وتأثيره كالكتاب النبوي الذي حمله مُعاذ بن جبل إلى أهل اليمن، ولذلك أدخلت عمرو بن حزم لأول مرة في قائمة رسُل النبي ﷺ.

وكان النبي ﷺ قد أذن للمسلمين بالهجرة إلى أرض الحبشة من

---

(١) طبقات ابن سعد (١/٢٦٥ - ٢٦٦) والمحبَّر (٧٥).

(٢) الطبري (٣/١٢٨).

(٣) انظر نص الكتاب في سيرة: عمرو بن حزم الأنصاري.

مكّة تخلّصاً من أذى المشركين واضطهادهم للمسلمين، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة في السنة الخامسة من النبوة، أي في السنة الثامنة قبل الهجرة، مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت هذه الهجرة أوّل هجرة في الإسلام، وهي الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة[١].

وكان جعفر بن أبي طالب أحد المهاجرين الأولين إلى أرض الحبشة[٢]، ومعه كتاب نبويّ إلى النجاشي ملك الحبشة[٣]. وكان جعفر أمير المؤمنين على المهاجرين إلى أرض الحبشة، فدافع عن المسلمين والإسلام هناك، ودعا إلى الإسلام وكان النجاشي ضمن مَنْ أسلم على يدي جعفَر[٤] كما هو معروف، وسهر على مصالح المسلمين في أرض الحبشة، وقدم بهم من أرض الحبشة إلى المدينة بأثر فتح خَيْبَر[٥]، فأدى واجبه سفيراً نبوياً بما لا يقل عن رسل النبي ﷺ، لذلك أدخلته في قائمة رُسُل النبي ﷺ، ولا أعلم سبباً واحداً لإغفال ذكره من المصنِّفين في قائمة الرُّسُل النبويين إلى الملوك والأمراء في تلك الأيام.

وأخيراً ،أضفت إلى قائمة رُسُل النبي ﷺ الحارث بن عُمَيْر الأَزْدِيّ، رسول النبي ﷺ إلى ملك بُصْرَى الغَسَّاني[٦]، فعرض له شُرَحْبِيْل بن عمرو الغَسَّانِيّ في موقع مُؤْتَة وضرب عنقه صبراً، ولم يُقْتَل لرسول الله ﷺ رسول غيره. وبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فاشتد عليه،

---

(١) سيرة ابن هشام (٣٤٣/١)، والطبري (٣٢٩/٢).

(٢) أسد الغابة (٢٨٧/١) والإصابة (٢٤٨/١) والاستيعاب (٢٤٢/١).

(٣) الطبرى (٦٥٢/٢) وصبح الأعشى (٣٧٩/٦).

(٤) ابن الأثير (١١٣/٢).

(٥) الدرر (٢١٨).

(٦) أسد الغابة (٣٤٣/١) والإصابة (١٩٩/١) والإستيعاب (٢٩٨/١) وانظر مغازي الواقدي (٧٥٥/٢).

وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ومَنْ قتله، فأسرع الناس وخرجوا، فكانت معركة مُؤْتَة[1]، وكان مقتل الحارث السبَب المباشر لهذه المعركة.

وقد نص المصَنِّفون المسلمون القُدامى والمحدثون وغيرهم، على أنّ الحارث هو الوحيد من رُسُل النبي ﷺ الذي قُتل: «ولم يُقْتَل لرسول الله ﷺ رسول غيره»، كما جاء في المصادر العربية والإسلامية كافة وفي غيرها أيضاً، فهو الرّسول النَبَويّ الشَّهيد من بين جميع سفرائه الآخرين، فكان ينبغي أن يحظى بالتقدير الذي لا يقل عن السفراء النبويين الذين لم يُقتلوا، فيدرج اسمه في قائمة رُسُل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء في أيامه، ولكن اسمه لم يُدرج في قائمة رُسُل النبي ﷺ، إلاَّ أنَّ النَّص على سفارته جاءت عرضاً في معركة مؤْتَة، باعتباره السبب المباشر لهذه الملحمة المشهورة، فاستخرجت هذا النص، وعكفت على المصادر التي تحدّثت على حياته، وجمعت شتات شذرات ما ورد عنه في تلك المصادر، حتى استقامت لمن يقرأ سيرته سفيراً شهيداً، وأدرجت اسمه في قائمة رُسُل النبي ﷺ، ليكون شاهداً أن الشهادة في سبيل الله لم تقتصر على المجاهدين، بل شملت الرُّسل الذين لا يُقتلون، كما ينص على ذلك العرف قديماً والقانون الدولي حديثاً، وطالما قرأنا في المصادر المعتمدة مواقف تعرّضت فيها حياة السفير للموت، ولكن صاحب السلطان أحجم عن إنزال عقوبة الموت به قائلاً: «إنك تستحق الموت، لولا أن الرُّسُل لا يُقتلون».

وهذه هي قائمة الرسُل النبويين كما استقامت لي في هذا الكتاب.

---

(١) مغازي الواقدي (٧٥٥/٢ - ٧٥٦) وأسد الغابة (٣٤٢/١) والإصابة (١٩٩/١) والإستيعاب (٢٩٨/١).

سفراء (رُسُل) النبيّ صلى الله عليه وسلم
إلى ملوك وأمراء زمانه

التسلسل	اسم السَّفير	اسم الملك أو الأمير	التوقيت بالهجري	الملحوظات
١	جعفر بن أبي طالب	النجاشيّ ملك الحبشة	٨ ق. هـ	١. أول سفير في الإسلام ٢. أسلم النجاشي الأول
٢	عمرو بن أُميَّة الضَّمْريّ الكِنَانِيّ	النّجاشِيّ ملك الحبشة	أواخر سنة ٦ هـ	أسلم النَّجاشي الثاني أيضاً
	دِحْيَة بن خليفة الكَلْبِيّ	هِرَقْل قيصر الرُّوم	أواخر سنة ٦ هـ	صرف السفير النبوي بالحسنى
٤	عبد الله بن حُذَافة السَّهْمِيّ	كسرى أبرويز بن هرمز ملك الفُرس	أوائل سنة ٧ هـ	مزق الكتاب النبوي
٥	حاطِب بن أبي بَلْتَعَة اللَّخْمِي	المُقَوْقس ملك مصر	أواخر سنة ستٍ هـ	أهدى للنبي ﷺ وصرف السَّفير النبوي بالحُسنى
٦	شُجاع بن وَهْب الأَسَدِيّ	الحارث بن شِمَر الغسَّاني ملك الغساسنة بالشّام	أواخر سنة ٦ هـ	لم يُسْلِم
٧	سَلِيْط بن عمرو العامِري القُرَشِي	هَوْذَة بن علي الحَنَفِيْ ملك اليمامة	أواخر سنة ٦ هـ	أسلم
٨	عمرو بن العاصي القُرَشِيّ السَّهْمِيّ	جَيْفَر وعَبْد ابنا الجُلُنْدِي في عُمَان	أواخر سنة ٨ هـ	أسلما

٩	العلاء بن الحضْرَميّ	المُنْذِر بن سَاوَى العَبْدِي في البحرين	أواخر سنة ست هـ	أسلم
١٠	الحارث بن عُمَيْر الأزديّ	ملك بُصْرى في الشَّام	أواسط سنة ثمان هـ	استُشهد السَّفير النَّبوي قبل وصوله إلى ملك بصرى
١١	المهاجر بن أبي أميَّة القُرشي المخزومي	الحارث بن عبد كُلاَل الحِمْيَري في اليمن	سنة تسع هـ	أسلم
١٢	جرير بن عبد الله البَجَليّ	ذو الكلاع وذو عمرو في اليمن	سنة ١١ هـ	أسلما
١٣	مُعَاذ بن جَبَل الأنصاري الخزرجيّ	الحارث وشُرَحْبيل ونُعَيم بن عبد كُلال	أواخر سنة ٩ هـ	أسلموا
١٤	أبو موسى الأشْعَريّ	الحارث بن عبد كُلاَل وإخوته	أواخر سنة ٩ هـ	أسلموا
١٥	عمرو بن حَزْم الأنْصاري الخزرجيّ	الحارث بن عبد كُلاَل وإخوته وبنو الحارث ابن كعْب في نجْران	أواخر سنة ١٠ هـ	أسلموا

لقد بلغ عدد السّفراء النبويين خمسة عشر سفيراً، استشهد واحد منهم فقط وهو في طريقه إلى ملك بُصْرى، فقتل قبل أن يُبلّغ رسالته النبويّة إلى ملك بُصْرَى.

ومُزِّقت رسالة نبويَّة واحدة، ولم تمزّق غيرها من رسائل النبي ﷺ، حتى من الذين لم يُسْلِموا.

ورفض اعتناق الإسلام بشدة وبالتهديد، كسرى أبرويز بن هرمز ملك الفُرس، والحارث بن شَمِر الغَسَّاني ملك الغساسنة في الشام.

وصرف بالحسنى السَّفير النبوي كل من هِرُقْل قيصر الرّوم، والمقوقس ملك مصر، وقدّم المقوقس هدية للنبي ﷺ.

ومعنى ذلك، أنَّ أربعة من الملوك بقوا على دينهم ولم يُسلموا، إلا أن ملكين منهم صرفا سفيري النبي ﷺ بالعنف، وملكين منهم صرفا سفيري النبيّ ﷺ بالحُسْنَى.

وقد أسلم الملوك الآخرون، وأسلم مع قسم منهم كثير من أتباعهم؛ وأسلم مع قسم منهم قليل من أتباعهم، أي أن المسلمين أصبحوا الأكثرية في قسم من تلك الأقطار، بينما بقي المسلمون أقلية في القسم الباقي من تلك الأقطار.

وإذا أردنا أن نعبِّر بدقّة أكثر من تعبيرنا الأول حول انتشار الإسلام بالسفارات النبوية، فلا بد أن نذكر أنه انتشر انتشاراً واسعاً في تسعة أقطار هي: اليمامة، وعُمَان، والبحرين، واليمن في أربع مناطق شاسعة منها وحَضرموت، وكان انتشاره محدوداً في الحبشة، لأن إسلام النَّجاشي لا يؤدي بالضرورة إلى إسلام شعبه كافة، إذ: **﴿لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغيّ﴾**[1]، والتشكيك في إسلام النّجاشي

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢: ٢٥٦).

لأن قومه لم يُسْلِموا جميعاً لا يصدر إلاَّ من فكرٍ لا يفهم تعاليم الإسلام، أو يفهم تعاليم غير الإسلام، فيطبق ما فهمه من تعاليم دينه على تعاليم الإسلام، وهذا خطأ شنيع يدل على جهل مطبق أو تعصّب مقيت، لأن تعاليم الإسلام في الدعوة إلى اعتناقه تختلف اختلافاً عظيماً عن تعاليم الأديان الأخرى، فالإسلام لا يكره أحداً على اعتناقه.

ونعود إلى الذين لم يستجيبوا للإسلام من الملوك، لنعرف أسباب عدم استجابتهم.

ونبدأ بالملكين اللذين لم يُسلما، وصرفا السفيرين النبويين بالعنف، أولهما كسرى أبرويز، وكـان معروفـاً بـالصّلـف والعنجهيّـة والتكبُّر والتهوّر، فساقته هذه العيوب إلى أن يخسر ملكه وحياته في ثورة قادها عليه ابنه. كما أنه كان يرى العربي يُقاد ولا يقود، لأن الذين تعامل معهم من العرب من هذا الصنف، ولم يسبق له التّعامل مع العرب الذين يقودون ولا يُقادون، لأنهم كانوا حريصين على كرامتهم وحريتهم، فلم يتعاملوا مع ملك ظالم مستبد لا يعرف للناس حقوقهم، وابتعدوا عن السّلطة نهائياً كما يبتعد السّليم عن الأجرب.

أما الثاني، فهو الحارث بن شَمِر الغَسَّاني ملك الغسَاسنة بالشام، وكان أمره ليس بيده بل بيد سيِّده ملك الروم هرَقل، وكان لا يفكر بعقله بل بعقل سيِّده، فيفعل بما يتوقع أن يُرضي به سيِّده لا بما يُرضي به عقله وضميره. وقد افتعل الحماسة في مجابهة السفير النبوي وهَدّد وتوعّد وأرعد وأزبد، فلما عرف أنّ هرقل لا يرضى عن حماسته المفتعلة أصبح غضبه حلماً، وتشدده تساهلاً، وأكرم السفير النبوي وأعاده إلى المدينة سالماً.

أما هرقل والمقوقس اللّذان لم يُسلما، ولكنهُما أعادا السفيرين النبويين بالحسنى، فكانا يخافان على ملكهما وحياتهما من شعبهما، فهما مهتمّان

بشخصيها ومصالحها قبل اهتمامها بشيء آخر.

ومع ذلك، فإن معاملتها للسفيرين النبويين بالحُسنى، دليل على أن السفيرين لم يخفقا في مهمتها، بل نجحا في أداء واجبها على أحسن وجه.

كما أنّ السفيرين النبوّيين اللّذين قصدا كسرى وملك الغساسنة أخفقا لا لأنهما لم يحرصا على أداء واجبهما، بل كان إخفاقهما لأسباب خارجة عن إرادتهما، ولا سبيل لهما ولا لغيرهما للتغلب على تلك الأسباب.

وإذا تبَيّن لنا أن هذين السفيرين لم يُخفقا أيضاً، بل نهضا بواجبهما على أحسن وجه وبأحسن صورة، فإن السفراء النبويين الآخرين، وهم ثلاثة عشر سفيراً، نجحوا في أداء مهاتهم نجاحاً باهراً.

وكان من عوامل هذا النجاح الباهر المتميز، هو اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب، فقد كان اختيار السّفراء النبويين موفقاً حقّاً، وكانوا عند حسن الظن بهم، لهم سمات خاصة أهّلتهم لتحمّل أعباء واجباتهم الثقيلة الصّعبة بكفاءة واقتدار في أقصى الظروف والأحوال.

وموضوع سِمات سفراء النبي ﷺ، يستحق الدِّراسة الجدِيَّة من أجل تأريخ الأسوة الحسنة للمسلمين في نبيّهم عليه الصلاة والسلام، ومن أجل ماضي المسلمين وحاضرهم ومستقبلهم عبرةً للحاضر وللمستقبل.

والعبرة من عرض سمات السُّفراء النبويين للحاضر والمستقبل، تكون للذين بيدهم القرار في تولية السُّفراء ومَنْ يعمل معهم، وللسّفراء ومَن يعمل معهم بخاصة، حتى يُحسن الملوك والرؤساء والأمراء اختيار السُّفراء ومَنْ يعمل معهم بهدي سِمات سفراء النبي ﷺ، وحتى يبيِّض السفراء ومن يعمل معهم وجوه من اختاروهم للعمل في السفارات ووجوه أمّتهم التي ينتسبون إليها، ولا يسوِّدوا وجوه مَنْ اختاروهم ووجوه أُمتهم التي ينتسبون إليها، ويسهرون على مصالحها. والعبرة أيضاً تكون لكل فرد من أفراد الأمة حاكماً ومحكوما، وقائداً ومقوداً، وسيِّداً

ومسوداً، بعامة، حتى يعرف كلّ فرد في الأمة، كيف ينبغي أن تكون سمات السُّفراء ومَن يعمل معهم، ويمكن أن ينهضوا بواجباتهم بقوة وأمانة وإخلاص، لمصلحة الأمة والبلاد التي يمثلونها.

وهذه العبرة تؤخذ من دراسة كلُّ سفير نبويّ من سفراء النبيﷺ، فلكلّ سفير من أولئك السفراء سمات خاصة به، وفي خاتمة الكتاب جمعت تلك السمات المشتركة في بحث مستقبل ليكون البحث عبرة أيضاً، وجعلت هذا البحث المستقل في سمات سفراء النبيﷺ، العامة، خاتمة هذا الكتاب.

أما مقدَّمة هذا الكتاب، فقد بحثت في: السَّفارات النبوية، ذكرت فيها كلّ سفارة نبوية من سفارات النبيﷺ في فقرتين: الأولى حول الملك أو الأمير الذي قصده السفير النبوي، في تفاصيل سيرته المتيسر في المصادر العربية والأجنبية المعتمدة، تظهر أي نوع من الرجال كان، وما هي حقيقته. وقد كانت المصادر المعتمدة التي تتحدّث على رُسُل النبيﷺ، تقتصر على ذكر اسم الملك أو الأمير الذي قصده السفير النبوي ولا تعطي تفاصيل حياته، فحاولت أن أتلافى هذا النقص ما استطعت إلى ذلك سبيلا، لاستكمال صورة السفارة النبوية جهد الإمكان، خاصة بالنسبة للدارسين المحْدثيْن الذين يميلون إلى الاطلاع على التفاصيل وعدم الاكتفاء بالإيجار المُخِلّ الذي لا مسوِّغ له.

أما الفقرة الثانية، فحول السفير النبوي والرسائل النبويّة، وجهود السفير في سفارته، وثمرات جهوده، دون الدخول في تفاصيل حياة السفير الأخرى، فتلك التفاصيل مكانها في سيرته التي ترد في متن الكتاب تباعا..

ولأن حجم الكتاب أصبح ضخماً، فلا بد من تقسيمه إلى جزءين، والسفارات النبوية هي مقدمة الكتاب كلَّه لأهميتها الكبيرة، ولكن

موضعها جاء في مقدمة الجزء الأول من سفراء النبي ﷺ.

وكان للنبي ﷺ كُتَّاب، كتبوا الرّسائل النبوية إلى الملوك والأمراء، فدرست أخبارهم وسجّلتها، كما درست ما ورد عن: الخاتِم النبويّ، والمواد التي كتبت عليها الرّسائل النبويّة بخاصة والمخطوطات النبوية بعامة، والخط الذي كتب به كُتّاب النبي ﷺ الرسائل النبوية وغيرها من المخطوطات، وجعلت هذا البحث خاتمةً للجزء الأول من: سفراء النبي ﷺ.

وقد عثر على قسم من رسائل النبي ﷺ في أماكن مختلفة، فجرت دراسات وبحوث تدور حولها وحول الرسائل النبوية عامة، فكان لزاماً عليَّ دراسة تلك البحوث واستقطاب أهم محتوياتها وإبداء الرأي فيها، فكان بحث: السفارات النبوية في الدراسات الحديثة، وكان مكان هذا البحث في مقدمة الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وقد ذكرتُ أن بحث: سمات سفراء النبي ﷺ، كان خاتمة الكتاب، وكان مكانه في خاتمة الجزء الثاني من هذا الكتاب.

والحمد لله الذي يسَّر لي العمل في تأليف هذا الكتاب عِدة سنوات، بدأت من مطلع القرن الخامس عشر الهجري، وانتهت بتوفيق الله وتسديده في شهر رمضان المبارك من سنة ١٤٠٥ هـ، ولا أرى أنني أحسنت في التأليف، وعذري أنني بذلت قصارى جهدي وتفرغت له تفرغاً كاملاً، فإن أصبتُ فالفضل لله وحده وما توفيقي إلا بالله عليه توكّلت وهو حسبي، وإن أخطأت فمن تقصيري وعجزي ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ونيّتي استكشاف نواحٍ جديدة من السِّيرة النبوية العطرة، في سفرائه عليه الصلاة والسّلام، أملاً في خدمة هذه السِّيرة المطهرة أولاً، وفي الاقتباس من دروسها الباقية لحاضر العرب

والمسلمين ثانيا، «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى**»[1].

والله أكبر كبيرا، والحمدلله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا.

وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله، وعلى آله وأصحابه أجمعين. ورضي الله عن قادة النبيﷺ وجنوده، وسفرائه وكتّابه وأمرائه وقضاته وجباته.

ورضي الله عن قادة الفتح الإسلامي وجنوده، وقادة الفكر وجنوده، وعن كلّ مَنْ خدم العربية لغةً والإسلام ديناً، لإعلاء كلمة الله في الأرض.

وآخر دعوانا أنْ الحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) أخرجه الخمسة، انظر تيسير الوصول إلى جامع الاصول من أحاديث الرّسولﷺ (٢٨٢/٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

السَّفارات النبوية

مُستَهل

١. الهدف والمعنى

كان هدف السفارات النبوية هو الدَّعوة إلى اعتناق الدِّين الإسلامي، فكان سفراء النبي ﷺ الذين بعثهم إلى الملوك والرؤساء في زمانه دُعاة إلى الإسلام[١]، ولكنّهم صَفوة الدُّعاة إلى الله، لأن إسلام ملك أو رئيس يؤثر تأثيراً عظيماً في أتباعه، لذلك كان سفراء النبي ﷺ هم صفوة الدُّعاء المسلمين من الصّحابة. وإذا كان الدّعاة هم صفوة الصَّحابة، فإن السُّفراء هم صَفوة الصَّفوة.

وقد أطلق المؤلفون القُدامى على أولئك السّفراء تعبير: الرُّسل، فقالوا: «خروج رُسُل رسول الله ﷺ إلى الملوك»[٢]، ولكن المؤلفين المحدَثين أطلقوا عليهم تعبير: السُّفراء، لأن الرّسول الذي يُرسِل من مسئول ما إلى مسئول آخر أجنبي يُسمّى: سفيراً، بموجب المصطلحات السياسية الحديثة، فهو: «مبعوث يمثل الدولة لدى رئيس الدولة المبعوث

(١) سيرة ابن هشام (٢٧٨/٤) وطبقات ابن سعد (٢٥٨/١) والطبري (٦٤٤/٢).
(٢) سيرة ابن هشام (٢٧٨/٤) وطبقات ابن سعد (٢٥٨/١) والطبري (٦٤٤/٢).

إليها »[1]، كما أن المؤلفين المحدثين أطلقوا تعبير: السفير على الرّسول، لأن تعبير السفير أصبح شائعاً كثير الاستعمال، يتردد استعماله كثيراً في أجهزة الإعلام المختلفة وفي التخاطب والحوار بين الأفراد والجماعات أيضاً.

ومصطلح السَّفير معروف في العربية الفصحى قديماً، ففي حديث عليّ ابن أبي طالب إلى عثمان بن عفّان رضي الله عنهما أنه قال لعثمان: « إن الناس قد استَسْفروني بينك وبينهم »، أي جعلوني سفيراً، وهو الرّسول المصلح بين القوم[2]، أي أنّ السفير هو الرسول والمصلح بين الناس[3]، ومعنى السَّفير في العربية الفصحى، يقارب معناه في المصطلحات السياسية الحديثة المعتمدة في القانون الدولي، كما أن معناه قديماً يشابه معناه حديثاً، كما يطابق في معناه هدف السَّفير النبوي في مطابقة الصَّلاح والإصلاح، الدعوة إلى الإسلام، فهو رسول مصلح كما جاء معناه في المعجمات العربية القديمة والحديثة.

ولكنّ تقارب المعنى وتشابهه وتطابقه من الناحيتين اللّغوية والنّظرية شيء وتناقضه واختلافه وتباعده من الناحيتين التّطبيقية والواقعيّة شيء آخر، فالواقع أن السّفير الاعتيادي قديماً وحديثاً له واجباته المعروفة في الإصلاح والصّلاح وفي الإفساد والفساد أيضاً، وتلك الواجبات تتّصل بأمور الدنيا المادية وبمصالح السياسة والحرب والسّلام بخيرها وشرّها. أما السّفير النبوي، فلا شأن له بأمور الدنيا المادّية ومصالحها السياسية والحربية، وشأنه كلّه بأمور الدين الحنيف وحده،

---

(١) المعجم الوسيط (٤٣٣/١)، وهذا هو التعريف المعتمد في مصادر القانون الدولي الحديث.

(٢) لسان العرب (٣٥/٦).

(٣) لسان العرب (٣٥/٦) ومعجم متن اللّغة (١٦٢/٣) والصّحاح في اللغة والعلوم (٥٩١/١).

فهو مصلح بحقّ، يستهدف الإصلاح والصّلاح بالدعوة إلى الله وحده لا شريك له، ومعناه في اللّغة يطابق هدفه في العمل، ولا خلاف بين معناه ومبناه في شيء، ولا بين شطريه النظريّ والتّطبيقيّ، فلا يريد إلاّ الهداية والخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

٢. قبل الإسلام

كان الاتصال بين مختلف الأمم والشّعوب والدول بالسّفراء والسّفارات معروفاً منذ أقدم العصور، وكان الاتّصال بين الدول العربية وسلطات المدن العربية وسلطات القبائل العربية معروفاً منذ أقدم العصور مع الدول الأجنبية بالسّفراء والسّفارات أيضاً.

والمهم هنا التركيز على الاتّصال العربي بالسُّفراء والسّفارات في شبه الجزيرة العربية في الجاهلية وبخاصة الاتصال بين قريش قبيلة النبيﷺ والقبائل العربية الأخرى واتّصالها بالدول الأجنبية، حتى نعرف الاختلاف بين أهداف السّفراء والسفارات العربية قُبيْل الإسلام، وأهدافها في السّفراء والسّفارات النبوية.

لقد عرف العرب نظام السّفارة بينهم وبين غيرهم من القبائل والأمم والشعوب والدول المجاورة، وكان من الطبيعي أن تكثر الوفادات والسّفارات في تاريخ العرب قُبَيْل الإسلام، للخروج من عزلتهم في شبه الجزيرة، ولتبادل المصالح مع جيرانهم، فضلاً عن حاجتهم إلى كسب الأنصار في المعارك الناشبة بين القبائل، أو لوضع حد للقتال، فحققت السّفارات أغراضها لهم في السّلام والحرب تارة ولم تحققها تارة أخرى.

وساعد على ازدهار السّفارات العربيّة، ودخول العرب في علاقات ودّية مع جيرانهم، الموقع السَّوْقي[1] لشبه الجزيرة العربية الناشىء عن

(١) السوقي: الاستراتيجي. والسّوقيّة: الاستراتيجية (STRATEGY)، أنظر المعجم العسكري الموحّد (١/٨٤٢).

متاخمتها مراكز الحضارات القديمة في العالم، وهي الحضارة الآشورية في العراق، والحضارة الفينيقية في الشّام، والحضارة الفارسية في بلاد الفُرس، وقرب الجزيرة من الحضارة الفرعونية في مصر. وكانت أكثر الدول صلة بالعرب دولتا الفُرس والرُّوم، وكانتا أكبر قوّتين سياسيتين وعسكريتين في العالم حينذاك، لذلك توالت السّفارات السياسية بين حكام هاتين الدولتين وبين القبائل العربية والسُّلطات العربية المحلِّية، لعقد المحالفات والاتفاقات المختلفة.

وكما كانت وحدة اللّغة باعثاً على توثيق صلة العرب ببعضهم، فإن مركزهم التجاري المتميِّز بين الممالك والبلاد الأخرى شرقاً وغرباً وشمالاً، كان باعثاً على الاتصال المباشر وقيام العلاقات الودّية بين العرب من جهة والأمم الأخرى من جهة أخرى. فقد كانت شبه الجزيرة العربية ممرّا للقوافل التجارية التي كانت تتّخذ عدّة طرق أهمها طريقان حيويان أساسيان: أولهما الطريق الشَّرقي، الذي يتاخم الخليج العربيّ ماراً بنهر دجلة مقتحماً بادية الّشام إلى فلسطين. والثاني الطريق الغربيّ، الذي يتاخم البحر الأحمر. وعن هذين الطريقين، كانت تنتقل صادرات الغرب إلى الشرق، وصادرات الشرق إلى الغرب. وقد اقتضت هذه التجارة الدخول في محادثات لعقد الاتّفاقات بين العرب وغيرهم، وأتاح موقع شبه الجزيرة العربية لسكانها العرب مكانة تجاريّة متميِّزة في العالم المعروف يومئذ، فلا غرابة أن تحفل كتب التاريخ بأخبار سفراء العرب إلى الملوك ووفاداتهم ومفاوضاتهم، وأخبار سفـراء الملوك إلى العرب تخطب ودّهم وترجو معاونتهم وتعاونهم وتطلب مؤازرتهم.

وإلى جانب العلاقات التجارية الخارجية بين العرب وبين البلاد المجاورة، كان هناك علاقات مماثلة بين العرب داخل شبه الجزيرة العربية، فكان هناك شريان تجاري يصل بين اليمن جنوباً ومكة شمالا. وقد ورد في القرآن الكريم ذكر هذه الحركة التجارية بين مكة والشام

شمالاً، وبين مكّة واليمن جنوباً بالإشارة إلى رحلة الشتاء والصيف.

ومن الطبيعي أن هذه الحركة كانت تتطلب اتصالات واتّفاقات بين القبائل العربية بعضها ببعض، وبين العرب والممالك والبلاد الخارجية الأخرى، في سبيل توطيد العلاقات التجارية على أسس رصينة مضمونة.

وممّا يسّر هذه الاتّصالات، أن بلاد الشّام في الشّمال، وشبه الجزيرة العربية في الجنوب، كانتا تضمّان أعظم المقدسات الدينية: بيت المقدس في مدينة القدس، والكعبة بيت الله الحرام في مكّة، يؤمها الحجّاج والزوّار في موسم الحج ومواسم الزيارة من كلّ عام، وكانت السّلطات في داخل الجزيرة العربية وفي خارجها، تنتهز فرصة حلول موسم الحج ومواسم الزيارة لعقد اللّقاءات وإبرام الاتّفاقات والمصالحات والمحالفات، وكان السّفراء ينشطون في أيام تلك المواسم لتحقيق أهداف السّلطات التي يعملون في خدمتها في تحقيق مصالحها التجارية والسياسية والعسكريّة.

وقد وُجد في كتابات سَدّ مأرب[1]، ما يفيد قدوم سفارات على أبرَهَة[2] من شتى الأمصار والممالك سنة (٥٤٣) ميلاديّة، إثر انتصاره على الحميريين من أهل اليَمَنْ وتأسيسه أوّل دولة مسيحيّة في اليمن، وهذا نصّ ما على السدّ من الكتابات في قصة تلك السّفارات: «وجاءت إليهم سفارة النجاشيّ، وسفارة الروم، وسفارة ملك فارس، ومبعوث

---

(١) سد مأرب: سد مشهور في اليمن من سدود الرّي القديمة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٥٤/٧ - ٣٦٠)، وهناك محاولات حديثة لاستعادة بناء السد في مكانه للرّي.

(٢) أبرهة: انظر سيرته في دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي (١٨/١ - ٢٠).

المنذر[١]، ومبعوث الحارث بن جبَلَة[٢]، ومبعوث أبي الخير بن جبلة[٣]، جميعهم طلبوا مودّتنا بقوة من لدن الرّحمن »[٤] وهذا دليل على أن للعرب سفارات خارجية مقابلة للسفارات التي ترد إليهم.

وعُرف من سفارات قريش في الجاهلية، سفارة عبد المطلب بن هاشم جدّ رسوله الله ﷺ إلى أبرهة، عامل النجّاشي على اليمن[٥]، وكان أبرهة على رأس جيشه من الحبشة وحلفائهم قد وصل إلى ضواحي مكّة قاصداً هدم البيت الحرام الذي بمكة، لصرف العرب عن الحج إلى مكة إلى البيت الذي بناه في اليمن[٦]، ففاوض عبد المطلب أبرهَة على ردّ الإبل التي استولت عليها طلائع جيش أبرهة، فردّ أبرهة على عبد المطّلب إبله[٧]، وكان ذلك في عام الفيل الذي ولد فيه النبيّ ﷺ سنة (٥٧١) للميلاد[٨].

وعرف من سفارات قريش في الجاهلية سفارتان لعمرو بن العاص إلى النّجاشي ملك الحبشة: الأولى في السنة الخامسة للنبوّة، لردّ المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة - إلى مكة، والثانية في السنة السّادسة

---

(١) المنذر: ملك المناذرة في الحيرة من بني لخم، وكان ملوكهم يسمون: المنذر، فأطلق عليهم المناذرة.

(٤) أنظر نسبه في: جمهرة أنساب العرب (٣٧٢)، وكان من رؤساء القبائل اليانية.

(٥) لم أجد له ذكراً في مصادر أنساب العرب المتيسرة، ومن المحتمل أنّه شقيق الحارث بن جبلة، وخاصة وأنه من جيله وموطنه.

(٤) حسن فتح الباب - مقومات السفراء في الإسلام (١٦ - ١٧) - القاهرة - ١٣٩٠ هـ.

(٥) سيرة ابن هشام (٤٢/١ - ٤٣).

(٦) سيرة ابن هشام (٤٣/١).

(٧) سيرة ابن هشام (٥٠/١ - ٥١).

(٨) أنظر كتابنا: ومضات من نور المصطفى (١٣).

الهجرية إلى النّجاشي ملك الحبشة أيضاً، لردّ المسلمين المهاجرين من أرض الحبشة إلى مكة، وقد أخفق عمرو في هاتين السّفارتين إخفاقاً كاملا[1]، إذا لم يستجب له النجّاشي ولم يتجاوب معه، فعاد إلى قريش خائباً.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يذهب في سِفارات قريش إلى غيرها من القبائل[2]، ولا نعلم أنه تولى سفارة خارجية لقريش. وقد كانت السّفارة إلى عمر بن الخطّاب: إن وقعت حرب بين قريش وغيرهم بعثوه سفيراً، وإن نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر، بعثوه منافراً أو مفاخراً ورضوا به[3]، فكان عمر آخر سفراء قريش في الجاهلية[4].

لقد كان أهم هدف للسفارات العربية هو توثيق الصّلات التجارية، وكان من جملة أهدافها توطيد العلاقات السياسية والمجاملات السياسية، وكان من جملتها عرقلة حريّة الدعوة إلى الإسلام، ومحاولة التنكيل بالمسلمين وتصفية الذين يصرّون على الإسلام ويرفضون الكفر بعد الإيمان.

وكان هدف السّفارات النبوية الوحيد، هو الدعوة إلى الإسلام، ولا علاقة لهم بالسياسة والتجـارة والأضرار بالناس من قريب أو بعيد.

وعلى ذلك، يكون هدف السّفارات النبوية مختلفاً جداً مع أهداف السفارات العربية قبل الإسلام وغيرها من السفارات الأخرى.

(١) انظر التفاصيل في سيرة عمرو بن العاص في كتابنا: سفراء النبي ﷺ.

(٢) محمد حسين هيكل - الفاروق عمر - (٣٣/١) - القاهرة - ١٣٦٤ هـ.

(٣) ابن الجوزي - تاريخ عمر بن الخطاب (٦) - القاهرة - بلا تاريخ.

(٤) مقومات السفراء في الإسلام (١٧)، ويمكن اعتبار عمر بن الخطاب سفيراً محلياً لقريش وليس سفيراً خارجياً، إذ لم يعرف عن قريش أنها أوفدت عمر إلى دولة أجنبية خارج شبه الجزيرة العربية كدولة الرّوم ودولة الفرس، بل اقتصرت سفارات عمر على القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية. ولم يرد ذكرٌ للقبائل التي قصدها عمر، ولا لمهماته في تلك القبائل، ولا لنتائج سفاراته.

إلى النَّجَاشِي[1]
ملك بلاد الحبشة

١ . النَّجَاشيّ
٢ . عام

كانت العلاقات بين جزيرة العرب والحبشة قديمة جداً ووثيقة، فقد كانت أرض الحبشة سوقاً رائجة لقريش، تتاجر في أرجائها وتكسب في أمن وسلام[2]. وكان أهم السّلع التّجارية التي تتاجر بها قريش: الأَدَم، والزَّبيب، والصّمغ، والطِّيب، والتِّبْر[3]، والبُرْد اليمانيّة[4]، والثياب العَدَنِيّة، والأسلحة، ومصنوعات الحديد والمعادن الأخرى[5].

---

(١) النّجاشيّ: لقب لكلّ مَن ملك الحبشة، وكلّ مَن ملك المسلمين يقال له: أمير المؤمنين، ومَن ملك الروم: قيصر، ومَن ملك الفرس: كسرى، ومَن ملك الترك: خاقان، ومَن ملك القبط: فرعون، ومَن ملك مصر: العزيز، ومَنْ ملك اليمن: تُبَّع، ومَنْ ملك حِمْير: قَيْل، وقيل: القيل أقلّ درجة من الملك، أنظر شرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم (٢/٣٣٧-٣٣٨) والروض الأنف (١/٢٠٤).

(٢) الطبري (٢/٣٢٨) وانظر الأغاني (٨/٥٢).

(٣) التِّبْر: فُتات الذهب أو الفضّة قبل أن يُصاغا.

(٤) البرد: كساء مخطّط يلتحف به (ج) أبراد، وأَبْرُد، وبُرُوْد. وهذا النوع من البرد يصنع في اليمن، ويستورد منها، ويصدّر إلى الحبشة.

(٥) تاريخ العرب قبل الإسلام (٧/٣٠٧).

ومن الواضح، أن قسماً من هذه السّلع تُنتج محلّياً، كالأدم، والزّبيب من عنب الطّائف، والصّمغ من أشجار الطائف أيضاً. أما بقيّة السّلع، كالطيب فتُستورد من الهند، أما البُرْد اليانيَّة والثياب العدنيّة والأسلحة وبخاصة السيوف، فتُستورد من اليمن، وكانت قريش من أنشط العاملين في التجارة، وكانت مكّة مركزاً تجاريّاً مهماً قبل الإسلام.

وكان لتدخّل الأحباش في المسائل الداخليّة لليمن بخاصة، آثاره على حياة العرب السياسيّة والثقافيّة، فعرفهم العرب مستعمرين، وأخذوا منهم الكثير من عاداتهم وطرقهم في التفكير، خاصة في مجال الدّين[1]. فهم يتذكّرون، أنّ الأحباش، حين أقدموا على غزو اليمن، كان يدفعهم إلى ذلك حرصهم على الدفاع عن المسيحيّة والمسيحيين على المتجبّرين من يهود اليمن، الذين ناصبوا المسيحيين العداء[2]، ولكنّهم بعد أن انتقموا للمظلومين النصارى من الظالمين يهود اليمن، استعمروا اليمن ردحاً طويلاً، حتى استعان أهل اليمن بالفُرس، فحلّوا في اليمن محلّ الأحباش، حتى جاء الإسلام، وطهّر المسلمون اليمن من الدّخلاء على عهد النبيّ ﷺ، وفي حروب الرِدّة على عهد الخليفة الأوّل أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه.

وقد عقد بنو عبد شمس من قريش العهود التجارية مع النّجاشيّ منذ أقدم العصور، فحازوا على ثقة ملوك الحبشة والأحباش[3]، وكانت لهم مكانة تجارية في أرض الحبشة، لثقة الناس بأمانتهم واستقامتهم وحسن معاملتهم وتعاملهم مع الناس.

---

(١) دبلوماسية محمد (٧٢).

(٢) سيرة ابن هشام (١/٣٦-٣٧).

(٣) المحبّر (١٦٣).

وفي السنة الخامسة من النبوّة[١]، أي في السنة الثامنة قبل الهجرة[٢]، كانت هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة، وكان عدد المهاجرين ثلاثة وثمانين رجلاً[٣]، وفي رواية أخرى أنهم كانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة[٤]، فأقاموا في أرض الحبشة بقية شهر رجب وشعبان وشهر رمضان، ثم عادوا إلى مكة من أرض الحبشة في شوال من سنة خمس من النبوّة، لأنه بلغهم أن قريشاً أسلمت. فلما قرب المسلمون الذين كانوا بالحبشة من مكة، بلغهم أنّ إسلام أهل مكّة باطل، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوارٍ أو مستخفيا[٥]. ولكن المسلمين الذين عادوا من الحبشة شجّعوا المسلمين الآخرين على الهجرة الى أرض الحبشة. لأنهم كانوا في أمن ودعة في ظلّ حكم النّجاشيّ، ولعل النّجاشيّ كان يحظى بسمعة طيبة ليس في بلاده وحسب، بل في بلاد أخرى، يدلّنا على ذلك قول النبيّ ﷺ لأصحابه، حين رأى ما يصيب أصحابه من البلاء: **«لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنّ بها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحد، وهي أرض صِدْق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»**[٦].

وتكاثر المهاجرون من المسلمين إلى أرض الحبشة، بعد أن سمعوا من إخوانهم المهاجرين العائدين، أنّهم بخير وأمن واطمئنان.

ولا شكّ في أن أخبار الإسلام وظهور النبيّ ﷺ في مكّة، في محيط مشركي قريش، كانت تصل تباعاً إلى الحبشة وإلى النجاشي، وهم

---

(١) الطبري (٦/٣٢٩) وطبقات ابن سعد (١/٢٠٤).
(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (٣).
(٣) سيرة ابن هشام (١/٣٥٣).
(٤) ابن الأثير (٢/٧٧).
(٥) ابن الأثير (٢/٧٧).
(٦) سيرة ابن هشام (١/٣٤٣)، وانظر جوامع السيرة (٥٥) والدرر (٥٠).

نصارى، إذ كانت النصرانيّة تسود الحبشة منذ القرن الرابع الميلادي[1]، فيتطلّعون إلى هذا الدّين السماوي الجديد، الذي بزغ بين حشود المشركين، ويحبّون أن يعرفوا عن النبيّ ﷺ ودعوته كلّ ما يمكن معرفته. وقد تهيّأ للنّجاشي وللأحباش بهجرة المسلمين إليهم، أن يطّلعوا على تفاصيل شاملة عن الإسلام من المسلمين المهاجرين، كما اطّلع النّجاشي إلى رأي المشركين في الدّين الجديد، فلم يفرّط النّجاشي بالمسلمين المهاجرين، وبقوا في رعايته وحمايته كما كانوا من قبل[2].

ويبدو أنّ النّجاشي، أراد أن يعرف معلومات مفصّلة عن النبيّ ﷺ وعن الإسلام، وعن الصورة الحقيقية لأوضاع مكّة، فأرسل وفداً إلى النبيّ ﷺ، وهو ما يزال بمكّة، وكان وفد النّجاشي مؤلفا من عشرين رجلاً أو قريباً من ذلك، من النصارى، فوجدوه في المسجد. وجلس الوفد إليه وكلّموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدّمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به، وصدّقوه وعرفوا ما كان يُوْصف لهم في كتابهم من أمره[3].

وقد اهتمّ النجاشي بالمسلمين المهاجرين، واهتم بحمايتهم ورعايتهم بعد وصولهم إلى بلاده، فازداد اهتمامه بهم بعد سماعه أخبارهم من ممثلهم وسماع حجّة أعدائهم في محاورتهم بحضوره، ثم تضاعف اهتمامه بهم بعد عودة وفده من مكة بالخبر اليقين.

---

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام (١٧٣).

(٢) انظر التفاصيل في سيرة ابن هشام (١/٣٥٦-٣٦١).

(٣) سيرة ابن هشام (١/٤١٨-٤١٩) والبداية والنهاية (٣/٨٢).

ولا أستبعد، أنّ اتصالات مباشرة جرت بين موفد للنبيّ ﷺ إلى الحبشة وبين النجاشي، انتهت بالهجرة إلى الحبشة[١]، فذلك أضمن لمصير المسلمين المهاجرين، فليس من السهل الهجرة الى بلد غريب، تحت وطأة ملاحقة المشركين للمهاجرين، وإغراء النجاشي بتسليمهم لأعدائهم من مشركي قريش، كما حاول عمرو بن العاص وصاحبه، حيث أهديا للنجاشي هدايا مما يُسْتَطْرَف من متاع مكة، ولم يتركا من بطارقته بطريقاً إلاّ أهديا له هدية[٢]، ثم سألا النّجاشيّ أن يردّ المهاجرين إلى مكة، فأيدهما بطارقة النّجاشي[٣] ولكن أخفق سفيرا قريش في مهمتها، ولم يُفلحا في إقناع النّجاشي بردّ المسلمين المهاجرين من بلاده الى مكة.

ومعرفة العرب بالحبشة كثيرة، والمصادر العربية والإسلامية طافحة بأخبار الحبشة، التاريخية منهم تتحدّث عن تاريخهم، والبلدانية منها تتحدّث عن بلادهم، والتي تتحدّث عن الأنساب تتحدّث عن أنسابهم، مما يدلّ على أن علاقة العرب بالأحباش وبلاد الحبشة وطيدة منذ أقدم العصور، قبل الإسلام وبعده أيضاً.

---

(١) دبلوماسية محمد (٧٣).
(٢) سيرة ابن هشام (٣٥٧/١).
(٣) سيرة ابن هشام (٣٥٨/١).

النّجاشي الأول

هناك اختلاف كبير حول اسم حاكم الحبشة: النّجاشي، فتاريخ أكسوم بين سنة (٢٥٧ -٦٣٠م) غامض، ويتفاوت الدارسون في تقديرهم للأحوال السّائدة فيها في تلك المدة من عمر الزّمن.

ويميِّز المؤرخون العرب بين ملكين، يسمّون أحدهما: (أَبْحَر)، ويضعون مدّة حكمه قُبَيْل بعثة النبي ﷺ، والآخر ابنه معاصراً للنبيّ ﷺ، اسمه: (أَصْحَمَة)[١].

ويذهبون إلى القول، بأن الحبشة قتلوا أَبْحَر، وتوجّوا أخاه في مكان ابنه أَصْحَمَة الذي باعوه في جزيرة العرب، حيث بيع إلى رجل من العرب من بني ضَمْرَة[٢].

واستمرّ الابن في جزيرة العرب، حتى تُوفي عمّه، فطُلب منه الرجوع إلى وطنه، حيث أُعيد إلى عرش أبيه، فظلّ حاكماً إلى أن تُوفي في السنة التاسعة من الهجرة[٣] (٦٣٠م)

(١) ابن كثير (٣/٧٧)، وانظر شرح النووي على مسلم (٢/٣٣٧-٣٣٨).

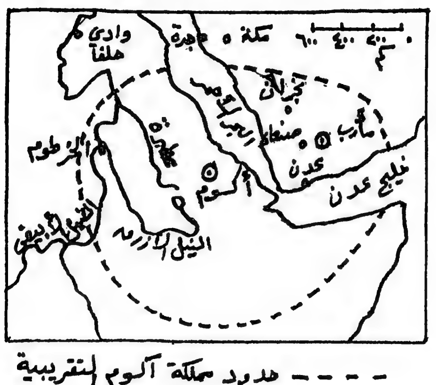
(٢) بنو ضمرة: هم بنو ضمرة بن بكر بن عبد مَناة بن كنانة، يسكنون قرب موقع بدر، وكان عُمارة بن مَخْشِيّ بن خويلد بن عبد نُهم بن يَعْمر بن عوف بن جُدَيّ بن ضَمْرة هو الذي وادع رسول الله ﷺ على قومه، انظر جمهرة أنساب العرب (١٨٥)، وانظر ما جاء حول بيع أصحمة في الروض الأنف (١/٢١٥) وعيون الأثر (١/١١٩).

(٣) الروض الأنف (١/٢١٥) وعيون الأثر (١/١١٩) والجواهر الحسان (١٥٨-١٦٢) وبين الحبشة والعرب لعابدين (٧١-٧٢) وما بعدها ودبلوماسية محمد (٧٣).

أما الباحثون المحدثون، فيميلون، برغم اختلافات وجهات نظرهم، إلى تعيين أرماح الثاني أو أرمحة (Armah) كاسم للملك الذي كان معاصراً للنبيّ ﷺ[1].

وتذكر بعض المصادر العربية، أنّ النّبيّ ﷺ، راسل نجاشياً آخر بعد وفاة النّجاشي السابق، الذي كان مسلماً[2].

ويبدو أنّ الاختلافات في الأسماء ليست مهمة، كالاتفاق على



(١) بدج - تاريخ أثيوبيا (١٣٧/١) وبين الحبشة والعرب (٧١-٧٢).
(٢) ابن كثير (٨٣/٣) والزرقاني (٣٤٦/٣).

الحوادث، فقد كان على الحبشة أيام هجرة المسلمين إليها نجاشي، وهو أخو النجاشي المقتول: أبجر. وفي الرسائل النبويّة أنّ اسمه الأَصْحَم بن أبْحر وهو أخو أَبْحر، فيكون اسم أبجر الكامل: أَبْحَر بن أَبْجَر.

وقد كان هذا النّجاشي، كما وصفه رسول الله ﷺ: «**لا يُظلم عنده أحد**»[1] وكان ملكاً صالحاً لا يُظلم أحد بأرضه، وكان يُثني عليه[2]، وكان نصرانيا.

وجرت هجرة المسلمين المتعاقبة في عهد هذا النّجاشي إلى الحبشة، وكانت بداية الهجرة إلى الحبشة في السنة الخامسة من النبوّة كما ذكرنا، وكان أمير المؤمنين على المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة جعفر بن أبي طالب وهو ابن عمّ النبيّ ﷺ[3].

وقد حمل جعفر إلى النّجاشي الرسالة النبويّة الرقم (١) التي سيرد ذكرها وشيكاً تحت عنوان: السّفارة الأولى، ولا فائدة من إعادة الرأي حول تلك الرسالة منعاً للتكرار.

ولكن مشركي قريش بعثوا عبد الله بن أبي ربيعة[4] وعمرو بن العاص[5]، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته (وزرائه) ليردّا عليهم المهاجرين من أرض الحبشة إلى مكّة.

وخرج عمرو وصاحبه، حتى قدما على النّجاشي، فلم يبق بطريق من بطارقته إلاّ دفعا إليه هديّته قبل أن يُكلّما النّجاشي، وقالا لكل

---

(١) سيرة ابن هشام (٣٤٣/١) وانظر جوامع السيرة (٥٥) والدرر (٥٠).

(٢) الطبري (٣٢٨/٢).

(٣) انظر التفاصيل في سيرة ابن هشام (٣٥٨/١-٣٥٩).

(٤) عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي: انظر سيرته المفصّلة في أسد الغابة (١٥٥/٣).

(٥) انظر سيرته المفصلة: في قادة فتح الشام ومصر (١٢٣-١٦٣) وسفراء النبيّ ﷺ.

(٦) ضوى: أوى ولجأ ولصق.

بطريق: «إنّه قد ضَوى[1] إلى بلد الملك منّا غِلْمَان سُفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مُبْتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردَّهم إليهم، فَاذا كلّمنا الملك، فأشيروا عليه أن يسلِّمهم إلينا، ولا يكلِّمهم، فإنّ قومهم أعلى بهم عَيْناً وأعلم بما عابوا عليهم» ووافق البطارقة على ذلك، ثمّ إنّهما قدّما هداياهما إلى النّجاشيّ، فقبلها منهما، فقالا له: «أيّها الملك! إنّه قد ضَوَى إلى بلدك منّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بَعَثنا إليكَ فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم عليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه»، فقالت بطارقته حوله: «صدَقا أيّها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأَسْلِمْهُمْ إليهما، فَلْيَرُدّاهم إلى بلادهم وقومهم» فغضب النّجاشي، ثم قال: «لاَها الله، إذاً لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عمّا يقول هذان في أمرهم: فإن كانوا كما يقولون، أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني».

وأرسل النّجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثمّ قال بعضهم لبعض: «ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟»، قالوا: «نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبيّنا، كائناً في ذلك ما هو كائن» فلما جاءوا، وقد دعا النّجاشي أساقفته[1]، سألهم فقال لهم: «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟»، فكان الذي أجابه جعفر بن أبي طالب فقال: «أيّها الملك! كنّا قوماً أهل جاهليّة، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة،

---

(١) الأساقفة: جمع أسقف، وهو العالم في النصرانية.

ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويّ منّا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده، ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بِصِدْق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحِم، وحُسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزّور، وأكل مال اليتيم، وقَذْف المُحْصَنَة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نُشرك به شيئا، وأمرنا بالصّلاة والزّكاة والصّيام.. وعَدّد أمور الإسلام، فصدّقناه وآمنا به وأتّبعْناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمْنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعَدَا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنّا نستحلّ من الخبائث، فلما قَهَرونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا الى بلادك، وأخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألاّ نُظْلَمُ عندك أيّها الملك!». قال النّجاشيّ: «هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟» قال جعفر: «نعم»، فقال له النّجاشيّ: «فاقرأه عليّ»، فقرأ عليه صدراً من (كهيعص)، فبكى النّجاشيّ حتى اخْضَلَّتْ[1] لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النّجاشيّ: «إن هذا والذي جاء به عيسى ليَخْرُجُ من مِشْكَاة[2] واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون».

(١) أخضلت: ابتلت وفي بعض النسخ: أخضل لحيته. كما هو في النهاية، فأخضل على هذا مثل أكرم. ومعناه بلّها. ولحيته على هذا مفعول. مثل قوله: أخضلوا مصاحفهم تقول: أخضل المطر الأرض. إذا بلّها.

(٢) المشكاة: الثقب الذي يوضع فيه الفتيل والمصباح. وهي الكوّة غير النافذة.

ولما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص، «والله لآتينّه غداً عنهم بما استأصل خَضْراءَهم»[١]، فقال عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين في المسلمين: «لا تفعل فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا»، فقال عمرو: «والله لأخبرنّه أنهم يزعمون أنّ عيسى بن مريم عبد».

وغدا عمرو إلى النّجاشي من الغد، فقال: «أيّها الملك! إنّهم يقولون في عيسى بن مريم قَوْلاً عظيماً، فأرسل إليهم فَسَلْهُم عمّا يقولون فيه»، فأرسل إليهم النّجاشي ليسألهم عنه. واجتمع المسلمون المهاجرون، فقال بعضهم لبعض: «ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟»، فقالوا: «نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبيّنا كائناً في ذلك ما هو كائن».

فلما دخل المسلمون المهاجرون على النّجاشي، قال لهم: «ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟» فقال جعفر بن أبي طالب: «نقول فيه الذي جاءنا به نبيّنا صلى الله عليه وسلم: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العَذْرَاء البَتُول»، فضرب النّجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: «والله ما عَدا عيسى بن مريم ما قلت هذا[٢] العُوْد»، ثم خاطب المسلمين المهاجرين بقوله: «اذهبوا فأنتم الآمنون بأرضي، من سَبّكم غرم، مَن سبّكم غرم، مَن سبّكم غرم، ما أحبّ أنّ لي جبلاً من ذهب وأنّي آذيت رجلاً منكم»، ثم خاطب رجاله قائلاً: «ردّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها»، فخرجا من عنده مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقام المسلمون المهاجرون عند النجاشي بخير دار مع خير جار[٣].

---

(١) استأصل خضراءهم: يعني جماعتهم ومعظمهم.

(٢) تقديره: ما جاوز مقدار هذا العود أو قدر هذا العود.

(٣) سيرة ابن هشام (١/٣٥٦-٣٦١).

ويبدو أنّ الأوضاع الداخليّة لم تكن مستقرة في أرض الحبشة، إذ لم يلبث النّجاشي أن نشبت ثورة في بلاده، فظهر رجل من الحبشة على رأس رجاله، ينازع النّجاشي ملكه، فاجتاح المسلمون المهاجرون في الحبشة حزن شديد على مصير النّجاشي الذي أحسن إليهم، وخافوا من ذلك الرجل الثائر على النّجاشي، وخشوا من أن ينتصر عليه، فيأتي رجل لا يعرف من حقهم ما كان النّجاشي يعرف منه.

ولما انتصر النّجاشي على عدّوه فرح المسلمون المهاجرون بهذا النصر فرحاً عظيماً[1]. وقد اعتنق هذا النجاشي الإسلام على يديّ جعفر بن أبي طالب[2]. ولا نعلم متى أرسل هذا النّجاشي وفداً من نصارى الحبشة إلى مكة، والنبيّ ﷺ بمكة، ومن الواضح أنّه أرسل وفده بعد هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة في السنة الخامسة من النبوّة، ولكن لا نعلم متى أرسل هذا الوفد بالضبط، كما لا نعلم هل أسلم بعد عودة وفده من مكة إلى الحبشة واطّلاعه على حال النبيّ ﷺ وكنه دعوته، أم أسلم قبل إرسال وفده، وأرجّح أنه أسلم بعد عودة وفده من مكة إلى الحبشة وإعلان إسلامهم[3]، فذلك أدعى إلى اطمئنانه بوضوح الرؤية أمامه تفصيلاً، واطّلاعه على الخبر اليقين.

ولكن الأحباش لم يسكتوا على إسلام النّجاشي، فخرجوا عليه، لأنّه فارق دينهم، فأرسل إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وهيّأ لهم سُفناً، وقال لهم: «اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هُزِمْتُ فامْضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظَفِرت فاثبتوا» ، ولكن استطاع التخلص من

---

(١) سيرة ابن هشام (١/٣٦١).

(٢) الإصابة (١/٢٤٨) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/١٤٨).

(٣) سيرة ابن هشام (١/٤١٨-٤١٩) والبداية والنهاية (٣/٨٢).

محنته بدهائه، وبقي على قومه حتى مات[١].

وبقدر غزارة المعلومات في المصادر العربية الإسلامية عن الحبشة والنّجاشيّ، بقدر قلّة المعلومات في المصادر الأجنبيّة عامة عن الحبشة والنّجاشي وتناقضها وتفاهتها غالباً، وحتى المؤلفات الكاملة الصادرة عن الحبشة القديمة تقود إلى التيه لا إلى العلم الرصين. وكمثال على ذلك، فقد ورد في دائرة المعارف البريطانية حول تدهور أكسوم: «.. خلال السنوات الأولى من الإسلام، شهدت العلاقات بين الأحباش وجيرانهم المسلمين عبر البحر، قدراً عظيماً من التعاطف المتبادل. وتفسير ذلك سهل، إذ إن الكنيسة الحبشية حافظت على مسيحية قديمة ذات صفات ساميّة شديدة.... وعندما هاجر أصحاب محمدﷺ من شبه الجزيرة العربية إلى أكسوم في سنة (٦١٥م)، فقد استقبلوا بحفاوة، ومن ثَمَّ عادوا إلى أوطانهم مُعجبين غاية الإعجاب بالنّجاشيّ ودينه. وقد عبّر محمّد(ﷺ) عن عواطف عظيمة عندما سمع بموت الأمبراطور الأكسومي أرماح (Armah)، وأشار على أتباعه بألا يُخاصموا الحبشة أبداً... »[٢].

وقد نقلت أهم ما ورد في ذلك المرجع، وتبدو تفاهته بالنسبة للمعلومات الواردة في المصادر العربية والإسلامية، وقد وردت فيه معلومات خاطئة للغاية، لم أجد ضرورة لذكرها. وكلّ المراجع الأجنبية تقريباً، تشكو قلة المعلومات المتيسرة عن الحبشة قُبيل البعثة النبوية وفي أيامها، لأنّ الأجانب من المؤلفين يقفون موقفاً معادياً من المصادر العربية الإسلامية متظاهرين بالمنهج العلمي، والواقع أنّهم يعادون

---

(١) سيرة ابن هشام (١/٣٦٣-٣٦٤).

(٢) دائرة المعارف البريطانية المفصلة - (٦/١٠٠٨) - طبعة ١٩٧٤م بقلم:

Lean p. Doresse – Research Master – French National Centre For scientific Research – Auttor of Ethiopia.

الإسلام، فلا يتقبّلون من يصف واقعه وحقيقته، ويُقبِلون على من يطعنه ويتّهمه، فإذا كان للأجانب عذرهم في التشكيك بمصادرنا العربية الإسلامية، فما عذر العرب والمسلمين؟!.

النّجاشيّ الثاني

تُوفي النّجاشي الأول الأصحم بن أَبْجر، فارتبكت أمور الحبشة من بعده، فلم يكن أمام الأحباش خيار غير استعادة أَصْحَمة بن أَبْحر بن أَبْجَر من سيده في بني ضَمْرَة، فخرج الأحباش في طلبه، واستردّوه من سيِّده الذي باعوه له بعد قتل أبيه أَبْحر بن أَبْجَر، وأعاد الأحباش أصحمة إلى عرش أبيه ملكاً على الحبشة[1].

ولا ندري سنة إعادة أصحمة إلى عرش الحبشة، لأنّنا لا ندري سنة وفاة عمّه، ولكن يمكن أن نستنتج أنّ أصحمة كان على عرش الحبشة قبل غزوة بدر الكبرى التي كانت في شهر رمضان من السنة الثانية الهجّرية (٦٢٣م) كما هو معروف، لأنّ أصحمة علم بانتصار المسلمين على مشركي قريش في هذه الغزوة، قبل أن يعرف المسلمون المهاجرون إلى الحبشة بهذا الانتصار، فأرسل النّجاشيّ إلى مَنْ عنده من المسلمين المهاجرين، وقال لهم فيما قاله: « ..... ان النبيّ محمداً ﷺ، بلغني أنّه التقى هو وأعداؤه بوادٍ يقال له: بَدْر، كثير الأراك، كنت أرعى فيه الغنم على سيدي، وهو من بني ضَمْرة، وأنّ الله قد هزم أعداءه فيه ونصر دينه »، فدلّ هذا الخبر على طول مكث أصحمة في بلاد العرب، فمن هنا تعلّم لسان العرب[2].

---

(١) الروض الأنف (١/٢١٥) وعيون الأثر (١/١١٩).
(٢) الروض الأنف (١/٢١٥).

ومن المعلوم، أنّ ديار قبيلة بني ضَمْرة العربية، كانت في منطقة وادي بَدْر، كما ذكرنا ذلك قبل قليل.

وفرح المسلمون المهاجرون إلى الحبشة بانتصار المسلمين على مشركي قريش فرحاً عظيما، وشاركهم في فرحتهم النّجاشي، فهو مع المسلمين على المشركين، لأنّ المسلمين في عقيدتهم أقرب الى عقيدته من المشركين.

ويذكر الباحثون المحدثون أنّ اسم هذا النّجاشي، هو: أرماح أو أرمحة[1]، وهو قريب من الاسم العربيّ: أَصْحَمَة كلّ القرب، ويمكن أن يحصل مثل هذا الاختلاف في نقل الأسماء من لغة إلى لغة أخرى، أو من لغة ثالثة: نقل منها الاسم الحبشي كاللّغة الانكليزية أو الفرنسية مثلاً إلى اللغة العربية، أو نقل هذا الاسم من اللغة العربية إلى إحدى اللّغات الأوروبية.

ونرجِّح أن النبيّ ﷺ، لم يستقدم المسلمين المهاجرين إلى الحبشة منها إلى المدينة بعد هجرة المسلمين إليها، لأن استقرار المسلمين وأمنهم لم يكونا كما ينبغي، فكان بقاؤهم في الحبشة أفضل لهم من هجرتهم إلى المدينة.

وليس هناك أيّ نصّ يدلّ على أنّ المسلمين المهاجرين الى الحبشة، كانوا يعاونون إخوانهم المسلمين المهاجرين إلى المدينة، ولكن يبدو أنّ مهاجري الحبشة كانوا لا ينسون مهاجري المدينة، وكانوا يمدّونهم بالمؤن ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، كما كان المسلمون يعتبرون النّجاشي حليفاً طبيعياً لهم.

ولكن سيل المعلومات بين مهاجري المدينة ومهاجري الحبشة كان موصولاً، بالتجّار الذين يتنقلون بين الطرفين. وبالسفن التي تمخر عباب

---

(١) دبلوماسية محمد (٧٣).

البحر باستمرار، فكان حال المسلمين معروفاً تجمع بينهم الآمال والآلام.

وقد سمع النبيّ ﷺ، أن قريشاً بعثت عمرو بن العاص وصاحبه إلى النّجاشي، لمحاولة إلحاق الأذى بالمسلمين المهاجرين إلى الحبشة، فبعث النبيّ ﷺ عمرو بن أُمَيّة الضّمْرِي وكتب معه إلى النّجاشي كتاباً[1] - انظر الكتاب النبوي الرقم (٣) الذي سيرد وشيكاً - فأخفق عمرو بن العاص في سفارته الثانية[2]، كما أخفق في سفارته الأولى، إلى النجاشي، وعاد من حيث أتى دون أن يصنع شيئاً.

وسبب إيفاد عمرو بن أُمَيّة الضَّمْري سفيراً الى النجاشي هو أن النّجاشي كان مملوكاً من بني ضَمْرة، وكان عمرو من سادات تلك القبيلة ومن أبرز شخصياتها قبل الإسلام وبعد الإسلام، وكانت الفرصة المتاحة له للتأثير في النّجاشي الذي يعرفه، أكبر من الفرصة المتاحة للتأثير في النّجاشي لرجل لا يعرفه.

وحمل عمرو بن أمَيّة كِتَابَيْ النبيّ ﷺ إلى النّجاشي، يدعوه في أحدهما إلى الإسلام، ويتلو عليه القرآن، فأسلم النّجاشي وشهد شهادة الحق. وفي الكتاب الآخر، يأمره أن يزوِّجه أمّ حَبِيبة بنت سُفيان بن حَرْب، وأمره أن يبعث إليه بمن قِبَله من أصحابه، ويحملهم، ففعل النّجاشي، وزوّجه أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وأصدق عنه أربع مائة دينار، وأمر بجهاز المسلمين وما يُصلحهم، وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أُميّة الضَّمْريّ[3].

---

(١) امتاع الأسماع (٢٢/١).

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٣١٨/٣) وانظر مغازي الواقدي (٧٤٢/٢-٧٤٤) والدرر (١٣٩-١٤٦).

(٣) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١-٢٥٩)، وانظر الطبري (٦٥٣/٢).

كما كتب النّجاشي رسالة إلى النبيّ ﷺ انظر الرسالة الرقم (٤) التي ترد قريبا.

كما بعث للنبي ﷺ بكسوة: قميص، سراويل، وعمامة، وعِطاف[١] أسوانيّ من قرية يقال لها: أسْوان، وهي آخر مدينة بمصر، وخُفّين ساذجين[٢].

وإسلام النّجاشي أصحمة لا شك فيه، والتّشكيك في إسلامه إن دلّ على شيءٍ، فَإنّما يدلّ على انحراف المشكّك به عن طريق الحق والصواب، لأنّ المصادر العربيّة الإسلامية كافة بدون استثناء مجمعة على إسلامه، ومحاولة إنكار إسلامه أو التشكيك فيه من المؤلفين الأجانب معروف الأهداف، فهم لا يطيقون أن يعترفوا بإسلام ملك دولة مسيحيّة قبل خمسة عشر قرناً، والطريقة التي ينكرون بها إسلامه ويشكّكون بها، على الرغم من الادّعاء بأنها أسلوب من أساليب المناهج العلمية، ليس في واقعه منهجاً علمياً، لأنه يؤدي إلى نتائج خاطئة واضحة الخطأ، والمفروض أنّ المنهج العلمي يؤدي إلى نتائج سليمة تتفق مع العقل وتساير المنطق وتطابق الواقع، وأستطيع شخصياً باستعمال منهجهم العلميّ المزعوم، أن أثبت أنّني شخصية خيالية، لم تُولد ولم تعش، ولم يكن لها وجود في الواقع، وقد ذكرت ذلك لقسم من المبهورين بهذا المنهج، فبُهتوا وضربوا أخماساً بأسداس دون أن يحيروا جواباً مقنعا.

فقد نصّ البخاري ومسلم على إسلام هذا النّجاشي[٣]، كما نص على إسلامه صاحب كتاب: (اللؤلؤ والمرجان، فيما اتفق عليه الشيخان)[٤]،

---

(١) عطاف: رداء.
(٢) المحبّر (٧٦).
(٣) فتح الباري بشرح البخاري (٣/٩٢) و(٣/١٦٤) وشرح النووي على مسلم (٢/٣٣٧).
(٤) اللؤلؤ والمرجان (١٩٣) و(١٩٣).

وصاحب كتاب: (تيسير الوصول إلى جامع الأصول)[1]، وحديث إسلامه أخرجه الستة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، ومالك[2]، كما أخرج حديث إسلامه الشيخان: البخاري، ومسلم، وأخرجه النسائي أيضاً[3].

وجاء في كتاب: (المنتقى من أخبار المصطفى) في الصّلاة على الغائب: النيّة، عن جابر أنّ النبيّ ﷺ صلّى على أصحمة النّجاشي، فكبّر عليه أربعاً، وفي لفظ قال: «قد تُوفي اليوم رجل صالح من الحَبَش، فهلُمَّ فصلّوا عليه»، قال: «فصلّى عليه رسول الله ﷺ فصففنا ونحن صفوف» متفق عليهما، أي رواهما البخاري ومسلم وأحمد[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ،أنّ النبيّ ﷺ ، نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلّى، فصف بهم، وكبّر عليه أربع تكبيرات، رواه الجماعة[5]: البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه[6].

أما كتب الفقه الإسلامي، فتنص على إسلام النّجاشي، وصلاة النبيّ ﷺ عليه صلاة الغائب، وليس هناك أيّ مصدر فقهيّ لا ينص على إسلام النّجاشي[7]، كما نصّت المصادر التاريخية وكتب السيّر وكتب

---

(١) تيسير الوصول (١/١) و(٢/٣١٢).
(٢) تيسير الوصول (١/١).
(٣) تيسير الوصول (٢/٣١٢).
(٤) المنتقى (١/٣)
(٥) المنتقى (٢/٨٢).
(٦) المنتقى (١/٣).
(٧) انظر على سبيل المثال، لا على سبيل الحصر، الفقه على المذاهب الأربعة (٢٧٨) والمدونة الكبرى لسحنون (١/١٧٦) والأم للشافعي (١/٢٣٩) والقواعد النورانية الفقهية لابن تيمية (٨٧) والاختيار لتعليل المختار (١/٩٤) وفقه الإمام الأوزاعي =

الرجال على إسلامه[1].

وإسلام النجاشي أصحمة، مع كل هذا الإجماع، لا يمكن التشكيك فيه، وقد توفي سنة تسع الهجرية[2] (٦٣٠م)، رضي الله عنه، جزاء ما قدم للإسلام والمسلمين من خدمات صادقة، وجهود مثمرة.

الخلاصة

١. خلاصة أسماء ملوك الحبشة قُبيل البعثة النبوية وفي أيامها

التسلسل	اسم النّجاشي	الملحوظات
١	أبجر بن أبجر	قتله الأحباش قبل البعثة النبويّة
٢	الأصحم بن أبجر	أخو أبجر، أسلم على يدي جعفر، وفي عهده كانت هجرات المسلمين الى الحبشة
٣	أصحمة بن أبجر بن أبجر	هو الذي أسلم وصلى عليه النبيّ ﷺ صلاة الغائب

= (٣١٠/١) والدراري المضية للشوكاني (٢٣٠/١) والمحلّى (١٢٤/٥) و(١٦٥/٥) وفقه السنة للسيد سابق (٨٨/٤) و(١١٠/٤).

(١) انظر على سبيل المثال لا على سبيل الحصر: أسد الغابة (٨٦/٤) والإصابة (٢٤٨/١) وتهذيب الأسماء واللغات (١٤٨/١) والطبري (٦٥٣/٢) وابن الأثير (٢١٣/٢)، هذا بالإضافة إلى المصادر الأخرى التي مرّ ذكرها.

(٢) الروض الأنف (٢١٥/١) وعيون الأثر (١١٩/١).

٢. الرسائل النبوية إلى النجاشي وأجوبة النّجاشي عليه[١]

أ. الرسائل النبوية

التسلسل	رقم الرسالة النبوية	حاملها	النّجاشي المرسلة له
١	١	جعفر بن أبي طالب	الأصحم بن أبجر
٢	٣	عمرو بن أميّة الضَّمْري	أَصْحَمَة بن أبجر بن أبجر

ب. الأجوبة

التسلسل	رقم الرسالة الجوابية	حاملها	المرسل
١	٢	يحتمل أن يكون وفد النجاشي إلى النبي ﷺ أو أرسلت مع أحد رجال النجاشي	الأصحم بن أَبْجر
٢	٤	عمرو بن أميّة الضَّمْريّ سفير النَّبي ﷺ إلى النّجاشي أصحمة بن أبجر بن أبجر	أصحمة بن أبجر بن أبجر

---

(١) انظر نصوص الرسائل والأجوبة عليها في البحث التالي: ٢. الى النجاشي ملك الحبشة.

٢. إلى النّجاشيّ[١]
ملك بلاد الحبشة

١. السّفارة الأولى

لما رأى رسول الله ﷺ، ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: **«لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظْلَم عنده أحد، وهي أرض صِدْق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»**[٢]، وكان بالحبشة ملك صالح لا يُظلَم أحد بأرضه، وكان يُثْنَى عليه وفيه صلاح[٣]، وكان النّجاشيّ ملك الحبشة نصرانياً، وكانت النصرانيّة تسود الحبشة منذ القرن الرابع الميلادي[٤].

وخرج عند ذاك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة[٥]، وكان ذلك في السنة الخامسة من النبوة[٦]، أي في السنة

---

(١) النجّاشي: لقب لكل مَنْ مَلَكَ الحبشة، أنظر الروض الأنف (٢٠٤/١)، وشرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم (٣٣٧/٢ - ٣٣٨).

(٢) سيرة ابن هشام (٣٤٣/١)، وانظر جوامع السيرة (٥٥) والدّرر (٥٠).

(٣) الطبري (٣٢٨/٢).

(٤) عنان - محمد عبد الله عنان - مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام (١٧٣) - ط ٣ - القاهرة - ١٩٥٢.

(٥) سيرة ابن هشام (٣٤٣/١).

(٦) الطبري (٣٢٩/٦) وطبقات ابن سعد (٢٠٤/١).

الثامنة قبل الهجرة[١]، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت هذه الهجرة أوّل هجرة في الإسلام[٢]، وهي الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة[٣]، فكـان جميـع مَنْ لحـق بـأرض الحبشة وهـاجر إليهـا من المسلمين - سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً وولدوا بها - ثلاثة وثمانين رجلاً[٤]، وكان أمير المؤمنين على المهاجرين إلى أرض الحبشة جَعْفَر بن أبي طالِب ابن عَم النبي ﷺ[٥].

وبعث النبي ﷺ مع جعفر بن أبي طالب إلى النّجاشي كتاباً هذا نصّه:

(١)

«بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمّد رسول الله.

إلى: النجّاشي الأَصْحَم[٦] ملك الحبشة.

سِلْمٌ أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، المَلِك، القُدّوس، السّلام، المؤمن، المُهَيْمِنْ، وأشهد أنَّ عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيِّبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونَفْخِهِ، كما خلق آدم بيدِه ونَفْخِهِ.

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (٣).
(٢) سيرة ابن هشام (٣٤٣/١).
(٣) سيرة ابن هشام (٣٤٣/١).
(٤) سيرة ابن هشام (٣٥٣/١).
(٥) أنظر التفاصيل في سيرة ابن هشام (٣٥٨/١ - ٣٥٩).
(٦) اسم النجّاشي هو: أَصْحَمَة وليس الأصحم، أنظر البداية والنهاية (٧٧/٣) وشرح النووي على صحيح مسلم (٣٣٧/٢ - ٣٣٨).

إني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة له على طاعته، وأن تتّبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله.

وقد بعثتُ إليك ابن عمّي جعفراً، ونفراً معه من المسلمين، فإذا جاءك، فأقْرِهِم، ودَعْ التَّجبُّر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلّغتُ ونصحتُ، فاقبلوا نُصحي.

والسلام على من اتَّبعَ الهُدَى »[1].

وذكر العبارة: « .... وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين، فـإذا جـاءك. فـأقْرِهِم... »، الواردة في كتـاب رسول الله ﷺ، لا يمكن أن تتعلّق بالكتاب النبوي المرسل إلى النجّاشي في السنة السادسة الهجرية مع عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِي، حيث كان قد مضى خمسة عشر عاماً على هجرة جعفر إلى الحبشة ويومها كان على وشك الرجوع إلى دار الإسلام، مما يدل على أن هذا الكتاب النبوي حمله جعفر إلى النجاشي، ولم يحمله إليه عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْري.

ولكنّ قسماً من المصادر لم تذكر تلك العبارة في متن الكتاب النبوي كما ذكرها الطبرى في تاريخه[2]، وتلك المصادر متأخرة عن الطبري، مما يدل على أن ذكرها في تاريخ الطبري ليس سهواً من الطبري، بل هو سهو من المتأخرين الذين أغفلوا ذكرها.

---

(١) الطبري (٦٥٢/٢) وصبح الأعشى (٣٧٩/٦)، وانظر تفاصيل المصادر في: مجموعة الوثائق السياسية (٤٣ - ٤٤) في الوثيقة رقم (٢١).

(٢) لم يذكر هذه العبارة الحلبي والقسطلاني، انظر مجموعة الوثائق السياسية (٣).

وقد نسبت المصادر القديمة إلى عمرو بن أُميّة أنّه هو الذي حمل تلك الرسالة النبوية إلى النّجاشي، وجعلت المصادر الحدثة تظن أنّ جعفر بن أبي طالب هو الذي حمل تلك الرسالة النبوية إلى النجاشي: «فنظن أنّ رسول الله ﷺ كان قد أعطى ابن عمّه جعفراً كتاباً إلى النجّاشي وقت هجرته إلى الحبشة، طالباً من النجاشي العادل الاعتناء بحال اللّاجئين الغرباء في بلاده»[1].

وأرجّح بدوري أن جعفراً هو الذي حمل هذه الرسالة النبوية إلى النجّاشي، لأن النبي ﷺ، ما كان ليرسل صفوة أصحابه إلى الحبشة التي كان يحكمها ملك عادل من أهل الكتاب، بدون أن يزوِّدهم بكتاب نبوي يُوصي بهم النجّاشي خيراً.

وكان جواب النجّاشي إلى النبي ﷺ:

(٢)

«بسم الله الرحمن الرحيم

إلى: محمد رسول الله

من: النجّاشي الأَصْحَم بن أَبْجَر.

سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته، من الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام.

أما بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرتَ من أمر عيسى، فوربِّ السّماء والأرض، إنّ عيسى ما

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية (٣)، وقد ذكر نص الكتاب النبوي كثير من المصادر والمراجع العربية وغير العربية، ويبدو أن المصادر التي أغفلت ما جاء عن جعفر في الكتاب النبوي، أرادت إثبات أن هذا الكتاب حمله إلى النجاشي عمرو بن أُمية مع من حمل الكتب النبوية إلى الملوك شرقاً وغرباً.

يزيد على ما ذكرت ثُفروقاً[1]، إنه كما قلت. وقد عرفنا ما بُعِثْتَ به إلينا، وقد قرينا ابن عمّك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدَّقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمّك وأسلمت على يديه لله ربّ العالمين.

وقد بعثتُ إليك بابني أَرها بن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت آتيْك فعلتُ يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقوله حق.

والسلام عليك يا رسول الله»[2]

توقيع النجاشي

كانت إجابة النجّاشي صريحة واضحة، وقد كان الكتاب النبوي إلى النجاشي وإلى جنوده والملأ من قومه، فأسلم هو، ودعا مَنْ معه ولم يكرههم على الإيمان، ولكن اكتفى بالدعوة من غير إكراه[3]، إذ لا إكراه في الدين.

وقد أغفل قسم من المؤلفين المحدثين عبارة: «وقد بعثت إليك بأبني أرها....» إلى «فإني أشهد أن ما تقوله حق». من رسالة النجاشي إلى النبي ﷺ[4]، ويحتمل أنّ هذه العبارة أُقحمت إقحاماً في تلك الرسالة، نقلاً عن رسالة النجّاشي إلى النبي ﷺ التي حملها عمرو بن

---

(١) يقال: ما له ثفروق، أي شيء وأصله قمع التمر، أو ما يلتزق به قمعها.

(٢) الطبرى (٢/٦٥٣) وصبح الأعشى (٦/٤٦٦ - ٤٦٧) والبداية والنهاية (٣/ ٨٤). وزاد المعاد (٣/٦٠ - ٦١) وانظر تفاصيل المصادر والمراجع الأخرى في: مجموعة الوثائق السياسية (٤٦).

(٣) أبو زهرة (الشيخ محمد أبو زهرة - خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم (٢/١١٦٦) - طبعة دولة قطر - ١٩٧٩.

(٤) خاتم النبيين (٢/١١٦٦).

أميّة الضمري، والتي سترد وشيكا، كما أن بقي من تلك العبارة تكرار لا مُسَوِّغ له، ورد في صلب الرسالة، فلا مسوِّغ لتكراره.

وكان النَّجاشيّ عبداً لبيباً زكياً عادلاً عالماً[1]، لذلك آثره النبي ﷺ على غيره من ملوك زمانه في هجرة المسلمين إلى بلاده، فكان عند حسن ظنّ النبي ﷺ به، إذ أَمنَ المسلمون المهاجرون واطمأنوا بأرض الحبشة[2]، وكان لهم النّجاشي خير جار، فأمنوا على دينهم، وعبدوا الله تعالى لا يؤذَون ولا يسمعون شيئاً يكرهونه[3]، وأقاموا عنده بخير دار مع خير جار[4].

وإذا كان الاختلاف قائماً بين الباحثين القُدامى والجُدد أو قسم من الباحثين الجُدد على الأصح، في أمر حامل الكتاب النبوي الذي ذكرناه إلى النجاشي: هل كان جعفر بن أبي طالب أم كان عمرو بن أُمَيّة الضَّمْرِيّ، فإنّ سفارة جعفر إلى النجّاشي لا يمكن أن تكون محلّ اختلاف بين الباحثين القُدامى والجُدد، ولا عبرة بغياب النص على سفارته هذه في المصادر العربية وغير العربية القديمة والجديدة. وعلى الرغم من اعتباره سفيراً نبوياً في عِداد سفراء النبي ﷺ قد يكون جديداً في الدراسات الحديثة يُنَوَّه به في دراسة خاصة بالسّفارات النبوية، فقد كان جعفر بحق أوّل سفير نبوي، بل كان أول سفير نبوي مقيم في دولة أجنبية: يرعى مصالح إخوانه من المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة، ويدافع عنهم وعن الإسلام في مجلس النّجاشي وبحضوره ردّاً على سفيري مشركي قريش القادمَين من مكة، كما حدث في سفارة

---

(١) البداية والنهاية (٣/٧٧).

(٢) سيرة ابن هشام (١/٣٥٦).

(٣) سيرة ابن هشام (١/٣٥٦).

(٤) سيرة ابن هشام (١/٣٦١).

عمرو بن العـاص وصاحبـه، المشركين اللـذين أوفـدتها قُريش إلى النجاشي في السنة الثامنة قبل الهجرة، في محاولة مدروسة مدبّرة لإخراج المسلمين المهاجرين من أرض الحبشة وتسليمهم إلى مشركي مكّة، فدافع جعفر عن الإسلام والمسلمين المهاجرين دفاعاً منطقياً مجيداً بحماسة وإيمان، أدّى إلى إخفاق سفارة عمرو بن العاص وصاحبه في سفارتهما، فعادا من أرض الحبشة إلى مشركي مكة خائبين[1].

بل لم يقتصر جعفر في سفارته على رعاية مصالح المسلمين المهاجرين في أرض الحبشة، والدّفاع عن الإسلام والمسلمين على كلّ مَنْ يريد بهم شرّاً، بل كان داعية من دعاة المسلمين الأولين، فأسلم النجّاشي على يديه[2]، كما أسلم على يديه عدد لا نعرف مقداره من الأحباش.

ب. السفارة الثانية

أرسل النبيﷺ عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِي إلى النجاشي أَصْحَمة[3] يدعوه إلى الإسلام، سنة ست الهجريّة (٦٢٧م)، فأسلم النّجاشي. وأمره

---

(١) انظر التفاصيل في: سيرة ابن هشام (١/٣٥٨ - ٣٦١) حلية الأولياء (١/١١٤ - ١١٦) وانظر عيون الأثر (١/١١٨ - ١١٩).

(٢) ابن الأثير (٢/١١٣).

(٣) أصحمة: بفتح الهمزة، وإسكان الصاد، وفتح الحاء والميم، وهذا هو الذي وقع في رواية الإمام مسلم في صحيحه هو الصواب المعروف فيه، وهكذا هو في كتب الحديث والمغازي وغيرها. ووقع في مسند أبي شَيْبَة تسميه: (صَحْمة) - بفتح الصاد، وإسكان الحاء، وفتح الميم - وقال: «هكذا قال لنا يزيد، وإنما هو صَحْمة»، يعني بتقديم الميم على الحاء، وهذان هما شاذان، والصواب: أصْحَمَة) بالألف، قال ابن قتيبة وغيره: «ومعناه بالعربية: عطية انظر شرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم (٢/٣٣٧-٣٣٨).

أن يزوِّجه أمَّ حبيْبَة[1]، ويرسلها ويرسل مَنْ عنده من المسلمين[2] إلى المدينة المنوّرة.

وكانت أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان بن حَرْب مهاجرةً بالحبشة مع زوجها عُبَيْد الله بن جَحْش، فتنصر عبيد الله زوج أُمّ حبيبة وتُوفّي بالحبشة، فخطبها النجاشي إلى رسول الله ﷺ، فوكّلت أُم حبيبة بتزويجها خالد ابن سعيد بن العاص[3]، وكان وأخوه أقرب مَنْ بالحبشة إليها، فزوّجها إياه[4]، ونقد النجّاشي عن النبي ﷺ مهر أُمّ حبيبة أربع مائة دينار[5]، وبعث بكسوة إلى رسول الله ﷺ: قميص، وسراويل، وعمامة، وعِطاف[6] أُسْوَاني من قرية يقال لها: أُسْوَان[7] وهي آخر مدينة بمصر، وخُفّين ساذجين[8].

---

(1) أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب: انظر سيرتها المفصلة في طبقات ابن سعد (٩٦/٨) وأسد الغابة (٥٧٣/٥) والإصابة (٨٤/٨) والاستيعاب (١٨٤٣/٤) وتهذيب الأسماء واللغات (٣٥٨/٢).

(2) أسد الغابة (٨٦/٤).

(3) خالد بن سعيد بن العاص: انظر سيرته المفصلة في أسد الغابة (٨٢/٢) والإصابة (٩١/٢) والاستيعاب (٤٢٠/٢).

(4) أنساب الاشراف (١٩٩/١ - ٢٠٠) وابن الأثير (١١٣/٢)، وانظر ما جاء حول ذلك في سيرة أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، الواردة في: طبقات ابن سعد (٩٦/٨) وأسد الغابة (٥٧٣/٥) والإصابة (٨٤/٨) والاستيعاب (١٨٤٣/٤) وتهذيب الأسماء واللغات (٣٥٨/٢).

(5) أنساب الأشراف (٢٢٩/١) وابن الأثير (١١٣/٢).

(6) عطاف: رداء.

(7) أُسوان: مدينة كبيرة وكورة في آخر صعيد مصر وأول بلاد النوبة على النيل في شرقيه، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٤٨/١ - ٢٤٩) ومراصد الاطّلاع (٧٨/٣).

(8) المحبّر (٧٦).

وأرسل النّجاشي إلى النّواتي[1]، فقال: «انظروا ما يحتاج فيه هؤلاء القوم من السُّفن»؟، فقالوا: يحتاجون إلى سفينتين»، فجهزهم. وكلمه قوم من الحبشة أسلموا، في أن يبعث بهم إلى رسول الله ﷺ يُسَلّموا عليه، وقالوا: «نصاحب أصحاب هؤلاء، فنجذف بهم في البحر ونُغنّيهم»، فأذن لهم، فشخصوا مع عمرو بن أُميَّة الضَّمْرِيَ والمسلمين، وأمّر عليهم جعفر بن أبي طالب[2].

ويبدو أنّ النّبي ﷺ، أرسل عمرو بن أمية الضَّمْريّ إلى النجّاشي سنة ست الهجرية، فعاد من سفارته إلى المدينة سنة سبع الهجرية (٦٢٨ م)، لأن مهاجري الحبشة المسلمين وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب، عادوا من أرض الحبشة إلى المدينة في أعقاب غزوة خَيْبر التي كانت في شهر محرّم من سنة سبع الهجرية.

كما أنَّ عمرو بن العاص الذي أوفده مشركو قريش في مكة إلى النجاشي، قد غادر إلى أرض الحبشة بعد غزوة الحُدَيْبيَّة التي كانت في شهر ذي القَعْدة من السنة السّادسة الهجرية، فقد ذُكر أنّه لم يحضر الحُدَيْبِيَّة ولا صلحها، وسافر إلى أرض الحبشة[3].

لقد أوفد النبي ﷺ عمرو بن أُميَّة في أواخر السنة السادسة الهجريّة إلى أرض الحبشة، وعاد منها في أوائل السنة السّابعة، ومن هنا حدث الاختلاف بين المؤرخين في سنة إيفاد عمرو بن أميّة، فمنهم مَن قال: سنة ست الهجرية، ومنهم مَنْ قال: سنة سبع الهجرية.

---

(١) النواتي: مفردها نُوْتي. وهو الملاّح الذي يدير السَّفينة في البحر.

(٢) جوامع السيرة (٢١١) والدرر (٢١٨) عن قدوم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة إلى المدينة المنوّرة. وأنظر أنساب الاشراف (١/٢٢٩).

(٣) مغازي الواقدي (٢/٧٤٢).

وروى عمرو بن العاص قصّة لقائه عمرو بن أُميّة الضَّمْري في بلاد الحبشة، فقال: «فأجمعوا لنا ما نهديه له - أي للنجاشي - وكان أحب ما يُهدى إليه من أرضنا الأدَم[1]، فجمعنا له أدَماً كثيرا، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنّا لعنده إذ جاءه عمرو بن أُميّة الضَّمْريّ، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، فدخل عليه، ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أُميّة الضَّمْري، لو دخلت على النجاشي لسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزَأْتُ عنها[2] حين قتلت رسول محمد. فدخلت عليه، فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي! أَهْدَيْتَ إليَّ من بلادك شيئاً؟ قلت: نعم أيها الملك! إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوّ لنا فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا! فغضب، ثم مَدّ يده فضرب بها أنفه ضربةً ظننتُ أنه قد كسره[3]، فلو انشقّت لي الأرض لدخلتُ فيها فَرَقاً منه! ثمّ قلت: ايّها الملك! والله لو ظننتُ أنّك تكره هذا ما سألتكَهُ. قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه النّاموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟! قلت: أيها الملك! أكذاك هو؟ فقال: ويحك يا عمرو! أطعني واتّبعه، فإنّه والله لعلي الحق، وليظهرنّ على مَنْ خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده! قلت: أتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم. فبسط يده، فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي، وقد حال رأيي[4] عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي»[5].

---

(١) الأدم: الجلود. والأديم: الجلد.

(٢) أجزات عنها: قمت مقامها فيه وكفيتها شأنه.

(٣) وفي مغازي الواقدي (٧٤٢/٢): «فرفع يده، فضرب أنفي ضربةً ظننت أنّه كسره».

(٤) حال رأيي: تحوّل وتغير.

(٥) سيرة ابن هشام (٣١٨/٣) وأنظر مغازي الواقدي (٧٤٢/٢ - ٧٤٤) والدرر (١٣٩ - ١٤٦).

وكان نصّ كتاب النبيﷺ الذي حمله عمرو بن أُميَّة الضَّمْري إلى النّجاشي، كما جاء في قسم من المصادر التاريخية[1]، هو:

(١) أ

«بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد رسول الله.

إلى: النجاشي الأصحم ملك الحبشة.

سلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك، القُدّوس، السّلام، المؤمن، المُهَيْمِنْ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيّبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونَفْخِهِ، كما خلق آدم بيده ونَفْخِهِ.

إني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة له على طاعته، وأن تَتّبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله.

وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً، ونفراً معه من المسلمين فإذا جاءك فأقْرِهِم، ودَعْ التَّجبُّر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلّغْتُ ونصحتُ، فاقبلوا نُصْحي.

والسلام على من اتَّبع الهدى»[2].

---

(١) انظر الطبري (٦٥٢/٢) وانظر تفاصيل المصادروالمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (٤٣ - ٤٦) وفيها التفاصيل الخاصة بهذا الكتاب النبوي.

(٢) الطبري (٦٥٢/٢) وصبح الأعشى (٣٧٩/٦)، وانظر تفاصيل المصادر في: مجموعة الوثائق السياسية (٤٣ - ٤٤) في الوثيقة الرقم (٢١).

وقـد أعـدت ذكر هـذا الكتـاب النبوي منسوبـاً إلى عمرو بن أُمية الضمري، بعد أن ذكرته في السفارة الأولى إلى النجاشي منسوباً إلى جعفر بن أبي طالب، وسبب إعادة ذكره هنا، لأن الطبري في تاريخه وغيره من المؤرخين نسبوه إلى عمرو بن أُميَّة الضَّمْريّ، وليس من الأمانة العلمية إغفال رأي الطبري وغيره، وحتى أتبيّن الرأي الذي أُرجّحه بوضوح وجلاء وشيك.

فقد أورد الإمام البَيْهَقي في كتابه دلائل النبوة نص كتاب نبوي آخر، حمله عمرو بن أُمية الضّمْريّ إلى النجاشي، هذا نصه:

(٣)

« بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد النبي

إلى: النجاشي الأصحم عظيم الحبشة.

سلام على مَنْ اتَّبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأن محّداً عبده ورسوله.

وأدعوك بدعاية الإسلام، فإني رسول الله، فأسلم تسْلم: ﴿يا أهل الكِتاب، تَعالوْا إلى كلمةٍ سَواءٍ بيننَا وبينكُم، ألا نَعْبُدَ إلاَّ الله ولا نُشْرِكَ به شيئاً، ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أرْباباً من دونِ الله، فإنْ تَوَلَّوْا فقولوا اشْهَدوا بأنَّا مسلمون﴾[١]، فإن أَبَيْتَ فعليك

(١) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣: ٦٤).

إثمُ النَّصارى من قومك»[1].

الله
الختم رسول
محمد

ولعل الأصحم مقحم من الراوي حسب ما فهم[2]، والصواب أن اسم النجّاشي هو: أصْحَمَة.

وأرجح أن يكون الكتاب الأول قد حمله جعفر بن أبي طالب، والكتاب الثاني هو الذي حمله عمرو بن أُمَيّة الضَّمري لأسباب كثيرة منها:

فقد ورد في الكتاب الأول ذكر جعفر: «وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً....»، وهذه العبارة بهذا النص الواضح الصريح، لا يمكن أن تتعلق بالكتاب النبوي المرسل إلى النجاشي في السنة السادسة الهجرية مع عمرو بن أُميَّة الضَّمْري، حيث كان قد مضى خمس عشرة سنة على هجرة جعفر إلى الحبشة، ويومها كان جعفر على وشك الرجوع إلى المدينة، مما يدل على أنّ هذا الكتاب النبوي حمله جعفر إلى النجاشي، ولم يحمله عمرو بن أُميَّة إليه.

وقد ذكر البيهقي الكتاب النبوي الثاني في كتابه: دلائل النبوة بعد قصة هجرة المسلمين إلى الحبشة، وفي ذكره هنا نظر، فالظاهر أنّ هذا الكتاب إنما هو للنجاشي الذي كان بعد المسلم صاحب جعفر، وذلك حين كتب إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ قُبيل الفتح، كما

---

(١) البداية والنهاية (٣/٨٣) نقلاً عن البيهقي في دلائل النبوة، وانظر مجموعة الوثائق السياسية (٤٦) للإطلاع على بقية المصادر والمراجع.

(٢) البداية والنهاية (٣/٨٣).

(٣) البداية والنهاية (٣/٧٧).

كتب إلى هِرَقْل عظيم الرّوم قيصر الشام، وإلى كسرى ملك الفُرس، وإلى صاحب مصر، وإلى النجاشي، وكان جعفر يومئذٍ مهاجراً في أرض الحبشة، والذي بعثه النبيﷺ في ذلك الوقت هو عمرو بن أُميّة، فيكون عمرو هو الذي حمل هذا الكتاب إلى النجّاشي[1].

قال الزُّهْري: «كانت كتب النبيﷺ إليهم واحدة - يعني نسخة واحدة - وكلّها فيها هذه الآية: ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء....﴾ (سورة آل عمران، آية ٦٤)، وهي مدنيّة، بلا خلاف، وقد نزل ثلاث وثمانون آية من أوّلها في وفد نجْران»[2] وهذه الكتب النبوية هي التي حملها السفراء في السنة السادسة الهجرية إلى ملوك الأرض ومنهم النجاشي، ومنها الكتاب النبوي الثاني، فلا بد من أن يكون الذي حمله إلى النجّاشي، هو عمرو بن أمية.

ولما كان النبي ﷺ يحرص على أصحابه في حاضرهم ومستقبلهم، فلا يمكن أن يتوجّه مهاجرون إلى أرض الحبشة بدون كتاب نبوي يوصي بهم النّجاشيّ خيراً، فكان الكتاب الأول الذي حمله جعفر إلى النجاشي؛ كذلك لا يمكن أن يوجه كتابين نبوّيين للدعوة إلى الإسلام مرة واحدة مع رسول واحد، فيكفي أن يبعث كتاباً واحداً للدعوة إلى الإسلام، والكتاب الثاني أشبه بالكتب النبوية التي بعث بها إلى ملوك الأرض يومئذ، والفرق واضح وكبير بين الكتاب الأول والكتاب الثاني من حيث المبنى والمعنى نظراً للفرق الزمني بين الكتابين.

وقد كان الكتاب الأول للمسلم النجاشي صاحب جعفر، والكتاب الثاني للمسلم النجاشي صاحب عمرو[3].

---

(١) البداية والنهاية (٨٣/٣).
(٢) البداية والنهاية (٨٣/٣).
(٣) البداية والنهاية (٨٣/٣).

ويبدو أن النجاشي صاحب جعفر قد انتقل إلى رحمة الله، فخلف من بعده النجاشي صاحب عمرو.

وسبب إرسال عمرو بن أُميّة إلى النجاشي، أن قريشاً بعثت عمرو ابن العاص وصاحبه إلى النجاشي لمحاولة إلحاق الأذى بالمسلمين، بعد وفاة النجاشي صاحب جعفر، فلما سمع رسول الله ﷺ ببعث قريش عَمْراً وصاحبه، بعث عمرو بن أُمية وكتب معه إلى النجاشي، وهذا قول سعيد بن المُسَيّب وعُرْوَة بن الزبير[1]، فقد كان عمرو بطلاً فاتكاً لا يجهله أحد.

ولما سلّم عمرو بن أُميّة الضَّمْري كتاب النبي ﷺ إلى النجّاشي، قال له: «يا أصحمة! إنّ عليّ القول وعليك الاستماع. إنّك كأنّك في الرِقّة علينا، وكأنّا في الثِّقة بك، منك. لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه، ولم نَخَفك على شيء إلا أمنّاه. وقد أخذنا الحجة عليك من فِيْكَ: الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يُرَد، وقاضٍ لا يجور، وفي ذلك الموقع الحزّ، وإصابة المِفْصَل، وإلاّ فأنت في هذا النبيّ الأميّ كاليهود في عيسى ابن مريم، وقد فرّق النبي ﷺ رسله في الناس، فرجاك لما لم يرجهم، وأمنك على ما خافهم عليه، بخيرٍ سالفٍ، وأجْر ينتظر»[2].

وأجابه النجاشي إجابة المؤمن فقال: «أشهد أنّه النبي الأُمّي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار، كبشارة عيسى براكب الجمل، وأنّ العيان ليس أشفى من الخبر»[3].

وأردف ذلك بأن حمّل عمرو بن أُميَّة كتاباً إلى رسول الله ﷺ وهذا نصّه:

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي (٢٢/١).
(٢) خاتم النبيين (١١٦٥/٢).
(٣) خاتم النبيين (١١٦٦/٢).

(٤)

« بسم الله الرحمن الرحيم

إلى: محمد صلى الله عليه وسلم

من: النجّاشي أصحمة.

سلام عليك يا رسول الله من الله ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فإني زوّجتك امرأة من قومك، وعلى دينك، هي السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان، وأهديتك هديةً جامعة: قميصاً وسراويل، وعطافاً، وخفين ساذجين.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته »[1].

توقيع النجاشي

وأردف النجاشي هذا الكتاب بكتاب آخر، إلى النبي ﷺ هذا نصّه:

(٥)

« بسم الله الرحمن الرحيم

إلى: محمد صلى الله عليه وسلم

من النجاشي أصحمة.

سلام عليك يا رسول الله من الله ورحمة الله وبركاته. لا إله إلا الله الذي هداني للإسلام.

---

(١) انظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٤٨).

أما بعد، فقد أرسلت إليك يا رسول الله مَنْ كان عندي من أصحابك المهاجرين من مكة إلى بلادي، وها أنا أرسلت إليك ابني أُريحا في ستين رجلاً من أهل الحبشة، وإن شئتَ أن آتيك بنفسي فعلتُ يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقوله حق.

والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته»[1].

توقيع النجاشي

وكان أول سفير بعثه رسول الله ﷺ - من مجموعة السفراء الذين أرسلهم إلى ملوك العالم المعروفين يومئذٍ - هو عمرو بن أُميَّة الضّمري، إلى النجاشي، وكتب إليه كتابين: يدعوه في أحدهما إلى الإسلام، ويتلو عليه القرآن، فأخذ النجاشي كتاب رسول الله ﷺ فوضعه على عينيه، ونزل من سريره وجلس على الأرض تواضعاً، ثم أسلم وشهد شهادة الحق، وقال: «لو كنتُ أستطيع أن آتيه لأتيته» وكتب إلى رسول الله ﷺ بإجابته وتصديقه وإسلامه. وفي الكتاب الآخر يأمره أن يزوّجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حَرْب، وكانت قد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عُبَيْد الله بن جَحْش الأسدي، فتنصّر هناك ومات، وأمره رسول الله ﷺ أن يبعث إليه بمن قِبلِهِ من أصحابه ويحملهم، ففعل، فزوّجه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وأصدق عنه أربع مائة دينار، وأمر بجهاز المسلمين وما يُصلحهم، وحملهم في سفينتين مع عمرو ابن أُميَّة الضَّمريّ، ودعا بحُقٍ[2] من عاج، وجعل فيه كتابي

---

(١) الطبرى (٢/٦٥٣) وصبح الأعشى (٦/٤٦٦ - ٤٦٧) والبداية والنهاية (٣/٨٤) وزاد المعاد (٣/٦٠ - ٦١)، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع الأخرى في: مجموعة الوثائق السياسية (٤٦).

(٢) الحُقّ: وعاء صغير ذو غطاء يُتّخَذ من عاج أو زجاج أو غيرها.

رسول الله ﷺ، وقال: «**لن تزال الحبشة بخير، ما كان هذان الكتابان بين أظهرها**»[١].

وقد مرّت بنا الكتب النبويّة التي حفظتها لنا المصادر المعتمدة، وليس بينها كتابه عليه الصّلاة والسلام إلى النجاشي الذي يأمره به أن يزوِّجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، ويحمل إليه مَنْ عنده من أصحابه[٢]، ومن المحتمل أنّ هذا الكتاب قد فُقِد ولم يُسجّل، ولكن النجّاشي تسلمه ونفّذ ما جاء فيه وأجاب عليه، كما هو واضح من كتاب النجاشي الجوابي إلى النبي ﷺ.

لقد حقّق عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِيّ، جميع أهداف سفارته إلى النّجاشيّ: إسلام النّجاشيّ، وإسلام غير النّجاشيّ من الأحباش، واستقدام المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة، من أرض الحبشة إلى المدينة المنورة، قاعدة المسلمين الرئيسة في حينه، وزواج النبيّ ﷺ أمّ حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها.

وهذا النجّاشي الذي خلف النجاشي الذي أسلم على يد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، قد أسلم هو الآخر كما أسلم سلفه من قبله، فيكون الخلف والسلف قد أسلما[٣]..

ولا مجال للشك في إسلام هذا النجاشي، كما لا مجال للتشكيك في إسلامه[٤]، فلا يقبل الشك في إسلامه ولا التشكيك فيه باحث منصف

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١ - ٢٥٩)، وانظر الطبري (٦٥٣/٢).

(٢) شرح المواهب للزرقاني (٣٤٦/٣) وإمتاع المؤانسة للمقريزي (٣٢٥/١)، وانظر: مجموعة الوثائق السياسية (٤٧ - ٤٨).

(٣) البداية والنهاية (٨٣/٣).

(٤) وقع التشكيك من المؤرخين الأجانب المغرضين أولاً، فانتقل هذا التشكيك بالعدوى إلى قسم من المؤلفين العرب والمسلمين، انظر مثلا: مواقف حاسمة (١٧٣)، ولا سند لهذا التشكيك في المصادر العربية والإسلامية المعتمدة ولا في غيرها، وخطورة هذا=

من المسلمين وغيرهم، لأن إسلامه ثابت في المصادر العربية الإسلامية، فقد صلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب حين بلغه موته، كما ثبت ذلك في صحيح الإمام البخاري[1]، وصحيح الإمام مسلم[2]، والنسائي[3]، وفي جميع مصادر الحديث الشريف والفقه الإسلامي[4]، وفي كتب الرجال[5]، والتاريخ[6]، ولا تُصلّى صلاة الغائب إلاّ على المسلم المتوفّى فحسب.

ويعجبني بهذا الصدد، ما كتبه الإمام ابن حَزْم الأندلسي، في كتاب: (المُحلّى)، وهو مَنْ هو علماً وعملا، وديناً، وقوة حُجَّة، ورجاحة عقل، ورصانة منطق، ورفض لكل ما لا يقتنع به، ونقد لآراء الفقهاء مجتهداً، وسلاطة لسان - أيضاً، عند ذكر النجاشي ونعيه، وصلاة الغائب عليه، فقد كتب ما نصه: «صلى رسول الله ﷺ، على النجاشي رضي الله عنه[7]». ولن يستحق مثل هذا التعبير: «رضي الله عنه»،

= التشكيك، أنه ينقل حرفياً من بعض الكتّاب العرب والمسلمين دون تحقيق ولا تمحيص. انظر التفاصيل في بحث إسلام النجاشي، في كتاب: سفراء النبي ﷺ.

(١) فتح الباري بشرح البخاري (٩٢/٣) و (١٦٤/٣) في باب الرجل ينعي إلى أهل الميت نفسه، وباب التكبير على الجنازة أربعاً.

(٢) صحيح مسلم (٥٤/٣) في باب التكبير على الجنازة، وأنظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١٩٣).

(٣) النسائي (٣٣٧/٢) باب التكبير على الجنازة.

(٤) انظر مثلا: تيسير الوصول إلى جامع الحديث في حديث الرسول ﷺ (٣١٢/٢) والمنتقى من أخبار المصطفى ﷺ (٣/١) و (٨٢/٢) والفقه على المذاهب الأربعة (٢٧٨) والمدونة الكبرى لسحنون (١٧٦/١) والقواعد النورانية الفقهية لابن تيمية (٨٧) والاختيار لتعليل المختار (٩٤/١) وفقه الأوزاعي (٣١٠/١) والدراري المضيئة للشوكاني (٢٣٠/١) والمحلى لابن حزم (١٢٤/٥).

(٥) انظر مثلا: أسد الغابة في معرفة الصّحابة (٨٦/٤) وتهذيب الأسماء واللغات (١٤٨/١) والإصابة في تميز الصّحابة (٢٨٤/١).

(٦) انظر مثلا: الطبري (٦٥٣/٢) وابن الأثير (٢١٣/٢) والبداية والنهاية (٧٧/٣).

(٧) المحلى (١٦٥/٥).

من مثل ابن حزم، إلا المسلم الذي حَسُنَ إسلامه، وأحسن في عمله، وكان مؤمناً عاملاً مخلصاً في عمله، لا غبار على إيمانه وعمله وإخلاصه في عمله.

والتّشكيك بإسلام النجاشي، بحجة أنه: «لو أسلم يومئذ، لكان الإسلام قد غمر الحبشة كلّها، ولكانت النّصْرانيّة قد غاضت منها»[1]، لا يقول به إلاّ جاهل بروح الإسلام، فلم يُكره النبي ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون على الإسلام: ﴿لا إكراه في الدين، قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ من الغَيّ﴾[2]، وقد بقي كثير من أهل الكتاب على دينهم بعد الفتح الإسلامي، في البلاد الإسلامية المفتوحة، كالعراق وبلاد الشّام ومصر مثلاً، ولا يزالون على دينهم حتى اليوم، لأن الحاكم المسلم لا يُجبر أحداً على اعتناق الإسلام كرها.

وهذه الحقيقة، حقيقة تسامح الإسلام، لا يفهمها كما ينبغي غير المسلم حقاً، فلا عجب أن يقع الأجانب بمثل هذا الخطأ، فهم يظنون أن الحاكم المسلم هو كالحاكم غير المسلم، في إكراه رعيته على اعتناق الدين الذي يعتنقه. والواقع هو أن الحاكم غير المسلم يُكره رعيّته على اعتناق دينه قسراً بخلاف الحاكم المسلم الذي لا يكره أحداً من غير المسلمين على اعتناق الإسلام.

إن الحاكم المسلم ليس كالحاكم غير المسلم في هذا المجال، فهما ليسا سواء في حريّة الاعتقاد، بل هما على طرفي نقيض: الحاكم المسلم يطبق المبدأ

---

(١) مواقف حاسمة (١٧٣).

(٢) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢/٢٥٦)، وانظر تفسير هذه الآية في تفسير الكشاف للزمخشري (١/٢٧٩) وتفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣/٢٧٩ - ٢٨١) وتفسير ابن كثير (٢/ ١٥ - ١٦) وتفسير البغوي (٢/١٥ - ١٧) وتفسير أنوار التنزيل للبيضاوي (١/٢٥٩ - ٢٦٠) وتفسير في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/٢٩ - ٣١).

القرآني: ﴿لا إكراه في الدِّين﴾، والحاكم غير المسلم يطبق مبدأ «الإكراه بالدين»؛ والنجاشي الذي لم يكره شعبه على الإسلام، دليل على أنه أسلم وحسن إسلامه وليس دليلاً على أنه لم يسلم، وغدر الذي فهم فهماً معكوساً، أنه طبق تعاليم دينه على تعاليم الإسلام!!

إلى قَيْصَر[1] ملك الرُّوم
وإلى أسقف الرّوم الأكبر

١. إلى هِرَقْل عظيم الرُّوم

أ. حكم هِرقْل قيصر الدولة البيزنطية الشرقية بلاد الرّوم يومئذ، من سنة (٦١٠-٦٤١م)، أي من السنة الثانية عشرة قبل الهجرة، إلى سنة إحدى وعشرين الهجريّة، باعتبار أن الهجرة النبويّة كانت سنة اثنتين وعشرين وستمائة الميلادية.

وتولّى هرقل الحكم بعد فوكاس، فقد بعث هرقل حاكم أفريقيا للرّوم ابنه هرقل، على رأس أُسطول بيزنطي إلى القُسْطَنْطِينِيَّة، فتوقّفت السّفن أثناء سيرها ببعض الجزر، ولقي هرقل الترحيب من جميع الناس. وفي يوم ٣ تشرين الأول (أكتوبر) من سنة (٦١٠م)، ظهر أسطوله أمام أسوار القسطنطينية، فتعالى الهتاف له على أنّه مُخلِّص البلاد ومنقذها، فعمل هرقل على التعجيل بإنهاء حكم فوكاس. وفي يوم ٥ تشرين الأول (أكتوبر) من سنة (٦١٠م)، تلقّى هرقل التاج من البطريرك، ثم أمر بإعدام فوكاس وتحطيم تماثاله المقام في ميدان السِّباق.

وألّف هرقل ومَن جاء بعده مباشرة من الأباطرة، أسرة حاكمة ترجع ترجيحاً إلى أصلٍ أرمني.

---

(١) قيصر: لقب كلّ مَن ملك الرُّوم، والنّجاشيّ لقب كّل من ملك الحبشة، وكسرى لقب كلّ مَن ملك الفُرس، وخاقان لقب كلّ من ملك التّرك، انظر الروض الأنف (٢٠٤/١) وشرح الإمام النووي على صحيح الإمام بسلم (٣٣٧/٢-٣٣٨).

ويعتبر هِرَقل، من أعظم الأباطرة في التاريخ البيزنطي، فهو على حد قول أحد المؤرخين: الذي أنشأ بيزنطة العصور الوسطى، والذي اتخذ (رومة) عاصمة الرومان مثالاً في الحكم، واتخذ اللّغة والثقافة اليونانية، واتّخذ المسيحيّة ديناً ومذهبا، وأجرى في داخل الامبراطورية حركة تجديديّة ناشطة، وكانت بيزنطة قد ادّخرت في داخلها من المواهب والموارد ما أسهمت بها في خلق نهضة اجتماعية سياسية ثقافيّة عسكريّة.

وكان الصَّقالِبة[1] قد استولوا على معظم الإمبراطورية في أوروبا، فأصبح الجزء الأكبر من شبه جزيرة البلقان، لا سيّما داخلها، إقليماً صقلّيا.

أما الفُرس، فأخذوا يتوغّلون في الشرق الأدنى منذ سنة (٦١٠م) فاستولوا على أنطَاكِيَة التي تُعتبر من أكبر المدن في الأقاليم الشرقية للدولة البيزنطية، ولم يلبثوا أن استولوا على دمشق، وشقّوا طريقهم شمالا فاستولوا على حصن كَمَرسُوْس وطردوا البيزنطيين من إرْمِينِيَّة. وجزعت نفوس المسيحيين وانهارت معنوياتهم حين استولى الفرس على بيت المقدس بعد حصار استمرّ ثلاثة أسابيع، فجعلوا المدينة المقدّسة نهباً للحريق والمذابح ثلاثة أيام، فدمّر الحريق كنيسة القيامة التي شيّدها قسطنطين الكبير، وكان لهذا العمل ردّ فعل خطير في بيزنطة، لا سيّما أنّ الصليب المقدّس (صليب الصلبون) الذي يعتبره المسيحيّون أثمن المقدسات الدينية، قد أستولى عليه الفرس ونقلوه إلى عاصمتهم المدائن.

ولم تقتصر غارة الفرس على الشام وفلسطين، بل امتدت سنة (٦١٢م) إلى آسيا الصُّغرى حتى بلغت مضيق البسفور، وعسكر الفرس

---

(١) الصَّقالبة: مفردها صَقْلَبِيّ والصقالبة هم السُّلاف (Slav). وهم الرُّوس. انظر القاموس الإسلامي (٤/٢٩٧-٢٩٨).

تجاه القُسطنطينية، وبذلك تعرّضت العاصمة لزحف العدوّ من جهتين: إذ زحف عليها الفرس من الشرق، وزحف عليها الصقالبة والآفار[1] من الشمال.

وشرع الفرس بغزو مصر، فسقطت بأيديهم الإسكندرية سنة (٦١٩م)، ولم تلبث مصر بأسرها أن أصبحت بأيدي الفرس.

وبدأ هرقل بإجراء إصلاحات عسكرية وإدارية شاملة، وكان من نتائج هذه الإصلاحات تغلّب الصفة العسكرية على إدارة الإمبراطورية وإعادة تنظيم القوات المسلّحة. وكانت نتائج هذه الإصلاحات واضحة ملموسة، فنهضت الإمبراطورية من جديد، وهُزم الفرس هزيمة ساحقة منكرة بفضل جهود هرقل التنظيميّة وقيادته المتميزة.

كما أن الكنيسة البيزنطية أسهمت بقدر كبير فيما أحرزته الإمبراطورية من الفوز والنّجاح، إذ جعلت كلّ ما لديها من ثروة تحت تصرّف الحكومة، وما كان في كنائس العاصمة والأقاليم من التّحف المصنوعة من الذهب والفضّة جرى صهرها وسكّها نقوداً.

وقرّر هرقل أن يقود بنفسه الحرب على الفرس، وطغى على الحرب في مُستهلّها جوّ من الحماسة الدينية التي لم تكن معروفة في العصور الماضية، فكانت حرباً صليبيّة سابقة على الحرب الصّليبيّة المعروفة.

وفي يوم الاثنين ٣ نيسان (ابريل) سنة (٦٢٢م) غادر هرقل القائد العام للجيش البيزنطي العاصمة وعبر البسفور إلى آسيا الصغرى حيث لجأ إلى الثغور البيزنطية، فاجتمع له عدد كبير من الجند. وأمضى شهور الصيف في تدريب الجند، وعكف على دراسة الخطط العسكرية، فابتكر

---

(١) الآفار: المغول، انظر التفاصيل في الموسوعة البريطانية - القسم المختصر - ص (٦٧٧)، والقسم الموسع (٥٥٣/٣) و(٤٥٤/١٠) - طبعة ١٩٧٤م.

أساليب جديدة منها، فازدادت أهمية استخدام الفرسان في القتال، وأبدى هرقل اهتماماً كبيراً بالرُّماة من الفرسان.

وبدأ هرقل في الخريف من سنة (٦٢٢م) حملته، فشقّ طريقه إلى أرمينية وتقابل الجيشان البيزنطيّ والفارسي على أرضها، فانتصر الرُّوم على الفرس هناك انتصاراً حاسماً، وبذلك تحقّق أوّل هدف من أهداف هرقل، وهو تخليص آسيا الصغرى من العدو.

وفي سنة (٦٢٣م)، سار هرقل إلى إرمينية، فأحرز انتصارات على الفرس هناك، ثم توجه نحو الجنوب، فزحف على (جانزاك Ganzak) التي كانت عاصمة لأردشير - أوّل ملوك الساسانيين - وتعتبر من المراكز الدينية الرئيسة في فارس، فلاذ كسرى بالفرار من المدينة التي لم تلبث أن سقطت بيد الرُّوم، فأشعلوا الحرائق في معبد زرادشت انتقاماً لما أنزله الفرس من قبل ببيت المقدس من نهب وتخريب، ووقع بين هرقل عدد لا حصر له من الأسرى.

ودارت خلال سنتي (٦٢٤م و٦٢٥م) معارك طاحنة في إرمينية بين الرّوم والفرس، كانت الكفّة راجحة فيها للرُّوم على الفرس.

وفي سنة (٦٢٦م)، تعرّضت القُسطنطينية لهجوم مزدوج من الفرس والآڤار، ولكن لم ينجح الهجوم وانتصر الرُّوم في نهاية المعارك.

وفي سنة (٦٢٧م)، شرع هرقل بزحفه الكبير نحو الجنوب، متّجهاً إلى قلب بلاد الفرس، وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) من هذه السّنة، أحرز انتصاراً حاسماً في معركة نِيْنَوى الحاسمة التي قررت مصير النِّزاع بين الرُّوم والفرس نهائياً في مصلحة الرّوم، إذ أحرز البيزنطيون انتصاراً باهراً على الفرس، وحلّت بالجيش الفارسي هزيمة ساحقة وخسائر فادحة.

وواصل هرقل زحفه المظفّر، وفي أول سنة (٦٢٨م) استولى على

دَاسْتَاجِرْدَ مقر ملك فارس، فأسرع الملك بالخروج منها، مما أدّى إلى عزل كسرى وقتله، فتولى الحكم بعده ابنه، وعقد الصّلح مع هرقل.

وبمقتضى هذا الصلح، استردّ هرقل كلّ ما كان لبيزنطة من ممتلكات في الجزيرة وإرمينية وسورية وفلسطين ومصر، وأعلن كسرى شيرويه أثناء مرضه الذي مات فيه، بأن يكون هرقل وصيًّا على ابنه، وكان سلفه كسرى الثاني قد أعلن أنّ الأمبراطور البيزنطي، ليس إلاّ عبداً له، فتغير الزمن وانعكس الوضع، فأعلن شيرويه أنّ ابنه ووريثه في الحكم عبد للأمبراطور البيزنطيّ هرقل، وهكذا غيّر هرقل موازين القوى من حال إلى حال، فأصبح المغلوب غالباً، وأصبح العبد سيداً.

وعاد هرقل إلى عاصمته، بعد أن غاب عنها ست سنوات، فاستقبله ابنه على شواطىء آسيا الصغرى، واستقبله البطريرك سرجيوس ورجال الدين وأعضاء مجلس الشيوخ وجموع الشعب يحملون أغصان الزّيتون والشّموع الموقدة، يرتلون المزامير، ويهتفون باسمه فرحاً وسروراً.

ولما تحرّرت الأقاليم البيزنطيّة من الفرس، ارتحل هرقل وبصحبته زوجته سنة (٦٢٩م)[١] قاصداً بيت المقدس، حيث أعاد في ٢١ آذار (مارس) من سنة (٦٢٩م) وسط مظاهر الفرح الغامر، إقامة الصليب الذي كان قد غنمه الفرس في موضعه الأصليّ، كما أعاد الى مواضعها كلّ ما سلبه الفرس من الكنيسة، واعتبر المؤرخون أنّ هذه الحرب هي أول حرب مقدّسة شنّها العالم المسيحي على غيرهم من غير المسيحيين.

وتعتبر الحرب الفارسية البيزنطية مرحلة مهمة من مراحل التاريخ البيزنطي والفارسي أيضاً إذ أنّ معركة نينوى الحاسمة حطّمت قوة الفرس، ولم يعد لفارس ما كان لها من الأهمية.

ويعتبر عهد هرقل نقطة تحوّل في تاريخ الدولة البيزنطية من

---

(١) فتح العرب لمصر – بتلر – القاهرة – ١٣٥١هـ. ص (١٢٠).

النواحي الحضارية والسياسية والعسكرية، إذ انتهت المرحلة الرومانية من التاريخ، وبدأ ما يصحّ اعتباره التاريخ البيزنطي وقد اتخذ ظهور العنصر اليوناني وقوة المؤثّر الكنسيّ، فوهبا الأمبراطوريّة مظهراً جديدا.

وحين بدأ الصِّراع بين العرب المسلمين من جهة، والرُّوم وحلفائهم من جهة أخرى، كان الرُّوم أقوى دولة في العالم دون منازع، يقودهم هرقل أعظم أباطرة الرُّوم وقادتهم، وكانت معنويات الرُّوم قادة وجنوداً عالية جداً بعد انتصارهم على الفرس والآقار، وكانوا أكثر حضارة من العرب المسلمين القادمين من الصحراء، وأعرق بأساليب القتال، وأعظم تجربة عملية في الحرب، وأكثر عدداً وأغنى مَدَداً، ولكنهم اندحروا أمام العرب المسلمين بالرّغم من قوتهم في جيوشهم وقيادتهم لا من ضعف بها كما يزعم بعض المستشرقين والمستغربين.

وإلى هرقل، بعث النبيّ ﷺ رسالته النبويّة يحملها رسوله إليه، وكان هرقل يومها في أوج مجده وقوته ومعنوياته، فأرسل إليه النبيّ ﷺ يدعوه وقومه إلى الإسلام.

وفي ١١ شباط (فبراير) من سنة (٦٤١م) مات هرقل، فارتجت القسطنطينية لموته، وارتجت الأمبراطورية البيزنطية بخاصة والعالم المسيحي بعامة لرحيله، إذ فقدت المسيحيّة بموته بطلاً من أبطالها المعدودين: منقذ القدس من الفرس[١].

ب. كتب النبيّ ﷺ إلى هرْقل عظيم الرُّوم يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه مع دِحْيَة بن خليفة الكَلْبيّ في هُدْنة الحُدَيْبِيَّة في أواخر

(١) المراجع:

(1) Baynes, N.H: The Byzantin Empire London 1926.

(2) Ostrogorowski,G: History of The Byzantine, Trans.Joan Hussey,Oxford 1956.

(3) Vasiliev, A: The Byzantin Empire: Madison 1952.

سنة ست الهجرية، فآمن به هِرَقل وامتنع عليه بطارقته، فأخبر دحية رسولَ الله ﷺ بذلك، فقال: «**ثبت الله ملكه**»[١].

وفي رواية، أن القيصر هرقل أخذ كتاب النبيّ ﷺ فوضعه على خاصرته، ووصل دحية وقال: «لو كان في بلادي لاتّبعته ونصرته»[٢].

وفي رواية أنّ دحية وجد قيصر الرُّوم بِحمْص يمشي راجلاً إلى بيت المقدس شكراً لله على ما منحه من الظّفر على الفرس، وذلك وعْد الله فيهم بقوله تعالى: ﴿**آلم. غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم**﴾[٣]، فوضع قيصر كتاب رسول الله ﷺ على وجهه، ودعا الناس الى اتباعه فأبوا عليه، فلما أخبر دحية النبيّ ﷺ قال: «**بقي ملكه أو ثبت**»[٤].

وكانت الكنيسة تعضد هرقل في حربه لعبّاد النّار من الفرس، تلك الحرب التي توغّل فيها إلى قلب فارس وأحرز نصراً مؤزّراً على الفرس، وكانت تلك الحملات في نظره عملاً دينياً، وقد كان للدّين طيلة حكمه المنزلة الأولى[٥].

وسورة الرُّوم التي نزلت فيها هذه الآية سورة مكّية، وقد نزلت عند انتصار الفرس على الرُّوم في أدنى الأرض، وهي أرض العرب، لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم، وهي أرض الجزيرة والشّام والأردن وفلسطين. وبلغ خبر انتصار الفرس على الرُّوم مكّة، فشقّ على النبيّ والمسلمين لأنّ فارس مجوس لا كتاب لهم، والرُّوم أهل الكتاب،

(١) أسد الغابة (٢/١٣٠) والاستيعاب (٢/٤٦١).
(٢) المحبّر (٧٥-٧٦).
(٣) الآيات الكريمة من سورة الرُّوم (٣٠: ١-٥) وسورة الرّوم مكّية.
(٤) البدء والتاريخ (٤/٢٢٩) وانظر الطبري (٢/٦٤٦) وابن الأثير (٢/٢١١) وجوامع السيرة (٢٩).
(٥) الأمبراطورية البيزنطية (٥٥).

وفرح مشركو مكة وشمتوا، وقالوا: «أنتم النّصارى أهل الكتاب، ونحن وفارس أميّون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرنّ نحن عليكم»، فنزلت هذه الآية تبشّر المسلمين بانتصار الرُّوم على فارس بعد بضع سنين، والبِضْع ما بين الثلاث إلى التسع[1]. وهكذا كان، فقد انتصر الرُّوم على الفرس في بضع سنين، ففرح المسلمون بهذا النّصر وحزن المشركون.

وهذا هو نصّ الكتاب النبويّ إلى هِرَقْل عظيم الرُّوم:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمّد بن عبد الله ورسوله

إلى: هِرَقْل عظيم الرُّوم

سلام على مَنْ اتّبع الهُدى.

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِم تَسْلَم، وأَسْلِمْ يُؤتِكَ اللهُ أجْرَكَ مرّتين.

فإن تولّيت فعليكَ إثم الأريْسِيِّيْن[2]، و﴿يا أهل

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري (٤٠٢/٢) وانظر جميع التفاسير لإجماعها على هذا التفسير.

(٢) في الطبري (٦٤٩/٢) وابن الأثير (٢١٣/٢)، ورد: عليك إثم الأكارين. والأريسيين: جمع أريْسِيّ والأريس: الأكار، أي الفلاّح أو الحرّاث، انظر فتح الباري بشرح البخاري (٣٦/١). وقد وردت كلمة: الأريسيين أو اليريسيين، على اختلاف في الروايات، في الكتاب النبوي الذي وجّه إلى هرقل وحده، ولم ترد في كتاب من الكتب النبويّة الموجّهة إلى غيره. واختلف علماء الحديث واللّغة في مدلول هذه الكلمة، والقول المشهور أن الأريسيين جمع أريسي، وهم الخول والخدم والأكارون، كما جاء في شرح النووي لصحيح مسلم، وجاء في لسان العرب لابن منظور: (الأرس) الأصل، و(الأريس): الأكّار، نقله عن ثعلب، وذكر عن ابن الأعرابيّ أنه قال: أرس يأرس أرساً، إذا صار أريساً، وأرّس يؤرّس تأريساً: إذا صار أكّاراً». ونقل عن أبي عبيدة أنّه قال: «الأجود عندي أن يقال إنّ (الأريس) كبيرهم الذي يمتثل أمره =

= ويطيعونه إذا طلب منهم الطاعة »، انظر لسان العرب، مادة أرس.

وهنا يتساءل القارىء: إذا كان المراد من الأريسيين الفلاحون، كان كسرى أبرويز إمبراطور إيران، أحقّ بأن يُحَذَّر من وقع إثمهم ومسؤوليتهم عليه، وبأن ترد هذه الكلمة في الكتاب النبويّ الذي كُتب إليه، فإنّ طبقة الفلاحين كانت أعظم وأوسع وأكثر تميّزاً في المملكة السّاسانية الإيرانية منها في المملكة البيزنطية الرومانية، وكان أكثر اعتاد إيران في دخلها ومواردها على الفلاحة، وإلى ذلك نبّه الأزهريّ، كما نقل عنه ابن منظور بقوله: «وكان أهل السّواد مَن هو على دين كسرى أهل فلاحة وإثارة للأرض، وكان أهل الروم أهل أثاث وصنعة، فكانوا يقولون للمجوسيّ: أريسيين »، نسبوهم إلى « الأريس »، وهو الأكار، وكانت العرب تسميهم: الفلاحين، انظر لسان العرب، مادة أرس.

ولذلك نرجّح أنّ المراد بالأريسيين، هم أتباع: (أريوس) المصري (٢٨٠-٣٣٦م) وهو (Arius) مؤسّس فرقة مسيحية كان لها دور كبير في تاريخ العقائد المسيحيّة والإصلاح الديني، وقد شغلت الدولة البيزنطية والكنيسة المسيحية زمناً طويلا. وأريوس، هو الذي نادى بالتوحيد، والتميّيز بين الخالق والمخلوق، والأب والابن على حدّ تعبير المسيحيين - فأثار نقاشاً حول الموضوع، وكان الشغل الشاغل في المجتمع المسيحيّ لعدّة قرون، وآراؤه تتلخّص في: أنه ليس من شأن الإله الواحد أن يظهر على الأرض، لذلك هو ملأ السيّد المسيح بالقوة والكلام الإلهي، وأنّ من صفات الله الأساسية الوحدانية والأبديّة، وأنّه لم يخلق أحداً من ذاته رأساً، وأنّ الابن ليس هو الإله، بل هو مظهر لحكمة أمر الربّ، وأنّ ألوهيته إضافية لا مطلقة، انظر التفاصيل في: دائرة معارف الديانات والأخلاق (٧٧٧/١) مقال Arianism ويقول (James Mackinon) في كتابه: (من المسيح إلى قسطنطين): «وكان أريوس يلحّ على أنّ الله وحده هو القديم، كان الأزلي الأبديّ، وليس له شريك، وهو الذي خلق الابن من العدم، لذلك ليس الابن هو الأزليّ، ولم يكن الله أباً من الأبد، فقد كان حِيْناً من الدهر لم يكن فيه وجود للابن، وانّ الابن يحمل حقيقة خاصة لا يشاركه فيها الله، وهو خاضع للتطوّرات، وليس هو الله بالمعنى الصحيح، إلاّ أنه يصلح لأن يكون كاملاً، ولكنّه على كلّ حال مخلوق كامل »، انظر:

-From Christ to Constantine, London, 1936-

وقد أقصاه رئيس الكنيسة المصرية البطريق الكسندر (Alexander) في سنة (٣٢١م) من الكنيسة الاسكندرية، وغادر أريوس المدينة، ولكن لم ينته النزاع بخروجه، وحاول الأمبراطور قسطنطين حسم هذا الخلاف، ولكنه أخفق، وفي سنة (٣٢٥م) عقد مجمعاً في نيقيّة اجتمع فيه (٢٠٣٠) أسقفاً، وكان الامبراطور يميل إلى

= ألوهية المسيح، فحكم ضدّ أريوس، ولم يوافقه إلا (٣١٨) أسقفا فنفاه إلى (إليريا Illyria) وأحرقت كتاباته، وكان مَنْ وُجدت عنده يُعاقب، ولكن هذه المحاولات لم تُقَلِّل من أهمية أريوس وإقبال الناس عليه، وكان آخر أمره أن قسطنطين لان من موقفه ورفع الحظر على عقيدته. وبعد موت منافسه الأكبر البطريق الكسندر ونفي خليفته (أثاناسيوس Athanasius) عاد أريوس إلى الإسكندرية، وكاد قسطنطين يوليه رئاسة الكنيسة المصريّة ويدين بعقيدته، ولكن باغتته المنية قبل ذلك - انظر دائرة معارف الديانات والأخلاق، مقال (Arianism).

وقد جاء في كتاب: (الصّراع بين الدين والعلم) لـ «درابر»، أن ثلاثة عشر مجمعاً مسيحياً حكمت ضدّ أريوس في القرن الرابع المسيحيّ، وخمسة عشر مجمعاً حكمت في تأييده، وسبعة عشر مجمعاً أدلت برأي قريب من رأي أريوس، وهكذا عُقدت خمسة وأربعون مجمعاً مسيحياً للتقرير في هذه القضية.

ودامت عقيدة أريوس ودعوته تصارعان الدعوة المكشوفة إلى تأليه المسيح وتسويته بالإله الواحد الصمد، وكانت الحرب سجالاً، وقد دان بهذه العقيدة عدد كبير من النصارى في الولايات الشرقية من الدولة البيزنطية، إلى أن عقد (تيوسودس الكبير Theosodius The Great) مجمعاً مسيحياً في القسطنطينية، قضى بألوهية المسيح وابنيّته، وقضى هذا الإعلان على العقيدة التي دعا إليها أريوس واختفت، ولكنها عاشت بعد ذلك، ودانت بها طائفة من النصارى، اشتهرت بالفرقة الأريسيّة» أو «الأريسيين».

إذاً من المرجّح المعقول، أنّ النبيّ ﷺ، إنّما عنى هذه الفرقة بقوله: «فإن تولّيت فإن عليك إثم الأريسيين»، فإنها هي الفرقة القائمة بالتوحيد النسبيّ في العالم المسيحيّ الذي تتزعّمه الدولة البيزنطية، التي كان على رأسها القيصر هرقل.

ومن المعجب، أنّ بعض كبار العلماء الإسلام في العصر الأول، ذهبوا إلى هذا الرأي، فقد جاء في: «مشكل الآثار للإمام أبي جعفر الطحاوي، مؤلّف: شرح الآثار المشهور، (ت ٣٢١ هـ)، ما نصه: «وقد ذكر بعض أهل المعرفة بهذه المعاني، أنّ في رهط هرقل، فرقة تعرف بالأروسيّة توحّد الله وتعترف بعبودية المسيح لله عزّ وجلّ، ولا تقول شيئاً مما يقول النصارى في ربوبيته، وتؤمن بنبوته، فإنها تتمسك بدين المسيح مؤمنة بما في إنجيله، جاحدة لما يقوله النصارى سوى ذلك، وإذا كان ذلك كذلك، جاز أن يقال لهذه الفرقة: «الأريسيّون»، في الرّفع و«الأريسيين» في النصب والجر، كما ذهب إليه أصحاب الحديث»، أنظر: مشكل الآثار (٢/٣٩٩).

وقريباً من ذلك قال محيي الدين يحيى النووي شارح صحيح مسلم (٦٧٦ هـ)، فقال: الثاني إنهم اليهود أو النصارى، وهم أتباع عبدالله بن أريس، الذي تنسب إليه =

دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون﴾[1].

علامة الختم : رسول الله محمد



= الأروسيّة من النصارى، وله مقالة في كتب المقالات، ويقال لهم: الأروسيّون »، انظر: شرح النووي على مسلم (٣٩٩/٢).

انظر السيرة النّبوية - السيد أبو الحسن الندوي (٣٤٣-٣٤٩)، ومجلة مجمع اللّغة العربية - بحوث مؤتمر الدورة السادسة والأربعين (١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م) - الجزء الخـامس والأربعون - كلمـة الأريسيين - الـدكتور أحمد الحوفي (٦٩-٧٧) - القاهرة - جادى الآخرة ١٤٠٠هـ.

(١) أ. الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣: ٦٤).

ب. نصّ الكتاب في صحيح البخاري (٨/١) - التجريد الصّريح لأحاديث الجامع الصحيح - الحسين بن المبارك - القاهرة - ١٣٤٧هـ.

وقد روى الطّبراني، أنّ دِحية الكلبيّ، قال: «بعثني رسول الله ﷺ، إلى قيصر صاحب الرُّوم بكتاب، فقلت: استأذنوا لرسول رسول الله ﷺ. وأتى قيصر، فقيل له، إنّ على الباب رجلاً يزعم أنّه رسول رسول الله، ففزعوا لذلك، وقال: أدخله. فأدخلني عليه، وعنده بطارقته، فأعطيته الكتاب، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمّد رسول الله. إلى: قيصر صاحب الرّوم. فخر ابن أخ له أحمر أزرق سَبْطَ[1]، فقال: لا تقرأ الكتاب اليوم، فإنّه بدأ بنفسه، وكتب صاحب الرُّوم ولم يكتب ملك الرُّوم. قال: فقُرىء الكتاب حتى فرغ منه، ثمّ أمرهم فخرجوا من عنده، ثم بعث إليّ، فدخلت عليه، فسألني فأخبرته، فبعث إلى الأسقف فدخل عليه، وكان صاحب أمرهم، يُصدرون عن رأيه وعن قوله، فلما قرأ الكتاب قال الأسقف: هو والله الذي بشّرنا به موسى وعيسى الذي كنّا ننتظر. قال قيصر: فما الذي تأمرني؟ قال الأسقف: أما أنا فإني مصدّقه ومتّبعه. فقال قيصر: أعرف أنّه كذلك، ولكن لا أستطيع أن أفعل، إن فعلتُ ذهب ملكي وقتلني الرُّوم»[2].

وأراد هرقل استقصاء أخبار النبي ﷺ من العرب أبناء جلدته، وقد روى الإمام البخاري رحمه الله تفاصيل هذا الاستقصاء في صحيحه من حديث عبدالله بن عبّاس رضي الله عنهما، قال: «إن أبا سفيان أخبره أنّ هرقل أرسل إليه في ركْبٍ من قريش كانوا تجاراً بالشام، في المدّة التي كان رسول الله ﷺ مادّاً فيها أبا سفيان وكفار قريش - أي صالحهم في صلح الحديبيّة - فأتوه وهم بإِيْلِيَاء - القدس - فدعاهم وحوله عظماء الرُّوم، ثم دعاهم ودعا بالترجمان فقال: أيّكم أقرب نسباً بهذا الرّجل الذي يزعم أنّه نبيّ. قال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم.

---

(١) سبط: بفتح السين، وسكون الباء وفتحها وكسرها، والسبط من الرجال: الطويل.
(٢) رواه الطبراني في الكبير، انظر البداية والنهاية (٤/٢٦٧).

فقال: أدنوه مني، وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظَهْرِه. ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذِّبوه. فوالله لولا الحياء من أن يأثُروا عليّ كذباً لكذبتُ عنه. ثم كان أوّل ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قطُّ قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائِه مِنْ مَلِكٍ؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتدّ أحد منهم سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا. ونحن منه في مُدّة لا ندري ما هو فاعل فيها، ولم يُمْكِنِّي كلمةٌ أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سِجَال، ينال منّا وننال منه. قال: فماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم، ويأمرنا بالصّلاة والصِّدق والعفاف والصِّلة. فقال للترجمان: قل له: إني سألتك عن نسبه، فذكرت أنّه فيكم ذو نسب، وكذلك الرُّسل تُبعث في نسب قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحدٌ قال هذا القول قبلهُ لقلت: رجل يتأسّى بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه من ملكٍ، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه من ملك، قلت رجلٌ يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنّه لم يكن ليذر الكذب على النّاس ويكذب على الله. وسألتك: هل أشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أنّ ضعفاءهم اتّبعوه وهم أتباع الرُّسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنّهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يَتِمّ. وسألتك: أيرتدّ أحد سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا،

وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك: هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرّسل لا تغدر. وسألتك: بما يأمركم، فذكرت أنّه يأمركم أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصّلاة والصّدق والعفاف، فإنْ كان ما تقول حقًّا، فسيملك موضع قدميّ هاتين. وقد كنت أعلم انّه خارج، لم أكن أظنّ أنّه منكم، فلو أعلم أني أُخْلص إليه لتجشَّمتُ لقاءه، ولو كنت عنده لغسلتُ عن قَدَمِهِ. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بُعث به دحية إلى عظيم بُصْرى فدفعه إلى هرقل، فقرأه - ونصّه كما ذكرناه في أعلاه - قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصَّخْب وارتفعت الأصوات، وأُخرجنا. فقلت لأصحابي: إنه يخاف ملك بني الأصفر! فما زلتُ موقناً أنّه سيظهر، حتى أدخل الله عليّ الإسلام »[1].

ولم يكتفِ هرقل باستقصاء خبر النبيّ ﷺ من أبناء قومه قريش، بل كتب إلى رجل برومة في إيطاليا كان يقرأ الكتب، يخبره شأن الكتاب الذي حمله إليه رسول رسول الله ﷺ، فكتب إليه صاحبه الذي برومة: «إنه النبيّ الذي كنّا ننتظره لا شكّ فيه، فاتْبَعْه وصدّقْه»، فجمع هرقل بطارقة الرُّوم في الدَّسْكَرَة[2] وغُلقت أبوابها، ثم أطلع عليهم من عِلِيَّة وخافهم على نفسه، وقال لهم: «قد أتاني كتاب هذا الرّجل يدعوني إلى دينه، وإنّه والله النبيّ الذي نجده في كتابنا، فهلمّ فلنتبعه ونصدّقه، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا»، فنخروا نخرة رجل واحد، ثم ابتدروا الأبواب ليخرجوا، فقال: «ردّوهم عليّ» وخافهم على نفسه

---

(١) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (١/٧-٨) وفتح الباري بشرح البخاري (١/٣٠-٣٨)، وانظر البداية والنهاية (٤/٢٦٤-٢٦٥).

(٢) الدّسكرة: بناء كالقصر، حوله بيوت للأعاجم، فيها الشّراب والملاهي، يكون للملوك (معرّبة).

وقال لهم: «إنما قلت لكم ما قلت لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، وقد رأيت منكم ما سرّني»، فسجدوا له، وأمر بأبواب الدَّسْكَرَةَ ففُتحت لهم، فانطلقوا[1].

جـ. والذي يستعرض ما جاء حول سفارة دحية، يمكن أن يستنتج أنّ دحية قصد أمير بُصْرى وهو من العرب، فرافقه أمير بُصرى إلى هرقل، ليكون باستقبال قيصر في رحلته إلى بيت المقدس،وليحمل إليه كتاب النبيّ ﷺ. ولم يكن بمقدور أمير بُصرى أن يحجب كتاب النبيّ ﷺ عن هرقل ولا بمقدوره أن يحجب دحية عن هرقل، لأنّ الكتاب النبويّ موجّه إلى هرقل لا إليه، ولأنّ السفير النبوي يريد هرقل لا أمير بصرى، وكلّ دور أمير بُصرى هو إيصال الكتاب النبويّ والسفير النبوي الى مثابتها، فكان صلة العقد بين السفير النبوي وكتاب النبيّ ﷺ وبين هرقل.

ويبدو أنّ أمير بُصرى لم يستطع أن يحجب السفير النبوي والكتاب الذي يحمله عن هرقل، بالإضافة إلى ما ذكرنا، لمعرفة الأمير أنّ هرقل متديّن جداً، وهو يميل إلى مثل ذلك السفير وإلى مثل كتابه الذي معه.

ومهما يكن من أمر، فإن الكتاب النبوي قد وصل إلى هرقل، وأن الذي أوصل الكتاب إلى هرقل هو دحية بعد أن سهّل له أمير بصرى هذا اللّقاء، وأنّ هرقل تسلّم الكتاب وهو في حِمْص في طريقه إلى بيت المقدس حاجّاً وشاكراً، فقد تأخر ركب هرقل حتى وصل إلى بيت المقدس لكثرة ما لاقاه من حفاوة وتكريم في كلّ مدينة اجتازها، واستغرق ذلك عدة أشهر، ومعنى

---

(١) الطبري (٢/٦٤٩-٦٥٠) وابن الاثير (٢/٢١١).

ذلك أنّ دحية لاقى هرقل في سنة سبع الهجرية (٦٢٩م-٦٣٠م)، فحمل هرقل كتاب النبيّ ﷺ معه. ولما استقرّ به المقام في القدس وأكمل واجباته الدينية والإدارية فيها، ثم علم أنّ تجاراً من العرب أهل مكة بلد النبيّ ﷺ في بيت المقدس، فدعاهم إليه وناقشهم في أمر الكتاب النبويّ وفي أمر النبيّ ﷺ، ليزداد علماً وليطمئنّ قلبه، فظنّ بعض الباحثين أن دحية قابل هرقل في بيت المقدس، بينما تاريخ زيارة هرقل للقدس هي في السنة الثامنة الهجرية، ومن الصعب ان يمضي دحية أكثر من سنة في سفارته، كما أنّه ليس من المعقول أن يبقى أكثر من سنة بعد أن أدّى رسالته كما ينبغي، إذ لا مسوّغ لهذا الانتظار.

وقد أجمعت المصادر الأجنبية المعتمدة على أنّ هرقل كان شديد التديّن عظيم الإيمان، فليس من الغريب أن يستهويه الكتاب النبويّ وما جاء فيه - بالرغم من إيجازه - من رفق الدّعوة وحكمة النبوّة، بل الغريب ألاّ يستهويه وهو الذي يميل بطبعه الى التديّن ويبحث عن الحق.

وليس من المبالغ فيه، ما جاء حول تجاوبه مع الكتاب النبويّ تجاوباً واضحاً، وتصريحه لدحية بهذا التّجاوب، ولكن تجاوبه لم يخرج أبداً إلى حيِّز التنفيذ، إذ كان ملكه ومصيره في حاضره ومستقبله أغلى عليه من الإيمان، فآثر الدنيا على الآخرة، وما عند الناس على ما عند الله. وقد حاول أن يجد طريقاً لا خطر فيه على ملكه وحاضره ومستقبله، فوارب من ميله إلى الإسلام، فقوبلت مواربته بالرفض الشّديد العنيف من حاشيته ورجاله وأهل دولته وقساوسته، فتخلّى عن تلك المحاولة إلى الأبد، ومضى مع التيار السائد الذي كان قوياً عارما، وآثر السّلامة على ما يمكن أن يحيق به من أخطار.

ولم يكن سكوته عن الحق إلا هدنة مؤقتة، فبعد سنة من لقائه بدحية اشتبكت قوات المسلمين بقوات الرُّوم في مُؤْتَة التي كانت في

جمادى الأولى من السنة الثامنة الهجريّة، كما اشتبك الطرفان في غزوة تبوك التي كانت في رجب من السنة التاسعة الهجرية.

فلما التحق النبيّ ﷺ بالرّفيق الأعلى، اشتبك المسلمون بالرّوم في معركة اليرموك بعد سنتين من التحاقه عليه الصلاة والسلام بالرّفيق الأعلى، ثم توالت انتصارات المسلمين على الرّوم وساروا من نصر إلى نصر، حتى فتحوا أرض الشام كلّها: سورية ولُبنان والأُردن وفلسطين، فغادر هرقل أرض الشام إلى القُسطنطينيّة، فلما اجتاز حدودها سنة خمس عشرة الهجريّة أو سنة ست عشرة الهجرية[1]، انسابت كلماته دموعاً وهو يودِّع سوريّة وداعه الأخير: «عليك السّلام يا سورية سلاماً لا اجتماع بعدْ، ولا يعود إليك روميّ إلا خائفاً»[2].

لقد كان بين تسلّم هرقل الكتاب النبوي، وبين اندحار الرّوم في أرض الشام وفتح المسلمين لها ثماني سنين حسب، وما أقلّها في عمر الزمن، وهكذا جاء الحق وزهق الباطل، إنّ الباطل كان زهوقاً.

د. وكان نصّ جواب قيصر الرُّوم هرقل إلى النبيﷺ:

«إلى: أحمد رسول الله الذي بشّر به عيسى.

من: قيصر ملك الرُّوم.

إنه جاءني كتابك مع رسولك، وإني أشهد أنّك رسول الله، نجدك عندنا في الإنجيل، بشّرنا بك عيسى ابن مريم، وإني دعوت الرُّوم إلى أن يؤمنوا بك، فأبوا.

---

(١) الطبري (٣/٦٠٢) وابن الأثير (٢/٤٩٤).
(٢) الطبري (٣/٦٠٣) وابن الأثير (٢/٤٩٤).

ولو أطاعوني لكان خيراً لهم، ولوددت أني عندك أخدمك وأغسل قدميك».

(توقيع هرقل)

وأكثر المصادر العربية الإسلامية لا تذكر رسالة هرقل الجوابية إلى النبيّ ﷺ بهذا النّص المذكور هنا، ولكنّها تُجمع على أنّ فحوى جواب هرقل الى النبي ﷺ الذي حمله دحية في عودته من أرض الشام إلى المدينة المنوّرة يطابق نصّ هذه الرسالة الجوابية.

والذي أرجّحه، أنّ رسالة هرقل إلى النبي ﷺ كانت رسالة شفهية، حمّلها دحية الكلبيّ في طريق عودته من أرض الشام إلى المدينة المنورة، وكانت صورة لما استقرّ عليه هرقل من إيمان بالإسلام سرّاً لا علنا، وكان خوفه العظيم من رجال الدّين المسيحيّ والرّوم يحول بينه وبين الجهّر بإيمانه، وكان رجال الدّين المسيحي الرُّوم بدرجة من القوة والتأثير في الرُّوم ما تُعدّ قوة هرقل بجانب قوّتهم شيئاً ضئيلاً، لذلك لم يرد أن يكتب جواباً خطياً إلى النبيّ ﷺ يعلن فيه ما استقرّ في قلبه من أثر إيجابي للكتاب النبويّ خوفاً من احتمال انكشاف نص جوابه إلى رجال الدّين الرّوم وبخاصة والرّوم كافة بعامة، فتقع عليه الطامّة الكبرى، فَيُقتل ويخسر ملكه، وهذا ما لا يستطيع قبوله وتقبّله وتحمّل نتائجه القاسية، لذلك كانت، رسالته شفهية إلى النبي ﷺ لأنّ السّفير النبويّ لا يمكن أن يبوح بها لرجال الدّين الرّوم وللرّوم من غير رجال الدين مهما تكن الظروف والأحوال، وتبقى سرّاً مصوناً لا شك فيه، ويكون وصولها إلى النبيّ ﷺ مضمونا.

وبلّغ دحية جواب هرقل الى النبيّ ﷺ بعد عودته من سفارته إلى قيصر الرُّوم، وعلى طريقة المحدّثين في التوثيق، نقلوا رسالة النبيّ ﷺ إلى هرقل عن الثقاة من رواة الحديث النبويّ الشريف، فلما فتح

المسلمون أرض الشام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نقلوا أخبارها عن رجال الدّين المسيحيّ الذين عاصروا هرقل وأحاطوا علما بأخبار الكتاب النبويّ إليه وردّ الفعل الذي بدر منه بعد تسلم ذلك الكتاب.

ومن الطبيعي أن تكون هناك بعض الاختلافات في الروايات المنقولة، ولكن ذلك الاختلاف لا يغيِّر من الواقع شيئاً، لأنّه اختلاف في المباني وليس اختلافاً في المعاني، واختلاف في المحتوى وليس اختلافاً في الفحوى.

٢. إلى ضغاطر
أسقف الرُّوم الأعظم

حين قدم دحية بكتاب رسول الله ﷺ على هِرَقل، قال له: «إني لأعلم أنّ صاحبك نبيّ مُرْسل، وأنه هو الذي كنّا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكني أخاف الرُّوم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته، فاذهب الى ضغاطر (صغاطر)[1] الأسقف الأعظم في الرُّوم، واذكر له أمر صاحبك، وانظر ما يقول لك، فهو أعظم والله وأجوز قولاً عندهم مني.

وجاءه دحية وأخبره بما جاء به من رسول الله ﷺ إلى هرقل، وبما يدعوه إليه، فقال له ضغاطر: «صاحبك والله نبيّ مُرْسل، نعرفه بصفته، ونجده في كتبنا باسمه»، ثمّ دخل فألقى ثياباً كانت عليه سوداً، ولبس ثياباً بيضاً، ثم أخذ عصاه، فخرج على الرُّوم وهم في الكنيسة، فقال: «يا معشر الرُّوم! إنّه قد جاءنا كتاب من أحمد، يدعونا فيه إلى الله عزّ

---

(١) ورد كذلك في الطبري (٢/٦٥٠)، أما في طبقات ابن سعد (١/٢٧٦) وابن الأثير (٢/٢١١)، فورد: ضغاطر.

وجلّ، وإني أشهد أن لا إله الا الله، وأنّ أحمد عبده ورسوله »[1].

وهذا هو نص الكتاب النبوي الذي حمله دحية من النبيّ ﷺ إلى ضغاطر يدعوه فيه إلى الإسلام.

« بسم الله الرحمن الرحيم

إلى: ضغاطر الأسقف

سلام على مَنْ آمن.

أما على أثر ذلك، فإنّ عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم الزّكيّة، وإني أؤمن بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أُوتي موسى وعيسى، وما أُوتِيَ النبيُّون من ربِّهم، لا نفرِّق بين أحدٍ منهم، ونحن له مُسلمون. والسلام على مَنْ اتبع الهدى »[2].

علامة الختم: الله رسول محمد

ولم يكد رجال الدين المسيحيّ يجدون أنّ ضغاطر الأسقف الأعظم في الرُّوم قد أسلم، إلاّ ووثبوا عليه وثبة رجل واحد، فضربوه حتى قتلوه. فلما رجع دحية إلى هرقل وأخبره الخبر، قال: « قد قلت لك إنا نخافهم على أنفسنا، فضغاطر والله كان أعظم عندهم وأجوز قولاً مني »[3].

---

(١) الطبري (٢/٦٥٠) وابن الأثير (٢/٢١١).

(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٧٦).

(٣) الطبري (٢/٦٥٠-٦٥١) وابن الأثير (٢/٢١١).

ولم يكن ضغاطر حينذاك أسقف الرُّوم الأعظم، بل كان سرجيوس الأول (٦١٠م - ٦٣٨م)[١]، وقد توفي سنة (٦٣٨م) على فراشه ولم يُقْتل، ويُحتمل أن يكون ضغاطر أكبر أساقفة الرّوم الذين كانوا برفقة هرقل في مسيرته من القسطنطينية إلى بيت المقدس للشكر والحج، بمناسبة انتصاره الحاسم على الفرس واسترجاعه الصليب المقدّس من الفرس، والمصادر العربية الإسلامية وحدها تنصّ على كتاب النبي ﷺ إلى ضغاطر، وتنصّ على إسلامه واستشهاده. ومهما يكن من أمر، فإن الكتب النبوية إلى ملوك العالم في حينه هي الموثّقة بالدرجة الأولى، أما الكتب إلى غيرهم فليست مهمّة كالكتب إلى الملوك ولم توثق توثيقاً لا يتطرق إليه الشك، وللباحث أن يفكّر بها ويحقّق في أمرها كما يشاء ويرضى.

لقد نهض دحية بأعباء سفارته على أحسن وجه، فبلغ رسالة النبي ﷺ إلى هرقل وإلى الأسقف الذي كان برفقته.

وإذا أحجم هرقل والرّوم يوم ذاك عن الاستجابة للدعوة الإسلامية بصورة فردية أو جماعية، إلا أن أثر الدعوة في نفوسهم كان عظيماً.

---

(١) رستم - أسد رستم - الرّوم - (٣٠١/٢) - ط ١ - بيروت - ١٩٥٦م.

إلى كِسْرَى
ملك الفرس

١. كسرى ملك الفرس:

كِسْرَى وكَسْرَى، اسم ملك الفُرس مُعَرَّب، وهو بالفارسيَّة: خُسْرَوْ، أي واسع المُلْك، فعرّبته العرب، فقالت: كِسرى وكَسْرى[1]، ويطلق على ملوك فارس السَّاسانيين[2]، وقد وُلد النبي ﷺ على عهد كسرى الأول أنو شروان (٥٣١م - ٥٧٩م)[3]، إذ كان مولده عليه الصّلاة والسلام يوم ٢٠ نيسان (أبريل) من سنة (٥٧١م)[4].

وتولى الملك بعد أنوشروان ابنه هرمز الرابع (٥٧٩م - ٥٩٠م)، فلما توفي هرمز خلفه ابنه كسرى الثاني أَبَرْويزْ (٥٩٠م - ٦٢٨م) وهو الذي وجّه النبي ﷺ إليه كتابه النبوي[5] الذي سيرد ذكره وشيكاً.

ولعلّ من المفيد أن نعرف شيئاً عن كسرى الثاني أَبَرْوِيز (برويز بالفارسية)، وأبرويز لقبه لا اسمه، ومعناه: المظفّر.

---

(١) لسان العرب (٤٥٧/٦) وترتيب القاموس المحيط (٤٤/٤).
(٢) الموسوعة العربية الميسّرة (١٤٦٣).
(٣) الروم (٣١٢/٢) وانظر تفاصيل حياته في: إيران في عهد الساسانيين (٣٤٨ - ٤٢٤).
(٤) ومضات من نور المصطفى (١٥) - ط - القاهرة - ١٣٩٩ هـ.
(٥) ابن الأثير (٤٨١/١).

تولى كسرى الثاني العرش بعد مقتل أبيه في أعقاب ثورة عارمة عليه، ولكن القائد بهرام جوبين لم يكن مستعداً لمبايعة الملك الجديد، لأنه نفسه كان يطمع بالعرش. وولى كسرى فراراً أمام قوات بهرام المتفوقة، فدخل بهرام مظفراً إلى المدائن عاصمة كسرى، ووضع التّاج على مفرقه رغم معارضة فريق من عظماء الفُرس له، ثم سك النقود باسمه بينما كان كسرى يعبر الحدود البيزنطية، ويحتمى بالإمبراطور موريس (مور يقيوس = موريق) الذي حكم الرُّوم (٥٨٢م - ٦٠٢م).

وقد عمل الإمبراطور موريس على مناصرة كسرى، وأمدّه بالعون الحربيّ، على أن ينزل له كسرى عن مدينتي: دارَا[١] و ميَّافارقيْن[٢]، وكان الرُّوم قد استولوا عليها في الحرب. وقد أدّى هذا التحوّل في مجرى الحوادث إلى الأثر المطلوب، فإن كثيراً من العظماء الذين كانوا يؤيدون بهرام حتى ذلك الوقت قد انفضوا من حوله. وبعد معارك بين قوّات كسرى المؤلفة من الإيرانيين والرُّوم والأرمن وبين قوات بهرام، هُزم بهرام قرب مدينة جنزك في أذربيجان ولجأ بهرام إلى بلاد الترك حيث قُتل بعد قليل.

ولم يكن رجال الدِّين الفرس سعداء بعودة كسرى إلى العرش، فقد تأثَّر أثناء إقامته في بلاد الرُّوم بالمسيحية ومال إلى الإيمان بجميع أنواع الأوهام والخرافات المسيحية، وقد لبث على هذه الميول تصرفه إليها امرأة نصرانية اختصّها بحبّه هي شيرين، كما لم يكن الخطر الذي يهدِّد عرشه من عظماء الفرس بعيداً.

---

(١) دارا: بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٥).

(٢) ميافارقين: مدينة بديار بكر في الجزيرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢١٤/٨ - ٢١٨).

وبعد سنوات اتّخذ كسرى من مقتل الإمبراطور موريس إمبراطور الرُّوم الذي أعانه في استعادة عرشه، على يد فوكاس (فوقاس) الذي حكم الرُّوم من سنة (٦٠٢م إلى سنة ٦١٠م) ذريعة لبدء حرب جديدة مع بيزنطة. وقد طرد هِرَقْلُ فوكاس سنة (٦١٠م) وقتله، ولكن الحرب استمرت، وغزا قواد الفرس جهـــات في آسيـــا الصغرى والرُّهاء[1] وأنْطَاكية[2] ودمشق، ثم بيت المقدس حيث انتزعوا الصّليب وبعثوا به إلى المدائن، ثم استولوا على الإسكندرية وأجزاء أخرى من مصر. وفي ذلك الوقت، أي حوالي سنة (٦١٥م)، بلغت قوة كسرى أوجها.

وقد أوقف هرقل (٦١٠م - ٦٤١م) آخر الأمر الزّحف المظفّر للقوات الفارسية، ثم استعاد ما خسره الرُّوم من أصقاع، واستـعدّ لحصار المدائن، فغادر كسرى العاصمة ليأمن على نفسه، ولكنه لقي حتفه بعد قليل.

---

(١) الرُّهاء: مدينة بالجزيرة، بين الموصل والشام، انظر التفاصل في معجم البلدان (٥/٤).

(٢) أنطاكية: مدينة مشهورة تعتبر قصبة العواصم في الثغور الشّامية، وهي من أعيان البلاد وأمّهاتها، وفيها سور له ثلاثة وستون برجاً من أبراج المراقبة، وبين أنطاكية والبحر نحو فرسخين، ولها مرسى على البحر في بليد يقال له: السُّويديَّة، ترسو فيه المراكب، فترفع الأمتعة إلى أنطاكية على الدّواب. انظر بحث: بلاد الرّوم.



هذا هو إجمال ما جرى من حوادث أيام كسرى الثاني الذي سمى نفسه: «الرَّجل الخالد بين الآلهة، والإله العظيم جداً بين الرِّجال، صاحب الصيت الذائع، الذي يصحو مع الشمس، والذي يهب عينيه للنيل». وأُحيط كسرى بجلال لم يبلغه ملك قبله، وقد ذكره الطبري فقال: «كان من أشد ملوكهم بطشاً وأنفذهم رأياً وأبعدهم غورا، وبلغ فيما ذُكر من البـــأس والنَّجـــدة والنّصر والظّفر وجمع الأموال والكنوز ومساعدة القدر ومساعفة الدهر إياه ما لم يتهيأ لملكٍ أكثر منه، ولذلك سُمّي: أَبَرْويز، وتفسيره بالعربية المظفر»[1]. «وكان كسرى قد طغى، لكثرة ما قد جمع من الأموال وأنواع الجواهر والأمتعة والكُراع وافتتح من بلاد العدو، وساعده من الأمور، ورُزِق من مؤاتاته وبطر، وشره شرها فاسداً، وحسد الناس على ما في أيديهم من الأموال...»[2].

وبعد حكم دام سبعاً وثلاثين سنة لقي كسرى الثاني المصير الذي أعدّه لأبيه من قبل، فإنّه بعد اندحاره أمام هرقل وهروبه من المدائن، ثار قوّاده عليه وكانوا ساخطين على إصرار كسرى على مواصلة الحرب التي لا أمل فيها، وأخيراً قتله ابنه شيرويه وتولي الملك مكانه[3]، وكان مقتل كسرى الثاني سنة (٦٢٨م) أي في السنة السابعة الهجرية.

٢. السفارة النبوية إلى كسرى:

أرسل النبي ﷺ الرّسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتباً، فقيل: يا رسول الله! إن الملوك لا يقرأون كتاباً إلا مختوما» فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذٍ خاتماً من فضة، فصُّه منه، نقشه ثلاثة أسطر:

---

(١) الطبري (١٧٦/٢)

(٢) الطبري (٢١٥/٢).

(٣) انظر: إيران في عهد السّاسانيين (٤٢٧ - ٤٧٧)، والطبري (٢١٥/٢ - ٢٢٩) وتاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء (٥٣ - ٥٤).

محمد سطر في الأسفل، ورسول سطر في الوسط، والله سطر في الأعلى، وختم به الكتب، وكان الخاتم بهذا الشكل:

الله
رسول
محمد

وكان سفير النبي ﷺ إلى كسرى، هو عبد الله بن حُذافة القُرَشيّ السَّهْمِيّ، فخرج في شهر المحرّم من السنة السّابعة الهجريّة إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام، ومعه كتاب النبي ﷺ[1] إلى كسرى أبرويز بن هرمز ملك الفرس الذي حكم سبعاً وثلاثين سنة كما ذكرنا قبل سطور، أو ثمانياً وثلاثين سنة ولمضيّ اثنتين وثلاثين سنة من ملكه وخمسة أشهر وخمسة عشر يوماً هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة[2]، وفي أيامه بعث النبي ﷺ بالرِّسالة[3].

وكان نصّ كتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى أبرويز:

بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمّد رسول الله.

إلى: كسرى عظيم فارس.

سلام على مَنْ اتّبع الهُدى وآمنَ بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلاّ الله، وأني رسول الله إلى الناس

---

(١) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨ - ٢٥٩).
(٢) الطبري (٢/٢١٨).
(٣) البدء والتاريخ (٣/١٧٠).

كافة، لينذر مَنْ كان حيًّا، فإن أبيتَ فعليك إثم المجوس »[1].

الله
علامة الختم رسول
محمد

وفي رواية أخرى، أن نص الكتاب النبوي كان:

بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد رسول الله

إلى كسرى عظيم فارس

سلام على مَن اتّبع الهُدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

وأدعوك بدُعاء الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأُنذر مَن كان حياً ويحق القول على الكافرين.

فاسْلِمْ تَسْلَم، فإن أبيتَ، فإنّ إثم المجوس عليك »[2].

الله
علامة الختم رسول
محمد

---

(١) الطبري (٢/٦٥٤).

(٢) الطبري (٢/٦٥٤ - ٦٥٥) وابن الأثير (٢/٢١٣) صبح الأعشى (٦/٢٩٦) والقسطلاني (١/٢٩١)، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٧٦ - ٧٧).

ومعنى الكتابين في الرواية الأولى والثانية واحد، لا اختلاف فيه، ولكن الرواية الثانية هي المعتمدة، لإجماع أكثر المصادر المعتمدة عليها[1]، ولوضوح الكتاب النبوي وشموله وبلاغته، على الرّغم من أنّ الكتاب النبوي الأول يشاطر الكتاب النبوي الثاني بوضوحه وشموله وبلاغته.

قال عبد الله بن حذافة: «فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقُرىء عليه، ثم أخذه فمزّقه. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: **اللهمّ مَزِّق ملكه**».

وكتب كسرى إلى باذان[2] عامله على اليمن: «أنْ أبعث من عندك رجلين جَلْدَين إلى هذا الرَّجل الذي بالحجاز، فليأتياني بخبره»، فبعث باذانُ قُهْرَمانه[3] ورجلاً آخر معه، وكتب معهما كتاباً، فقدما المدينة المنوّرة. ودفعا كتاب باذان إلى النبي ﷺ، فتبسم رسول الله ﷺ ودعاهما إلى الإسلام، وفرائصهما تُرعد وقال: «**ارجعا عني يومكما هذا حتى تأتياني الغد، فأُخبركما بما أُريد**».

---

(١) وجاء في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٣٢/١): أبو معشر عن بعض المشيخة قال: «كتب رسول الله ﷺ مع عبد الله بن حذافة إلى كسرى: من محمد رسول الله. إلى كسرى عظيم فارس. أَسْلِمْ تَسْلَمْ. من شهد شهادتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا، فله ذمة الله وذمة رسوله». وجاء في مجموعة الوثائق السياسية: «الظاهر أنه سهو من الراوي وإدغام بين كتابين: كتاب كسرى المذكور في أعلاه، وكتاب المنذر بن ساوى حسب رواية القلقشندي».

(٢) باذان الفارسي: من الأبناء، وهم من أولاد الفرس الذين سيّرهم كسرى أنو شروان مع سيف ذي يزن إلى اليمن لقتال الحبشة، فأقاموا باليمن، وكان باذان بصنعاء، فأسلم في حياة النبي ﷺ، وكان له أثر كبير في قتل المرتد الأسود العنسي، انظر أسد الغابة (١٦٣/١) والإصابة (١٧٦/١).

(٣) القهرمان: أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه (فارس معرّب).

وجاءاه من الغد، فقال لهما: «**أبلغا صاحبكما أنّ ربي قد قتل ربّه كسرى في هذه الّليلة لسبع ساعات منها، وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليالٍ مضين من جمادى الأولى سنة سبع، وأن الله تبارك وتعالى سلّط عليه ابنه شِيْرَوَيْه فقتله**»، فرجعا إلى باذان بذلك، فأسلم هو والأبناء الذين باليمن[١].

وفي رواية أخرى، أن كسرى مزّق كتاب النبي ﷺ واستخفّ به، وكتب إلى باذان: «أن عبداً من عبيدي قد كتب يدعوني إلى دينه، فابعث إليه رجلين جلدين يأتياني به مربوطاً، وإن أبا عليهما فليضربا عنقه»، فلما بلغ النبي ﷺ تمزيقه كتابه قال: «**مزّق كتابي، مزق الله ملكه**»[٢].

وفي رواية ثالثة أنّ كسرى لما قرأ كتاب النبي ﷺ قال: «بدأ بنفسه قبلي!»، وقدَّ كتابه شتوراً[٣]، فقال رسول الله ﷺ: «**مزّق الله ملك فارس كلّ ممزّق**»، فما أفلحوا بعد دعوته[٤].

وفي رواية رابعة، أن كسرى لما قرأ الكتاب النبوي قال: «بدأ بنفسه قبلي!»، وكان النبي ﷺ، قد أمر عبدالله بن حُذافة أن يدفع كتابه إلى كسرى إلى عظيم البَحْرَين[٥]، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى،

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٦٠/١).
(٢) البدء والتاريخ (١٧٠/٣).
(٣) شَتَرهُ - شَتْراً: قطعة. ويقال: شتر ثوبه: مزّقه.
(٤) المحبّر (٧٧).
(٥) البحرين: هكذا يتلفظ بها في حال الرّفع والنصب والجر، ولم يُسمع على لفظ المرفوع من أحدٍ منهم، إلا أن الزّمخشري قد حكى بأنه بلفظ التثنية، فيقولون: هذه البحران، وانتهينا إلى البحرين، ولم ير هذا الرأي غير الزّمخشري. وهو اسم جامع لبلاد على الخليج العربي، وهجر قصبة البحرين، وفيها عيون وبلاد واسعة: انظر معجم البلدان (٧٢/٢ - ٧٦).

فلما قرأه خرّقه، فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزّقوا شرّ مُمزّق[1].

وذكروا أنّ كسرى كتب إلى النبي ﷺ جواباً على الكتاب النبويّ الذي تسلّمه من عبد الله بن حذافة، جعله بين سَرْقتي[2] حرير، وجعل فيها مِسْكاً. ولما دُفع رسول كسرى جوابه إلى النبي ﷺ فتحه وأخذ قبضة من المسك وشمّه وناوله أصحابه وقال: «**لا حاجة لنا في هذا الحرير، ليس من لباسنا**»، وقال لرسول كسرى: «**لتدخلن في أمري أو لآتينك بنفسي ومن معي، وأمر الله أسرع من ذلك، فأما كتابك فأنا أعلم به منك: فيه كذا كذا**»، ولم يفتحه ولم يقرأه، ورجع الرّسول إلى كسرى وأخبره[2].

ومن الواضح، أن كسرى لم يكتب جواباً على كتاب رسول الله ﷺ ولم يرسل إليه رسولاً خاصاً، بل كتب إلى عامله باليمن باذان. وقضى كسرى نحبه، وأسلم باذان ومَنْ معه من الأبناء، وقد حملت كسرى عنجهيّته على تمزيق كتاب رسول الله ﷺ، ولو كان أبعد نظراً وأرجح عقلا، لما مزّق كتاب النبي ﷺ، ولتريّث حتى يستبين له أمر النبي ﷺ وحتى يتوثّق من دعوته. أما أن يخضع لعاطفته ولا يخضع لعقله، فأدى إلى تهوّره الذي لا مسوِّغ له، وكان الخاسر الوحيد في هذا المجال.

لقد بلّغ النبي ﷺ الرِّسالة، وأدّى الأمانة، وكان نجاح عبد الله بن

---

(١) طبقات ابن سعد (١٨٩/٤)، وانظر ما جاء في سفارة عبد الله بن حذافة في الطبري (٦٥٤/٢ - ٦٥٥) وابن الأثير (٢١٣/٢ - ٢١٥) وأنساب الأشراف (٥٣١/١) وتاريخ خليفة بن خيّاط (٦٣/١).

(٢) اليعقوبي (أحمد أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الأخباري) - تاريخ اليعقوبي (٦١/٢) - مطبعة الغرى بالنّجف - ١٣٥٨ هـ. وانظر: مجموعة الوثائق.

حُذافة نجاحاً معنوياً، دون أن يقصِّر في أداء واجبه، فما كان غيره قادراً على أن يعمل عملاً أفضل مما عمله أو ينجز إنجازاً أقـوم مما أنجزه، فقد كان كسرى لا يعتبر نفسه ملكاً فحسب، بل ملك الملوك، وأسمى من البشر ونداً للآلهة التي كان يعبدها، وكان الغرور قد أعمى بصره وبصيرته فلا يرى إلا نفسه، فليس إلى هدايته من سبيل، لذلك أصر على كفره، وعزم على معاقبة النبي ﷺ، فأخفق في إيمانه كما أخفق في عقابه، ثم قضى نحبه بيد ابنه لا بيد غريب عليه أو عدوّ له من أعدائه الكثيرين، ولم يأسف أحد على رحيله من أبناء شعبه ولا من أبناء الشعوب الأخرى.

وإذا كان كتاب النبي ﷺ قد أثّر في كسرى تأثيراً معنوياً فحسب، فقد أثّر في باذان الفارسي وغيره في اليمن من الأبناء تأثيراً معنوياً ومادياً، فأسلم وأسلم مَنْ معه من الأبناء، وبقوا مسلمين في أيام رِدَّة مَن ارتدّ من أهل اليمن، وقاتلوا المرتدين قتالاً شديداً، وكان لباذان أثر كبير في مقتل الأسود العنسيّ الذي تولى كبر رِدَّة مَن ارتد من أهل اليمن، فأفلح باذان ومَن معه، حيث أخفق كسرى ومَن معه من المجوس.

إلى المُقَوْقَس
عظيم مِصْر

١. المقوقس:

كان الكتاب النبويّ الذي حمله حاطِب بن أبي بَلْتَعَة اللَّخْمِيّ إلى المُقَوْقِس (بفتح القاف الثانية وكسرها)، فمن هو المقوقس؟

ليس في كل تاريخ مصر شخص جمع بين الشهرة والخفاء، مثل الرجل الذي يُطْلَق عليه الاسم العربيّ: المقوقس. ولا خلاف بأنّ هذا الرّجل بالإضافة إلى تسلّمه الكتاب النبويّ كان أعظم الرُّوم أثراً في أزمة الفتح الإسلامي لمصر، وأنّه كان العامل على تسليم مصر للمسلمين الفاتحين.

أما حقيقة المقوقس إنساناً، واسمه، وجنسه، وعمله الذي كان يعمله في الدولة، وبلاؤه الذي أبلاه، ومعنى لقبه نفسه الذي أشتهر به وعُرف به، كلّ تلك الأمور مختلف فيها اختلافاً كبيراً.

وكما كان الاختلاف في حقيقة المقوقس كبيراً في المصادر العربية القديمة، فقد كان الاختلاف كبيراً في حقيقته في المصادر غير العربية القديمة أيضاً.

أما المؤلّفون المحدثون من الأجانب بخاصة والعرب والمسلمين بعامة، فقد ضاعفوا الاختلاف القديم في حقيقة المقوقس، فلا يكاد يتفق مؤلفان

محدَثان على حقيقة المقوقس في شيء إلا نادراً، وما يثبته أحدهم يرفضه الآخر، كأنّهم قد اتفقوا على ألاّ يتفقوا، واتّفقوا على أن يُلقوا بالمقوقس إنساناً في مهامه التيه إلى الأبد.

ولستُ أطمح في وضع صورة متكاملة لشخصية المقوقس لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فذلك ليس بمقدوري ولا بمقدور أحد، لأنّ مواد تكوين تلك الصورة غير متيسِّرة في المصادر القديمة ولا في المراجع الحديثة، ولكنّني أحاول أن أبرز صورته التي تتيح للدارسين التعرّف على الخطوط العامة لشخصيته، معتمداً على ما اتفقت عليه المصادر والمراجع ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

المقوقس، هو قيرس البطريق الأمبراطوريّ وحاكم مصر من قِبَل هِرَقل ملك الرُّوم.

والمقوقس لقب قيرس، أطلقه عليه الأقباط، لأنّ موطنه الأصلي من مدينة فاسيس ببلاد القوقاز، فكان يُسمّى قفقاسيوس باللّغة اليونانية، فَنُقِل إلى اللّغة العبريّة إما على صورة: قفقاسيوس، وإما على صورة قلخيوس،ونشأ عن هذه الصّورة القليلة التّحريف الاسم العربيّ: المقوقس.

وكان هرقل معنياً بتوحيد المذاهب المسيحيّة وجعلها مذهباً مسيحياً واحداً هو مذهب الدولة، فزار إرْمِيْنِيَّة سنة ٦٢٣م (٢هـ) ووحّد كنيسة الدولة وكنيسة إرمينية، وبعد أربع سنوات زار القوقاز، ودعا قيرس مطران فاسيس إلى مذهبه الجديد، فوجد منه تجاوباً وقبولاً، فولاّه بطرقة الدِّين في الإسكندرية، وأمره أن يجمع المذهبين القبطيّ والملكانيّ في المذهب الموفّق[١] الذي ابتدعته حكمة المجلس

---

(١) لا مجال لشرح تلك المذاهب المسيحيّة هنا، خوفاً من الدخول في تفصيلات لا مسوِّغ لها، وهي مشروحة في كثير من المصادر.

الإمبراطوريّ، فسعى قيرس سعياً حثيثاً لتحقيق مهمّته، ووصف نجاحه في تحقيقها وصفاً بليغاً، ولكنّه في الواقع لم ينجح أبداً، لأنّ القِبْط تمسّكوا بمذهبهم، وخالفه زعيم المذهب الملكانيّ وشيعته، وخالفه القبط قسوسهم وعامتهم، ولم يكن قيرس صاحب كياسة وأناة في سعيه لتحقيق توحيد المذاهب المسيحية في مصر وجعلها مذهباً واحداً هو مذهب هرقل، ولاذ البطريق بنيامين بطريق القبط بدير في صحراء قُوْص[1] بالصَّعِيْد[2] المصري، فأخفق قيرس في توحيد المذاهب المسيحيّة بمصر.

وقصد المقوقَس سفيرُ النبيّ ﷺ في الإسكندريّة، فأكرمه المقوقس، وبعث معه هدية عظيمة إلى النبي ﷺ[3]، وسترد تفاصيل هذه السّفارة النبوية قريبا.

ولما علم المقوقس بتوجّه المسلمين إلى مصر لفتحها، أنذر أهل مصر باتّجاه المسلمين لفتح بلادهم، وكان قبل ذلك قد أعدّ شيئاً من وسائل الدفاع، فحفر خندقاً حول حصن بابليون بقرب ممفيس، وزاد في تحصين الحصون الأخرى، ورمّم أسوار كثير من المدائن التي كانت غزوة الفُرس لها هدمت منها كثيرا.

ولما وصل عمرو بن العاص على رأس جيش المسلمين إلى منطقة قريبة من حصن بابليون، أسرع قيرس إلى حصن بابليون، وجمع فيه

---

(١) قوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة، قصبة صعيد مصر، وهي مدينة شديدة الحر، بينها وبين قِفْط فرسخ واحد، تقع شرقيّ النّيل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٨٣/٧).

(٢) الصّعيد: بمصر بلاد واسعة كبيرة فيها عدّة من مدن عِظَام منها: أسوان وهي أوّله من ناحية الجنوب، ثم قُوص وقِفْط وإخيم والبهنسا وغير ذلك، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٠/٥-٣٦١).

(٣) بتلر - فتح العرب لمصر - ترجمة محمد فريد أبو حديد - القاهرة - ١٣٥١ هـ ص (١٢٥-١٢٦).

جنداً لحرب المسلمين، وأعاد حفر خندق الحصن واتّخذ قنطرة متحرّكة.

وقد كان قيرس في حصن بابليون عند ابتداء حصار المسلمين لهذا الحصن، ولكنّه غادره إلى جزيرة الروضة حين اشتدّ الحصار، وجزيرة الروضة في القاهرة اليوم.

وبعث المقوقس (قيرس) إلى عمرو بن العاص: «أن ابعثوا إلينا رسلاً منكم، نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم» وحمل رسالة المقوقس إلى عمرو جماعة كان منهم أسقف بابليون، فلقيهم عمرو وأكرمهم، فادّوا رسالتهم إليه وقالوا: «إنّكم قوم قد ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم في أرضنا، وإنّما أنتم عصبة يسيرة قد أظلتكم الرُّوم وجهّزوا إليكم ومعهم من العُدَّة والسِّلاح، وقد أحاط بكم هذا النّيل، وإنّما أنتم أُسارى في أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعلّه أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبّون ونُحبّ، وينقطع عنّا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الرُّوم، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلّكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم»، فلم يبعث عمرو جواب ما أتوا به، وحبس الرُّسل عنده يومين حتى يروا حال المسلمين، إذ أُبيح لهم أن يسيروا في المعسكر ويروا ما فيه، ثمّ بعث عمرو بردّه مع الرّسل، وقال: «ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إما إن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون، وإما إن جاهدناكم بالصّبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين».

وفرح المقوقس بعودة الرّسل، إذ كان قد خاف عليهم عندما حبسهم عمرو، وجعل يقول لأصحابه: «أترون أنّ العرب يقتلون الرُّسل ويستحلّون ذلك في دينهم؟!».

ولما جاء الرُّسل، جاءوا وقد وقع في نفوسهم ما عند العرب من بساطة وإيمان، فقالوا: «رأينا قوماً الموت أحبّ إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحبّ إلى أحدهم من الرِّفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنّما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم. ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السّيد منهم من العبد، وإذا حضرت الصّلاة لم يتخلّف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم».

وقد رأى قيرس - مع ما اشترطه المسلمون من الشروط التي لا هوادة فيها ولا مفاوضة - أن يبدأ في ذلك الوقت بعقد الصّلح، إذ كان المسلمون تحصرهم مياه النّيل قبل أن يهبط النّهر ويستطيعوا السَّير والانتقال، فيجوسوا خلال البلاد، فأرسل إلى عمرو: «أن يبعث إليه جماعة من ذوي الرأي ليعاملهم ويتداعى معهم إلى ما عساه يكون فيه صُلح»، فبعث عمرو عشرة نفر، أحدهم عُبادة بن الصامت[1]، وكان عُبادَة أسود شديد السّواد، أمره عمرو أن يكون متكلّم القوم، ولا يجيب الرُّوم إلى شيءٍ دعوه إليه إلا إلى إحدى هذه الخصال الثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو القتال.

وركب العرب السُّفن إلى جزيرة الرّوضة المعروفة في القاهرة، فلما دخل عُبادة على المقوقس هابه المقوقس وقال: «نَحُّوا عني ذلك الأسود وقدِّموا غيره يُكلِّمني»، فقالوا جميعاً: «إنَّ هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو سيِّدنا وخيرنا والمُقَدَّم علينا، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه، وإنما أمره الأمير دوننا بما أمره، وأمرنا ألاّ نخالف رأيه وقوله».

وكان قولهم عجيباً عند المقوقس: إنّ الأسود والأبيض سواء عندهم، لا يفضل أحدٌ أحدا!

---

(١) انظر سيرته المفّصلة في كتابنا: قادة فتح الشّام ومصر(٢٥٣-٢٦٣).

وقال المقوقس الرّقيق لعبادة أن يتكلّم برفقٍ حتى لا يزعجه، فقال له عبادة: «إنّ فيمن خلّفتُ من أصحابي ألف رجل أسـود، كلّهم أشدّ سواداً مني.. وإني ما أهاب مائة رجل من عدوّي لو استقبلوني جميعاً، وكذلك أصحابي. وذلك إنّما رغبتنا وهمّتنا في الجهاد في الله واتّباع رضوانه، وليس غزونا عدوّنا ممن حارب الله لرغبة في دنيا ولا طلب للاستكثار منها.... لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره، وشملة يلتحفها.. لأنّ نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاؤها ليس برخاء، إنّما النّعيم والرّخاء في الآخرة».

ووقع هذا القول في نفس المقوقس وقال لأصحابه: «هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل؟! إنّ هذا وأصحابه، قد أخرجهم الله لخراب الأرض».

وأقبل المقوقس على عُبادة فقال: «أيّها الرّجل الصّالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم وما ظهرتم على من ظهرتم إلا لحبِّهم الدّنيا ورغبتهم فيها. وقد توجه لقتالكم من جمع الرُّوم ما لا يُحصى عدده: قوم معروفون بالنَّجدة والشِدَّة، ما يبالي أحدهم مَن لقي ولا مَن قاتل، وإنّا لنعلم أنّكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلّتكم... ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكلّ رجل منكم دينارين دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم».

قال عُبادة: «يا هذا! لا تغرنّ نفسك ولا أصحابك. أما ما تخوِّفنا به من جمع الرُّوم وعددهم وكثرتهم وأنّا لا نقوى عليهم، فلعمري ما كان هذا بالذي تخوِّفنا به.. وإن كان ما قلتم حقّاً، فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشدّ لحرصنا عليهم، لأنّ ذلك أعذر لنا عند ربّنا إذا قدمنا عليه، إن قُتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنّته، وما شيء أقرّ لأعيننا ولا أحبّ لنا من ذلك، وإنّا منكم حينئذٍ على إحدى

الحُسْنَيَيْن: إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، ولأنّها أحبّ الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا. وإنّ الله عزّ وجلّ قال لنا في كتابه: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين﴾[1] (سورة البقرة، آية ٢٤٩)، وما منّا رجلٌ إلاّ وهو يدعو ربّه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة، وأن لا يردّه إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحدٍ منّا هَمٌّ فيما خلّفه، وقد استودع كلّ واحد منّا ربّه أهله وولده، وإنما همّنا ما أمامنا... فانظر الذي تريد فبيّنه لنا، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيّها شئت، ولا تطمع نفسك بالباطل. بذلك أمرني الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا..»

وأراد قيرس أن يستنزله عن شيءٍ أو يجعله يقبل شيئاً مما عرضه عليه، فلم يقدر على شيء، بل وقع قوله على آذانٍ صمّاء لما يقول.

وقال عُبادة يردّ عليه بعد أن نفد صبره، ورفع يديه إلى السّماء: «لا وربِّ هذه السماء وربِّ هذه الأرض، وربِّ كل شيء، ما لكم عندنا من خصلة غيرها، فاختاروا لأنفسكم».

---

(١) فتح العرب لمصر (٢٢٣-٢٢٧) وأنّ المؤلف نقل ذلك عن المقريزي، وانظر فتوح مصر والمغرب (٩٧-٩٨) و(٩٧-١٠٢)، والفاروق عمر للدكتور هيكل (١١٦/١٢). وينبغي أن نلاحظ تعصب المؤلف (بتلر) على العرب والمسلمين ودفاعه عن المسيحيين دفاعاً حمله على تكذيب المصادر العربية الإسلامية بدون استثناء واعتماده على مراجع بني دينه مهما تكن تافهة. لذلك أوردت ما أوردته أعلاه لأنّه سجّله في كتابه مضطراً، ولا مراجعه التافهة سكتت عنه، كما يسكت هو وأضرابه عن كلّ ما يرفع شأن العرب والمسلمين، ويرفع صوته لإبراز كلّ ما يغمط شأن العرب والمسلمين، ويفعل ذلك باسم الموضوعية والبحث العلمي، وهكذا تكون الموضوعيّة وهكذا يكون البحث العلمي وإلا فلا.

وكتابه بعد ذلك عامر بالدّسّ والتشكيك والكذب الصريح والتناقض الواضح والأخطاء.

وعاد المقوقس ليجتمع بأصحابه، فقالوا: «أما الأمر الأول فلا نجيب إليه أبداً، فلن نترك دين المسيح إلى دين لا نعرفه، فلم يبق إلاّ الجزية أو الحرب. وقالوا: «إنّا إذا أذعنّا للمسلمين ودفعنا الجزية، لم نَعْدُ أن نكون عبيداً، ولَلْمَوت خير من هذا» فقال لهم عبادة: «إنّهم إن دفعوا الجزية كانوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، مُسلّطين في بلادهم على ما في أيديهم وما يتوارثونه فيا بينهم، وحُفظت لهم كنائسهم لا يتعرّض لهم أحد في أمور دينهم».

ولما قال عبادة ما قال، مالت نفس المقوقس (قيرس) إلى الإذعان، فقد وقع في نفسه أن المسلمين لا بدّ منتصرون، فذهب ذلك بجرأته وقوة نفسه.

ولكنّ جند الرُّوم أصرّوا على قتال المسلمين، أما المقوقس فإنه ما زال رأيه من الإذعان والتسليم للمسلمين مستقرّاً في قلبه، فلما قاتل الرُّوم المسلمين هُزموا شرّ هزيمة، فضعفت نفوس الرُّوم، ولم يلق منهم المقوقس بعد هزيمتهم عصياناً وأذعنوا له مرغمين.

وأعاد المقوقس الكرّة على عمرو في أمر الصلّح، ولكن شروط عمرو لم تتبدّل، فكانت الخصلة التي اختارها الرُّوم هي الجزية والإذعان، فعقد الصلح على أن يبعث به إلى الأمبراطور، فإذا أقرّه نُفِّذ وإلا فلا. واتفق الرُّوم والمسلمون على أن تبقى الجيوش حيث هي إلى أن يجيء ردّ هرقل، وسافرالمقوقس عند ذلك مسرعاً في النهر، حتى بلغ الإسكندرية وبادر بأن بعث إلى الأمبراطور كتباً يبيّن فيها ما كان منه، ويسوِّغ ما قام به بأن الحاجة ألجأته الى ما لجأ إليه من صلح المسلمين، ويسأله أن يُقِرّ الصُّلح حتى يكفي مصر شرّ الحرب ووبالها.

ولكنّ هرقل كتب إلى المقوقس أن يأتي إليه على عجل.

ولم تكن رسالة هرقل إلى المقوقس مما يطمئن إليه القلب، فسافر على

مضض إلى القسطنطينية، ولقي هرقل، فجعل يدافع عن أعماله في مصر، وقال للإمبراطور: «لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم في القتال، لعرفت أنّهم قوم لا يُغلبون، فليس لنا من سبيل خير من الصُّلح مع عمرو قبل أن يفتح حصن بابليون عَنْوَةً وتصبح البلاد غنيمة له».

وثارت ثائرة هرقل واشتد غضبه، وعظم غيظه أن ينهزم جنده وهم مائة ألف أمام اثني عشر ألفاً من المسلمين، فاتّهم المقوقس بخيانة الدولة وتخلّيه للمسلمين عنها، ثمّ حكم عليه بأنّه مرتكب مجرم ليس دون الموت جزاء ذنبه. ثم شرع يُقرّعه ويؤنبه على ما كان منه، ونعته بالجبن والكفر، وأسلمه إلى حاكم المدينة فشهّره وأوقع به المهانة ثم نفاه من بلاده، وكان ذلك قرب نهاية سنة ٦٤٠م (٢٠هـ).

وبلغ رفضُ الأمبراطور المسلمين، فانتهت بذلك الهدنة، وعاد القتال بين المسلمين والرُّوم.

ومات هرقل سنة ٦٤١م (٢١هـ)، فعاد قيرس إلى الإسكندرية من منفاه، وقضى مدّة قصيرة بعد مقدمه يعالج طائفة من أمور الدين والدولة كان لا بدّ له من الإسراع في معالجتها في الإسكندرية، ثم توجّه إلى عمرو في منطقة حصن بابليون حاملاً معه عقد الصّلح، فرحّب به عمرو وأكرم وفادته. ولما علم عمرو بما جاء به قيرس من أمر الصّلح، قال له: «لقد أحسنت في الشُّخوص إلينا»، فقال البطريق: «إنّ الناس قد عوّلوا على دفع الجزية كيما تقف رحى الحرب»، ثم قال: «إن الله قد أعطاكم هذه الأرض، فلا تدخلوا بعد اليوم في حرب مع الرُّوم».

وكُتب عقد الصّلح في الثامن من تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة (٦٤١م) (٢١هـ) ولنطلق على هذا الصّلح اسم: (صلح الإسكندريّة)، كي نميّز بينه وبين الصّلح السابق الذي عقد في بابليون، فإنّ هذا الصُّلح الجديد إنّما كان خاصاً في معظم شروطه بالإسكندريّة وشروطها

في تسليمها للمسلمين، وقد تم به فتح المسلمين لبلاد مصر.

وبالطّبع، اعتبر المؤلفون الأجانب صلح المقوقس مع المسلمين استسلاماً لهم وتسليماً لمصر بهذا الصلح للمسلمين.

وربّما يكون أولئك المؤلّفون الأجانب من المدنيين، فلا يعلمون أنّ وضع المدافعين عن مصر كان يائساً، ويجهلون أنّ المسلك الوحيد أمام المقوقس لمعالجة الموقف العسكري للرُّوم المتدهور بسرعة فائقة هو في عقد الصلح، حتى تضع الحرب التي لا طائل فيها أوزارها.

وإذا لم يستطع المؤلّفون الأجانب من المدنيين أن يعلموا من سير الحوادث حقيقة الموقف العسكري بالنسبة للرّوم والمسلمين، فما عذر المؤلّفين الأجانب العسكريين أو الذين كانوا عسكريين في الحربين العالميتين الأولى والثانية في تغافلهم عن حقيقة الموقف العسكري للرّوم والمسلمين في مصر، إلاّ أنّ صلح المقوقس كان: «سبباً في القضاء على آمال المسيحيين بالفوز في مصر»، فوصموه بالخيانة، ووصموا صلحه بالخيانة[1]، وما كانوا على حقٍ في وصمهم المقوقس بالخيانة ولا في وصمهم الصّلح بالخيانة، فما كان بمقدور المقوقس أن يفعل أفضل مما فعله، ولا كان بمقدور غيره من القادة وغير القادة أن يفعلوا أفضل مما فعله المقوقس في معالجة الموقف الحرج الذي عاناه وعانته مصر حكومةً وشعبا.

وقد كان المقوقس نائب الأمبراطور في مصر، وكان حاكمها الأوحد في مجالي الدّين والدنيا، فهل من المعقول أن يتخلّى عن هاتين السّلطتين إلا مكرهاً مضطراً؟!.

لقد كان المقوقس خطيباً بليغاً مفوّها، وكان صاحب منطق ودهاء

---

(١) فتح العرب لمصر (٣٠٩).

وسياسة، ولكنه كان إمبراطورياً أكثر من الامبراطور، وملكياً أكثر من الملك، وكان في سلطته الدينية من بطارقة السّلطان لا من بطارقة الرحمن، كما كان في سلطته الزمنيّة ينفّذ خطّة القيصر وسياسته، فكان متّبعا لا مبتدعا، وكان موظّفاً مثالياً في تطبيق سياسة الرُّوم، لا يدع منها شيئاً، بل يُضيف إليها من عنده أشياء متطوعاً، ليثبت لقيصر أنّه ليس أقلّ منه إخلاصاً للرُّوم وتفانيا.

ومثل هذا الرّجل الذي خسر عقيدته ومبادئه ومُثله العليا من أجل منصبه، لا يمكن أن يفرِّط بهذا المنصب بسهولة ويُسر، فيخون القيصر، ويخون دينه، ويخون شعبه، لمصلحة حكّام غرباء عنه، ومن أجل دين غير دينه، ومن أجل المسلمين الفاتحين، فما يمكن أن يتهمه بهذا التّفريط عاقل ولا عالم ولا باحث ولا أريب.

وقد كان المقوقس، في آخر حياته حين عقد الصّلح مع المسلمين، وكان يومها قد بلغ من الكِبَر عتيًّا وأصبح شيخاً هِمّاً، إذ كان عقد الصّلح سنة ٦٤١م. وأصيب المقوقس بمرض الزّحار وأثقلته الهموم، فرحل يوم الخميس الحادي والعشرين من شهر آذار (مارس) من سنة ٦٤١م أي بعد ثلاثة أشهر من عقده الصلح مع المسلمين، وما كان مثل المقوقس في إخلاصه ليخون وهو في أواخر أيامه من الدنيا، وأوائل أيامه من الآخرة.

٢. السّفارة النبويّة:

بعث النبيّ ﷺ رسله إلى الملوك والأمراء قبل الفتح - فتح مكة - وبعد الحُدَيْبِيَّة[١]، وكتب معهم إليهم يدعوهم إلى الإسلام.

---

(١) جوامع السيرة (٣٩).

فقد خرج النبيّ ﷺ إلى أصحابه بعد عَمرَته التي صُدَّ عنها يوم الحُدَيْبِيَّة، فقال: «أيّها الناس! إن الله قد بعثني رحمةً وكافةً، فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريّون على عيسى بن مَرْيَم»، فقال أصحابه: «وكيف اختلف الحواريّون يا رسول الله؟!»، قال: «دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما مَن بعثه مَبْعَثاً قريباً فرضي وسلّم، وأما مَن بعثه مَبْعَثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل، فشكا ذلك عيسى إلى الله، فأصبح المتثاقلون وكلّ واحد منهم يتكلّم بلغة الأمّة التي بُعث إليها»، فبعث رسول الله ﷺ رُسُلاً من أصحابه، وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، وبعث حاطِب بن أبي بَلْتَعَة إلى المقَوقِس[1] ملك الاسكندرية[2] سنة ست الهجريّة[3] (٦٢٧م-٦٢٨م).

ويقصد هنا بتعبير: ملك الاسكندرية، ملك مصر كلّها، لأنّ المقوقس جعل الاسكندريّة عاصمة لمصر في أيامه، فاذا أُطلق عليه: ملك الاسكندرية باعتبارها عاصمة مصر، فانّما يراد بذلك ملك مصر كلّها، فقد كان عامل هرقل على مصر، فهو ملك مصر غير المتوّج، وهو أيضاً بطريق الاسكندرية فكان على السُّلطتين الدينيّة والدنيويّة في مصر.

ومضى حاطب بكتاب رسول الله ﷺ، فلما انتهى إلى الاسكندرية وجد المقوقس في مجلس شرف على البحر، فركب البحر، فلما حاذى مجلسه، أشار بكتاب رسول الله ﷺ بين إصبعيه. ورآه المقوقس، فأمر بالكتاب فقُبِض، وأمر بحاطب فأُوصل إليه.

---

(١) المقوقس: المقصود به قيرس بطريق الإسكندرية الملكانيّ الذي جعل له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج بمصر، انظر الهامش (١) من ص(٦٥) من كتاب: فتوح مصر والمغرب.

(٢) سيرة ابن هشام (٢/٢٧٨-٢٧٩).

(٣) تاريخ خليفة بن خيّاط (١/٤١) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/١٥١)، وانظر الطبري (٢/٦٤٤) وابن الأثير (٢/٢١٠).

وقرأ المقوقس كتاب رسول الله ﷺ، فقال: «ما منعه إن كان نبيّاً أن يدعو عليّ، فيُسلّط عليّ؟!»، فقال له حاطب: «ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على مَن أبى عليه أن يفعل ويُفعل؟».

ووجم المقوقس ساعة، ثمّ استعادها، فأعادها عليه حاطب، فسكت[1].

وسأل المقوقس حاطباً: «أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبيّاً؟» قال: «بلى!»، قال: «فما له لم يَدْعُ على قومه حيث أخرجوه من بلدته؟!»، فأجابه حاطب: «فعيسى بن مريم رسول الله حين أراد قومه صلبه، لم يَدْعُ عليهم حتى رفعه الله»، قال: «أحسنت، أنت حكيم جئت من عند حكيم»[2].

وقال حاطب: «إنه قد كان قبلك رجل زعم أنّه الربّ الأعلى، فانتقم الله به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يُعتبر بك. وإنّ لك ديناً لن تَدَعه إلاّ لما هو خير منه، وهو الاسلام الكافي به اللهُ فَقْدَ ما سواه، وما بشارة موسى بعيسى إلاّ كبشارة عيسى بمحمّد، وما دعاؤنا إيّاك إلى القرآن إلاّ كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به»[3]، فأجاب المقوقس: «إن القِبْطَ لا يتابعني على اتّباعك، وأنا أَضَنُّ بِمُلْكِيْ»[4]، والقِبْط يطلق على مسيحيي مصر، وهم من ذرّيّة المصريين القدماء[5].

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٦٥).

(٢) تهذيب الأسماء واللّغات (١/١٥١).

(٣) فتوح مصر والمغرب (٦٥).

(٤) البدء والتاريخ (٤/٢٢٩).

(٥) القبط: انظر دائرة معارف القرن العشرين (القرن الرابع عشر) - محمد فريد وجدي - (٧/٦١٢-٦٢٣)، والقبط: جيل من النّصارى بمصر، الواحد قبطي، وهي قبطيّة، جمعها: أقباط والقِبطي أيضاً لسان الأقباط يكتبونه من الشمال إلى اليمين كالإفرنج.

وقَبَّل المقوقس كتاب رسول الله ﷺ[1]، وأخذه وجعله في حُقّ[2] من عاج، وختم عليه[3]، وأكرم حاطباً وأحسن نُزله[4]، ولا عجب، فقد كان بطريقاً من رجال الدين.

(١) فتوح مصر والمغرب (٦٦) وابن الأثير (٢/٢١٠).

(٢) الحق: وعاء صغير ذو غطاء، يُتخذ من عاج أو زجاج أو غيرها من المواد.

(٣) فتوح مصر والمغرب (٦٦).

(٤) فتوح مصر والمغرب (٦٧).

وكان نص كتاب النبيّ ﷺ إلى المقوقس:

« بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمّد رسول الله

إلى: المقوقس عظيم القِبْط

سلام على مَن اتَّبع الهُدى

أما بعد. فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسْلِمْ تَسْلَم، وأسْلِم يؤتك الله أجرك مرَّتين، فإن تولَّيْتَ فعليك إثْمُ القِبْط:

﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألاّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرْباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ »[1].

علامة الختم: الله
رسول
محمد

وهناك رواية أخرى عن نصّ كتاب النبيّ ﷺ إلى المقوقس هذا نصّه:

(١) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣: ٦٤)، وانظر نصّ الكتاب النبوي في: فتوح مصر والمغرب (٦٥-٦٦) والقسطلاني (٢٩٢/١-٢٩٣) وصبح الأعشى للقلقشندي (٣٧٨/٦)، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في مجموعة الوثائق السياسية (٧٢).

« من : محمد رسول الله

إلى: صاحب مصر.

أمـــا بعـــد: فـــإنّ الله أرسلني رسولاً، وأمرني بالإعذار والإنذار ومقاتلة الكفّار، حتى يدينوا بديني ويدخل الناس في ملّتي، وقد دعوتك إلى الإقرار بوحدانيّته، فإن فعلت سعدت، وإن أبيت شقيت، والسلام »[1].

علامة الختم: الله
رسول
محمد

وأرجّح النصّ الأول، كما يرجّحه غيري، لأنّ المصادر المعتمدة نصّت عليه، وهو أشبه بأسلوب رسول الله ﷺ البليغ، خلافاً للنصّ الثاني الذي يبدو أسلوبه اعتيادياً لا بلاغة فيه ولا بيان.

كما أنّ النصّ الأول، هو على غرار نصوص كتب النبيّ ﷺ إلى ملوك النّصارى في حينه: النّجاشيّ ملك بلاد الحبشة، وَهِرَقْل قيصر الرُّوم، والمقوقس كان من حكّام النّصارى كذلك.

وقد أوردت نص الكتاب الثاني، للاطلاع عليه، ومقارنته بنصّ الكتاب الأولّ الذي اعتمدناه واعتمده غيري أيضاً.

وحين عزم حاطب العودة إلى المدينة المنوّرة من سفارته إلى مصر، بعث المقوقس معه هدايا إلى النبيّ ﷺ: ثلات جوار، إحداهنّ مارية

---

(١) فتوح مصر للواقدي (١٠) وصبح الأعشى للقلقشندي (٣٧٨/٦)، وانظر تفاصيل المراجع الأخرى في: مجموعة الوثائق السياسية (٧٤).

القِبْطيَّة أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ، وشِيْرِين[1] أخْت مارية، وهبها لحسّان بن ثابت شاعر النبيّ ﷺ، فأسلمت مارية وأختها التي ولدت عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت، وكان حاطب قد دعاهما إلى الإسلام قبل أن يقدم بها المدينة. ووهب النبيّ ﷺ الجارية الثالثة إلى جَهْم بن قيس العبدري[2]، فهي أمّ زكريا بن جهم الذي كان خليفة عمرو بن العاص على مصر، وأهدى بغلةً للنبي ﷺ هي دُلْدُل، وحماراً هو يَعْفُور، وكُساً، وبعث مع الجواري بخصّى فكان معهم[3]، وألف مثقال ذهبا، وعشرين ثوباً، ووهب لحاطب مالاً عظيماً[4]، وكانت عودة حاطب من سفارته في مصر إلى المدينة سنة سبع الهجرية[5](٦٢٨ م).

لقد توجّه حاطب سفيراً نبوياً في أواخر سنة ست الهجريّة، وعاد إلى المدينة المنورة في أوائل سنة سبع الهجريّة، واستغرقت سفارته نحو ثلاثة أشهر تقريباً.

وقد اختلط هذان التاريخان: سنة ست الهجريّة، وسنة سبع الهجريّة، فزعم بعض المؤرخين أنّه قصد مصر سنة سبع الهجريّة[6]،

---

(١) وردت كذلك في ابن الأثير (٢/٢٢٥)، وهو الصحيح، معناه: الحلو، والحلوة، ولا يزال هذا الاسم شائعاً في مصر والبلاد العربية الأخرى. وقد وردت في المصادر الأخرى: سيرين.

(٢) هكذا ورد في: فتوح مصر والمغرب (٦٧)، أما في الاستيعاب (١/٣١٥)، فورد اسمه جهم بن حذيفة العدوي.

(٣) في الطبري (٢/٤٦٥) وابن الأثير (٢/٢١١)، أنّ المقوقس أهدى إلى النبيّ ﷺ أربع جوارٍ، وفي الطبري (٣/٢١) وابن الأثير (٢/٢٢٥) أنها جاريتان، وكذلك في فتوح مصر والمغرب (٦٧). أما في الاستيعاب (١/٣١٥) فذكر أنّ عدد الجواري ثلاث، وكذلك في تهذيب الأسماء واللّغات (١/١٥١)، فأخذنا بذلك، لأنّ أصحاب الحديث أدقّ من المؤرخين في تسجيل الأخبار ونقلها.

(٤) البدء والتاريخ (٤/٢٢٩).

(٥) الطبري (٣/٢٠) وابن الأثير (٢/٢٢٥) وتاريخ خليفة بن خياط (١/٤٩).

(٦) أنساب الأشراف (١/٥٣١).

وهذا وَهْمٌ لإجماع المصادر على أنّ سفره إلى مصر سفيراً كان في أواخر سنة ست الهجريّة بعد غزوة الحُدَيْبِيَّة.



وحمّل المقوقس حاطباً رسالة جوابيّة إلى النبيّ ﷺ، هذا نصّها:

«لمحمد بن عبد الله

من: المقوقس.

سلام.

أما بعد، فقد قرأتُ كتابك، وفهمتُ ما ذكرت وما تدعو إليه. وقد علمتُ أنّ نبياً قد بقي، وقد

كنت أظنّ أنّه يخرج بالشّام، وقد أكرمتُ رسلك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القِبْط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها.

والسَّلام »[1].

التوقيع

وهناك رواية ثانية عن رسالة جوابية ثانية حمّلها المقوقس حاطباً إلى النبيّ ﷺ، هذا نصّها:

« باسمك اللّهم

من: المقوقس.

إلى: محمّد.

أما بعد، فقد بلغني كتابك، وقرأته وفهمتُ ما فيه. أنت تقول: إنّ الله تعالى أرسلك رسولاً، وفضّلك تفضيلاً وأنزل عليك قرآناً مبينا، فكشفنا يا محمّد في علمنا عن خبرك، فوجدناك أقرب داعٍ إلى الله، وأصدق مَنْ تكلّم بالصدق، ولولا أني ملكت ملكاً عظيماً، لكنتُ أوّل مَن سار إليك، لعلمي أنّك خاتم الأنبياء، وسيِّد المرسلين، وإمام المتّقين.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته إلى يوم الدّين »[2].

التوقيع

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٦٧) وصبح الأعشى للقلقشندي (٤٦٧/٦) والقسطلاني (٢٩٢/٢-٢٩٣)، وانظر المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٧٣).

(٢) صبح الأعشى للقلقشندي (٤٦٧/٦)، وانظر تفاصيل المراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٧٥).

يتخذ بعضنا أربابا من دون الله ، فـإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

الله
رسـول
محمد



رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم القبط حملها اليه الصحـابى حاطب ابن ابى بلتعة اللخمى

وقد وردت هاتان الرِّسالتان في بعض المصادر التاريخيّة والأدبية، أما المصادر المعتمدة فلم تتطرق إليهما ولم تذكر عنهما شيئاً. والذي يبدو أنّ الجواب الأول أقرب إلى التصديق، إذ يُتوقّع من المقوقس، وهو رجل دين وعالم وعاقل وحصيف، أن يردّ على الكتاب النبوي بجواب في رسالة جوابيّة. كما أنّ الرسالة الجوابية الأولى تصف الواقع ببساطة وبدون تكلّف. أما الجواب الثاني، فمن الواضح أنّ أسلوبه إسلامي قد كتبه مسلم ونسبه إلى المقوقس، كما أنّه كُتب بعدما لا يقل عن قرن من عهد الرِّسالة، فما هو بأسلوب الصدر الأول للإسلام المتميِّز بالإيجاز والبلاغة والبيان، وقد اقتصر الواقدي على ذكره من القدماء، فنقل عنه بعد ذلك من بعض المؤرخين والأدباء لا من المحدِّثين، والمحدثون لا يروون ولا ينقلون إلاّ بعد التثبّت القاسي الشّديد حسب منهجهم الواضح السديد في الرّواية والنّقل، بعكس بعض المؤرخين والأدباء الذين ينقلون المعجب المطرب الذي يرفّه عن الناس ويسلّيهم، دون التثبّت من درجة الثقة بالخبر المنقول والمنقول عنه صادقاً أم كاذباً.

لقد كان المقوقس مؤدباً غاية الأدب في رسالته الجوابية، وفي معاملته للسّفير النبوي، إذ أحسن استقباله وضيافته وأكرم وفادته، وأهدى إليه عند رحيله وأرسل معه من يوصله مأمنه[1]. ويمكن أن يتبيّن الباحث بوضوح أنّ المقوقس كسيِّده هرقل اقتنع بالرسّالة والرّسول، ولكنّه لم يُسلم خوفاً من خذلان القِبْط له وانتقاضهم عليه، وخوفاً على ملكه وسلطانه، وعلى حدّ قوله: «ملكتُ ملكاً عظيماً»، فهو يخاف عليه، فإذا صحّ أنّه كتب هذا الكلام حول ملكه العظيم في رسالته الجوابيّة أو لم يصحّ أنّه كتبها، فهذا هو الواقع الذي حرمه من إعلان إسلامه، وطالما حرف السلطان وحرفت السلطة الراغبين فيها عن طريق الحقّ والصواب في مختلف الأمم والشعوب والعصور.

(١) تهذيب الأسماء واللّغات (١٥٢/١).

ومهما يكن من أمرٍ، فإنّ حاطب بن أبي بلتعة أدّى واجبه بأمانة وحكمة وإخلاص، وكان أثر السفارة النبويّة معنوياً بالدرجة الأولى، ولكن تأثيره تنامى بالتدريج، حتى أصبح بعد ثلاث عشرة سنة مادياً ومعنوياً، وأصبحت مصر للإسلام والمسلمين، ولم تبق للرّوم والمقوقس.

فبعد أن التحق النبيّ ﷺ، وتولّى أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه الخلافة، بعث حاطباً إلى المقوقس، فالتقاه بناحية قرى (الشرقيّة)، فأعطوه. ولم يزالوا على ذلك حتى دخل عمرو بن العاص مصرَ سنة عشرين الهجريّة، فقاتل المقوقس المسلمين، فانتقض ذلك الصّلح[1] المحدود الذي كان بين المقوقس وحاطب، وفتح المسلمون مصر، وخسرها الرُّوم إلى الأبد.

---

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (١/١١٥) والاستيعاب (١/٣١٤).

السّفارات النبويّة إلى العرب

إلى الحارث بن أبي شَمِر الغَسَّاني
ملك الغساسنة

١. الحارث بن أبي شَمِر:

هو الحارث الأعرج بن أبي شَمِر بن عمرو بن حارث بن عَوْف بن عمرو بن عَدِيّ بن عمرو بن مازِن بن الأَزْد، هذا حقيقة نسبه، وقوم يظنّون أنّه جَفْنِيّ، وليس كذلك، وإنَّما أُمّه جَفْنِيَّة[١].

والحارث بن أبي شَمِر الغَسَّاني، نسبه إلى غَسَّان، وهم طوائف نزلوا بماء يُقال له: غَسَّان[٢]، فنسبوا إليه[٣]، وهم من الأَزْد، وقيل: إنّ فيهم أيضاً من غير الأَزْد[٤] بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن سَبَأ[٥]. وقد هاجر بنو غسَّان من اليمن إلى الشّام لتهدّم سُدّ مأْرَب في اليمن بسيل العَرِم، فنزلوا في مشارف الشّام وحاربوا قوماً بها من قُضاعَة

---

(١) جهرة أنساب العرب (٣٧٤).
(٢) غَسَّان: اسم ماء بِسُدّ مأرب باليمن كان شرباً لبني مازن بن الأزد بن الغَوْث، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٢٩١-٢٩٢).
(٣) جهرة أنساب العرب (٤٦٢) ودائرة معارف القرن العشرين (٧/٧٣).
(٤) انظر التفاصيل في جهرة أنساب العرب (٤٧٢-٤٧٤).
(٥) جهرة أنساب العرب (٤٧٣).

وأخذوا ما بأيديهم، واسَّسوا هناك دولة تحت حماية الرُّوم في البَلْقَاء[1] وحَوْرَان[2]، وبلغوا درجة من الحضارة والمدنيّة، فبنوا القصور ومصَّروا الأمصار، واتّخذوا لهم عاصمة في بُصْرَى[3] بحوران. وقد بلغ عدد ملوكهم اثنين وثلاثين ملكاً حكموا نحو ستّة قرون كما ورد في المصادر العربية، وكان أوّلهم جَفْنة بن عمرو، وآخرهم جَبَلَة بن الأَيْهم الذي فتح المسلمون ملكه، فأسلم ثم ارتدّ وهرب إلى قيصر الرُّوم. ولكنّ المراجع الأجنبية تزعم أنّ عدد ملوك الغساسنة لا يتجاوز العشرة، وأنّ أوّلهم جَبَلة بن شَمِر وآخرهم جَبَلة بن الأَيْهَم، وقد اعتمدت المصادر اليونانيّة والسريانية من قبل مؤلّفي المراجع الأجنبيّة[4]. والمصادر العربية تذكر أسماء ملوك الغساسنة، وتسجّل أنسابهم، وتتحدّث عن أعمالهم، فهي أوثق من المصادر اليونانيّة والسّريانيّة، والعرب أعرف بتاريخهم من غيرهم، وأهل مكّة أدرى بشِعابها كما يقول المثل العربي القديم.

وكان الحارث من ملوك الغساسنة، ورد ذكره في أيام العرب، فقد حارب بني تَغْلب الذين كانوا بأرض الشام، وسبب هذه الحرب، أنّه مَرَّ ببعض قبيلة تغلب فلم يستقبلوه وركب عمرو بن كلْثوم التَّغْلبي، فلقيه الحارث، وقال له: «ما منع قومك أن يتلقّوني؟» فقال: «لم يعلموا بمرورك»، فقال: «لئن رجعتُ لأغزونّهم غزوة تتركهم أيقاظاً لقدومي» فقال عمرو: «ما استيقظ قوم قطّ إلا نَبُلَ رأيهم وعَزَّتْ جماعتهم، فلا

(١) البلقاء: كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، قصبتها عمّان، انظر معجم البلدان (٢/٢٧٦-٧٧)، وهي بلاد الأردن.

(٢) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٣٦٠-٣٦١)، ومكانها معروف اليوم في سورية.

(٣) بصرى: مدينة بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حَوْران، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٠٨-٢٠٩) وموقعها معروف وآثارها باقية.

(٤) دائرة معارف القرن العشرين (٦/٢٤٢-٢٤٣).

توقظنّ نائمهم»، فقال: «كأنّك تتوعّدني بهم، أما والله لتعلمّن إذا جالت غطاريف[١] غسّان الخيل في ديارکم، أنّ أيقاظ قومك سينامون نومةً لا حُلْمَ فيها، تُجتَثّ أصولهم، ويُنْفَى فلُّهم إلى اليابس الجُدُد[٢] والنّازِح[٣] الثّمد»[٤]

ورجع عمرو بن كُلثوم عنه، وجمع قومه، وقال:

ألا فاعلمْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ أنّا ... أبيتَ اللّعنَ نأبى ما تُريدُ
تعلَّم أنّ مَحْمِلنا ثقيلٌ ... وأنّ دِبار كَبّتنا شديد[٥]
وأنّا ليس حَيٌّ من مَعَدٍّ ... يُقاومنا إذا لُبِسَ الحديدُ

فلما عاد الحارث غزا بني تَغْلِب، فاقتتلوا واشتد القتال بينهم، ثمّ انهزم الحارث وبنو غسّان، وقُتل أخو الحارث في عدد كثير[٦].

كما شهد الحارث يوم عَيْن أُبَاغ[٧]، وهو يوم من أيام العرب المشهورة في الجاهلية، وكان بين المُنْذِر بن ماء السّماء وبين الحارث، أي بين المناذرة حلفاء السّاسانيين وبين الغساسنة حلفاء الرُّوم.

---

(١) الغطاريف: جمع غِطْريف، وهو السيّد الكريم.

(٢) الجدد: جمع جديد، وهو وجه الأرض. واليابس الجدد: يريد الأرض القاحلة اليابسة.

(٣) النازح: يقال بلدٌ نازح: بعيد، وبئر نازح: قليلة الماء.

(٤) الثّمْد - الثّمَد: الماء القليل الذي ليس له مدد. والنازح الثّمد: يريد الأرض البعيدة القليلة الماء.

(٥) المَحْمِل: الهودج، والعدلان على جانبيّ الدابة يُحمل فيهما، جمعها: محامل. والدّبار: من كل شيء آخره، والكَبّة: الجماعة من الناس وغيرهم، والدّفعة في القتال والجري. يريد: أنّ الذي يقاتلنا يُحمّل نفسه ما لا يطيق، وأنّه في آخر الأمر سيُهزم هزيمة شنعاء أمام جماعتنا المحاربين بعنف وشدّة.

(٦) ابن الأثير (١/٥٣٩-٥٤٠).

(٧) عين أُباغ: ليست عيناً من عيون الماء، وإنما هو وادٍ وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشّام، انظر معجم البلدان (١/٦٨) و(٦/٢٥١).

وسبب ذلك أنّ المنذر بن ماء السَّماء مَلِك العرب، سار من الحِيْرَة في مَعَدّ كلِّها، حتى نزل بعين أباغ بذات الخيار، وأرسل إلى الحارث الأعرج الغسّاني مَلِك العرب بالشّام: «إمّا أن تعطيني الفِدْيَة فأنصرف عنك بجنودي، وإمّا أن تأذن بحرب».

وأرسل إليه الحارث: «أَنْظِرْنا نَنْظُرْ في أمْرنا»، وجمع عساكره وسار إلى المنذر. وأرسل إليه يقول: «إنّا شيخان، فلا نُهلك جنودي وجنودك، ولكن يخرج رجل من ولدي ويخرج رجل من ولدك، فَمَنْ قُتل خرج عوضه آخر، وإذا فنى أولادنا خرجتُ أنا إليك، فمن قتل صاحبه ذهب بالمُلْكِ».

وتعاهدا على ذلك، فعمد المنذر إلى رجل من شجعان أصحابه، فأمره أن يخرج فيقف بين الصَّفّيْن ويُظهر أنّه ابن المنذر، فلما خرج أخرج إليه الحارث ابنه أبا كَرب، فلما رآه رجع إلى أبيه وقال: «إنّ هذا ليس بابن المنذر، إنّما هو عبده أو بعض شجعان أصحابه»، فقال: «يا بُنيَّ! أجزعت من الموت؟ ما كان الشّيخ ليغدر»، فعاد إليه وقاتله، فقتله الفارس وألقى رأسه بين يدي المنذر.

وعاد فأمر الحارث ابناً له آخر بقتاله والطّلب بثأر أخيه، فخرج إليه، فلمّا واقفه، رجع إلى أبيه وقال: «يا أبتِ! هذا والله عبد المنذر»، فقال: «يا بنيّ! ما كان الشيخ ليغدر»، فعاد إليه، فشد عليه، فقتله.

ولما رأى شَمِر بن عمرو الحَنَفيّ، وكانت أُمّه غَسَّانِيَّة، وهو مع المنذر، وقال: «أيّها الملك! إنّ الغدر ليس من شيم الملوك ولا الكرام، وقد غدرت بابن عمّك مرّتين»، فغضب المنذر وأمر بإخراجه، فلحق بعسكر الحارث وأخبره بغدر المنذر.

فلمَّا كان الغد، عَبَّى الحارث أصحابه وحرّضهم، وكان في أربعين

ألفاً، واصطفّوا للقتال، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل المنذر وهُزمت جيوشه.

وأمر الحارث بابْنَيْه القَتيلَيْن فحُملا على بعير بمنزلة العِدْلَيْن، وجعل المنذر فوقهما، فَوْداً[1]، وقال: «يا لَعِلاوة دون العِدْلَيْن!»، فذهبت مثلاً. وسار إلى الحيرة فأنهبها وأحرقها ودفن ابنيه بها، وبنى الغَرِيَّيْن[2] عليهما في قول بعضهم، وفي ذلك يقول ابن أبي الرَّعلاء الضُّبْيانيّ:

كم تركنا بالعَيْن عَيْنِ أُباغٍ ... من ملوكٍ وسُوْقةٍ أَكْفَاءِ
أَمْطَرَتْهُمْ سحائب الموتِ تَتْرَى ... إنَّ في الموتِ راحةَ الأشقياءِ
ليس مَنْ ماتَ فاستراح بميْتٍ ... إنّما المَيْتُ مَيِّتُ الأحياءِ[3]

ثم شهد الحارث يوم مُرْج حَلِيْمَة[4]، وهو من أيام العرب المشهورة في الجاهليّة أيضا.

ولما قُتل المنذر بن ماء السّماء، ملك ابنه المنذر بعده، وتلقّب: الأسود، ولما استقرّ وثبَّتَ قدمه، جمع عساكره، وسار الى الحارث الأعرج طالباً بثأر أبيه عنده، وبعث إليه: «إنّنى قد أعددت لك الكُهُول، على الفُحُول[5]»، فأجابه الحارث: «قد أعددتُ لك المُرْد، على الجُرْد»[6]، حتى نزل المنذر بمرج حَلِيْمَة، فتركه مَنْ به من غَسَّان للأسود، وإنّما سُمّي: مرج حليمة، بحليمة ابنة الحارث الغسَّانيّ.

---

(١) الفود: العِدْل، يقال: قعد بين الفَوْدين: العِدْلين.
(٢) الغريّان: بناءان كالصومعتين، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٢٨١-٢٨٦).
(٣) ابن الأثير (١/٥٤٥-٥٤٢).
(٤) مرج حليمة: موضع في الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٣٣٠-٣٣١).
(٥) الفحول: جمع فحل، وهو الذكر القويّ من كل حيوان.
(٦) جُرْد: جمع أجرد، يقال فرس أجرد: سبّاق.

وزحف الناس واقتتلوا قتالاً شديداً، وذكر أنّ الغبار في هذا اليوم اشتد وكثر حتى ستر الشّمس، وحتى ظهرت الكواكب المتباعدة عن الشّمس، لكثر العساكر، لأنّ المنذر بن المنذر سار بعرب العراق أجمع، وسار الحارث بعرب الشام أجمع، فدارت الدائرة على المنذر، وقُتل في المعركة، وانهزم أصحابه في كلّ وجه، وتكبّد المناذرة خسائر فادحة بالأرواح والأموال، وانصرفت غسّان بأحسن ظَفَر.

وهذا اليوم من أشهر أيام العرب، وقيل في قتل المنذر غير ذلك، والنتيجة المتّفق عليها أنّ الحارث انتصر على المناذرة في هذا اليوم العصيب[1].

والحارث هو الذي أوصل أمرأ القيس الشّاعر المشهور بقيصر الرُّوم هرقل، وكان أمرؤ القيس قد قصد السَّمَوْأَل بن عادياء، فأكرمه وأنزله، فنزل عنده مدّة من الزّمن، ثم طلب منه أن يكتب إلى الحارث ليوصله إلى قيصر، ففعل ذلك، وسار امرؤ القيس إلى الحارث، وأودع أهلّه وماله وأدراعه عند السموأل.

ولما وصل امرؤ القيس إلى قيصر، أكرمه، وسيّر معه جيشاً كثيفاً فيهم جماعة من أبناء الملوك، ولكنّه مات في أَنْقَرة[2]، ودُفن في جبل عَسِيْب بالقرب من أَنقرة.

وحين كان يحتضر أمرؤ القيس، رأى قبر امرأة من بنات ملوك الرُّوم، وقد دفنت بجنب جبل عسيب، فقال:

أجـــارتنـــا إنّ الخُطوب تنوبُ ... وإنّي مُقـيمٌ مـا أقـام عَسِيْـبُ

أجارتنـا إنّا غريبـان هاهُنـا ... وكـلّ غريـب للغريـب نسيـب

---

(١) انظر التفاصيل في ابن الأثير (١/٥٤٢-٥٤٧).

(٢) أنقرة: اسم للمدينة التي اسمها أنكورية، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٦١-٣٦٢) وهي عاصمة الجمهورية التركية في الوقت الحاضر.

ومات امرؤ القيس، فدُفن إلى جنب المرأة، فقبره هناك.

ولما مات امرؤ القيس، سار الحارث إلى السّموأل بن عادياء وطالبه بأدراع امرىء القيس، وكانت مائة درع، وبما له عنده، فلم يُعْطِه، فأخذ الحارث ابناً للسّموأل، وقال: «إمّا أن تُسْلِم الأدراع، وإما قتلتُ ابنك»، فأبى السّموأل أن يُسَلِم إليه شيئاً، فقتل ابنه، فقال السّموأل في ذلك:

وفيْتُ بأدرُع الكِنْـدِيّ إنّي	إذا ما ذُمَّ أقْوامٌ وفيتُ
وأوصى عادياً يوماً بأن لا	تُهَدِّمَ يا سموأَلُ ما بنيتُ
بني لي عادياً حِصْناً حَصِيناً	وماءً كلّما شِئْتُ استَقيتُ

وقد ذكر الأعشى هذه الحادثة فقال:

كُنْ كالسّموأل إذ طافَ الهُمَامُ به	في جَحْفَلٍ كسوادِ اللَّيْلِ جَرَّارِ
إذ سامه خُطَّتَيْ خَسْفٍ فقال له:	قُلْ ما تشاءُ فإني سامعٌ حارِ
فقال: غَدْرٌ وَثُكْلٌ أنت بينهما	فاخْتَرْ فما فيهما حظٌّ لِمُخْتَار
فَشَكَّ غيرَ طويلٍ ثمّ قال له:	أُقْتُلْ أسيرَك إنّي مانعٌ جاري[1]

وكان حُجر قد قُتل، فأراد ابنه امرؤ القيس أن يأخذ بثأر أبيه، فقصد قيصر الرُّوم ليستعين به على الذين قتلوا أباه، فمات دون أن يُحقِّق هدفه[2].

وقد اشتهر الحارث في التاريخ الإسلاميّ، بأنه أحد الملوك الذين وجّه إليهم النبيّ ﷺ كتاباً يدعوه فيه وقومه إلى الإسلام، فلما استمع إلى كتاب النبيّ ﷺ قال: «مَنْ ينزع ملكي مني! أنا سائر إليه»، ولم

---

(١) ابن الأثير (١/٥١٨-٥٢٠)، وحار في البيت الرابع من شعر الأعشى ترخيم حارث انظر الأغاني (٢٢/١٢٠).

(٢) انظر التفاصيل في ابن الأثير (١/٥١١-٥٢٠).

يُسْلِم. ومات الحارث، سنة ثمانٍ الهجرّية (٦٣٠ م) أي عام في فتح مكّة[1].

نستطيع أن نستنتج، أنّ الحارث كان متكبِّراً مغروراً، والدليل على ذلك أنّه حارب تَغْلِب لأنّ جماعة منهم لم يستقبلوه حين مرّ بهم مروراً عابرا.

وأنّه كان غِرّاً ساذجا، والدليل أنّه صدّق خصمه في ميدان القتال، فقُتل ولداه بخديعة خصمه وغدره، دون أن يتذكّر أن الحرب خدعة.

وأنّه يفتقر إلى المرونة والحكمة، والدليل أنّه قاتل يوم مرج حليمة، دون أن يفاوض عدوّه ويحاول إقرار السّلام والابتعاد عن الحرب، ودون أن تستنفد كلّ جهوده للصّلح مع عدوّه.

وأنّه بعيد عن الأمانة والحنان، والدليل على ذلك أنّه أراد أن يتخلّى المؤتمنُ عن أمانته، وإلا قتل ولد المؤتمن جزاء أمانته. فلما أصرّ المؤتمن على التمسّك بأمانته التي في حوزته، قتل الحارث أحد أبناء المؤتمن الذي أسره صبرا، وهذا دليل على قوته وبغيه أيضاً.

وأنّه كان يميل إلى الحرب ولا يميل إلى السلام، والدليل على ذلك، أنّه قضى معظم أيامه في القتال على أبناء عمه وقومه، لا على الرُّوم والفرس الذين يستعبدون قومه ويستعمرون بلادهم.

هـذا المتكبِّر المغرور، الغِرّ السَّاذج، المتعصِّب الأحمق، الغـادر المغتال، المتعطِّش إلى الدِّماء، الهاوي للحرب الكاره للسّلام، لا يمكن أن يعتنق الإسلام بما فيه من سماحة ومُثُل عُليا وإقرار للسّلام.

---

(١) تاريخ الخميس (٣٩/٢)، وانظر الاعلام للزركلي (١٥٧/٢) - ط ٢، والقاموس الإسلامي (٨/٢).

٢. السَّفارة النبويَّة:

بعث النبيّ ﷺ قبل الفتح - فتح مكّة - وبعد الحُدَيْبِيَّة رسله إلى الملوك[١] والرؤساء، وذلك في شهر ذي الحجّة سنة ست الهجرية[٢]، أي في نهاية السنة السّادسة الهجريّة، فبعث من جملة مَنْ بعث إليهم شُجَاع ابن وهب الأَسَدِيّ إلى الحارث بن أبي شَمِر الغَسَّانِي يدعوهم إلى الإسلام، وكتب معه كتابا.

قال شجاع: «فأتيتُ إليه وهو في غُوْطة دِمشق، وهو مشغول بتهيئة الإنزال والألطاف لقيصر (هرَقْل) وهو في طريقه من حِمْص إلى إِيْلِيَاء (بيت المقدس)، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إني رسول رسول الله ﷺ إليه، فقال: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا، وجعل حاجبه وكان روميّاً يقال له: مُرَيّ يسألني عن رسول الله ﷺ، فكنت أحدِّثه عن صفة رسول الله ﷺ وما يدعو إليه، فيرقّ حتى يغلبه البكاء، ويقول: إنّي قد قرأت الإنجيل، فأجد صفة هذا النبيّ ﷺ بعينه، فأنا أؤمن به وأصدِّقه وأخاف من الحارث أن يقتلني، وكان يكرمني ويحسن ضيافتي.

وخرج الحارث يوماً، فجلس ووضع التّاج على رأسه، فأذن لي عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرأه، ثُمَّ رمى به، وقال: مَنْ ينتزع منّي مُلكي؟ أنا سائر إليه، ولو كان باليَمَن جئتُه، عَلَيَّ بالنّاس! فلم يزل يفرض حتى قام، وأمر بالخيول تُنْعَل، ثم قال: أخبر صاحبك ما ترى!

«وكتب إلى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه، فكتب إليه قيصر: ألاّ تسير إليه والْه عنه ووافني بإيلياء. فلما جاءه جواب كتابه، دعاني فقال: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ فقلت غداً! فأمر لي بمائة مثقال

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١) وجوامع السِّيرة (٢٩).

(٢) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١) والطبري (٦٤٤/٦)، وانظر سيرة ابن هشام (٢٧٨/٤).

ذهب، ووصلني مُرَيّ وأمر لي بنفقة وكسوة، وقال: أقرِئْ رسول الله ﷺ منّي السّلام فقدمت على النبيّ ﷺ، فأخبرته، فقال: «بادَ مِلكُه! وأقرأته السّلام من مُرَيّ، وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ: صَدَق»، ومات الحارث بن شَمِر عام الفتح[1]، كما ذكرنا.

وفي رواية ثانية، أنّ شُجاع بن وَهْب قد بعثه النبيّ ﷺ إلى الحارث ابن شَمِر الغَسَّانيّ وابن عمِّه جَبَلة بن الأَيْهَم ملكي البَلْقاء من أعمال دمشق[2]، وكانوا بِغُوْطة دِمشق[3].

وفي رواية ثالثة، أنّ النبيّ ﷺ بعث شجاعاً إلى جَبَلة بن الأَيْهَم الغسّاني[4].

والرواية الأولى أصحّ، لأن الحارث بن أبي شَمِر هو الذي كان على الغساسنة حينذاك، وكان ابن عمِّه جَبَلة من أبرز شخصيّات العائلة المالكة في حينه، ولكنّه لم يكن ملك الغساسنة.

وكما أنّ الحارث لم يُسْلِمْ، كذلك لم يُسلِمْ جَبَلَة يومئذٍ، وقد تولى المُلْكَ بعد موت ابن عمِّه الحارث سنة ثمانٍ الهجريّة، فكان جَبَلة آخر ملوك غَسَّان وقد أسلم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثمّ ارتدّ وتنصّر بعد ذلك ولحق بالرُّوم. وكان سبب تنصّره، أنّه مرّ في سوق دمشق، فأوطأ رجلاً فرسُه، فوثب الرّجل ولطمه، فأخذه الغَسَّانيّون وأدخلوه على أبي عُبَيْدة بن الجرّاح رضي الله عنه[5]، فقالوا: «هذا لطم

---

(١) طبقات ابن سعد (١/٢٦١) وانظر ابن الأثير (٢/٢١٣) والبداية والنهاية (٤/٢٦٨)، وانظر طبقات ابن سعد (٣/٩٤-٩٥) وتاريخ خليفة بن خيّاط (١/٦٣).

(٢) جوامع السيرة (٢٩-٣٠) وانظر سيرة ابن هشام (٤/٢٧٩) والمحبّر (٧٦) وابن الأثير (٢/٢١٠).

(٣) ابن الأثير (٢/٢١٣).

(٤) سيرة ابن هشام (٤/٣٧٩).

(٥) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٥٤-٨١).

سيِّدنا »، فقال أبو عُبَيْدَة: « البَيِّنة أنّ هذا لطمك؟! »، فقال جَبَلَة: « وما تصنع البيِّنة! »، فقال: « إنْ كان لطمك لَطَمْته بلطمتك »، قال: « ولا يُقْتَلْ؟ »، قال: « لا! »، قال: « ولا تُقْطع يَدُهُ؟! »، قال: « لا! إنّما أمرَ اللهُ بالقصاص، فهو لطمة بلطمة »، فخرج جَبَلَة، ولحق بأرض الرُّوم، وتنصَّر، ولم يزل هناك إلى أن هلك[1].

ويبدو أنّ تصرّف الحارث مع السّفير النبوي بعد تسلّمه الكتاب النبويّ منه، وتوّعده بالسّير إلى النبي ﷺ لقتاله، كان مظاهرة لإرضاء هرقل، لأنّه توقع أنّ هرقل يرفض الإسلام ولا يقبل بلقاء السفير النبويّ، ولا يبدو أنّه عازم على تنفيذ وعيده الغاصب، وإنّما أرسل تهديده الشديد إرضاءً لهرقل وللرّوم أسياده.

فلما تكشّفت نيّات هرقل في قبوله شخصيّاً السفير النبويّ الذي قصده بكياسة وتعقل ولين، وانكشف منعه الحارث من السّير إلى النبيّ ﷺ، والتوجّه لمقابلته واستقباله في بيت المقدس، نكص الحارث على عقبيه، وانقلبت حدّته لينا، وقسوته رحمة، وشدّته سماحة، ووعيده وَعْدا، فأكرم السّفير النبوي ووصله وعامله بالحُسْنى.

وهكذا كان الحارث ملكيّاً أكثر من الملك، وقيصريّاً أكثر من القيصر، وبرزت عمالته للرُّوم بشكل واضح جَلِيّ، فهو كالقيصر حيث مال يميل، وكلّ ما يُرْضي القيصر فهو عند الحارث جميل.

وإذا كان متكبّراً على أبناء جلدته، فهو عبد للرُّوم وللقيصر، كأنه أسدٌ هصور على قومه، ونعامة مستخذية على الأجانب.

---

(١) المعارف (٦٤٤)، وقد ورد في بعض المصادر، أن جبلة ارتدّ في المدينة المنورة. ولا خلاف في أنّه ارتدّ وعاد الى النصرانيّة، وكان الغساسنة قبل أن يُسْلِم منهم مَنْ أسلم على دين النّصارى.

أما جَبَلة، فقد أسلم مضطرّاً كما يبدو، لأنّ المسلمين فتحوا بلاده، فأصبح رجلاً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، ولم يبق ملكا. ولكنّه عاش مع المسلمين بعقليّة جاهليّة، فكان مسلماً من قوارير، ولم يحسن إسلامه أبدا، لذلك ارتدّ حين تأثّرت مصالحه، ولم يُطِقْ عدل الإسلام، ولم يستطع أن يتحمّله.

لقد كان جَبَلة مثلاً حيّا من أمثلة الجاهلية التي جاء الإسلام لاجتثاثها من جذورها، فهي عصبيّة وتعصّب، وعمل للفرد والقبيلة، لا لله والمجتمع الإسلامي كما يأمر به الدِّين الحنيف.

وكان نصّ كتاب النبيّ ﷺ إلى الحارث:

« بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد رسول الله

إلى: الحارث بن أبي شَمِر[1]

سلام على مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى وآمَنَ بالله وصَدَّق. فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده، لا شريكَ له، يبقى ملكك[1].

علامة الختم: الله رسول محمد

فقدم عليه شُجاع بن وَهْب، فقرأه عليه، فقال: «ومَنْ ينتزع ملكي؟! إنّي سأسير إليه»[2].

---

(١) البداية والنهاية (٢٦٨/٤)، وانظر مجموعة الوثائق السياسية (٦٢-٦٣) للاطلاع على مصادر ومراجع نصّ الكتاب النبوي فيها.

(٢) البداية والنهاية (٢٦٨/٤).

لقد استطاع شجاع بن وهب، أن يصل إلى ملك الغساسنة، الحارث ابن أبي شَمِر، وفي ظروف صعبة للغاية، إذ كان الحارث في شُغل شاغِل عن شجاع بالتحضيرات الدائبة لاستقبال قيصر الرُّوم هرقل، وهو في طريقه إلى بيت المقدس، شكراً لله تعالى على نصره المؤزر له على الفُرس في معارك طاحنة استمرّت بضع سنين بدون هوادة، فقدّم شجاع كتاب النبيّ ﷺ إلى الحارث ملك الغساسنة، ودعاه إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فبلّغ الرِّسالة وأدّى الأمانة، ونجح بالتأثير على أحد حاشية الملك، فأسلم حاجب الملك وهو من أقرب المقرّبين الى الملك، وأعلن إسلامه. ولا بدّ أنّ شجاعاً بأسلوبه الحصيف في الدّعوة إلى الله، أثّر في غير هذا الحاجب الذي أعلن إسلامه.

أما الحارث، فلم يستجب للدعوة يومئذٍ، خوفاً على مُلكه، وخوفاً من الرُّوم النّصارى الذين كانوا يحتلّون بلاد الشّام حينذاك، وخوفاً من قيصر الرُّوم هرقل، وكان الغساسنة من رعايا هرقل، يدينون له وللرُّوم بالطّاعة والولاء.

لقد كان الحارث مسلوب الإرادة بالنسبة لهرقل والرُّوم، فإرادته تبع لإرادتهم، ولا مجال له للاختيار، فهو تابع لا متبوع، لا يعمل عملاً يرفضه هرقل، بل يعمل ما يريده هرقل لمصلحة الرُّوم أولاً وأخيراً وقبل كل شيء، أما مصلحة الغساسنة والعرب فكانت يومئذٍ غائبة عن الميدان.

إلى هَوْذَة بن عَلِيّ الحَنَفِيّ
ملك اليمَّامة(١)

١ . هَوْذَة بن عليّ الحَنَفي:

هو هَوْذَة بن عليّ بن ثُمامة بن عمرو بن عبد العُزَّى بن سُحَيْم بن مُرَّة ابن الدُّوْل بن حَنِيْفَة(٢).

وحَنِيفةُ بن لُجَيْم بن صَعْب بن عليّ بن بَكْر بن وائل(٣) بن قاسِط بن هِنْب بن أفْصَى بن دُعميّ بن جُديلة بن أسَد بن ربيعة بن نِزار(٤).

كان على بني حَنِيفة في اليمامة من نَجْد، وكان شاعرها وخطيبها قبل الإسلام وفي العهد النبويّ.

توجّه إلى كسرى(٥)، وسبب ذلك، أنّ عامل كسرى على اليمن بعث بأموالٍ وطُرَف من طُرَف اليمن إلى كسرى، فلما صارت ببلاد بني تَمِيمْ انتهبوها. وسار أصحاب العِير إلى هوذة بن عليّ الحنفيّ باليمامة، فكساهم وزوّدهم وحملهم، وسار معهم حتى دخل على كسرى. وكان لهوذة جمال

---

(١) اليمامة: معدودة من نجد، وكانت تسمى قديما: جوّاً والعروض، وقاعدتها حِجْر، وبين اليمامة والبحرين عشرة أيام، انظرالتفاصيل في معجم البلدان (٨/٥١٥-٥٢٢).

(٢) جمهرة أنساب العرب (٣١٠).

(٣) جمهرة أنساب العرب (٣٠٩).

(٤) جمهرة أنساب العرب (٣٠٢).

(٥) جمهرة أنساب العرب (٣١٠).

وبيان، فأعجب به كسرى وحَفِظَ له ما كان منه، ودعا بعِقْد دُرّ فعقد على رأسه وكساه قَباء[1] ديباج مع كسوة كثيرة، فمن ثَمَّ سُمّيَ هوذة: ذا التاج.

وقال كسرى لهوذة: «أرأَيتَ هؤلاء القوم الذين صنعوا ما صنعوا، من قومك هم؟» قال: «لا»، قال: «أصلحٌ هم لك؟»، قال: «بيننا الموت!»، قال: «قد أدركت بعض حاجتك، ونلت ثأرك».

وعزم كسرى على توجيه الخيل إلى بني تميم، فقيل له: «إنّ بلادهم بلاد سوء، إنّما هي مغاور وصحارى لا يُهْتدَى لسالكها، وماؤهم من الآبار، ولا يؤمن أن يعوِّروها فيهلك جندك»، وأُشير عليه أن يكتبَ إلى عامله في البحرين الذي كان العرب يسمّونه: المُكَعْبِر، وإنّما سُمّي المكعبر، لأنّه كان يقطع الأيدي والأَرْجُل، وآلى كسرى ألاّ يدع في بني تميم عَيْناً تطرِف، ففعل ووجّه لعامله على البحرين رسولا.

ودعا كسرى بهوذة، فجدّد له كرامةً وصِلةً، وقال: «سِرْ مع رسولي هذا، فاشْفِني واشْتَفِ».

وأقبل هوذة والرّسول معه حتى صار إلى المكعبر، وذلك قريب أيام اللُّقاط[2]، وكان بنو تميم يسيرون في ذلك الوقت إلى هَجَر[3] للميرة واللُّقاط، فنادى منادى المكعبر: «من كان هاهنا من تميم فَلْيَحْضر، فإن الملك قد أمر لهم بميرة وطعام يُقسَّم فيهم» فحضروا، فأدخلهم المُشقَّر - وهو حصن - وقتل رجالهم واستبقى يومئذ الغلمان، وجعل الغلمان في السُّفن، وعبر بهم إلى فارس.

---

(١) القَباء: ثوب يُلبس فوق الثياب أو القميص ويتمنطق عليه، انظر المعجم الوسيط (٧١٣/٢).

(٢) اللّقاط بالضم: جمع اللّقاطة، وهو ما التقط من كرب النّخل بعد الصرام.

(٣) هجر: قاعدة البحرين، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٤٥/٨-٤٤٧).

وكلّم هوذةُ المكعبر يومئذٍ في مائة من أسرى بني تميم، فوهبهم له يوم الفِصْح - من أعياد النّصارى - فأعتقهم، ففي ذلك يقول الأعشى:

سائـل تَمـيماً بـه أيّـامَ صَفْقَتِهِمْ ... كما أتَوْهُ أُسارى كلّهم ضَرَعـــا[1]

وَسْط المُشقَّرِ في غَبْراءَ مُظْلِمَـــةٍ ... لا يستطيعون بعد الضُرِّ مُنْتَفعَا

فقال للمَلْكِ أطْلِقْ منهمُ مائةً[2] ... رِسْلاً من القَوْلِ مَخْفُوضاً وما رَفَعا

فَفَكّ عن مـائـةٍ منهم إسارَهُمُ[3] ... وأصْبَحُوا كلُّهم من غُلِّـه خُلِعـا

بهم تَقَرّب يومَ الفِصْح ضاحِيةً[4] ... يرجو الإلَهَ بما أسدى وما صنعَا[5]

فلا يَرَوْنَ بـذاكُمْ نِعْمَةً سَبَقَتْ ... إن قـال قـائلَها حَقّاً بهـا وسِعَا

يصف بني تميم بالكُفر لنعمته[6].

وفي رواية، أنّ كسرى بعث إلى عامله باليمن بعيرٍ، وكان باذان على الجيش الذي بعثه كسرى إلى اليمن، فكانت العيرُ تُخْفَر من المدائن، حتى تدفع إلى النُّعمان في الحيرة، فيخفرها النُّعمان خُفراء من بني ربيعة ومُضَر حتى يدفعها إلى هُوْذَة فيخفرها حتى يخرجها من أرض بني حنيفة، ثم تدفع إلى بني سعد من تميم وتجعل لها جِعالة، فتسير بها، فيدفعونها إلى باذان باليمن.

فلما بعث كِسْرى بهذه العير، قال هُوَذَة لفرسان كسرى: «انظروا الذي تجعلونه لبني تميم، فأعطونيه، فأنا أكفيكم أمْرَهم، وأسير فيها معكم، حتى تبلغوا مأمَنكم».

---

(١) من قصيدة في ديوانه (٧٢-٨٧) والضرع بفتحتين: الذليل الضّعيف.

(٢) في الديوان: «سرَّح منهم مائة».

(٣) في الديوان: «وثاقهم».

(٤) في الديوان: «يوم الفتح».

(٥) في الديوان: «سدى».

(٦) انظر التفاصيل في الطبري (١/١٦٩-١٧١) وابن الأثير (١/٤٦٨-٩٦٤).

وخرج هوذة وفرسان كسرى والعير معهم من هَجَر، حتى إذا كانوا في أرض بني سعد في نجد، سار بنو سعد وهم من تميم إلى العير، وأخذوا ما كان معهم واقتسموه وقتلوا عامة فرسان كسرى وسلبوهم، وأسروا هوذة بن عليّ، فاشترى هوذة نفسه بثلاثمائة بعير، فساروا معه إلى هَجَر وأخذوا منه فداءَهَ. ففي ذلك يقول شاعر بني سعد:

ومنّا رئيسُ القومِ ليلةَ أَدلَجُوا بِهَوْذَة مقرون اليدينِ إلى النَّحْرِ
وَرَدْنَا به نَخْلَ اليمامَة عانياً عليه وثاق القدّ والحَلَق السُّمْرِ

وعمد هوذة عند ذلك إلى فرسان كسرى الذين أطلقهم بنو سعد، وكانوا قد سُلبوا، فكساهم وحملهم، ثم انطلق معهم إلى كسرى. وكان هوذة رجلاً جميلاً شجاعاً لبيباً، فدخل على كسرى وقصّ عليه أمر بني تميم وما صنعوا، فدعا كسرى بكأسٍ من ذهب فسقاه فيها وأعطاه إياها وكساه قَباء ديباج منسوجاً بالذهب واللّؤلؤ، وقلنسوة قيمتها ثلاثون ألف درهم، وهو قول الأعشى:

له أكاليل بالياقوت فَصّلها صَوّاغُها لا ترى عَيْباً ولا طَبَعا

وذُكر أنّ كسرى سأل هوذة عن ماله ومعيشته، فأخبره أنّه في عيشٍ رَغد، وأنّه يغزي المغازي فيُصيب. فقال كسرى: «كم ولدُك؟»، قال: «عشرة»، قال «فأيّهم أحبّ إليك؟»، قال: «غائبهم حتى يقدم، وصغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يبرأ»، فقال كسرى: «الذي أخرج منك هذا العقل، حَمَلَك على أن طلبت مني الوسيلة»[1].

لقد كان هوذة شجاعاً لبيباً شاعراً خطيباً، وكانت صلته طيبة مع كسرى، ويبدو أنّ واجبه كان يقتصر على حراسة قوافل كسرى في طريقها من المدائن إلى اليمن، ومن اليمن إلى المدائن، وكانت حراسته

---

(١) الأغاني (١٧/ ٣١٩ - ٣٢١).

لتلك القوافل، تنحصر في منطقة اليمامة من نجد، وكان يتكسّب بهذه الحراسة وبولائه لكسرى، وأخباره في المصادر العربية قليلة ومضطربة أيضاً[1]، وكان نصرانياً ومات سنة ثمان الهجرية (٦٣٠ م).

٢. السّفارة النبوية:

بعث النبيّ ﷺ رسله إلى الملوك والأمراء قبل الفتح - فتح مكّة المكرّمة - وبعد الحُدَيْبِيَّة[2]، في شهر ذي الحجة من السّنة السّادسة الهجرية، بعد رجوعه من الحُدَيْبِيَّة إلى المدينة المنوّرة، فأرسل الرُّسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتباً فقيل: يا رسول الله إنّ الملوك لا يقرأون كتاباً إلا مختوما، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتماً من فضّة، فصُّه منه، نقشه ثلاثة أسطر، محمد رسول الله، لفظ الجلالة سطره الأعلى ،ورسول سطره الأوسط، ومحمد سطره الثالث ،وختم به الكتب[3]،فبعث سَلِيْط بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي إلى ثُمامَة بن أُثال وهَوْذَة بن علي الحنَفِيَّيْنْ مَلِكي اليَمَامَة[4].

وفي رواية أخرى، أنّ النبيّ ﷺ، بعث سَلِيط بن عمرو إلى هوذَة ابن علي الحَنَفيّ وحده[5]

ويبدو أنَّ هَوْذَة كان أشهر من ثُمَامَة وأوسع سلطانا، وكان الرّجلَ الأوّل في السُّلطة، فاقتصر قسم من المؤرّخين على ذكره وحده دون

---

(١) انظر ما جاء عنه في: عيون الأثر (٢/٢٦٩) والروض الأنف (٢/٢٥٣) وصفة جزيرة العرب (١٣٩) والأعلام للزركلي (٩/١١١ - ١١٢).

(٢) الطبري (٢/٦٤٤) وابن الأثير (٢/٢١٠) وجوامع السيرة (٢٩).

(٣) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨).

(٤) سيرة ابن هشام (٤/٢٧٩) وأسد الغابة (٢/٣٤٤) وجوامع السّيرة (٢٩).

(٥) تاريخ خليفة بن خيّاط (١/٦٤١) والطبري (٢/٦٤٤) وابن الأثير (٢/٢١٠) والبداية والنهاية (٤/٢٧٣) وأنساب الأشراف (١/٥٣١) وطبقات ابن سعد (٤/٢٠٣).

سواه. أما مصادر رجال الحديث، فقد ذكرت أنَّ النبيّ ﷺ بعثه إلى هوذة وثمامة معاً[١]، لأنها كانا المسيطرَيْن على اليمامة، ولكنّ الثاني كان مسلماً كما ستـرد قصة إسلامه وشيكا، أما الأول فكان نصرانياً.

وكان نصّ كتاب النبيّ ﷺ إلى هوذة بن علي الحنَفيّ:

« بسم الله الرحمن الرَّحيم

من: محمد رسول الله.

إلى: هوذَة بن عَليّ.

سلام على مَنْ اتَّبع الهُدى، وأعلم أن ديني سيظهر إلى منتَهى الخُفّ والحافِر، فأسْلِمْ تَسْلَم، وأجعل لك ما تحت يديك »[٢].

علامة الختم: الله / رسول / محمد

وقدم سَليط بكتاب النبيّ ﷺ إلى هوذة، فأنزله وحباه، وقرأ كتاب النبي ﷺ، وردّ عليه ردّاً دون ردٍّ، وكتب إلى النبي ﷺ:

«ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأمرِ أتَّبِعْك ».

التوقيع

---

(١) أسد الغابة (٣٤٤/٢) والاستيعاب (٦٤٥/٢ - ٦٤٦).

(٢) صبح الأعشى للقلقشندي (٣٧٩/٦) والقسطلاني (٢٩٥/١)، وانظر مجموعة الوثائق السياسية (٩١) للإطلاع على تفاصيل المصادر والمراجع الأُخرى.

وأجاز سليط بجائزة وكساه أثواباً من نسج هَجَر[1]، فقدم بذلك كلّه على النبي ﷺ، وأخبره بما قال هوذة، فقرأ للنبي ﷺ كتاب هوذة، فقال: «لو سألني سيابَة[2] من الأرض ما فعلت! بادَ وبادَ ما في يديه!»، فلما انصرف من عام الفتح، جاء جِبْريل فأخبره أنه قد مات[3].

وسكت النبي ﷺ عن هوذة ومَن معه تاركاً أمرهم للأيام، بعد أن بلّغهم الرِّسالة وأدّى الأمانة. ويبدو أن هوذة أخذ المبادرة بعد أن لم يُحقّق له النبي ﷺ أطماعه غير المشروعة، فبعث وفداً فيهم مُجَّاعة بن مُرارة والرَّجال بن عُنْفوَة إلى النبي ﷺ يقول له:

«إن جعل له الأمر من بعده أسلم وسار إليه ونصره، وإلا قصد حربه».

فقال رسول الله ﷺ:

«لا ولا كرامة، اللّهُمّ اكفنيه».

فمات بعد قليل، أي في السنة الثامنة الهجرية كما ذكرنا.

وأما مُجَّاعَة والرَّجَّال، فأسلما. وأقام الرَّجَّال عند رسول الله ﷺ، حتى قرأ سورة البقرة وغيرها، وتفقه، وعاد إلى اليمامة، فارتدّ[4]، في فتنة مُسَيْلَمَه الكذّاب.

---

(١) هجر: قاعدة البحرين، وربما قيل: الهجر، بالألف واللّام. وقيل ناحية البحرين كلّها هجر، وهو الصّواب، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١٤٥/٨ - ١٤٧).

(٢) سيابة: واحدة السياب، وهو البُسْر الأخضر من ثمر النّخل، لا فائدة فيه. وسيابة من الأرض: ما لا فائدة فيه من الأرض.

(٣) طبقات ابن سعد (٢٦٢/١).

(٤) ابن الأثير (٢١٥/٢).

وهكذا لم يُسلم هوذة، ومات على دينه نصرانياً، وقد حرمته أطماعه في متاع الدنيا الفاني من اعتناق الدين الحنيف الباقي، إذ أراد أن يتّخذ من إسلامه وسيلة لتحقيق تلك الأطماع، فلم يفلح في مسعاه.

أما ثُمامة بن أُثَال الحَنَفيّ[1] الذي كان سيِّد أهل اليَمَامة، والذي روى حديثه أبو هريرة رضي الله عنه[2]، فأمره مختلف جداً عن هوْذَة، فقد أسلم ثُمامة قبل هُدْنة الحُدَيْبِيَّة، وقد قصده سَليط كما قصد هَوْذَة، لشدّ أزره في الدّعوة إلى الإسلام، ولم تذكر المصادر المعتمدة نصّ كتاب النبي ﷺ إليه[3].

وقصّة إسلام ثُمامة بإيجاز، هي: خرجت خيل لرسول الله ﷺ، فأخذت رجلاً من بني حَنِيْفَة لا يشعرون مَنْ هو، حتى أتوا به رسول الله ﷺ، فقال: «**أتدرون مَنْ أخذتم؟ هذا ثُمامة بن أُثال الحَنَفيّ! أحسنوا إساره!**».

ورجع رسول الله ﷺ إلى أهله، فقال: «**اجمعوا ما كان عندكم من طعام، فابعثوا به إليه**»، وأمر بِلقْحَة[4] أن يُغْدى عليه بها ويُراح، فجعل لا يقع من ثمامة موقعا. ويأتيه رسول الله ﷺ فيقول: «**أسلِمْ يا ثمامة**»، فيقول: «إيْهاً يا محمد! إنْ تَقْتُل تَقْتُلْ ذا دمٍ، وإنْ تُرِدِ الفداء فَسَلْ ما شِئْتَ»، فمكث ما شاء الله أن يمكث.

ثم قال النبيّ ﷺ يوماً: «**أَطْلِقُوا ثُمامة**» فلما أطلقوه خرج حتى أتى

---

(١) هو ثمامة بن اثال بن النعمان بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن الدُّول بن حنيفة الحنفي، انظر جمهرة أنساب العرب (٣١٢).

(٢) الاستيعاب (٢١٣/١) وأسد الغابة (٢٤٦/١) والإصابة (٢١١/١).

(٣) إمتاع الأسماع للمقريزي (٣٠٨/١).

(٤) اللّقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللّبن. (ج): لِقَاح.

البَقيع[٥]، فتطهّر فأحسن طهوره، ثمّ أقبل فبايع النبي ﷺ على الإسلام.

ثمّ خرج ثُمامة مُعْتَمِراً، فلما قدم مكّة قالوا: «صَبَوْتَ يا ثُمام؟!»، قال: «لا، ولكنني اتَّبعتُ خير الدِّين: دين محمد. ولا والله لا تصل إليكم حبّة من اليمامة، حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ».

وخرج ثُمامة إلى اليمامة، فمنع أهلها أن يحملوا إلى مكة شيئاً، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: «إنك تأمر بِصلَةِ الرَّحم، وإنّك قد قطعت أرحامنا»، فكتب رسول الله ﷺ إلى ثُمامة أن يُخلّي بينهم وبين الحمْلِ[٢]، فأخذت القوافل تسير من اليَمامة إلى مكة تحمل القمح وأنواع الطعام والتمر، وتسير من مكة إلى اليمامة تحمل الأقمشة والجلود والتَّوابل والعُطور وغيرها التي تستورد إلى مكة في رحلتي الشتاء والصّيف: من الشّام واليمن وتصدّر إلى نجدْ وإلى غير نجد من الأقطار العربية وإلى الأقطار غير العربيّة المجاورة، وإلى فارس والرّوم.

وكان أمر النبيّ ﷺ لثُمامة، في إطلاق الحجر عن القوافل وما تحمل من حبوب وتمر، لتعود من جديد إلى حركتها الدائبة ذهاباً وإياباً إلى مكة، كان قبل هُدنة الحُدَيْبِيَّة، مع أنّ الحرب كانت دائرة بشدة وعنف بين المسلمين ومشركي قريش في مكة، ولكن هذه الحرب المصيريّة بين الطّرفين، لم تكن سبباً لتجويع مشركي قريش، ولا لقطع صِلَة الرّحم بين المسلمين ومشركي قريش، فقد كان النبي ﷺ يُحسن إلى مَنْ يسيء

---

(١) البقيع: بقيع الغرقد. والغرقد: كبار العوسج. والبقيع لغةً: الموضع الذي فيه أروم الشجر من ضروب شتى، وبه سُمّي: بقيع الغرقد، وهو مقبرة أهل المدينة المنوّرة، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٥٣ - ٢٥٤)، ولا تزال مقبرة أهل المدينة المنوّرة بهذا الاسم حتى اليوم.

(٢) سيرة ابن هشام (٤/٣١٥ - ٣١٧)، وانظر الإصابة (١/٢١١) وأسد الغابة (١/٢٤٦ - ٢٤٨) والاستيعاب (١/٢١٣ - ٢١٦).

إليه وإلى المسلمين، أملاً في هدايتهم المرجوّة، كما لم يكن التجويع وقطع صلة الرّحم من أساليبه في الجهاد.

وليس هناك نصّ في المصادر المعتمدة، يدل على نشاط ثمامة في الدّعوة إلى الإسلام، وبخاصة نشاطه في دعوة زميله هوذة إلى الإسلام وإقناعه باعتناقه، ولكن نستطيع أن نستنتج بأنه بذل جهده في دعوة زميله هوذة إلى الإسلام وإقناعه باعتناقه، ولكنه أخفق في محاولته، لأن هوذة كما ظهر من دراسة سيرته، لا يُعطي شيئاً بلا ثمن، فكان يُصرّ على قبض ثمن إسلامه، وكان دفع الثّمن الذي يريده مستحيلاً، فكانت أطماع هوذة سبباً في إخفاق ثمامة في محاولته دون تقصير منه في الدّعوة إلى الإسلام.

وقد يبدو من جهة أخرى، أن سَليط بن عمرو قد أخفق في سفارته النبويّة، لأن هوذة لجّ في عناده، ولكن تأثير سَليط في هوذة واضح جَليّ، فلم يُطق صبراً على إعراض النبي ﷺ عنه، وجدّد الاتصال بالنبي ﷺ، وأبدى رغبته بالإسلام بشروط لم يوافق عليها النبي ﷺ، تلك الشروط التي اعتبرها ثمناً لإسلامه. وتجديد هوذة اتّصاله بالمسلمين، دليل على مبلغ تأثره بسفارة سليط وبمحاولة ثمامة لهدايته أيضاً.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد أدى سليط واجبه كاملاً، ولكن نجاحه في مهمته كان محدوداً.

إلى جَيْفَر وعَبْدِ ابْنَيْ الجُلُنْدَيّ
ملكي عُمَان[1]

١. جَيْفَر وعَبْد ابنا الجُلُنْدَيّ:

أ - جيفر:

هو جيْفَر بن الجُلُنْدَي بن كَرْكَر بن المُسْتَكْبِر بن مسعود بن الجُراز بن عبد العُزَّيْ بن مَعْوَلَة بن شمس، وجيفر هو ملك عُمان على عهد رسول الله ﷺ[1]. وكلمة الجلندي على ما يظهر ليست اسماً لشخص وإنما هو لقب، وقد تعني: «قَيلاً» أو «كاهناً» في لهجات أهل عمان.

وشمس بن عمرو بن غالب بن عثمان بن نصر بن زَهْران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصْر بن الأَزْد الأَزْدي[3].

وأخباره قبل سفارة عمرو بن العاص إليه نادرة جداً، والمعروف عنه أن النبي ﷺ أرسل عمرو بن العاص إليه وإلى أخيه عبد ابني الجلندي بعُمان فآمنا وصدّقا[4]، وكان ذلك في السنة الثامنة الهجرية (٦٣٠ م).

---

(١) عمان: كورة باليمن، وهي على ساحل بحر اليمن والهند، وتشمل على بلدان كثيرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢١٥/٦).

(٢) جمهرة أنساب العرب (٣٨٤).

(٣) انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٣٧٩ - ٣٨٣).

(٤) ابن الأثير (٢٣٢/٢).

وقد بعث النبيّ ﷺ عمرو بن العاص في هذه السنة أيضاً إلى جيفر وعبد ابني الجلندي من الأَزْد بعُمان مصّدقاً، فأخذ الصّدقة من أغنيائهم - أغنياء المسلمين، وأخذ الجزية من المجوس، وقد كان المجوس أهل البلد، وكان العرب حولها[١].

وكان إرسال عمرو إلى جيفر وأخيه ومَنْ معهما من المسلمين، ومَن في عُمَان من المجوس، بعد منصرف رسول الله ﷺ من حجة الوداع[٢]، في السنة العاشرة الهجرية، مصدقاً، فمات رسول الله ﷺ وعمرو في عُمان، فأقبل عمرو من عمان إلى البحرين في طريق عودته إلى المدينة المنورة[٣]. والصّواب أنّ عَمْراً بقي في عُمان من السنة الثامنة حتى وفاة النبي ﷺ، كما سيرد ذلك وشيكاً وارتد أهل عُمان سنة إحدى عشرة الهجرية بعد أن التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، فبقي الجلندي وأخوه مُسْلِمينْ والتجأ هو وأخوه إلى الجبال، وبعث جيفر إلى أبي بكر يستمده، فجاءه المدد من أبي بكر رضي الله عنه، فكان لجيفر وأخيه نشاط محمود في حرب المرتدين، حتى عادوا إلى الإسلام من جديد[٤].

ولا نعرف عن جيفر بعد ذلك شيئاً مذكوراً، ولم يقدم على النبي ﷺ ولم يَرَه، لكنه أدركه فلم يكن صحابياً.

ب - عبد:

هو عَبْد بن الجُلُنْدي بن كَرْكر بن المُسْتَكْبِر بن مسعود بن الجُراز بن عبد العُزّيّ بن مَعْوَلَة بن شمس بن عمرو بن غالب بن عثمان بن نَصْر بن

---

(١) ابن الأثير (٢/٢٧٢).
(٢) ابن الأثير (٢/٣٥٢).
(٣) ابن الأثير (٢/٣٥٢ - ٣٥٣).
(٤) أنظر التفاصيل في: ابن الأثير (٢/٣٧٢ - ٣٧٣) وانظر نهاية الأرب (١٨/٦٧) وما بعدها.

زَهْران بن كَعْب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن نَصْر بن الأَزْد الأَزْدِي[1].

وأخباره قبل سفارة عمرو بن العاص إليه وإلى أخيه مجهولة، ويبدأ ذكره بسفارة عمرو بن العاص إليه وإلى أخيه.

وسيرته، في اتّصاله بعمرو، وإسلامه، وثباته على الإسلام في أيام الرِدَّة، ومقاتلته المرتدين، تشابه سيرة أخيه جيفر التي تحدثنا عليها قبل قليل.

ولا نعرف عن عبد بن الجلنديّ بعد أن وضعت الحرب أوزارها شيئاً مذكوراً. ولم يقدم على النبي ﷺ ولم يره أيضاً، ولكنه أدركه دون أن يكون صحابيا.

٢. السّفارة النبوية:

بعث النبيّ ﷺ عمرو بن العاص في شهر ذي القعدة من سنة ثمانٍ الهجريّة إلى جَيْفَر بن الجُلُنْدَيّ وأخيه عَبْد بن الجُلُنْدَيّ[2]، وهما من الأَزْد، والملك منهما جَيْفَر، يدعوهما إلى الإسلام، وكتب معه كتاباً إليهما، وختم الكتاب. قال عمرو: «فلما قدمت عُمان، عمدتُ إلى عَبْد، وكان أحلم الرّجلين وأسهلهما خلقاً، فقلت: إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المقدَّم عليّ بالسِّن والمُلْك، وأنا أُوصلك

---

(١) أنظر التفاصيل في: جمهرة أنساب العرب (٣٧٩ - ٣٨٤).

(٢) أ. أنظر سيرة جيفر في: أسد الغابة (٣١٣/١) والإصابة (٢٧٦/١ - ٢٧٧).
ب. انظر سيرة عبد في: أسد الغابة (٣٣٤/٣) والإصابة (١٠٠/٥)، وورد اسمه في ابن الأثير (٢٧٢/٢): عياذ، وكذلك في جوامع السيرة (٢٩).
والصواب هو: عبد، لإجماع المصادر المعتمدة كافة عليه.
ج. انظر البلاذري (١٠٤) عن سفارة عمرو إليهما.

إليه حتى يقرأ كتابك. فمكثت أياماً ببابه، ثم إنه دعاني فدخلت عليه، فدفعت الكتاب إليه مختوماً، ففضّ خاتمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلاّ أني رأيت أخاه أرقّ منه، فقال: دعني يومي هذا، وارجع إليّ غدا. فلما كان الغد، رجعت إليه، قال: إني فكّرتُ فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إذا ملّكتُ رجلاً ما في يَديّ! قلت: فإني خارج غدا! فلما أيقن بمخرجي أصبح فارسل إليّ، فدخلت عليه، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا، وصدّقا بالنبي ﷺ، وخلّيا بيني وبين الصَّدقة وبين الحُكم فيما بينهم، وكانا لي عَوْناً على مَنْ خالفني، فأخذت الصدقة من أغنيائهم، فرددتها على فقرائهم، فلم أزل مقيماً حتى بلغنا وفاة رسول الله ﷺ »[1]، إذ ولاّه النبي ﷺ على عُمَان وأعمالها[2]، فعاد إلى المدينة المنوّرة بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى[3].

وكان نصّ الكتاب النبوي الذي حمله عمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابني الجلندي:

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٦٢/١ - ٢٦٣)، وانظر: المحبّر (٧٧) وابن الأثير (٢٧٢/٢). وفي مغازي الواقدي (٩٧٣/٣): لما رجع رسول الله ﷺ من الجِعِرّانة، قدم المدينة لثلاث ليالٍ بقين من ذي القعدة سنة ثمان الهجرية، فبعث عمرو في هلال المحرم سنة تسع الهجرية إلى قراره مصدّقاً »، وهذا الخبر لا تؤيده المصادر المعتمدة كافة، انظر مثلاً سيرة ابن هشام (٢٧١/٤) والطبري (١٤٥/٣).

(٢) أنساب الاشراف (٥٢٩/١) وجوامع السيرة (٢٤).

(٣) ابن الأثير (٣٥٢/٢).

«بسم الله الرحمن الرحيم
من محمد رسول الله.
إلى: جَيْفَر وعَبْد ابني الجُلُنْدَيّ.

السّلام على مَنْ اتَّبعَ الهُدَى. أما بعد، فإني أدعوكُما بدعاية الإسلام، أسلِما تَسْلَما، فإني رسول الله إلى الناس كافةً، لأُنذِر مَنْ كان حياً ويحقّ القولُ على الكافرين. وإنَّكما إنْ أقررتُما بالإسلام ولَّيْتُكُما، وإنْ أبَيْتُما أن تُقِرَّا بالإسلام، فإن مُلككما زائل، وخيلي تحلّ بساحتكما، وتظهر نُبوّتي على ملككما»[1].

علامة الختم رسول الله محمد

وكتب أُبي بن كعب:

لقد كان جيفر أكبر من أخيه عبد سنّاً، فكان هو الملك، ولكن أخاه عبداً كان أكثر عقلاً واتِّزاناً ورويّة من أخيه وأرحب صدراً وأوسع أُفقاً، لذلك تأثّر بكتاب النبي ﷺ قبل أخيه ومال إلى الإسلام.

أما جيفر، ففكّر بملكه أولاً، وخشي عليه من الإسلام، فما تجاوب مع الكتاب النبوي تجاوباً سريعاً كما تجاوب أخوه، فطلب جيفر أن يمهله عمرو يوماً واحداً ليفكّر في أمره ملياً، وليقرر ما يفعله بعد أن يُقلِّب الأمور كما ينبغي.

وهنا برز دور أخيه عبد في حثّ جيفر على اعتناق الإسلام، وحمل

(١) إعلام السائلين لابن طولون (١/١٠) والقسطلاني (١/٢٩٤) وزاد المعاد لابن القيم (٣/٦٢) وصبح الأعشى للقلقشندي (٦/٣٨٠) والزرقاني (٢/٣٥٣)، وانظر تفاصيل مصادر ومراجع الكتاب النبوي في مجموعة الوثائق السياسية (٩٧)، الوثيقة الرقم (٧٦).

أخاه على الإيمان بالله ورسوله، وألا يردّ عمرو بن العاص من عُمان إلى المدينة المنوّرة خائباً.

واقتنع جيفر بالإسلام، كما اقتنع أخوه عبد، فأسلما عن قناعة كاملة لا غبار عليها، لذلك قدّما الصدقات طوعاً، وعاونا عمرو بن العاص على جمع الصدقات من الاغنياء وردِّها على الفقراء، وجمع الجزية من المجوس، وكانا له خير عون في النهوض بمهمته في واجبات الحكم والإدارة في عُمَان وما حولها من البلاد.

كما أنَّهما ثبَتَا على الإسلام، ولم يرتدّا كما ارتد غيرهما من أهل عُمان، وتعاونا مع القائد الذي بعثه أبو بكر الصَّدِّيق إلى عُمان ومع جيشه في حرب المرتدِّين، حتى عادت عُمان إلى الإسلام.

أما عمرو، فقد كان بحق سفيراً متمرِّساً، مارس السفارة مرتين قبل الإسلام، ومارسها هذه المرّة الثالثة بعد الإسلام، فلا عجب أن يكون تصرّفه في هذه السفارة تصرّفاً حصيفاً يدلّ على الألمعيّة والذكاء الخارق، فكان حاسماً في جوابه لجيفر بعد يوم من لقائه الأول به، إذ أظهر له أنَّه راحل غدا، فخاف جيفر من عواقب الأمور، وبخاصة أن العرب دخلوا في دين الله أفواجاً، وفُتحت مكّة المكرمة، وأصبحت وفود العرب تتقاطر إلى المدينة من كل حدب وصوب، معلنة إسلامها وأنها انضوت تحت راية الوحدة والتوحيد في ظلّ الإسلام.

وقد أخفق عمرو في سفارتيه قبل الإسلام، ولكنَّه نجح أعظم النَّجاح في سفارته النبوية بعد الإسلام، مع أنّه حشد الهدايا للنجاشي ملك الحبشة في سفارته الأولى والثانية ولرجالات النجّاشي من رجال الدين ورجال الدنيا، أما في سفارته الثالثة التي كانت بعد الإسلام، فلم يحشد شيئاً من متاع الدنيا يستعين به على إنجاح سفارته، فنجحت بحوافز

الروح لا بحوافر المادة، وانتصر الإسلام بمبادئه ولم ينتصر بشيء آخر من مغريات الحياة.

وهكذا استطاع عمرو، أن يضمّ عدداً ضخماً من العرب إلى الإسلام، وأن يضمّ بلاداً شاسعة إلى بلاد المسلمين.

ولعلّ من المفيد أن أنقل نصّ المحاورة التي دارت بين عمرو بن العاص وعبد بن الجلندي، والمحاورة التي جرت بين عمرو وجيفر، لإبراز أثر الرجلين: عمرو وعبد في إسلام جيفر وإسلام أصحابه.

يقول عمرو بن العاص: «خرجت حتى انتهيت إلى عُمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبدٍ، وكان أحلم الرّجلين وأسهلها خُلقا، فقلت: إني رسول رسول الله إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المقدّم عليّ بالسّن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك. ثم قال لي: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عُبد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال يا عمرو: إنّك ابن سيّد قومك، فكيف صنع أبوك، فإنّ لنا فيه قدوة. فقلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، ووددت أنه كان أسلم وصدّق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه، حتى هداني الله للإسلام. قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريباً. فسألني: أين كان إسلامي؟ فقلت: عند النّجاشي، وأخبرته أنّ النّجاشي قد أسلم. قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقرّوه واتّبعوه قال: والأساقفة والرّهبان، اتّبعوه؟ قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو ما تقول! إنّه ليس من خصلةٍ في رجل أفضح له من كذب. قلت: ما كذبت وما نستحلّه في ديننا. قال: ما أرى هِرَقْل قد علم بإسلام النجّاشي! قلت: بَلَى! قال: بأيّ شيءٍ علمت ذلك؟ قلت: كان النجّاشي يُخرج له خَرْجاً، فلما أسلم وصدّق بمحمد ﷺ، قال: لا والله، ولو سألني درهماً واحداً ما أعطيته. فبلغ هرقل قوله، فقال له (يناق) أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك

خرجاً ويدين ديناً محدثاً! قال هرقل: رجل رغب في دين واختاره لنفسه، ما أصنع به! والله لولا الضنّ بملكي لصنعت كما صنع. قال: انظر ما تقول يا عمرو! قلت: والله صدقتك. قال عبد: فأخبرني ما الذي يأمر به وينهي عنه. قلت: يأمر بطاعة الله عزّ وجلّ، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبرّ وصِلة الرحِم، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزّنى وشرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. فقال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدّق به، ولكن أخي أضنّ بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً! قلت: إنه إن أسلم ملّكه رسول ﷺ على قومه، فأخذ الصّدقة من غنيّهم فردّها على فقيرهم. قال: إنّ هذا الخُلق حسن، وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصّدقات في الأموال، حتى انتهيت إلى الإبل، فقال: يا عمرو! تؤخذ من سوائم موشينا التي ترعى الشّجر وترد المياه؟ قلت: نعم! فقال: والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا. قال: فمكثت ببابه أياماً، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري. ثمّ إنه دعاني يوماً فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبْعي[1]، فقال: دعوه! فأرسلت، فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعوني أجلس! فنظرت إليه، فقال: تكلم بحاجتك! فدفعت إليه الكتاب مختوماً، ففضّ خاتمه فقرأه حتى انتهى إلي آخره، ثم دفعه إلى أخيه، فقرأه مثل قراءته، إلا أنني رأيت أخاه أرق منه. ثم قال: ألا تخبرني عن قريش، كيف صنعت؟ قلت: تبعوه إما راغب في الدّين، وإما مقهور بالسّيف. قال ومَنْ معه؟ قلت: النّاس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره وعرفوا بعقولهم - مع هدى الله إياهم، أنهم في ضلال، فما أعرف أحداً غيرك بقي في هذه الحَرَجة[2]، وأنت إن لم تُسْلِم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل وتُبيد

---

(١) الضبع: ما بين الابط إلى نصف العضُد من أعلاها، وهما ضبعان.

(٢) الحرجة: غيضة الشجر الملتفّة، لا يقدر أحد أن ينفُذ فيها.

خضراءك، فأسْلِم تَسْلَمْ ويستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرِّجال. قال: دعني يومي هذا، وارجع إليّ غداً فرجعت إلى أخيه، فقال: يا عمرو! إني لأرجو أن يُسْلم إن لم يضنّ بملكه! حتى إذا كان الغد، أتيت إليه، فأبى أن يأذن لي، فانصرفت إلى أخيه، فأخبرته أني لم أصل إليه، فأوصلني إليه، فقال: إني فكّرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملَّكتُ رجلاً ما في يديّ، وهو لا تبلغ خيله إلى ها هنا، وإن بلغت ألفَتْ قتالاً ليس كقتال مَنْ لاقى! قلت: وأنا خارج غداً. فلما أيقن بمخرجي، خلا به أخوه فقال: ما نحن فيما ظهَرَ عليه!! وكل مَنْ أرسل قد أجابه؟! فأصبح فأرسل إليّ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه، وصدّقا النبي ﷺ، وخلَّيا بيني وبين الصّدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على مَنْ خالفني»[1].

وقد نقلت هذه المحاورة التي كانت بين عمرو بن العاص والأخوين المسيطرين على عُمَان، واللذين مال أحدهما إلى الإسلام ابتداءً، ومال إليه الثاني انتهاء، وأسلما وحَسُن إسلامهما.

وهذه المحاورة، تدل على أنّ الإسلام قد تغلغل في نفس العربيّ: ما بين مؤمن به، وناظر إليه، ومخادع فيه، وأنه كان موضع تفكير المفكّرين.

وهذه المحاورة، تدلّ على أن الأخوين كانا من النَّصارى، وأن هِرَقل لأنه ملك أكبر دولة مسيحية، كانت له هيمنة على نصارى الشّرق بدون استثناء، بصورة مباشرة، أو بصورة غير مباشرة.

وتدلّ أيضاً على إيمان النجّاشي، بأنّه لا ولاية لغير المسلم على المسلم،

---

(١) عيون الأثر (٢/٢٦٧ - ٢٦٩).

ولذلك رفض أن يرسل الذي كان عليه أن يؤديه للقيصر هرقل، وقال في قوة وحزم: «لا أدفع درهماً».

وفي المحاورة، ما يومىء إلى أن الكتاب النبوي كان بعد فتح مكّة، لأنه سأله عن قريش: اتّبعوا محمداً ﷺ أم لم يتبعوه، فأجابه عمرو: بأنهم اتّبعوه، وكان هذا بعد الفتح لا ريب في ذلك:

وأنه يدلّ على أنّ عمرو بن العاص كان ذا فراسة قوية، عندما اختار الأخ الأصغر[1]، ويدل على حنكة عمرو في الحوار، وأثر حواره في جيفر وفي أخيه، وأثر عبد في حمل أخيه على اعتناق الإسلام طوعاً.

---

(١) أبو زهرة (الشيخ محمد أبو زهرة) - خاتم النبيين (١١٧٥) - طبعة دولة قطر - ١٤٠٠ هـ.

إلى المُنْذِر بن سَاوَى
صاحب البَحْرَين[١]

١. المنذر بن سَاوَى:

هو المنذر بن سَاوَى[٢] بن عبد الله بن زيدِ بن عبد الله بن دارِم التَّمِيْمِي الدّارِمِيّ صاحب البحرين[٣].

وينسب المنذر بن ساوى إلى: الأسْبَذ، قرية بِهَجَر، فيقال: المنذر بن سَاوَى الأسْبَذِي[٤]، وكان جدّه عبد الله بن زيد بن عبد الله يُعرف بالأَسْبَذيّ، نسبة إلى القرية المذكوره[٥].

والمعروف أنّ العرب تنتسب إلى قبائلها، أما العجم فينتسبون إلى بلدانهم، ولعل اختلاط العرب بالعجم في البحرين، جعل العرب يأخذون

---

(١) البحرين: هكذا يُتلفّظ بها في حال الرفع والنّصب والجر، ولم يُسْمعْ على لفظ المرفوع من أحدٍ منهم، إلاّ أنّ الزّمخشري قد حكى أنه يلفظ بلفظ التثنية، فيقولون: هذه البحران، وانتهينا إلى البحرين. والبحرين: اسم جامع لبلاد على ساحل الخليج العربي بين البصرة وعُمان، وهَجَر: قصبة البحرين، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٧٢/٢ - ٧٦).

(٢) جهرة أنساب العرب (٢٣٢).

(٣) أسد الغابة (٤١٧/٤).

(٤) جهرة أنساب العرب (٦٦٢).

(٥) جهرة أنساب العرب (٢٣٢).

هناك هذه العادة في النسبة إلى بلدانهم، مع المحافظة على النسبة لقبائلهم.

وأخبار المنذر بن ساوى قليلة للغاية قبل إسلامه في المصادر المعتمدة، ويبدأ ذكره باستقباله العلاء الحَضْرَمي يحمل رسالة النبي ﷺ، يدعوه وقومه إلى الإسلام، فأسلم المنذر وحسن إسلامه[1]. وكان العلاء قد دعا المنذر ومَن معه بالبحرين إلى الإسلام أو الجزية، فأسلم المنذر، وأسلم جميع العرب بالبحرين[2].

وفي سنة إحدى عشرة الهجرية، مات المنذر بن ساوى[3] بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، فلما مات المنذر ارتد بعده أهل البحرين[4]، وكان المنذر نصرانياً قبل إسلامه، إذ كان قومه من عبد القيس نصارى[5].

لقد كان المنذر عاقلاً مُتَّزناً، فبادر إلى إعلان إسلامه، وكان وفد قومه قد قدم المدينة وأسلم سنة ثمان الهجرية[6]، ثم عاد إلى البحرين، ولكن إسلام المنذر كان قبل قدوم وفدهم إلى النبي ﷺ، ويبدو أن الوفد أراد أن يرى النبي ﷺ والمسلمين في المدينة، فأسلموا هنا في المدينة وجددوا إسلامهم فيها.

وسنجد تفاصيل نشاط المنذر وأعماله بعد إسلامه من خلال الحديث على السفارة النبوية.

---

(١) ابن الأثير (٢٩٨/٢).
(٢) ابن الأثير (٢١٥/٢).
(٣) ابن الأثير (٣٥٢/٢).
(٤) ابن الأثير (٣٦٨/٢).
(٥) ابن الأثير (٢٩٨/٢).
(٦) ابن الأثير (٢٣٠/٢).

٢ . السّفارة النبويّة:

بعث النبيّ ﷺ العلاء بن الحَضْرَمِيّ مُنصرفه من الجِعْرانَة[١] إلى المنذر بن ساوى العَبْدِيّ بالبحرين، وكتب كتاباً إلى المنذر بن سَاوى مع العلاء، يدعوه فيه إلى الإسلام[٢]، وخلّى بين العلاء وبين الصّدقة يجتبيها. وكتب رسول الله ﷺ للعلاء كتاباً فيه فرائض الصَّدقة في الإبل والبقر والغنم والثّمار والأموال يُصدّقهم على ذلك، وأمره أن يأخذ الصّدقة من أغنياهم فيردّها على فقرائهم[٣].

وانصراف النبي ﷺ من الجعْرانة كان بعد غزوة الطائف التي كانت في شهر شوّال من السنة الثامنة الهجرية كما هو معلوم.

وقد بعث النبي ﷺ العلاء إلى المنذر بن سَاوى أخي عبد القيس صاحب البحرين[٤] سنة ثمان الهجريّة، فصالح المنذر على: أن على المجوس الجزية، ولا تؤكل ذبائحهم، ولا تُنكح نساؤهم[٥]، فأسلم المنذر، وأسلم جميع العرب في البحرين. أما أهل البلاد من يهود ونصارى ومجوس، فإنّهم صالحوا العلاء والمنذر على الجزية: من كلّ حالم دينار، ولم يكن بالبحرين قتال، إنّما بعضهم أسلم وبعضهم صالح[٦].

---

(١) الجعرانة: ماء بين الطائف ومكة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٠٩/٣).
(٢) طبقات ابن سعد (٣٦٠/٤) وسيرة ابن هشام (٢٧١/٤) والبدء والتاريخ (٢٢٩/٤) و(١٠٢/٥).
(٣) طبقات ابن سعد (٣٦٠/٤).
(٤) الطبري (٦٤٥/٢).
(٥) ابن الأثير (٢٣٠/٢).
(٦) ابن الأثير (٢١٥/٢).



رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى المنذر بن ساوى امير البحرين حملها اليه الصحابى العلاء بن الحضرمى .

وكان نصّ كتاب النبيّ ﷺ الذي حمله العلاء الحضرميّ إلى المنذر بن سَاوى: وهو الكتاب النبوي الأول:

« بسم الله الرحمن الرحيم.

من: محمد رسول الله.

إلى: المنذر بن سَاوَى.

سلام على من اتّبع الهُدى.

أما بعد، فإني أدعوك إلى الإسلام، فأسْلِمْ تَسْلَم،

يجعل الله لك ما تحت يديك، واعلم أنّ دينيسيظهر إلى مُنْتَهى الخُفّ والحافِر»[1].

علامة الختم: محمد رسول الله

وهذا نص كتاب آخر، من النبي ﷺ، إلى المنذر بن سَاوَى،: وهو الكتاب النبوي الثاني.

(٢)

«بسم الله الرحمن الرحيم.

من: محمد رسول الله.

إلى: المنذر بن سَاوىَ.

سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله غيره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله.

أما بعد، فإني أذكرك الله عزّ وجلّ، فإنه مَنْ يَنْصَح فإنّما ينصح نفسه، وإنّه مَنْ يُطعْ رُسلي ويَتَّبع أمرهم فقد أطاعني، ومَنْ نصح لهم فقد نصح لي. وإن رُسُلي قد أثنو عليك خيراً،وإني قد شفّعتك في قومك،فاترك للمسلمينما أسلموا عليه، وعفوتُ عن أهل الذّنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نَعزلك عن

---

(١) إعلام السائلين لابن طولون (٤/٢) والزرقاني (٣٥١/٢) وأنظر تفاصيل المصادر والمراجع في مجموعة الوثائق السياسية (٧٩ - ٨٠) وأنظر نصّ الكتاب النبوي في: عيون الأثر (٢٧٦/٢).

عملك، ومَنْ أقام على يهوديّته أو مجوسيَّته فعليه الجزية »[1].

الله
علامة الختم: رسول
محمد



---

(١) طبقات ابن سعد (٢٦٣/١) وعيون الأثر (٢٦٧/٢) والقلقشندي (٣٦٨/٦) وزاد المعاد (٦١/٣ – ٦٢)، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في مجموعة الوثائق السياسية (٨٠ – ٨١) حول نص هذا الكتاب النبوي الكريم، وأنه اكتشف أصل الكتاب في دمشق.

وقد ذكر الواقدي في تاريخه بإسناده، عن عِكْرَمة مولى عبد الله بن العبّاس رضي الله عنهما، أنّه وجد كتاباً في كُتب عبد الله بن العبّاس بعد موته فنسخه، فتبيَّن فيه أنّ النَّبي ﷺ بعث العلاء الحضرميّ إلى المنذر ابن ساوَى وكتب إليه كتاباً يدعوه إلى الإسلام، ولم يذكر أنه عثر على نصّ كتاب النبي ﷺ، ولكن وجد ردّ ابن سَاوَى، وإليك نصّ ردّ المنذر:

«أما بعد يا رسول الله، فإني قرأت كتابك على أهل هجَر[١]، فمنهم مَنْ أحبّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كَرِهَهُ، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث في ذلك أمرك»[٢].

التوقيع

وكتاب المنذر بن سَاوَى، كان جواباً للكتاب النبوي الأول الذي مرّ ذكره قبل قليل، والكتاب النبوي الثاني جواباً على تساؤل المنذر في كتابه الجوابي على الكتاب النبوي الأوّل.

وكتاب المنذر هذا دلّ على أن عبد الله بن العباس، كان حريصاً على أن يكتب كتب النبي ﷺ ويحفظها في خزانة كتبه، مما يشير إلى اهتمام الصحابة بتسجيل السُنَّة النبوية من عهد الرِّسالة.

وتدلّ هذه الرسالة، على أنّ الجزية تفرض على أهل الكتاب

---

(١) هجر: قاعدة البحرين، وقيل: ناحية البحرين كلّها هجر، وهو الصواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٤٤٥ - ٤٤٧).

(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٦٣) وعيون الأثر (٢/٢٦٧)، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٨١ - ٨٢).

والمجوس، كما تدلّ على إبقاء الوالي الذي يُسارع إلى الإسلام في أمرته ليبقى أميرهم، وذلك ليشعر قومه الذين كان معهم قبل إسلامه، أن أميرهم منهم وعليهم وليس غريباً عنهم. وما دام مستقيماً فإنه أجدر بالولاية، لأنه أعلم بنفوسهم وأخبر بأحوالهم، يأتيهم من حيث يألفون ويعرفون.

وفي هذا الخبر، ما يدلّ على فرض الجزية على الذين لا يؤمنون، إذا كانوا في ولاية مسلم، وهم هنا يهود ونصارى ومجوس، وقد أجمع الفقهاء على فرض الجزية عليهم، وأجاز أبو حنيفة رضي الله عنه فرض الجزية على الوثنيين غير العرب قياساً على المجوس[1].

وهذا نصّ كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن سَاوَى جواباً على تساؤله في كتاب له إلى النبي ﷺ، ولا ذكر له في المصادر المعتمدة نصّاً، والكتاب النبويّ يلقي ضوءاً على معنى كتاب المنذر، ومعناه لا مبناه في المصادر المعتمدة، وهذا الكتاب هو الكتاب النبوي الثالث:

---

(١) خاتم النبيين للشيخ أبي زهرة (٢/١١٧٠ - ١١٧١).

* صورة من أصل الرسالة الموجهة إلى القبطي وجدت في كنيسة قرب أخميم في صعيد مصر، توجد في تاريخ جرجي زيدان ومجلة الهلال ١٩٠١م، ومجموعة الوثائق السياسية *

«(٣)»

«بسم الله الرحمن الرحيم.

من: محمّد رسول الله.

إلى المنذر بن سَاوَى.

سلام الله عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلاّ هو.

أما بعد! فإن كتابك جاءني، وسمعت ما فيه،
فمن صلّى صلاتنا واسْتَقْبَلَ قِبْلَتنا وأكل ذبيحتنا،
فذلك المسلم الذي له ما لنا، وعليه ما علينا، ومَن لم
يفعل فعليه دينار من قيمة المُعَافِرِيّ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، يغفر الله
لك »[1].

الله
علامة الختم: رسول
محمد

وكتب رسول الله ﷺ للعلاء الحضرميّ عن الزّكاة كتاباً، فيه فرائض الصّدقة في الإبل والبقر والغنم والثّمار والأموال، يصدّقهم على ذلك، وأمره أن يأخذ من أغنيائهم، فيردّها على فقرائهم[2].

ولم يُرْوَ نصّ الكتاب[3].

وكان رسول الله ﷺ، قد كتب إلى العلاء بن الحضرميّ: أن يقدم عليه بعشرين رجلاً من عبد القَيْس، قوم المنذر بن ساوى، فقدم عليه بعشرين رجلاً، رأسهم عبد الله بنْ عَوْف الأَشَجّ[4]، واستخلف العلاء على البحرين المنذر بن ساوى[5].

ولم يُرْوَ نصّ الكتاب[6].

---

(١) انظر الطبري (٣/٢٩) والقلقشندي (٦/٣٧٦)، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٨٢ - ٨٣)، وانظر أيضاً: البلاذري (١١٠).
(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٦٣).
(٣) مجموعة الوثائق السياسية (٨٣).
(٤) انظر سيرته في: أسد الغابة (٣/٢٤٠) والإصابة (٤/١١٦).
(٥) طبقات ابن سعد (٤/٣٦٠).
(٦) مجموعة الوثائق السياسية (٨٤).

واستخلاف المنذر بن ساوى على البحرين، ليس معناه أنّه عُزِل بالعلاء، فقد كان للعلاء واجبه في الدّعوة إلى الإسلام، وتفقيه المسلمين الجُدد بدينهم، وتعليم القرآن الكريم والسنة، وجباية الصّدقات والجزية، وتوزيع الصدقات على الفقراء من أهل البحرين. أما المنذر، فكان يسوس قومه ويحل مشاكلهم ويحكم بينهم بالعدل. وكان العلاء والمنذر يتعاونان تعاوناً وثيقاً، وكلّ واحد منهما له واجبه المعلوم في إدارة البحرين، ولذلك لا يستطيع أحدهما الاستغناء عن الآخر، لأن كلّ واحد منهما يكمِّل في عمله الآخر: المنذر على أمور الدنيا، كما كان قبل أن يعتنق الإسلام، والعلاء على أمور الدِّين التي لا خبرة للمنذر فيها، وهو بأمس الحاجة إلى أن يتعلّمها. فلما رحل العلاء إلى المدينة المنورة، جمع أمور الدنيا والدِّين للمنذر، مما يدلّ على الثقة المتبادلة بين العلاء والمنذر، التي تزيدها الأيام ثباتاً ورسوخاً، وتولية المنذر على أمور الدين بالإضافة إلى أمور الدنيا، دليل على أنه وصل مرحلة متقدِّمة في أمور الدِّين أيضاً.

وكتب النبيّ ﷺ إلى أهل هَجَر هذا الكتاب، وهو الكتاب النبوي الرابع.

(٤)

« بسم الله الرحمن الرحيم.

من: محمّد رسول الله.

إلى: أهل هَجَر.

سِلمٌ أنتم. فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلاّ هو. أما بعد. فإني أوصيكم بالله وبأنفسكم أن لا تضلّوا بعد إذ هُديتم، وأن تَغْوُوا بعد أن رشِدْتُم.

أما بعد. فقد جاءني وفدكم، فلم آتِ إليهم إلاّ ما سرّهم، ولو أنّي اجتهدتُ فيكم جُهدي كلّه أخرجتكم من هَجَر، فَشَفَّعتُ غائبكم، وأفضلتُ على شاهدكم، فاذكروا نعمة الله عليكم.

أما بعد. فإنه قد أتاني الذي صنعتم، وإنه مَنْ يُحسِنْ منكم لا أُحمل عليه ذنب المُسِيْء، فإذا جاءكم أُمرائي فأطيعوهم وانصروهم على أمرِ الله وفي سبيله، وإنه مَنْ يعمل منكم صالحاً فلم يَضِلّ عند الله ولا عندي »[1].

علامة الختم: الله رسول محمد

وكتب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن سَاوَى كتاباً هذا نصّه، وهو الكتاب الخامس.

(٥)

« بسم الله الرحمن الرحيم.

من: محمّد رسول الله.

إلى: المنذر بن سَاوَى.

أما بعد. فإنّ رُسُلِي قد حمدوك، وإنّك مهما تُصْلِح أُصْلِح إليك وأُثِبْكَ على عملك وتَنْصَح لله

---

(١) طبقات ابن سعد (١/٢٧٥ - ٢٧٦) والبلاذري (١٠٧ - ١٠٨)، وانظر تفاصيل المراجع والمصادر في: مجموعة الوثائق السياسية (٨٤ - ٨٥).

ولرسوله. «والسلام عليك»[١].

علامة الختم: الله رسول محمد

وبعث رسول الله ﷺ بهذه الرّسالة مع العلاء الحضرمي[٢]، ويبدو أنّ هذه الرسالة حملها في عودته مع وفد عبد القيس من المدينة المنوّرة إلى البحرين. وأرجّح أنّه حمل الرسالة الرقم (٤) المعنونة إلى أهل هَجَر أيضاً.

وكتب عليه الصّلاة والسّلام، إلى المنذر بن سَاوَى في مجوس هَجَر ما نصَّه:

(٦)

«أعرض عليهم الإسلام، فإن أسلموا فلهم ما لنا، وعليهم ما علينا، ومَنْ أبى، فعليه الجزية من غير أكلٍ لذبائحهم، ولا نكاح نسائهم»[٣].

علامة الختم: الله رسول محمد

وكتب عليه الصّلاة والسّلام إلى المنذر بن ساوى أيضاً ما نصّه:

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٧٦/١)، وانظر المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٨٦).

(٢) طبقات ابن سعد (٢٧٦/١).

(٣) طبقات ابن سعد (٢٦٣/١)، وانظر المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٨٦).

(٧)

«افرِض على كلِّ رجلٍ ليس له أرض، أربعة دراهم وعباءة»[١].

علامة الختم: الله رسول محمد

(٨)

وكتب عليه الصّلاة والسّلام إلى المنذر بن سَاوَى أيضاً ما نصّه:

«أما بعد. فإني قد بعثتُ إليك قُدامة وأبا هُرَيْرَة، فادْفع إليهما ما اجتمع عندك من جِزْيَة أرضك، والسلام»[٢].

علامة الختم: الله رسول محمد

وكتب رسول الله ﷺ إلى العلاء الحضرميّ ما نصّه:

(٩)

«أما بعد. فقد بعثت إلى المنذر بن ساوى من يَقْبَضُ منه ما اجتمع عنده من الجزية، فعَجّلْهُ بها،

---

(١) انظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٨٦ - ٨٧).

(٢) طبقات ابن سعد (٢٧٦/١)، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: الوثائق السياسية (٨٧)، وقدامة الذي ورد ذكره في الكتاب النبوي، هو قدامة بن مظعون، انظر سيرته في: أسد الغابة (١٩٨/٤ - ٢٠٠).

وابعث معها ما اجتمع عندك من الصّدقة والعُشور، والسلام »[1].

علامة الختم: الله
رسول
محمد

وكتب رسول الله ﷺ إلى الأكبر بن عبد القيس[2] ما نصّه:

(١٠)

« بسم الله الرحمن الرحيم.

من: محمّد رسول الله.

إلى: الأكبر بن عبد القَيْس.

إنّهم آمنون بأمان الله وأمان رسوله على ما أحدثوه في الجاهليّة من القُحْم، وعليهم الوفاء بما عاهدوا، ولهم ألا يُحْبَسوا عن طريق المِيْرَة ولا يُمْنَعُوا صَوْب القَطْر، ولا يُحْرَموا حريم الثّمار عند بلوغه.

والعــلاء الحضرميّ أمين رسول الله عــلى برِّهــا وبَحْرِها، وحاضرها، وسراياها، وما خرج منها. أهل البحرين خفراؤه من الضَّيْم وأعوانه على الظالم، وأنصاره في الملاحم، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه،

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٧٦/١)، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٨٧ - ٨٨).

(٢) لم أجد سيرته في المصادر المتيسرة، ويحتمل أن الكتاب موجّه إلى أكبر بني عبد القيس، فهو الأكبر من عبد القيس، انظر الهامش التالي.

ولا يُبَدِّلون قولاً ولا يُريدون فُرْقَةً، ولهم على جند المسلمين الشركـــة في الفيء، والعـــدْل في الحُكم، والقصد في السِّيرة، حُكْمٌ لا تبديلَ له في الفريقين كِلَيْهِما، والله ورسوله يشهد عليهم »[١]

علامة الختم: الله رسول محمد

وهذا نصّ آخر، لكتاب رسول الله ﷺ إلى بني عبد القَيْس:

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من: محمّد رسول الله.

لعبد القيس وحاشيتها في البحرين.

إنّكم أتيتموني مسلمين، مؤمنين بالله ورسوله، وعاهدتم على دينه، فقبلتُ، على أن تطيعوا الله ورسوله فيا أحببتم وكرهتم، وتقيموا الصّلاة، وتؤتوا الزكاة، وتحجّوا البيت، وتصوموا رمضان، وكونوا قائمين لله بالقسط ولو على أنفسكم، وعلى أن تؤخذ من

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٨٣/١)، وانظر تفاصيل المراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٩٤ - ٩٥)، والاكبر بن عبد القيس لا يعرفه أهل الأنساب، ولعلّ الصواب: الأكبر من عبد القيس. ولعلّ الصواب في: حريم الثار، هو: جريم الثّمار، والجريم والصّريم، والجديد كلّه التّمر إذا صرم، يريد أنّهم ينتفعون بثمارهم حين الجذّ، ولا ينتظرون مجيء المصدّق إلى بلادهم، ويؤدّون الزّكاة بالأمانة (نقلا من: مجموعة الوثائق السياسية ص (٩٥ و ٤١٣).

حواشي أموال أغنيائكم، فتُردّ على فقرائكم، على فريضة الله ورسوله في أموال المسلمين »[1].

علامة الختم: الله رسول محمد

كما كتب عليه الصّلاة والسلام، كتاباً إلى شَبِيْب بن قُرّة[2] من وفد عبد القيس، وكتاباً إلى صُحَار بن العبّاس[3] من وفد عبد القيس أيضاً، وكتاباً إلى المُشَمْرَخ بن خالد السَّعْدِي[4] من وفد عبد القيس أيضاً.

ولم تُرْوَ نصوص هذه الكتب[5].

لقد بدأ اتّصال النبي ﷺ بالبحرين، بإرساله العلاء الحضرمي سفيراً نبوياً وداعياً من دعاته إلى الإسلام، فنجح العلاء في سفارته وفي دعوته أعظم النَّجاح، واستطاع أن ينقذ البحرين من السّيطرة الفارسية بإسلام عامل الفرس عليها المنذر بن ساوَى الذي أسلم وحسن إسلامه وبقي مخلصاً للإسلام حتى توفّاه الله، والعلاء معه أميراً لرسول الله ﷺ على البحرين[6]، ثم أصبح عامل رسول الله ﷺ على الصدّقات في البحرين[7]، فنجح العلاء أعظم النجاح أميراً وجابيا، كما نجح سفيراً وداعياً.

---

(١) عمر الموصلي - الجزء الثامن - ورقة (٣١ - ٣٢ أ)، ونقلاً من: مجموعة الوثائق السياسية (٩٥).
(٢) الإصابة (١٩٣/٣) وأسد الغابة (٣٨٦/٢).
(٣) الإصابة (٢٣٥/٧ - ٢٣٦) وأسد الغابة (١١/٣) والإستيعاب (٧٣٥/٢ - ٧٣٦).
(٤) أسد الغابة (٣٦٧/٤ - ٣٦٨) والإصابة (١٠٠/٦).
(٥) انظر: مجموعة الوثائق السياسية (٩٦).
(٦) سيرة ابن هشام (٢٤٣/٤) والدرر (٢٧٢) وجوامع السيرة (٢٤) وابن الأثير (٢٩٨/٢).
(٧) سيرة ابن هشام (٢٧١/٤) والطبري (١٤٧/٣) وابن الأثير (٣٠١/٢).

كما أسلم عرب البحرين، وقسم من غير العرب، فوطّدوا أركان الدّين الحنيف في تلك البلاد.

ويبـــدو من دراسة الرسائـــل النبويـــة: إلى الأفراد من عـــامـــة الناس البعيدين عن السلطة والسلطات، وإلى القبائل العربية المسلمة، وإلى الذين لم يسلموا ويتحدون الإسلام والمسلمين في المقاومة سراً وعلناً، وإلى الحاكم في أمور الدين، وإلى الحاكم في أمور الدنيا، أن تلك الرسائل النبوية أدّت واجبين حيويين: التّوجيه الذي لا يقتصر على الجماعة دون الفرد، والمسلمين دون غيرهم، والحاكم دون المحكوم، والسيّد دون المسود، والعرب دون العجم بل شمل الفرد والجماعة، والمسلمين وغير المسلمين، والحاكم والمحكوم، والسيّد والمسود، والعرب والعجم، فالكلّ في التوجيه النبوي سواء، هو توجيههم إلى الإسلام بما فيه من عقيدة وشريعة ومُثُل عليا.

والمهمة الثانية في الرسائل النبوية، هي التنسيق، ليعرف كل واحد واجبه، ويتعاون مع غيره في نطاق ذلك الواجب، أفراداً وجماعات، ومسلماً وغير مسلم، وحاكما ومحكوماً، وسيّداً ومسودا، وعرباً وعجماً.

ويبدو من دراسة تلك الرّسائل النبوية، ومن الإجراءات المتخذة من قبل الذين تسلّموا تلك الرسائل، فهما وتنفيذاً وعملاً، النّظام السّائد الدّقيق من الناحية التطبيقية للدولة الإسلامية الوليدة، بدون تعقيد أو تسويف أو تعطيل، بالإضافة إلى الناحية الإنسانية الرفيعة في التنفيذ والتطبيق: العفو، والعدل، والتسامح، والرأفة، والتّواصل، والتراحم، والتّعاون، وما يؤخذ من أغنياء البلد يُردّ على فقرائهم، مما يزيل الفوارق بين الطبقات، ويحول دون حقد طبقة على أخرى، وفقير على غني، ويؤدي إلى أن يعطف الغني على الفقير، والحاكم على المحكوم، والأمير على المأمور.

إنّ تلك الرسائل النبوية في توجيهها وتنسيقها، تطبيق عمليّ لتعاليم الإسلام في الحكم والإرادة، فهو عدل السّماء الذي يجعل العدل في الأرض ممكناً، وهذا العدل المطلق، هو الذي جعل المنذر بن ساوى وأضرابه ينحازون إلى الإسلام ديناً، ويتخلون طوعاً عن أديانهم، وينحازون إلى نبيّ الإسلام نبياً ورسولاً، وحاكما وقائداً، ويتخلّون عن حكامهم القُدامى، بالرّغم من الصُّعوبة البالغة التي يعانيها المرء حين يتخلّى عن دينه ودين آبائه وأجداده الذي شبّ وشاب عليه، وبالرّغم من التخلي عن أكبر دولة عالمية في حينه مضمونة العواقب، إلى حكم جديد غير معروف ولا مضمون.

وكنت أعلم مبلغ التوجيه في الرسائل النبوية بعامة، ولكن الرسائل النبوية إلى البحرين أدهشتني بتنسيق التوجيه ليصبح تعاوناً وثيقاً بين الأفراد والجماعات والحكّام والمحكومين وبين الحكام أنفسهم، وهذا التنسيق الفاعل في الرّسائل النبوية إلى البحرين بخاصة.

ومهما يقال في الإمبراطورية السّاسانية في تلك العهود السّحيقة من عمر الزّمن، إلاّ أنّ ذلك لا يسوّغ استبدال دولة ناشئة غير مضمونة، بدولة عريقة مضمونة، وانتقال الولاء في البحرين من دولة عريقة ذات كيان، إلى دولة جديدة ليست ذات كيان.

وما حدث في البحرين يناقض كلّ المقاييس الماديّة، ويناقض حسابات الحكّام الذين يهتمون بسلطانهم ولا يفرِّطون به ويحرصون على بقائه عادةً، ولا يسمحون لأنفسهم أن يجعلوه عرضة للأخطار.

ولا يستطيع أحد أن يعلّل ما حدث في البحرين من عواصف التغيير الجذري من حال إلى حال، إلا إذا أدخل حوافز الإيمان في حسابه أولاً وقبل كل شيء، فالإيمان وحده يكتسح العقبات والصعاب، ويقلب الحسابات المادية المعروفة إلى حسابات أخرى غير ماديّة.

إلى الحارث بن عبد كُلاَل الحِمْيَرِيّ
ملك اليمن

١. الحارث بن عبد كُلال الحِمْيَرِيّ:

هو الحارث بن عبد كُلال بن نصْر بن سَهْل بن عَرِيْب بن عبد كُلال ابن عُبيد بن فَهْد بن زَيْد الحِمْيَرِيّ[١].

وبنو حِمْيَر، ينتسبون إلى: حِمْيَر بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطَان[٢]، فهم قَحْطَانِيُّون من أهل اليَمَن.

وكان الحارث أحد أقيال اليمن[٣]، ومفرد الأقيال: قَيْل، هو الملك النَّافذ القولوالأمر[٤]، والأقيال ملوك باليمن دون الملك الأعظم، ويكون القيل ملكاً على قومه ومِخْلافِه[٥] ومَحْجَرِه[٦].

---

(١) الإصابة (٢٩٦/١).
(٢) جمهرة أنساب العرب (٤٣٢).
(٣) الإصابة (٢٩٦/١) وجوامع السيرة (٢٢٦).
(٤) لسان العرب (٩٤/٤).
(٥) المخلاف: الكورة، وهي كالمديريّة أو المحافظة أو الولاية في الإصطلاح الحديث.
(٦) المحجر: المكان في الجبل يقطع منه الحجارة، وانظر هذا التعريف: الأقيال ملوك اليمن... الخ. في لسان العرب (٩٤/١٤).

وقد أسلم الحارث، وأرسل بإسلامه إلى النبي ﷺ وأقام باليمن، فقد قدم على رسول الله ﷺ بعد عودته من غزوة تبوك بكتاب ملوك حِمْيَر بإسلامهم منهم الحارث بن عبد كُلال، وكان النبي ﷺ أرسل إلى الحارث المهاجر بن أبي أُمَيّة فأسلم الحارث، وكتب إلى النبي ﷺ كتاباً يقول فيه.

ودينـك دينُ الحـق فيـه طَهَارةٌ   وأنـت بما فيـه من الحـق آمرُ[1]

والحارث ليست له صُحْبَةٌ ولا رؤية للنبي ﷺ، وإنما كان موجوداً[2] في عهده عليه الصلاة والسّلام.

ومما ذكرنا، يظهر أنّ إسلام الحارث كان على يدي المهاجر بن أبي أميَّة، ولا نعلم شيئاً من أيامه قبل إسلامه، كما أنّ أخباره بعد إسلامه قليلة جداً.

وكان إسلام الحارث في السنة التاسعة الهجريّة، لأن النبي ﷺ كاتَبَ أهلَ اليَمن في هذه السنة[3] لا قبلها، وأرسل ملوك اليمن بإسلامهم إلى النبي ﷺ بعد رجوعه من غزوة تَبوك التي كانت في السنة التاسعة أيضاً.

وله أخوة من الأقيال أيضاً، هم: شُرْحَبيل بن عبد كُلال[4]، ونُعَيْم بن

---

(١) الإصابة (١/٢٩٦ - ٢٩٧).
(٢) أسد الغابة (١/٣٣٩).
(٣) أسد الغابة (٣/٣٦٨).
(٤) أنظر سيرته في: أسد الغابة (٢/٣٩٢ - ٣٩٣).

عبد كلال[1] قَيْل ذي رُعَيْن[2] ومَعَافِر[3] وهَمْدان[4]، وقد أسلم هؤلاء الأخوة، وبعثوا بإسلامهم إلى النبي ﷺ في السنة التاسعة الهجريّة كما ذكرنا.

وأخبار إخوة الحارث قليلة كأخبار الحارث أيضاً، على الرّغم من منزلتهم العالية في بلادهم عند قومهم، بينما كان ذوو السُّلطان من عرب الشمال: العراق وأرض الشام ونَجْد أكثر أخباراً من ذوي السُّلطان من عرب الجنوب وأغزر، ولكنّ تلك الأخبار الكثيرة الغزيرة كما مرّ بنا في الحديث عنهم بمناسبة الكُتب النَّبوية الموجَّهة لهم، تقتصر على الحروب فحسب ولا تشمل الأخبار المختلفة الأخرى.

ويبدو أنّ عرب الجنوب كانوا أكثر حضارة من عرب الشمال، وكان الاستقرار من أحد ثمرات تلك الحضارة، لذلك كانت أخبار الحروب بالنسبة لذوي السلطان من عرب الجنوب قليلة إن لم تكن نادرة.

والذي نستنتجه من أخبار الحارث القليلة، أنّه كان عاقلاً متّزناً، والدليل على ذلك إسلامه وثباته على الإسلام. وأنه كان شاعراً أو له

---

(1) أنظر سيرته في: أسد الغابة (٢٩/٥)، وفيه ورد اسمه: النعمان، بينما ورد اسمه في: أسد الغابة (٣٩٣/٢): نعيم: عند ذكره مع اخوته في سيرة شرحبيل أخيه، ولذلك أخذنا به لأنه تكرّر في مصادر أخرى. وقد ورد في بعض المصادر: نعيم ونعمان أيضاً، أنظر الطبري (١٢٠/٣) واليعقوبي (٦٣/٢).

(2) رعين: مخلاف (محافظة) من مخاليف اليمن: سُمي بالقبيلة، وهو ذو رعين، واسمه: (يرين) بياءبن مثناتين، انظر التفاصيل في: معجم البلدان(٢٦٣/٤).

(3) معافر: مخلاف باليمن، تنسب إليه الثياب المعافريّة، سمي بالقبيلة اليمنية: معافر بن يعفُر بن مالك بن الحارثبن مُرَّة، ويمتد نسبه إلى سبأ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٩٢/٨).

(4) همدان: قبيلة يمنية مشهورة، النسبة إليها: هَمَداني، انظر التفاصيل في: جمهرة أنساب العرب (٣٩٣ - ٣٩٥) و (٤٧٥ - ٤٧٦).

قابلية شعريّة، والدليل هو البيت الشِّعري الذي في رسالته إلى النبي ﷺ.

وأخبار إخوة الحارث لا تزيد في شيء عن أخبار الحارث، فهم أبناء الإسلام، بدأ ذكرهم بعدِ إسلامهم، ولم يكن لهم ذكر قبل اعتناقهم الإسلام.

٢. السفارة النبويّة:

أ. أرسل رسول الله ﷺ المهاجِر بن أبي أميَّة إلى الحارث بن عبد كُلال الحِمْيَرِي ملك اليمن[١]، يدعوه إلى الإسلام[٢].

فقد خرج رسول الله ﷺ ذات يوم بعد عُمْرَته التي صُدَّ عنها يوم الحُدَيْبِيَّة، فقال: «**أيها الناس! إنّ الله قد بعثني رحمةً وكافةً، فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريّون على عيسى بن مريم**». فقال أصحابه: «وكيف اختلف الحواريّون يا رسول الله!»، قال: «**دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما مَنْ بعثه مَبْعَثاً قريباً، فرضي، وأما مَنْ بعثه مبعثاً بعيداً، فكره وجهه وتثاقل، فشكا ذلك عيسى إلى الله، فأصبح المتثاقلون وكلّ واحد منهم يتكلّم بلغة الأمة التي بُعث إليها**»، فبعث رسول الله ﷺ رُسُلاً من أصحابه، وكتب معهم كُتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، وكان من رسله المهاجر بن أبي أُمية المخزومي إلى الحارث بن عبد كُلال الحِمْيَريّ ملك اليمن[٣]، دون أن يختلف عليه أحد من صحابته كما اختلف الحواريون على عيسى عليه السلام.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢٧٩/٤) وانظر: أسد الغابة (٤٢٢/٤) وتهذيب الأسماء واللّغات (١١٦/٢).

(٢) سيرة ابن هشام (٢٧٨/٤).

(٣) سيرة ابن هشام (٢٧٨/٤-٢٧٩)، وانظر طبقات ابن سعد (٢٦٤/١).

وقد أرسل النبيّ ﷺ رسله في المحرّم من سنة سبع الهجريّة، إذ رجع رسول الله ﷺ من الحُدَيْبِيَّة إلى المدينة المنورة في ذي الحجة من سنة ستّ الهجرية، فأرسل الرّسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كُتُباً، فخرج رسله في المحرّم سنة سبع الهجريّة[1].

وأكثر المصادر المعتمدة، تُعَدِّدُ رسله الذين أرسلهم يومئذٍ، وهم ستّة رُسُل، ليس بينهم المهاجر، كما أن اليمن تفصل بينه وبين قاعدة المسلمين في المدينة خطوط مناهضة للإسلام من المشركين في قاعدة المشركين مكّة حينذاك، ولم تُفتح مكّة إلا في السنة الثامنة الهجرية[2]، لهذا لم تكن اليمن ولا الطرق المؤدية إليها آمنة قبل فتح مكّة.

والخلاف ليس على إرسال المهاجر إلى الحارث بن عبد كُلال، بل الخلاف على توقيت إرساله فحسب، وأرجِّح أنّ النبيّ ﷺ أرسل المهاجر بعد فتح مكة لا قبل فتحها، أُسوة بالرّسل الذين بعثهم إلى الملوك بعد الفتح[3]، فقد كاتب النبيّ ﷺ أهل اليمن سنة تسع الهجريّة[4]، ولم يكاتبهم قبلها.

ولم يكن الحارث ملكاً، بل كان قَيْلاً من أقْيال اليمن[5]، ولكنه كان من أبرز ذوي السُّلطان اليمنيين، لهذا بعث إليه النبيّ ﷺ المهاجر بن أبي أُميّة، ثم مُعاذ بن جَبَل[6].

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١).
(٢) طبقات ابن سعد (١٣٤/٢) وجوامع السيرة (٢٢٦).
(٣) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٢٦٢/١-٢٩١).
(٤) أسد الغابة (٣٦٨/٣).
(٥) جوامع السيرة (٣٠).
(٦) طبقات ابن سعد (٢٦٤/١).

وللحارث بن عبد كُلَال ذكر في حديث عمرو بن حَزْم[١]، الذي بعثه النبيّ ﷺ إلى الحارث أيضاً، وكتب إليه كتاباً فيه فرائض الصّدقات والديّات[٢].

ولم تنسب المصادر المعتمدة المتيسّرة بين أيدينا رسالة النبيّ ﷺ إلى المهاجر بن أبي أُميّة المخزومي، ولكنها نسبتها إلى عَيَّاش بن أبي ربيعة المخزومي[٣]، وقد نسبها إليه ابن سعد وحده في طبقاته[٤]، ولم ينسبها إليه غير ابن سعد في المصادر الأخرى، وقد نقلها عن ابن سعد مرجعان فقط فيما أعلم.

وعدت إلى المصادر المعتمدة التي ذكرت سيرة عَيَّاش، فلم أجدها تنسب هذه الرّسالة النبويّة إليه، ولو أنّ هذه الرّسالة حُمِلت من عياش إلى الحارث بن عبد كلال، لذكرها الذين تحدّثوا عن سيرته، لأنّ حمل الرسائل النبوية حدث مهم جداً، لا يسكت عنه المحدّثون والمؤرخون وأصحاب السِّير وكتب الرِّجال.

كما أن ابن سعد الذي نسبها إلى عيّاش في: (ذكر بعثة رسول الله ﷺ الرُّسل بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وما كاتب به

---

(١) عمرو بن حزم: انظر سيرته في: أسد الغابة (٤/٩٨-٩٩) والإصابة (٤/٢٩٣) والاستيعاب (٣/١١٧٢-١١٧٣) والاستبصار (٧٣) وتهذيب التهذيب (٨/٢٠-٢١) وانظر سيرته المفصلة في كتابنا: سفراء النبيّ ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبّان والدّارمي، انظر الإصابة (٤/٢٩٣)، وانظر أسد الغابة (٢/٢٠٣) وكنز العمال (٢/٤٩٤-٤٩٦) على هامش مسند الإمام أحمد بن حنبل والطبري (٣/١٢٠-١٢٢) واليعقوبي (٢/٦٤-٦٥) والقسطلاني (١/٢٧٩) وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في مجموعة الوثائق السياسية (١٤٤-١٤٨).

(٣) عيّاش بن أبي ربيعة المخزومي أنظر سيرته في: طبقات ابن سعد (٤/١٢٩) وأسد الغابة (٤/١٦١) والإصابة (٥/٤٧).

(٤) طبقات ابن سعد (١/٢٨٢-٢٨٣).

رسول الله ﷺ الناس من العرب وغيرهم)[١]، لم ينسبها إلى عيّاش عند ذكر سيرة عياش، بل ذكر في سيرة عياش: «..... فقدم المدينة، فلم يزل بها إلى أن قُبِض رسول الله ﷺ، فخرج إلى الشام فجاهد، ثمّ رجع إلى مكّة فأقام بها إلى أن مات»[٢]، ولو أنه حمل الرسالة النبويّة إلى الحارث بن عبد كُلال كما نسبها إليه في موضع آخر من طبقاته، لكان سجّلها له في سيرته، كما فعل في أقرانه الذين حملوا الكُتب النبويّة.

وأُرجِّح أن النُّسَّاخ أو أحدهم، أخطأ في نسبة تلك الرسالة إلى عياش المخزومي، وهي في الواقع للمهاجر المخزومي، الذي بعثه النبيّ ﷺ إلى الحارث بن عبد كُلال لدعوته إلى الإسلام، كما نصّت على ذلك المصادر المعتمدة كافة، دون أن تنصّ على أنّ الرسول ﷺ بعث عياش المخزومي إلى الحارث بن عبد كُلال، فالخطأ خطأ النُسَّاخ أو أحدهم في نسبتها إلى عيّاش، وليس الخطأ من ابن سعد، لأنّه لو كان هو المخطىء، لنسب الرسالة النبويّة إلى عياش في سيرة عيّاش، ولكنه لم يفعل:

وهذه هي نصّ الرّسالة النبويّة التي حملها المهاجر بن أبي أمية المخزومي.

(١)

«بسم الله الرحمن الرحيم

إلى: الحارث ومسروح (الصواب شُرَحْبِيْل) ونُعَيْم ابن عبد كُلال.

سِلْمٌ أنتم ما آمنتم بالله ورسوله، وأنّ الله وحده لا شريك له، بعث موسى بآياته، وخلق عيسى بكلماته.

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١)، وانظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٢٥٨/١-٢٩١).
(٢) طبقات ابن سعد (١٢٩/٤).

قالت اليهود: عُزَيْزٌ ابن الله، وقالت النّصاري: الله ثالث ثلاثة، عيسى ابن الله».

علامة الختم: الله
رسول
محمد

وقال عليه الصّلاة والسّلام لمن حمل كتابه النبويّ إلى الحارث وإخوته: «إذا جئت أرضهم، فلا تدخلنّ ليلاً حتى تُصبح، ثم تطهّر فأحسن طهورك، وصَلِّ رَكعتين، وَسَلِ الله النّجاح والقَبول، واستعذ بالله، وخُذ كتابي بيمينك، وادفعه بيمينك في أيمانهم، فإنّهم قابلون. واقرأ عليهم ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين﴾[1]، فإذا فرغت فقل: آمن محمدٌ وأنا أوّل المؤمنين، فلن تأتيك حُجَّة إلاّ دُحِضت، ولا كتابٌ زُخْرِفَ إلاّ ذهب نورُه وهم قارئون عليك، فإذا رَطَنوا فقل: تَرْجِموا، وقل: حَسْبِيَ اللهُ، آمنتُ بما أنزل الله من كتاب، وأُمرتُ لأَعْدِل بينكم، الله ربُّنا وربُّكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حُجَّة بيننا وبينكم، اللهُ يجمع بيننا وإليه المصير. فإذا أسلموا فَسَلْهُمْ قُضُبَهُمْ الثلاثة التي إذا حضروا بها سجدوا، وهي من الأَثَل،: قَضِيْبٌ مُلَمَّعٌ ببياضٍ وصُفْرة، وقضيب ذو عُجَر كأنه خَيْزُران، والأسودُ البَهِيمُ كأنّه من ساسِمَ، ثم أخرجها فحرِّقْها بسُوقهم».

قال المبعوث النبوي: «فخرجت أفعل ما أمرني رسول الله ﷺ، حتى إذا دخلت إذا الناس قد لبسوا زينتهم، فمررت أنظر إليهم حتى انتهيت إلى سُتُور عِظام على أبواب دور ثلاثة، فكشفت السِّتر ودخلت

---

(١) السورة الكريمة هي سورة البيّنة، وهي سورة مدنية، آياتها (٨)، نزلت بعد الطّلاق.

الباب الأوسط، فانتهيت إلى قومٍ في قاعة الدّار، فقلت: أنا رسول رسول الله، وفعلت ما أمرني، فقبلوا، وكان كما قال صلى الله عليه وسلّم»[1].

وهكذا أسلم الحارث ومَنْ معه على يدي المهاجر بن أبي أُميَّة المخزوميّ.

لقد كان أمر النبيّ ﷺ إلى سفيره واضحاً جليّاً، وقد يبدو أنّ التفصيلات في هذا الأمر النبويّ كانت شاملة شافية، والفرق بين ما جاء في هذا الأمر النبويّ الذي شفع به هذه الرّسالة النبويّة، وبين ما جاء في الرّسائل النبوية الأخرى التي لا تشمل على أوامر نبويّة مفصّلة، هو أنّ الذين دوّنوا تلك الرّسالة النبوية دوّنوها مع الأمر النبويّ لوضعها في حيِّز التنفيذ، ولم يسجِّلوا الأوامر النبويّة المشفوعة مع الرَّسائل النبويّة الأخرى بهذا الشكل من التوضيح والتفصيل،إذ ليس من المتوقّع أن يبعث النبيّ ﷺ سفراءه إلى الملوك دون أن يزوِّدهم بأوامره التّفصيليّة الجازمة التي تعينهم على تأدية واجباتهم كما ينبغي، بحيث تقودهم إلى النّجاح والتّوفيق.

ومما يلاحظ في هذه الرِّسالة النبوية والأمر النبويّ، هو تعليم سفير النبيّ ﷺ، على أسلوب حمل الرِّسالة النبويّة، وأسلوب تقديمها إلى الملك، وهو نفس الأسلوب المعمول به حديثاً في الجيش وفي وزارة الخارجيّة، وقد ذكّرني الأمر النبويّ الخاص بحمل الرسالة وتقديمها، بما يتعلّمه الجنود والضباط في الجيش، وما يتعلمه السفراء في وزارة الخارجيّة، فلا فرق بين الأسلوبين في شيءٍ أبدا.

---

(١) طبقات ابن سعد (١/٢٨٢-٢٨٣).

لقد نجح المهاجر في سفارته إلى الحارث في اليمن أعظم النّجاح، وكان أثر وتأثير هذا السفير في الحارث وإخوته ومَن معه عظيما.

وقد كانت سفارة المهاجر بن أبي أُميّة إلى الحارث بن عبد كُلال وإخوته ومَن يلوذ بهم، من أقدم السّفارات النبويّة إلى اليمن السّعيد، من أجل الدّعوة إلى الإسلام، ومن أجل اجتثاث العقائد المنحرفة من أصولها، إن لم تكن تلك السّفارة أقدمها على الإطلاق.

وهذا ما نرجّحه، نظراً للنصوص الواردة في المصادر المعتمدة، حول هذا الموضوع. ومنذ ذلك الوقت أصبحت اليمن العربية، تدين بالإسلام، ولا تزال تدين بالدين الحنيف حتى اليوم.

وستبقى كذلك حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها: ركناً من أركان العرب، وحصناً من حصونهم، وقوّة للإسلام والمسلمين.

ب. وفي شهر رمضان من السنة التّاسعة الهجريّة، قدم على رسول الله ﷺ كتاب ملوك حِمْيَر مُقرِّين بالإسلام مع رسولهم مالك بن مُرارة الرّهاوِيّ، وهم: الحارث بن عبد كُلال، ونُعَيْم بن عبد كلال، والنُّعمان بن عبد كلال، وزُرعة ذو يَزن، ومفارقتهم الشّرك، وأهله[1]، فكتب إليهم رسول الله ﷺ ما نصّه:

(٢)

«بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمّد رسول الله النبيّ

إلى: الحارث بن عبد كُلال، وإلى نُعَيْم بن عبد كُلال، وإلى النُّعمان قَيْل ذي رُعَيْن ومَعَافِر وهَمْدان.

(١) طبقات ابن سعد (٣٥٦/١) وسيرة ابن هشام (٢٥٨/٤) والطبري (١٢٠/٣) وأعلام السائلين لابن طولون (١٥) واليعقوبي (٨٧/٢) وإمتاع الأسماع للمقريزي (٤٩٥/١).

أما بعد ذلكم، إني أحْمَدُ إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو.

أما بعد، فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا[1] من أرض الرُّوم، فلقينا بالمدينة، فبلّغ ما أرسلتم به، وخبَّر ما قبَلكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وانّ الله قد هداكم بهدايته[2]. إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصّلاة، وآتيتم الزّكاة، وأعطيتم من المغانم خُمس الله، وسهم نبيّه وصَفِيّة[3]، وما كُتب على المؤمنين من الصّدقة من العَقار[4] عُشْر ما سَقت العَيْن وما سَقت السّماءُ، وكل ما سُقي بالغَرْب[5] نصف العُشر، وفي الإبل في الأربعين ابنة لَبُوْن[6]، وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر، وفي كلّ خمس من الإبل شاة، وفي كلّ عشر من الإبل شاتان، وفي كلّ أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تَبِيْع جَذاع أو جَذَعة[7]، وفي كلّ أربعين من الغنم سائمةً وحدَها شاة.

---

(١) سيرة ابن هشام: «منقلبنا».

(٢) سيرة ابن هشام: «بهداه».

(٣) الصفيّ: نصيب الرّئيس من الغنيمة، وما يصطفيه الرّئيس من الغنيمة، قبل أن تُقسم الغنائم، وهي فعيل بمعنى مفعول.

(٤) العقار: الأرض التي تزرع.

(٥) الغرب: الدلو.

(٦) ابن اللّبون: ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة، لأن أمّه ولدت غيره، فصار لها لبن. وهي ابنة لبون، وبنت لبون. (ج): بنات لبون [للذكر والإناث].

(٧) التبيع: ولد البقرة، (ج): تِبَاع، تبائع، وأتْبعه، (جج): أتابع، وأتابيع. والجذع: من الخيل والبقر ما استكمل سنتين ودخل في الثالثة: وجذعة: مؤنث جذع.

وإنّها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصّدقة، فمن زاد خيراً فهو خير له، ومنْ أدّى ذلك وأشهد على إسلامه، وظاهر[1] المؤمنين على المشركين، فإنه من المؤمنين، له ما لهم وعليه ما عليهم، وله ذِمّة الله وذمة رسوله.

وإنّه مَن أسلم من يهوديّ أو نَصْرانِيّ، فإنَّ له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومَنْ كان على يهوديّته أو نصرانيّته فإنه لا يُفتن[2] عنها، وعليه الجزية: على كلّ حالم ذكر أو أنثى، حرّ أو عبد، دينار وافٍ أو قيمته من المعافِر[3] أو عَرْضُه[4] ثياباً، فمن أدّى ذلك إلى رسول الله، فإنّ له ذمّة الله وذمّة رسوله، ومّنْ منعه فإنه عدوّ لله ولرسوله.

أما بعد، فإن رسول الله محمداً النبيّ ﷺ أرسل إلى زُرْعة ذي يَزَن[5]، إذا أتتكم[6] رُسُلي فأُوصيكم بهم[7] خيراً مُعاذ بن جَبَل[8]، وعبد الله بن زيد[9]، ومالك بن عُبادَة[10]،

---

(١) ظاهر: عاون وآزر.
(٢) في سيرة ابن هشام: «لا يردّ عنها».
(٣) المعافر: ثياب اليمن.
(٤) في سيرة ابن هشام: «أو عرضه».
(٥) زرعة ذو يزن: انظر سيرته في أسد الغابة (٢/٢٠٣-٢٠٤) والإصابة (٣/٤٠) والاستيعاب (٢/٥١٩).
(٦) في سيرة ابن هشام: «أتاكم».
(٧) كذا في سيرة ابن هشام، وفي طبعة أخرى: «بها».
(٨) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: سفراء النبيّ ﷺ.
(٩) عبد الله بن زيد: انظر سيرته في الإصابة (٤/٧٣): عبد الله بن زيد الضَّمْري.
(١٠) مالك بن عبادة الهمداني: انظر سيرته في أسد الغابة (٤/٢٨٣) والإصابة (٦/٢٦) والاستيعاب (٣/١٣٥٣).

وعُقْبة بن نَمِر[1]، ومالك بن مُرّة[2] وأصحابهم، وأن اجْمَعوا ما عندكم من الصّدقة والجِزْية من مخاليفكم وبلّغوها[3] رُسُلي، وإنّ أميرهم مُعاذ، فلا ينقلبّن إلا راضيا.

أما بعد، فإنّ محمداً يشهد ألاّ إله إلا الله، وأنّه عبده ورسوله، ثم إنّ مالك بن مُرَّة الرّهاويّ قد حدثني أنّك أسلمت من أوّل حِمْيَر، وقتلت المشركين، فأبشر بخير، وآمرك بحِمْير خيراً، ولا تخونوا ولا تخاذلوا، فإنّ رسول الله مولى غَنِيِّكم وفقيركم، وإنّ الصّدقة لا تحلّ لمحمدّ ولا لأهله، إنّما هي زكاة يتزكّى بها على فقراء المؤمنين وأبناء السّبيل، وإنّ مالكاً قد بلّغ الخبر وحفظ الغيب، وآمركم به خيراً، وإني قد بعثت إليكم من صالحي أهلي وأولي ديني[4]، وأولي علمهم، فآمركم بهم خيراً فإنه منظور إليهم.

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته»

علامة الختم: الله رسول محمد

---

(1) عقبة بن نمر الهمداني: انظر سيرته في أسد الغابة (٤٢١/٣) والإصابة (٢٥٣/٤) والاستيعاب (١٠٧٧/٣).

(2) مالك بن مُرّة الرّهاوي: انظر سيرته في أسد الغابة (٢٩٣/٤) والإصابة (٦/٣٣-٣٤) والاستيعاب (١٣٥٩/٣) منسوب إلى رَهاء بن مُنبّه بن حرب قبيلة من مَذْحِج، انظر الإصابة (٣١/٦)، وورد في قسم من المصادر: مالك بن مرارة لا مالك بن مرة.

(3) في سيرة ابن هشام: «أبلغوها».

(4) في سيرة ابن هشام: «دينهم».

(5) الطبري (١٢١/٣-١٢٢) وسيرة ابن هشام (٢٥٩/٤-٢٦٠) واليعقوبي (٨٧/٢-٨٩)=

وفي هذه الرسالة النبويّة دروس قيّمة، فهي تؤكّد على أهميّة الطّاعة لله ولرسوله، مما يؤدي إلى ضبط المجتمع ونظامه. وهي تشير إلى أركان الإسلام، الواجب اتّباعها، ممّا يؤدي إلى الانسجام الفكري في المجتمع الإسلامي الذي يجعل التعاون بين الأفراد والجماعات ممكناً وواجبا. وهي تنظّم الاقتصاد الإسلامي في الزكاة والصدقات، وأسلوب وضعها في مجال التطبيق العلمي، ومواساة الفقراء بأموال الزكاة والصدقة، وأسلوب فرض الجزية كميَّةً ونوعا، وطريقة جبايتها. وهي تؤكد على حرية العقيدة بالنسبة إلى أهل الكتاب من يهود ونصارى، فلا إكراه في الدين إذا بقوا على دينهم وأدّوا الجزية. وهي توظّف المسؤولين عن الزّكاة والصّدقة والجزية، وتحدّد مسؤولياتهم، وتجعل عليهم أميراً يوجّههم ويعودون إليه في معضلاتهم، ثم توصي أهل اليمن الموفدين إليهم بهؤلاء المسؤولين خيراً، لتكون لهذا المسؤول هيبته التي تعينه على آداء مهمّته على أحسن وجه وفي أحسن الظروف.

تلك بعض الدروس القيّمة في هذه الرّسالة النبوية أشير إليها إشارة عابرة، فقد شرحها كثير من العلماء، واستفادوا منها فائدة عظيمة.

وكتب النبيّ ﷺ إلى أقيال اليمن في الزّكاة والدّيات وغيرها، وهذا هو نصّ الرسالة النبويّة:

وأسد الغابة (٢٠٣/٢) والإصابة (٢٩٣/٤) والقسطلاني (٢٧٩/١) وقد أخرجه أبو داود وابن حبّان والدارميّ، انظر الإصابة (٢٩٣/٤)، وانظر النص في كنز العمال (٤٩٤/٢-٤٩٦) على هامش مسند الإمام أحمد بن حنبل، وانظر تفاصيل المراجع والمصادر في: مجموعة الوثائق السياسية (١٤٤-١٤٨).

(٣)

«بسم الله الرحمن الرحيم
من: محمّد رسول الله (ﷺ).

إلى: شُرَحْبِيْل بن عبد كُلال، والحارث بن عبد كُلال، ونُعَيم بن عبد كُلال قَيْل ذي رُعَيْن ومَعَافِر وهَمْدان.

أما بعد: فقد رجع رسولكم وأعطيتم من المغانِم خُمس الله، وما كُتب على المؤمنين من العُشر في العَقار، ما سقت السّماء أو كان سيْحاً أو كان بعْلاً[١] ففيه العشر إذا بلغت خمسة أَوْسُق[٢]، وما سقي بالرشاء[٣] والدَّالية[٤] ففيه نصف عُشْرٍ إذا بلغ خمسة أَوْسق.

وفي كلّ خمس من الإبل سائمة، شاة، الى أن تبلغ أربعاً وعشرين، فإن زادت واحدة على أربع وعشرين، ففيها بنت مخاض[٥]، فإن لم توجد ابنة مخاض فابن

---

(١) البَعْل: الأرض المرتفعة التي لا يسقيها إلا المطر. والزّرع يشرب بعروقه فيستغنى عن السّقي.

(٢) الوسق: مكيلة معلومة، وهي ستون صاعاً، والصاع خمسة أرطال وثلث. وحِمْل البعير أو السفينة، (ج): أوساق ووسوق وأوسق.

(٣) الرشاء: الحبْل، أو حبل الدّلو ونحوها.

(٤) الدالية: الدّلو ونحوها، وخشبة تثبت برأس الدلو، ثم يشدّ بها طرف حبل، وطرفه الآخر بجذع قائم على رأس البئر يُستقي بها.

(٥) بنت مخاض: هي التي دخلت في الثانية وإن لم تكن أمّها حاملا، وابن مخاض: الذكر من الإبل الذي دخل في الثانية وإن لم تكن أمّه حاملا، والجمع: بنات مخاض للذكور والإناث، انظر الإفصاح (٢/٧٢٠)

لَبون[١] ذَكر إلى أن تبلغ خمساً وثلاثين. فإن زادت واحدة على خمسة وثلاثين واحدة، ففيها ابنة لبون، إلى أن تبلغ خمسة وأربعين، فإن زادت واحدة على خمسة وأربعين، ففيها حِقّة[٢] - طروقة الفحل - إلى أن تبلغ ستّين. فإن زادت واحدة، ففيها جَذَعَة[٣]، إلى أن تبلغ خمساً وسبعين. فإن زادت واحدة، ففيها ابنتا لَبون إلى أن تبلغ تسعين. فإن زادت واحدة على تسعين، ففيها حِقَّتان - طروقتا الفحل - إلى أن تبلغ عشرين ومائة. فما زاد عن عشرين ومائة، ففي كل أربعين ابنة لبون، وفي كلّ خمسين حقّة طروقة الفحل.

وفي كلّ ثلاثين باقورة[٤] تَبِيع، جَذَع أو جَذَعَة، وفي كلّ أربعين باقورة بقرة.

وفي كلّ أربعين شاة سائمة، شاة، إلى أن تبلغ عشرين ومائة. فإن زادت واحدة ففيها شاتان، إلى أن تبلغ مائتين. فإن زادت واحدة، ففيها ثلاث

---

(١) ابن اللَّبون: ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة، لأنّ أمه ولدت غيره، فصار لها لبن، وهي ابنة لبون، وبنت لبون (ج): بنات لبون للذكر والإناث.

(٢) الحقّة: من الإبل هو الحِقّ، ما دخل في السنة الرابعة وأمكن ركوبه أو الحمل عليه (ج): حِقَق، وحقاق.

(٣) الجذع: من الخيل والبقر، ما استكمل سنتين ودخل الثالثة، ومن الضأن: ما بلغ ثمانية أشهر أو تسعة، ومن الإبل الذي أتت عليه الخامسة، وهي جذعة. (ج): جِذَاع، وأجذاع، وجُذْعان.

(٤) الباقورة: بلغة أهل اليمن البقرة، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (١٠٧/١).

شياه، إلى أن تبلغ ثلاث مائة، فإن زادت، ففي كلّ مائة، شاة.

ولا تؤخذ في الصدقة هَرِمَة ولا عَجْفاء ولا ذات عُوار[1]، ولا تَيْس الغنم إلاّ أن يشاء المصدِّق.

ولا يُجمع بين متفرّق، ولا يُفرّق بين مُجْتمع خشية الصّدقة. وما أُخذ من الخليطين فإنّهما يراجعان بالسّوية.

وليس في رقيقٍ ولا مزرعة ولا عُمّالها شيء، إذا كانت تؤدي صدقتها من العُشر، وليس في عبدٍ مسلم ولا في فرسه شيء.

(قال: وكان في الكتاب)

إنّ أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الشّرك، وقتل النّفس المؤمن بغير حقّ، والفرار في سبيل الله يوم الزّحف، وعقوق الوالدين، ورمي المحصنات، وتعلّم السِّحر، وأكل الرِّبا، وأكل مال اليتيم.

وإنّ العُمْرة الحجّ الأصغر، ولا يَمَسّ القرآن إلاّ طاهر، ولا طلاق قبل الإملاك[2]، ولا عتَاق[3] حتى

---

(١) العوار: العيب، والخرق والشق في الثوب.
(٢) التيس: الذكر من المَعْزِ والظّباء والوعول إذا أتى عليه حول.
(٣) أملك المرأة: تزوّجها. ولا طلاق قبل الإملاك: قبل الزواج.
(٤) أعتق العبد: حرّره ولا عتاق: لا تحرر.

يُبْتاع، ولا يُصَلِينّ أحدكم في ثوب واحد ليس على منكِبه شيء منه.

(وكان في الكتاب)

إنَ مَن اعتبط[1] مؤمناً، قتله عن بيّنةٍ، فإنه قَوَد[2] إلا أن يرضى أولياء المقتول.

وإنّ في النفس الدِيّة، مائة من الإبل، وفي الأنف الذي أُوْعَبَ[3] جَدْعَه[4]، وفي الصُلب الديّة، وفي العينين الديّة، وفي الرّجلين الديّة، والواحدة نصف الديّة، في المأمومة[5] ثلث الديّة، وفي الجائفة[6] ثلث الديّة، وفي المُنَقِّلة[7] خمس عشرة من الإبل، وفي كلّ إصبع من أصابع اليد والرِّجل عَشْر من الإبل، وفي

---

(١) اعتبط مؤمنا: ذبحه بلا جناية ولا جريرة.

(٢) القَوَد: القِصاص، ومعناه أنّ القاتل يُقتل به ويُقاد، أنظر شرح السيوطي على سنن النِّسائي (٢/٢٥٢).

(٣) أوعب جدعه: استأصله، قطعه جميعه، انظر شرح السيوطي على سنن النّسائي (٢/٢٥٢).

(٤) جدعه: قطعه.

(٥) المأمومة: الشيخة التي بلغت أم الرأس، وهي الجلدة التي تجمع الدّماغ، انظر النهاية (١/٥٣).

(٦) الجائفة: الطعنة التي تبلغ جوف الرأس أو جوف البطن، انظر شرح السيوطي على سنن النسائي (٢/٢٥٢).

(٧) المنقِّلة: الشجّة التي تَنَقَّل منها فراش العظام، وهي قشور تكون على العَظْم دون اللحم، أنظر ترتيب القاموس المحيط (٣٨٧/٤). والمنقلة من الجراح: ما ينقل العظم من موضعه، وهي شجّة يخرج منها صغار العظم وينقل عن أماكنها وقيل: هي التي تنقل العظم، أي تكسره، انظر شرح السيوطي على سنن الإمام النسائي (٢/٢٥٢).

السِنّ خمس من الإبل، وفي المُوْضِحَة[١] خمس من الإبل، وإنّ الرّجل يُقتل بالمرأة»[٢].

علامة الختم: الله رسول محمد

وفي هذه الرِّسالة النبويّة دروس قيِّمه جداً كسابقتها، وفيها ما يشير الى تطبيق ما جاء في رسالته السابقة حول تنظيم الزّكاة والصدقة والجزية.

ومن دروس هذه الرِّسالة، تنظيم جباية الأرض المزروعة السَّيح منها والتي تُروى بالمجهود الذاتي، وزكاة الإبل بالتفصيل، وزكاة البقر بالتفصيل أيضا، وزكاة الغنم.

ثم يذكر الذين يعفون من الزكاة، ويخصّ منهم الرّقيق والعبيد، فهم أحقّ بالرأفة من غيرهم، وهم أجدر بأن يشملهم الإعفاء.

ثم يحذِّر من الكبائر، ويُعدِّدها، ويذكِّر بأنها من أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة.

ثم يسلِّط الأضواء على قسم من العبادات، وقسم من القضايا الاجتماعية التي تخصّ الفرد والمجتمع، لتنظيم تلك العبادات والقضايا الاجتماعية الأُخرى.

وأخيراً ينصّ على العقوبات الرادعة للذين يُقدمون على اقترافها، مما

---

(١) الموضحة: الشجّة كشطت عن العظم، وهي جراحة بلغت العظم فأوضحت عنه.

(٢) الأهدل - نثر الدرر المكنون في فضائل اليمن الميمون (٦٧) عن صحيح ابن حبان ج ٥ ومجمع الزوائد ج ٣، وانظر الزرقاني (٣٣٣/٣) والدارمي (٢٩٣) وانظر النص في مجموعة الوثائق السياسية (١٤٩-١٥٢).

لا يفسح المجال لممارستها، وممّا يجعل الفرد والمجتمع يرفل بالأمان والاطمئنان والسّلام.

تلك هي الخطوط العريضة للأهداف الرفيعة التي حملتها هذه الرِّسالة النبوية إلى أهل اليمن أفراداً وجماعات، وفقراء وأغنياء، وحكّاماً ومحكومين، من أجل تنظيم المجتمع الإسلامي على هدى وبصيرة، فالكلّ يعرف ما عليه من واجب تجاه نفسه وتجاه أخيه المسلم وتجاه المجتمع الإسلامي، والكلّ يعرف ما له من حقوق على نفسه، وعلى أخيه المسلم وعلى المجتمع الإسلامي أيضاً. ومن المعلوم أنّ الفرد والجماعة، والغنيّ والفقير، والحاكم والمحكوم، إذا عرفوا واجبهم وحقوقهم فادّوا واجبهم كاملا، وأخذوا حقوقهم كاملة، فإن التّعاون يسودهم، والمحبّة تقودهم، والسّلام يشملهم، والسّعادة ترفل عليهم، والرّخاء ينتشر بينهم، ومن ثم يكون النّصر حليفهم في ميدان الفكر وفي ميدان الجهاد.

مما تقدّم، يظهر أنّ الحارث بن عبد كُلال وإخوته بخاصة وغيرهم من أقيال اليمن بعامة تسلّموا ثلاث رسائل نبويّة في أوقات متفاوتة، حملها لهم عدّة سفراء نبويِّين، فَمَنْ حمل تلك الرّسائل ومتى؟

لقد حمل الرِّسالة الأولى المهاجر بن أبي أُميّة المخزومي، كما ذكرنا ذلك من قبل، وقد أوفده النبيّ ﷺ بعد عودته من غزوة تَبُوك التي كانت في شهر رجب من السنة التاسعة الهجرية كما هو معلوم، فكاتب أهل اليمن سنة تسع الهجرية[1]، ومعنى ذلك أن المهاجر حمل الرِّسالة النبويّة إلى الحارث وإخوته في نحو شهر شعبان من السّنة التاسعة الهجريّة، باعتبار المدّة التي استغرقتها الرحلة من المدينة المنورة إلى

---

(١) أسد الغابة (٣/٣٦٨).

تبوك ذهاباً وإياباً، وبقاء النبيّ ﷺ عشرين يوماً في تبوك[1]، فقدم موفد الحارث بن عبد كلال وصحبه المدينة في شهر رمضان بإسلامهم[2].

أما الذي حمل الرِّسالة الثانية، فهو مُعاذ بن جَبَل، وكان ذلك بعد شهر رمضان من السنة التَّاسِعة الهجريّة، لأنّ موفد الحارث بن عبد كلال وصحبه بإسلامهم قدم المدينة في شهر رمضان كما ذكرنا.

أما الرسالة الثالثة، فقد حملها إلى اليمن عمرو بن حَزْم، فقد روى رسالته منسوبة إليه كثير من المحدِّثين، منهم أبو داود والنِّسائي وابن حبَّان والدَّارمي[3]، وقد ذكر النِّسائي هذه الرسالة في سُنَنِه بعنوان: «ذكر حديث عمرو بن حَزم[4]، فلا شكّ في أنّ حامل الرِّسالة النبويّة الثالثة هو عمرو بن حَزْم الأنصاري، وقد حملها الى اليمن في بقية شهر شوال أو في صدر شهر ذي القعدة من السّنة العاشرة الهجريّة[5] كما سيرد تفصيل ذلك في سيرة عمرو بن حزم[6].

تلك هي مجمل قصّة السّفارات النبوية إلى اليمن، ومن حمل الرسائل النبوية إليهم، وموعد حمل الرسائل النبوية والتوجّه بها إلى اليمن.

إنّ الرسالة النبويّة الأولى، حملها إلى الحارث بن عبد كلال في حوالى شهر شعبان من سنة تسع الهجرية المهاجر بن أبي أمية وحمل الرّسالة النبويّة الثانية إلى الحارث وغيره من أقيال اليمن مُعاذ بن جبل بعد

---

(١) طبقات ابن سعد (١٦٨/٢).
(٢) طبقات ابن سعد (٣٥٦/١) وسيرة ابن هشام (٢٥٨/٤) والطبري (١٢٠/٣).
(٣) انظر الإصابة (٢٩٣/٤) وأسد الغابة (٢٠٣/٢) وكنز العمال على هامش مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢/٤٩٤-٤٩٦).
(٤) سنن النسائي (٢٥٢/٢).
(٥) الطبري (١٢٨/٣) وانظر ابن الأثير (٢٩٣/٢).
(٦) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: سفراء النبيّ ﷺ.

شهر رمضان من سنة تسع الهجرية: في شوال أو ذي القعدة. وحمل الرِّسالة النبويّة الثالثة إلى الحارث بن عبد كلال وإخوته في اليمن عمرو ابن حَزْم الأنصاري، في بقية شهر شوال أو في صدر شهر ذي الحجة من سنة عشر الهجرية.

إلى ذي الكَلاَع وذي عمرو باليَمَن

١. ذو الكَلاع وذو عمرو:

أ. ذو: هو الأمير صاحب الدُّويلة الصغيرة في اليمن قبل الإسلام، والأذواء: جمع ذي، والأذواء هو اصطلاح في التاريخ اليمنيّ قبل الإسلام، يُقصد به الأُمراء أصحاب الدُّويلات الصُغْرى التي قامت باليمن إلى جانب الدّولة اليمنيّة الكبرى كدولة سَبَأ وحِمْير، والأذواء كالأقيال، وهم أصحاب الإقطاعات[١] أو الدّويلات الصغيرة.

وذو الكَلاَع، وهو ذو الكَلاَع بن ناكور بن حبيب بن مالِك بن حسَّان ابن تُبَّع[٢]، في رواية، وفي رواية أخرى، هو ذو الكَلاَع بن ناكور بن عمرو بن يَعْفُر بن يزيد، وهو ذو الكَلاَع الأكبر، ابن النُّعْمان[٣]، وهناك روايات أخرى.

واسم ذي الكَلاَع: سُمَيْفَع[٤] أو أَسْمَيْفَع[٥]، ويقال غير ذلك. يُكنى:

---

(١) القاموس الإسلامي أحمد عطيّة الله (٢/٤٤٤-٤٤٥) - القاهرة - ١٣٨٦هـ.
(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٦٦).
(٣) جمهرة أنساب العرب (٤٣٤).
(٤) جمهرة أنساب العرب (٤٣٤) والإصابة (٢/١٨٣) ابن عساكر (٥/٢٦٩).
(٥) أسد الغابة (٢/١٤٣) وتهذيب ابن عساكر (٥/٢٦٩).

أبا شُرَحْبيل ويقال: أبا شَرَاحيل[1]، وهو حِمْيَري[2].

وكان ذو الكَلاَع رئيساً في قومه متبوعاً[3]، فبعث النبيّ ﷺ جرير ابن عبد الله البَجَلِيّ إليه سفيراً يحمل كتاب النبيّ ﷺ فأسلم، وأسلمت زوجته ضُرَيْبة بنت أَبْرَهَة بن الصُبَّاح[4].

قال جرير: «بعثني رسول الله ﷺ إلى ذي الكَلاَع وذي عمرو، فأما ذو الكَلاَع فقال: «ادخل على أم شُرَحْبِيل، والله ما دخل أحد بعد أبي شرحبيل عليها قبلك، ثم أسلما»[5]، وهذا دليل على ثقة ذي الكلاع بجرير بن عبد الله البَجَلي ثقة مطلقة، بحيث أدخله على زوجه استثناءً، ولم يسمح لغيره قبله بالدّخول عليها.

وأعتق ذو الكَلاَع أربعة آلاف مولى من مواليه لإسلامه[6]، مما يدلّ على فرحه الغامر بإسلامه وغناه الباذخ، حتى لو كان عدد مَنْ أعتق في هذه المناسبة مبالغاً فيه.

وأقبل ذو الكَلاع وصاحبه ذو عمرو مع جرير للقاء النبيّ ﷺ في المدينة المنوّرة، فصادفهم في طريقهم من اليمن إلى المدينة رَكْبٌ وأخبروهم أنّ رسول الله ﷺ قُبض واستُخلف أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، فقال ذو الكَلاَع: «أخبر صاحبك أنا سنعود إن شاء الله تعالى»، فقال أبو بكر لجرير بعد وصول جرير إلى المدينة وسماعه خبر ذي

---

(1) أسد الغابة (٢/١٤٣) والإصابة (٢/١٨٣).
(2) أسد الغابة (٢/١٤٣).
(3) أسد الغابة (٢/١٤٣).
(4) طبقات ابي سعد (١/٢٦٦).
(5) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٠)
(6) الإصابة (٢/١٨٣) وتهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٠).

الكلاع وذي عمرو: «أفلا جئت بهم!!»[1].

ولا صُحبة لذي الكلاع، ولكنّه أسلم واتّبع النبيّ ﷺ في حياته[2]، ولم يَرَ النبيّ ﷺ، لذلك فهو من تابعي أهل الشام[3] وليس صحابيا.

حين ارتد قسم من أهل اليمن مع الأسود العَنْسِيّ، وظهر الأسود على اليمن، كان ذو الكلاع من الذين ثبتوا على الإسلام ولم يرتدّوا، وكان له نشاط محمود في القضاء على فتنة الأسود ومَنْ معه وقَتْل الأسود وعودة المرتدين إلى الإسلام[4].

ولما تولى أبو بكر الصدِّيق الخلافة، كتب إلى ذي الكلاع وغيره من الأذواء يأمرهم بالتّمسك بدينهم والقيام بأمر الله، ويأمرهم بإعانة الأبْناء[5] على مَنْ ناوأهم. فلما سمع قَيْس بن عبد يغُوث بن مكشُوح الذي ارتدّ ثانيةً بعد مقتل الأسود العَنْسّي وبعد ما بلغه موت النبيّ ﷺ، بكتاب أبي بكر الصدِّيق إلى أذواء اليمن وغيرهم، كتب إلى ذي الكلاع وأصحابه يدعوهم إلى قتل الأبناء وإخراج أهلهم من اليمن، فلم يجيبوه ولم ينصروا الأبناء[6]، ولكنهم عموماً كانوا مع المسلمين لا عليهم.

---

(١) الإصابة (١٨٢/٢) وتهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٥) وفيه: «افلا جئت بها؟!».

(٢) أسد الغابة (١٤٣/٢-١٤٤).

(٣) طبقات ابن سعد (٤٤٠/٧) وانظر تهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٥).

(٤) أنظر التفاصيل: في الطبري (٣١٨/٣-٣٢٠) وابن الأثير (٣٣٦/٢-٣٤٢).

(٥) الأبناء: أبناء الفُرس، أو ابناء الفرس الأحرار كما يطلق عليهم أيضاً، أو بني أحرار، اسم يطلق على سلالة الفرس الذين استوطنوا اليمن بعد أن استولوا عليها من سيف ذي يزن الحميريّ، وتزوّجوا وتناسلوا ورزقوا الأولاد، ويطلق كذلك على سلالة الفرس الذين دخلوا في الإسلام وانتصروا له، انظر: القاموس الإسلامي (١٦/١).

(٦) انظر التفاصيل في: ابن الأثير (٣٧٤/٢-٣٧٨).

وبعث أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه أَنَس بن مالك[1] رضي الله عنه خادم النبيّ ﷺ إلى اليمن يحمل كتاباً يحثّ فيه الأذواء والمسلمين على مجاهدة المرتدين خارج اليمن، بعد أن عاد اليمنيّون المرتدّون إلى الإسلام من جديد، وعلى مجاهدة المشركين أيضاً.

قال أنس: «أتيت اليمن، فبدأت بهم حيّاً حيّاً، أقرأ عليهم كتاب أبي بكر. فإذا فرغت، قلت: الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محّمداً عبده ورسوله. أما بعد، فإني رسول خليفة رسول الله، ورسول أمير المؤمنين. ألا وإني تركتهم مُعَسْكِرين ليس يثقلهم عن الشُّخوص إلى عدوِّهم إلا انتظاركم، فاحتملوا إلى إخوانكم بالنّصر رحمة الله عليكم. أيها المسلمون! فكلّ مَنْ نقرأ عليه ذلك الكتاب ويسمع هذا القول، يردّ أحسن الردّ، ويقول: نحن سائرون إلى إخواننا، حتى انتهينا إلى ذي الكلاع، فلما قرأت عليه الكتاب وقلت له هذا القول، دعا بفرسه وسلاحه، ثم نهض في قومه، وأمر بالعسكر، فما برحنا حتى عسكر. وقام فيهم خطيباً، فقال: أيّها الناس! إنّ من رحمة الله عليكم ونعمته فيكم أن بعث منكم نبياً، أنزل عليه الكتاب، وأحسن عنه البلاغ، فعلّمكم ما يرشدكم، ونهاكم عمّا يُفسدكم، حتى علّمكم ما لم تكونوا تعلمون، ورغّبكم فيما لم تكونوا ترغبون فيه من الخير، وقد دعاكم إخوانكم الصّالحون إلى جهاد المشركين، واكتساب الأجر العظيم، فلينفر مَنْ أراد النّفر معي. قال: فنفر معه عدّة من الناس، فأقبل بهم إلى أبي بكر، فرجعنا نحن، فسبقناهم بأيام، فوجدنا أبا بكر بالمدينة، ووجدنا ذلك العسكر على حاله، وأبو عُبَيْدَة يُصلّي بالناس، فلما قدمت حِمْيَر معها أولادها ونساؤها قال أبو بكر: عباد الله! ألم نكن نتحدّث فنقول:

---

(١) انظر سيرته في: أسد الغابة (١/١٢٧) والاستيعاب (١/١٠٩) وتهذيب الأسماء واللغات (١/١٢٧) والإصابة (١/٧١).

إذا جاءت حِمْيَر معها نساؤها وأولادها، نصر الله المسلمين، وخذل المشركين؟! أبشروا أيها الناس، فقد جاءكم النّصر»[1].

ولا ندري بالضبط جهاد ذي الكلاع في المدة من قدومه إلى المدينة، إلى أن لحق بأرض الشّام على رأس رجاله من حِمْيَر، فقد بعثه أبو بكر في السّنة الثالثة عشرة الهجرية إلى أرض الشّام مَدَداً للمسلمين هناك[2]، كما بعث غيره على رأس قواتهم إلى أرض الشام مدداً لخالد بن سعيد بن العاص[3].

واقتحم خالد بن سعيد على الرُّوم طلب الحُظْوة، فكشف ظهره بدون تدابير أمنيّة كافية، وكان معه ذو الكلاع، فتكبّد جيش خالد أمام الرُّوم خسائر فادحة، فعزل أبو بكر خالد بن سعيد[4].

وإقبالُ ذي الكلاع ومَنْ معه على الجهاد، بسرعة خاطفة، وتلبية دعوة أبي بكر الصديق للنّفير خِفافاً، دليل على إيمانهم الرَّاسخ، حيث خلّفوا وطنهم اليمن، وأقبلوا على عَجَل، تلبية لنداء الجهاد.

كما أنّهم توجّهوا حيث أمرهم أبو بكر، دون تردّد ولا اعتراض، وليس التوجّه لقتال الرُّوم في حينه سهلاً ولا هيّناً.

وربّما يتبادر إلى الأذهان، أن الحافز الذي دفع ذا الكَلاَع وَمَنْ معه والمجاهدين من المسلمين في كلّ مكان ومن كلّ قبيلة للجهاد دافع اقتصادي بحت، كالفوز بالغنائم وغيرها من القضايا الماديّة الأخرى، ولكنّ الأمر ليس كذلك، لأنّ الرّوح لا تباع بالمادة، ولا أحدُ يلقي بنفسه

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٢٧١/٥).
(٢) ابن الاثير (٤٠٣/٢).
(٣) الطبري (٣٨٩/٣).
(٤) الطبري (٣٩٠/٣).

إلى التهلكة من أجل المال فحسب، وقد كانت خسائر المجاهدين المسلمين بالأرواح فادحة جداً بلغت ثمانين بالمائة من تعداد المجاهدين، وهذه الخسائر بالأرواح لا تعوّض بالمادة أبدا. أما ذو الكلاع مثلاً، فقد كان ميسور الحال إلى أبعد الحدود، فهل يُعقل أن يزجّ نفسه في المهالك من أجل المادة، وهو ليس بحاجة إلى هذه المادة، وما عنده يكفي ويفيض على حاجته، بل كان يوزِّع ما عنده على الفقراء والمحتاجين وعلى قومه وأهله، وعلى الكرم والضيافة، ويجهِّز المجاهدين في سبيل الله، وينفق أمواله في الجهاد وفي سبيل الله، والقول بأنّ مثله يجاهد لأسباب ماديّة لا يقبله العقل ويرفضه المنطق السليم.

إن الحافز الذي دفع المجاهدين للجهاد هو حافز الإيمان العميق، الذي يجعل الرّوح رخيصة في سبيل الله، وبخاصة في مجابهة الرُّوم والفرس، أعظم دولتين في حينه، ولن تكون المادة عوضاً عن الرّوح في مجابهة خطر داهم أكيد وقوم ذوي بأس شديد.

ومن النادر أن نجد إنساناً لا يُحب المال حبّاً جمًّا، ولكن من المستحيل أن نجد إنساناً يبيع روحه بالمال طوعاً لا كرها.

وفي معركة اليرموك الحاسمة، التي كانت في السنة الثالثة عشرة الهجرية، كان ذو الكلاع قائداً لأحد الكراديس، بقيادة خالد بن الوليد، وكان مجموع قوات المسلمين التي اشتبكت بالرّوم والتي نظِّمت كراديس في ستة وثلاثين كُرْدوساً إلى الأربعين[1] كل كردوس في ألف مجاهد، فيكون مجموع المسلمين بين ستة وثلاثين ألفاً إلى أربعين ألفا[1]. وكانوا يؤمِّرون كلّ قائد على قبيلته، إذا كان قادراً على قيادتهم كما ينبغي، لأنّه يعرف رجاله أكثر من غيره، ويعرف أحسن الطُرق

---

(١) الطبري (٣/٣٩٦-٣٩٧).

والأساليب للتّعامل معهم لأنّه منهم، ويعرف كيف يوجِّههم لأداء واجباتهم كاملةً على أحسن وجه.

وشهد ذو الكلاع فتح دمشق، فبعث أبو عُبَيْدة بن الجَرّاح رضي الله عنه ذا الكلاع على رأس قوّة من المسلمين، فكان ردءاً (حاجزاً) بين دمشق وحِمْص، لأن هرقل وقوات الرّوم الضاربة كانت يومئذ في حمص[1]، فحصر المسلمون دمشق، وحرم أهل دمشق في حصارهم من معاونة هرقل لهم، وهكذا فتح المسلمون دمشق، وكان لذي الكلاع ورجاله نصيبهم من الغنائم[2].

لقد كان موقف ذي الكلاع في خطّة فتح دمشق سنة ثلاث عشرة الهجرية بارزاً جداً، فقد حال دون تعاون قوات الرّوم في حمص بقيادة هرقل مع قوات الرُّوم المحاصرة في دمشق، ممّا سهل فتح دمشق على المسلمين. ولو استطاع هرقل بقوّاته الضّاربة معاونة الرّوم في دمشق، لاختلف الموقف العسكريّ تماماً، ولكان فتح دمشق غالي التكاليف على المسلمين في الخسائر الماديّة والمعنوية.

وفي خطّة فتح دمشق والتّعجيل في فتحها، برز دور ذي الكلاع لأوّل مرة قائداً متميزاً في أيام الفتوح.

وشهد ذو الكلاع فتح فِحْل[3]، فلما انتهت معركة فِحْل لصالح المسلمين، انصرف أبو عُبَيْدة ومعه خالد بن الوليد وذو الكلاع ومَنْ معه باتِّجاه حمص، وخلّف شُرَحْبِيل بن حَسَنة في الأُردن، وكان ذلك سنة ثلاث عشرة الهجرية[4] ايضاً.

---

(١) الطبري (٣/٤٣٨).
(٢) الطبري (٣/٤٤٠).
(٣) فحل: اسم موضع بالشام، انظر معجم البلدان (٦/٣٤٠)، وهو في منطقة الأردن.
(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٣/٤٤٢-٤٤٣).

واتّخذ ذو الكلاع على رأس رجاله موضعاً بين دمشق وحِمْص قاعدة متقدِّمة للمسلمين، فنزل أبو عُبَيْدة بن الجرّاح ومَنْ معه من القادة والقوات على ذي الكلاع. وبلغ الخبر هرقل في حمص، فبعث أحد قادته حتى نزل بمرْج دمشق وغربها، وبدأ أبو عُبَيْدة بمرْج الرُّوم، وتعاون معه القادة الآخرون، وأحرزوا في معركة مرج الرُّوم على قوات الرُّوم نصراً ساحقاً، وكبّدوا الرُّوم خسائر فادحة بالأرواح والأموال، وكان ذلك سنة خمس عشرة الهجرية[1].

وكان واجب ذي الكلاع في هذه المرحلة من الفتوح: تكوين قاعدة متقدِّمة يلجأ إليها المسلمون وتحمي ظهورهم، وحرمان قوات الرُّوم في حمص وفي مرج الرُّوم من التعاون بينها على المسلمين، مما أدّى إلى أن تقاتل قوّات الرُّوم منفردة، كل واحدة من تلك القوات مستقلة عن غيرها وغير متعاونة، مما يسّر أمر القضاء عليها منفردة لا مجتمعة، فكان مَثَلُها مَثَل الطّعام يُؤكل بلُقَم منفردة واحدة بعد الأخرى، مما يسهل تناوله دون عناء.

وكان الفضل في ذلك لقيادة ذي الكلاع القادرة.

وسكت المؤرخون عن دور ذي الكلاع في فتوح أرض الشام، ولا بدّ أن يكون له دور قياديّ بارز فيها. وقد سكن حمص بعد فتحها، وكانت له بدمشق حوانيت، وشهد معركة صِفّين بين عليّ بن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان، وكان معاوية قائداً لأهل حمص، وكان على ميمنة جيش معاوية في صِفّين[2].

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٣/٥٩٨-٥٩٩) وابن الأثير (٢/٤٩٠-٤٩١).

(٢) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٠).

ومن المعلوم، أنّ معركة صِفِّين كانت سنة سبع وثلاثين الهجرية، وكان ذو الكلاع على ميمنة معاوية، وكانت تلك الميمنة مؤلفة من أهل حمص وحِمْيَر ومَنْ معهم في أربعة آلاف بينهم عُبَيْد الله بن عمر بن الخطاب. وحملت ميمنة أهل الشام على ميسرة أهل العراق المؤلفة من ربيعة وعليها عبد الله بن العباس، حملةً شديدة بخيلهم ورَجلهم، فتضعضعت ربيعة إلا قليلاً من الأخيار والأبدال[1]. وانصرف أهل الشام ولكنهم لم يمكثوا إلا قليلاً حتى كرّوا، وشدّوا على ربيعة شدّة عظيمة، فثبتت لهم ربيعة وصبروا صبراً حسناً إلا قليلاً من الضُّعفاء والفَشَلَة[2].

واشتد قتال حِمْيَر وربيعة، حتى كثرت بينهم القتلى، وأُصيب ذو الكلاع[3]، فكان قتل ذي الكلاع موضع فخر شاعر أهل العراق[4].

وقد كان ذو الكلاع سمع عمرو بن العاص يقول: «قال رسول الله ﷺ لعمّار بن ياسر: تقتلك الفئة الباغية، وآخر شربة تشربها ضَياح[5] من لَبَن»، فكان ذو الكلاع يقول لعمرو: «ما هذا ويحك يا عمرو؟!»، فيقول عمرو: «إنّه سيرجع إلينا»، فقُتل ذو الكلاع قبل عَمَّار مع معاوية، وأُصيب بعده عَمَّارة مع عَلِيٍّ، فقال عمرو لمعاوية: «ما أدري بقتل أيّهما أنا أشدّ فرحا، بقتل عمّار أو بقتل ذي الكلاع. والله لو بقي ذو الكلاع بعد قتل عمّار، لمال بعامّة أهل الشّام مع عليٍّ»[6].

---

(١) الأبدال: الزُّهَّاد.

(٢) الطبري (٥/٣٤) وانظر ابن الأثير (٣/٣٠٧).

(٣) الطبري (٥/٣٦) وابن الأثير (٣/٣٠٨).

(٤) الطبري (٥/٤٤) وابن الاثير (٣/٣١٤).

(٥) الضياح: الممزوج بالماء من اللّبن.

(٦) ابن الاثير (٣/٣١٠).

وقد ذكر عبد الرحمن بن زياد الأفريقي[1] في كتاب: (أهل صِفّين) فقال: «كانوا عرباً يعرف بعضهم بعضاً في الجاهلية، والتقوا في الإسلام ومعهم تلك الحميّة ونيّة الإسلام، فتصابروا واستحيوا من الفرار، وكانوا إذا تحاجزوا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء، فيستخرجون قتلاهم فيدفنونهم: فلما أصبحوا يوماً، وكان يوم الثلاثاء، خرج الناس إلى مصافهم، وكنت في خيل عليّ، فبينما أنا واقف إذ نادى رجل من أهل الشام: مَنْ يدلّني على أبي نوح الحِمْيري؟ فقالوا: أيّهم تريد؟ فقال: الكَلاَعي. فقال أبو نوح: أنا، فمن أنت؟ فقال: أنا ذو الكَلاع، فَسِر إليّ. فقال أبو نوح: معاذ الله أن أسير إليك، إلا في كتيبة! فقال: سِرْ، ولك ذمّة الله ورسوله وذمّة ذي الكَلاع حتى ترجع، فإنما أريد أن أسألك عن أمر فيكم. وسار كلّ منهما إلى صاحبه، فلما التقيا، قال ذو الكلاع: إنما دعوتك لأحدّثك حديثاً حدّثناه عمرو ابن العاص في إمارة عمر. فقال أبو نوح: وما هو. فقال ذو الكلاع: حدّثنا عمرو أنّ رسول الله ﷺ قال: يلتقي أهل الشّام وأهل العراق، في إحدى اللّتين الحق والهدى ومعها عَمّار بن ياسر. فقال أبو نوح: نعم والله، إن عماراً لمعنا وفينا! فقال: أجاء هو على قتالنا؟ فقال أبو نوح: نعم

---

(١) عبد الرحمن بن زياد الأفريقيّ: أبو خالد، قاض من العلماء، اشتهر بالجرأة وزجر العلماء، ولد، ببرقة، وهو أوّل مولود في الإسلام بأفريقيا، ونشأ بها، وولي قضاء القيروان مرتين، ثمّ رحل إلى بغداد واتّصل بالمنصور قبل أن يليَ الخلافة، وجمعت بينهما جامعة الاشتغال بالعلم، وأحبّه المنصور فكان رفيقه. ولما ولي المنصور الخلافة دعاه إليه، فوعظه الأفريقيّ وحذّره من ارتكاب المظالم وانتقد بعض أعماله، ثم استأذنه بالعودة الى القيروان، فأذن له، ولم يجئه بعد ذلك. ولد سنة ٧٥هـ ومات سنة ١٦١هـ (٦٩٤م-٧٧٨م)، وله عدة مؤلفات في الحديث وغيره، انظر طبقات علماء أفريقيا (٢٧-٣٣) ورياض النفوس (٩٦/١) وتاريخ بغداد (٢١٤/١٠) والأعلام للزركلي (٧٨/٤)، ط٢.

وربّ الكعبة لهو أحدُّ على قتالكم مني، ولوددت أنكم خلق واحد فذبحته »[1].

لقد كانت الدعاية السّائدة في الشام، أنّ عثمان بن عفان رضي الله عنه قُتل مظلوماً، وهذا ما لا يختلف عليه المسلمون في الشام وفي العراق، ولكن الدعاية الشامية تضيف: أنّ قتلة عثمان في صفوف أهل العراق وبحمايتهم، وأن على أهل الشام واجباً هو الأخذ بثأر عثمان من قتلته. وكان ذو الكلاع ممّن اقتنع بهذه الدعاية الشّامية التي ظاهرها الحق وباطنها الباطل، فإذا كان قتلة عثمان في صفوف أهل العراق، فإن أهل العراق يستنكرون قتل عثمان كما يستنكر قتله أهل الشام، ولكن محاسبة قتلة عثمان - وعددهم كبير - يحتاج إلى السّلام لإجراء التحقيق والمحاكمة وإنزال العقاب العادل، ومن المستحيل محاسبة القتلة في الحرب، والسلطة في العراق مشغولة بهذه الحرب ومشاكلها وليست في موقف يتحمّل أن تقاتل في جبهتين: جبهة خارجية على أهل الشّام، وجبهة داخلية على قتلة عثمان ومَنْ يؤيِّدهم من قبائلهم والتي لا تُسلمهم بسهولة ويسر وبخاصة في ظروف حربيّة ومَنْ يؤيِّدهم من غير قبائلهم أيضاً.

ولعلّ موقف ذي الكلاع قبل نشوب القتال بين أهل الشام وأهل العراق، يلقي الضوء على حماسة ذي الكلاع في الأخذ بثأر عثمان بن عفان رضي الله عنه. فلما ظهر معاوية بالشام وبايعوه، دعا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً، وأمره أن يأتي دمشق ويقول لأهلها: « تركتُ عليّاً وقد نَهَدَ[2] إليكم »، فلما وصل إلى دمشق وفعل ما أُمر به،

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٣ - ٢٧٤).

(٢) نهد فلان: نهض ومضى. ونهد لعدوّه أو إلى عدوّه: صمد له وشرع في قتاله.

قام معاوية خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيّها الناس! إنّ علياً قد نَهَد إليكم في أهل العراق، فما الرأي؟»، فقام ذو الكلاع فقال: «عليك الرأي وعلينا الأفعال». وأمره معاوية أن يخطب النّاس ويحرِّضهم على قتال عليّ ومَنْ معه من أهل العراق، فقعد على فرسه، وكان من أعظم أصحاب معاوية خطراً، فقال: «الحمد لله حمداً كثيراً نامياً جزيلاً واضحاً منيراً بكرةً وأصيلاً، أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه، وكفى بالله وكيلاً. ثم إني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، أرسله بالفرقان إماماً وبالهدى ودين الحقّ حين ظهرت المعاصي ودرست الطّاعة وامتلأت الأرض جوراً وضلالة واضطرمت الدنيا كلّها نيراناً وفتنة،، وودّ عدوّ الله إبليس أن يكون قد عبد في أكنافها واستولى على جميع أهلها، فكان الذي أطفأ نيرانها ونزع أوبارها وأوهن به قوى إبليس وآيِهِ مما كان قد طمع من ظفره بهم رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله، فأظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون، صلى الله على محمد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته. وقد كان. فيما قضى الله أن ضمّ بيننا وبين أهل ديننا مَنْ جعلنا نصفين، وإنّا لنعلم أن منهم قوماً كانت لهم مع رسول الله سابقة ذات شان وخطر عظيم، ولكني قلّبت هذا الأمر ظهراً وبطناً، فلم أرّ أن يسعنا أن يُهدر دم ابن عفّان صهر نبينا ومجهِّز جيش العُسرة واللّاحق في مسجد رسول الله بيننا، وباني سقاية المسلمين، والمبايع له رسول الله بيده اليُمنى على اليُسرى، واختصّه رسول الله بكريمتيه: أُم كلثوم ورُقَيَّة، فإن كان أذنب ذنباً فقد أذنبَ مَنْ هو خيرٌ منه، فقد قال عزّ من قائل: ﴿ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾[1]، وقتل موسى نفساً فاستغفر الله

---

(١) الآية الكريمة من سورة الفتح (٤٨: ٢).

فغفر له، وقد أذنب نوح ثمَّ استغفر الله فغفر له، وأذنب أبوكم آدم ثم استغفر الله فغفر له، فلم يَعْرَ أحد من الذنوب. وإنا لنعلم أنه كانت لابن أبي طالب سابقة حسنة مع رسول الله، فإن لم يكن مالأ على قتل عثمان فقد خذله، وإنه لأخوه في دينه وابن عمِّه وسلفه وابن عمَّته، وقد أقبلوا من عراقهم حتى نزلوا شامكم وبلادكم وبيضتكم، وإنما عامتهم بين قاتل وخاذل، فاستعينوا بالله واصبروا، فقد ابتُليتم أيتُها الأمّة. والله لقد رأيت في منامي في ليلتي هذه لكأني وأهل العراق قد اعْتَوْرنا[1] مصحفاً نضربه بأسيافنا، ونحن في ذلك نادي: ويْحَكم الله، مع أنَّا والله ما نحن بمفارقي العَرْصَة[2] حتى نموت. عليكم بتقوى الله، ولتكن النِّيات لله، فإني سمعت عمر بن الخطَّاب يقول: «إنما يُبْعث المقتتلون على النيَّات، أَفْرَغَ الله علينا الصّبر، وأعدّ لنا ولكم النّصر، وكان لكم ولياً وناصراً وحافظاً في كلّ أمْر، واستغفر الله لي ولكم»[3].

ولم يُمالىء علي بن أبي طالب رضي الله عنه على قتل عثمان رضي الله عنه ولا خذله، فقد بذل قصارى جهده في وضع حدّ للفتنة التي راح ضحيّتها عثمان، ودافع عن عثمان دفاعاً عظيماً، ولكن الأحداث كانت أقوى منه، وكان تيار الغاضبين على عثمان جارفاً، فتغلبت الأحداث وجرف التيَّار، وكان ذلك قدراً مقدوراً.

ولكن خطاب ذي الكلاع، يظهر الاتِّجاه الدعائي السّائد يومئذ في بلاد الشام، والذي آمن به ذو الكلاع وغيره من أهل الشام، ويبدو أنّ ذا الكلاع غيّر رأيه، بعد لقائه بأهل العراق، واطلاعه على حقيقتهم

---

(١) اعتور الشيء: تداوله. واعتوروا الشيء تداولوه فيما بينهم.
(٢) العرصَة: ساحة الدّار، والبقعة الواسعة بين الدّور.
(٣) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٢ - ٢٧٣).

التي تثبت أنهم ليسوا أقلّ من أهل الشام غضباً لعثمان وحزناً على مقتله ومطالبة بثأره، وبعد تأكده من وجود عمّار بن ياسر في صفوف العراقيين يقاتل الشّاميين، وكاد يتخلى عن هذه الفتنة الكبرى ويحل مَنْ يطيعه على التخلي عنها، لولا أن قُتل في صفين قبل أن يُقتل عمّار، لذلك قال معاوية حين بلغه قتل ذي الكلاع: «لأنا أشدَّ فرحاً بقتل ذي الكلاع مني بفتح مصر لو افتتحتها»، وذلك لأنه كان يعرض له في أشياء كان يأمر بها[1]، وهذا يدل على قوة شخصيته، وأنه كان ذا رأي مستقل ومبادرة، وكان مبتدعاً ولا مُتّبعاً، ولم يكن إمّعةً إذا الريح مالت مال حيث تميل.

وقد صحّ عند ذي الكلاع بعد لقائه مع العراقيين في صفين، أن عَلِيًّا بريء من دم عثمان، ولما قُتل عمّار بن ياسر قال معاوية: «لو كان ذو الكلاع حيّاً، لمال بنصف الناس إلى عَلِيّ»[2]، مما يدلّ على مبلغ ثقته بعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

والذي أراه أن ذا الكلاع اجتهد فأخطأ، وإنما الأعمال بالنيّات.

وكان في الجاهلية ذا سلطان عظيم، فقد ذكر أحدهم أنّ أهله أرسلوه بهديّة إلى ذي الكلاع في الجاهلية، فلبث على بابه حولاً لا يصل إليه، فلما أشرف ذات يوم من القصر، لم يبق أحد حول القصر إلاّ خرّ له ساجداً، ثم أمر بالهديّة فقُبلت. ثم رآه الذي ذكر هذا الحديث بعدُ في الإسلام، وقد اشترى لحماً بدرهم، فسمّطه على فرسه وهو يقول:

أُفٌّ للدنيا إذا كانت كذا ... أنا منها كلّ يوم في أذى
ولقد كنت إذا ما قيل: مَنْ ... أنعم الناس معاشاً؟ قيل: ذا!
ثم بُدِّلت بعيشٍ شقوة ... حبذا هذا شقاءً حبّذا

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٤).
(٢) أسد الغابة (٢/١٤٣).

وبمناسبة ذكر شيء من شعره، فإنه يُروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه كثرة سرف بعض الناس في الخمر بالشام وإقامة الحدود عليهم، أمر أن يُطبخ كلّ عصير بالشام حتى يذهب ثلثاه، فقال ذو الكلاع:

صبرت ولم أجْزع وقد مات إخوتي ... ولستُ من الصَّهباء يوماً بصابر
رماها أمير المؤمنين بحتفها ... فخُلّانها يبكون حول المعاصِر
فلا تجلدوهم واجلدوها فإنها ... هي العيش للباقي ومَنْ في المقابر

وكان يدخل مكّة رجال متعمّمون في جمالهم مخافة أن يُفْتتن بهم، منهم ذو الكلاع وامرؤ القيس بن حجر الكِنْدِي وجرير بن عبد الله البجليّ، فقد كان ذو الكلاع جسيماً وسيماً، وقد أعتق عدداً عظيماً من الرّقيق[1].

وحين قصد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان معه أربعة آلاف من الرّقيق، فسأله عمر في بيعهم، فأصبح وقد أعتقهم، فسأله عمر عن ذلك، فقال: «إني أذنبت ذنباً عظيماً، فعسى أن يكون ذلك كفّارة، وذلك أني تواريت مرة ثم أشرفت فسجد لي مائة ألف». وكان عند ذي الكلاع اثنا عشر ألف بيت من المسلمين، فبعث إليه عمر فقال: «بِعْنَا هؤلاء نستعين بهم على عدوّ المسلمين»، فقال: «لا، هم أحرار»، فأعتقهم كلّهم في ساعة واحدة[2].

ولذي الكلاع مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخبار، وقد روى عن عمر بن الخطّاب وعمرو بن العاص وعوف بن مالك، وروى عنه أزهر ابن سعيد وزامِل الجُذامِيّ وأبو نوح الحمْيَريّ، وروى عن عمر بن الخطّاب أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنما يُبْعث المقتتلون على النيّات**»[3].

---

(1) أنظر التفاصيل في: تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٠-٢٧٤).
(2) الإصابة (٢/١٨٣) والعِبَر (١/٤٠).
(3) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٠).

لقد كان من أعظم أصحاب معاوية خطراً لشرفه ودينه[1]، وقبل ذلك كان سيِّداً من سادات العرب في الجاهلية، وبقي سيِّداً من سادات العرب والمسلمين في الإسلام.

لقد كان ذو الكلاع رجلاً حقاً.

ب. وبقدر ما كانت أخبار ذي الكلاع كثيرة دسمة، كانت أخبار ذي عمرو قليلة هزيلة، فكلاهما عُرفا بعد إسلامهما، فهما ابنا الإسلام، عُرِفا بعد اعتناق الإسلام لا قبله، وقد كان في اليمن كثير من الأذواء والأقيال في الجاهلية، ماتت أخبار مَنْ لم يدرك الإسلام منهم، والذين أدركوا الإسلام وبقوا على دينهم ولم يُسلموا، ماتت أخبارهم معهم، فلا نعرف من أخبارهم إلاّ نادراً، أما الذين أدركوا الإسلام وأسلموا وحسن إسلامهم، فقد بقي ذكرهم حتى اليوم، ولكن التفاوت في تفاصيل أخبارهم كبير جداً، كما هو الحال في أخبار ذي الكلاع وذي عمرو، فأخبار ذي الكلاع وافية، وأخبار ذي عمرو قليلة غير وافية.

ويبدو أن ذا عمرو قضى بعد إسلامه بعد مدّة قصيرة أو طويلة، فلا أحد يعرف متى انتقل إلى رحمة الله، ولا أحد يعرف أسباب قلّة أخباره في المصادر المتيسِّرة، وأرجِّح أنّه توفي مبكراً، فانقطعت أخباره.

وهذه هي أخباره في تلك المصادر، فقد بعث النبي ﷺ جرير بن عبد الله البَجَليّ إلى اليمن لدعوة ذي الكلاع وذي عمرو إلى الإسلام، فأسلما، وقال ذو عمرو لجرير: «هل شعرتَ أنّ من بادىء كرامة الله على العبد أن يُحسن صورته!»[3]، وكان جرير جميل الصورة، وكان

---

(١) العبر (٣٩/١).

(٢) تهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٥).

(٣) البداية والنهاية (٥٥/٨).

عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يقول: «جرير يوسف هذه الأمة»، لجماله وكماله وحسن فِعاله[1]، ورآه عبد الملك بن عُمَيْر فقال: «رأيت جريراً كأن وجهه شقّة قمر»[2]، وكان أحد المتعممين بمكة مخافة النساء على أنفسهم من جمالهم[3]، فقد كان يدخل مكّة رجال متعمّمون من جمالهم مخافة أن يُفتتن بهم، منهم جرير بن عبد الله البَجَليّ[4].

وبعد إسلام ذي عمرو، أقبل وصاحبه ذو الكلاع مع جرير للقاء النبي ﷺ في الدينة المنوّرة، فصادفهم في طريقهم من اليمن إلى المدينة ركْبٌ قام من المدينة، أخبرهم أنَّ رسول الله ﷺ قُبِض واسْتُخلِف أبو بكر الصِدِّيق رضي الله عنه، فقالا: ذو الكلاع، وذو عمرو لجرير: «أخبر صاحبك أنّا سنعود إن شاء الله تعالى»، فقال أبو بكر الصِدِّيق لجرير، بعد وصول جرير إلى المدينة المنورة: «أفلا جئت بهم!!»[5].

ولما علم ذو عمرو بتولّي أبي بكر الصِّديق الخلافة بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى قال لجرير: «يا جرير، إنّ بك كرامة، وإني مخبرك خبرا، إنكم معاشر العرب، لن تزالوا بخيرٍ ما دمتم إذا هلك أمير أَمَّرْتُم آخر، فإذا كان السّيف كانوا ملوكاً يغضبون غضب الملوك، ويرضون رضاء الملوك»[6].

ويريد، أنّ الخليفة الذي يختاره المسلمون بأنفسهم منهم، لا بد أن يكون خيراً صالحاً قادراً ذا كفاية متميِّزة يفيد المسلمين ولا يضرّهم، فلا

---

(١) البدء والتاريخ (١٠٣/٥)، وانظر تهذيب الأسماء واللّغات (١٤٧/١).
(٢) البداية والنهاية (٥٦/٧).
(٣) المحبّر (٢٣٢).
(٤) تهذيب ابن عساكر (٢٧١/٥).
(٥) تهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٥)، وفيه: «أفلا جئت بها!!»، وانظر الإصابة (١٨٢/٢).
(٦) تهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٥) وانظر أسد الغابة (١٤٢/٢).

يزالون بخير ما دمتم أنتم الذين تختارون. أما إذا أصبحت الخلافة غِلاباً تؤخذ بالسيف وتكون للقويّ بقوته لا بكفايته، فإنّها تصبح ملكية يتولاه ملوك لا خلفاء، والملوك يغضبون غضب الملوك، ويرضون رضاء الملوك، تبعاً لأطماعهم وأهوائهم ومصالحهم الشخصية.

واختيار المسلمين لخليفتهم قضيّة حضارية متقدّمة، لا عهد للعرب بها من قبل، فقد كانت السلطة تكون بالوراثة تبعاً للحسب والنَّسب أو بالقوّة القاهرة، وما كان والد أبي بكر سيِّداً من سادات قريش ليخلفه أبو بكر في سلطته، ولا تولّى أبو بكر بالقوّة القاهرة، بل تولّى بسابقته وكفايته وخدمته للإسلام والمسلمين واختيار المسلمين له من بين صفوة المسلمين.

ولكن اكتشاف ذي عمرو هذه الظاهرة في تولية الخليفة، دليل على رجاحة عقله، وبُعد نظره، وتمتّعه بالذكاء الخارق اللّماح.

وهناك ما ينمّ على أن ذا الكلاع وذا عمرو كانا من أهل الكتاب، فقد ذُكر أن ذا الكلاع كان ابن عمّ كعب الأحبار[1] الذي كان من أهل الكتاب، كما ذُكر أنّ ذا عمرو قال لجرير: «إنّ صاحبك الذي جئت من عنده إن كان نبياً فقد مات اليوم»[2]، كأنه كان من الذين درسوا الكتب المقدّسة واطّلع على ما فيها من تَنَبُّوءات، أو أنّه اطّلع على نعي النبي ﷺ من الرُّكبان قبل أن يطلع عليه جرير وذو الكلاع.

وقد بعث النبي ﷺ إلى ذي عمرو وذي الكَلاَع في قتل الأسود العَنْسي مع جرير[3]، فنهض بواجبه، وثبت على إسلامه، ولم يُبَدِّل ولم يُغَيِّر، بل قاتل المرتدين مع المسلمين الذي ثبتوا على دينهم ولم يرتدّوا.

---

(١) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٦٩).
(٢) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٠) وأسد الغابة (٢/١٤٢) والإصابة (٢/١٨٢).
(٣) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٧٠).

لقد كان ذو عمرو رجلاً من أهل اليمن[1]، ولكنه كان أحد الأذواء المتنفذين في اليمن وذا مكـانة مرموقة في بلاده وبين قومه، لذلك بعث إليه النبي ﷺ سفيراً لدعوته إلى الإسلام ورسولاً لقتال المرتدين، فأدى واجبه كما ينبغي، ولا رواية له ولا رؤية، فهو من التابعين لا من الصّحابة عليهم رضوان الله.

٢. السَّفارة النبويَّة:

بعث رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البَجَلِيّ إلى ذي الكَلاَع وذي عمرو باليمن يدعوهما إلى الإِسلام، فأسلما، وأسلمت ضُرَيْبَة بنت أَبْرَهَة ابن الصُبَّاح امرأة ذي الكَلاَع[2].

وكان رسول الله ﷺ، قد كتب إلى ذي الكلاع كتاباً مع جرير[3]، ولم يُرْوَ نصّ الكتاب[4].

وما يقال عن كتاب ذي الكلاع، يقال عن كتاب ذي عمرو، ولم يُرْوَ نصّ الكتاب، ولا نصّ في المصادر المتيسِّرة على إرسال الكتاب النبوي إلى ذي عمرو، كالنّص على إرسال الكتاب النبوي إلى ذي الكلاع، ولكن جرير بن عبد الله البَجَلِيّ بُعِثَ إلى ذي الكلاع وذي عمرو، فإذا لم يُوَجّه كتاب نبوي خاص إلى ذي عمرو، فمن المعقول أنّ الكتاب النبوي موجّه إلى الرجلين في آن واحد، أي أن الكتاب النبويّ الموجه إلى ذي الكلاع، موجّه إلى ذي عمرو أيضاً.

وكان ذو عمرو يهودياً، كما كان ذو الكلاع يهودياً أيضاً، لأنه ابن عمّ كعب الأحبار الذي كان يهودياً أيضاً.

---

(١) أسد الغابة (١٤٢/٢).

(٢) طبقات ابن سعد (٢٦٥/١ - ٢٦٦).

(٣) الاشتقاق لابن دريد (٣٠٨).

(٤) مجموعة الوثائق السياسية (٢٥٣) في الوثيقة (٢٤٥).

فمتى اتّصل جرير بن عبد الله البَجَليّ حاملاً الكتاب النّبوي إلى ذي الكلاع وذي عمرو باليمن؟

لا نصّ حول توقيت هذا الاتّصال، ويمكن استنتاج هذا التّوقيت، وقد اختلفوا في موعد إسلام جرير، فهناك مَنْ يذكر أنّه أسلم قبل أربعين يوماً من وفاة النبي ﷺ[1]، وهذا خطأ بدون شك، لما ثبت في الصّحيحين: البخاري ومُسلم، أنَّ النبي ﷺ قال الجرير: «استنصِتِ الناس»، في حجّة الوَداع، وذلك قبل التحاق النبي ﷺ بالرّفيق الأعلى بأكثر من ثمانين يوماً[2].

وقد جزم الواقدي بأن جريراً وفد على النبي ﷺ في شهر رمضان من سنة عشر الهجريّة، وهذا خطأ أيضاً، لأن جريراً يروي: «أنّه سمع الرسول ﷺ ينعي النجّاشي»، ملك الحبشة، وهذا يدلّ على أن إسلام جرير كان قبل سنة عشر الهجرية[3]، لأن النّجاشي مات قبل ذلك[4].

والصّواب، هو أنّ جريراً أسلم سنة تسع الهجريّة، وهي سنة الوفود[5]، أو عام الوفود، كما هو معلوم.

وقد كاتب النبى ﷺ أهل اليمن سنة تسع الهجرية[6]، ولم يكاتبهم قبلها، وقصد اليمن المهاجر بن أبي أُميّة المخزومي في نحو شهر شعبان من

---

(١) أسد الغابة (١/٢٧٩) والاستيعاب (١/٢٣٧).

(٢) الإصابة (١/٢٤٢).

(٣) الإصابة (١/٢٤٢).

(٤) انظر بحث: إسلام النجاشي في: سفراء النبي ﷺ.

(٥) فتح الباري بشرح البخاري (٧/٩٩)، وفي طبقات ابن سعد (١/٣٢٧) يذكر أنه وفد على النبي ﷺ سنة عشر الهجريّة، مع وفد بجيلة، وانظر أيضاً: طبقات ابن سعد (٦/٢٢)، ويومها كانت بجيلة متفرقة ولم تكن مجتمعة، والوفد الذي جاء المدينة يمثل طائفة منها فحسب.

(٦) أسد الغابة (٣/٣٦٨).

السنة التَّاسعة الهجريّة، وقدم وفد الحارث بن عبدكُلال وغيره من الأقيال المدينة بإسلامهم في شهر رمضان من السنة التاسعة الهجريّة[١]، وبعث النبيﷺ مُعَاذ بن جَبَل بعد رمضان من سنة تسع الهجرية: في شوال أو ذي القعدة من السنة التاسعة الهجرية.

فمن المعقول أنّ جرير بن عبد الله البَجَليّ قصد اليمن في سفارته إلى ذي الكُلاع وذي عمرو في شوال أو ذي القعدة من سنة تسع الهجرية، كما فعل مُعَاذ بن جبل،وكان حريّاً بجرير أن يُعين مُعاذاً ومَنْ معه في مهمة الدّعوة إلى الإسلام، لأنه يمنّي أعرف بأهل اليمن من غيره الحجازيين.

وما دام جرير قد شهد حجّة الوداع مع النبيﷺ، فمن الواضح أنّه عاد من اليمن ليحمل إلى النبيﷺ أخبار ذي الكُلاع وذي عمرو ومَنْ أسلم معهما، وقد عاد من اليمن إلى المدينة قبل حجّة الوداع التي كانت سنة عشر الهجرية[٢] كما هو معروف.

ولما عاد النبيﷺ من مكة بعد الحجّ، مرض من السفر غير مرض موته، فبلغ ذلك الأسود العَنْسِيّ، فادّعى النّبوّة، فبعث النبيﷺ من جملة مَنْ بعث إلى اليمن جرير بن عبد الله البَجَليّ إلى ذي الكلاع وذي ظُلَيم[٣] في التعاون على الأسود العَنْسِيّ[٤]، فأيّد المسلمين وبذل لهم النصر ذو الكلاع وذو ظُلَيم[٥]، وقُتل الأسود. فكتب المسلمون إلى النبيﷺ بخبر مقتل الأسود، وذلك في حياة النبيﷺ[٦].

---

(١) طبقات ابن سعد (٣٥٦/١) وسيرة ابن هشام (٢٥٨/٤) والطبري (١٢٠/٣).

(٢) الطبري (١٤٨/٣) وابن الأثير (٣٠٢/٢).

(٣) أنظر سيرته في: أسد الغابة (١٤٢/٢) والإصابة (٦٧/٢) في سيرة: حوشب الذي كان اسمه، ذات الرقم (٢٠١٤).

(٤) الطبري (١٨٧/٣).

(٥) ابن الأثير (٣٣٨/٢).

(٦) ابن الأثير (٣٤١/٢).

وعاد جرير من اليمن إلى المدينة ليبسط للنبي ﷺ الوضع الرّاهن في اليمن بعد القضاء على فتنة الأسود والقضاء عليه، وكان معه ذو الكلاع وذو عمرو، ولكنه لمّا علم بالتحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، وهو في طريقه إلى المدينة المنوّرة، فعاد ذو الكلاع وذو عمرو إلى اليمن بعد أن علما أن النبي ﷺ قد قُبض، واستمر جرير في طريق عودته إلى المدينة المنورة، حيث أخبر أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه بارتداد مَنْ ارتدّ في اليمن وثبات من ثبت.

وردّ أبو بكر جريراً إلى بَجِيْلَة قومه، وأمره أن يستنفر من قومه من ثبت على الإسلام، ويقاتل بهم مَنْ ارتدّ عن الإسلام، وأن يأتي خَثْعَم، فيقال من خرج غضباً للصّنم الذي يدعى: ذا الخَلَصَة[1]، فخرج جرير وفعل ما أمره به أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، فلم يقم له أحدٌ إلا نفر يسير، فقتلهم وتبعهم[2].

وتوجه جرير إلى نَجْران[3]، فأقام بها انتظاراً لأمر أبي بكر الصدِّيق[4] رضي الله عنه، في قتال المرتدِّين والتعاون مع مَنْ يقاتلهم من المسلمين.

---

(١) ذو الخلصة: وهي من الأصنام، بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التاج، وكانت بتَبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليالٍ من مكة، وهي بلدة مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن، وبين تبالة ومكة اثنان وخمسون فرسخاً، أي ما يعادل سبعة أيام أو ثمانية أيام، وبينها وبين الطائف ستة أيام (انظر: معجم البلدان (٣٥٧/٢ - ٣٥٨) وكان سدنة ذي الخلصة بنو أُمامة من بَاهِلة بن أعصُر، وكانت تُعظِّمها وتهدي إليها خَثْعَم وبَجِيْلة وأَزْد السَّراة، وهم أزد شنوءة ومن قاربهم من العرب من هوازن، انظر كتاب الأصنام (٣٤-٣٥)، وكان النبي ﷺ قد بعث جريراً لهدمها، فهدمها وحرقها، انظر سيرة جرير بن عبد الله البجلي.

(٢) الطبري (٣٢٢/٣) وابن الأثير (٣٧٥/٢).

(٣) نجران: من مخاليف اليمن (محافظات)، من ناحية مكة المكرّمة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٨/٨ - ٢٦٥).

(٤) الطبري (٣٢٢/٣)

ولما فصل المهاجر بن أبي أُميّة المخزوميّ من عند أبي بكر الصديق في المدينة المنوّرة، وكان آخر مَنْ فَصَل، متوجِّهاً لحرب المرتدين في اليمن، اتَّخذ مكّة المكرَّمة طريقاً، ثم مرَّ بالطَّائف، ثم مضى قُدُماً، حتى إذا حاذى جريراً في نَجْران، ضَمَّه إليه[1]، وبَجِيلَة مع جرير[2]، فقاتل جرير ورجاله أهل الردَّة تحت لواء المهاجر بن أبي أُمَيَّة، فسار المهاجر ومعه جرير من نصر إلى نصر حتى نزل صَنْعاء، وكتب إلى أبي بكر بذلك[3].

لقد أدى جرير في سفارته داعياً للإسلام خير أداء، وثبت على الإسلام بالرّغم من ارتداد معظم بَجِيْلَة قومه، فكان ثباته ذا أثر عظيم في إعادة بجيلة كلّها إلى الإسلام، فأصبحوا قوة ضاربة على المرتدِّين مع المسلمين، فكان ثبات جرير وانضمام بجيلة إلى المسلمين، من العوامل المهمة لانتصار المسلمين السّريع الحاسم على المرتدين من أهل اليمن. كما كان لجهاد جرير المرتدين في اليمن في سمات قيادته المتميّزة أعظم الأثر في انتصار الفئة القليلة من المسلمين، على الفئة الكثيرة من المرتدين.

ولما عادت الوحدة إلى ربوع اليمن السّعيد ضمن الدولة الإسلامية الناشئة تحت لواء الإسلام، عاد جرير إلى المدينة المنوّرة، ليستأنف جهاده في سوح الجهاد الأخرى[4].

لقد أحسن جرير في واجبه سفيراً وقائداً ومجاهداً، إحساناً عظيماً.

---

(١) الطبري (٣٢٩/٣).

(٢) ابن الأثير (٣٧٧/٢)، والصواب: قسم من بجيلة، لأنها كانت متفرِّقة يومئذٍ، فجمعها عمر بن الخطاب لجرير في أيامه.

(٣) انظر التفاصيل (٣٢٨/٢ - ٣٣٠) وابن الأثير (٣٧٥/٢ - ٣٧٨).

(٤) انظر سيرته في كتاب: سفراء النبيﷺ، وفي قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٦ - ٣٧١) - ط٢ - بيروت - ١٣٩٣هـ.

إلى أَذْوَاء[1] اليَمَن وأَقْيالها[2]

١. الأذواء والأقيال:

أ. الحارث بن عبد كُلال:

انظر سيرته في البحث الخاص بالسِّفارة النبويَّة إلى الحارث بن عبد كُلال الحِمْيَري، الوارد في هذه الدِّراسة.

ب. نُعَيْم بن عبد كُلال[3]:

أخو الحارث بن عَبْد كلال، قَيْل من أقيال اليمن، أسلم على يد المُهاجر بن أبي أُمَيَّة، هو وإخوته، فبعثوا بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، فوصل رسولهم ومعه كتاب منهم إلى النبي ﷺ مقدمه من غزوة تَبوك،

---

(١) الأذواء: جمع ذِيْ، والذو: هو الأمير صاحب الدويلة الصغيرة في اليمن قبل الإسلام. والأذواء هو اصطلاح في التاريخ اليمنيّ قبل الإسلام، يُقصد به الأُمراء أصحاب الدويلات الصّغرى التي قامت باليمن إلى جانب الدولة اليمنيّة الكبرى كدولة سَبَأ وحِمْيَر، والأذواء، كالأقيال وهم أصحاب الإقطاعات أو الدويلات الصغيرة. انظر القاموس الإسلامي (٢/٤٤٤ - ٤٤٥).

(٢) الأقيال: جمع قَيْل، وهو الملك النَّافذ القول والأمر، انظر لسان العرب (٤/٩٤)، والأقيال: ملوك باليمن دون الملك الأعظم، ويكون القيل ملكاً على قومه ومخلافه ومحجره.

(٣) انظر سيرته في: أسد الغابة (٣٩٢/١) و (٢٠٩/٢) و (٣٣/٥) و (٢٩/٥) والإصابة (٢٦٧/٦) والطبري (١٢٠/٣).

وهم: الحارث بن عبد كُلال، ونُعَيْم بن عبدُ كُلال، والنُّعْمان قَيْل ذي رُعَيْن وهَمْدان ومَعَافِر.

ولا نعرف عنه شيئاً قبل إسلامه، واخباره بعد إسلامه قليلة جداً.

جـ. النعمان بن عَبْد كُلاَل[١]:

لا تختلف سيرته عن سيرة أخيه نُعَيْم بموجب المصادر المعتمدة المتيسِّرة لدينا في الوقت الحاضر.

د. شُرَحْبِيْل بن عبد كُلال[٢]:

ذُكِرَ في حديث عمرو بن حَزْم الأنصاري[٣] الذي مرّ ذكره، فقد كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن كتاباً، وبعث به مع عمرو بن حزم إلى شرحبيل بن عبد كُلال ونُعيم بن عبد كُلال، وكان قَيْلاً من اليمن.

وقد ورد في طبقات ابن سعد[٤]، أن النبي ﷺ بعث كتاباً إلى الحارثو (مسروح) ونُعَيْم بن عبد كلال، وهذا الكتاب بُعث قبل الكتاب الذي حمله عمرو بن حَزْم، وقد ذكرنا الكتاب الوارد في طبقات ابن سعد في سفارة: المهاجر بن أبي أُمَيَّة إلى اليمن.

ولم نجد في المصادر المعتمدة اسماً لمسروح بن عبد كُلال، وأرجح أنَّ النُسَّاخ أخطأوا في نقل الاسم، فقلبوه من شُرَحْبِيْل بن عبد كلال إلى مسروح بن عبد كلال، إذ لا وجود لمسروح بين أبناء عبد كلال،

---

(١) انظر سيرته في: أسد الغابة (٢٩/٥) و (٣٩٢/٢) و (٢٠٩/٢)، والإصابة (٢٦٧/٦) والطبري (١٢٠/٣).

(٢) انظر سيرته في: أسد الغابة (٣٩٢/٢) والإصابة (٢٢٣/٣) و (٢٩٦/١) وانظر سيرة ابن هشام (٢٧٩/٤) وأسد الغابة (٤٢٢/٢) وتهذيب الأسماء واللغات (١١٦/٢).

(٣) أنظر سيرته في كتاب: سفراء النبي ﷺ.

(٤) طبقات ابن سعد (٢٨٢/١ - ٢٨٣).

والموجود بينهم هو شرحبيل التي ذكرته المصادر كافة التي نقلت رسالة عمرو بن حزم، ولم تذكر مسروحاً، كما أنَّ شرحبيل بن عبد كلال مذكور في المصادر، ولا ذكر لمسروح في تلك المصادر.

هـ. شُرَيْح بن عبد كُلال:

لا ذكر له في المصادر المتيسِّرة لدينا، ولا ذكر له في سِيَر إخوته أيضاً.

و. عَرِيْب بن عبد كلال[1]:

كتب إليه النبي ﷺ وإلى أخيه الحارث بن عبد كُلال، وكان إليهما أمر حِمْيَر.

ولا أخبار عنه قبل إسلامه، ولا بعد إسلامه أيضاً، ويبدو أنه ذكر بمناسبة إسلامه، ولو لم يُسْلِم لما كان له ذكر.

ز. فَهْد الحِمْيَري[2]:

ذُكر فيمن كتب إليه النبي ﷺ من أقيال أهل اليمن ممن أسلم، وفيه يقول الشاعر:

ألا إنّ خير الناس كلّهم فَهْد وعبدُ كُلال خير سائرهم بَعْدُ

وأخباره قبل إسلامه، وبعد إسلامه، غير متيسِّرة، ولولا إسلامه لما كان له ذكر في الكتب.

---

(١) أنظر سيرته في: أسد الغابة (٤٠٧/٣) والإصابة (١٠٦/٥)

(٢) أنظر سيرته في: أسد الغابة (٢١٩/٥).

ح. زُرْعَة بن ذي يَزَن[1]:

هو زُرْعَة بن سيف بن ذي يَزَن، قَيْل من أقيال اليمن، كتب إليه النبي ﷺ، وقدم على رسول ﷺ كتاب ملوك اليمن مقدمه من تَبوك ورسولهم إليه بإسلامهم، وبعث زُرْعَة بإسلامه ومفارقتهم الشِّرك، فكتب إليهم النبي ﷺ كتاباً مع مُعاذ بن جَبَل، سيرد ذكره وشيكا.

ط. عبد العزيز بن ذي يَزَن[2]:

هو عبد العزيز بن سيف بن ذي يزن الحَمْيَري أخو زُرْعَة بن سيف ابن ذي يزَن، كتب إليه النبي ﷺ، وقدم على النبي ﷺ واسمه: عزيز، فقال رسول الله ﷺ: « **ما اسمك؟** »، قال: « عزيز »، قال: « **بل أنت عبد العزيز** »، فدفع للنبي ﷺ حُلَلاً، فدفع النبي ﷺ لعمر بن الخطاب منها حُلَّة، فَقُوِّمت عشرين بعيرا.

ولا معلومات إضافية عنه قبل إسلامه وبعد إسلامه أيضاً.

ي. عُمَيْر ذو مَرَّان[3]:

هو عُمَيْر ذو مَرَّان بن أَفْلَح بن شَراحيل بن ربيعة وهو ناعِظ بن مَرْثَد الهَمْدانيّ النَّاعِظيّ جدّ مجالد بن سعيد المحدِّث المشهور كان مسلماً في عهد النبي ﷺ وكاتبه، فقد جاءه الكتاب النبوي مع مُعاذ بن جبل رضي الله عنه الذي سيرد نصّه في سفارة معاذ بعد قليل.

ولا نعرف عنه شيئاً قبل إسلامه، كما لا نعرف عنه شيئاً بعد إسلامه.

---

(١) انظر سيرته في: أسد الغابة (٢٠٣/٢) والإصابة (٤٠/٣)، وانظر الطبري (١٢٠/٣ - ١٢١).

(٢) أسد الغابة (٣٢٩/٣) والإصابة (١٨٩/٤).

(٣) الإصابة (١٢٣/٥).

ك. مالك بن مُرَارَة الرَّهَاوِيّ[1]:

وقيل: مالك بن مُرَّة، وقيل: ابن فُزَارَة، والصَّحيح: مالك بن مُرَارة، قدم إلى النبي ﷺ من اليمن إلى المدينة المنورة بإسلام زُرْعَة بن سيف بن ذي يَزَن وإسلام ملوك اليمن: الحارث بن عبد كُلال، ونُعَيْم بن عبد كلال، والنُّعمان بن عبد كُلال، وكان زُرْعَة هو الذي بعثه إلى النبي ﷺ بإسلامه وإسلام ملوك اليمن من أبناء عبد كُلال ومفارقتهم الشِّرك وأهله. وقد كتب النبي ﷺ إلى أهل اليمن كتاباً يخبرهم فيه بشرائع الإسلام وفرائض الصّدقة والمواشي والأموال، ويوصيهم بأصحابه ورسله خيراً، وكان رسوله إليهم مُعاذ بن جَبَل ومالك بن مُرارة.

وروى مالك بن مُرارة، أن رسول ﷺ قال: «**لا يدخل الجنّة أحد في قلبه مثقال حبّة من خردل من كِبْرٍ، ولا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبّة من إيمان**».. الحديث أخرجه الثلاثة.

ولا نعرف عنه شيئاً آخر.

٢. السَّفارة النبويَّة:

أ. في شهر رمضان المبارك من السنة التَّاسعة الهجريّة، قدم على رسول الله ﷺ كتاب ملوك اليمن مقدمه من غزوة تَبوك، وحمل كتاب ملوك حَمْيَر بإسلامهم إلى النبي ﷺ: مالِك بن مُرارة الرَّهاوي، وهؤلاء الملوك الذين أسلموا هم: الحارث بن عبد كُلال، ونُعَيْم بن عبد كُلال،

---

(١) أسد الغابة (٢٩٣/٤) والإصابة (٣٣/٦ - ٣٤)، وانظر طبقات ابن سعد (٣٥٦/١) وسيرة ابن هشام (٢٥٨/٤) والطبري (١٢٠/٣ - ١٢١) واليعقوبي (٨٧/٢) وإمتاع الأسماع للمقريزي (٤٩٥/١).

والنُّعمان قَيْل ذي رُعَيْن[1] وهَمْدان[2] ومعافِر[3]، كما بعث زُرْعَة ذو يَزَن إلى النبي ﷺ مع مالك بن مُرارة الرَّهَاويّ أيضاً بإسلامه وإسلام ملوك اليمن من أبناء عبد كُلال ومَن يلوذ به وبهم من الأذواء والأقيال وغيرهم من الناس، ومفارقتهم الشِّرك وأهله[4].

وقد كتب النبي ﷺ إلى أهل اليمن كتاباً يخبرهم فيه بشرائع الإسلام وفرائض الصَّدقة والمواشي والأموال، ويوصيهم بأصحابه ورسله خيراً، وكان رسوله إليهم مُعاذ بن جَبَل ومالك بن مُرارة[5] الرَّهاويّ.

وحمل معاذ ومالك الكتاب النبوي إلى أهل اليمن بعد شهر رمضان من السنة التَّاسعة الهجريّة: في شهر شوّال أو شهر ذي القعدة من السنة التّاسعة الهجرية، لأن كتاب أهل اليمن بإسلامهم وصل إلى النبي ﷺ في شهر رمضان من السنة التاسعة الهجريّة، فيكون الجواب النبويّ بعد ذلك، وقد ذكرنا ذلك في الحديث على سفارة المهاجر بن أبي أُمَيَّة المخزومي.

---

(١) رعين: مخلاف (محافظة) من مخاليف اليمن، سمّي بالقبيلة اليمنيّة باسم: ذي رعين، واسمه: يرين (بياءين مثناتين)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٦٣/٤).

(٢) همدان: قبيلة يمانية مشهورة، النِّسبة إليها: هَمَداني، انظر التفاصيل في جهرة أنساب العرب (٣٩٣ - ٣٩٥) و (٤٧٥ -٤٧٦).

(٣) معافر: مخلاف (محافظة) من مخاليف اليمن، تُنسب إليها الثياب المعافريّة، سمّي بالقبيلة اليمنيّة: معافر بن يعفُر بن مالك بن الحارث بن مُرَّة، ويمتدّ نسبه إلى سَبَأ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٩٢/٨).

(٤) طبقات ابن سعد (٣٥٦/١) وسيرة ابن هشام (٢٥٨/٤) والطبري (١٢٠/٣) واليعقوبي (٨٧/٢) وإعلام السائلين لابن طولون (١٥) وإمتاع الأسماع للمقريزي (٤٩٥/١).

(٥) انظر نص الكتاب النبوي في: الطبري (١٢١/٣ - ١٢٢) وسيرة ابن هشام (٢٥٩/٤ - ٢٦٠) واليعقوبي (٨٧/٢ - ٨٩) وأسد الغابة (٢٠٣/٢) والإصابة (٢٩٣/٤) والقسطلاني (٢٧٩/١)، وقد أخرجه أبو داود وابن حبّان والدّارميّ، انظر الإصابة (٢٩٣/٤)، وانظر نصّ الكتاب النبويّ في: كنز العمال (٤٩٤/٢ - ٤٩٦) على هامش مسند الإمام أحمد بن حنبل، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (١٤٤ - ١٤٨).

والصّواب أنْ اسم حامل كتاب ملوك اليمن إلى النبي ﷺ هو: مالك ابن مُرارة الرَّهاوِيّ، لا مالك بن مُرَّة، وبفتح الراء في الرَّهاوي لا بضمِّها. لأن مالكاً منسوب إلى رَهاء بن مُنَبِّه بن حَرْب قبيلة من مَذْحج[1].

وكتب رسول الله ﷺ إلى عدّة من أهل اليمن سمّاهم، منهم: الحارث ابن عبد كُلال، ونُعَيْم بن عبد كُلال، ونُعْمان قَيْل ذي يزَن ومعافِر وهَمْدان، وزُرْعَة ذي رُعَيْن، وكان قد أسلم من أوّل حِمْيَر، وأمرهم عليه الصلاة والسّلام أن يجمعوا الصَّدَقة والجِزْيَة فيدفعوها إلى مُعاذ بن جَبَلُ ومالك بن مُرارة رسول أهل اليمن إلى النبي ﷺ بإسلامهم وطاعتهم، فكتب إليهم رسول الله ﷺ: «إنّ مالك بن مُرارة قد بلّغ الخبر وحفظ الغيب» كما ورد في نصّ الكتاب النبوي إلى أهل اليمن.

وكتب رسول الله ﷺ إلى بني معاوية من كنْدَة[2] بمثل ذلك.

وكتب رسول الله ﷺ إلى بني عمرو من حِمْيَر[3]، يدعوهم إلى الإسلام، فلما أسلموا سرى عليهم هذا الكتاب النَّبويّ كما سرى على غيرهم من أهل اليمن نصّاً وروحاً.

وكان نصّ الكتاب النبوي إلى أهل اليمن الذي حمله إليهم مُعاذ بن جَبَل ومالك بن مُرارة الرَّهاوي، جواباً على كتابهم الذي بعثوه مع مالك

---

(١) همم: بنو معاوية بن كِنْدَة، وهو ثَوْر، بن عُفَيْر بن عدِي بن الحارث بن مُرَّة بن أُدَد ابن زيد بن يَشْجُب بن عَرِيب بن زيد بن كَهلان بن سَبَأ، انظر التفاصيل في: جمهرة أنساب العرب (٤١٨ و٤١٩ و٤٢٥).

(٢) هم بنو عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شَمْس بن وائل بن الغَوْث بن قَطَن ابن عَرِيب بن زهير بن الغَوْث بن أَيْمن بن الهَمَيْسَع بن حِمْيَر بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان، بطن ضخم من حِمْيَر، انظر التفاصيل في: جمهرة أنساب العرب (٤٣٢-٤٣٣).

(٣) طبقات ابن سعد (١/٢٦٤ - ٢٦٥).

ابن مُرارة إلى النبي ﷺ بإسلامهم.

« بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد رسول الله

إلى: الحارث بن عبد كُلال،

وإلى نُعَيْم بن عبد كُلال،

وإلى النعمان بن عبد كُلال قَيْل ذي رُعَيْن، ومعافِر، وهَمْدان.

أما بعد ذلكم، فإني أحمدُ إليكم الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد، فإنه قد وقع بنا رسولكم مقْفَلْنا[١] من أرض الرُّوم، فلقينا بالمدينة، فبلّغ ما أرسلتم به، وخَبَّر ما قِبَلَكُمْ، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأن الله قد هداكم بهدايته[٢]، إن أصلحتُم وأطعتُم الله ورسولــه، وأقمتم الصَّــلاة، وآتيتُم الزَّكــاة، وأعطيتم المغانِم خُمس الله وسهم نبيِّه وصَفِيَّه[٣]، وما كُتِبَ على المؤمنين من الصَّدقة من العَقَار[٤] عُشر ما سَقَتِ العَيْن وما سقت السَّماء، وكلّ ما سُقِي بالغَرْب[٥]

---

(١) في سيرة ابن هشام: «منقلبنا».

(٢) في سيرة ابن هشام: «بهداه».

(٣) الصَّفِّي: ما يصطفيه الرئيس من الغنيمة قبل أن تُقسم الغنائم، وهو فَعِيْل بمعنى مفْعول.

(٤) العقار: الأرض التي تزرع.

(٥) الغرب: بفتح وسكون، هي الدّلو العظيمة.

نصف العُشرِ. وفي الإبل في الأربعين ابنة لَبُوْن[١]، وفي الثلاثين من الإبل ابن لَبُون ذَكَر، وفي كلّ خمس من الإبل شاة، وفي كلّ عشر من الإبل شاتان. وفي كلّ أربعين من البقر بقرة، وفي كلّ ثلاثين من البقر تَبِيْع جَذَع أو جَذَعة[٢]، وفي كلّ أربعين من الغنم سائمة وحدَها شاة.

وإنهـا فريضـة الله الـتي فرض عـلى المؤمنين في الصَّدقة، فمن زاد خيراً فهو خير له، ومَنْ أدّى ذلك وأشهد على إسلامه، وظاهر[٣] المؤمنين على المشركين، فإنّه من المؤمنين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، وله ذِمّة الله وذِمَّة رسوله.

وإنّه مَنْ أسلم من يهوديّ أو نصرانِيّ، فإنّ له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومَنْ كان على يهوديّته أو نصرانيّته، فإنّه لا يُفْتَن[٤] عنها، وعليه الجِزْيَة: على كلّ حالمٍ ذكر أو أُنثى، حرّ أو عبد، دينار وافٍ أو قيمته من المعافِر[٥] أو عَرْضه[٦] ثياباً، فمن أدّى

---

(١) ابن اللّبون: ولد النّاقة إذا استكمل السّنة الثانية ودخل في الثالثة، لأن أُمّه ولدت غيره فصار لها لبن. وهي ابنة لبون وبنت لبون (ج): بنات لبون (للذّكر والإناث).

(٢) التّبيع: ولد البقرة: (ج): تِبَاع، وتَبَائع، وأَتْبِعَة. (جج): أَتابيع. والجذع من الخيل والبقر، ما استكمل سنتين ودخل في الثالثة. وجذعة: مؤنث جذع.

(٣) ظاهرة عاون وآزر.

(٤) في سيرة ابن هشام: «لا يردّ عنها».

(٥) المعافِر: ثياب اليمن.

(٦) في سيرة ابن هشام: «أو عرضه».

ذلك إلى رسول الله، فإنّ له ذِمّة الله وذمّة رسوله، ومَنْ منعه فإنّه عدوّ لله ولرسوله.

أما بعد، فإنّ رسول الله محمّداً النَّبيّ، أرسل إلى زُرعة ذي يَزن[١]، إذا أتتكم[٢] رُسُلي فأوصيكم بهم[٣] خيراً، مُعاذ بن جَبَل[٤]، وعبد الله بن زيد[٥]، ومالك ابن عُبَادَة[٦]، وعُقْبَة بن نَمِر[٧]، ومالك بن مُرَّة[٨]، وأصحابهم، وأن اجمَعوا ما عندكم من الصَّدقة والجِزْية من مخاليفكم وبلّغوها[٩] رُسُلي، وإنّ أميرهم مُعَاذ، فلا يَنْقلبَنَّ إلاّ راضيا.

أما بعد، فإن محمّداً يشهد ألا إله إلاّ الله، وأنّه عبده ورسوله، ثم إنّ مالك بن مُرّة الرَّهاوِي قد حدّثني أنّك أسلمت من أوّل حِمْيَر، وقتلت المشركين، فأبْشِرْ بخير، وآمرك بحِمْيَر خيراً ولا تخونوا

---

(١) زرعة ذي يزن: سبقت ترجمته قبل قليل في هذا الفصل.

(٢) في سيرة ابن هشام: «أتاكم».

(٣) كذا في سيرة ابن هشام وفي طبعة أخرى: «بها».

(٤) معاذ بن جبل: انظر سيرته المفصّلة في: سفراء النبيّ ﷺ.

(٥) عبد الله بن زيد: أنظر سيرته في: الإصابة (٧٣/٤)، وهو عبد الله بن زيد الضُّمَيريّ. (١٣٥٣/٣).

(٦) مالك بن عُبَادة الهَمْدانيّ: انظر سيرته في أسد الغابة (٢٨٣/٤) والإصابة (٢٣٦/٦) والاستيعاب (١٣٥٣/٣).

(٧) عقبة بن نَمِر الهمْداني: انظر سيرته في أسد الغابة (٤٢١/٣) والإصابة (٢٥٣/٦) والاستيعاب (١٠٧٧/٣).

(٨) مالك بن مُرَّة: هو مالك بن مرارة الرَّهاوي، أنظر سيرته التي سبق ذكرها قبل قليل في هذا الفصل.

(٩) في سيرة ابن هشام: «أبلغوها».

ولا تخاذلوا، فإن رسول الله مولى غَنِيِّكم وفقيركم، وإنّ الصّدقة لا تحلّ لمحمّد ولا لأهله، إنّما هي زكاة يتزكّى بها على فقراء المؤمنين وأبناء السَّبيل، وإنّ مالكاً قد بَلَّغ الخبر وحفظ الغيب، وآمركم به خيرا، وإنّي قد بعثت إليكم من صالحي أهلي وأولى ديني[١] وأولى علمهم، فآمركم بهم خيراً، فإنّه منظور إليهم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[١]

علامة الختم: رسول الله محمد

وحين بعث النبيّ ﷺ مُعَاذاً إلى أهل اليمن، وأوصاه وعهد إليه، ثم قال له: «يَسِّرْ ولا تُعَسِّر، وبَشِّر ولا تُنَفِّرْ، وإنّك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسئلونك: ما مفتاح الجنَّة؟ فقل: شهادة ألا إله إلاّ الله وحده لا شريك له»[٢].

كما كتب النبي ﷺ إلى عَرِيْبِ بن عبد كُلال، وهو أخو الحارث بن عبد كُلال، وكان إليهما أمر حِمْيَر[٣] في اليمن.

---

(١) الطبري (٣/١٢١ - ١٢٢) وسيرة ابن هشام (٤/٢٥٩ - ٢٦٠) واليعقوبي (٢/٨٧ - ٨٩) وأسد الغابة (٢/٢٠٣) والإصابة (٤/٢٩٣) والقسطلاني (١/٢٧٩)، وقد أخرجه أبو داود وابن حبّان والدَّارميّ، انظر الإصابة (٤/٢٩٣)، وانظر النص الكامل لهذا الكتاب النبوي في كنز العمّال (٢/٤٩٤- ٤٩٦) على هامش مسند الإمام أحمد بن حنبل، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (١٤٤ - ١٤٨).

(٢) سيرة ابن هشام (٤/٢٦٠).

(٣) أسد الغابة (٣/٤٠٧) والإصابة (٥/١٠٦).

وهذا الكتاب هو الذي ذكرناه في أعلاه، بدون شك[1]، وقد أخطأ مَنْ توهّم بأنه لم يُرْوَ نصّ الكتاب، فقد كتب النبي ﷺ إلى عدّة من أهل اليمن[2]، ذكرنا أسماء قسم منهم في صدر الكتاب، وعَريب ممّن لم يُذكروا، وهو أخ الحارث بن عبد كُلال، وإليهما أمر حِمْيَر، فالكتاب النبوي له كما لأخيه الحارث بدون جدال.

وكما شمل الكتاب النبوي الذي حمله عمرو بن حَزْم الأنصاري عَرِيباً وَشمل إخوته أيضاً[3].

وكتب النبي ﷺ إلى فَهْد الحِمْيَريّ من أقيال اليمن، ممّن أسلم، الذي فيه يقول الشّاعر:

ألا إنّ خـير النــاس كلّهم فَهْـد   وعَبْـدُ كُلالٍ خيرُ سائرهم بَعْدُ

والكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى فهد الحِمْيَريّ، هو الكتاب النّبويّ الذي ذكرناه قبل قليل، والموجّه إلى الحارث بن عبد كُلال وإخوتـه، إذ أنّ النبي ﷺ كتب كتابه إلى عدّة من أهل اليمن[4]، ذكرنا قسماً منهم في صدر الكتاب النبوي، وفهد ممن لم يذكروا. كما أنّ هذا الكتاب النبويّ موجّه ليس للحكّام المعنون إليهم حسب، بل إلى بني عمرو من حِمْيَر[5] كافة، وفهد منهم.

وقد أخطأ مَنْ توهّم بأنّه لم يُرَوْ نصّ الكتاب مرويّ معروف.

---

(١) أسد الغابة (٤٠٧/٣) وأسد الغابة (٣٣٩/١) والإصابة (١٠٦/٥).

(٢) طبقات ابن سعد (٢٦٤/١ - ٢٦٥)، وليس من المنطق أن يشمل الكتاب النبوي جميع إخوة عريب ولا يشمله وحده من دونهم.

(٣) الإصابة (١٠٦/٥).

(٤) طبقات ابن سعد (٢٦٤/١ - ٢٦٥).

(٥) طبقات ابن سعد (٢٦٤/١ - ٢٦٥).

وكتب النبيّ ﷺ إلى عبد العزيز بن سيف بن ذي يَزَن الحِمْيَرِيّ، والمشهور أن النبيّ ﷺ كتب إلى أخيه زُرْعة[1]، فالكتاب النبويّ الموجّه إلى أخيه زُرعة هو الكتاب النبوي الموجّه إلى أخيه عبد العزيز بدون شك[2].

كما كتب النبي ﷺ إلى عُمَيْر ذي مَرَّان أحد رؤساء هَمْدان، والكتاب النبويّ الذي كتبه النبي ﷺ إلى عمير، هو الكتاب النبوي الذي حمله مُعاذ إلى الحارث بن عبد كلال بدون شك، لأن النّبيّ ﷺ بعث هذا الكتاب إلى بني معاوية من كِنْدَة[3]، وعُمَيْر ذو مَرَّان منهم، كما تسلّم عُمَيْر كتاباً نبويّاً سنذكره وشيكا.

وكما شمل هذا الكتاب النّبويّ الحارث بن عبد كُلال وإخوته، شمل عَرِيْب بن عبد كلال، وفَهْد الحِمْيَريّ وعبد العزيز بن سيف بن ذي يَزَن الحِمْيَريّ وعُمَيْر ذي مَرّان، وهو الذي حمله معاذ بن جبل إليهم، وشملهم أيضاً بدون شك الكتاب النبوي الذي حمله إلى اليمن عمرو بن حَزْم الأنصاري، وليس من المعقول ان يُروى الكتاب في سيرة كلّ مَنْ وصل إليهم، فاكتفوا بروايته في سيرة المعنون إليهم موجزاً أو كاملا، ثم نصّوا على أنّ النبي ﷺ كتب إلى عدّة من أهل اليمن[4]، وإلى أهل اليمن[5] كافة، وهذا يكفي لشموله الحكّام والمحكومين، والرؤساء والقبائل، لأنه ينظّم لهم حياتهم الاقتصاديّة والاجتماعية، فما من أحد في اليمن مُسلم أو غير مُسلم إلاّ كان له في كتاب النبي ﷺ الذي حمله إلى

(١) أسد الغابة (٣/٣٢٩) والإصابة (٤/١٨٩).
(٢) أسد الغابة (٢/٢٠٣) والإصابة (٣/٤٠).
(٣) طبقات ابن سعد (١/٢٦٤ - ٢٦٥).
(٤) طبقات ابن سعد (٢٦٤ - ٢٦٥).
(٥) الطبري (٣/١٢١) وسيرة ابن هشام (٤/٢٥٩).

أهل اليمن مُعاذ بن جَبَل، وفي كتاب النبي ﷺ الذي حمله إلى أهل اليمن عمرو بن حَزْم الأنصاري نصيب في مجال التوجيه والتنظيم، وما من أحد من أهل اليمن إلا كان له في حياته العملية بهذين الكتابين النبويين اقتداء وتطبيق.

لقد كان لهذين الكتابين النبويين أثر وتأثير في أهل اليمن وفي غير أهل اليمن اعتباراً من توقيت صدورهما ووضعهما في حيِّز التنفيذ حتى اليوم، وسيبقى مفعولهما ما بقي الإسلام، ولا عجب في ذلك، فهما جزء من سنّة رسول الله ﷺ، ومصدر عظيم للفقه الإسلامي والتّشريع.

وقد كان نصّ الكتاب النبوي الموجه إلى عُمير ذي مرَّان هو:

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من: محمّد رسول الله.

إلى: عُمَيْر ذي مَرَّان ومَنْ أسلم من هَمْدان.

سِلْمٌ أنتم، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو.

أما بَعْدَ ذلك، فإنّه بلغني إسلامكم مرجعنا من أرض الرُّوم، فأبشروا فإنّ الله قد هداكم بهُداه، وإنكم إذا شهدتم أن لا إله إلاّ الله، وأن محمّداً عبد الله ورسوله، وأقمتم الصَّلاة، وآتيتم الزَّكاة، فإن لكم ذِمَّة الله وذِمّة رسوله، على دمائكم وأموالكم وأرض البور التي أسلمتم عليها، سهلها وجبلها وعيونها وفروعها، غير مظلومين ولا مضيّق عليكم.

وإنّ الصَّدقة لا تحل لمحمّد ولا لأهل بيته، وإنما هي زكاة تزكونها عن أموالكم لفقراء المسلمين.

وإنّ مالك بن مُرارة الرَّهَاوِيّ، قد حفظ الغيب وبلّغ الخبر، فآمركم به خيراً، فإنّه منظور إليه.

وكتب عليّ بن أبي طالب »[1].

علامة الختم: الله رسول محمد

ومن الواضح، أنّ الذي حمل هذا الكتاب النبويّ إلى عُمَيْر ذي مَرَّان في اليمن، هو مُعَاذ بن جَبَل ومالك بن مُرارة الرَّهاوي، لأن الثاني ورد اسمه في نص الكتاب، ولأنّ توقيت إرساله هو توقيت إرسال الكتاب النبويّ الأول الذي حمله إلى اليمن معاذ ومالك، أي بعد عودة المسلمين من غزوة تبوك وقدوم كتاب ملوك اليمن في شهر رمضان من السنة التاسعة الهجريّة بإسلامهم.

لقد بعث النبي ﷺ مُعَاذ بن جَبَل في شهر ربيع الآخر من السّنة التّاسعة الهجريّة[2]، والصّواب أنّه بعثه بعد غزوة تبوك[3] التي كانت في رجب من السّنة التاسعة الهجريّة والتي شهدها مُعاذ مع النبي ﷺ وبعثه بعد شهر رمضان المبارك من السنة التّاسعة الهجريَّة كما ورد في نصّ رسالة النبي ﷺ الجوابيَّة إلى ملوك اليمن الذين أسلموا، فقد قدم المدينة رسولهم في شهر رمضان المبارك بإسلامهم، فأجابهم النبي ﷺ،

---

(١) أسد الغابة (١٤٧/٤) واليعقوبي (٦٥/٢)، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع الأخرى في: مجموعة الوثائق السياسية (١٥٢ - ١٥٣).

(٢) أسد الغابة (١٤٧/٤) واليعقوبي (٦٥/٢)، وانظر المصادر والمراجع الأخرى في: مجموعة الوثائق السياسية (١٥٢ - ١٥٣).

(٣) طبقات ابن سعد (٥٨٤/٣).

(٤) الجامع (٤٩٢/٤).

(٥) الجامع (٤٩٢/٤).

وحمل رسالته إليهم مُعاذ في شهر شوّال أو شهر ذي القعدة من السّنة التّاسعة الهجريّة كما ذكرنا.

وقد بعثه النبيﷺ إلى اليمن سفيراً، وقاضياً، ومرشداً، يعلّم النّاس القرآن وشرائع الإسلام[1]، ويقبض الصّدقة من عُمّال اليمن[2]، وداعياً، ومجاهداً.

وقد حمل ما بعث به النبيﷺ من رسائل إلى ملوك اليمن، فبلّغ الملوك الرّسائل، وأدّى الأمانة، فكان نعم السّفير.

كما أدّى واجباته الأخرى، فكان قاضياً يقضي بين النّاس بالعدل، ومرشداً يرشدهم إلى طريق الحقّ، ومعلّماً يعلّم القرآن والسُّنن وشرائع الإسلام، ووالياً يجبي الزكاة والصدقة والجزية بعد جبايتها من العمّال الآخرين.

كما أدّى واجبه مجاهدا، فجاهد في الله حق جهاده، حتى عاد المرتدون في اليمن إلى الإسلام من جديد.

لقد أدّى مُعاذ بن جبل واجباته بالرغم من ثقلها وصعوبتها، على أحسن وجه، كما يؤدِّيها الرّجل القويّ الأمين.

ب. بقي علينا أن نعرف شيئاً موجزاً عن أصحاب النبيﷺ الذين رافقوا مُعاذ بن جَبَل في سفارته إلى اليمن، وعاونوه في تحمّل واجباته الأخرى، والذين قال عنهم رسول اللهﷺ في كتابه الذي حمله معاذ إلى ملوك اليمن بخاصة وأهل اليمن بعامة: «أما بعد، فإن رسول الله محمّداً أرسل إلى زُرعَة ذي يَزَن، وإذا أتتكم رُسُلي فأُوصيكم بهم خيراً: ومُعاذ

---

(١) الاستيعاب (١٤٠٣/٣).

(٢) أنساب الاشراف (٥٢٩/١).

ابن جبل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عُبادة، وعُقْبَة بن نَمِر، ومالك ابن مُرَّة، وأصحابهم، وأن اجْمَعوا ما عندكم من الصَّدقة والجزية من مخاليفكم وبلّغوها رُسُلي، وإن أميرهم معاذ، فلاينقلبنّ إلا راضياً». ثم ختم النبي ﷺ كتابه الكريم إلى أهل اليمن: «..... وإن مالكاً - يريد مالك بن مُرارة الرَّهَاوِيّ - قد بلّغ الخبر، وحفظ الغيب، وآمركم به خيراً، وإني قد بعثت إليكم من صالحي أهلي وأولي ديني وأولي علمهم، فآمركم بهم خيراً، فإنه منظور إليهم».

وقد تحدّثنا بإيجاز على مالك بن مُرارة الرَّهاوي في صدر هذا البحث مع اليمنيين الذين عنون باسمهم النبي ﷺ كتابه الذي حمله إليهم مُعاذ ابن جَبَل، والذين كاتبهم النبي ﷺ من غير الذين عنون باسمهم كتابه الكريم.

وقد أفردنا بحثاً كاملاً لمعاذ بن جَبَل رضي الله عنه، في: سفراء النبي ﷺ، فبقي علينا أن نتحدّث بإيجاز على الأصحاب الذين لم نتحدث عنهم بَعْدُ، والذين جاء ذكرهم في كتاب النبي ﷺ الذي ذكرناه:

عبد الله بن زيد: هو عبد الله بن زيد الضَّمْرِيّ، نسبة إلى بني ضَمْرَة ابن بكر بن عبد مَنَاة بن كِنَانة بن خُزَيْمَة بن لُؤَيّ بن غالب، وكان عبد الله من جملة الرُّسل إلى الحارث بن عبد كُلال وملوك اليمن الآخرين، وقد ورد ذكره في الكتاب النبويّ الجوابيّ إلى ملوك اليمن الذي حمله إليهم معاذ بن جَبَل.

وأخباره قبل سفارته وبعدها لا وجود لها، ولولا هذه السِّفارة لما كانت له أخبار أبداً[1].

---

(١) الإصابة (٤/٧٣) والطبري (٣/١٢١) وجمهرة أنساب العرب (١٨٥).

مالك بن عُبَادة الهَمْدَاني: قدم مالك على النبيّ ﷺ في وفد هَمْدان مع مالك بن مُرارة الرَّهاوي، وكان ذلك في شهر رمضان المبارك من السنة التَّاسعة الهجريّة، فأسلموا.

وهو من قبيلة هَمْدان اليمنيَّة، فمالك يَمَنيّ[1].

ولا نعرف شيئاً عنه قبل سفارته، ولا بعد سفارته، ولولا ورود ذكره في الكتاب النبوي، لما عرفنا عنه شيئاً مذكوراً.

عُقْبَة بن نَمِر الهَمْدَانِيّ: وفد على النبيّ ﷺ مع مالك بن مُرارة الرَّهاوي ومالك بن عُبَادة الهَمْداني في شهر رمضان المبارك من السنة التَّاسعة الهجريّة، وأسلموا.

وقد أعاده النبي ﷺ إلى قومه هَمْدان في اليمن مع مُعاذ بن جبَل الذي حمل كتاب النبي ﷺ الجوابيّ إلى ملوك اليمن، وذُكر في هذا الكتاب.

ولا علم لنا بأخباره قبل إسلامه، ولا علم لنا بأخباره بعد إسلامه ولا علم لنا بنشاطه في سفارته إلى اليمن ولولا ذكر اسمه في الكتاب النبويّ الذي حمله معاذ بن جبل، لما عرفنا عنه شيئاً مذكورا.

جـ. ومما يلفت النظر في الكتاب النبوي المعنونإلى ملوك اليمن والذي حمله إليهم مُعاذ بن جَبَل، أنَّ النبيّ ﷺ، أقرّ الأذواء والأقيال على ما كانوا عليه في الحكم بعد أن أسلموا، والرسل الذين ورد ذكرهم مع مُعاذ وهم:

مالك بن مُرارة الرَّهاوي - من اليمن.

---

(١) أسد الغابة (٢٨٣/٤) والإصابة (٢٦/٦) والإستيعاب (١٣٥٣/٣).

عبد الله بن زيد الضَّمْرِي - من الحجاز.
مالك بن عُبادة الهَمْدانِيّ - من اليمن.
عُقْبَة بن نَمِر الهَمْدَاني - من اليمن.

لم ينافس مُعاذ أحد الأذواء والأقيال الذين أسلموا على منصبه في السّلطة، ولم ينتقص من سلطتهم التي كانوا يمارسونها في إسلامهم شيئاً، وكانت واجباته تختلف عن واجباتهم: سلطته تخصّ الدين، وسلطتهم تخصّ الدنيا، والجزية، ويوزِّع ما يجبيه على فقراء البلد، فإذا فاض شيء من المال عن حاجة فقرائه، أرسله إلى المدينة لمعالجة شئون الفقراء في البلاد الأخرى ولتقوية المجاهدين في سبيل الله. أما الأذواء والأقيال، فلهم واجباتهم التي كانوا يمارسونها قبل الإسلام، فأصبحوا يمارسونها بعد الإسلام في الإدارة والدِّفاع والقيادة، لم يُنْتقص من واجباتهم شيء

أما معاونو معاذ الأربعة، فثلاثة منهم يمانيون، يجمعون الصَّدقات والزكاة والجزية، ويسلمونها لأميرهم معاذ، وكل واحد منهم يتولى القضايا المالية لقومه. أما الرَّابع منهم الذي هو من الحجاز، فليس من مدينة النبيﷺ ولا من قومه قريش، وأرجح أنّه كان متميِّزاً بأمانته المطلقة، فحمّله النبيﷺ واجباً مالياً، وربما كان من الذين يحسنون القراءة والكتابة، وهذا ما يعينه على ضبط حسابات الجباية بدقّة واتقان، وربما كان فقيهاً كما كان معاذ بن جبل، فتولى عمليّة الدّعوة والتعليم والإرشاد والقضاء.

على كلّ حال، لم يستأثر أحد من المسلمين غير اليمنيين بالسّلطة أو جزء منها، بل تولى المسلمون من أهل اليمن السّلطة على المسلمين من أهل اليمن، ولم يحرم الإسلام أحداً من سلطته لإسلامه، بل ازداد بعد الإسلام عزّاً ومكانة وقدراً، ولم يُرسل إلى اليمن إلا من كان أهل

اليمن بحاجة ماسة إلى ارساله، ولم يكن هناك أي مفرٍّ من إرساله، لعدم تيسّر مَن يستطيع النهوض بواجباته من اليمنيين في حينه، ولم يكن الموفدون من قريش ولا من مكّة.

ألا يحق لنا أن نطالب المسؤولين المسلمين اليوم، أن يتعلّموا هذا الدرس النافع من النبي ﷺ؟!



الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كُتّاب النَّبِيِّ ﷺ
ومُوادّهم الكتابيّة

مدخل

النَّبيّ الكريم محمّد بن عبد الله بن عبد المُطَّلِب عليه أفضل الصَّلاة وأزكى السّلام رسول الله، نَبِيّ أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب. قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾[2].

---

(١) الآية الكريمة من سورة الأعراف (١٥٧:٧)، وانظر تفسيرها في تفسير الزمخشري (٥١٢/١) وابن كثير (٥٦٤/٣- ٥٧٠) والبغوي (٥٦٤/٣-٥٧٠) بهامش ابن كثير، وتفسير القرطبي (٢٩٨/٧-٢٩٩) وتفسير سيد قطب (٥٧/٩-١٠٠).

(٢) الآية الكريمة من سورة الأعراف (١٥٨:٧)، وانظر تفسيرها في تفسير الزمخشري (٥١٣/١) وابن كثير (٥٧٠/٣-٥٧٣) والبغوي (٥٧٠/٣-٥٧٣) بهامش ابن كثير، وتفسير القرطبي (٣٠١/٧-٣٠٢) وتفسير سيد قطب (٥٧/٩-١٠٠).

وجاء في تفسير: (الأُمِيّ): هو منسوب إلى الأُمَّة الأُمِّيَّة، التي هي على أصل ولادتها، لم تتعلّم الكتابة ولا قراءتها. وقال عبد الله بن العَبّاس رضي الله عنهما: «كان نبيّكم ﷺ أُمِيّاً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسُب، قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾[1]. وروي في الصّحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ قال: «إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّة لا نكتبُ ولا نحسُب»[2].

وقال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾[3]، قال عبد الله بن العبّاس: «الأميّون العرب كلّهم مَن كتب منهم ومَنْ لم يكتب، لأنّهم لم يكونوا أهل كتاب». وقيل: الأُمِّيّون الذين لا يكتبون، وكذلك كانت قُريش[4].

لقد كان النبيّ ﷺ أمّيًّا، لا يقرأ ولا يكتب، وهذا ثابت بنصّ القرآن الكريم وبإجماع الصّحابة، لذلك اتخذ النبيّ ﷺ كُتّاباً للوحي وللرسائل النبويّة والمواثيق والعهود والقضايا الأخرى، وهؤلاء الكتّاب معروفون في المصادر المعتمدة. وكان قومه من قريش في مكة أميين، وليس معنى ذلك أنّ الأُميّة فاشية فيهم بدون استثناء، فالواقع أنّ الأُميّة فيهم هي القاعدة، ومعرفة القراءة والكتابة والحساب هي الاستثناء، فقد كان في قريش مَنْ يُحسن القراءة والكتابة والحساب، وحفّزهم على التّعلم عملهم في التجارة التي تحتاج إلى مَنْ يُحسن القراءة والكتابة والحساب، كما أنّ رحلة الشتاء والصّيف للتجارة: إلى اليمن

---

(١) سورة العنكبوت، آية ٤٨.

(٢) تفسير القرطبي (٧/٢٩٨-٩٩٩) وانظر تفسير البغوي (٣/٥٦٥-٥٦٦).

(٣) سورة الجمعة، آية ٢.

(٤) تفسير القرطبي (١٩/٩١-٩٢).

جنوباً، وإلى الشّام شمالاً، وإلى العراق شمالاً أيضاً، جعلهم يختلطون بعرب اليمن الذين هم أكثر حضارة وعلماً من عرب الحجاز، ويختلطون بعرب الشّام والرّوم في الشّام، وبعرب العراق والجزيرة والفُرس في العراق والجزيرة، وهذا الاختلاط والأسفار علّم بعضهم ما لم يكونوا يعلمون، ومن هذا العلم القراءة والكتابة والحساب.

لقد كان مجتمع مكّة قبل الإسلام، أقرب إلى الحضارة منه إلى البداوة، لأنّه كان مجتمعاً تجارياً، يضطّر التّجّار فيه على كثرة الأسفار والاختلاط بالأمم الأخرى، فيقتبسون من سفرهم واختلاطهم ثقافة وعلماً، وحضارة ومدنيّة.

وهاجر النبيّ ﷺ من مكة الى المدينة[1]، وهاجر قبله وبعده أصحابه من مكة إلى المدينة، فكان مجتمع المدينة مجتمعاً زراعياً على الأكثر، يقتضي الثبات في الأرض والاستقرار فيها، ولا يتّصل باستمرار بالأمم الأخرى بالأسفار والاختلاط كما كان الحال في مجتمع مكّة، لذلك كانت نسبة المتعلمين في المجتمع المكيّ - على قلّتهم - أعلى بكثير من نسبة المتعلمين في المجتمع المدنيّ الذي حلّ فيه رسول الله ﷺ وأصحابه المهاجرون.

وحدثت غزوة بَدْرٍ الكبرى في السّابع من شهر رمضان المبارك سنة اثنتين الهجرية، فانتصر المسلمون على المشركين في هذه المعركة التاريخيّة الحاسمة، ووقع أسرى من المشركين بين المسلمين، فكان فداء أُسارى بدر أربعة آلاف درهم لكلّ أسير إلى ما دون ذلك، فمن لم يكن عنده شيء أُمِرَ أن يُعَلِّم غِلْمَان الأنصار الكتاب[2]، وكان عدد أسرى

---

(١) هاجر عليه الصلاة والسلام بعد أن بعثه الله عزّ وجلّ بثلاث عشرة سنة. انظر سيرة ابن هشام (٢/٢٢٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/٢٢).

المشركين سبعين أسيراً، وكان النبيّ ﷺ يُفادي على قدر أموالهم، وكان أهل مكّة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن لـه فداء دُفع إليه عشرة غِلْمان من غلمان المدينة فعلّمهم، فإذا حذقوا فهو فداؤه، فكان زيد بن ثابت الأنصاريّ ممن عُلِّم[1]، فصار له شأن عظيم بين كتاب النبيّ ﷺ بعد ذلك، كما كان أكثر الأنصار الذين تعلّموا يومئذٍ ثم أصبحوا من كتاب النبيّ ﷺ من أولئك الغِلمان الذين تعلّموا من أسرى قُريش يوم بَدْر.

لقد كانت تلك الموجة التّعليمية العارمة، هي أساس الطّفرة التّعليمية إلى أمام في المجتمع المدنيّ في صدر الإسلام، وكانت طفرة لها ما بعدها في ميدان العلم والتّعليم والحضارة الإسلامية.

وأكثر كتّاب النبيّ ﷺ الأنصار إن لم يكونوا كلّهم من تلاميذ أسرى يوم بدر، بدأ تعليمهم بعد بَدْرٍ، ثم تولّوا الواجبات الكتابيّة للنبيّ ﷺ، ودراسة سِيَر كُتّاب النبيّ ﷺ من الأنصار تثبت ذلك بوضوح وجلاء.

وبالطّبع كان للمهاجرين المتعلمين شأن عظيم في تعليم المهاجرين والأنصار غير المتعلمين، لأن تعلم القرآن والسّنة وتسجيل الوحي وحمل أنباء الواجبات الكتابية الأخرى للمجتمع الإسلامي الجديد على عهد النبيّ ﷺ، اقتضى أن تتوسّع ملاكات المتعلّمين، فكان التطوّر التعليمي الذي يواكب تعاليم الإسلام في تقدم مستمر دائب، ظهرت ثمراته اليانعة في المجتمع المدنيّ علماً ينفع النّاس ويمكث في الأرض، فأصبح ذلك المجتمع يجري حثيثاً بخطوات ثابتة سريعة نحو التعلّم والعلم، وبعد أن كان راكداً مستقراً على الجهل والأُميّة قبل الهجرة.

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٢٢).

وسيكون مجال هذا البحث مقتصراً على كُتَّاب النبيّ ﷺ، ونوعيّة الخط الذي كان شائعاً على عهد الرِّسالة، ومواد الكتابة التي كانت متيسِّرة يومئذٍ، إكمالاً للبحث في: السفارات النبويّة.

الكُتَّابُ

كتب للنبيّ ﷺ عدد من الصّحابة في كتابة الوحي والرَّسائل والمواثيق والعهود.

وقد ذكر بعضهم، أن كُتَّابَه صلى الله عليه وسلّم كانوا ستة وعشرين كاتباً على ما ثبت عن جماعة من ثقات العلماء، وفي السِّيرة للعراقي أنّهم كانوا اثنين وأربعين كاتباً[١].

وفي دراسة حديثة، ذُكر أن كتّاب الوحي هم أربعة وأربعون صحابيّاً، ومن بين كتّاب الوحي تخصص أربعة وعشرون كاتباً في كتابة الرّسائل والمواثيق والعهود النبويّة[٢].

وهؤلاء هم أبرز كتّاب النبيّ ﷺ:

الخليفة أبو بكر الصدِّيق، ففي حديث هجرة النبيّ ﷺ من مكّة إلى المدينة، أن سُراقة بن مالك المُدْلِجِيّ أتبع رسول الله ﷺ حين خرج هو وأبو بكر من الغار، فلما غشيهم سُراقة - وكان من أمر فرسه ما كان - سأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاب أمان، فأمر أبا بكر أن يكتب له كتاباً، فكتب له كتاباً ثم ألقاه إليه. وقد روى الإمام مالك، أنّ عامر بن فُهيْرَة كتبه - وسيرد تفصيل ذلك في الحديث عن

(١) السيرة الحلبية (٣٦٤/٣)، وانظر نهاية الارب (٢٣٦/١٨ - ٢٣٧).

(٢) كانو (د. عبد اللطيف كانو) - مجلة الوثيقة - العدد الأول الصادر في رمضان من سنة ١٤٠٢ هـ (يوليو ١٩٨٢ م) مقال: رسائل النبيّ ﷺ - ص ٤٤ - البحرين - ١٤٠٢ هـ.

عامِر بن فُهَيْرَة - فيُحتمل أنّ أبا بكرٍ كتب بعضه، ثمّ أمر مولاه عامراً فكتب باقية[1].

والخليفة عمر بن الخطّاب، كان يُحسن القراءة والكتابة والحساب، تعلّم ذلك في صباه، وفي حديث إسلامه أنّه قرأ الصحيفة التي كان فيها آيات من القرآن الكريم حين داهم أخته في دارها وهي تتلو الذكر الحكيم مع زوجها، وهذا الحديث مشهور تذكره المصادر المعتمدة كافة في حديثها على سيرة عمر بن الخطّاب، لذلك اختاره النبيّ ﷺ كاتباً من كتّابه كما هو مشهور[2].

والخليفة عثمان بن عَفّان، كتابته بين يديه عليه السّلام مشهورة، ولما قدم نهشل بن مالك الوائليّ على رسول الله ﷺ، أمر رسول الله ﷺ عثمان، فكتب له كتاباً فيه شرائع الإسلام[3].

والخليفة عَلِيّ بن أبي طالب، وقد كتب الصُّلح بين رسول الله ﷺ وبين قُريش يوم الحُدَيْبِيَة: أن يأمن الناس، وأنّه لا إسْلال ولا إغْلال، وعلى وضع الحرب عشر سنين، وقد كتب غير ذلك من الكتب النبويّة[4].

والخليفة معاوية بن أبي سفيان، وقد روى مسلم في صحيحه أنّ أبا سفيان قال: «يا رسول الله! ثلاث أعطينيهنّ» قال: «**نعم**»، قال: «تُؤَمِّرني حتى أقاتل الكفّار كما كنتُ أقاتل المسلمين»، قال: «**نعم**»، قال: «ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك»، قال: «**نعم**»... الحديث[5].

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٣٤٨ و ٣٥١).

(٢) أسد الغابة (٥٤/١) ونهاية الأرب (٢٣٦/١٨) وانظر الفاروق عمر لهيكل (٣٢/١).

(٣) البداية والنهاية (٣٥١/٥).

(٤) طبقات ابن سعد (٩٧/٢) والبداية والنهاية (٣٥١/٥).

(٥) البداية والنهاية (٣٥٤/٥).

وكان معاوية من المداومين على الكتابة مع زيد بن ثابت الأنصاري[1].

والصّحابيّ يزيد بن أبي سفيان، وكان أفضل بَنِي أبي سُفيان، يقال له: يزيد الخير، وكان من فضلاء الصّحابة، ولم يزل يُذكر بخير، وكان أحد مَنْ كتب للنبيّ ﷺ[2].

والصّحابيّ أبو سفيان بن حرب، كان من القلائل الذين يحسنون القراءة والكتابة والحساب، فكان أحد مَنْ كتب للنبيّ ﷺ[3].

والصّحابيّ الزبير بن العوّام أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، وأحد الستّة أصحاب الشّورى الذين تُوفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وحواري رسول الله ﷺ وابن عمّته صَفِيَّة بنت عبد المطّلب، وزوج أسماء بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وهو الذي كتب لبني معاوية بن جَرْوَل الكتاب الذي أمره به رسول الله ﷺ أن يكتبه لهم[4].

والصّحابيّ عبد الله بن الأرقم بن أبي الأرقم، أسلم عام الفتح، وكتب للنبي ﷺ. قال الإمام مالك: «وكان ينفّذ ما يفعله ويشكره ويستجيده»، وكان يجيب عن رسول الله ﷺ الملوك، وبلغ من أمانته أنّه كان يأمره أن يكتب إلى بعض الملوك، فيكتب ويختم على ما يقرأه لأمانته عنده. وكتب لأبي بكر وجعل إليه بيت المال، وأقرّه عليها عمر ابن الخطاب، فلما كان عثمان عزله عنها. وهو من بني زُهْرَة من قريش وليس ابن أبي الأرقم المخزومي[5].

---

(١) نهاية الأرب (٢٣٦/١٨).

(٢) انظر سيرته المفصلة: في: قادة فتح الشام ومصر (٩٩ - ١٠٧) وعيون الأثر (٣١٦/٢).

(٣) عيون الأثر (٣١٦/٢).

(٤) البداية والنهاية (٣٤٤/٥).

(٥) أسد الغابة (٦٠/١).

والصّحابيّ أرقم بن أبي الأرقم، واسمه عبد مناف بن جُنْدُب بن عبد الله بن عمر بن مَخْزوم المخزوميّ، أسلم قديماً، وهو الذي كان رسول الله ﷺ مستخفياً في داره عند الصَّفَا، وتُعرف تلك الدار بعد ذلك بالخَيْزُران، وهو الذي كتب إقطاع عظيم بن الحارث الحاربيّ بأمر رسول الله ﷺ بفَخّ، وهو ماء أقطعه النبيّ ﷺ عظيم بن الحارث المُحَارِبي[1]، ويبدو أنّه كان في موقع باليمن، لأنّ الذي حدّث بذلك عمرو بن حَزْم، وكان على اليمن في عهد النبيّ ﷺ كما ذكرنا في بحث: السفّارات النبويّة.

والصّحابي خالد بن الوليد، وهو معروف جداً، وكتب للنبيّ ﷺ بأمره كما هو مذكور في قسم من المصادر المعتمدة[2].

والصّحابي أبو سَلَمَة المخزوميّ، وكان من القلائل الذين يُحسنون القراءة والكتابة من قريش، فجعله النبيّ ﷺ أحد كتّابه، واسم أبي سلمة: عبد الله بن عبد الأسد المخزومي[3].

والصَّحابيّ أَبان بن سعيد بن العاص بن أُميّة بن عبد شمْس، أسلم بعد أخويه خالد وعمرو، وكان إسلامه بعد الحُدَيْبِيَّة، لأنّه هو الذي أجار عثمان بن عفّان رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكّة يوم الحُدَيْبِيَّة، وكان أوّل مَنْ كتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ بالمدينة أُبَيُّ بن كَعْب فإذا لم يحضر كتب زيد بن ثابت، وكتب له عثمان ابن عفّان وخالد بن سعيد وأبان بن سعيد[4].

---

(١) البداية والنهاية (٣٤١/٥) ومعجم البلدان (٣٤١/٦ - ٣٤٢).
(٢) البداية والنهاية (٣٤٣/٥- ٣٤٤) وانظر عيون الأثر (٣١٥/٢).
(٣) عيون الأثر (٣١٦/٢)، وانظر أسد الغابة (٢١٨/٥).
(٤) البداية والنهاية (٣٤٠/٥) وجمهرة أنساب العرب (٨١).

والصحابي خالد بن سعيد بن العاص بن أُمَيَّة بن عبد شَمْس، استكتبه رسول الله ﷺ، وكان من كُتّاب الوحي[1] أيضاً. وقد روى عمرو بن حَزْم أنّ خالداً بن سعيد كتب عن رسول الله ﷺ كتاباً: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى محمّد رسول الله راشد بن عبد ربّ السُّلَمِيّ أعطاه غَلْوَتَيْن وغَلْوَة[2] بِحَجْر بُرهَاط[3]، فمن خافه فلا حق له وحقّه حق. وكتب خالد بن سعيد». وأقام خالد بن سعيد بعد أن قدم من أرض الحبشة بالمدينة، وكان يكتب لرسول الله ﷺ، وهو الذي كتب كتاب أهل الطائف لوفد ثَقِيْف، وسعى في الصُّلح بينهم وبين رسول الله ﷺ[4].

والصّحابي سعيد بن سعيد بن العاص بن أُمَيّة بن عبد شمس القُرشي أخو خالد بن سعيد وأبان بن سعيد اللذان استكتبهما النبيّ ﷺ كما ذكرنا ذلك قبل قليل، كما استكتب أخاهما سعيد الذي أسلم قبل فتح مكة بيسير، واستعمله النبيّ ﷺ على سوق مكّة يوم الفتح، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف، خرج معه، فاستُشهد يومئذٍ[5].

والصّحابي عمرو بن العاص، وهو معروف وسيرته مشهورة، وكان أحد كتّاب النبيّ ﷺ بعد إسلامه بعد الحُدَيْبِيَّة[6].

والصّحابي المُغِيْرة بن شُعْبَة الثَّقفيّ، وكان من كتّاب النبي ﷺ[7]

---

(١) البداية والنهاية (٣٤٠/٥) وجمهرة أنساب العرب (٨١).

(٢) الغلوة: مقدار رمية سهم، وتقدّر بثلاثمائة ذراع إلى أربعمائة.

(٣) حجر بني سُلَيْم: قرية لهم، انظر معجم البلدان (٢٢٤/٣). رهاط: موضع على ثلاث ليالٍ من مكّة، انظر معجم البلدان (٣٤١/٢).

(٤) البداية والنهاية (٣٤٣/٥).

(٥) أسد الغابة (٢٠٩/٢) وانظر عيون الأثر (٣١٥/٢).

(٦) عيون الأثر (٣١٥/٢).

(٧) البداية والنهاية (٣٥٠/٥)، وانظر أسد الغابة (٢٧/٢).

ومن دُهاة العرب وقادة الفتح الإسلامي والولاة النّابهين[1]، والمغيرة هو الذي كتب إقطاع حُصَين بن نَضْلَة الأسديّ الذي أقطعه إيّاه رسول الله ﷺ بأمره[2].

والصّحابي شُرَحْبيـل بن حَسَنَة الكِنْدِيّ، حليف بني زُهرة من قُريش، وأصله يَمَنِيّ ولكنّه عاش في مكة وكان معدوداً من وجوه قريش، وقد استكتبه النبيّ ﷺ، فكان أحد كتابه عليه الصّلاة والسلام[3].

والصّحابي حُوَيْطِب بن عبد العُزَّى القُرشي العامري، من مسلمة الفتح ومن المؤلّفة قلوبهم، شهد غزوة حُنَيْن مع النبيّ ﷺ، فأعطاه النبيّ ﷺ مائة من الإبل، وكان من أشراف قريش المعدودين، ومن كُتّاب النبيّ ﷺ[4].

والصّحابي حاطِب بن عمرو القُرَشِيّ العامِريّ أخو سُهَيْل بن عمرو، أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، فهو من المسلمين الأولين ومن البدريين وممن هاجر إلى الحبشة والمدينة، وكان من كُتّاب النبيّ ﷺ[5].

والصّحابي العلاء الحَضْرَمِيّ، من حلفاء بني أُمَيّة، وكان من خيار

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٣١ - ٤٥٥).
(٢) البداية والنهاية (٣٥٥/٥)، وانظر نصّ الكتاب النبويّ الذي كتبه المغيرة في أسد الغابة (٢٧/٢).
(٣) عيون الأثر (٣١٥/٢)، وانظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح الشام ومصر (١١٣-١١٩).
(٤) عيون الأثر (٣١٥/٢) وانظر أسد الغابة (٦٧/٢).
(٥) عيون الأثر (٣١٦/٢)، وانظر أسد الغابة (٣٦٣/١) و (١٦٦/٥).

الصّحابة، ومن سفراء النبيّ ﷺ وكتّابه، ومن قادة الفتح الإسلامي والولاة المشهورين[1].

والصّحابيّ العلاء بن عُقْبَة، وكان النبيّ ﷺ يبعثه هو والأرقم بن أبي الأرقم في دور الأنصار لتعليمهم القرآن والسنّة، وكان العلاء والأرقم يكتبان بين الناس المداينات والعهود والمعاملات، وكان أحد كتاب النبيّ ﷺ[2] قال عمرو بن حزم: «**إنّ هذه قطائع أقطعها رسول الله ﷺ**»، **وذكر فيها**: «**بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى النبيّ ﷺ محمّد عَبّاس بن مِرْداس السُّلَمِيّ، أعطاه مذموراً** (لا ذكر لها في المصادر البلدانية المعتمدة)، **فمن خافه فلا حقّ له، وحقّه حق، وكتب العلاء بن عُقْبَة**»[3].

والصّحابي مُعَيْقِيْب بن أبي فاطمة الدَّوْسِيّ، مولى سعيد بن العاص بن أُمَيّة بن عبد شمس، أسلم قديماً بمكّة، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، ثم هاجر إلى المدينة، وكان على خاتم النبيّ ﷺ، واستعمله عمر بن الخطاب خازناً على بيت المال، وكان من كتّاب النبيّ ﷺ، وتُوفي في آخر أيام عثمان بن عفّان[4].

والصّحابي جُهَيْم بن الصَّلْت بن مَخْرَمَة بن المطّلب بن عبد مَنَاف الـمُطَّلِبِيّ، أسلم بعد الفتح، وكان قد تعلّم الخطّ في الجاهلية، وجاء الإسلام وهو يكتب، وقد كتب لرسول الله ﷺ. ولما انتهى رسول

---

(١) البداية والنهاية (٣٥٢/٥) وعيون الأثر (٣٥٠/٢)، وانظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح بلاد فارس (٢٤٩-٢٥٤)، وكتاب: سفراء النبيّ ﷺ.

(٢) انظر التفاصيل في: البداية والنهاية (٣٥٣/٥) وعيون الأثر (٣٥١/٢) والإصابة (٢٦٠/٤) وأسدا الغابة (٩/٤).

(٣) عيون الأثر (٣١٥/٢)، وانظر أسد الغابة (٤٠٢/٤-٤٠٣) والإصابة (١٣٠/٦) والاستيعاب (١٤٧٨/٤-١٤٧٩).

الله ﷺ إلى تبوك في غزوة تبوك، آتاه يُحَنَّة بن رُؤْبَة، فصالحه، وكتب له رسـول الله ﷺ كتاباً فهو عندهم، وفي آخر ذلك الكتاب: «وكتب جُهَيْم بن الصَّلْت»، وكان الزبير بن العوام وجهيم يكتبان أموال الصّدقات[1].

والصّحابيّ بُرَيْدَة بن الحُصَيْب الأَسْلَمِيّ، أسلم حين مَرَّ به النبيّ ﷺ مهاجراً من مكّة إلى المدينة، هو ومَنْ معه وكانوا نحو ثمانين بيتاً، فصلى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة، فصلّوا خلفه، وأقام بريدة في أرض قومه، ثم قدم على رسول الله ﷺ بعد أُحُد، فشهد معه مشاهده، وشهد الحُدَيْبِيَّة وبيعة الرّضوان تحت الشجرة، وكان من ساكني المدينة، ثم تحول إلى البصرة، ثم خرج غازياً إلى خُراسان، فأقام بمَرْو حتى مات، وكان من كُتّاب النبيّ ﷺ[2].

والصّحابي عامر بن فُهَيْرة، مولى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، كان من السّابقين إلى الإسلام وعُذِّب في الله، فاشتراه أبو بكر وأعتقه. ولما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار بجبل ثور مهاجرين، أمر أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة أن يروح بغنم أبي بكر عليهما، فكان إذا أمسى أراح غنم أبي بكر فاحتلباها، ولما سار النبيّ ﷺ وأبو بكر من الغار، هاجر عامر معهما. وطارد سُراقةُ بن مالك النبيّ ﷺ وأبا بكر وعامر بن فهيرة فلما أخفق سراقة في مطاردته سأل النبيّ ﷺ أن يكتب له كتاب موادعة يأمره به، فأمر أبا بكر وعامراً، فكتبا في رقعة من

---

(١) الإصابة (٢/٢٦٧)، وأسد الغابة (١/٣١١-٣١٢) والاستيعاب (١/٢٦١) وعيون الأثر (٢/٣١٥) وجمهرة أنساب العرب (٧٣)، وانظر نصّ الكتاب النبوي في: سيرة ابن هشام (٤/١٨٠-١٨١).

(٢) عيون الأثر، (٢/٣١٦) وانظر: أسد الغـابـة (١/١٧٥) والإصـابـة (١/١٥١) والاستيعاب (١/١٨٥) وجمهرة أنساب العرب (٢٤٠).

أدَم، وسلّما الكتاب إلى سراقة، فمضى إلى سبيله، فكان عامر من كتّاب النبيّ ﷺ، واستُشهد في سرية بئر مَعُونَة[1].

والصّحابيّ عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح العامِريّ من قريش، أخو عثمان لأمّه من الرّضاعة، كتب الوحي ثم ارتد عن الإسلام ولحق بمشركي مكّة، ثم عاد إلى الإسلام بعد فتح مكة وحسن إسلامه جداً، وأصبح من قادة الفتح الإسلامي ومن الولاة الجيِّدين[2].

والصّحابيّ حَنْظَلَة بن الرَّبيع التَّمِيْمِيّ الأُسَيِّدي الكاتب، وأخوه رَباح[3] صحابيّ أيضاً، وعمّه أكْثَم بن صَيْفِيّ كان حكيم العرب. كتب للنبيّ ﷺ، وبعثه رسول الله ﷺ إلى أهل الطائف: «أتريدون الصُّلح أم لا؟»، فلما توجّه إليهم قال رسول الله ﷺ: «**إئْتَمُّوا بهذا وأشباهه**». وشهد مع خالد بن الوليد حروبه بالعراق وغيرها، وأدرك أيام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان قد نزل الكوفة، فانتقل عنها لما شُتم بها عثمان بن عفّان رضي الله عنه، ومات بعد أيام عَلِيّ. ولما مات جزعت عليه امرأته، فلامها جاراتها وقُلْنَ: «يحبط أجرك!»، فقالت:

تَعَجَّبَتْ دَعْدُ لمحزونةٍ	تَبْكي على ذي شَيْبَةٍ شاحِبِ
إن تَسْأَلِيْنِي اليومَ ما شَفَّنِي	أُخْبِرْكِ قَوْلاً ليس بالكاذِبِ
إنَّ سَوادَ العَيْنِ أَوْدَى بهِ	حُزْنٌ على حَنْظَلَةَ الكاتِبِ

---

(1) البداية والنهاية (٣٤٨/٥ و ٣٥١) وأسد الغابة (٩٠/٣-٩١) والإصابة (١٤/٤-١٥) والاستيعاب (٧٩٦/٢-٧٩٧) وطبقات ابن سعد (٢٣٠/٣-٢٣١).

(2) البداية والنهاية (٣٥٠/٥) وعيون الأثر (٣١٥/٢-٣١٦)، وانظر: أسد الغابة (١٧٣/٣-١٧٤) والإصابة (٧٦/٤-٧٨) والاستيعاب (٩١٨/٣-٩٢٠)، وانظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح المغرب العربي (٥١/١-٧٤).

(3) انظر سيرته في: أسد الغابة (١٦٠/١) والإصابة (١٩٢/٢) والاستيعاب (٤٨٦/٢).

وكان معتزلاً للفتنة حتى مات[1] في قَرْقِيْسِيَاء[2].

والصّحابيّ حُذَيْفَة بن اليَان[3]، ويُعتبر من الأنصار، لأنّه سكن المدينة ولجأ إلى أهلها، وكان من كتّاب النبيّ ﷺ، يكتب خَرْص[4] النّخل[5].

والصّحابيّ أُبيّ بن كَعْب الخزرجي الأنصاري، شهد العَقَبَة وبَدْراً، قال رسول الله ﷺ: «... اقرأ أُمَّتي أُبَيّ بن كعب»، وقال عمر بن الخطاب: «أُبَيّ أقرؤنا». وهو أوّلُ مَن كتب لرسول الله ﷺ مقدمه المدينة، وهو أول من كتب في آخر الكتاب، وكتب فلان بن فلان»، فإذا لم يحضر أُبَيّ كتب زيد بن ثابت. وكان أحد فقهاء الصّحابة وأقرأهم لكتاب الله. وكان أصحاب القضاء من أصحاب رسول الله ﷺ ستّة: عمر بن الخطّاب، وعليّ بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأُبَيّ ابن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأَشْعَرِيّ.

واختُلِف في وقت وفاته، فقيل: توفي سنة اثنتين وعشرين في خلافة عمر بن الخطّاب، وقيل: في سنة ثلاثين في خلافة عثمان بن عفّان، وقيل: سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين، وقيل: سنة اثنتين وعشرين، وقيل: إنه مات في خلافة عثمان سنة اثنتين وثلاثين، والأكثر أنه مات

---

(١) البداية والنهاية (٥/٣٤٢) وأسد الغابة (٢/٥٨ ـ ٥٩) والإصابة (٢/٤٣ ـ ٤٤) والاستيعاب (١/٣٧٩).

(٢) قرقيسياء: بلد على نهر الخابور - خابور الفرات - قرب الرَّحبة، وعندها مصب الخابور في الفرات، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٥٩-٦٠)، وانظر موته في هذه المدينة في الإصابة (٢/٤٣-٤٤).

(٣) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح بلاد فارس (١٠٨-١١٧).

(٤) الخرص: خرص النخل، حزر ما فيه من الرّطب تمراً.

(٥) نهاية الأرب (١٨/٢٣٦).

في خلافة عمر بن الخطاب، وكان أبيض الرأس واللّحية لا يغيّر شيبه[1].

والصّحابيّ زيد بن ثابت الأنصاريّ الخزرجي ثم النَّجَّارِيّ، كان حين قدوم رسول الله ﷺ المدينة ابن إحدى عشرة سنة، وقتل أبوه يوم بُعَاث - أحد أيام القتال بين الأوس والخزرج في الجاهلية، انتصر فيه الأوس - واستصغره النبيّ ﷺ يوم بَدْر، ثم شهد أُحُداً وما بعدها، وقيل: أوّل مشاهده الخندق، وكانت راية بني مالك بن النجّار في تَبوك مع عمارة بن حزم، فدفعها رسول الله ﷺ إلى زيد بن ثابت، فقال عمارة: «يا رسول الله! أبلغكَ عني شيء؟»، قال: «**لا، ولكنّ القرآن مُقَدَّم، وزيد أكثر أخذاً منك للقرآن**».

وكان زيد أحد فقهاء الصّحابة الجُلَّة الفُرّاض، وهو أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن في عهد النبيّ ﷺ. قال رسول الله ﷺ: «**أفرض أمَّتي زيد بن ثابت**».

وكانت ترد على رسول الله ﷺ كُتب بالسريانيّة، فأمر زيداً فتعلّمها في بضعة عشر يوماً.

وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ وغيره، وكتب بعده لأبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وأمره أبو بكر فجمع القرآن في المصحف بعد وفاة رسول الله ﷺ، فلما اختلف الناس في القراءة زمن عثمان بن عفّان رضي الله عنه، أمره أن يُملّ المصحف على قوم من قريش جمعهم إليه، فكتبوه وبعثوا بنسخٍ منه إلى الأمصار.

وكانوا يقولون: «غلب زيد بن ثابت الناس على اثنين: القرآن،

---

(١) طبقات ابن سعد (٤٩٨/٣) و (٣٤٠/٢) وأسد الغابة (٤٩/١) والإصابة (١٦/١) والاستيعاب (٦٥/١) والاستبصار (٤٨) والبداية والنهاية (٣٤٠/٥).

والفرائض »، وقال مسروق: «قدمت المدينة فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين في العلم »، وقال مالك بن أنس: «كان إمام الناس عندنا بعد عمر بن الخطّاب زيد بن ثابت - يعني بالمدينة - وبعده عبد الله بن عمر ».

واستخلف عمر زيد بن ثابت على المدينة ثلاث مرّات: في حجّتين، وفي خروجه إلى الشّام، وكان عمر يُقدّمه ويضنّ به أن يخرج من مدينة رسول الله ﷺ.

وكان زيد من أفكه الناس إذا خلا مع أهله، وأزْمَته[1] إذا جلس مع القوم. وجعله عثمان على بيت المال، ومات سنة نيّف وأربعين، وهو ابن تسع وخمسين سنة.

وكان حافظاً لبيباً عالماً عاقلا، ثبت عنه في صحيح البخاري، أن رسول الله ﷺ أمره أن يتعلّم كتاب يهود ليقرأه على النبيّ ﷺ إذا كتبوا إليه، فتعلّمه في خمسة عشر يوماً، فكان يقرأ له إذا كتبوا إليه، ويجيب عنه إذا كتب، وهذا دليل على ذكائه المفرط جداً.

لقد كان زيد من علماء المسلمين الأعلام وفقهائهم الكبار، وكان له فضل عظيم في جمع القرآن الكريم في مصحف عثمان بن عفّان، كما يطلقون عليه قديماً وحديثاً[2].

والصّحابيّ ثابت بن قيس الأنصاري الخزرجي، خطيب الأنصار وخطيب النبيّ ﷺ، كما كان حسّان بن ثابت شاعره. شهد أُحُداً وما

---

(١) أزمته: فعل من الزماتة، وهي الوقار والجلال.

(٢) طبقات ابن سعد (٢/٣٥٨-٣٦٢) وأسد الغابة (٢/٢٢١-٢٢٣) والإصابة (٣/٢٢-٢٣) والاستيعاب (٢/٥٣٧-٥٤٠) وتهذيب الأسماء واللغات (١/٢٠٠-٢٠٢) والاستبصار (٧١-٧٣) والبداية والنهاية (٥/٣٤٦ و ٣٥٠).

بعدها، وقُتل يوم اليَمَامة سنة إحدى عشرة الهجريّة في خلافة أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه شهيداً. وثبت في صحيح مسلم، أنّ رسول الله ﷺ بشّر ثابت بن قيس بالجنّة وأخبره أنّه من أهلها، وثبت في الترمذي بإسناد صحيح، أنّ رسول الله ﷺ قال: «**نِعْمَ الرَّجل ثابت بن قيس**».

وكتب ثابت لرسول الله ﷺ، فإذا لم يحضر عبد الله بن أرقم بن أبي الأرقم وزيد بن ثابت كتب مَنْ حضر من الناس. وقدم المدينة بعد فتح مكة وفد من الوفود على النبيّ ﷺ فأسلموا وبايعوا على قومهم، فكتب النبيّ ﷺ لهم كتاباً بما فرض عليهم من الصّدقة في أموالهم: «كتبه ثابت ابن قيس»[1].

وكان من سادة الأنصار وحامل لوائهم يوم اليامة[2].

والصّحابي حُصَيْن بن نُمَيْر الأنصاري، وهو من جملة مَن كان يكتب للنبيّ ﷺ، وكان المُغِيْرَة بن شُعْبَة والحُصَيْن يكتبان المداينات والمعاملات[3].

والصَّحابيّ أبو أيُّوب الأنصاري الخزرجيّ النجّاري، وهو خالد بن زيد الأنصاري، شهد بَدْراً وأُحُداً والخندق وبيعة الرّضوان وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ، ونزل عليه رسول الله ﷺ حين قدم المدينة مهاجراً، وأقام عنده شهراً، حتى بُنِيت مساكنه ومسجده، وكان من

---

(١) البداية والنهاية (٣٤١/٥-٣٤٢)، وانظر أسد الغابة (٢٢٨/١-٢٣٠) والإصابة (٢٠٣/١) والاستيعاب (٢٠٠/١-٢٠٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١٣٩/١-١٤٠) والاستبصار (١١٧-١١٩).

(٢) الاستبصار (١٩٩).

(٣) الإصابة (٢١/٢-٢٢) وانظر عيون الأثر (٣١٦/٢).

كتّاب النبيّ ﷺ. وكان مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ومن خاصّته، وشهد معه معركة الجَمَل وصِفّين والنَّهْرَوان، وكان على مقدِّمته يوم النَّهروان. ثم إنه غزا أيام معاوية بن أبي سفيان أرض الروم مع يزيد بن معاوية سنة إحدى وخمسين الهجرية، فتوفي عند مدينة القُسْطَنْطِينِيَّة، وقيل: سنة خمسين، فدفن هناك. وقيل: إنّ الروم قالت للمسلمين في صبيحة دفنهم لأبي أيوب: «لقد كان لكم اللّيلة شأن» قالوا: «هذا رجل من أكابر أصحاب نبيِّنا وأقدمهم إسلاما، وقد دفناه حيث رأيتم، ووالله لئن نُبِش لأضرب لكم بناقوس في أرض العرب، ما كانت لنا مملكة».

ولم يتخلّف أبو أيوب عن غزاة في كلّ عام إلى أن مات بأرض الرُّوم، وكان يقول: «قال الله عزّ وجلّ: ﴿انفروا خفافا وثقالا﴾[1]، فلا أجدني إلاّ خفيفاً أو ثقيلا»[2].

والصَّحابيّ عبد الله بن رَوَاحة الأنصاري الخزرجيّ، شهد العقبة وكان يومئذٍ نقيب بني الحارث بن الخزرج، وشهد بَدْراً وأُحُداً والخندق والحُدَيْبِيَّة وخَيْبَر وعُمرة القضاء والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ إلا الفتح وما بعدها، فإنه تُوفي قبلها يوم مُؤْتَة، وهو أحد الأمراء في سرية مُؤْتة، وكان أوّل خارج إلى الغزوات وآخر قادم. وكان أحد الشعراء المحسنين الذين يردّون الأذى عن رسول الله ﷺ وعن الإسلام والمسلمين. عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: «ما رأيتُ أحداً أجرأ ولا أسرع شعراً من ابن رواحة، وعن أبي الدَّرْداء

---

(١) سورة التوبة، آية ٤١.

(٢) أسد الغابة (١٤٣/٥-١٤٤) والإصابة (٨٩/٢-٩٠) والاستيعاب (١٦٠٦/٤-١٦٠٧) والاستبصار (٦٩-٧١) وتهذيب الأسماء واللغات (١٧٧/٢) وعيون الأثر (٣١٦/٢).

رضي الله عنه قال: «أعوذ بالله أن يأتي يوم لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة، كان إذا لقيني يقول: يا عويمر! اجلس فلنؤمن ساعة، فنجلس فنذكر الله ما شاء الله، ثم يقول: يا عويمر! هذا الإيمان». وهو الذي شجع المسلمين في سرية مؤتة على لقاء الكفّار، وكان المسلمون ثلاثة آلاف، والكفار مائتي ألف، وقيل غير ذلك، ومناقبه كثيرة مشهورة. وفي صحيحي البخاري ومسلم، عن أبي الدَّرْدَاء، قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حرٍّ شديد، حتى أنّ أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحرّ، وما فينا صائم إلاّ رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة».

استُشهد في سرية مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمانٍ الهجرية، ولم يعقب، وكان من كتّاب رسول الله ﷺ(١).

والصَّحابي عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ الأنصاري الخزرجي، أبوه عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُوْل المنافق، وكان عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ من فضلاء الصَّحابة وساداتهم، وكان اسمه: الحُبَاب، وبه كان أبوه يكنى، فلما أسلم سمّاه رسول الله ﷺ: عبد الله.

شهد بَدْراً وأُحُداً والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، واستأذن النبيّ ﷺ في قتل أبيه على نفاقه، فنهاه النبيّ ﷺ عن قتله وقال له: «**بل نحسن صحبته ونترفّق به ما صحبنا، ولا يتحدّث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه، ولكن برّ أباك وأحسن صحبته**». وكانت الخزرج قد أجمعت على أن يتوّجوا أباه عبد الله بن أُبَيّ ويملّكوه أمرهم قبل الإسلام

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٦١٢-٦١٣) وأسد الغابة (٣/١٥٦-١٥٩) والإصابة (٤/٦٦-٦٧) والاستيعاب (٣/٨٩٨-٩٠١) والاستبصار (١٠٨-١١٢) وتهذيب الأسماء واللغات (١/٢٦٥) وعيون الاثر (٢/٣١٥).

فلما جاء النبيّ ﷺ رجعوا عن ذلك فحسد النبيّ ﷺ وأخذته العزّة، فأضمر النّفاق.

واستُشهد عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ يوم اليمامة في خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه سنة اثنتي عشرة الهجرية، وكان من كتّاب النبيّ ﷺ[1].

والصَّحابي عبد الله بن زيد بن عبد ربّه الأنصاريّ الخزرجيّ، شهد العَقَبَة مع السّبعين، وبَدْراً وأُحَداً والخندق والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، وهو الذي أُرى الآذان، وكانت رؤياه في السَّنة الأولى من الهجرة بعد أن بنى رسول الله ﷺ مسْجده، وكان أبوه وأمّه صحابيين، وكانت معه راية بني الحارث بن الخزرج يوم فتح مكة، وقد روى عبد الله بن العبّاس رضي الله عنهما، أنّ عبد الله بن زيد كتب كتاباً لأهل جُرَش[2] الذين أسلموا، فيه الأمر لهم بإقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة وإعطاء خُمس المغنم، وكان ما كتبه بأمر رسول الله ﷺ، فهو من كُتّاب النبيّ ﷺ.

وقد تُوفي بالمدينة سنة ثنتين وثلاثين الهجرّية، وهو ابن اربع وستين سنة، وصلّى عليه عثمان بن عفّان رضي الله عنه[3].

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٥٤٠-٥٤٢) وأسد الغابة (٣/١٩٧-١٩٨) والإصابة (٤/٩٥-٩٦) والاستيعاب (٣/٩٤٠-٩٤٢) والاستبصار (١٨٤-١٨٥) وتهذيب الأسماء واللغات (١/٢٧٦-٢٧٧) وعيون الأثر (٢/٣١٥).

(٢) جُرَش: من مخاليف (محافظات) اليمن من جهة مكة، انظر معجم البلدان (٣/٨٤). وجَرَش: مدينة بالبلقاء (الأردن) انظر معجم البلدان (٣/٨٥) ولها ذكر في الحديث، انظر النهاية لابن الأثير (١/١٨٤).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/٥٣٦-٥٣٧) وأسد الغابة (٣/١٦٥-١٦٧) والإصابة (٤/٧٢) والاستيعاب (٣/٩١٢-٩١٣) والاستبصار (١٣٢-١٣٣) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/٢٦٨-٢٦٩) والبداية والنهاية (٥/٣٥٠) وعيون الأثر (٢/٣١٥).

والصحابيّ محمد بن مَسْلَمَة الأنصاري الأَوْسِيّ، أحد الذين قتلوا كعب بن الأشرف، شهد بَدْراً وأُحُداً والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ إلاّ تبوك، لأنّ النبيّ ﷺ استخلفه على المدينة، واستعمله عمر بن الخطاب على صدقات جُهَيْنَة، وكان صاحب العمّال أيام عمر، إذا اشتكى إليه عامل أرسل محمّد يكشف الحال، وهو الذي أرسله عمر إلى عماله ليأخذ شطر أموالهم لثقته به. واعتزل الفتنة بعد قتل عثمان بن عفان، واتّخذ سيفاً من خشب وقال: «بذلك أمرني رسول الله»، قال: «أعطاني رسول الله ﷺ سيفاً، وقال: **قاتل به المشركين فإذا اختلف المسلمون بينهم فاكسره على صخرة، ثم كُنْ حِلْساً[1] من أحلاس بيتك**»، ولم يشهد من حروب الفتنة شيئاً. وممن قعد عن الفتنة، سعد بن أبي وقاص وأُسامة بن زيد وعبد الله بن عمر بن الخطّاب وغيرهم. وقيل: إنه هو الذي قتل مرحبا اليهودي، والصّحيح الذي عليه أكثر أهل السِّير والحديث، أنّ عليّ بن أبي طالب قتل مرحبا. وقال حُذَيْفَة بن اليَمَان: «إني لأعلم رجلاً لا تضرّه الفتنة، محمد بن مسلمة»، قال الراوي: «فأتينا الرَّبذة[2] فإذا فسطاط مضروب، وإذا فيه محمّد بن مسلمة، فسألناه فقال: لا نشتمل على شيء من أمصارهم حتى ينجلي الأمر عما انجلى»

وكان محمد بن مسلمة من فضلاء الصّحابة، وهو الذي كتب لوفد مُرَّة كتاباً عن أمر رسول الله ﷺ، فكان من كُتاب النبيّ ﷺ.

توفي بالمدينة سنة ثلاث وأربعين الهجرية على المشهور عند الجمهور،

---

(١) الحلس: ما يبسط في البيت من حصير ونحوه تحت كريم المتاع، ويقال: هو حلس بيته لا يبرحه.

(٢) الرّبذة: قرية من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز من فيد إلى مكة، أنظر معجم البلدان (٤/٢٢١-٢٢٢).

ولم يستوطن غير المدينة، وقيل: كان عمره سبعاً وسبعين سنة، وكان أسمر شديد السُّمرة طويلاً أصلع، وخلّف من الولد عشرة ذكور وست بنات[1].

نستطيع أن نتبين ممّا ذكرناه، أنّ المداوم على الكتابة زيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان بعد إسلامه عام الفتح، وكان معاوية يكتب إلى الأطراف، وكان زيد ومعاوية يكتبان الوحي.

وكان الزُّبير بن العوّام وجُهَيْم بن الصّلت يكتبان أموال الصّدقة، وكان حُذَيْفة بن اليمان يكتب خَرْص النَّخل. وكان المُغَيْرة بن شُعْبة والحُصَيْن بن نُمَيْر يكتبان المداينات والمعاملات[2].

وكان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، كاتب العهود ومواثيق الصّلح والرّسائل إلى الأطراف.

وقد تعلّم زيد بن ثابت الأنصاري السريانيّة والعِبْريّة، وكان من ألزم الناس للنبيّ ﷺ في الكتابة.

وكان خالد بن سعيد بن العاص، أوّل مَنْ كتب لرسول الله ﷺ بعد عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وأوّل من كتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

وكان عبدالله بن الأرقم بن أبي الأرقم، من المواظبين على كتابة الرسائل للنبيّ ﷺ، كما كان معاوية بن أبي سفيان ملازماً للنبيّ ﷺ بعد عام الفتح، لا عمل له غير الكتابة.

---

(١) طبقات ابن سعد (٤٤٣/٣) واسد الغابة (٣٣٠/٤-٣٣١) والإصابة (٦٣/٦-٦٤) والاستيعاب (١٣٧٧/٣) والاستبصار (٢٤١-٢٤٢) وتهذيب الأسماء واللّغات (٩٢/١) والبداية والنهاية (٣٥٣/٥-٣٥٤) وعيون الأثر (٣١٥/٢).

(٢) نهاية الأرب (٢٣٦/١٨).

وقد كتب أُبَي بن كعب رسائل النبيّ ﷺ، وهو أوّل مَن كتب في آخر الكتاب: «كتب فلان».

وأنّ القراءة والكتابة والحساب في الحجاز كانت قليلة جداً بين العرب، وكانت أقل انتشاراً مما هي عليه في عرب اليمن والعراق والشّام والجزيرة. وهذا ما كان عليه الموقف التعليمي للعرب في الجاهلية.

وما يقال عن عرب الحجاز، يقال عن عرب نَجْد أيضا.

ولكن نسبة المتعلّمين بمكة أكثر من نسبتها في يَثْرب قبل الإسلام، لأنّ مجتمع مكّة مجتمع تجاريّ، ومجتمع يثرب مجتمع زراعيّ، وحاجة المجتمع التجاريّ إلى التعليم أكثر من حاجة المجتمع الزراعي إليه.

وبدأ التعليم الجديّ في المدينة بعد هجرة المسلمين إليها، بتعليم المهاجرين للأنصار، وبتعليم أسرى بَدْر من المشركين لأطفال الأنصار وصبيانهم، فكان زيد بن ثابت الأنصاري ممّن علّمه أسرى بَدْر المشركون[1]، فصار له شأن عظيم بين كُتاب النبيّ ﷺ كما مرّ بنا.

وبالرغم من الجهود المبذولة لتعليم أهل المدينة بعد الإسلام وبفضله، إلاّ أن كفّة المكّيين ظلت راجحة على كفّة المدنيين من الناحية التعليمية، يدلّنا على ذلك أنّ كُتّاب النبيّ ﷺ المكيين ثمانية وعشرون كاتباً، وكتّابه المدنيين عشرة فقط، أي بنسبة ثلاثة على واحد، وهي نسبة عالية جداً تظهر البون الشاسع بين المكيين والمدنيين في مجال التعليم.

ولكن لم تمض سنوات معدودات على استقرار الإسلام في المدينة

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٢٢).

المنوّرة، حتى تبدّل الحال وتغير الوضع، إذ سبقت المدينة مكة، وأصبحت المدينة مركز العالم الإسلامي في العلوم بعامة وفي العلوم الإسلامية بخاصة.

وهكذا ظلّ ملاك كُتّاب النبيّ ﷺ في تصاعد مستمر، بعد بعثته عليه الصلاة والسلام، إلى التحاقه بالرّفيق الأعلى، فبدأ بلا كاتب ولا كتابة إنما يُستظهر ما يُنزّل من القرآن في الصدور، ثم كان للنبيّ كاتب واحد، واستمرّ الخطّ البياني للكتّاب في تزايد مستمر، حتى أصبح عددهم بموجب ما سجّلناهم في هذه الدراسة ثمانية وثلاثين كاتباً[1]، وحتى هذا العدد الضخم نسبياً بالنسبة للعدد المتواضع منهم في الصدر الأول للإسلام، لا يُعتبر شيئاً مذكوراً بالنسبة لعددهم في عهد الخلفاء الراشدين - بخاصة بعد تدوين الدواوين في عهد عمر بن الخطاب، وتوسّع الفتح الإسلامي العظيم.

لقد كان عدد الكتّاب على عهد النبيّ ﷺ أوّل الغيث، ثم انهمر مدراراً طيِّباً مباركاً فيه، وكان ذلك نتيجة من نتائج تشجيع الإسلام على العلم، إذ اعتبره عبادة من أجَلِّ العبادات، ونتيجة من نتائج الفتوح وتوطيد أركان الدولة وتوسع واجباتها في السِّلم والحرب.

---

(١) يراجع ما جاء حول كتاب النبي ﷺ في: الطبري (١٧٣/٣) وابن الأثير (٣١٣/٢) والبداية والنهاية (٣٣٩/٥-٣٥٥) وفيه أوسع دراسة على الكُتّاب، ومختصر التاريخ للكازروني (٥٥-٥٦) واليعقوبي (٦٤/٢) وعيون الأثر (٣١٥/٢-٣١٦) والسيرة الحلبية (٣٦٤/٣) وجوامع السيرة (٢٦-٢٧) وأنساب الأشراف (٥٣١/١-٥٣٢) ونهاية الأرب (٢٣٦/١٨-٢٣٧) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢٩/١).

الخَاتم[١]

لما رجع رسول الله ﷺ من الحُدَيْبِيَّة في ذي الحجة سنة ست الهجرية، أرسل الرّسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتباً، فقيل: يا رسول الله! إنَّ الملوك لا يقرأون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتماً من فضّة، فصّه منه، نقشه ثلاثة أسطر: محمّد رسول الله، وختم به الكتب[٢].

وكانت أسطر الخاتم الثلاثة: محمد في سطر، ورسول في سطر، والله في سطر[٣]، وكان النبيّ صَلّى الله عليه وسلم يلبس خاتمه بيساره[٤].

وكان خاتم النبيّ ﷺ في يده حتى مات، وفي يد أبي بكر وعمر حتى ماتا، ثم كان في يد عثمان بن عفان ست سنين، فسقط الخاتم في بير أَرِيْس[٥]، فطلبه عثمان ومن معه ثلاثة أيام في البئر، فلم يقدروا عليه[٦].

وقد ذكرنا أن مُعَيْقِيْب بن أبي فاطمة الدَّوْسِيّ كان من كُتَّاب النبيّ ﷺ، وأنه كان على خاتم النبيّ ﷺ، وهو الذي سقط من يده خاتم النبيّ ﷺ أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه في بئر أَرِيْس فلم يُوجد[٧]، ويبدو أن عثمان استعمله على الخاتم كما استعمله رسول الله ﷺ، لختم

---

(١) الخاتم: ما يُختم به، وهو حلقة ذات فصّ تُلبس في الإصبع والخاتَم: الخاتام، والجمع: خواتيم.

(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨) والبداية والنهاية (٦/٢)، رواه البخاري.

(٣) طبقات ابن سعد (١/٤٧٥).

(٤) طبقات ابن سعد (١/٤٧٧).

(٥) بئر أريس: بئر بالمدينة ثم بقُبأ مقابل مسجدها، أنظر معجم البلدان (٢/٢).

(٦) طبقات ابن سعد (١/٤٧٦-٤٧٧)، والبداية والنهاية (٦/٢) وجوامع السيرة (٢٨).

(٧) أسد الغابة (٤/٤٠٣).

الكتب والوثائق، فسقط الخاتم من يده، أو من يد عثمان، وهو الأشهر الذي عليه أكثر المصادر المعتمدة.

وكان خاتم النبيّ ﷺ في نقشه: محمد رسول الله، في ثلاثة أسطر، السطر الأعلى: الله، والسطر الأوسط: رسول، والسطر الأخير: محمّد، وكان منقوشاً وكتابته مقلوبة، ليطبع على الاستقامة[1]، فقد حُفرت الأحرف: محمد رسول الله، على فص الخاتم، وعندما يختم به فإنّ الحِبْر يغطّي الدائرة ما عدا الأحرف المحفورة، فتظهر بعد الختم بيضاء تقرأ بوضوح ويسر.

والصورة الموجودة لخاتم النبيّ ﷺ واضحة الكتابة، دقيقة الأحرف، متميِّزة الخط، متناسقة الوضع، متساوية الأبعاد تقريباً، لا يُخطىء مَنْ يقرأها.

وكان خالد بن سعيد بن العاص الذي كان من كتاب النبيّ ﷺ والذي ذكرنا موجز سيرته في: (الكُتّاب) قبل قليل، قد أهدى رسول الله ﷺ خاتمه الذي نُقش عليه: (محمد رسول الله)، فقد ذكروا أن خالد بن سعيد أتى رسول الله ﷺ، وفي يده خاتم له، فقال له رسول الله ﷺ: «ما هذا الخاتم؟»، فقال: «خاتمٌ اتّخذتُه»، فقال: «ما نقشه؟»، قال: «محمد رسول الله»، فأخذه رسول الله ﷺ فلبسه، فهو الذي كان في يده[2].

وفي رواية أخرى، أنّ عمرو بن سعيد بن العاص[3] أخا خالد بن

---

(١) البداية والنهاية (٤/٦).

(٢) طبقات ابن سعد (٤٧٤/١).

(٣) انظر سيرته في: طبقات ابن سعد (١٠٠/٤-١٠١) وأسد الغابة (١٠٧/٤-١٠٨) والإصابة (٣٠٠/٤-٣٠١) والاستيعاب (١١٧٧/٣).

سعيد بن العاص، حين قدم من الحبشة على رسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا الخاتِم في يدك يا عمرو؟»، قال: «هذه حَلْقة يا رسول الله»، فأخذه رسول الله ﷺ فتختّمه، فكان في يده حتى قُبض(١).

والرواية الأولى أصحّ، لأنّ عمرو بن سعيد عاد من الحبشة في أعقاب غزوة خَيْبر التي كانت في شهر جمادي الأولى من السنة السّابعة الهجرية، ويومها كان سفراء النبيّ ﷺ قد غادروا إلى ملوك الدول الأجنبية خارج الجزيرة العربيّة، ومعهم الكُتُب النبويّة مختومةً، فلا بدّ أن يكون خاتم النبيّ ﷺ هو الذي كان خاتَم خالد بن سعيد لا خاتِم عمرو بن سعيد، وأنّ الخاتم الذي ختمت به تلك الرسائل النبويّة إلى الملوك هو خاتَم خالد بن سعيد.

المواد

في قصّة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنّه وجد أخته وزوجها ورجلين معها من المسلمين يقرأون القرآن في صحيفة معهم(٢).

ولما جعل الإسلام يزيد ويفشو، أجمع كفّار قريش على أن يتعاقدوا على بني هاشم وبني المُطَّلِب ابني عبد مناف، أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يُكلِّموهم ولا يجالسوهم، وكتبوا عقدهم في صحيفة(٣).

لقد استعمل العرب المواد الموجودة لديهم في شبه الجزيرة العربية للكتابة، فاستعملوا العِظام والحجارة والألواح الرَّقيقة وأغصان النَّخيل

---

(١) طبقات ابن سعد (٤٧٤/١).
(٢) أسد الغابة (٥٤/٤).
(٣) طبقات ابن سعد (٢٠٨/١) وجوامع السيرة (٦٤).

من السَّعفِ والجرَّيد والجلود، كما أنهم استوردوا أوراق البَرْدَى[١]، إلا أنّ الكتابة على الجلود كانت أكثر شيوعاً لتيسرها في مكة والمدينة، ولسهولة الكتابة عليها، ولمقاساتها المختلفة التي تتناسب مع المحتويات المطلوب كتابتها، ولقوتها ومتانتها وخِفَّة وزنها، ولمرونتها التي تجعلها تطوى على شكل دائري أو على شكل آخر، ولمقاومتها للزّمن وثباتها مع الأيام. وقد استعملت جلود الإبل والحُوَار[٢] بخاصة والغزلان، والغنم وبخاصة صغارها، وكانت تُصْنع بشكل رقيق أملس، ولهذا سُمِّيت بالرِّق[٣] لنعومتها ورقّتها المتناهية[٤].

وحين جمع زيد بن ثابت القرآن الكريم بأمر أبي بكر الصّديق رضي الله عنه، جمعه من العُسُب[٥]والرُّقاع[٦] ومن الأضلاع[٧] والأكتاف[٨] والأقتاب[٩] واللِّخاف[١٠] وصدور الرجال، كما قال زيد[١١]، فكانوا كما ذكرنا يكتبون على الجلود والعظام والأحجار وجريد النخل.

---

(١) البردي: نبات مائي من الفصيلة السعدية، تسمو ساقه الهوائية الى نحو متر أو أكثر، ينمو بكثرة في منطقة المستنقعات أعالي النيل، وصنع منه المصريون القدماء ورق البردى المعروف.

(٢) الحوار: ولد الناقة من وقت ولادته إلى أن يفطم ويُفصل (ج) أحْوِرة.

(٣) الرق: جلد رقيق يكتب عليه. (ج) رُقوق.

(٤) كانو (د. عبد اللطيف كانو) رسائل النبيﷺ إلى الملوك والأمراء (٤٢) - مجلة الوثيقة - العدد الأول - السنة الأولى - رمضان ١٤٠٢هـ.

(٥) العسب: جمع عَسِيب، وهو جريدة النّخل المستقيمة يُكْشَط خوصُها.

(٦) الرُّقاع: قطع من الورق أو الجلد يُكتب عليها، وهي جمع: رُقْعة: قطعة من الورق أو الجلد يُكتب عليها.

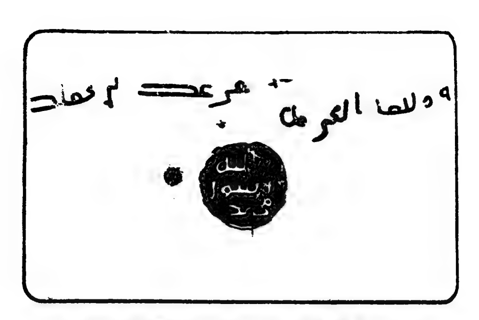
(٧) الأكتاف: جمع الكَتِف أو الكَتْف، عظم عريض خلف المنكب يكتب عليها.

(٨) الأقتاب: جمع قتب، وهو الرّحل الصغير على قدر سنام البعير.

(٩) اللخاف: جمع لِخافة، وهو حجر رقيق محدّد.

(١٠) السجستاني (الحافظ أبو بكر عبد الله بن أبي داود سليان السجستاني) - كتاب المصاحف(٧-٩) القاهرة - ١٣٥٥هـ.

(١١) سيرة ابن هشام (٣١٨/٣) وانظر مغازي الواقدي (٧٤٢/٢-٧٤٤).



ـ خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ، مستدير مكون من ثلاث كلمات محفورة « محمد . رسول . الله »

ولكن الكُتب النبويّة لأهميتها، وضرورة وصولها إلى الملوك سالمة تُقرأ بسهولة ويُسر، خفيفة الوزن، سهلة الحمل، يمكن إخفاؤها عن الأنظار، كانت تكتب على الجلود، وقد كانت مكّة بخاصة والحجاز بعامة مشهورة بتصنيع الجلود النفيسة، وكانت مكّة تصدّر الجلود إلى الشّام ومصر والحبشة ، وحين أراد عمرو بن العاص في سفارتيه إلى النّجاشي قبل إسلامه، لمحاولة حمله على تسليم المسلمين المهاجرين للحبشة إلى مشركي قريش، لم يجد هديّة مناسبة للنّجاشي ملك الحبشة ولرجالاته غير الجلود المدبوغة في مكّة، لأنّ النّجاشي ورجالاته كانوا يحبون مثل هذه الهدية النفيسة. قال عمرو بن العاص: «وكان أحبّ ما يُهدي إليه من أرضنا الأدم»[1].

---

(١) انظر المرجع السابق.

لقد استعمل الرَّق الناعم المصقول في رسائل النبيّ ﷺ التي أرسلها إلى الملوك والأمراء، وكانت هذه الرّسائل مختومة بخاتم النبيّ ﷺ، وأُستُعمل الحبر الأسود في كتابة مضمون الرسائل وفي الختم النبويّ المستدير. كما خُتمت الرَّسائل النبويّة بعد طيِّها بخاتم النبيّ ﷺ، حتى لا تُفتح تلك الرسائل إلاّ من قِبَل الذين أرسلت إليهم وحدهم دون سواهم من الناس.

أما الحبر المستعمل في رسائل النبيّ ﷺ، فقد يكون من نبات العُلَّيْق[١] الأسود، أو من مادة الكاربون النّاتجة من الدخان المتراكم في المطابخ التي تعمل بالخشب وفضلات الحيوانات المجفّفة، والذي يطلق عليه: «السُّخَام[٢]»، حيث تُجمع هذه المادة وتخلط في الماء بمادة لزجة من أجل جمعها وزيادة كثافتها وتماسكها.

ولا تزال تستخرج من بعض النباتات والأزهار، أصباغ مختلفة الألوان، ثابتة الأشكال، تستعمل في صبغ السّجاد البدويّ والأغطية الصوفيّة، وكان الحبر حتى عهد قريب يُستخلص من عناصر نباتيّة، كالعَفْصِ والزّاج[٣] والصّمْغ وما أشبهها، ومن دُخان شيء له دهنية، لأن دخان كلّ شيء مثله وراجع إليه[٤].

وحتى النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري، كان الحبر المستعمل في أكثر البلاد العربية حبراً محلّياً، يُصنع من النّبات، وتُكتب به المصاحف والكتب والرسائل والمعاملات، ولا تزال المخطوطات

---

(١) العليق: نبت يتعلّق بالشجر ويتلوى عليه ويستخرج منه مادة تكوّن الحبر الأسود.

(٢) السّخام، سواد القدر، والفحم، ويقال: ليل سخام: أسود.

(٣) الزاج: ملح معروف، يقال له: الشَّبّ اليماني، انظر معجم متن اللغة (٣/٧٥).

(٤) صبح الأعشى (٢/٤٧٤).

المكتوبة بالحبر النباتي المحلّي تحتفظ برونقها وخطّها الثابت الجميل.

وكان الحبر القديم بطيء الجفاف، لذلك كان الكاتب يستعمل رملاً خاصاً دقيق الذرّات ناعم الملمس، لتجفيف الحبر بعد إنجاز الكتابة.

أما الأقلام المستعملة في كتابة رسائل النبيّ ﷺ فقد كانت أقلام القصب المُسَنَّنَة برؤوس دقيقة ناعمة، وقد عرف العرب هذا النّوع من الأقلام، وسمِّيت بأسماء مختلفة منها: الأرْقم[1]، والقلم، والمِرْقم[1]، والمِزْبر[2]، والمدبر[3]، والمِلْقط[4] واليراع.

والقلم أشرف آلات الكتابة وأعلاها رتبة، إذ هو المباشر للكتابة دون غيره، وغيره من آلات الكتابة كالأعوان، وقد قال تعالى: ﴿نٓ والقلم وما يسطرون﴾[5]، فأقسم به، وذلك في غاية الشرف.

وقال تعالى: ﴿إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم﴾[6]، فأضاف التّعليم بالقلم إلى نفسه.

وقال رسول الله ﷺ: «**أوّل ما خلق الله القَلم، فقال: اكتب، قال: يا ربِّ، وما أكتب؟ قال: اكتب كلّ شيءٍ كائن إلى يوم القيامة، ثم قرأ: ﴿نٓ والقلم﴾** » رواه الطبراني.

---

(١) الأرقم: القلم (عن الزمخشري). والمِرْقَم: القلم أيضاً.
(٢) المزبر: القلم، أخذاً له من قولهم: زبرت الكتاب: إذا اتقنت كتابته، ومنه سميت الكتب زُبْراً: ﴿إنه لفي زُبُر الأولين﴾ سورة الشعراء، آية ١٩٦.
(٣) المدبّر: القلم.
(٤) الملقاط: القلم.
(٥) سورة القلم، آية ١.
(٦) سورة العلق، آية ٤.

وقال رسول الله ﷺ: «**أوّل ما خلق القلم، فقال: اكتُب، قال: يا ربِّ، وما أكتب، قال: اكتب القَدَرَ وما هو كائن إلى الأبد**»، رواه أحمد وأبو داود والتِّرمذي، وقال: حسن غريب.

وفي القرآن الكريم سورة كريمة، اسمها: سورة القلم، وهي السورة الثامنة والستون من سُور الذِّكر الحكيم.

وقد قُسِّمت سماكة سِنّ القلم بما يوازيها من سماكة شعر البِرْذَوْن، أي مساحة عرض القلم من حيث البراية بأربع وعشرين شَعرة من شَعْر البِرْذَوْن مُعْترِضات، وهو أصل لما دونه من الأقلام، فقلم الثلثين من هذه النِّسبة مُقدّر بست عشرة شعرة، وقلم النصف مقدّر باثنتي عشرة شعرة وقلم الثلث مقدر بثماني شعرات[1].

وقد اختلُف في اشتقاق القلم، فقيل: سُميَ قَلَماً لاستقامته، كما سميت القِداح أقلاماً في قوله تعالى: ﴿**إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم**﴾[2]، قال بعض المفسرين: «تشاحُّوا في كفالتها، فضربوا عليها بالقداح»، والقِداح مما يُضرب به المثل في الاستقامة، وقيل: هو مأخوذ من القُلاَّم، وهو شجر رِخْوٌ، فلما ضارعه القلم في الضّعف سُميَ قلما. وقيل: سُمّي قلما لِقَلْم رأسه، فقد قيل إنّه لا يُسمّى قلماً حتى يُبْرىٰ، أما قبل ذلك فهو قصبة، كما لا يُسمّى الرُّمح رُمْحاً إلا إذا كان عليه سِنّان، وإلا فهو قناة[3].

---

(١) صبح الأعشى (٢/٤٦٤-٤٦٥).
(٢) سورة آل عمران، آية ٤٤.
(٣) صبح الأعشى (٢/٤٥٠).

الخط

أوّل مَنْ كتب الخطّ العربي: حِمْير بن سبأ[1]، وكانوا قبل ذلك يكتبون بالمُسْند، سُمّي بذلك لأنهم كانوا يسندونه إلى هود عليه السلام[2]، ووجد هذا الخط وفروعه في آثار أعالي الحجاز: مَدْين والحِجْر، وفي العراق وبادية الشام والكويت والأحساء.

ومن الواضح أنّ وجود هذه الكتابات في العراق وفي الأنحاء المتاخمة للعراق، لّما يدعم أقوال العرب في خطّهم: (الجزْم)، الذي قيل أنه مجزوم من قلم المسند، بتحوير رسوم حروفه المفردة أو تسويتها ووصلها وفصلها كما جاء في أمهات الكتب العربيّة، التي أجمعت على أنّ مُرامِر بن مُرَّة وأسلَم بن سِدْرة، وعامِر بن جَدِرة من بَوْلان (وبولان قبيلة من طيء) نزلوا مدينة الأنبار، فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة، فاما مُرامِر فوضع الصّور، وأما أسْلم ففصل ووصل، وأما عامِر فوضع الإعجام، ثم نُقل هذا العلم إلى مكّة وتعلّمه مَنْ تعلّمه وكثر في الناس وتداولوه. وذلك لأنّ أربعة عشر حرفاً من حروف المسند مشابهة للحروف الكوفيّة، فيما إذا أُجرى تسوية أو تعديل في وضع الصّور المتقاربة الشبه بينهما.. ويقول الـفيـروزآبادي في القاموس المحيط في مادة جزم، «والجزم في الخط تسوية الحروف»، وقال الآلوسي في: (بلوغ الارب): «وسمي خط العرب بالجزم، لأنّ الخط الكوفي كان يسمى أولاً بالجزم قبل وجود الكوفة، لأنّه جزمَ أي أقتطع وولِّد المسند الحميري»، ومما يدعم هذه الأقوال في الجزم مطابقة عدد حروفه الكاملة لما جاء في الحديث النبوي

---

(١) حمير بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان، انظر: جمهرة أنساب العرب (٤٣٢).
(٢) صبح الأعشى (٩/٣).

الشريف المروي عن أبي ذر الغفّاري: «يا أبا ذر والذي بعثني بالحق نبيًّا، ما أنزل الله على آدم إلاّ تسعة وعشرين حرفاً»[1].

وكان الخطّ العربيّ قبل الإسلام، خالياً من الحركاتِ والإعجام (والإعجام تعني النقاط)، لعدم حاجتهم إليها، لأنّهم فصحاء انطبعوا على ملكة الإعراب بالسّليقة، ومن الواضح أنّ نَقْط الحروف العربيّة لم يحدث إلاّ عند وقوع العرب في التّصحيف.

وهناك رأي يقول: إن النّقط في الحروف العربية قديمة، أي منذ اختراع الكتابة، ولا دليل يثبت ذلك، فالكتابات القديمة التي كتبت قبل الإسلام غير منقوطة، والرسائل النبويّة التي عُثر عليها غير منقوطة، ومصحف عثمان بن عفّان غير منقوط أيضاً. وقد رُوي أنّ أول مَنْ نَقَط المصاحِفَ ووضع النُّقط على الحروف العربية هو أبو الأَسْود الدُّؤَلِيّ من تلقين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، فإن أُريد بالنّقْط في ذلك الإعجام، فيُحتمل أن يكون ابتداء لوضع الإعجام، والظّاهر ما تقدّم، إذ يبعدُ أنّ الحروف قبل ذلك مع تشابه صورها كانت عَرِيّة من النّقط إلى حين نَقْط المصحف.

وقد روي أنّ الصحابة رضوان الله عليهم جرّدوا المصحف من كلِّ شيءٍ حتى من النّقط والشّكل، على أنّه يحتمل أن يكون المرادُ بالنقط الذي وضعه أبو الأسود الدُّؤليّ الشكل على ما سيأتي بيانه إن شاء الله[2].

---

(١) صبح الأعشى (٣/٧) وانظر أنساب الأشراف (٤٧٤/١) والروض الأنف للسهيلي (١٠/١) والمحكم في نقط المصاحف (٢٥) وكتاب المصاحف لأبي داود (٤-٥) والمعارف (٢٤٠) والاشتقاق لابن دريد (٢٢٣) والعقد الفريد (١٥٦/٤) ووفيات الأعيان (٣٢/٢) وانظر مصور الخط العربي للمهندس ناجي زين الدين المصرف (٢٩٨) - بغداد - ١٣٨٨ هـ.

(٢) صبح الأعشى (١٥١/٣).

وبدون شك، فإنّ النّقط شيء، والشكل شيء آخر، وهما مختلفان غاية الاختلاف، كما يعرف ذلك مَنْ يحسن الكتابة والقراءة.

ونعود إلى ما ذكره القلقشندي على الشّكل، لنناقش بعد ذلك رأيه، ونقرِّر ما نراه.

قال بعض أهل اللغة: الشكل مأخوذ من شَكْل الدّابّة، لأنّ الحروف تُضْبَط بقيدٍ فلا يَلْتَبِس إعرابها كما تضبط الدّابّة بالشِّكال فيمنعها من الهروب.

وقد اختلف الرّواة في أوّل مَنْ وضع الشّكل في ثلاث مقالات، فذهب بعضهم إلى أنّ المبتدىء بذلك أبو الأسود الدُّؤَليّ، وذلك أنّه أراد أن يعمل كتاباً في العربية يقوِّم الناسُ به ما فسد من كلامهم، إذ كان ذلك قد فشا في الناس.

وقال: «أرى أن ابتدىء بإعراب القرآن أولاً»، فأحضرَ مَنْ يُمْسك المصحف، وأحضر صبغاً يخالف لون المداد. وقال للذي يمسك المصحف عليه: «إذا فتحتُ فاي فاجعل نقطة فوق الحرف، وإن كسرت فايَ فاجعل نقطة تحت الحرف، وإن ضممتُ فاي فاجعل نقطة أمام الحرف، فإن اتبعت شيئاً من هذه الحركات غُنَّةً (يعني تنويناً) فاجعل نقطتين»، ففعل ذلك حتى أتى على آخر المصحف.

وذهب آخرون أنّ المبتدىء بذلك نصر بن عاصم اللَّيْثيّ، وذهب آخرون أن المبتدىء بذلك يحيى بن يُعْمر وهؤلاء الثلاثة من جلّة تابعي البصريين.

وأكثر العلماء أنّ أبا الأسود جعل الحركات والتنوين لا غير[1].

---

(١) صبح الأعشى (١٥٦/٣).

والواقع أن العرب قبل اختلاطهم بالعجم، لم يكونوا بحاجة إلى النَّقْط ولا إلى الشَّكل، لأنهم كانوا فصحاء بالسَّليقة، لذلك كانت الكتابة عندهم بلا نقط ولا شكل.

أما بعد انسياح العرب المسلمين في الأقطار الأعجميّة، ودخول غير العرب في الإسلام، فقد أصبح النقط والشّكل ضروريان، لإمكان قراءة القرآن بخاصة والخط العربي بعامة على أفضل وجه كما يقرأه العرب أو قريباً منه.

وحتى العرب بعد اختلاطهم بالعجم، فسدت سليقتهم، فأصبحوا بحاجة إلى النقط والشّكل لاتقان قراءة لغتهم بما يعينهم على قراءتها سليمة صحيحة.

والصّحابة رضي الله عنهم كانوا يحرصون على سلامة القرآن من التّصحيف والتّحريف، والنقط والشّكل يجعلان ذلك ممكناً، فلو تيسّر النقط والشّكل في أيامهم لما أحجموا عن ضبط كتابة القرآن الكريم بالنقط والشّكل، كما صنع التابعون من بعدهم.

وما صنع التابعون ما صنعوا في ميدان النقط والشّكل إلا مضطرين، لتفشي الخطأ واللّحن والتصحيف الذي لم يقتصر على العجم وحدهم، بل شمل العرب أيضاً، لأن اختلاطهم بالعجم أفسد سليقتهم اللّغوية، وفي الوقت الذي كان عدد الصحابة الذين يلحنون قليلاً محدوداً، أصبح عدد الفصحاء من التابعين قليلاً محدوداً، فانقلب الوضع اللّغوي بعد اختلاط العرب بالعجم من حال إلى حال.

ولو أنّ التابعين علموا، أن النقط والشّكل كانا موجودين معروفين في أيام كتابة القرآن وجمعه في عهد أبي بكر الصدّيق وعثمان بن عفّان رضي الله عنهما، وأحجم الصّحابة عن إدخالهما في كتابة القرآن، لوسعهم ما وسع الصّحابة واقتدى التابعون بالصّحابة، ولكن النقط والشّكل لم

بعرفا في أيام الصحابة، ولو عُرفا لضُبط القرآن بها حتى لو كان العرب يومئذ فصحاء يضبطون اللّغة الفصحى بالسّليقة، لأنّ وجود النقط والشّكل في القرآن أفضل من عدم وجودها، ولأنّ حرص الصحابة على ضبط القرآن لا يقلّ بحال من الأحوال عن حرص التابعين. ولا نزال حتى اليوم، نعارض المطالبين بكتابة القرآن الكريم بالأسلوب الكتابيّ الحديث، تسهيلاً لقراءته على الجيل الجديد الذي يجد صعوبة في قراءته كما كُتب على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وسبب هذه المعارضة هو الخوف من التّحريف والتّصحيف، فليس من المعقول أن يخالف التابعون الصّحابة في القضايا الدينيّة وعلى رأسها الحفاظ على سلامة الذّكر الحكيم.

وإذا كان أوّل مَنْ نَقَط المصاحف ووضع النُّقط على الحروف هو أبو الأسود الدُّؤليّ من تلقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، فكيف يتفق ذلك مع الادّعاء بأنّ الصحابة جرّدوا المصحف من كل شيء حتى من النّقط والشّكل؟! أليس عليّ من الصحابة بل من سادة الصّحابة، فكيف يمكن أن يخالف إخوانه فيما اتفقوا عليه؟.

وهل النقط والشّكل يضرّان بمبدأ الحفاظ على سلامة القرآن من قريب أو بعيد؟ وإذا كان النّقط والشّكل يفيدان هذا المبدأ، كما حدث فعلاً - فكيف يمكن أن نصدّق أن الصحابة جردوا المصحف من كل شيء حتى من النقط والشّكل؟

وحتى في حالة بقاء العرب على فصاحتهم، فإن النّقط والشّكل لا يضرّان بسلامة القرآن في شيء، بل يفيدانه فائدة لا سبيل إلى إنكارها أو التنكر لها، ولا إلى التقليل من أهميتها والتهوين من قيمتها، ويكفي أن نتصوّر ماذا كان يحدث للقرآن الكريم وفي القرآن الكريم، لو لم يُضبط بالنّقط والشّكل.

والقضية ببساطة، أن الخط العربي في مكّة والمدينة، في وقت إرسال الرَّسائل النبوية ونزول القرآن، وفي وقت جمع القرآن، لم يكن منقوطاً ولا مشكولاً، بل كان خالياً من النقط والشّكل، فكُتبت الرّسائل النبوية، وكُتب القرآن الكريم بالخط العربيّ السّائد في مكّة والمدينة بدون نقط ولا تشكيل.

فلما اختلط العرب بالعجم بالفتح والجوار والزواج والمعايشة، فسدت العربية الفصحى حتى بالنسبة للعرب أنفسهم، كما أنّ العجم دخلوا في دين الله أفواجا، فأقبلوا على قراءة القرآن وتعلّم العربية لأنها لغة الإسلام، فاحتاجوا إلى ضبط الخطّ العربيّ والكتابة العربية، ليسهل تعلّمها على غير العرب، ولئلا يقع العرب وغير العرب بالأخطاء اللغويّة، فكان النّقط والشّكل ابتكارين جديدين، دخلا على الخطّ العربيّ والكتابة العربية، لسد حاجة اقتضتها الضرورة، والحاجة أمّ الاختراع كما يقولون.

وأبو الأسود الدُّؤلي ليس أوّل مَنْ وضع النّقط والشّكل فحسب، بل أوّل من وضع النَّحو أيضاً، قيل: إنّ عَلِيّاً رضي الله عنه وضع له: «الكلام كل ثلاثة أضرب: اسم، وفعل، وحرف»، ثم دفعه إليه، وقال له: «تمِّمْ على هذا».

وقيل: إنه كان يعلِّم أولاد زياد بن أبيه، وهو والي العراقين يومئذ، فجاءه يوماً وقال له: «أصلح الله الأمير! إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم وتغيّرت ألسنتهم، أَفتأذن لي أن اضع للعرب ما يعرفون أو يقيمون به كلامهم؟»، قال: «لا». فجاء رجل الى زياد وقال: «أصلح الله الأمير! توفي أبانا، وترك بَنُون»، فقال زياد: «ادعوا أبا الأسود»، فلما حضر قال: «ضع للناس الذي نهيتك أن تضع لهم».

وقيل: إنه دخل بيته يوماً، فقالت له بعض بناته: «يا أبَتِ! ما أحسنُ السَّمَاءِ»، فقال: «يا بُنيَّة! نُجومُها»، فقالت له: «إني لم أر أيّ شيء منها أحسن، إنّما تعجَّبت من حسنها»، فقال: «إذن فقولي: ما أحسنَ السّماءَ!»، وحينئذٍ وضع النحو.

وقيل لأبي الأسود: «من أين لك هذا العلم؟»، يعنون النَّحو، فقال: «لُقِّنْتُ حدوده من عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه».

وقيل: إنّ أبا الأسود، كان لا يُخرج شيئاً أخذه عن عليّ بن أبي طالب إلى أحد، حتى بعث إليه زياد: «أن اعمل شيئاً يكون للناس إماماً، ويُعرف به كتاب الله عزّ وجلّ»، فا ستعفاه من ذلك، حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ: ﴿إن الله بريء من المشركين ورسوله﴾[1]، بالكسر فقال: «ما ظننت أن أمر الناس آل إلى هذا»، فرجع إلى زياد فقال: «افعل ما أمر به الأمير، فليبغني كاتباً لَبِقاً يفعل ما أقول له» فأُتي بكاتب من عبد القَيْس، فلم يرضه، فأُتي بآخر، فقال له أبو الأسود: «إذا رأيتني قد فتحتُ فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه، وإن ضممت فمي فانقط بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النّقطة من تحت»، ففعل ذلك.

وتُوفي أبو الأسود بالبصرة سنة تسع وستين في طاعون الجارف، وعمره خمس وثمانون سنة، وقيل: إنّه مات قبل الطّاعون بعلّة الفالج، وقيل: إنّه توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، الذي تولى الخلافة في شهر صفر من سنة تسع وتسعين للهجرة، وتوفي في شهر رجب

---

(١) سورة التوبة، آية ٢.

من سنة إحدى ومائة للهجرة[1].

وقد ذكرنا كلّ ذلك لنثبت أن الخطّ العربيّ، وبخاصة في المدينة المنورة ومكّة المكرمة، كان بدون نقط ولا تشكيل، والحجّة التي ذكرها القلقشنديّ وردّدها من بعده مَنْ ردّدها بحسن نيّة أو بسوء نيّة وهي: «إذ يبعد أنّ الحروف قبل ذلك، مع تشابه صورها، كانت عَرِيَّةً من النَّقْطِ إلى حين نَقْط المصحف»، لا تُشكّل معضلة لا جواب عليها، فالجواب هو أن الحروف المتشابهة يمكن تمييزها من سياق الكلمة وسياق الجملة بسهولة، وإلاّ فكيف استطاع المسلمون العرب الذين يقرأون ويكتبون، أن يقرأوا القرآن الكريم قبل نَقْط حروفه، يوم كانت حروفه غير منقوطة؟!

إنّ هذه ليست معضلة بالنسبة للعرب القُدامى في الجاهلية وفي الصّدر الأول للإسلام، قبل أن يختلط العرب بالعجم اختلاطاً واسعاً، لأنّهم كانوا فصحاء انطبعوا على ملكة الإعراب بالسّليقة.

ولكنّها أصبحت معضلة خطيرة بالنسبة للعرب وللعجم، بعد اختلاط العرب بالعجم اختلاطاً شديداً هائلاً، وبعد أن دخل العجم في الإسلام وقرأوا القرآن وكتبوا، فوقـع العرب في التّصحيـف ووقـع العجم بالتّصحيف والتحريف، فكان لزاماً على قادة الفكر العربيّ والإسلامي، أن يضعوا حدّاً لهذا الانحراف اللّغوي المستشري بين الناس، فوضع النّقط والشّكل حلاّ لهذا الانحراف.

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٢/٢١٦-٢١٩) والدُّؤَلي - بضم الدال المهملة، وفتح الهمزة، وبعدها اللام - هذه النسبة إلى الدئِل - بكسر الهمزة، وهي قبيلة من كِنَانة، وإنّما فتحت الهمزة في النسبة لئلا تتوالى الكسرات، كما قالوا في النسبة إلى نَمِرَة: نَمَرِيّ - بالفتح، وهي قاعدة مطردة، والدئل: اسم دابة بين ابن عُرْس والثعلب.

وفي دراسة المحَدثين من الباحثين، نصّ قسم منهم، أنّ الرسائل النبويّة كُتبت بالخطّ المكيّ، وزعم قسم منهم أنّها كُتبت بالخطّ المدنيّ، وزعم قسم ثالث أنها كتبت بالخطّ المكيّ والمدنيّ.

ومن الصعب أن نتبيّن الفرق الواضح بين الخطّ العربيّ المكيّ، والخطّ العربيّ المدنيّ، وإذا كـان هناك أي فرق بينهما، فقد جمعها الإسلام على صورة واحدة وفي صعيد واحد.

والواقع أنّ الكتابة العربية كانت قليلة في الأوس والخزرج، وجاء الإسلام وفي المدينة بضعة عشر يكتبون[1]. أما في مكة فكانت الكتابة أكثر انتشاراً[2] كما ذكرنا من قبل، فعلّم أسرى المشركين في غزوة بدر المتعلمون صبيانَ الأنصار في المدينة القراءة والكتابة بمعدل عشرة صبيان لكل أسير مشرك متعلّم فداء له من الأسر. فكان زيد بن ثابت الأنصاري ممّن تعلّم من أسرى بدر المشركين[3]، وهو الذي جمع القرآن على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان من أبرز كُتّاب النبيّ ﷺ، وكان أكثر كُتاب النبيّ ﷺ من المهاجرين، فساد في مكة والمدينة الخطّ المكيّ، إن كان هناك أيّ اختلاف مهمّ بين الخطّين، أما بالنسبة لي وبالنسبة لمن سألتهم من الاختصاصيّين بالخط، فلم أستطع ولم يستطيعوا أن يتبيّنوا أيّ اختلاف .

لقد استُعمل الخط العربي البسيط الذي كان معروفاً لدى العرب، وهو الخط المكّي والمدنيّ، وقد كتبت الرّسائل النبويّة من عدّة كُتّاب، بخطّ واضح مقبول، وبأسطر مستقيمة، فيها التسلسل والمتابعة في خطّ

---

(١) صبح الأعشى (١١/٣).
(٢) صبح الأعشى (١٠/٣).
(٣) طبقات ابن سعد (٢٢/٢).

واحد متكامل بقدر الإمكان إلاّ انّ بعض الأحرف تبقى في بعض الأحيان بين سطرين: راجع مثلا رسالة النبيّ ﷺ إلى المنذر بن ساوي، ففي السَّطر الرابع والخامس كلمة: (أُذكرك)، ورد: (أذكر) في السَّطر الرابع والـ: (ك) في السطر الخامس. وكذلك كلمة: (رسلي)، في السّطر الخامس والسّادس، ال: (ر) في السّطر الخامس، و: (سلي) في السّطر السّادس.

والنّسخ الموجودة لدينا صورتها هي أربع: رسالة المنذر بن ساوى ورسالة هِرَقْل ورسالة كسرى ورسالة المقوقس. الرسالة المرسلة إلى المنذر ابن ساوى، والرسالة المرسلة إلى هرقل متقاربتان جداً، وهما بخط جميل متناسق واضح، وبمدادٍ متساوي المادة والسُّمْك. أما نوعيّة الخط، فهو متقارب في الرسائل الأربع، إلا أنّه من المؤكد أنّه لم يُكتب من كاتب واحد من كُتّاب النبيّ ﷺ بل تعدّد كتاب تلك الرسائل النبويّة.

وهناك بعض الكلمات والحروف الموجودة في الرّسائل النبويّة يمكن أن تُميّز بسهولة، وهي متقاربة من بعضها، على الأقل في الرسائل الثلاث: رسالة المنذر، ورسالة هرقل، ورسالة المقوقس، أما رسالة كسرى، فصعبة التمييز. مثلاً كلمة (لا) يمكن تمييزها في الرّسائل الثلاث، وكذلك كلمة: (بسم)، وكلمة (الله)، وحرف الـ: (و) وكذلك حرف الـ: (م).

أما أسطر الرّسائل النبويّة، فقد تراوحت بين سبعة أسطر في رسالة هرقل وخمسة عشر سطراً في رسالة كسرى، وأربع وثلاثين كلمة في رسالة صاحب اليمامة، وسبع كلمات ومائة كلمة في رسالة النّجاشيّ، وهي أطول الرسائل النبويّة إلى ملوك العصر في حينه.

ورسائل النبيّ ﷺ، كانت خالية من الإعراب والتنقيط (الإعجام) بجميع أنواعه، وكانت بسيطة سهلة بدائيّة الخطّ، طبيعيّة الكتابة، خطت

على الرّق المصقول، لم يدخل إليها التّلوين والتّذهيب أو الزّخارف الجمالية التي كانت تستعمل في رسائل الملوك والقادة، كما أن علامات الإعجام التعبيريّة لم تُستعمل لأنّها لم تكن معروفة آنذاك، وجميع تلك الرسائل بدأت بالبسملة، وانتهت بخاتم رسول الله ﷺ المستدير.

ومع أنّه مضى نحو خمسة عشر قرناً على كتابة تلك الرسائل النبويّة، غير أنّه يمكن قراءتها بسهولة فائقة بعد أن يُدخل عليها التّنقيط، لفك إعجام الحروف، فهي في الواقع مثل أيّ كتاب أو رسالة تكتب في هذه الأيام بالخط العربيّ الاعتياديّ لأي شخص يتقن اللّغة العربية وبعض أصول الخط العربيّ المكيّ والمدنيّ في تلك الأيام[١].

---

(١) مجلة الوثيقة البحرانية - العدد الأول - السنة الأولى - رمضان ١٤٠٢ - (٤٣-٤٤).

دِحْيَة[1] بن خليفة الكَلْبِيّ
الصحابيّ السَّفير القائد

فاتح مدينة تَدْمُر في بلاد الشام
نسبه وأيّامه الأولى

هو دِحْيَة بن خليفة بن فَرْوَة بن فَضَالة بن زيد بن امرىء القيس بن عامِر بن بَكْر بن عامِر بن عَوْف بن بكر بن عوف بن عُذرة بن زيد الّلات بن رُفَيْدَة بن ثَوْر بن كَلْب بن وَبَرَة[2] بن تَغْلِب بن حُلْوان بن عِمْران بن الحاف بن قُضاعة[3]، من كلب بن وَبَرَة في قُضَاعة[4]، ومن بطون كلب: بنو عامِر بن عوف بن بكر بن عوف بن عُذْرَة بن زيد الّلات بن رُفَيْدَة بن ثَوْر بن كَلْب ،بطن عظيم[5]، ويقال لدحية: الكَلْبي[6].

ولا نعرف شيئاً عن أخبار دِحْيَة قبل الإسلام، كما لا نعرف سنة

---

(١) يقال: دحية بكسر الدال وبفتحها، انظر تهذيب الأسماء واللّغات (١/١٨٥)، وجاءت بفتح الدال في تهذيب ابن عساكر (٥/٢٢١).

(٢) جمهرة أنساب العرب (٤٥٨) وأسد الغابة (٢/١٣٠) والإصابة (٢/١٦١) والاستيعاب (٢/٤٦١).

(٣) طبقات ابن سعد (٤/٢٤٩).

(٤) الاستيعاب (٢/٤٦١) وتهذيب ابن عساكر (٥/٢٢١).

(٥) جمهرة أنساب العرب (٤٥٨).

(٦) تهذيب ابن عساكر (٥/٢٢١).

مولده، وقد أسلم قديماً[1]، ولم يشهد غزوة (بَدْرٍ) الكبرى، وشهد غزوة (أُحُد) وما بعدها من المشاهد كلِّها مع رسول الله ﷺ[2]، وفي رواية: أنّ أول مشاهده غزوة (الخندق)[3]، والصواب أنّه لم يشهد بدراً، وشهد ما بعدها من المشاهد، كما أجمع على ذلك كُتّاب سيرته وأجمعت عليه المصادر الإسلاميّة المعتمدة.

وهكـذا نـال دحيـة شرف الصُّحبـة، وشرف الجِّهـاد تحت لواء النبيّ ﷺ.

في سريّة حِسْمَى[4]

كانت هذه السريّة في شهر جمادى الآخرة من السنة السّادسة الهجريّة، فقد أقبل دِحية الكلبي من عند قيصر وقد أجاره وكساه، عائداً من إحدى رحلاته إلى بلاد الشّام، فلقيه الهُنَيْدِي بن عارِض وابنه عارض في ناس من بني جُذَام بـ(حِسْمَى)، فقطعوا عليه الطّريق، وسلبوه ما كان معه من مال ومتاع، ولم يتركوا عليه إلاّ سَمَل ثوبٍ.

وسمع بذلك نفرٌ من بني الضُّبَيْب، فنفروا إليهم واستنقذوا لدحية ماله ومتاعه.

وقدم دحية على النبي ﷺ في المدينة، فأخبره بما أصابه، فبعث زيد ابن حارثة الكلبيّ في خمسمائة رجل من المسلمين إلى حِسمَى، وردّ معه دحية.

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٤٩/٤) وتهذيب الأسماء واللّغات (١٨٥/١).

(٢) الإستيعاب (٤٦١/٢) وتهذيب الأسماء واللّغات (١٨٥/١)، وانظر طبقات ابن سعد (٢٤٩/٤ - ٢٥٠).

(٣) الإصابة (١٦٢/٢).

(٤) حسمي: ارض ببادية الشام، بينها وبين وادي القرى ليلتان، وبين وادي القرى والمدينة ست ليالٍ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٦/٣)، وتقع وراء وادي القرى، انظر طبقات ابن سعد (٨٨/٢).

وتحرّك زيد على رأس سريته إلى هدفه، يسير الليل ويكمن النّهار، ومعه دليل من بني عُذْرَة، فأقبل بسريته حتى هجم بهم مع الصُّبح على القوم، فأغاروا عليهم وقتلوا فيهم فأوجعوا، وقتلوا الهُنَيْدَ وابنه، وأغاروا على ماشيتهم ونَعَمهم ونسائهم، وأخذوا من النَّعَم ألف بعير ومن الشاء خمسة آلاف شاة، ومن السَّبي مائة من النساء والصِّبيان.

ورحل زيد بن رِفاعة الجُذاميّ في نفرٍ من قومه إلى رسول الله ﷺ، فدفع إليه كتابه الذي كان كتب لقومه ليالي قدم عليه فأسلم، وقال: «يا رسول الله! لا تحرِّم علينا حلالاً، ولا تُحِلّ لنا حراماً» فقال: «كيف أصنع بالقتلى؟!»، فقال أبو زيد بن عمرو: «أطْلِقْ لنا يا رسول الله مَنْ كان حيّاً، ومَنْ قُتِلَ فهو تحت قدميَّ هاتين»، فقال رسول الله ﷺ: «صدق أبو يزيد».

وبعث النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى زيد بن حارثة، يأمره أن يُخلي بينهم وبين حُرمهم وأموالهم. وتوجّه عليٌّ إلى زيد ابن حارثة، فلقي رافع بن مَكِيْث الجُهَنيّ على ناقة من إبل القوم، وقد أوفده زيد بن حارثة إلى النبي ﷺ بشيراً، فردَّه عليٌّ وردَّ الناقة على القوم.

ولقي عليٌّ زَيْدَ بن حارثة بالفحْلَتَيْن، وهي بين المدينة و(ذي المَرْوَة)[1]، فأبلغه أمر رسول الله ﷺ، وردّ على الناس كلّ ما أُخذ لهم[2].

وكان الهدف من هذه السرّية، تأديب جُذَام الذين اعتدوا على

---

(١) المروة: ذو المروة، قرية بوادي القرى، وقيل: بين خشب ووادي القرى، انظر معجم البلدان (٨/٣٩).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/٨٨) ومغازي الواقدي (٢/٥٥٥ - ٥٦٠).

دحية بغير حق، وهم يعلمون أنَّه أحد المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، وليس النبي ﷺ بالذي يسكت عن مثل هذا الاعتداء الصَّارخ على رجل من أصحابه، ولا يرضى باعتداء أحد من غير المسلمين على أحدٍ من المسلمين، ولا يتقبَّل الظلم والعدوان.

ونستطيع أن نستنتج من سَيْر حوادث هذه السريّة، أن دحية كان يتردد على بلاد الشَّام، وأنّه يعرف قيصر الرُّوم معرفة شخصيّة تجعل القيصر يجيره ويكسوه، ولعلّ هذه المعرفة الشخصية بقيصر والخبرة ببلاد الشام، جعلت النبي ﷺ، مع أسباب أخرى جوهرية، يبعث بدحية رسولاً له إلى قيصر ليبلِّغه رسالة الإسلام، ويدعوه إلى اعتناقه.

السَّفير

كتب النبي ﷺ إلى قيصر عظيم الروم يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه مع دحية الكلبيّ في هُدْنة الحُدَيْبِيّة سنة ست الهجريَّة، فآمن به قيصر وامتنع عليه بطارقته، فأخبر دحية رسول الله بذلك فقال: « **ثَبَّتَ الله ملكه** »[1].

وفي رواية، أنّ قيصر أخذ كتاب النبيّ ﷺ، فوضعه على خاصرته، ووصل دحية وقال: «لو كان في بلادي لاتبعته ونصرته»[2].

وفي رواية، أن دِحية وجد قيصر ملك الروم بـ(حِمْص) يمشي راجلاً إلى بيت المقدس شكراً لله على منحه من الظفر على فارس، وذلك وَعْدُ الله فيهم: ﴿**آلم. غلبت الروم. في أذنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح**

---

(١) أسد الغابة (١٣٠/٢) والاستيعاب (٤٦١/٢).

(٢) المحبّر (٧٥ - ٧٦).

المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾[1]، فوضع قيصر كتاب رسول الله ﷺ على وجهه ودعا الناس إلى اتِّباعه فأبوا عليه، فلما أخبر دِحْيَة النبي ﷺ قال: «بقي ملكهم أو ثبت»[2].

وكان اسم قيصر يومئذٍ: هِرْقل[3] الذي حكم من سنة (٦١٠ - ٦٤١ م)[4]، وكانت الكنيسة تعضده بحرارة في حربه لعبّاد النَّار من الفُرْس، تلك الحرب التي توغَّل فيها إلى قلب فارس، وبعد ست سنوات من الحملات المتتالية أحرز نصراً مؤزراً كاملاً على الفرس، وكانت تلك الحملات في نظره عملاً دينياً، ولا عجب فقد كان للدين طيلة حكمه المنزلة الأولى[5].

وكان نصّ الكتاب النبوي إلى هِرَقْل عظيم الرُّوم:

بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمّد عبد الله ورسوله

إلى: هِرْقل عظيم الرّوم

سلام على مَن اتَّبَعَ الهُدَى.

أما بعد: فإِني أدعوك بدعاية الإِسلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجركَ مَرَّتَيْن، فإِنْ تولَّيْتَ فعليكَ إثْمُ

---

(١) سورة الروم، الآيات ١-٥.

(٢) البدء والتاريخ (٤/٢٢٩).

(٣) الطبري (٢/٢٤٦) وابن الأثير (٢/٢١١) وجوامع السيرة (٢٩).

(٤) نورمان بينز - الإمبراطورية البيزنطية - تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد - (٥٢) - ط ٢ - القاهرة - ١٩٥٧ م.

(٥) الإمبراطورية البيزنطية (٥٥).

الأريسيين[1]. و ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا بأنّا مسلمون﴾[2].

علامة الختم: الله رسول محمد

وقد روى الطبرانيّ، أن دحية الكلبيّ قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى قيصر صاحب الروم بكتاب، فقلت: استأذنوا لرسول رسول الله ﷺ، فأتى بقيصر، فقيل له: إن على الباب رجلاً يزعم أنّه رسول رسول الله، ففزعوا لذلك، وقال: أدخله، فأدخلني عليه وعنده بطارقته، فأعطيته الكتاب، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمّد رسول الله، إلى قيصر الرُّوم، فنخر ابن أخ له أحمر أزرق سبط، فقال: لا تقرأ الكتاب اليوم، فإنّه بدأ بنفسه، وكتب صاحب الرُّوم ولم يكتب ملك الرُّوم، قال فَقُرِىء الكتاب حتى فرغ منه، ثم أمرهم فخرجوا من عنده. ثم بعث إليّ، فدخلت عليه، فسألني فأخبرته، فبعث إلى الأسقف، فدخل عليه، وكان صاحب أمرهم يصدرون عن رأيه وعن قوله، فلما قرأ الكتاب قال

---

(١) في الطبري (٦٤٦/٢) وابن الأثير (٢١٣/٢) ورد: عليك إثم الأكّارين، والأريسيين جمع أريسيّ، والأريس: الأكار، أي الفلاّح والحرّاث، انظر: فتح الباري بشرح البخاري (٣٦/١).

(٢) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣: ٦٤) ونص الكتاب في صحيح البخاري (٨/١) - التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح - الحسين بن المبارك - ١٣٤٧ هـ - القاهرة.

الأسقف: هو والله الذي بَشَّرنا به موسى وعيسى الذي كنّا ننتظر. قال قيصر: فما تأمرني؟ قال الأسقف: أما أنا فإني مصدِّقه ومتّبعه، فقال قيصر: أعرف أنّه كذلك، ولكن لا أستطيع أن أفعل، إنْ فعلتُ ذهب ملكي وقتلني الرّوم»[١].

وأراد هرقل استقصاء أخبار النبيﷺ من أبناء جلدته العرب، وقد روى الإمام البخاري تفاصيل هذا الاستقصاء في صحيحه من حديث عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما: «أن أبا سُفْيان بن حرب أخبره أنّ هِرَقْل أرسل إليه في رَكْبٍ من قريش كانوا تُجَّاراً بالشّام، في المُدّة التي كان رسول اللهﷺ مادّاً فيها أبا سفيان وكفّار قريش، فأتوه وهم بإيلياء - القدس - فدعاهم وحوله عظماء الروم، ثمّ دعاهم فدعا بالترجُمان فقال: أيّكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنَّه نبيّ؟ قال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم، فقال: ادنوه مني، وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عن ظهْرِه. ثم قال للترجمان: قُلْ لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذَبني فكذِّبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثُروا عليّ كذباً لكذبتُ عنه. ثم كان أوّل ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلتُ: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحدٌ قطُّ قبله؟ قلتُ: لا. قال: فهل كان من آبائه مِنْ مَلِكٍ؟ قلت: لا قال: فأشراف الناس اتَّبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتدّ أحد منهم سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مُدَّة لا ندري ما هو فاعل فيها، ولم يُمْكِنِّي كلمةٌ أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال:

---

(١) الطبراني في الكبير نقلاً عن البداية والنهاية (٢٦٧/٤).

فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سِجَال، ينال منّا، وننال منه. قال: فماذا يأمركم. قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تُشركوا به شيئاً، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصِّلة. فقال للترجمان: قل له، إني سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فذكرت أن لا، فقلتُ: لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقُلتُ رجل يتأسَّى بقولٍ قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من مَلِكٍ، فذكرت أن لا، فقلت لو كان من آبائه من ملكٍ: قلتُ: رجلٌ يطلب مُلْكَ أبيه، وسألتك: هل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنّه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك: أشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتّبعوه وهم أتباع الرُّسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنّهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يَتِمّ. وسألتك: أيرتدّ أحدٌ سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك: هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: بما يأمركم، فذكرت أنّه يأمركم أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصَّدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً، فسيملك موضع قَدَميَّ هاتين. وقد كنتُ أعلم أنَّه خارج، لم أكن أظنّ أنّه منكم، فلو أعلم أني أَخْلُص إليه لتجشّمت لقاءه، ولو كنتُ عنده لغسلت عن قَدَمِهِ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بُعثَ به دحية إلى عظيم بُصْرى فدفعه إلى هرقل، فقرأه - ونصه كما ذكرناه في أعلاه - قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصَّخَب وارتفعت الأصوات، وأُخرجنا، فقلت لأصحابي: إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً

أنّه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام »[1].

ولم يكتف هرقل باستقصاء خبر النبي ﷺ من أبناء قومه قريش، بل كتب إلى رجل بروميَّة كان يقرأ الكتب يخبره شأن الكتاب الذي حمله إليه رسول الله ﷺ، فكتب إليه صاحب رُوْمِيَّة: « إنه النبي الذي كنّا ننتظره لا شكّ فيه، فاتْبَعْه وصَدِّقه ». فجمع هرقل بطارقة الروم في الدَّسْكَرَة[2] وغُلِّقت أبوابها، ثم اطلع عليهم من عليَّة وخافهم على نفسه، وقال لهم: « قد أتاني كتاب هذا الرّجل يدعوني إلى دينه، وإنّه والله النبي الذي نجده في كتابنا، فهلمّ نتبعه ونصدِّقه، فتسلَم لنا دنيانا وآخرتنا »، فنخرّوا نخرة رجل واحد، ثم ابتدروا الأبواب ليخرجوا، فقال: « ردّوهم عليّ »، وخافهم على نفسه وقال لهم: « إنما قلتُ لكم ما قلتُ لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، وقد رأيتُ منكم ما سرّني » فسجدوا له، وأمر بأبواب الدّسْكرة ففُتِحَتْ لهم، فانطلقوا[3].

وحين قدم دحْيَة بكتاب رسول الله ﷺ على هِرَقل، قال له: « والله إني لأعلم أنّ صاحبك نبيٌّ مُرْسَل، وأنَّه الذي كنّا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكنني أخاف الروم على نفسي، لولا ذلك لاتَّبعتُه، فاذهب إلى صغاطر[4] (ضغاطر) الأسقف الأعظم في الرُّوم، واذكر له أمر صاحبك وانظر ما يقول لك، فهو أعظم والله في الرُّوم مني وأجوز قولاً عندهم مني.

---

(١) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (١/٧ - ٨) وفتح الباري بشرح البخاري (١/٣٠ - ٣٨)، وانظر البداية والنهاية (٤/٢٦٤ - ٢٦٥).

(٢) الدسكرة: بناء كالقصر، حوله بيوت للأعاجم، فيها الشّراب والملاهي، يكون للملوك (معربة).

(٣) الطبري (٢/٦٤٩ - ٦٥٠) وابن الأثير (٢/٢١١).

(٤) ورد كذلك في الطبري (٢/٦٥٠) أما في طبقات ابن سعد (١/٢٧٦) وابن الأثير (٢/٢١١)، فورد: ضغاطر.

وجاءه دحية فأخبره بما جاء به من رسول الله ﷺ إلى هرقل، وبما يدعوه إليه، فقال ضغاطر: «صاحبك والله نبيّ مرسل، نعرفه بصفته، ونجده في كتبنا باسمه». ثمّ دخل فألقى ثياباً كانت عليه سوداً، ولبس ثياباً بيضاً، ثم أخذ عصاه، فخرج على الرّوم وهم في الكنيسة فقال: «يا معشر الروم! إنه قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا فيه إلى الله عزّ وجلّ، وإني أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ أحمد عبده ورسوله»[1].

وهذا هو نصّ الكتاب الذي حمله دحية من النبيّ ﷺ يدعو ضغاطر فيه إلى الإسلام:

إلى: ضغاطر الأسقف.

سلامٌ على مَنْ آمَنَ.

أما على أثر ذلك، فإنَّ عيسى بن مَرْيَمَ روحُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم الزَّكيَّة، وإني أؤمن بالله وما أُنزلَ إلينا وما أُنزِلَ إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباطِ، وما أُوتي موسى وعيسى، وما أوتيَ النبيُّون من ربِّهم، لا نفرِّق بين أحدٍ منهم، ونحن له مسلمون، والسَّلام على مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى.

علامة الختم: التوقيع محمد رسول الله

---

(١) الطبري (٢/٦٥٠) وابن الأثير (٢/٢١١).

وبعث به مع دِحية بن خليفة الكلبي[1].

ولم يكد رجال الدين المسيحي يجدون أن ضغاطر الأسقف الأعظم في الروم قد أسلم، إلاّ ووثبوا عليه وثبة رجل واحد، فضربوه حتى قتلوه. فلما رجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر، قال: «قد قلتُ لك إنّا نخافهم على أنفسنا، فضغاطر والله كان أعظم عندهم وأجوز قولاً مني»[2].

وكان نصّ جواب قيصر الروم إلى النبي ﷺ:

إلى: أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى

من: قيصر ملك الروم

إنه جاءني كتابك مع رسولك، وإني أشهد أنك رسول الله، نجِدُك عندنا في الإنجيل، بشّرنا بك عيسى ابن مريم، وإني دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك، فأبوا، ولو أطاعوني لكان خيراً لهم، ولوددت أني عندك أخدمك وأغسل قدميك[3].

وأكثر المصادر العربيّة الإسلاميّة المعتمدة، لا تذكر رسالة هرقل الجوابيّة إلى النبي ﷺ بهذا النص المذكور هنا، ولكنها تُجمع على أنَّ فحوى جواب هرقل لدحية يطابق نصّ هذه الرسالة الجوابيّة.

وبلّغ دِحْيَة جواب هرقل إلى النبي ﷺ بعد عودته من سفارته إلى قيصر الروم وإلى أسقف الروم، ويبدو أنّ الأسقف ضغاطر كان برفقة

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٧٦/١).

(٢) الطبري (٦٥٠/٢ - ٦٥١) وابن الأثير (٢١١/٢).

(٣) تاريخ اليعقوبي (٦٢/٢) - النجف - ١٣٥٨ هـ.

هرقل في رحلة الشكر والحج من القُسْطنْطِينِيّة إلى بيت المقدس بمناسبة انتصاره الحاسم على الفُرس واسترجاعه الصليب المقدّس من الفرس، فأدّى دحية رسالتي النبي ﷺ إلى هرقل والأسقف، وسلّم رسالة هرقل إليه أولاً، ثم سلّم رسالة الأسقف من بعده.

وعلى طريقة المُحدِّثين في التوثيق، نقلوا أخبار رسالة النبي ﷺ إلى هرقل عن الثقاة من المسلمين، فلما فتح المسلمون بلاد الشام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نقلوا أخبارها عن رجال الدين المسيحي الذي عاصروا هرقل وأحاطوا علماً بأخبار رسالة النبي ﷺ إليه وردَ الفعل الذي بدر منه بعد تسلُّم تلك الرسالة.

وما يقال عن رسالة النبي ﷺ، يقال عن رسالته إلى ضغاطر الأسقف الأعظم في الرُّوم.

لقد نهض دحية بأعباء سفارته على أحسن وجه، فبلّغ رسالة النبي ﷺ إلى هرقل قيصر الروم وإلى ضغاطر رئيس أساقفة الروم، وإذا أحجم الرّوم يوم ذاك عن الاستجابة للدعوة الإسلاميّة بصورة فردية أو جماعيَّة، فقد كان أثر الدّعوة في نفوسهم من الناحية المعنوية عظيماً.

الإنسان

كان دِحية الكلّبي من كبار الصحابة[١]، قدّمه إلى مركزه المتميز جهاده وخلقه الكريم ودينه، وحديثه في الصحيحين[٢]: البخاري ومسلم، وقد روى عن النبي ﷺ ثلاثة أحاديث[٣]، وجمع له ابن حجر العسقلاني

(١) الاستيعاب (٢/٤٦١).

(٢) تهذيب الأسماء واللّغات (١/١٨٥).

(٣) تهذيب الأسماء واللّغات (١/١٨٥) وأسماء الصحابة الرواة - ملحق بجوامع السيرة (٢٩٢).

نحو السّنة أحاديث[1]، وروى عنه خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ومنصور بن سعيد بن الأَصْبَغ وعبد الله بن شَدَّاد بن الهاد ومحمد ابن كعب القُرَاظِيّ والشَّعْبِيّ[2]، وكان من أصحاب الفُتْيا من الصّحابة[3] مما يدل على أنّه كان من علماء الصحابة وكان يتميّز بالذكاء والفطنةَ.

وكان يهدي إلى النبي ﷺ، فقد أهدى له خُفَّين[4]، ويُهدي له النبي ﷺ، فقد أُتي النبي ﷺ بقَبَاطِي[5] فأهدى لدحية منها قُبْطِيَّة[6] واحدة[7]، كما وهبه ابنة عم صفيّة بنت حُيَيّ بن أَخْطَب[8] وصفيّة رضي الله عنها أم المؤمنين، وتبادل الهدايا بينه وبين النبي ﷺ يدل على أنّه كان موضع ثقته.

وكما كان ذكياً ألمعيّ الذّكاء، كان جميلاً من أجمل الناس[9]، يضرب به المثل في حسن الصورة[10]، وكان أجمل الناس وجهاً[11]، وكان جبريل يأتي أحياناً في صورته[12] على النبي ﷺ.

وقد شهد معركة (اليرموك) الحاسمة التي فتحت أبواب بلاد الشّام

---

(١) الإصابة (٢/١٦٢).
(٢) تهذيب التهذيب (٣/٢٠٦ - ٢٠٧) وانظر أسد الغابة (٢/١٣٠).
(٣) أصحاب الفتيا - ملحق بجوامع السيرة (٣٢٢).
(٤) أسد الغابة (٢/١٣٠) والإصابة (٢/١٦٢).
(٥) قباطي: جمع قبطية، وهي ثياب من كتان بيض رقاق.
(٦) أسد الغابة (٢/١٣٠) والإصابة (٢/١٦٢).
(٧) المحبّر (٩٠) ومغازي الواقدي (٢/٦٧٤).
(٨) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٨٥).
(٩) الإصابة (٢/١٦٢).
(١٠) تهذيب التهذيب (٣/٢٠٦).
(١١) أسد الغابة (٢/١٣٠) وتهذيب الأسماء واللغات (١/١٨٥) وانظر طبقات ابن سعد (٢/٢٥٠).
(١٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/١٨٥).

إلى المسلمين، وكان قائداً لأحد الكراديس في تلك المعركة[1] التي كانت بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه بين المسلمين والروم، وكان خالد هو الذي اختار قادة الكراديس من بين أشجع شجعان المسلمين وأكثرهم إقداما وتجربة وحنكة.

وبعد فتح دمشق، بعث يزيدُ بن أبي سفيان دحيةَ في خيل إلى تَدْمُر، فصالحها على صلح دمشق[2].

ونزل دحيــة دمشق، وسكن (المِزَّة)[3] القريــة المعروفــة بجنــب دمشق[4]، وعاش إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان[5]، ومات سنة خمسين الهجرية[6] (٦٧٠ م)، ودفن بالمزّة[7].

وكان من أصهار أبي لَهَب بن عبد المطلب، كانت عنده درّة بنت أبي لهب[8]، ولا نعلم عن عقبه شيئاً.

وتزوّج صلى الله عليه وسلم خولة بنت الهُذَيل التّعلبيّ، وأمّها أخت دحية، فهلكت في الطريق وتزوج عليه الصلاة والسلام شراف أخت دحية، فهلكت[9] أيضاً قبل دخولها على رسول الله ﷺ[10].

---

(١) الإصابة (٢/١٦٢).
(٢) الطبري (٣/٤٤١).
(٣) المزّة: قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ، أنظر معجم البلدان (٨/٤٧).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٨٥).
(٥) طبقات ابن سعد (٤/٢٥٠) وابن الأثير (٣/٤٤).
(٦) البداية والنهاية (٤/٤٦).
(٧) معجم البلدان (٨/٤٧).
(٨) المحبّر (٦٥).
(٩) المحبّر (٩٣) وأنساب الأشراف (١/٤٦٠).
(١٠) أنساب الأشراف (١/٤٦٠).

لقد كان دحية مؤمنا صادق الإيمان، دمث الأخلاق، جميل المنظر والمَخْبَر، كريماً سخيّاً مضيافاً، وفيّاً صادقاً آلفاً مألوفاً، تتمثل فيه فضائل العربي الأصيل والمسلم الحق، فهو مثال حيّ للعربيّ في سجيّته، والمؤمن في عقيدته، فحريٌّ بالعرب والمسلمين أن يتخذوه لهم أسوة حسنة ومثلاً أعلى، يقتفون آثاره، ويسيرون على منواله، وينهجون نهجه في هذه الحياة الدنيا.

القائد والسفير

١. تولّى دحية قيادتين في بداية الفتح الإسلامي، وبعد انتقال النبي ﷺ إلى الرّفيق الأعلى: الأولى، قيادة كردوس في معركة اليرموك[١] الحاسمة التي كانت سنة ثلاث عشرة الهجرية، وكان في هذه المعركة قائداً مرؤوساً.

والقيادة الثانية التي تولاّها دحية قيادة الفرسان إلى تَدْمُر، حيث فتحها صلحاً، وقد تولى هذه القيادة في معارك استثمار الفوز، لتطهير جيوب المقاومة المعادية، والسيطرة على البلاد المفتوحة.

وقد كان قادة الكراديس في معركة اليرموك أبرز قادة الفتح الإسلامي وأشجع شجعانهم وأكثرهم تجربة وخبرة، فاختيار دحية من بينهم ليكون أحدهم في منزلته دليل على أنه كان ذا كفاءة قيادية عالية وشجاعة نادرة فذة وتجربة عملية مثمرة في القيادة، كما أن اختياره ليقود كردوساً في معركة يقودها خالد بن الوليد بالذات دليل على أنه كان معروفاً بقابليته القيادية ومزاياه، فما كان خالد ليولي القيادة أحداً إلا بشروط قاسية في الكفاءة والشجاعة والتجربة العملية والألمعيّة في

---

(١) الطبري (٣/٣٩٦).

الذكاء، وما كان كل قائد ليقدر على العمل بإمرة خالد الذي كان لا ينام ولا يُنِيْم إلا إذا كان واثقاً من قابليته القيادية ومزاياه.

كما أن قيادة الفرسان في معركة فتح مدينة تَدْمُر دليل على أنّه كان فارساً متميِّزاً، يتحلّى بالاندفاع من غير تهوّر والإقدام وسرعة الحركة والحذر واليقظة.

لقد كان دحية بحق قائداً لامعاً.

٢. أما مزاياه سفيراً، فقد كان حائزاً على صفات السفير في الإسلام، فهو من كبار الصحابة، أي أنه حائز على مزية الانتماء والإيمان، وكان فصيحاً عالماً كريم الأخلاق، كما كان يتحلّى بالصبر والحكمة، وكان ذكياً على جانب عظيم من الذكاء والفطنة، جميل الصورة حسن المظهر، يعرف المنطقة لتردّده إليها في سفره تاجراً، ويبدو أنّه لكثرة تردّده في أسفاره إلى بلاد الشَّام تعلم اللُّغة البيزنطيّة[1]، أو كان يستطيع التفاهم بهذه اللّغة على أقل تقدير.

هذه المزايا بالإضافة إلى مزاياه الأخرى، أدّت إلى نجاحه في سفارته نجاحاً باهراً.

دحية في التاريخ

يذكر التاريخ لدحية، أنه كان قديم الإسلام، ومن كبار الصحابة، وقد خدم الإسلام والمسلمين بكل طاقاته في السلم والحرب.

ويذكر له، أنّه كان موضع ثقة النبي ﷺ، لإخلاصه العظيم للإسلام والمسلمين.

---

(١) طبقات ابن سعد (١/٢٦٤).

ويذكر له، أنه كان سفير النبي ﷺ إلى هرقل عظيم الرُّوم وإلى عظيم أساقفة الروم، وأنه بلّغ رسالة الإسلام إلى قيصر الرُّوم ومَنْ معه بأمانة وإخلاص.

ويذكر له، أنّه كان أحد المجاهدين الصّادقين وأحد قادة الفتح الإسلامي العظيم، وفاتح مدينة تَدْمُر.

رضي الله عن الصحابي الجليل، المحدّث العالم، القائد السفير، دِحْيَة ابن خليفة الكلبيّ.

عبد الله بن حُذَافَة القُرَشِيّ السَّهْمِيّ
السفير القائد

نسبه وأيامه الأولى

هو عبد الله بن حُذافَة بن قيس بن عَدِيّ بن سَعْد بن سَهْم القُرَشِيّ السَّهْمِي[1].

أُمُّه: تَمِيْمَة بنت حُرثان من بني عبد الحارث بن عبد مَنَاة بن كِنَانَة[2].

وهو أخو خُنَيْس بن حذافة زوج حفصة بنت عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قبل رسول الله ﷺ، وقد شهد خُنَيْسُ بَدْراً، ولم يشهد عبد الله بدراً[3]، ولكنه قديم الإسلام بمكّة، وكان من مهاجرة الحبشة الهجرة الثانية[4].

ولم يشهد عبد الله غزوة بَدْر الكبرى الحاسمة، لأنّه كان مهاجراً في الحبشة، وقد عاد من الحبشة إلى المدينة برفقة جعفر بن أبي طالب

---

(١) نسب قريش (٤٠٢) وجمهرة أنساب العرب (١٦٥) وطبقات ابن سعد (١٨٩/٤) والإصابة (٥٥/٤) وأسد الغابة (١٤٢/٣).

(٢) طبقات ابن سعد (١٨٩/٤) وانظر قريش (٤٠٢).

(٣) طبقات ابن سعد (١٨٩/٤) وانظر المعارف (١٣٥).

(٤) طبقات ابن سعد (١٨٩/٤) وسيرة ابن هشام (٣٥١/١) والإصابة (٥٥/٤) وأسد الغابة (١٤٢/٣) والاستيعاب (٨٨٨/٣).

رضي الله عنه، الذي قدم على النبي ﷺ وهو بغزوة خَيْبَر بعد الحُدَيْبِيَّة[1]، وكانت غزوة خيبر في شهر محرّم من السنة السابعة الهجرية[2]، والإدِّعاء بأنّه شهد بدراً[3] وَهْمٌ، وقد أجمعت أكثر المصادر المعتمدة على أنه لم يشهد بدرا.

شهد له رسول الله ﷺ بأنّه ابن حُذَافة، فقد خرج رسول الله ﷺ حين زاغت الشّمس، فصلّى الظّهر، فلما سلّم قام على المنبر، فذكر السَّاعة وذكر أنّ بين يديها أموراً عظاما، ثم قال: «**مَنْ أحبّ أن يسأل عن شيء فليسأل عنه، فوالله لا تسألوني عن شيء إلاّ أخبرتكم به ما دمتُ في مقامي هذا**»، فسأله عبد الله بن حذافة، قال: «**مَنْ أبي**»، قال: «أبوك حذافة»[4]، فعاتبته أُمّه على سؤاله هذا قائلةً: «أيْ بُنَيّ! لقد قمت اليوم بأمِّك مقاماً عظيماً، فكيف لو قال الأخرى»!»، فقال: «أردتُ أن أُبدي ما في نفسي»[5]، ثمّ أضاف قوله: «والله لو ألحقني بعبد أسود للحقتُ به»[6].

وشهد سريَّة أميرها عَلْقَمَة بن مُجَزِّز المُدْلِجِيّ[7]، وكانت في ربيع الآخر من سنة تسع الهجرية[8].

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/٤١٤) و (٣/٤١٩).
(٢) سيرة ابن هشام (٣/٣٧٨) وجوامع السيرة (٢١١) والدرر (٢٠٩).
(٣) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١٩٤).
(٤) رواه البخاري ومسلم، وانظر تهذيب التهذيب (٥/١٨٤) وأسد الغابة (٣/١٤٣).
(٥) طبقات ابن سعد (٤/١٩٠) وانظر تهذيب التهذيب (٥/١٨٤).
(٦) رواه البخاري ومسلم في الصحيحين، انظر تهذيب التهذيب (٥/١٨٤) والاستيعاب (٣/٨٨٩).
(٧) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة النبي ﷺ.
(٨) مغازي الواقدي (٣/٩٨٣).

فقد بلغ النبي ﷺ أنّ ناساً من الحبشة تراياهم[١]: أهل الشُّعَيْبَة[٢] ساحل بناحية مكّة - في مراكب، فبلغ النبي ﷺ، فبعث عَلْقَمَة بن مُجَزِّز المُدْلِجِيّ في ثلاثمائة رجل، حتى انتهى إلى جزيرة في البحر، فخاض إليها، فهربوا منه، ثم انصرف.

فلما كان ببعض المنازل، استأذنه بعض الجيش في الانصراف حيث لم يَلْقَوْا كيداً، فأذن لهم، وأمّر عليهم عبد الله بن حُذافة السَّهْميّ، وكانت فيه دعابة، فلما كان ببعض الطريق أوقد ناراً ثم قال للقوم: «أليس لي عليكم السَّمع والطاعة؟»، قالوا: «بلى!»، قال: «فإني أعزم عليكم بحقي وطاعتي إلاّ تواثبتم في هذا النار!».

وقام بعض القوم يَحْتَجِزُ حتى ظنّ أنّهم واثبون فيها، فقال لهم: «اجلسوا، فإنما كنت أضحك معكم».

وذُكر ذلك لرسول الله ﷺ بعد أن قدموا عليه، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أمركم منهم بمعصية فلا تطيعوه»[٣].

وفي رواية أخرى، أنّ عبد الله بن حُذافة حين أمر رجاله باقتحام النار قال لهم: «ألم يأمركم رسول الله ﷺ بطاعتي فقال: «مَنْ أطاع أميري فقد أطاعني؟»[٤]، فقال قسم منهم: «ما آمنّا بالله واتّبعنا

---

(١) تراياهم: أي نظروهم ورأوهم، انظر شرح على المواهب اللدنية (٣/٥٨)..

(٢) الشُّعيبة: قرية على ساحل البحر الحجازي كانت مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جُدَّة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٢٧٥ - ٢٧٦).

(٣) ورد نص الحديث في مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢/٢٨٦): «من أمركم من الولاة بمعصية فلا تطيعوه»، رواه الإمام أحمد في مسنده وابن ماجه والحاكم، وانظر ما جاء عن هذه السرية في: سيرة ابن هشام (٤/٣٢١ - ٣٢٢) ومغازي الواقدي (٣/٩٨٣ - ٩٨٤) وطبقات ابن سعد (٢/١٦٣).

(٤) لم أجد لهذا الحديث ذكر في شرح الجامع الصغير للمناوي.

رسوله إلا لننجوا من النار »، فصوّب رسول الله ﷺ فعل هؤلاء. وقال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1] قال الله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾[2].

وشهد عبد الله غزوات النبي ﷺ كافة بعد خيبر، وكان مع النبي ﷺ في حجّة الوداع، فأمره أن ينادي في أهل (مِنَى). «ألا يصوم هذه الأيام أحد»[3].

وبذلك نال عبد الله شرف الصّحبة وشرف الهجرتين: إلى الحبشة وإلى المدينة المنورة، وشرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد عليه الصّلاة والسّلام.

وقد كان موضع ثقة النبي ﷺ وحبّه وتقديره.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده والحاكم، انظر: مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٣٦٤/٢).

(٢) سورة النساء، آية ٢٩، وهذه الرواية وردت في: الاستيعاب (٨٩٠/٣) وهناك رأيان في الطّاعة: الأول الطّاعة المطلقة للأمراء، وحين تكون الأوامر خاطئة ينتج عن تنفيذها ضرر مادي أو معنوي، يكون الأمير الذي أصدر تلك الأوامر هو المسؤول الأول والأخير عن تحمّل نتائجها. والثاني هي الطاعة المقيدة بشروط معيّنة، وهذه الطّـاعـة هي الـتي يكـاد يجمـع عليهـا العسكريون في الوقـت الحـاضر، إذ كيف يمكن مثلاً تنفيذ أوامر تضر بالوطن أو بالأمّة دون مسوّغ. أما الطّاعة في الإسلام فواجبة إلاّ في معصية الخالق، فحينذاك لا طاعة ولكن لا تمرّد وإشعال نيران الفتن.

(٣) الإصابة (٥٦/٤) وأسد الغابة (١٤٤/٣) وطبقات ابن سعد (١٩٠/٤) وفي مغازي الواقدي (١١٠٩/٣): بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة السّهمي ينادي في الناس: أيها الناس! إنّ رسول الله ﷺ قال: إنها أيام أكل وشُرب وذكر الله »، فانتهى المسلمون عن صيامهم إلاّ محصراً بالحج أو متمتعاً إلى الحج. فإنّ الرخصة من رسول الله ﷺ أن يصوموا أيام منى.

السفير

أرسل النبي ﷺ الرُّسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتباً، فقيل: يا رسول الله! إنّ الملوك لا يقرأون كتاباً إلاّ مختوماً»، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذٍ خاتماً من فضة، فَصّه منه، نقشه ثلاثة أسطر: محمد رسول الله، وختم به الكتب. وخرج عبد الله في شهر المحرّم من السنة السّابعة الهجريّة إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام، ومعه كتاب النبي ﷺ[1] إلى كسرى أبرويز بن هرمز ملك الفرس[2] الذي حكم سبعاً وثلاثين سنة أو ثمانياً وثلاثين سنة، وفي أيامه بُعث النبي ﷺ بالرسالة[3].

وكان نصُّ كتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى أبرويز:

بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد رسول الله.

إلى: كسرى عظيم فارس.

سلام على مَنْ اتَّبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلاّ الله، وأني رسول الله إلى الناس كافةً، لينذر مَنْ كان حيًّا، فإن أبيت فعليك إثم المجوس[4].

علامة الختم: الله
رسول
محمد

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١ - ٢٥٩).
(٢) جوامع السيرة (٢٩).
(٣) البدء والتاريخ (١٧٠/٣).
(٤) الطبري (٦٥٤/٢).

وفي رواية أخرى أن نصّ الكتاب كان:

من: محمّد رسول الله.

إلى: كسرى عظيم فارس.

سلام على مَنْ اتّبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله.

وأدعوك بدُعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر مَنْ كان حيّاً ويحقّ القول على الكافرين.

فأسلم تَسْلَمْ، فإن أبيتَ فإنّ إثم المجوس عليك[1].

علامة الختم: الله رسول محمد

والرواية الثانية هي المعتمدة، لإجماع أكثر المصادر المعتمدة عليها[2]، ووضوح الكتاب وشموله وبلاغة أسلوبه النبويّ

قال عبد الله: «فدفعتُ إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقُرىء عليه، ثم أخذه فمزّقه. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «اللّهم مزّق مُلْكَه».

---

(١) الطبري (٢/٦٥٤ - ٦٥٥) وابن الأثير (٢/٢١٣) وصبح الأعشى (٦/٢٩٦) والقسطلاني (١/٢٩١) وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في كتاب: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (٧٦ - ٧٧).

(٢) وجاء في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١/١٣٢): أبو معشر عن بعض المشيخة قال: «كتب رسول الله ﷺ مع عبد الله بن حذافة إلى كسرى: من محمد رسول الله، إلى: كسرى عظيم فارس. أَسْلِمْ تَسْلَم. من شهد شهادتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فله ذمّة الله وذمّة رسوله». وجاء في مجموعة الوثائق السياسية: «والظاهر أنّه سهو من الراوي وإدغام بين كتابين، كتاب كسرى المذكور في أعلاه، وكتاب المنذر بن ساوى حسب رواية القلقشندي».

وكتب كسرى إلى باذان[1] عامله على اليمن: «أن أبعث من عندك رجلين جَلْدَيْن إلى هذا الرّجل الذي بالحجاز، فليأتياني بخبره»، فبعث باذان قُهْرَمَانه[2] ورجلاً آخر، وكتب معهما كتابا، فقدما المدينة فدفعا كتاب باذان إلى النبيّ ﷺ، فتبسّم رسول الله ﷺ، ودعاهما إلى الإسلام، وفرائصهما تُرعدَ وقال: «**ارجعا عني يومكما هذا حتى تأتياني الغد، فأُخبركما بما أريد**».

وجاءاه من الغد، فقال لهما: «**أبلغا صاحبكما أنّ ربي قد قتل ربّه كسرى في هذه الليلة لسبع ساعات منها، وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليالٍ مضين من جمادى الأولى سنة سبع، وأن الله تبارك وتعالى سلّط عليه ابنه شِيرَويه فقتله**»، فرجعا إلى باذان بذلك، فأسلم هو والأبناء الذين باليمن[3].

وفي رواية أخرى، أنّ كسرى مزّق كتاب النبي ﷺ واستخفّ به، وكتب إلى باذان: «أنّ عبداً من عبيدي قد كتب يدعوني إلى دينه، فابعث إليه رجلين جَلْدَين يأتياني به مربوطاً، وإن أبا عليهما فليضربا عنقه»، فلما بلغ النبي ﷺ تمزيقه كتابه، قال: «**مزّق كتابي، مزّق الله عليه ملكه**»[4].

وفي رواية أنّ كسرى لما قرأ كتاب النبي ﷺ قال: «بدأ بنفسه

---

(١) باذان الفارسي: من الأبناء، وهم من أولاد الفرس الذين سيّرهم كسرى أنو شروان مع سيف ذي يزن إلى اليمن لقتال الحبشة، فأقاموا باليمن، وكان باذان بصنعاء، فأسلم في حياة النبي ﷺ، وكان له أثر كبير في قتل الأسود العنسي، انظر أسد الغابة (١٦٣/١) والإصابة (١٧٦/١).

(٢) القهرمان: أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه (فارسيّ معرّب).

(٣) طبقات ابن سعد (٢٦٠/١).

(٤) البدء والتاريخ (١٧٠/٣).

قبلي! »، وقَدَّ كتابه شتوراً، فقال رسول الله ﷺ: « مزّق الله ملك فارس كلّ ممزّق »، فما أفلحوا بعد دعوته[1].

وفي رواية، أنّ النبي ﷺ أمر عبد الله بن حذافة أن يدفع كتابه إلى كسرى إلى عظيم (البَحْرَيْن)[2]، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه خرّقه، فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزّقوا شرّ مُمَزَّق[3].

وذكروا أنّ كسرى كتب إلى النبي ﷺ جواباً، جعله بين سَرْقَتَيْ[4] حرير، وجعل فيها مسكاً. فلما دفعه الرسول إلى النبي ﷺ، فتحه فأخذ قبضة من المسك فشمّه وناوله أصحابه وقال: «لا حاجة لنا في هذا الحرير، ليس من لباسنا». وقال: «لتدخلنّ في أمري أو لآتينّك بنفسي ومَن معي، وأمر الله أسرع من ذلك: فأما كتابك فأنا أعلم به منك: فيه كذا وكذا»، ولم يفتحه ولم يقرأه، ورجع الرسول إلى كسرى وأخبره[5].

ومن الواضح أنّ كسرى لم يردّ على كتاب النبي ﷺ ردّاً مباشراً، بل كتب إلى عامله باليمن باذان، فقضى كسرى نحبه، وأسلم باذان ومن

---

(١) الحبّر (٧٧).

(٢) البحرين: هكذا يتلفظ بها في حال الرفع والنصب والجر، ولم يسمع على لفظ المرفوع من أحد منهم، الاّ أنّ الزمخشري قد حكى أنّه بلفظ التثنية، فيقولون: هذه البحران، وانتهينا إلى البحرين، ولم يرَ هذا الرأي غير الزمخشري وهو اسم جامع البلاد على الخليج العربي، وهجر قصبة البحرين، وفيها عيون ومياه وبلاد واسعة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧٢/٢-٧٦).

(٣) طبقات ابن سعد (١٨٩/٤)، وانظر ما جاء عن سفارة عبد الله في الطبري (٦٥٤/٢ - ٦٥٥) وابن الأثير (٢١٣/٢ - ٢١٥) وأنساب الأشراف (٥٣١/١) وتاريخ خليفة بن خياط (٦٣/١).

(٤) السرق: شقق الحرير، أو أجوده، الواحدة: سَرَقَة، وهي معربة.

(٥) اليعقوبي (٦١/٢) وانظر مجموعة الوثائق السياسية (٧٨).

معه من الأبناء، فبلغ النبي ﷺ الرسالة وأدى الأمانة، وكان نجاح عبد الله في سفارته نجاحاً معنوياً، وما قصَّر في أداء واجبه، ولكن غيره لا يستطيع أن يعمل ما عمله أو ينجز ما أنجزه، فقد كان كسرى لا يعتبر نفسه ملكاً فحسب، بل ملك الملوك، وكان الغرور قد أعمى بصيرته وبصره، فليس إلى هدايته من سبيل، لذلك أصرّ على كفره وأصرَّ على معاقبة النبي ﷺ، فأخفق في إيمانه كما في عقابه، ثم قضى نحبه غير مأسوف عليه.

جهاده

شهد عبد الله معارك فتح أرض الشّام، فأسره الرّوم في بعض غزواته على (قَيْسَارِيَّه)[1]، فقال له ملك الرّوم: «تنصّرْ أشركك في ملكي»، فأبى فأمر به فصُلب، وأمر برميه بالسِّهام، فلم يجزع، فأُنْزِل!

وأمر ملك الروم بقدر فصبت فيها الماء وأُغلي عليه وأمر بإلقاء أسير فيها، فإذا عظامه تلوح، فأمر بإلقائه بالقدر التي تغلي إن لم يتنصّر، فلما ذهبوا به بكى[2]، فقالوا: قد جزع! قد بكى! فقال الملك: «ردّوه!»، فقال عبد الله: «لا ترى أني بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بي، ولكني بكيت حيث ليس لي إلاّ نَفْس واحدة يُفعل بها هذا في الله!! كنت أحبُّ أن يكون لي من الأنفس عدد كلِّ شعرة فيَّ، ثم تُسلَّط عليّ فتفعل بي هذا!»، فأعجب به ملك الرّوم وأحب أن يُطلقه، فقال

---

(١) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) تعدّ من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، وكانت في قديم الأيام من أعيان أمهات المدن، واسعة الرقعة، طيبة البقعة، كثيرة الخير والأهل، انظر معجم البلدان (١٩٥/٧ - ١٩٦) وانظر أسد الغابة (١٤٣/٣) حول أسره في قيسارية.

(٢) الإصابة (٥٧/٤).

له: «قَبِّل رأسي وأُطلقك»، فقال: «ما أفعل!»، فقال: «تنصّر وأُزوِّجك بنتي وأقاسمك ملكي»، قال: «ما أفعل»، فقال: «قَبِّل رأسي وأُطلقك وأطلق معك ثمانين من المسلمين»، فقال: «أما هذه، فنعم!». وقبّل عبد الله رأس الملك، فأطلق سراحه وأطلق معه ثمانين من أسرى المسلمين، فلما قدموا على عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، قام إليه عمر وقَبَّل رأسه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يمازحون عبد الله، فيقولون: «قَبَّلتَ رأس عِلْج؟»، فيقول لهم: «أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين»[1]

وفي رواية أخرى، أنّ الروم أسرته، فكتب عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إلى قسطنطين[2] في أمره، فخلى سبيله[3].

وشهد مع عمرو بن العاص فتح مصر، فلما فتح عمرو (الفُسْطَاط)[4]، وجّه عبد الله بن حذافة إلى (عَيْن شمسْ)[5]، فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل صلح الفسطاط[6].

وبعد فتح الإسكندريّة، استخلف عمرو بن العاص عليها عبد الله في رابطة من المسلمين، وانصرف عمرو إلى الفسطاط، فكتب الروم إلى قسطنطين بن هرقل الذي كان ملك الروم حينذاك، يخبرونه بقلّة عدد

---

(١) أسد الغابة (١٤٣/٣).

(٢) ملك. قسطنطين عدة أشهر من سنة ٦٤١م وملك قسطنط (Constant) من (٦٤١م-٦٦٨م)، وخلافة عمر رضي الله عنه من سنة ٦٣٤م إلى سنة ٦٤٤م.

(٣) أنساب الأشراف (٢١٥/١).

(٤) الفسطاط: مدينة بناها عمرو بن العاص بمصر، انظر معجم البلدان (٦٨/٦)، وهي مصر القديمة بالقاهرة.

(٥) عين شمس: اسم مدينة بمصر، بينها وبين الفسطاط ثلاثة فرسخ، وهي ليست على شاطىء النيل، وكانت مدينة كبيرة، انظر معجم البلدان (٢٥٦/٦).

(٦) فتوح البلدان (٣٠٤).

المسلمين في الإسكندريّة، فبعث ملك الرُّوم أحد قادته على رأس قوّة مشحونة في ثلاثمائة مركب، فدخل الإسكندريّة، ولكنّ المسلمين أعادوا فتح الإسكندريّة مرة ثانية[1].

وهكذا عمل عبد الله مجاهداً وقائداً وفاتحاً في أرض الشام ومصر.

الإنسان

كان عبد الله صلب العقيدة راسخ الإيمان، له عقليّة راجحة ومنطق سليم، كل ذلك جعله موضع ثقة النبي ﷺ وأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنه وقادة فتح بلاد الشّام ومصر.

وقد ثبت ثبات الأبطال، وصبر صبر المجاهدين الصادقين دفاعاً عن عقيدته وتمسّكاً بها وحفاظاً على كرامة المؤمنين، حين تعرض لمحنة الأسر والتعذيب، فقد حاول ملك الرّوم بالوعد تارةً وبالوعيد تارة أخرى، وبالتعذيب الرهيب القاسي، أن يثنيه ولو بالظّاهر عن عقيدته، ولكنّه أعرض عن الوعد واستهان بالوعيد وصبر على التعذيب الوحشي، حتى انهارت أعصاب معذبيه فأطلقوا سراحه، فخرج إلى الحريّة من محنته مرفوع الرأس موفور الكرامة، وقد تضاعف إيمانه بعقيدته وبمثله العليا.

وكانت فيه دعابة، وكانت دعابته تلازمه حتى في أوقات الشدّة والجد، وكانت دعابته مع رجاله من الصحابة الذين كانوا بإمرته في أيام الجهاد، فلما رأى قسماً منهم يريد أن يلقي نفسه بالنار تنفيذاً لأمر القائد المرح عبد الله، قال لهم: اجلسوا فإنما أضحك معكم»[2].

وعلى الرغم من ذكر المؤرخين أنّه أراد الدعابة بعمله هذا، إلا

---

(١) فتوح البلدان (٣١٠ - ٣١١).

(٢) سيرة ابن هشام (٣١٧/٤) والاستيعاب (٨٩٠/٣).

أنني أرى أنّه أراد الجدّ الصارم لا الدعابة المرحة بهذا العمل، فقد امتحن شدّة ضبط رجاله ودرجة متانة طاعتهم، فعرف بهذا الامتحان العملي مَنْ منهم ينفّذ أوامره بدون قيد أو شرط، ومَنْ منهم ينفّذ أوامره المعقولة التي لا تناقض المنطق والعقل والشّرع فحسب.

ولم يسلم حتى رسول الله ﷺ من دعابته، فقد حلّ حزام راحلة رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى كاد رسول الله ﷺ يقع، وذلك ليضحك النبي الكريم عليه الصّلاة والسّلام[1].

لقد كان أريحيّاً محبباً إلى النفوس كريماً مضيافاً شهماً غيوراً، وقد دفن بمصر ودفن بمقبرتها في خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه[2]، ولا عقب له[3].

إخوته: خُنَيْس بن حذافة، وهو من أهل بدر، وكانت عنده حفصة ابنة عمر بن الخطّاب، ثمّ خلف عليها رسول الله ﷺ. وأبو الأخنس بن حذافة، وأمها: بنت جِذْيَم بن سعد بن رِئَاب بن سَهْم[4].

ونزَل في عبد الله بن حذافة قوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا

---

(١) روى ذلك ابن وهب، كما جاء في الاستيعاب (٣/٨٩٠)، ولم يكن لابن وهب علم بلسان العرب، وانما تقول العرب لحزام الراحلة: غَرْضَة، إذا ركب بها على رحل، فإذا ركب بها على جمل فهي: بِطَان، وإن ركب بها على فرس فهي: حزام، وإن ركب بها على رحل انثى فهو: وَضِيْن. قال الشاعر:

إليــك يعــدو قلقــاً وَضِيْنُهــا مخــالفــاً دين النصــارى دينهــا
معــترضــاً في بطنهــا جنينهــا قد ذهب الشّحم الـذي يزينهـا

(٢) طبقات ابن سعد (٤/١٩٠) والإصابة (٤/٥٦) وأسد الغابة (٣/١٤٤) والاستيعاب (٣/٨٩١) والبداية والنهاية (٧/٢٢١).

(٣) جمهرة أنساب العرب (١٦٥).

(٤) نسب قريش (٤٠٢).

الرَّسول وأولي الأمر منكم﴾[1]، وروى عن النبي ﷺ وروى عنه أبو وائل ومسعود بن الحكم الزّرقيّ وأبو سلمة بن عبد الرحمن يقال مرسل وسليمان بن يسار كذلك، وقيل: أنّ مسلماً روى له وهو وَهْمٌ[2].

وهكذا ذهب إلى ربه السفير القائد الصابر المحتسب، بعد أن أدّى واجبه نحو عقيدته وأُمته ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

القائد

لم تظهر بوضوح مزايا قيادة عبد الله من خلال أعماله مجاهداً وقائداً، ولكنه لم يكن ليولى منصباً قيادياً في أيام الرسول القائد عليه أفضل الصَّلاة والسّلام، وفي فتح مصر أيام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وتحت راية عمرو بن العاص المعروف بألمعيّة في القيادة ودهائه لو لم يكن متمتعاً بالمزايا القياديّة المطلوبة في القائد القادر.

ويبدو أنه كان يتمتّع بمزية إصدار قرار سريع[3] مناسب في الزمان والمكان المناسبين لمعالجة شتى المواقف الطارئة والمتغيِّرة بسرعة في القتال، وكان يتحلَّى بالشجاعة والإقدام، وبالإرادة القويَّة الثابتة، يتحمل المسؤولية ويحبها ولا يتملّص منها أو يلقيها على عواتق الآخرين خوفاً من تحمّلها، له نفسية رصينة لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار، يتحلىّ بمزيّة سبق النظر، يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم، يثق بهم ويثقون به، يحبهم ويحبونه، له شخصية قويَّة مؤثِّرة، وقابلية

---

(١) سورة النساء، آية ٥٩.

(٢) تهذيب التهذيب (١٨٥/٥) وانظر خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١٩٤).

(٣) انظر صفات القائد في كتابنا: الرسول القائد، في خاتمة الكتاب، في مختلف طبعاته بالقاهرة وبغداد وبيروت.

بدنية تعينه على تحمّل المشاق، وله ماضٍ ناصع مجيد في خدمة الإسلام والمسلمين.

وعند تطبيق قيادته على مبادىء الحرب نجد أنّه يطبق مبدأ اختيار المقصد وإدامته، والتعرض، ويحاول تطبيق مبدأ المباغتة، ويطبِّق مبدأ حشد القوّة، والاقتصاد بالمجهود، والأمن، والمرونة، والتعاون، وإدامة المعنويات، والأمور الإداريّة.

وكان يساوي نفسه برجاله ولا يستأثر بالخير دونهم، ويستشيرهم في أموره ويطبِّق مشورتهم.

لقد كان عبد الله قائداً جيداً.

السَّفير

كانت مزايا عبد الله بن حذافة سفيراً حَرِيّة بأن تيسر له النجاح الباهر في سفارته، لولا غرور كسرى وتكبُّره وتجبّره، مما حرم كسرى من تفتّح بصيرته على الحق وخضوعه له.

فقد كان يتحلّى بمزيه: الانتماء والإيمان، وعلاقة إيمانه بانتمائه علاقة عضويّة وثيقة، فإيمانه الرّاسخ العميق، هو الذي جعله يهب حياته وما يملك لعقيدته وأُمّته، يدافع عن عقيدته الإسلاميّة ويدعو إليها، ويدافع عن مصالح المسلمين العليا، ويريد الخير للإسلام والمسلمين كما يريد الخير لنفسه ولذوي قرباه، ويحبّ لهم ما يحبّه لنفسه.

وكان يتحلّى بمزية الفصاحة والعلم وحسن الخلق، فهو عربيّ من قريش تجري الفصاحة على لسانه مجرى الدم في القلب طبيعيّة بدون تكلّف ولا عناد، وقد رأينا أنّه محدِّثاً فقيهاً في الدِّين؛ وحسنُ الخلق صفة من صفات المسلم الصّادق، وكان من المسلمين الصّادقين حقاً.

وكان يتحلّى بمزية الصبر والحكمة، وقد كان صبره في الأسْر عند

الروم ولا يزال وسيبقى مضرب الأمثال، وكانت حكمته في كلِّ حياته مثالاً للرجل المتَّزن الحصيف.

وكان يتحلَّى بمزيَّة سعة الحيلة، ولعلّ نجاحه في الوصول إلى كسرى وتسليمه رسالة النبي ﷺ، أو وصوله إلى ممثل كسرى وتسليمه رسالة النبي ﷺ إلى كسرى ليحملها إليه، دليل قاطع على سعة حيلته، فما كان من السَّهل الوصول إلى كسرى أو إلى ممثله حينذاك.

واختياره سفيراً إلى كسرى بخاصة، دليل على رواء مظهره، بالرغم من سكوت النّصوص الواردة عن عبد الله سكوتاً مطبقاً على مظهره، وكان كسرى في حينه يهتم بالمظهر اهتماماً خاصاً لا يقلّ عن اهتمامه بالمَخْبَر.

تلك هي مجمل المزايا التي كانت تتوافر في السّفير، والتي كان يلتزم بها السلف الصالح من الحكّام المسلمين في اختيار السّفير قبل أربعة عشر قرناً خلت، ولا أعتقد أنّ المزايا التي تتيسّر في السّفير اليوم، والتي يلتزم بها الخلف من الحكام المسلمين أفضل من المزايا التي تتوافر في السّفير ويلتزم بها السلف الصّالح في اختيار السفير.

لقد كان عبد الله بحق سفيراً متميّزاً.

عبد الله بن حُذَافة في التَّاريخ

يذكر التاريخ لعبد الله، أنّه هاجر الهجرتين: إلى بلاد الحبشة وإلى المدينة المنوّرة، وأنّه كان من قُدامى المسلمين، ونال شرف الصُّحبة وشرف الجهاد تحت لواء الرّسول القائد عليه الصّلاة والسّلام.

ويذكر له، أنّه كان سفير النبي ﷺ إلى كسرى ملك الفُرس، يدعوه إلى الإسلام.

ويذكر له محنته القاسية في الأسر، واجتيازه لهذه المحنة بصبر وجلد

وإيمان، وخروجه منها بشرف مرفوع الرأس موفور الكرامة، تعتزّ به عقيدته، ويعتزّ به قومه، وتعتزّ به أمته. وقد وضعه التاريخ في مصاف أئمة المعذَّبين في سبيل عقيدتهم، وأئمة الثابتين بقوّة أمام الوعد والوعيد، وأئمة الصابرين المحتسبين الذين أصبحوا أسوه حسنة للصابرين المحتسبين.

ويذكر التاريخ. أن صبره الجميل على التعذيب الرهيب، لم يكن مصاولة بين الصّحابيّ الجليل وقيصر، وبين عقيدة الصحابيّ الجليل وعقيدة قيصر، ولكنّه مبارزة بين إرادة الله وإرادة قيصر، فكان صبر عبد الله صبر أمّة وعقيدة لا صبر فرد من الناس، ولو صبر صبر إنسان، لانهار كما ينهار الناس.

ويذكر له جهاده المشرّف في فتح بلاد الشام وأرض الكِنَانة، وبخاصة فتحه عين شمس وهي اليوم ضاحية مصر الجديدة، في القاهرة.

تُرى! هل يذكره أهل عين شمس اليوم؟ هل يعرفون مجرّد اسمه!! يا ليت!

إنّ جامعة عين شمس، يجب أن يُطلق عليها اسم: جامعة عبد الله بن حُذَافة السَّهْمِيّ، اعترافاً بفضله في فتح عين شمس.

رضي الله عن الصّحابي الجليل، السفير الأمير، القائد الفاتح، الصابر المحتسب، عبد الله بن حذافة القُرَشِيّ السَّهْمِيّ.

حاطِب بن أبي بَلْتَعَة اللَّخْمِيّ
الصَّحابيّ السَّفير

نسبه وأيّامه الأولى

هو حاطِب بن أبي بَلْتَعَة عمرو بن عُمَيْر بن سَلَمَة بن صَعْب بن سَهْل ابن العَتِيْك بن سَعَّاد بن راشِدة بن جَزِيْلَة بن لَخْم بن عَدِي[١]، وهو من لَخْم ثم أحد بني راشدة بن أَزَبَ بن جَزِيْلَة بن لَخْم، ولخم هو مالك بن عَدِيّ بن الحارث بن مُرَّة بن أُدَد بن يَشْجُب بن عَرِيبْ بن زيد بن كَهْلان ابن سَبأ بن يَشْجب بن يَعْرُب بن قَحْطَان. وإلى قحطان جماع اليمن[٢] وكان اسم راشِدَة: خَالِفة، فوفدوا على النبيّ ﷺ فقال: «مَنْ أنتم؟»، قالوا: «بني خالِفة»، فقال: أنتم بنو راشِدة»[٣].

وقيل هو من مَذْحج[٤]، والصّواب إنَّه من لَخْم[٥] لإجماع المصادر المعتمدة على ذلك، وهو من أهل اليمن[٦].

---

(١) أسد الغابة (١/٣٦٠-٣٦١) وانظر الإصابة (١/٣١٤) والاستيعاب (١/٣١٢) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/١٥١).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/١١٤) وانظر جمهرة أنساب العرب (٤٢٢).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/١١٤).

(٤) الاستيعاب (١/٣١٢).

(٥) المعارف (٣١٧).

(٦) الإصابة (١/٣١٤) وانظر الجامع (١/٣٢٠) والاستيعاب (١/٣١٢).

يكنى: أبا محمد[١]، وقيل يكنى أبا عبد الله[٢]، والأكثر أنّه أبو محمّد، إذ جزم أكثر أصحاب المصادر المعتمدة على هذه الكنية.

وهو حليف لبني أسد بن عبد العُزَّى ثم للزُّبير بن العوَّام بن خُوَيْلِد ابن أسد[٣]، فهو حليف قريش[٤] وبنو أسد بن عبد العُزَّى بطن من عشرة أبطن من قريش[٥] كما هو معلوم.

وقيل: كان عبداً لعُبيد الله بن حُمَيْد بن زُهَيْر بن الحارث بن أسد ابن عبد العُزَّى بن قُصَيّ، فكاتبه فأدّى كتابته يوم الفتح[٦] (فتح مكة)، وجاء في المعارف لابن قُتَيْبَة: «وقُتل عُبيد الله بن حُمَيْد يوم بدر كافراً، قتله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه»[٧]، فلم أجد اسمه بين قتلى المشركين في بدرٍ[٨]، مما يدلّ على توهّم ابن قُتيبة.

والأكثر أنه حليف لبني أسد بن عبد العُزَّى[٩]، وسنجد مصداق ذلك في هجرته وشيكا، فهو حرٌّ من الأحرار، وكان فارساً وشاعراً مشهوراً في الجاهلية[١٠]، وكان أحد فرسان قريش في الجاهلية

---

(١) تهذيب الأسماء واللّغات (١/١٥١) والمعارف (٣١٨) وطبقات ابن سعد (٣/١١٤).
(٢) أسد الغابة (١/٣٦١) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/١٥١).
(٣) أسد الغابة (١/٣٦١) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/١٥١).
(٤) الاستيعاب (١/٣١٢).
(٥) أنظر سيرة ابن هشام (١/١٤٣-١٤٤)، وبطون قريش هي: بنو هاشم، وبنو نوفل، وبنو أمية، وبنو عبد الدّار، وبنو تيم، وبنو أسد، وبنو مخزوم، وبنو عدي، وبنو جُمَح، وبنو سَهْم.
(٦) الاستيعاب (١/٣١٢) والمعارف (٣١٧).
(٧) المعارف (٣١٨).
(٨) انظر تفاصيل قتلى المشركين في بدر في سيرة ابن هشام (٢/٣٥٥-٣٦٤) وطبقات ابن سعد (٢/١٨) ومغازي الواقدي (١/١٤٧-١٥٢).
(٩) الاستيعاب (١/٣١٢).
(١٠) الجامع (١/٣٢٠).

وشعرائها[١] ونسب هنا إلى قريش بالولاء كما هو واضح، وأخباره قبل إسلامه قليلة جداً، ولكنّ أخباره بعد إسلامه كثيرة، فكأنه وُلد بعد إسلامه من جديد.

وكان حاطب قديم الإسلام[٢]، ولعلّ صلته الوثيقة بالزُّبير بن العوّام رضي الله عنه الذي أسلم قديماً[٣]، شجعته على اقتفاء أثره في الإقبال على الإسلام قديما.

ولما أذن النبيّ ﷺ بالهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، هاجر حاطب مع حليفه الزبير بن العوّام، وكان برفقة حاطب مولاه سعد بن خَوْلِيّ الكلبيّ، وكان الزبير قد هاجر إلى الحبشة مرتين، فلم يهاجر معه حاطب ولا مولاه سعد إلى أرض الحبشة[٤]، ومن المحتمل أنهما بقيا بمكة في جوار أحد أشراف قريش والمتنفذين فيها.

وفي المدينة، آخى النبيّ ﷺ بين حاطب ورُخَيْلة بن خالد[٥]، وفي رواية أنّه آخى بينه وبين عُوَيْم بن ساعدة أخي بني عمرو بن عَوْف[٦]، ويبدو أنّ الرواية الثانية أصوب من الرواية الأولى، لأنّ أكثر المصادر المعتمدة تنصّ عليها، وكان حاطب ومولاه سعد قد نزلا على المُنْذِر بن محمّد عُقْبة بن أُحَيْحَة بن الجُلَاح[٧].

وهكذا استقرّ حاطب مع الزبير بن العوّام حليفه وسعد مولاه في

---

(١) الإصابة (٣١٤/١).
(٢) تهذيب التهذيب (١٦٨/٢).
(٣) جوامع السيرة (٤٦) والدرر (٤١).
(٤) أنساب الأشراف (٢٠١/١-٢٠٢).
(٥) طبقات ابن سعد (١١٤/٤) والمحبّر(٧٢).
(٦) سيرة ابن هشام (١٢٥/٢-١٢٦) وجوامع السيرة (٩٧) والدرر (٩٩).
(٧) طبقات ابن سعد (١١٤/٤).

قاعدة المسلمين الأمنية: المدينة المنورة، كما استقرّ غيره من المهاجرين مع إخوتهم من الأنصار، وأصبحوا جميعاً في خدمة الإسلام والمسلمين في السِّلام والقتال.

جهاده

شهد حاطب غزوة[1] بَدْرٍ الكبرى الحاسمة التي كانت صراعاً حاسماً بين عقيدتين، فانتصرت العقيدة الصّالحة بالفئة القليلة، على العقيدة الفاسدة بالفئة الكبيرة، وكانت هذه الغزوة في شهر رمضان المبارك من السنة الثانية الهجريّة[2].

وقد أبلى في هذه الغزوة بلاء حسنا، فأسر أحد المشركين من قريش، وهو الحارث بن عائذ بن أسد من بني أسد بن عبد العُزَّى، فقدم في فدائه عثمان بن أبي حُبَيْش بأربعة آلاف[3]، وفي رواية ثانية أنّه قتل الحويرث بن عبَّاد بن أسد[4] من بني أسد بن عبد العُزَّى، وليس هناك من بني أسد بن عبد العُزَّى غير عثمان بن الحويرث بن أسد الذي تنصّر قبل الإسلام والتحق بقيصر ملك الرُّوم وحسنت منزلته عنده[5]، وهو لم يشهد بدراً مع المشركين ولم يقتله حاطب، لهذا تكون الرواية الأولى هي الصواب.

كما شهد بدراً سعدٌ الكلبيّ مولى حاطب[6]، وشهدها عبدٌ لحاطب

(١) سيرة ابن هشام (٢/٣٢٧) ومغازي الواقدي (١/١٥٤) والدرر (١٢٢) وجوامع السيرة (١١٧).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/٢٦٦) وجوامع السيرة (١٠٧) والدرر (١١٠).

(٣) مغازي الواقدي (١/١٤٠).

(٤) أنساب الأشراف (١/٣٠٢).

(٥) سيرة ابن هشام (١/٢٤٢-٢٤٣).

(٦) جوامع السيرة (١١٧) والمحبّر (٢٧٦-٢٨٨).

أيضاً[1] ، وهكذا حشد حاطب كلّ مَنْ قدر على حشده في هذه الغزوة الحاسمة، لضمان إحراز النصر للمسلمين على المشركين.

وشهد حاطب غزوة أُحُد، وكان أحد الرماة المذكورين في هذه الغزوة[2]، وقد جرت تلك الغزوة في شهر شوّال من السنة الثالثة الهجريّة[3] فاستطاع حاطب أن يكبِّد المشركين خسائر فادحة بالأرواح في الصفحة الأولى من هذه الغزوة، ولكن مخالفة الرّماة أدَّت إلى خسارة هذه الغزوة تعبوياً، وقد استشهد سعد الكلبيّ مولى حاطب في أُحُد[4].

وشهد حاطب غزوة بني المُصْطَلِق من خُزَاعة، التي كانت في شهر شعبان من السنة السّادسة الهجريّة[5]، فلما مرّ رسول الله ﷺ بـ(النَّقيع)[6] منصرفه من (المُرَيْسِيْع)[7] ورأى سَعَةً وكَلأً وغُدُراً[8] كثيرة تتناخس[9]،

(١) مغازي الواقدي (١٠٥/١).

(٢) مغازي الواقدي (٢٤٣/١) وانظر أسماء الرماة المذكورين في هذه الغزوة، وانظر أيضاً أنساب الأشراف (٣٢٣/١).

(٣) جوامع السيرة (١٥٦) والدرر (١٥٣).

(٤) طبقات ابن سعد (١١٥/٣) وأنساب الأشراف (٣٢٨/١).

(٥) جوامع السيرة (٢٠٣).

(٦) النّقيع: لغة القاع، أو الموضع الذي يستنقع فيه الماء، وبه سمي هذا الموضع، وهو موضع قرب المدينة كان لرسول الله ﷺ، وله هناك مسجد يقال له: مقمّل وهو من ديار مُزَيْنَة، وبين النقيع والمدينة عشرون فرسخاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣١٢/٨-٣١٤).

(٧) المريسيع: ماء لبني خزاعة، بينه وبين الفرع يومان، وبين الفرع والمدينة ثمانية بُرُد، وهو اسم ماء بناحية القديد، انظر معجم البلدان (٤١/٨).

(٨) الغدر: جمع الغدير، وهو القطعة من الماء يغادرها السيل، انظر لسان العرب (٣١٢/٦).

(٩) تتناخس: يصب بعضها على بعض.

وخُبِّر ببراءته وبراءته[1]، فسأل عن الماء، فقيل يا رسول الله! إذا صِفْنَا قلّت المياه وذهبت الغُدُر، فأمر رسول الله ﷺ حاطباً أن يحفر بئراً، وأمر بالنّقيع أن يُحْمىٰ، واستعمل عليه بلال بن الحارث المُزَنِيّ، يحميه لخيل المسلمين وإبلهم التي يغزون عليها[2].

وقد حجز النبيّ ﷺ هذه المنطقة الخصبة الغنيّة بالمراعي والمياه إلاّ في فصل الصيف، لمصلحة المسلمين العامة، لأنّها لم تكن ملكاً لأحدٍ، كما يدل على ذلك تعبير: «براءته»، أي لا صاحب لها.

وشهد حاطب غزوة الحُدَيْبِيَّة التي كانت في شهر ذي القعدة من السّنة السّادسة الهجرية[3]، فبايع النبيّ ﷺ بيعة الرضوان، وكان المسلمون الذين دخلوا على أهليهم بمكة عشرة من المهاجرين، أحدهم حاطب[4].

ولما أراد النبيّ ﷺ غزو قريش في مكّة عام الفتح، فأراد أنّ يعمّي الأخبار على قريش[5]، فكتب حاطب إلى ثلاثة نفر من قريش: صَفْوان ابن أُميَّة، وسُهيل بن عمرو، وعِكْرَمة بن أبي جَهْل: «إن رسول الله قد أذَّن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم، وقد أحببت أن تكون لي عندكم يدٌ بكتابي إليكم»، ودفع الكتاب إلى امرأة من مُزَيْنَة من أهل

---

(١) مرأت الأرض مراءة: حسن هواؤها، وكلأ مرىء: غير وخيم، أنظر القاموس المحيط (٢٨/١)، وبراءة مصدر من برىء بمعنى خلا، أي لا صاحب له، أنظر لسان العرب (٢٤/١).

(٢) مغازي الواقدي (٤٢٥/٢).

(٣) جوامع السيرة (٢٠٧).

(٤) مغازي الواقدي (٦٠٣/٢).

(٥) أسد الغابة (٣٦١/١).

(العَرْج)[1] يقال لها كَنُود، وجعل لها ديناراً على أن تبلِّغ الكتاب، وقال: «اخفيه ما استطعت، ولا تَمرُيّ على الطريق فإنّ عليها محرساً»، فسكت على غير نَقْبٍ، على يسار المحجَّة في الفُلوق[2]، وجعلت الكتاب في رأسها، ثمّ فتلت عليه قرونها.

وبعث النبيّ ﷺ عليّ بن أبي طالب والزُّبير بن العوّام رضي الله عنهما، فقال: «**أدركا امرأة من مُزَيْنة، قد كتب معها حاطب كتاباً يحَذِّر قريشاً**»، فخرجا فأدركاها[3]، فقالا: «أخرجي الكتاب»، فقالت: «ما معي من كتاب»، فقالا: «لتخرجنّ الكتاب، أو لنجردنّ الثياب»، فأخرجته من عقاصها، فأتيا به رسول الله ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: «**ما هذا يا حاطب!!**»، قال: «لا تعجل عليّ يا رسول الله! إني كنت امرأً ملصقاً بقريش، ولم أكن من أنفسها، وكان مَنْ معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من نسبٍ فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمدون بها قرابتي، وما فعلتُ ذلك كفراً وارتداداً عن ديني ولا رضاء بالكفر»، فقال رسول الله ﷺ: «**صدق**». فقال عمر بن الخطاب: «دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه قد نافق» فقال رسول الله ﷺ: «**إنه قد شهد بدراً، فما يدريك! لعل الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد**

---

(١) العرج: قرية جامعة على ثلاثة أميال من المدينة بطريق مكة، انظر شرح الزرقاني على المواهب اللدنية (٢/٣٦٠).

(٢) الفلوق: جمع فلق، وهو الشق، يقال: مررت بحرّة فيها فلوق، أي شقوق، انظر الصحاح (١٥٤٤).

(٣) مغازي الواقدي (٢/٧٩٧-٧٩٨).

غفرت لكم »، وفي حاطب نزلت هذه الآية: ﴿يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة....﴾ إلى آخر الآية[١]، وعفا عنه النبيّ ﷺ إكراماً لماضيه المجيد[٢].

وهكذا يعلّم النبيّ ﷺ المسلمين في كلّ مكان وزمان، حُكّاماً ومحكومين، كيف يبنى الرجال، فيذكر تاريخهم المجيد وأعمالهم المجيدة، ولا ينسى أو يتناسى كلّ ما قدّموه من أعمال جليلة عند ارتكابهم أي خطأ من الأخطاء، وبذلك يبني الرجال ولا يحطمهم.

وشهد غزوة فتح مكة التي كانت في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجريّة[٣]، كما شهد غزوة حُنين التي كانت في شهر شوال من السنة الثامنة الهجرية، فقتل أبو قُتادة أحد المشركين وأخذ سلبه، فباع سلاح القتيل من حاطب بسبع أواقٍ[٤].

هذا ما سجّلته المصادر المعتمدة لحاطب في غزوات النبيّ ﷺ، وقد شهد المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، وكان من أشد الرُّماة في الصحابة[٥] ومن الرُّماةِ المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ[٦] وأحد الرُّماة المشهورين[٧]، فجنّد نفسه لأمة الإسلام والمسلمين وسخر طاقاته لمصالحهم،

---

(١) سورة الممتحنة، آية ١.

(٢) تهذيب الأسماء واللّغات (١/١٥١) والإصابة (١/٣١٤) وأسد الغابة (١/٣٦١-٣٦٢) والاستيعاب (١/٣١٢) وأنساب الأشراف (١/٣٥٤) وفي (١/٣٦٠): أن التي حملت كتاب حاطب إلى قريش سارة المغنية النوّاحة وجوامع السيرة (٢٢٦) والدرر (٢٢٦-٢٢٧) ومغازي الواقدي (٢/٢٩٧) وفي (٢/٧٩٩): أن حامل الكتاب سارة. والطبري (٣/٤٨) وابن الأثير (٢/٢٤٢) وسيرة ابن هشام (٤/١٦).

(٣) جوامع السيرة (٢٢٦).

(٤) مغازي الواقدي (٣/٩٠٩).

(٥) الجامع (٣٢٠) وطبقات ابن سعد (٣/١١٤).

(٦) طبقات ابن سعد (٣/١١٤).

(٧) أنساب الأشراف (١/٣٢٣).

فأدّى واجبه في الجهاد على أحسن وجه، وكان مثالاً للمجاهد الصّادق بروحه وماله في سبيل الله.

السَّفير

بعث النبيّ ﷺ رسله إلى الملوك والأمراء قبل الفتح وبعد الحُدَيْبِيَّة[1]، وكتب معهم إليهم يدعوهم إلى الإسلام، فقد خرج إلى أصحابه بعد عُمْرته التي صُدّ عنها يوم الحُدَيْبِيَّة، فقال: «**أيّها الناس! إن الله قد بعثني رحمةً وكافةً، فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم**». فقال أصحابه: «وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟»، فقال: «**دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما مَنْ بعثه مَبْعثاً قريباً فرضي وسلّم، وأما مَنْ بُعثَ مَبْعَثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل، فشكا ذلك عيسى إلى الله، فأصبح المتثاقلون وكلّ واحد منهم يتكلّم بلغة الأمّة التي بُعثت إليها**»، فبعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه، وكتب معهم كُتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، وبعث حاطب بن أبي بَلْتَعَة إلى المُقَوْقِس[2] ملك الإسكندرية[3]، سنة ست الهجريّة[4].

ومضى حاطب بكتاب رسول الله ﷺ، فلما انتهى إلى الإسكندرية،

---

(١) جوامع السيرة (٣٩).

(٢) المقوقس: يطلق المؤرخون اسم المقوقس على حاكم مصر في ذلك العصر إطلاقاً خاطئاً، والمقصود بالمقوقس هو قيرس بطريرك الاسكندرية الملكاني الذي جمع له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج بأرض مصر، انظر الهامش الرقم (١) في ص ٦٥ من كتاب فتوح مصر والمغرب.

(٣) سيرة ابن هشام (٢٧٨/٤-٢٧٩).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط (٤١/١) وتهذيب الأسماء واللغات (١٥١/١) وانظر الطبري (٦٤٤/٢) وابن الأثير (٢١٠/٢).

وجد المقوقس في مجلس مشرف على البحر، فلما حاذى مجلسه، أشار بكتاب رسول الله ﷺ بين إصبعيه، فلما رآه المقوقس، أمر بالكتاب فقُبض، وأمر بحاطب فأُوصل إليه. وقرأ المقوقس كتاب رسول الله ﷺ فقال: «ما منعه إن كان نبياً أن يدعو عليّ فيُسلّط عليَّ؟»، فقال له حاطب: «ما منع عيسى بن مريم أن يدعو على مَنْ أبَى عليه أن يُفْعَل به ويُفْعل؟».

ووجم المقوقس ساعة، ثم استعادها، فأعادها عليه حاطب، فسكت[1].

وسأل المقوقس حاطباً: «أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبياً؟»، قال: «بلى»، قال: «فما له لم يَدْعُ على قومه حيث أخرجوه من بلدته؟»، فأجابه حاطب: «فعيسى بن مريم رسول الله حين أراد قومه صلبه، لم يَدْعُ عليهم حتى رفعه الله» قال: «أحسنت، أنت حكيم جئت من عند حكيم»[2].

وقال حاطب للمقوقس: «إنّه قد كان قبلك رجل زعم أنه الربّ الأعلى، فانتقم الله به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك، وإنّ لك ديناً لن تدعه إلاَّ لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافي الله به فَقْد ما سواه، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إيّاك إلى القرآن إلاّ كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به»[3] فأجاب المقوقس: «إن القِبط لا يتابعني على اتّباعك، وأنا أَضَنُّ بملكي»[4].

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٦٥).
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٥١).
(٣) فتوح مصر والمغرب (٦٥).
(٤) البدء والتاريخ (٤/٢٢٩).

وقبّل المقوقس كتاب رسول الله ﷺ[1]،وأخذه وجعله في حُقٍّ من عاج، وختم عليه[2]، وأكرم حاطباً، وأحسن نُزله[3].

وكان نصّ رسالة النبيّ ﷺ إلى المُقَوْقِس:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمّد رسول الله.

إلى: المقوقس عظيم القِبْط.

سلامٌ على منْ اتَّبَعَ الهدى.

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأَسْلمْ تَسْلَمْ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرَّتين، فإن توليْتَ فعليك إثم القِبط: ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنّا مسلمون﴾[4].

علامة الختم رسول الله محمد

---

(١) ابن الأثير (٢/٢١٠).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٦٦).

(٣) فتوح مصر والمغرب (٦٧).

(٤) سورة آل عمران، آية ٦٤، وانظر نص الرسالة في فتوح مصر والمغرب (٦٥-٦٦) والقسطلاني (١/٢٩٢-٢٩٣) وصبح الأعشى للقلقشندي (٦/٣٧٨) وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في مجموعة الوثائق السياسية (٧٢).

وهناك رواية أخرى، عن نص كتاب النبيّ ﷺ إلى المقوقس:

من: محمّد رسول الله.

إلى: صاحب مصر.

أما بعد: فإن الله أرسلني رسولاً، وأنزل عليّ قرآناً، وأمرني بالإعذار والإنذار ومقاتلة الكفار حتى يدينوا بديني ويدخل الناس في ملتي، وقد دعوتك إلى الإقرار بوحدانيته، فإن فعلت سعدت، وإن أبيتَ شقيت، والسلام[1].

علامة الختم: الله رسول محمد

وأرجّح النص الأول، لأن المصادر المعتمدة نصّت عليه، وهو على غرار كُتب النبيّ ﷺ إلى ملوك النصارى، النجاشي ملك بلاد الحبشة، وهرقْل قيصر الرُّوم، والمقوقس كان من ملوك النصارى أيضا، وهو أشبه بأسلوب النبيّ ﷺ البليغ.

وقد أوردت نصّ الكتاب الثاني، للاطلاع عليه، ومقارنته مع نصّ الكتاب الأول الذي اعتمدناه.

وحين عزم حاطب العودة من سفارته إلى مصر، بعث المقوقس معه هدايا إلى النبيّ ﷺ: ثلاث جوارٍ، منهنّ مارية القبطيّة أمّ ابراهيم بن رسول الله ﷺ، وشِيرين[2] أخت مارية وهبها لحسّان بن ثابت الأنصاري

---

(١) فتوح مصر للواقدي (١٠) وصبح الأعشى للقلقشندي (٣٧٨/٦) وانظر تفاصيل المراجع الأخرى في مجموعة الوثائق السياسية (٧٤).

(٢) وردت كذلك في ابن الأثير (٢٢٥/٢) ومعناها: الحلو، الحلوة، وفي المصادر الأخرى وردت: سيرين.

شاعر النبيّ ﷺ فولدت له عَبد الرحمن بن حسَّان، وكان حاطب قد دعاها إلى الإسلام قبل أن يقدم بها، فأسلمت مارية وأختها، ووهب الثالثة لجَهْم بن قيس العبدري[1]، فهي أم زكريا بن جهم الذي كان خليفة عمرو بن العاص على مصر، وبغلته دُلْدل، وحماره يَعْفُور، وكُساً، وبعث مع الجواري بخصّي فكان معهم[2]، وألف مثقال ذهباً وعشرين ثوباً، ووهب لحاطب مالاً عظياً[3]، وكانت عودة حاطب إلى المدينة سنة سبع الهجرية[4].

نستنتج من ذلك، أنّ حاطباً قصد مصر في أواخر سنة ست الهجرية، وعاد منها في أوائل سنة سبع الهجرية، فاختلط هذان التاريخان لتقاربها على قسم من المؤرخين، فزعم بعضهم أنّه قصد مصر سنة سبع[5]، وهذا خطأ لإجماع المصادر على أنَّ إيفادة كان سنة ست الهجرية بعد غزوة الحُدَيْبِيَّة.

---

(١) هكذا ورد في فتوح مصر والمغرب (٦٧)، أما في الاستيعاب (٣١٥/١) فورد اسمه: جهم بن حذيفة العدوي.

(٢) في الطبري (٦٤٥/٢) وابن الأثير (٢١١/٢) أن المقوقس أهدى إلى النبيّ ﷺ أربع جوارٍ، وفي الطبري (٢١/٣) وابن الأثير (٢٢٥/٢) أنها جاريتان وكذلك في فتوح مصر والمغرب (٦٧)، أما في الاستيعاب (٣١٥/١) فذكر أن عدد الجواري ثلاث وكذلك في تهذيب الأسماء واللغات (١٥١/١) فأخذنا بذلك لأن أصحاب الحديث أدق من المؤرخين.

(٣) البدء والتاريخ (٢٢٩/٤).

(٤) الطبري (٢٠/٣) وابن الأثير (٢٢٥/٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٤٩/١).

(٥) أنساب الأشراف (٥٣١/١).

وحمّل المقوقس حاطباً رسالة جوابيّة إلى النبيّ ﷺ هذا نصّها.

لمحمّد بن عبد الله.

من المقوقس

سلام.

أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمتُ ما ذكرت وما تدعو إليه. وقد علمت أنّ نبياً قد بقي، وقد كنتُ أظنّ أنّه يخرج بالشّام، وقد أكرمت رسلك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القِبْط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها.

والسلام[1]

التوقيع

وهناك رواية أخرى عن جواب المقوقس هذا نصها:

باسمك اللهمّ

من المقوقس

إلى: محمد

أما بعد، فقد بلغني كتابك، وقرأته وفهمت ما فيه. أنت تقول: إن الله تعالى أرسلك رسولاً، وفضلك

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٦٧) وصبح الأعشى للقلقشندي (٤٦٧/٦) والقسطلاني (٢٩٢/٢-٢٩٣) وانظر المصادر والمراجع في مجموعة الوثائق السياسية (٧٣).

تفضيلاً، وأنزل عليك قرآناً مبيناً، فكشفنا يا محمّد في علمنا عن خبرك، فوجدناك أقرب داعٍ دعا إلى الله، وأصدق مَنْ تكلّم بالصدق. ولولا أني ملكتُ مُلكاً عظيماً، لكنت أوّل مَنْ سار إليك، لعلمي أنك خاتم الأنبياء، وسيِّد المرسلين، وإمام المتقين.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته إلى يوم الدين[١].

التوقيع

ولم تتطرق المصادر المعتمدة إلى نص رسالتي المقوقس الجوابيتين، والجواب الأول أقرب إلى التصديق، لأنّه يصف الواقع ببساطة وبدون تكلّف، أما الجواب الثاني، فمن الواضح أن أسلوبه إسلاميّ، ويبدو أنّ كاتبه أحد المسلمين، وقد اقتصر الواقدي على ذكره، فنُقل عنه بعد ذلك من الأدباء لا من المحدِّثين، والمحدِّثون ينقلون بعد التثبت القاسي الشديد حسب منهجهم الواضح، أما الأدباء فينقلون ما يفيد الأدباء دون التثبّت من درجة الثقة بالمنقول والمنقول عنه.

لقد كان المقوقس مؤدباً غاية الأدب مع سفير النبيّ ﷺ، فأحسن استقباله وضيافته، وأرسل معه مَنْ يوصله مأمنه[٢] حين ارتحل عن مصر، بعد أن أدّى مهمته بأمانة وحكمة وإخلاص.

وبعد أن التحق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى، وتولى أبو بكر الصدِّيق الخلافة، بعث حاطباً إلى المقوقس بناحية قرى الشرقيّة، فأعطوه، فلم

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندي (٤٦٧/٦)، وانظر تفاصيل المراجع في مجموعة الوثائق السياسية (٧٥).

(٢) تهذيب الأسماء واللّغات (١٥٢/١).

يزالوا على ذلك حتى دخلها عمرو بن العاص سنة عشرين الهجريّة، فقاتلهم فانتقض ذلك الصلح[1] الذي كان بين المقوقس وحاطب.

الإنسان والسفير

١. نال حاطب شرف الصحبة وشرف الجهاد تحت لواء النبيّ ﷺ، شهد الله له بالإيمان في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء**﴾[2].

وجاء عبد لحاطب إلى النبيّ ﷺ يشتكي حاطباً، وقال: «يا رسول الله! ليدخلنّ حاطب النار»، فقال رسول الله ﷺ: «**كذبتَ، لا يدخل النار أحدٌ شهد بَدْراً والحُدَيْبيَّة**»[3].

وكان شديداً على الرقيق، يشهد له ما في الموطأ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحاطب حين نَحَر رقيقُهُ ناقةً لرجلٍ من مُزَيْنة: «أراك تجيعهم»، وأضعف عليه القيمة على جهة الأدب والرّدع[4].

روى عنه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كلامه في اعتذاره عن مكاتبة قريش، وروى عنه ابنه عبد الرحمن عدّة أحاديث وأنس عن الحاكم، وأخرج مسلم من حديث جابر، فقال: «شكى عبد لحاطب فقال: يا رسول الله، ليدخلنّ حاطب النار، فقال: **لا، إنه شهد بدراً والحُدَيْبيَّة**»[5]، وقد ذكرناه قبل قليل.

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (١/١١٥) والاستيعاب (١/٣١٤).

(٢) سورة الممتحنة، آية ١، انظر الاستيعاب (١/٣١٢) حول هذا الخبر.

(٣) الاستيعاب (١/٣١٣) والإصابة (١/٣١٤) وتهذيب الأسماء واللغات (١/١٥١) وتهذيب التهذيب (٢/١٦٨).

(٤) الاستيعاب (١/٣١٤).

(٥) تهذيب التهذيب (١/١٦٨) والإصابة (١/٣١٤).

وحديث عليّ بن أبي طالب في قصة كتابة حاطب إلى أهل مكة، في الصحيحين[1] البخاري ومسلم.

وكان السفير بين النبيّ ﷺ وأم سلمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقيل: حاطب[2]، ما يدلّ على أنه موضع ثقة النبيّ ﷺ حتى في أموره الخاصة.

ومات حاطب سنة ثلاثين الهجرية(٦٥٠م) بالمدينة وهو ابن خمس وستين سنة، أي أنه ولد سنة خمس وثلاثين قبل الهجرة (٥٨٧م)، وصلّى عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه[3]. وقد ترك يوم مات أربعة آلاف دينار ودراهم وداراً وغير ذلك، وكان تاجراً يبيع الطعام وغيره[4]، وكانت له تجارة واسعة[5].

ولحاطب بقيّة بالمدينة[6].

وكان رجلاً حسن الجسم، خفيف اللّحية، أجْنَأ[7]، وكان إلى القِصَر أقرب، شَثْن[8] الأصابع[9].

---

(١) الإصابة (٣١٤/١).

(٢) أنساب الأشراف (٤٣٠/١-٤٣١).

(٣) طبقات ابن سعد (١١٤/٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١٥٢/١) والإصابة (٣١٤/١) وأسد الغابة (٣٦١/١) والبداية والنهاية (١٥٦/٧) وتاريخ خليفة بن خياط (١٤٢/١) وابن الأثير (١١٦/٣).

(٤) طبقات ابن سعد (١١٤/٣-١١٥).

(٥) الجامع (٣٢٠/١).

(٦) طبقات ابن سعد (١١٥/٣).

(٧) أجنأ: الذي في كاهله انحناء على صدره.

(٨) الشثن: الغليظ الخشن، يقال: شثن الأصابع.

(٩) طبقات ابن سعد (١١٤/٣).

وكان على جانب عظيم من الذكاء والأريحيّة وحسن التصرّف والإيمان العميق.

٢. كان يتحلّى بمزايا السفير اللامع، فقد كان صحابياً جليلاً حائزاً على مزية الانتماء إلى الدين الجديد إخلاصاً وإيماناً.

وكان فصيحاً ذا منطق متزّن سليم وبديهة حاضرة، شاعراً، عالماً بأمور الدنيا لكثرة تجربته في الحياة مسافراً إلى الأقطار الخارجية تاجراً، وكان يحترف تجارة الطعام، وكانت مصر يومها مصدراً الاستيراد الطعام إلى شبه الجزيرة العربية. وليس هناك أيّ نص في المصادر المعتمدة على سفره إلى مصر قبل رحلته إليها سفيراً، ولكن ليس معنى ذلك أنّه لم يسافر إلى مصر تاجراً، فمن المحتمل أنّه قد سبق له السفر إلى مصر لاستيراد الطعام منها، مما رشَّحه لتحمل أعباء سفارته.

وكان يتحلّى بالصبر في مناقشته وبالحكمة، كما شهد له المقوقس بالذات بعد محادثتها المثمرة.

وكان واسع الحيلة، عارفاً بمخارج الأمور ومداخلها، واسع الاطّلاع طويل التجربة والخبرة.

وكان جميل المظهر، جميل الشّكل، حسن الوجه، لطيف الهيئة، لطيف الجسم، ولكنّ مخبره لا يقلّ رواء عن مظهره.

تلك مزاياه التي زادتها فطنته وتجربته العملية قدراً وجلالا، فلا عجب أن يكون سفيراً ناجحاً ورسولاً أميناً ومفاوضاً محنّكاً، وأن يخدم الإسلام والمسلمين في سفارته خدمة لا تقدر بثمن، وأن يؤثر في المقوقس بخاصة والقِبط بعامة تأثيراً حسناً.

حاطب في التاريخ

يذكر التاريخ لحاطب، أنّه كان شاعراً وفارساً مشهوراً في الجاهلية،

معروفاً في قريش بشعره وفروسيته.

ويذكر له، أنّه أسلم قديماً، وأنّه شهد غزوة بَدْر الحاسمة وأبلى فيها أحسن البلاء.

ويذكر له، أنّه شهد المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، وأنه كان أحد رماة الصحابة المذكورين ومن أشد الرُّماة في الصَّحابة.

ويذكر له، أنّه كان سفير النبيّ ﷺ إلى المقوقس عظيم القِبط في مصر: كنانة الله في أرضه.

ويذكر له، أنّه كان سفير أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه إلى المقوقس، بعد أن التحق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى.

ويذكر له، أنه نال شرف الصّحبة، وشرف الجهاد تحت لواء النبيّ ﷺ.

رضي الله عن الصحابيّ الجليل، المجاهد الصّادق، السفير اللامع، حاطب بن أبي بَلْتَعَة اللَّخْمِيّ.

شُجَاع بن وَهْب الأَسَدي
السَّفير القائد الشَّهيد

نسبه وأَيَّامه الأولى

هو شُجاع بن وَهْب[١] بن ربيعة بن أَسَد بن صُهَيْب بن مالِك بن كثير[٢] بن غَنْم بن دُوْدَان بن خُزَيْمة الأَسَدِي[٣]، حليف لبني عَبْدِ شمسْ من قُرَيش، يُكنى: أبا وهَبْ[٤].

أسلم قديماً، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، وعاد إلى مكَّة لما بلغ المهاجرين أنَّ أهل مكة قد أسلموا[٥]، فكان من السَّابقين الأولين[٦] إلى الإسلام.

ولما أذِنَ النبي ﷺ للمسلمين بالهجرة من مكّة إلى المدينة، كان شجاع من أوائل مَنْ هاجر إلى المدينة من المسلمين[٧]، فقد قدم

---

(١) الإصابة (١٩٤/٣) وأسد الغابة (٣٨٦/٢) والاستيعاب (٧٠٧/٢).
(٢) في طبقات ابن سعد (٩٤/٣): ابن كبير.
(٣) طبقات ابن سعد (٩٤/٣) والإصابة (١٩٤/٣) وأسد الغابة (٣٨٦/٢) والاستيعاب (٧٠٧/٢).
(٤) أسد الغابة (٣٨٦/٢) والاستيعاب (٧٠٧/٢).
(٥) أسد الغابة (٣٨٦/٢).
(٦) الإصابة (١٩٤/٣)
(٧) سيرة ابن هشام (٨٠/٢) وانظر الدرر (٨١) وجوامع السيرة (٨٧).

المهاجرون من مكة إلى المدينة أرْسالاً، وكان بنو غَنْم بن دُوْدَان أهل إسلام، وقد أوعبوا مع رسول الله ﷺ هجرةً: رجالهم ونساؤهم[1].

وفي المدينة آخى النبيّ ﷺ بين شجاع وأَوْس بن خَوْلِيْ[2] وهو أوس ابن خَوْلي بن عبد الله بن الحارث من بني عَوْف بن الخَزْرَج.

وهكذا استقر شجاع بعد طول ترحاله في قاعدة المسلمين الأَمِيْنة، المدينة المنوَّرة، فأصبح له فيها أخوة في الله يتعاونون معه في السّراء والضّراء، ويعينونه ويعينهم على تحمّل أعباء الحياة، وأصبح له مستقرٌ فيها يأوي إليه، ويلجأ إلى حماه، فأصبح جاهزاً للدفاع عن نفسه وأخوته في الدين وعن الإسلام والمسلمين.

المجاهد

شهد شجاع غزوة (بَدْرٍ)[3] الحاسمة هو وأخوه عُقْبَة بن وَهْب الأسدي[4]، وكانت غزوة بدرٍ في شهر رمضان المبارك من السنة الثانية الهجريّة.

وشهد سرية عُكَّاشه بن مِحْصَن[5] إلى (الغَمْر)[6] التي كانت في شهر

---

(١) انظر التفاصيل في سيرة ابن هشام (٢/٨٠ - ٨٣).

(٢) المحبر (٧)، وانظر أسد الغابة (٢/٣٨٦) والاستيعاب (٧٠٧) وطبقات ابن سعد (٣/٩٤) والاستبصار (١٨٤ - ١٨٦).

(٣) مغازي الواقدي (١/١٥٤) وسيرة ابن هشام (٢/٣٢٦) وجوامع السيرة (١١٦) والدرر (١٢٢).

(٤) أنساب الأشراف (١/٢٠٠) وجوامع السيرة (١١٦) والاستيعاب (٢/٧٠٧) وأسد الغابة (٢/٣٨٦).

(٥) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة النبي ﷺ.

(٦) الغمر: هو ماء لبني أسد، على ليلتين من (فيد)، انظر طبقات ابن سعد (٢/٦١).

ربيع الأول من السنة السادسة الهجريّة، فغنمت السّريّة وعادت أدراجها سالمة إلى المدينة المنوّرة[١].

كما شهد شجاع، المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ[٢]، لم يتخلّف عن مشهد من مشاهده، وأدّى واجبه في الجهاد في غزوات النبي ﷺ، وفي السرايا التي شهدها على أحسن وجه يؤديه المجاهدون الصّادقون.

قائد السرية

يبدو أنّ شجاعاً أبدى كفاءة عالية في تلك الغزوات والسرايا التي شهدها، فأمَّره النبي ﷺ على سريّة مؤلّفة من أربعة وعشرين رجلاً، في شهر ربيع الأول من سنة ثمان الهجريّة، وجّهها عليه الصّلاة والسّلام إلى جمعٍ من بني هَوَازِن بـ(السِّيِّ)[٣] من أرض بني عامِر من ناحية (رُكْبة)[٤] من وراء (المعدِن)[٥]. وهي من المدينة المنورة على خمس ليالٍ. وأمره النبي ﷺ أن يُغير عليهم.

وخرج شجاع من المدينة المنوّرة على رأس سريّته. فكان يسير اللّيل ويكمُن النّهار. حتى صبّحهم وهم غارّون، وكان قد أمر أصحابه قبل

---

(١) مغازي الواقدي (٢/٥٥٠)، وانظر تفاصيل هذه السرية في سيرة عكّاشة بن محصن في كتاب: قادة النبي ﷺ.

(٢) الاستيعاب (٢/٧٠٧) وأسد الغابة (٢/٣٨٦).

(٣) السِّيّ: موضع من أرض بني عامر من ناحية (ركبة) من وراء (المعدن)، وهي على خمس ليالٍ من المدينة المنورة، انظر طبقات ابن سعد (٢/١٢٧)، وانظر معجم البلدان (٥/٢٠٣ - ٢٠٤).

(٤) ركبة: ماء بين (غمرة) و (ذات عرق) بناحية (السِّيّ)، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٧٨ - ٢٧٩).

(٥) المعدن: قرية بين مكّة والطائف، يقال لها: معدن البُرْم، كثيرة النخيل والزرع، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٩٤).

ذلك ألاّ يُمْعِنُوا في الطّلب، فأصابوا نَعَماً كثيراً وشاءً، فاستاقوا ما غنموا، حتى قدموا بالغنائم المدينة المنوّرة.

واقتسم رجال شجاع الغنيمة، فكانت سهامهم خمسة عشر بعيراً لكل رجل، وعدّلوا البعير بعشرة من الغنم.

وغابت السريّة في مهمتها خمس عشرة ليلة[1]، منذ غادرت المدينة حتى عادت إليها منتصرة غانمة سالمة.

وأصابت السريّة في الحاضر[2] نُسوة، فاستاقوهنّ، حتى قدم وفد بني هَوَازِن مُسْلِمين، فكلّموا رسول الله ﷺ في السَّبْيِ، فكلّم النبي ﷺ شجاعاً ورجاله في ردِّهنّ إلى ذويهنّ، إلاّ جارية وضيئة كان شجاع قد أخذها لنفسه بثمن، فأصابها. فلما قدم وفد بني هوازن، خيّرها شجاع بين المقام معه والرحيل مع أهلها، فاختارت المقام عند شجاع، فلقد قُتِل يوم (اليَمَامة) وهي عنده، ولم يكن له منها ولد[3] وكان يوم اليمامة في السّنة الحادية عشرة الهجرية بين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد، وبين المرتدين بقيادة مُسَيْلَمة الكذّاب، وذلك في صدر خلافة أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه، وبعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى[4].

لقد أدّى شجاع في قيادة هذه السريّة واجبه بشكل متميِّز، فسلم وغنم وانتصر على عدوِّه وأثَّر في معنويات هوازن أثراً بالغاً.

---

(١) مغازي الواقدي (٧٥٣/٢ - ٧٥٤) وطبقات ابن سعد (١٢٧/٢) وانساب الاشراف (٣٨٠/١) وعيون الأثر (١٥٢/٢).

(٢) الحاضر: القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون، والحيّ إذا حضروا الدار التي بها مجتمعهم، والمقيم في الحضر.

(٣) مغازي الواقدي (٧٥٦/٢).

(٤) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٣٦٠/٢ - ٣٦٧).

وقد أسلم قسم من هوازن، وقصدوا النبيَّ ﷺ، وأعلنوا إسلامهم على يديه.

السَّفير إلى الغساسِنَة

بعث النبي ﷺ قبل الفتح - فتح مكّة - وبعد الحُدَيْبِيَّة رسله إلى الملوك[1] والرؤساء، وذلك في شهر ذي الحجَّة سنة ست الهجريّة[2]، فبعث من جملة مَنْ بعث إليهم شُجاع بن وَهْب الأسديّ إلى الحارث بن أبي شَمِر الغسّانيّ يدعوهم إلى الإسلام، وكتب معه كتاباً.

قال شجاع: فأتيتُ إليه وهو بـ (غُوْطَة) دِمشق، وهو مشغول بتهيئة الإنزال والألطاف لقيصر (هِرقل) وهوجاءٍ من حِمْص إلى إيْلِيَاء (القُدس)، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إني رسولُ رسول الله ﷺ إليه، فقال: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا، وجعل حاجبُه، وكان رومياً اسمه مُرَيّ يسألني عن رسول الله ﷺ، فكنت أحدِّثه عن صفة رسول الله ﷺ وما يدعو إليه، فيرقّ حتى يغلبه البكاء، ويقول: إني قد قرأت الإنجيل، فأجد صفة هذا النبي ﷺ بعينه، فأنا أؤمن به وأصدِّقه وأخاف من الحارث أن يقتلني، وكان يكرمني ويحسن ضيافتي.

«وخرج الحارث يوماً، فجلس ووضع التاج على رأسه، فأذن لي عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرأه، ثم رمى به، وقال: مَن ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه، ولو كان باليَمَن جئته، عليّ بالناس! فلم يزل يفرض حتى قام، وأمر بالخيول تنعل، ثم قال: أخبر صاحبك ما ترى!

---

(١) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨) وجوامع السيرة (٢٩).

(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨) والطبري (٦/٦٤٤)، وانظر سيرة ابن هشام (٤/٢٧٨).

«وكتب إلى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه، فكتب إليه قيصر: ألا تسير إليه، والْه عنه ووافني بإيلياء. فلما جاءه جواب كتابه، دعاني فسأل: متى تريد أن ترجع إلى صاحبك؟ فقلت: غداً! فأمر لي بمائة مثقال ذهب، ووصلني مُرَيّ وأمر لي بنفقة وكسوة وقال: أقرِىء رسول الله ﷺ مني السّلام. فقدمت على النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: بادَ ملكه! وأقرأته من مُرَيّ السّلام وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ: صدَق»، ومات الحارث بن شَمِر عام الفتح[1].

وفي رواية ثانية، أنّ شجاع بن وهب قد بعثه النبي ﷺ إلى الحارث ابن شَمِر الغساني وابن عَمِّه جَبَلة بن الأَيْهَم ملكي (البَلْقاء)[2] من أعمال دمشق[3]. وكانوا بغُوطَة دِمشق[4].

وفي رواية ثالثة، أنّ النبيّ ﷺ بعث شجاعاً إلى جَبَلَة بن الأَيْهَم الغَسّانِي[5] والرواية الأولى أصح، لأن الحارث بن أبي شَمِر هو الذي كان على الغساسنة حينذاك، وكان ابن عمّه جَبَلة من أبرز شخصيات العائلة الحاكمة، ولكنه لم يكن ملك الغساسنة.

وكما أنّ الحارث لم يُسْلِمْ كذلك لم يُسْلِمْ جَبَلة يومئذٍ، وقد تولى الملك

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٦١/١)، وانظر ابن الأثير (٢١٣/٢)، وانظر البداية والنهاية (٢٦٨/٤) وانظر طبقات ابن سعد (٩٤/٣ - ٩٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٦٣/١).

(٢) البلقاء: كورة من أعمال دمشق، بين الشّام ووادي القرى، عاصمتها: عَمّان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٦/٢ - ٢٧٧).

(٣) جوامع السيرة (٢٩ - ٣٠)، وانظر سيرة ابن هشام (٢٧٩/٤) والمحبّر (٧٦) وابن الأثير (٢١٠/٢).

(٤) ابن الأثير (٢١٣/٢).

(٥) سيرة ابن هشام (٣٧٩/٢).

بعد موت ابن عمّه الحارث، فكان جبلة آخر ملوك غَسَّان. وقد أسلم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم ارتدّ وتنصر بعد ذلك ولحق بالرُّوم. وكان سبب تنصره أنّه مرَّ في سوق دمشق، فأوطأ رجلاً فرسه، فوثب الرجل فلطمه، فأخذه الغسَّانيّون وأدخلوه على أبي عُبَيْدَة بن الجرّاح رضي الله عنه[1]، فقالوا: «هذا لطم سيِّدنا!» فقال أبو عُبَيْدَة: «البَيِّنَة إنّ هذا لطمك؟» فقال جَبَلَة: «وما تصنع بالبيِّنة!» فقال: «إن كان لطمك، لطمته بلطمتك»، قال: «ولا يُقْتل؟!» قال: «لا!» قال: «ولا تُقطع يده؟!» قال: «لا!!، إنما أمر الله بالقصاص، فهي لطمة بلطمة»، فخرج جبلة، ولحق بأرض الرُّوم وتنصّر، ولم يزل هناك إلى أن هلك[2].

وكان نصّ رسالة النبيّ ﷺ: إلى الحارث:

بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمّد رسول الله.

إلى: الحارث بن أبي شَمِر.

سلام على مَنْ اتّبع الهدى وآمن بالله وصدّق. فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحدَه لا شريك له، يبقى مُلكك[3].

علامة الختم: الله رسول محمد

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشّام ومصر (٥٤ - ٨١).

(٢) المعارف (٦٤٤)، وقد ورد في بعض المصادر أنّه ارتدّ في المدينة المنورة، ولا خلاف في أنه ارتدّ وعاد إلى النصرانية، وكان الغساسنة قبل أن يسلم منهم من أسلم على دين النصارى.

(٣) البداية والنهاية (٢٦٨/٤) وانظر: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (٦٢ - ٦٣) للاطلاع على مصادر ومراجع نصّ الرسالة النبوية فيها.

فقدم عليه شجاع بن وَهْب، فقرأه عليه. فقال: «ومن ينتزع ملكي؟! إني سأسير إليه»[1].

لقد استطاع شجاع بن و هُب أن يصل إلى ملك الغساسنة، الحارث ابن أبي شَمِر، في ظروف صعبة للغاية، إذ كان الحارث في شغل شاغل عنه باستقبال قيصر الرّوم، في طريقه إلى القدس، شكراً لله على نصره المؤزّر على الفرس في معارك طاحنة، فقدّم شجاع رسالة النبيّ ﷺ الى ملك الغساسنة، ودعاه إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فبلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، ونجح بالتأثير في حاشية الملك، فأسلم حاجبه الذي كان من أقرب المقرّبينإليه، وأعلن إسلامه برسالته الشفهية إلى النبيّ ﷺ، التي نقلها شجاع. ولا بدّ أنّ شجاعاً بأسلوبه الحصيف داعياً إلى الله أثر في غير هذا الحاجب الذي أعلن إسلامه.

أما الملك، فلم يستجب للدّعوة يومئذٍ خوفاً على ملكه، وخوفاً من الرُّوم النّصارى الذين كانوا يحتلّون بلاد الشّام حينذاك، وكان الغساسنة من رعاياهم الذين يدينون لهم بالطاعة والولاء.

الإنسان

كان شجاع رجلاً نحيفاً طوالاً أجْنأ[2]. ولا رواية له عن النبيّ ﷺ في كتب الحديث النبويّ الشّريف[3]، وأخباره رواها غيره من الصَّحابة[4].

---

(١) البداية والنهاية (٤/٢٦٨).

(٢) أجنأ: أشرف كاهله على صدره، وانظر صفته في طبقات ابن سعد (٣/٩٤) والاستيعاب (٢/٧٠٧).

(٣) الاستيعاب (٢/٧٠٧).

(٤) اسد الغابة (٢/٣٨٦).

وأخباره إنساناً قليلة جداً، وقد استشهد شجاع يوم (اليَمامة)[1] بين المسلمين من جهة بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه وبين المرتدين بقيادة مُسَيْلَمة الكذاب من جهة أخرى، سنة اثنتي عشرة الهجرية وهو ابن بضع واربعين سنة[2].

والصّواب، هو أنّ معركة اليامة كانت سنة إحدى عشرة الهجرية (٦٣٢م) لا سنة اثنتي عشرة الهجرية.

لقد كان على جانب عظيم من التقوى والورع والإيمان، نجح في قيادته كما نجح في سفارته، مما يدلّ على اتّزان عقليته وذكائه وحسن تصرفه ودماثة أخلاقه.

ولم يبخل بروحه على عقيدته، فسقط شهيداً في قتال المرتدين، فكان استشهاده واستشهاد غيره من المسلمين، هو الذي جعل المسلمين يحرزون النّصر على أعدائهم المتفوقين عليهم عَدَداً وعُدداً.

وبأمثال شجاع بن وهب، يستنزل النصر، وبتضحيته وتضحية أمثاله في سبيل عقيدتهم، أحرز المسلمون النصر، وارتفعت رايات الإسلام والمسلمين شرقاً وغرباً.

القائد

على الرغم من تفوق بني هَوَازن بالعَدَد والعُدَد على سرية شجاع تفوقاً ساحقاً، إلاّ أنّ شجاعاً استطاع مُباغتة عدوِّه بالزمان الذي لم يكونوا يتوقَّعون أن يهاجموا فيه، وبالأسلوب الذي كان سريعاً صاعقاً، فشلَّ بذلك إرادة العدو على القتال، وشلّ بذلك تفكيره الصائب،

(١) اليامة: موضع في نجد، بينها وبين البحرين عشرة أيام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥١٥/٨ - ٥٢٥).

(٢) طبقات ابن سعد (٩٥/٣)، وانظر البداية والنهاية (٣٣٧/٦) والإصابة (١٩٤/٣) وأسد الغابة (٣٨٦/٢) والاستيعاب (٧٠٧/٢).

وتركه يتخبط في فوضى الارتباك والتردد، وبذلك استطاع أن يكبِّده خسائر فادحة بالأرواح والأموال والسّبي، في وقت خاطف قصير جداً.

والمباغتة، أهمّ مبدأ من مبادىء الحرب كما هو معروف.

ولم يقتصر شجاع على تطبيق مبدأ المباغتة، بل طبّق أكثر مبادىء الحرب الأخرى وأهمها، فقد طبّق مبدأ: اختيار المقصد وإدامته، وكان مقصده حسب نصّ أمر النبيّ ﷺ الذي أصدره إليه، هو: الغارة على بني هوازن، فنفّذ شجاع هذا المقصد الواضح الجليّ، وأمر رجاله بألاّ يطاردوا العدو، حتى لا يتورّط رجاله في مواقف ليست في الحسبان وليست في صالحهم.

كما طبّق مبدأ: التّعرّض، وكان قائداً تعرّضيا من الدرجة الأولى، بعيداً عن اتّخاذ أسلوب الدفاع في عملياته القتالية.

كما طبّق مبدأ: الأمن، فلم يستطع العدو أن يباغت سريته قبل القتال وفي أثنائه وبعده، واستطاع هو أن يباغت عدوّه في الزمان والأسلوب كما ذكرنا.

وطبّق مبدأ: الاقتصاد بالمجهود، فأمر بعدم مطاردة العدو، حتى لا يُبذِّر في قواته أو يتكبّد خسائر في الأرواح دون مسوِّغ.

وطبق مبدأ: الأمور الإدارية، فأمّن لرجاله كلّ ما يحتاجون إليه من مواد إدارية، بموجب خطة إداريّة بسيطة مرنة قابلة للتطبيق بسهولة ويُسر، لخلوها من التّعقيد.

وطبق مبدأ، إدامة المعنويات، تطبيقاً رائعاً حقاً، وما كان الهدف من سريته، إلاّ لإدامة معنويات رجالها بخاصة والمسلمين بعامة، وإضعاف معنويات بني هوازن بخاصة والمشركين بعامة.

وكان صاحب قرار سريع صحيح، وذا شجاعة شخصية نادرة،

وإرادة قوية نافذة، ونفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار. وكان يعرف نفسيات رجاله ومزاياهم وقابلياتهم، يثق بهم ويثقون به، ويحبهم ويحبونه، وكان موضع ثقة النبي ﷺ وتقديره واعتزازه. وكان ذا شخصية قوية مسيطرة، وقابلية بدنية جيدة، لأنه كان شاباً، وكان من ذوي الماضي المجيد.

وكان قائداً عقائدياً، يؤمن بالله إيماناً راسخاً، ويتوكّل عليه توكّلاً مطلقاً، مجاهداً من الطراز الأول. من أعز أمانيه نيل الشهادة، ولا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه، ما دام عمله خالصاً في سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمة الله. لقد كان شجاع، قائداً متميّزاً حقاً.

السفير

كان شجاع يتّصف بخمس صفات حميدة، أهّلته لتولّي منصب السفارة النبوية، إلى ملك الغساسنة الذي كان متّصلاً بالروم اتصالاً وثيقاً، ويعمل في ظل حكمهم على بلاد الشّام، وكان أقرب إلى الحضارة منه إلى البداوة من جرّاء هذا الاتصال المباشر الوثيق بالرّوم.

وأوّل هذه الصفات، هي الانتماء للإسلام أنساه انتماءه إلى قبيلته بني أسد، فأصبح ولاؤه الخالص للإسلام وحده دون سواه والإيمان بتعاليم هذا الدين إيماناً عميقاً راسخاً، جعله يضحي بروحه من أجل عقيدته. ولا يضحي بعقيدته من أجل روحه، وهذا هو الإيمان الراسخ العميق.

لقد كان انتماء شجاع وإيمانه بالإسلام واضحاً كلّ الوضوح، فهو من السابقين الأولين إلى الإسلام، ومن الذين هاجروا الهجرتين: إلى أرض الحبشة، وإلى المدينة المنورة، ومن البدريين عليهم رضوان الله، ومن قادة النبي ﷺ وسفرائه، فلا غبار على انتمائه وإيمانه، ولا شك في إخلاصه العظيم لهذا الانتماء والإيمان.

أما الصفة الثانية، فهي الفصاحة، والعلم، وحسن الخلق. ومن المعروف أنّ بني أسد يُعدّون من فصحاء العرب وخطبائهم، ويبدو أنّه كان قارئاً كاتباً، فقد ورد في بعض المصادر المعتمدة، أنه هو الذي قرأ كتاب النبي ﷺ على الحارث ملك الغساسنة، مع أنّ الذين يحسنون القراءة والكتابة من العرب حينذاك قليلون.

أما حسن خلقه، فمن الأدلة عليه اختياره من الفتاة الهوازنية على أهلها وذويها، ولو كان فظًّا غليظ القلب لما اختارته على أهلها.

كما أنّه عقد صداقات وثيقة مع أقرب المقربين إلى ملك الغساسنة، فرعاه وأكرمه وكساه وصدَّقه، مما يدلّ على دماثة أخلاقه، وأنه كان آلفاً مألوفاً.

والصفة الثالثة هي الصبر والحكمة، فقد صبر صبراً جميلاً، حتى سنحت له الفرصة للقاء ملك الغساسنة، وكان حكيماً في تصرفه عند لقائه بالملك، بلّغ الرسالة وحمل جواب الملك ومَن معه إلى رسول الله ﷺ.

والصفة الرابعة هي سعة الحيلة، فقد استطاع أن يربح صاحب الملك إلى جانبه، ومن المعلوم أن من السّهل لقاء الملك، ولكن من الصّعب لقاء حاجبه، ولكنه استطاع أن يعقد صداقة وثيقة خالصة بينه وبين ذلك الحاجب، الذي رفض في أوّل الأمر أن يعين شجاعاً على لقاء الملك، ولكنه أصبح بعد ذلك عوناً له في هذا اللّقاء، مما يدل على مبلغ سعة حيلة شجاع وألمعيته وذكائه.

والصفة الخامسة والأخيرة، هي رواء المظهر، فقد كان نحيفاً طويل القامة، وهي علامات على رواء مظهره.

ولكن لا توجد نصوص على رواء مظهره، إلاّ أنّ تعلّق الفتاة الهوازنية به تعلقاً شديداً جعلها تؤثر البقاء إلى جانبه على الرحيل مع أهلها إلى وطنها، دليل على أن مظهره كان مقبولاً إن لم يكن رائعاً.

تلك هي مجمل صفاته سفيراً، وطالما تمنّيت على الله أن يطبق هذه الصفات في السفراء العرب والمسلمين اليوم، مَن بيدهم اختيار السفراء، ليريحوا ويستريحوا، فهذه الصفات وحدها تجعل من وجود السّفير في البلاد الأجنبية من مصلحة الصديق لا من مصلحة العدو، ولا أزيد.

شجاع في التاريخ

يذكر التاريخ لشجاع، أنّه كان من المسلمين الأولين السابقين إلى الإسلام.

ويذكر له، أنّه كان من الصحابة البدريين، عليهم رضوان الله، وأنّه شهد المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ.

ويذكر له أنّه ممن هاجر الهجرتين: إلى أرض الحبشة، وإلى المدينة المنورة.

ويذكر له، أنّه كان أحد قادة النبي ﷺ، وأنه قاد سرية من سراياه إلى النصر.

ويذكر له، أنّه كان أحد سفراء النبيّ ﷺ إلى الملوك والرؤساء المعروفين في حينه.

ويذكر له، أنّه نال شرف الصحبة، وشرف الجهاد، تحت لواء الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام.

ويذكر له، أنّه كلّل حياته المباركة بالشّهادة، فمات في ساحات الوغى وبيده السيف، دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، فحقّق بالشهادة أُمنيّة من أعز أمانيه وأغلاها.

رضي الله عن الصحابي الجليل، المجاهد البطل، البدريّ الشهيد، القائد المنتصر، السفير الألمعي، شجاع بن وَهْب الأَسَديّ.

سَلِيط بن عمرو العامِرِيّ القُرَشِيّ
السّفير الشّهيد

نسبه وأيامه

هو سَلِيط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وُدّ بن نَصْر بن مالِك بن حِسْل بن عامر بن لُؤَيّ[١] القُرشِيّ.

وأمّه: خَوْلة بنت عمرو بن الحارث بن عمرو بن عبْس من اليمن[٢].

أسلم قديماً قبل دخول النبيّ ﷺ دار الأَرْقم بن أبي الأَرقم[٣]، وقد أسلم بعد عشرين بين رجل وامرأة، فكان الواحد والعشرين من المسلمين الأولين[٤]، فهو قديم الإسلام بمكّة[٥]، أسلم قبل عمر بن الخطّاب[٦] رضي الله عنه.

ولما كثر المسلمون واشتد البلاء والعذاب عليهم، قال لهم النبيّ ﷺ: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظْلم عنده أحد، وهي**

---

(١) جمهرة أنساب العرب (١٦٦) وطبقات ابن سعد (٤/٢٠٣) وسيرة ابن هشام (١/٢٧٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٢٠٣).

(٣) أنساب الأشراف (١/٢١٩).

(٤) انظر تفاصيل الذين أسلموا في سيرة ابن هشام (١/٢٦٧-٢٦٠) وانظر جوامع السيرة (٤٤-٤٨).

(٥) طبقات ابن سعد (٤/٢٠٣).

(٦) الإصابة (٣/١٢٣) وانظر الدرر (٣٩-٤٣).

أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه». فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أوّل هجرة في الإسلام[1]، فهاجر سليط الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة مع المهاجرين إليها من المسلمين[2]، وقيل: إنّ أول من هاجر إلى أرض الحبشة هو سليط بن عمرو[3]، فهو من المهاجرين الأولين[4]، إن لم يكن أول المهاجرين الأولين.

وفي رواية ثانية، أنّه هاجر في الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة[5]، وأرجح أنّه هاجر في الهجرة الأولى، لأن أكثر المصادر المعتمدة نصت على ذلك.

وقد هاجر إلى أرض الحبشة ومعه امرأته فاطمة بنت علقمة[6] أم يقظة بنت علقمة، فولدت له هناك سَليط بن سَليط[7]، والأصوب أن سليط بن سليط هاجر مع أبيه إلى أرض الحبشة فهو المهاجر بن المهاجر، كما يقول عنه عبد الله بن عمر بن الخطاب[8] رضي الله عنهما.

قيل: إنّه شهد بَدْراً[9]، واسمه ليس في قائمة البدريين في المصادر المعتمدة، وقيل: إنه شهد غزوة أُحُد[10]، وليس له ذكر في الهجرة إلى

(١) سيرة ابن هشام (١/٣٤٣).
(٢) سيرة ابن هشام (١/٣٥٢) وجوامع السيرة (٦٣).
(٣) الدرر (٥١).
(٤) جمهرة أنساب العرب (١٦٦) والاستيعاب (٢/٦٤٥).
(٥) طبقات ابن سعد (٤/٢٠٣).
(٦) طبقات ابن سعد (٤/٢٠٣) وأنساب الأشراف (٢١٩).
(٧) الإصابة (٣/١٢٢).
(٨) الإصابة (٣/١٢٢) وانظر الاستيعاب (٢/٦٤٥) واسد الغابة (٢/٣٤٤).
(٩) الاستيعاب (٢/٦٤٥) والإصابة (٣/١٢٣) وأسد الغابة (٢/٣٤٤).
(١٠) طبقات ابن سعد (٤/٢٠٣).

المدينة من مكة المكرّمة، ولا ذكر له في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة من مكة إلى المدينة، وقيل: قدم المدينة من أرض الحبشة مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه[١]، وقيل قدم المدينة من أرض الحبشة مع جعفر[٢]، والصواب أنه قدم المدينة قبل جعفر، لأن النبيّ ﷺ بعثه إلى هَوْذَة بن عليّ الحنفِيّ وإلى ثمامة بن أثال الحَنَفي، وهما رئيسا (اليمامة)[٣] بِنَجدٍ سنة ست الهجريّة[٤]، وعودة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من أرض الحبشة ومن معه من المهاجرين كانت يوم فتح خَيْبَر[٥]، وهي في المحرم من السنة السابعة الهجريّة[٦].

وقد شهد سَليط المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ ابتداء من غزوة (أُحُد)[٧] التي كانت في شهر شوّال من السنة الثالثة الهجرية[٨].

ونستطيع أن نستنتج أن هجرة سَليط من أرض الحبشة إلى المدينة كانت بعد غزوة بَدْر التي كانت في رمضان من السنة الثانية الهجرية، وقبل شهر شوّال من السنة الثالثة الهجرية، فكانت في أواخر السنة الثانية الهجرية أوفي أوائل السنة الثالثة الهجريّة فكان سّليط ممن هاجر الهجرتين[٩].

وبذلك نال سليط شرف الصُّحبة وشرف الجهاد تحت لواء النبيّ ﷺ.

---

(١) أنساب الأشراف (٢١٩/١).

(٢) سيرة ابن هشام (٤٢١/٤).

(٣) اليمامة: معدودة من نجد، وكانت تسمى قديما: جوّاً والعروض وقاعدتها حجْر، وبين اليمامة والبحرين عشرة أيام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥١٥/٨-٥٢٢).

(٤) الاستيعاب (٦٤٥/٢-٦٤٦).

(٥) سيرة ابن هشام (٤١٤/٣).

(٦) الدرر (٢٠٩) وجوامع السيرة (٢١١).

(٧) طبقات ابن سعد (٢٠٣/٤).

(٨) طبقات ابن سعد (٣٦/٢) وجوامع السيرة (١٥٦) والدرر (١٥٣).

(٩) الاستيعاب (٦٤٥/٢).

السفير

بعث النبيّ ﷺ رسله إلى الملوك والأمراء قبل الفتح وبعد الحُدَيْبِيَّة[1] في شهر ذي الحجّة من السنة السادسة الهجريّة بعد رجوعه من الحُدَيْبِيَّة، فأرسل الرُّسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كُتبا، فقيل: يا رسول الله! إنّ الملوك لا يقرأون كتاباً إلا مختوماً، فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتماً من فضّة، فصّه منه، نقشه ثلاثة أسطر: محمد رسول الله، وختم به الكتب[2]، فبعث سَليط بن عمرو أحد بني عامر بن لُؤيّ إلى ثُمامَة بن أُثال وهَوْذَة بن عليّ الحَنَفِيَّيْن ملكي اليَمامة[3].

وفي رواية أخرى، أنّ النبيّ ﷺ بعث سَليط بن عمرو إلى هَوْذَة بن عليّ الحنفي[4]ويبدو أنّ هوذة كان أشهر من ثمامة وأوسع سلطاناً، فاقتصر قسم من المؤرخين على ذكره دون سواه، أما مصادر رجال الحديث، فقدذكرت أن النبيّ ﷺ بعثه الى هوذة وثمامة معاً[5]، وبخاصة وأنها كانا المسيطرين على اليمامة، ولكنّ رسالة ثمامة تختلف عن رسالة هوذة، لأنّ الأول كان مسلماً، والثاني كان نصرانياً.

---

(١) جوامع السيرة (٢٩) والطبري (٦٤٤/٢) وابن الأثير (٢١٠/٢).

(٢) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١).

(٣) سيرة ابن هشام (٢٧٩/٤) وجوامع السيرة (٢٩) وأسد الغابة (٣٤٤/٢).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط (٤١/١) والطبري (٦٤٤/٢) وابن الأثير (٢١٠/٢) والبداية والنهاية (٢٧٣/٤) وأنساب الأشراف (٥٧١/١) وطبقات ابن سعد (٢٠٣/٤).

(٥) أسد الغابة (٣٤٤/٢) والاستيعاب (٦٤٥/٢-٦٤٦).

وكان نصّ رسالة النبيّ ﷺ إلى هوذة بن عليّ الحنفيّ:

بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمّد رسول الله

إلى: هوذة بن علي

سلام على مَنْ اتّبع الهدى، واعلم أنّ ديني سيظهر إلى منتهى الخُفّ والحافِر، فأسلم تَسْلَم، وأجعل لك ما تحت يديك[1].

علامة الختم: الله رسول محمد

وقدم سليط بكتاب النبيّ ﷺ إلى هوذة، فأنزله وحباه، وقرأ كتاب النبيّ ﷺ، وردّ ردّاً دون ردّ، وكتب إلى النبي ﷺ.

ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتّبِعْك».

التّوقيع

وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج (هَجَر)[2]، فقدم بذلك كلّه على النبيّ ﷺ، وأخبره بما قال، وقرأ كتابه وقال: «لو سألني

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندي (٣٧٩/٦) والقسطلاني (٢٩٥/١)، وانظر مجموعة الوثائق السياسية (٩١) للاطلاع على المصادر والمراجع الأخرى.

(٢) هجر: قاعدة البحرين، وربما قيل: الهجر، بالألف واللام، وقيل: ناحية البحرين كلّها هجر، وهو الصواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٤٥/٨-١٤٧).

سَيابَة[1] من الأرض ما فعلتُ، بادَ وبادَ ما في يديه!»، فلما انصرف من عام الفتح (السنة الثامنة الهجرية) جاءه جبريل فأخبره أنّه مات[2].

وسكت النبيّ ﷺ عن هَوْذَة ومن معه تاركاً أمرهم للأيام، ويبدو أن هَوْذَة أخذ المبادرة بعد أن لم يحقّق له النبيّ ﷺ أطماعه غير المشروعة، فبعث هوذة الذي كان نصرانياً وفداً فيهم مُجّاعة بن مُرارة والرَّجّال بن عُنْفُوة إلى النبيّ ﷺ يقول له: إن جعل له الأمر من بعده أَسْلَم وسار إليه ونصره، وإلاّ قصد حربه»، فقال رسول الله ﷺ: «**لا ولا كرامة، اللهمّ اكفنيه**»، فمات بعد قليل.

وأمّا مُجّاعة والرَّجّال فأسلما، وأقام الرَّجّال عند رسول الله ﷺ حتى قرأ سورة البقرة وغيرها، وتفقّه، وعاد إلى اليمامة، فارتدّ[3].

وهكذا لم يُسلِم هَوْذة، ومات على دينه، وقد حرمته أطماعه من الإسلام، إذ أراد أن يتّخذ من إسلامه (وَسِيلة) لتحقيق تلك الأطماع، فلم يُفلح في مسعاه.

أما ثُمامة بن أُثال الحنفي، الذي كان سيّد أهل اليمامة، والذي روى حديثه أبو هريرة رضي الله عنه[4]، فأمره مختلف جدّاً عن هوْذَة، فقد أسلم قبل هدنة الحديبية. قصده سليط كما قصد هَوْذة لشد أزره في الدعوة إلى الإسلام، ولم تذكر المصادر المعتمدة نصّ كتاب النبيّ ﷺ[5] إليه.

---

(١) سيابة: واحدة السياب، وهو البُسر الأخضر.
(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٦٢).
(٣) ابن الأثير (٢/٢١٥).
(٤) الاستيعاب (١/٢١٣) وأسد الغابة (١/٢٤٦) والإصابة (١/٢١١).
(٥) امتاع الأسماع للمقريزي (١/٣٠٨).

وقصّة إسلامه، أنّه خرجت خيل لرسول الله ﷺ، فأخذت رجلاً من بني حَنيفة لا يشعُرون مَنْ هو، حتى أتوا به رسول الله ﷺ، فقال: «أتدرون من أخذتم؟ هذا ثُمامة بن أُثال الحَنَفِيّ، أحسنوا إساره». ورجع رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: «أجمعوا ما كان عندكم من طعام، فابعثوا به إليه»، وأمر بِلِقْحَة[1] أن يُغْدي عليه بها ويراح، فجعل لا يقع من ثمامة موقعاً، ويأتيه رسول الله ﷺ، فيقول: «أَسْلِمْ يا ثمامة»، فيقول: إيْهاً[2] يا محمد! إنْ تَقْتل تقتل ذا دمٍ، وإن تُرِدِ الفداء فَسَلْ ما شئتَ»، فمكث ما شاء الله أن يمكث ثم قال النبيّ ﷺ يوماً: «أَطْلِقُوا ثُمامة» فلما أطلقوه خرج حتى أتى (البَقِيْع)[3] فتطهّر فأحسن طهوره، ثم أقبل فبايع النبيّ ﷺ على الإسلام.

ثم خرج مُعتمراً، فلما قدم مكة قالوا: صَبَوت يا ثُمام؟! قال: «لا، ولكني اتّبعتُ خير الدين دين محمّد، ولا الله، لا تصل إليكم حبّة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ». وخرج إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: «إنك تأمر بصِلَة الرَّحْم، وإنّك قد قطعت ارحامنا»، فكتب رسول الله ﷺ إليه أنْ يُخلِّي بينهم وبين الحَمْل[4].

وكان ذلك قبل هدنة الحُدَيْبِيَّة فقد كان النبيّ ﷺ يُحسن الى مَنْ يُسِيء إليه، أملاً في هدايته.

---

(١) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن (ج) لِقَاح.

(٢) ايها: قال الخليل هي كلمة بمعنى حسبك، انظر الهامش رقم (١) في سيرة ابن هشام (٣١٦/٤).

(٣) البقيع: بقيع الغرقد، والغرقد: كبار العوسج، والبقيع لغةً الموضوع الذي فيه أروم الشجر من ضروب شتى، وبه سمي بقيع الغرقد، وهو مقبرة أهل المدينة وهي داخل المدينة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٥٣-٢٥٤).

(٤) سيرة ابن هشام (٤/٣١٥-٣١٧) وانظر الإصابة (١/٢١١) وأسد الغابة (١/٢٤٦-٢٤٨) والاستيعاب (١/٢١٣-٢١٦).

وقد يبدو أنّ سَليط بن عمرو قد أخفق في سفارته، لأنّ هُوذة لجّ في عناده، ولكنّ تأثير سليط في هوذة يبدو واضحاً، لم يُطق صبراً على إعراض النبيّ ﷺ عنه، بل جدّد الاتّصال بالمسلمين، وأبدى رغبته بالإسلام بشروط لم يوافق عليها النبيّ ﷺ، مما يدل على مبلغ تأثره بسفارة سليط.

ومهما يكن من أمر، فقد أدّى سليط واجبه كاملاً، ولكنّ نجاحه في مهمّته كان محدودا.

الشّهيد

لما التحق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى، بعث أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه السرايا إلى المرتدين، فأرسل عِكْرمة بن أبي جَهْل في عسكر إلى مُسَيْلمة الكذاب، واتبعه شُرَحْبيل بن حَسَنَة، فعجل عكرمة ليذهب بصوتها، فواقع مُسيلمة وبني حَنِيفة الذين ارتدوا، فنكبوه.

وأقام شُرَحْبيل بالطريق حتى أدركه الخبر، وكتب عكرمة إلى أبي بكر بالخبر، فكتب إليه أبو بكر: «لا أرينّك ولا تراني، لا ترجعنّ فتوهن الناس»[1].

وعجّل شرحبيل بن حسنة، وفَعَل فِعْل عِكْرَمة، وبادر بقتال مُسَيْلمة قبل قدوم خالد عليه، فنُكب أيضاً، فلامه خالد[2].

وأمدّ أبو بكر خالداً بسليط ليكون ردءاً له لئلا يؤتى من خلفه، وبنو حنيفة يومئذ كثيرون، كانت عدّتهم أربعين ألف مقاتل. وكان أبو بكر يقول: «لا أستعمل أهل بدْرٍ، أدعهم حتى يلقوا الله بصالح أعمالهم،

---

(١) الطبري (٢٨١/٣) وابن الأثير (٣٦٠/٢).
(٢) الطبري (٢٨٢/٣) وابن الأثير (٣٦١/٢).

فإن الله يدفع بهم وبالصالحين أكثر مما ينتصر بهم». وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يرى استعمالهم على الجند وغيره[١].

وقد استشهد سليط في معركة اليمامة[٢] التي كانت سنة إحدى عشرة الهجرية[٣] على الأصح، ولم يستشهد سنة أربع عشرة الهجرية[٤]، كما جاء في قسم من المصادر المعتمدة.

وما كان سليط بدرياً، ولكنه كان من الصالحين.

الإنسان والسفير

١. كان سليط يكنى، أبا الوضّاح[٥]، ولد سليط بن سليط، وهو مهاجرٌ أيضاً وهو أخو سُهَيْل بن عمرو سيد بني عامر، أسلم وحسن إسلامه، والسَّكْران بن عمرو، مات مهاجراً بأرض الحبشة، وكان متزوجاً بِسَوْدة أم المؤمنين قبل رسول الله ﷺ وحاطب بن عمرو من المهاجرين الأولين. وهو أخو سهل بن عمرو[٦] أحد رجالات قريش.

ولا نعرف متى وُلد، كما أنّ أخباره عموماً قليلة جداً في المصادر المعتمدة، وحسبه أنه كان قديم الإسلام ومن المهاجرين الأولين وممن هاجر الهجرتين، وأنّه استُشهد دفاعاً عن الإسلام والمسلمين.

٢. ولعل من أبرز سماته سفيراً، الانتماء والإيمان، فقد كان من المسلمين الأولين، ومن الصالحين المعروفين.

---

(١) الطبري (٣/٢٨٢) وابن الاثير (٢/٣٦١).
(٢) طبقات ابن سعد (٤/٢٠٣) وأنساب الأشراف (١/٢١٩).
(٣) الطبري (٣/٢٨١) وابن الأثير (٢/٣٦٠).
(٤) الاستيعاب (٢/٦٤٦).
(٥) أنساب الأشراف (١/٢١٩).
(٦) جمهرة أنساب العرب (١٦٦).

وكان فصيحاً ذا تجربة عمليّة في الحياة وخبرة طويلة، يتحلّى بالخلق الحكيم.

وكان يتحلّى بالصبر والحكمة، بعيداً عن التهوّر والانفعال والتسرّع يزن الكلام ولا ينطق إلاّ بعد تفكير عميق.

وكان واسع الحيلة، معروفاً بالحنكة والدهاء، ألمعيَّ الذكاء، خبيراً بالناس وبالقبائل والأنساب.

ويبدو أنّ انتسابه إلى قريش أبرز القبائل العربية وأشرفها، كان سبباً مباشراً لإيفاده سفيراً إلى رئيسين من رؤساء العرب في نجد، يعرفان مكانة قريش ويقرّان بفضلها، فقد كان العرب حينذاك يهتمون بالنسب اهتماماً عظيماً، ويرحّبون بأبناء بيوت الفضل من القبائل العربية.

سليط في التاريخ

يذكر التاريخ لسليط، أنّه أسلم قديماً قبل دخول النبيّ ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، وأنّه أسلم بعد عشرين رجلاً وامرأة وطفلاً ومولى.

ويذكر له، أنّه من المهاجرين الأولين، وممن هاجر الهجرتين: إلى أرض الحبشة، وإلى المدينة المنورة.

ويذكر له أنه شهد غزوة (أُحُد) والمشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، ولم يتخلف عن مشهد من مشاهده عليه الصلاة والسلام.

ويذكر له أنه كان سفير النبيّ ﷺ إلى ثُمامة بن أُثال وهوْذة بن عليّ الحَنَفِيَّيْن ملكي اليمامة.

ويذكر له، أنه استشهد دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، وإعلاءً لكلمة الله. رضي الله عن الصحابيّ الجليل، السفير الشهيد، سَليط بن عمرو العامري القُرَشِي.

عَمْرُو بن العاص القُرَشِيّ السَّهْمِيّ
السفير القائد

«أسلم الناس، وآمن عمرو بن العاص»

حديث شريف

أهله وقومه

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سُعَيْد بن سَهْم بن عمرو بن هُصَيْص بن كَعْب بن لُؤيّ بن غالب[1] بن فهر بن مالِك بن النَّضْر بن كِنَانَة بن خُزَيْمة، وفِهْر بن مالك بن النَّضْر هو قُرَيش، ومَنْ لم يَلِدْ فِهْرٌ فليس من قريش[2].

أبو عمرو هو العاص بن وائل، أحد أشراف قريش في الجاهلية وقائد بني سَهْم من قريش في حرب الفِجار الثاني قبل بعثة النبيﷺ، وكان يوم الفِجَار الثاني بعد عام الفيل بعشرين سنة[3] (٥٩١ م). وقد أدرك الإسلام ولكنّه لم يسلم، إذ مات بمكة المكرّمة في السنة الأولى من الهجرة[4]. وكان أحد سادات قريش الذين مشوا إلى أبي طالب يسألونه

(١) طبقات ابن سعد (٤٩٣/٧) والإصابة (٢/٥) وأسد الغابة (١١٥/٤) والاستيعاب (١١٨٤/٣) وانظر جمهرة أنساب العرب (١٦٣).

(٢) نسب قريش (١٠ - ١٢).

(٣) ابن الأثير (٥٨٩/١ - ٥٩٣) وكان عام الفيل سنة (٥٧١) ميلادية.

(٤) الطبري (٣٩٨/٢) وابن الأثير (١١٠/٢).

أن يكف عنهم رسول الله ﷺ، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه: يُظْهر دين الله، ويدعو إليه[1] وكان أحد زعماء، قريش الذين حاولوا صدّ النبيّ ﷺ عن دعوته، وعرضوا عليه كلّ المغريات ليكف عنهم، فلم يُفلحوا في محاولتهم[2]، فعرضوا عليه أن يعبد آلهتهم سنةً: اللات والعُزىّ، ويعبدوا إلهه سنة، فنزل قوله تعالى: ﴿قُل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون﴾ السورة[3]: وأنزل الله عزّ وجلّ: قُلْ: ﴿أفغير الله تأمرونّي أعبد أيها الجاهلون﴾[4] إلى قوله: ﴿بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾[4]. ومشى مرة مع نخبة من أشراف قريش إلى النبي ﷺ، فدعاهم إلى التوحيد، فرفضوا دعوته، فانزل الله عزّ وجلّ: ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنَّ هذا لشيء يُراد﴾ إلى قوله: ﴿إلا اختلاق﴾)[5]. وكان أحد المستهزئين بالنبيّ ﷺ[6]، وهو الذي كان إذا ذُكِرَ النبي ﷺ قال: «دعوه، فإنما هو رجل أَبْتَر لا عَقِبَ له، لو قد مات لقد انقطع ذكره واسترحتم منه»، فأنزل الله في ذلك قوله الكريم: ﴿إنَّا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر، إن شانئك هو الأبتر﴾[7]، ممّا هو خير من الدنيا وما فيها، والكوثر: العظيم[8].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢٧٧/١) والطبري (٣٢٣/٢) وابن الأثير (٦٣/٢).

(٢) انظر التفاصيل في: سيرة ابن هشام (٣١٤/١ - ٣١٨).

(٣) السورة الكريمة هي سورة الكافرون (١٠٩) وانظر الخبر في تفسير الطبري (٢١٤/٣٠) - طبعة بولاق.

(٤) الآياتمن سورة الزمر (٣٩: ٦٤ - ٦٦) والخبر في تفسير الطبري (٢١٤/٢٠) طبعة بولاق، وانظر الطبري (٣٣٧/٢).

(٥) الآيتان الكريمتان من سورة ص (٣٨: ٦ - ٧)، وانظر الطبري (٣٢٤/٢).

(٦) سيرة ابن هشام (١٥/٢ - ١٦) وجوامع السيرة (٥٣) وابن الأثير (٧٢/٢).

(٧) سيرة ابن هشام (٤٢١/١)،.

(٨) سورة الكوثر (١٠٨: ١ - ٣)، وانظر تفسيرها في الكشاف للزمخشري (٩١٣/٣).

وهو الذي قال للنبي ﷺ: «لو جُعل معك يا محمد مَلَك يُحدِّث عنك الناس، ويُرى معك»، فأنزل الله تعالى: ﴿وقالوا لولا أُنزِل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون. ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾[1].

وكان خبّاب بن الأرَتّ[2] صاحب رسول الله ﷺ قَيْناً بمكّة يعمل السيوف، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفاً عملها له، حتى إذا كان له عليه مال، فجاء يتقاضاه، فقال له: «يا خَبَّاب! أليس يزعم محمّد صاحبكم هذا الذي أنت على دينه، أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضّة أو ثياب أو خدم؟»، قال خَبَّاب: «بلى»، قال: فانظِرْني إلى يوم القيامة يا خَبَّاب حتى أرجع إلى تلك الديار فأقضيك هنالك حقك، فوالله لا تكون أنت وأصحابك يا خَبَّاب آثر عند الله مني، ولا أعظم حظاً في ذلك، فانزل الله تعالى فيه: ﴿أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولدا، أطَّلع الغيب﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ونرثه ما يقول ويأتينا فردا﴾[3].

ومع ذلك فقد كان العاص يحترم حرّية الرأي، فقد زجر الذين أرادوا سوءًا بعمر بن الخطاب رضي الله عنه من قريش حين أعلن عمر إسلامه على الملأ، فقال العاص للذين أرادوا الاعتداء على عمر لإسلامه: «رجل اختار لنفسه أمراً، فماذا تريدون؟! أترون بني عَدِيّ يُسلمون لكم

---

(١) سيرة ابن هشام (٤٢٣/١) والآيتان الكريمتان من سورة الأنعام (٦: ٨ -٩).

(٢) انظر سيرته في: طبقات ابن سعد (١٦٤/٣ - ١٦٧) وأسد الغابة (٩٨/٢ - ١٠٠).

(٣) سيرة ابن هشام (٣٨٠/١)، والآيات الكريمة من سورة مريم (١٩: ٧٧ - ٨٠)، والقين الحداد، ثم أطلق على كل صانع (ج): أقيان، قيون، والقين: العبد، (ج): قيان.

صاحبهم هذا؟! خلّوا عن الرّجل»[1]، وهذا يدل على أنه كان عاقلاً يتسم ببعد النظر، بالإضافة إلى تمسّكه بحرية الرأي.

وكان العاص منأغنياء قريش، يلبس الحُلَّة[2] ويرتدي الديباج مزوّراً[3] بالذهب[4]، فهو من المترفين حقاً وذا ثراء عريض.

وكان مشهوراً بالكرم وحسن الوفادة ومعاونة المحتاج، وقد مات العاص بن وائل بين مكة والأَبْواء[5] والمدينة بالأبْواء في رواية، وهو ما نرجحه، لوجود هذا النص عليه، وهو قول الشاعر:

يـا رُبَّ زِقٍ[6] كـالحمار وجَفْنـةٍ ... كُفِيَت خِلاَفَ الرَّكبِ مَدْفَعَ أَرْثَدِ[7]

وفي العاص بن وائل يقول ابن الزِّبَعْرِيَ:

أصاب ابن سَلْمى خُلَّةً[8] من صديقه ... ولولا ابنُ سَلْمَى لم يكن لك راتقُ

فـآوى وحَيّـا إذا أتـاه بخُلّـةٍ ... وأعرض عنـه الأقربون الأصادِقُ

فأما أُصِبْ يوماً من الدّهر نُصْرَةً ... أتَتْـكَ وإني بـابن سَلْمى لصادقُ

وإلاّ تكنْ إلا لساني فـإنّـهُ ... بِحُسْنِ الذي أسْدَيْتَ عني لناطقُ

---

(١) سيرة ابن هشام (٣٧١/١) وابن الأثير (٨٦/٢ - ٨٧) وانظر نسب قريش (٤٠٩).

(٢) ابن الأثير (٨٦/٢).

(٣) مزوّراً: مزيناً.

(٤) العقد الفريد (٤٨/١).

(٥) الأبواء: قرية من أعمال الفُرْع من المدينة، بينها وبين الجُحْفَة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، وقيل: الأبواء جبل على يمين الطريق للمصعد إلى مكة من المدينة، انظر معجم البلدان (٩٢/١).

(٦) الزِق: وعاء من جلد يجزّ شعره ولا ينتف للشراب وغيره.

(٧) نسب قريش (٤٠٨)، ومدفع الوادي: حيث يدفع السّيل، وارثد: اسم وادٍ بين مكة والمدينة في وادي الأبواء، انظر معجم البلدان (١٧٨/١).

(٨) خلّة: الصداقة والمحبة التي تخللت القلب فصارت خلاله، أي باطنه.

ثِمالُ[١] يعيشُ المُقْتِرون بفضلـــه   وسَيْبُ[٢] ربيع ليس فيه صواعق[٣]

وام العاص بن وائل: سَلْمَى البَلَوِيّة، من بَلَيّ من قُضَاعة[٤].

لقد كان العاص من أشراف قريش[٥] المتميِّزين.

وأم عمرو بن العاص: هي سَلْمَى بنت حَرْمَلة، تلقّب بالنابغة من بني عَنَزَة، أصابتها رماح العرب، فبيعت بسوق عُكّاظ، فاشتراها الفاكهة بن المُغيرة، ثم اشتراها عبد الله بن جُدْعَان، ثم صارت إلى العاص ابن وائل، فأنجبت عَمْراً[٦]. وإخوته لأمِّه: عُرْوَة بن أُثَاثة العَدَوِيّ[٧]، كان من مهاجرة الحبشة، وأَرنبُ بنت عَفِيْف بن العاص[٨]، وعُقْبَة بن نافع[٩] بن عبد القَيْس بن لَقِيْط من بني الحارث بن فِهْر القرشيّ[١٠].

وفي رواية ثانية، أن أُم عمرو بن العاص حبشيّة[١١]، والرواية الأولى متواترة في المصادر المعتمدة، لذلك نرجِّحها على الرواية الثانية.

وعمرو من بني سَهْم، وهم بطن من عشرة أبطن من قريش، انتهى

---

(١) ثمال: الملجأ والغياث..

(٢) المسيَّب: العطاء، والمعروف، ونحوه.

(٣) نسب قريش (٤٠٨ - ٤٠٩).

(٤) نسب قريش (٤٠٨) وانظر سيرة ابن هشام (٢٩٨/٤).

(٥) نسب قريش (٤٠٨).

(٦) الاستيعـــاب (١١٨٤/٣ - ١١٨٥) وانظر نسب قريش (٤٠٩) والعقـــد الفريـــد (٥٤/١).

(٧) انظر سيرته في الإستيعاب (١٠٦٤/٣).

(٨) انظر سيرتها في الإصابة (٤/٨).

(٩)) أنظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (٩٠/١ - ١٣٦) وكتابنا: عقبة بن نافع الفِهْرِيّ.

(١٠) نسب قريش (٤٠٩) والاستيعاب (١١٨٥/٣).

(١١) المحبّر (٢٠٦).

إليها الشرف قبل الإسلام، هم: هاشِم، وأُمَيَّة، ونَوْفَل، وعبد الدَّار، وتيْم، وأسد، ومخزوم، وعَديّ، وجُمَح، وسَهْم[1]، وكان لكلٍّ بطن من هذه البطون واجب خاص، فكان بنو سَهْم أصحاب الحكومة في قُريش، والحكومة عمل يشبه القضاء، بحيث كان يحتكم القُرشيّون وغيرهم ممّن يفد على مكّة من العرب إلى زعماء بني سَهْم فيما يقع بينهم من الخصومات، وهذا يدلّ على أنّهم كانوا أصحاب رأي وحلم ودهاء واتّزان وحصافة. كان لبني سَهْم أيضاً، الرئاسة على الأموال الخاصّة بآلهة قُريش، وهي أشبه شيءٍ بالأوقاف العامّة، وفي قبضة صاحب هذا العمل الأموال المحجّرة - كما كانوا يسمّونها - يتصرّف فيها حسب ما تقتضيه القواعد التي جروا عليها في العمل بأموال أوثانهم وأصنامهم. وقد اشتهر بنو سَهْم بالغزو والشَّرف والشِّعر وفَصْلِ الخصومات واليسار[2]، فنشأ عمرو في هذه البيئة الحَضَرِيَّة بمكّة التي لم تنقطع صلتها بالبداوة في التربية والناحية الاجتماعية والاقتصادية والدينية، وترعرع في رعاية والده رئيس بني سَهْم وأحد رجالات قريش وزعمائها ورؤسائها وأشرافها البارزين، الذي كان معروفاً برجاحة العقل وبُعْد النَّظر وسعة الأفق والكفاءة القياديّة والتّجارب العمليّة والثّراء، وبرعاية والدته الذكيّة القويّة، ويكفي دليلاً على تجاربها في الحياة وذكائها وصلابتها، أنها أمّ عمرو، وأم عُقْبَة بن نافع، وهما من أعظم قادة الفتح الإسلامي ومن أبرز الولاة والإداريين والأمراء.

لقد كانت بيئة عمرو التي نشأ فيها وترعرع صالحة لتنشئة القادة والإداريين.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/١٤٣ - ١٤٤).

(٢) انظر كتاب: تاريخ عمرو بن العاص - الدكتور حسن ابراهيم حسن (١٠ - ١١).

في الجاهلية

١ . سفارة عمرو الأولى إلى النجّاشيّ

كان عمرو وكان أبوه العاص بن وائل، من المجاهرين بالظّلم لرسول الله ﷺ ولكلِّ مَنْ آمَنَ به[١].

ولما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانته من عمَّه أبي طالب، وأنّه لا يقدر على أن يمنعهم ممّا هم فيه من البلاء قال لهم: «**لو خَرجتم إلى أرض الحبشة، فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صِدْق، حتى يجعل الله لكم فَرَجاً ممّا أنتم فيه**»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ من مكّة إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أوّل هجرة في الإسلام[٢]، وهي الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة في السنة الخامسة من النبوة[٣].

ولما رأت قريش أنّ المسلمين المهاجرين قد اطمأنوا بأرض الحبشة وأمنوا، وأنّ النجّاشي[٤] قد أحسن صحبتهم، ائتمروا بينهم فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة[٥] ومعهما هدية إليه وإلى أعيان

---

(١) الدرر (٤٧).

(٢) سيرة ابن هشام (٣٤٣/١).

(٣) انظر كتابنا: ومضات من نور المصطفى (١٧) - ط٢.

(٤) النجاشي: لكلّ مَنْ مَلَكَ الحبشة، واسمه أَصْحَمَه الذي كان في زمن النبي ﷺ، وأن كلّ مَنْ ملك المسلمين يقال له: أمير المؤمنين، ومن ملك الروم: قيصر، ومن ملك الفرس: كسرى، ومن ملك الترك: خاقان، ومن ملك القبط: فرعون، ومن ملك مصر: العزيز،، ومن ملك اليمن: تُبَّع، ومن ملك حِمْيَر: القَيْل، وقيل: القيل أقلّ درجة من الملك، انظر شرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم (٣٣٧/٢ - ٣٣٨).

(٥) في سيرة ابن هشام (٣٥٦/١): عبد الله بن أبي ربيعة، وكذلك في أنساب الأشراف (٢٣٢/١).

أصحابه، فسارا حتى وصلا إلى أرض الحبشة، فحملا إلى النجاشي هديته وإلى أصحابه هداياهم وقالا لهم: «إنّ ناساً من سفهائنا فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دين الملك، وجاءوا بدينٍ مبتدَع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد أرسلنا أشراف قومهم إلى الملك ليردّهم إليهم، فإذا كلّمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يرسلهم معنا من غير أن يكلمهم»، وخافا ان يسمع النّجاشي كلام المسلمين أن لا يسلّمهم، فوعدهما أصحاب النّجاشي المساعدة على ما يريدان.

ثمّ أنهما حضرا عند النّجاشيّ، فأعلماه بالذي جاءا من أجله إلى أرض الحبشة، فأشار أصحابه بتسليم المسلمين إليهما. غضب الملك من ذلك وقال: «لا والله لا أسلّم قوماً جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على مَنْ سواي، حتى أدعوهم وأسألهم عمّا يقول هذان الرّجلان، فإن كانا صادقين سلّمتهم إليهما، وإن كانا على غير ما يذكر هذان الرّجلان منعتهم وأحسنت جوارهم».

وأرسل النّجاشي إلى أصحاب النبيﷺ، فدعاهم فحضروا، وقد أجمعوا على صدقه فيما سرّه وساءه، وكان المتكلّم عنهم جعفر بن أبي طالب[1]، فقال لهم النجّاشي: «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحدٍ من المِلَل؟!». فقال جعفر: «أيّها الملك! كنا أهل جاهليّة، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القويّ منّا الضعيف، حتى بعث الله إلينا منّا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا لتوحيد الله، وأن لا نُشرك به شيئاً، ونخلع ما كنّا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرّحم، وحسن الجوار، والكف

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة النبيﷺ.

عن المحارم والدِّماء ونهانا عن الفواحش وقول الزّور وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصّلاة والصّيام»، وعدد عليه أمور الإسلام، قال: «فآمنّا به وصدقناه وحرّمنا ما حرّم علينا، وحلّلنا ما أحلّ لنا، فتعدّى علينا قومنا، فعذّبونا، وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على مَنْ سواك،ورجونا ألا نُظلم عندك، أيها الملك!».

وقال النّجاشي: «هل معك مما جاء به عن الله شيء؟»، فقال له جعفر: «نعم»، فقال له النّجاشي: «فاقرأه عليّ» فقرأ عليه صدراً من سورة (كهيعص)، فبكى النجّاشي حتى اخْضَلّت[1] لحيته، وبكت أساقفته حتى أخْضَلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النّجّاشيّ: «إنّ هذا والذي جاء به عيسى لَيَخْرُجُ من مِشْكاة[2] واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون».

وخرج عمرو وصاحبه من عند النجّاشي، فقال عمرو لصاحبه: «والله لآتينّه غداً بما استأصل به خَضْراءهم»[3]. فقال عبد الله بن أبي ربيعة[4]، وهو الذي أوفدته قُريش مع عمرو إلى النجّاشي، وليس عبد الله بن أبي أميَّة الذي ذكره قسم من المؤرخين خطأً بأنه كان مع عمرو في سفارته القرشيّة إلى النجاشي، لأنه لم يسافر إلى النجاشي مع عمرو[5]، بل الذي رافقه بسفره هذا هو عبد الله بن أبي ربيعة[6] وكان

---

(١) أخضلت: ابتلّت.

(٢) المشكاة: الثقب الذي يوضع فيه الفتيل والمصباح، وهي الكوة غير النافذة.

(٣) استأصل خضراءهم: جاعتهم ومعظمهم.

(٤) انظر سيرته في: أسد الغابة (٣/١٥٥) والإصابة (٤/٦٥) والاستيعاب (٣/٨٩٦).

(٥) أنظر سيرته المفصلة في أسد الغابة (٣/١١٨) والإصابة (٤/٣٦) والاستيعاب (٣/٨٦٨).

(٦) أسد الغابة (٣/١٥٥) والإصابة (٤/٦٥) والاستيعاب (٣/٨٩٦)، وانظر سيرة ابن هشام (١/٣٦٠) وأنساب الأشراف (١/٢٣٢) وجوامع السيرة (٦٣) والدرر (١٣٩).

عبد الله بن أبي ربيعة أتقى الرّجلين: عمرو وعبد الله بن أبي ربيعة: «لا تفعل، فإنّ لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا»، فقال عمرو: «والله لأخبرنّه أنّهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبدٌ».

وغدا عمرو على النّجاشي من الغد فقال: «أيها الملك انهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأَرسِلْ إليهم فَسَلْهُم عما يقولون فيه».

وأرسل النّجاشي إلى المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة، فسألهم عن قولهم في المسيح، فقال جعفر بن أبي طالب: «نقول فيه الذي جاءنا به نبيّنا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول»، فأخذ النّجاشي عوداً من الأرض وقال: «ما عدا عيسى ما قلتَ هذا العودَ»[1]، فنخرت بطارقته فقال: «وإن نخرتم»، وقال للمسلمين: «اذهبوا فأنتم آمنون، ما أُحبُّ أنّ لي جبلاً من ذهب، وأنني آذيت رجلاً منكم»، وردّ هديّة قريش. فخرج عمرو وصاحبه مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقام المسلمون معه بخير دار مع خير جار[2].

وكان أبو طالب عمّ النبيﷺ حين علم أنّ قريشاً بعثوا عمرو بن العاص وصاحبه إلى النّجاشي، قد بعثَ أبياتاً من الشّعر للنجاشي يحضّه على حسن جوار المسلمين المهاجرين والدّفع عنهم، جاء فيها:

أَلا لَيْـتَ شِعْرِي كيـف في النَّـأي جَعْفَرُ
وعمرو وأَعْـداءُ العـــدُوِّ الأَقـــارِبُ

---

(١) قال أبو ذر: «تقديره ما جاوز مقدار هذا العود أو قدر هذا العود».
(٢) سيرة ابن هشام (١/٣٥٦ - ٣٦١) وابن الأثير (٢/٧٩ - ٨١) وانظر أنساب الأشراف (١/٢٣٢) والطبري (٢/٣٣٥) وجوامع السيرة (٦٣) والدرر (١٣٩).

فهــل نــالَ أفعــالُ النجَّــاشي جَعْفَراً
وأَصْحَــابَــه، أو عَــاقَ ذلــك شَاغِــبُ[1]
تَعَلَّمْ أَبَيْــتَ اللّعْنَ أَنّــك مــاجِــدٌ
كريمٌ فــلا يَشْقَــى لَدَيْــك الُمجــانِــبُ[2]
تعَلَّمْ بــأَنَّ الله زَادَكَ بَسْطَــةً
وأَسبــابَ خَيْرٍ كُلُّهــا بِــكَ لآزِبُ[3]
وأَنّــكَ فَيْــضٌ ذو سِجَــالٍ غَزِيْرَةٍ
يَنَــالُ الأَعــادي نَفْعَهــا والأَقــارِبُ[4]

ولما عاد عمرو وصاحبه إلى مكّة خائِبَين، ورأت قريش أن الإِسلام يفشو ويزيد، إئتمروا في أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على ألاّ يُنكحوا بني هاشم وبني المطّلب ولا يَنْكحوا إليهم، ولا يبيعوهم ولا يبتاعون منهم شيئاً، فكتبوا بذلك صحيفة، وتعاهدوا على ذلك، ثم علّقوا الصّحيفة في جوف الكعبة، توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم. فلما فعلت قريش ذلك، انحازت بنو هاشم وبنو المطّلب إلى أبي طالب،

---

(١) عاق: منع. وشاغب: يروي بالغين معجمة من الشّغب، ويروي بالعين مهملة، ومعناه المفرق، ومنه سمّيت المنيّة: شعوب، مفعول بمعنى فاعل، لأنها تفرّق بين المحبّين وتصدع شملهم.

(٢) أبيت الّلعن: هذه تحيّة العرب في الجاهلية للملوك، يريدون: أبيت أن تأتي من الأمور ما يكون سبباً فيالّلعن. والمجانب: أراد به الداخل في حماه، يقال لمن انضوى إلى جانبك ولاذ بجوارك: مجانب، ولا يصحّ أن يكون من المجانبة.

(٣) لازب: لاصق ولازم.

(٤) فيض: أراد به أنّه كريم. وسجال: في الأصل جمع سِجلّ، وهو الدّلْوُ إذا امتلأت، وأراد منه ههنا العطية. وانظر الأبيات في السيرة ابن هشام (١/٣٥٦ - ٣٥٧)، وقد كان أبو طالب عمّ النبيﷺ شاعراً، وقد تكون هذه الأبيات معبِّرة عما كان يجول بخلده عن المهاجرين إلى الحبشة، ومايؤمله في النجاشي من حمايتهم من عمرو بن العاص وصاحبه ومشركي قريش، إذ لا دليل على علم النجاشي بالعربية الفصحى.

فدخلوا فيه في شِعْبهِ واجتمعوا، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا، لايصل إلى أحدٍ منهم شيءٌ إلاّ سِرّاً، حتى نقض الصّحيفة نفرٌ من قريش[1].

لقد أخفق عمرو في سفارته لمشركي قريش إلي النجّاشي إخفاقاً كاملاً بالرغم من أنّه بذل كلّ ما يستطيعه بشر متميّز من أجل تحقيق هدفه، وكان إخفاقه لأنه كان على الباطل، ولأنّ المسلمين كانوا على حق، ولأن النجّاشي كان حاكماً عادلاً منصفاً.

٢. في حرب المسلمين

أ - في غزوة بَدْرٍ الكبرى:

كان عمرو تاجراً في الجاهلية، وكان يختلف بتجارته إلى مصر، وهي الأَدَم والعِطْر[2]، كما كان يختلف بتجارته إلى بلاد الشّام أيضاً، وإلى اليمن وأرض الحبشة، في رحلتي الشتاء والصيف.

وكان جزّاراً[3] أيضاً، ويبدو أنّه كان يتّخذ هذه الحرفة حين يستقرّ في مكّة ولا تشغله رحلاته التجارية صيفاً أو شتاءً إلى مختلف الأقطار عن هذه الحرفة، وبخاصة وأن أعماله التجاريّة تشغله كثيراً من أيام السّنة، فإذا انقضت تلك الأيام عاود مزاولة حرفته الأصليّة التي يبدو أنّها كانت مربحة.

وكان عمرو مع قافلة أبي سُفيان التجاريّة العائدة من بلاد الشّام إلى مكّة، وهي القافلة التي ندب النبيﷺ المسلمين إليها، وكان المسلمون

---

(١) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٢/٨٧ - ٩٠).
(٢) الولاة والقضاة (٦ - ٧).
(٣) المعارف (٥٧٥).

يترصدون غدوّها ورواحها ويعرفون تفاصيل حركتها من مكة إلى بلاد الشّام، ومن بلاد الشام إلى مكّة، فخرج المسلمون إلى موقع بَدْرٍ بين المدينة ومكّة، وكان خروجهم في شهر رمضان المبارك من السنة الثانية الهجريّة[1].

ولكن أبا سفيان بن حَرْب، استطاع أن يبتعد بالقافلة عن طريق بَدْر، ويتساحل في طريق عودته إلى مكة، حتى أنقذ القافلة من المسلمين.

إلاّ أن المشركين من قريش وحلفائهم، قصدوا موقع بَدْر، واشتبكوا بالمسلمين في غزوة بدرٍ الكبرى، حيث انتصر المسلمون على المشركين انتصاراً حاسماً، فكانت هذه الغزوة من معارك المسلمين الحاسمة[2].

ولم يشهد عمرو هذه المعركة مع مشركي قريش، لأنّه كان مع قافلتهم التجاريّة، وكانت مهمته الأولى إنقاذ هذه القافلة من المسلمين.

ب. في غزوة أُحُد:

ولما رجع المشركون من غزوة بدر إلى مكّة مدحورين، مشت أشراف قريش إلى أبي سفيان بن حرب، فقالوا: «يا أبا سفيان! احْتَبِسْ هذه العِيْرَ، فإنها أموال أهل مكّة، وهم طيّبو الأنفس بأن تجهّزوا فيها جيشاً كثيفاً إلى محمّد، فقد ترى مَنْ قَتل من أبنائنا وعشائرنا».

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٤٤)، وانظر جوامع السيرة (١٠٧) والدرر (١١٠) وابن الأثير (٢/١١٦) وأنساب الأشراف (١/٢٨٨).

(٢) انظر تفاصيل غزوة بدر في: طبقات ابن سعد (٢/١١ - ٢٧) وسيرة ابن هشام (٢/٢٤٨ - ٣٦٧) وعيون الأثر (١/٢٤١ - ٢٩٢) وجوامع السيرة (١٠٧ - ١٤٩) والدرر (١١٠ - ١٣٨)، وانظر كتابنا: الرسول القائد (٩٩ - ١٤٨) - ط ٥.

ويقال: بل مشى أبو سفيان إلى أشراف قريش وغيرهم، فدعاهم إلى توجيه جيش إلى رسول الله ﷺ بأثمان ما في العِيْر من أموال، فباعوا ما كانوا فيها بالذّهب الخالص، وتجهّزوا به.

وقال بعضهم: إنّهم تجهّزوا بأرباح أموال القافلة، وكان ربح الدينار ديناراً، وبعثوا إلى أربعة نفرٍ من قريش، أوّلهم عمرو بن العاص، فساروا في العرب يستنجدونهم على رسول الله ﷺ. وخرج النّفر، فجمعوا جمعاً من ثَقِيْفٍ وكِنَانة وغيرهم.

وتوجّه المشركون من مكّة إلى المدينة، وخرجوا معهم بالنّساء، فخرج عمرو بامرأته رِيْطَة بنت مُنَبِّه بن الحجّاج السَّهْمِي، وهي أم عبد الله بن عمرو بن العاص[١]، فشهد عمرو غزوة أُحُد التي كانت في شهر شوّال من السنة الثالثة الهجريّة مع المشركين[٢]، وكان على خيل المشركين صَفْوان بن أُمَيَّة، ويقال: عمرو بن العاص[٣].

وقاتل عمرو في أُحُد مع المشركين قتالاً شديداً[٤]، فقد أقبل قُزْمان يشتدّ على المشركين، فكان عمرو من الذين قاتلوا قُزْمان حتى قُتل[٥].

ويبدو أنّ تمويل حملة المشركين إلى غزوة أُحُد من قافلة أبي سفيان، جرى بسعي أبي سفيان إلى أشراف قريش، وسعي أشراف قريش إليه، وتخويل أبي سفيان الانفاق على تلك الحملة من أرباح تلك القافلة أو من

---

(١) ورد اسمها: هند بنت منبَّه في أنساب الأشراف (٣١٢/١١) ومغازي الواقدي (٢٠٠/١ و ٢٠٣)، وفي طبقات ابن سعد (٢٦١/٤) ورد اسمها: ريطة، وهو الأصح.

(٢) أنساب الأشراف (٣١٣/١).

(٣) مغازي الواقدي (٢٢٠/١).

(٤) مغازي الواقدي (٢٨١/١).

(٥) مغازي الواقدي (٣٠٨/١).

أرباح أغنياء قريش الذين طابت أنفسهم بالتخلي عن أرباحهم وطابت أنفس قسم منهم بالتخلي عن رؤوس أموالهم وأرباحهم أيضاً، أما فقراء قريش فلهم رؤوس أموالهم، وأرباحهم إلا إذا طابت أنفسهم بالتخلي عن تلك الأرباح.

وقد قيل لعمرو: كيف كان افتراق المشركين والمسلمين يوم أُحُد؟ فقال: «ما نريد إلى ذلك؟ قد جاء الله بالإسلام ونفيَ الكفر وأهله»، ثم قال: «لما كررنا عليهم، أصبنا مَنْ أصبنا منهم، وتفرّقوا في كلّ وجه. وفاءت لهم فئة بعد، فتشاورت قريش، فقالوا: لنا الغَلَبة، فلو انصرفنا، فإنّه بلغنا أنّ ابن أبيّ انصرف بثلث الناس، وقد تخلّف ناس من الأوْس والخزرج، ولا نأمن أن يكرّوا علينا، وفينا جراح، وخيلنا عامتها قد عُقِرت من النَّبْل، فمضينا حتى بلغنا (الرَّوْحاء)[1]، حتى قام علينا عدّة منهم، ومضينا»[2].

وهكذا نهض عمرو بدور بارز في غزوة أُحد إعداداً للقتال وقتالاً، مع المشركين على المسلمين.

جـ. في غزوة الأحزاب:

شهد عمرو غزوة الأحزاب (الخندق) التي كانت في شهر شوّال من السنة الخامسة مع المشركين على المسلمين أيضاً.

وقد ذكر جابر بن عبدالله[3] رضي الله عنه، فقال: «لقد رأيْتني

---

(١) الرّوحاء: من عمل الفرع، على بعد أربعين ميلاً من المدينة باتّجاه مكّة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٩٦).

(٢) مغازي الواقدي (١/٢٩٩).

(٣) انظر سيرته في: طبقات ابن سعد (٣/٥٧٤) وأسد الغابة (١/٢٥٦) والإصابة (١/٢٢٢) والاستيعاب (١/٢١٩).

أحرس الخندق، وخيل المشركين تُطِيْف بالخندق وتطلب غِرَّةً ومَضِيْقاً من الخندق فتقتحم فيه، وكان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد هما اللذان يفعلان ذلك، يطلبان الغفلة من المسلمين »[1].

وقرّر رؤساء الأحزاب وزعماؤهم اقتحام الخندق، وكان عمرو من بين أولئك الرؤساء والزعماء، فطلبوا مضيقاً يقتحمونه إلى النبي ﷺ وأصحابه، فانتهوا إلى مكان قد أغفله المسلمون في الخندق، فجعلوا يُكْرِهون خيلهم ويقولون: هذه المكيدة ما كانت العرب تصنعها ولا تكيدها! »، فقيل لهم: إنّ معه رجلاً فارسياً، فهو الذي أشار عليه بهذا! فعبر قسم منهم، ولكنّهم أخفقوا في عبورهم، فعادوا إلى قواعدهم هاربين[2].

وحين أزمع المشركون أن يرحلوا عن المدينة خائبين، بعث النبي ﷺ حُذَيْفَة بن اليَمَان[3]، ليستطلع موقف المشركين ويكتشف نيّاتهم، فتغلغل بالعمق في حشود المشركين ليلاً، وكانت الرِّيح تفعل بهم ما تفعل: ما تُقِرّ لهم قِدْراً ولا بناءً. وأقبل حذيفة حتى جلس على نار من نيران الأحزاب مع قوم من المشركين، فقام أبو سفيان بن حرب فقال: « احزروا الجواسيس والعيون، ولينظر كلّ رجلٍ جليسَه »، فالتفت حذيفة إلى أقرب رجل منه وقال له: « مَنْ أنت؟ »، فقال: « عمرو بن العاص ».

وأمر أبو سفيان بالرّحيل، فجعل الناس يرتحلون وهو قائم، حتى خَفّ العسكر. ثم قال لعمرو بن العاص: « يا أبا عبد الله! لا بدّ لي ولك

(١) مغازي الواقدي (٢/٤٦٥).

(٢) مغازي الواقدي (٢/٤٧٠ - ٤٧٢).

(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (١٠٨ - ١١٧).

أن نُقيم في جريدة[1] من خيل بإزاء محمّد وأصحابه فإنا لا نأمن أن نُطلب، حتى ينفذ العسكر»، فقال عمرو: «أنا أُقيم!»، وقال لخالد بن الوليد: «ما ترى يا أبا سليمان؟، فقال: «أنا أيضاً أقيم!»، فأقام عمرو وخـالد في مائتي فارس، وسار العسكر إلا هذه الجريدة على متون الخيل[2].

ولما انصرف عمرو من ساحة القتال إلى مكة، قال: «قد علم كلّ ذي عَقْلٍ، أنّ محمّداً لم يكذب»، فقال عِكْرِمَة بن أبي جَهْل[3]: «انت أحق الناس ألاّ يقول هذا!!»، فقال عمرو: «لِمَ؟!»، قال: لأنّه نزل على شرف أبيك، وقتل سيِّد قومك»[4].

ولكن قناعة عمرو بصدق النبي ﷺ، بدأت تعمل عملها في إبعاده عن المشركين وتقريبه من المسلمين.

لقد بذل عمرو قصارى جهده في غزوة الأحزاب مقاتلاً وقائداً، مع المشركين على المسلمين، ولكنّ إخفاق الأحزاب في تحقيق هدفهم بالرغم من ضخامة عَدَدهم وعُدَدهم، وعودتهم خائبين مدحورين، جعل عَمْراً يفكِّر بأسباب إخفاق المشركين وانتصار المسلمين!

---

(١) الجريدة: هي التي جرِّدت لوجهٍ، معظمها من الخيل، انظر أساس البلاغة (١١٦)، وهي هنا: السّاقة، المؤلفة من الفرسان والتي تكون في نهاية المؤخَّرة، لحماية انسحاب القوّات المنسحبة، ولمنع العدو من الحصول على المعلومات عن انسحابها.

(٢) مغازي الواقدي (٢/٤٨٩ - ٤٩٠).

(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشّام ومصر (٨٥ - ٩٥).

(٤) مغازي الواقدي (٢/٤٩١). ويريد بتعبير نزل على شرف أبيك: أي حجب شرف أبيك، فلا حديث للناس إلاّ عنه. ويريد بتعبير قتل سيِّد قومك: أن المسلمين قتلوا في غزوة بدر الكبرى مُنَبِّه بن الحجّاج سيد بني سَهْم بعد العاص بن وائل الذي كان قد توفي، كما أن منبِّه هو والد ربطة زوجة عمرو وأم عبد الله بن عمرو بن العاص.

٣ - سفارة عمرو الثانية إلى النجّاشيّ

حاولت قريش من جديد إيفاد عمرو إلى النّجاشي ملك الحبشة، لعلّه يسلّم المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة لمشركي قريش، فغادر عمرو إلى أرض الحبشة بعد غزوة الحُدَيْبِيَّة التي لم يشهدها عمرو مع مشركي قريش ولم يشهد صلحها، لسفره إلى أرض الحبشة سفيراً لمشركي قريش[١].

وغزوة الحُدَيْبِيَّة، كانت في شهر ذي القعدة من السنة السّادسة الهجريّة، كما هو معروف.

وكان النبي ﷺ قد أوفد عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِيّ[٢] في أواخر السنة السّادسة إلى أرض الحبشة سفيراً نبويّاً إلى النجّاشيّ ملك الحبشة، فروى عمرو بن العاص قصة لقائه بعمرو بن أُمَيَّة في أرض الحبشة، فقال: «فاجمعوا لنا ما نهديه للنجاشي - يريد ما جمعته قريش هدية للنجاشي - وكان أحبّ ما يُهْدي إليه من أرضنا الأَدَم (الجلود)، فجمعنا له أدماً كثيراً. ثم خرجنا حتى قدمنا عليه - يريد قدم على النجاشي - فوالله إنّا لعنده إذ جاءه عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِيّ، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر - يريد جعفر بن أبي طالب - وأصحابه، فدخل عليه ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أُميَّة الضمْرِيّ، لو دخلتُ على النجّاشيّ لسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها[٣] حين قتلت رسول محمّد. فدخلت عليه، فسجدت له كما كنت

---

(١) مغازي الواقدي (٧٤٢/٢).
(٢) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة النبي ﷺ.
(٣) أجزأت عنها: قمت مقامها فيه وكفيتها شأنه.

أصنع، فقال: مرحباً بصديقي! أهديت إليَّ من بلادك شيئاً؟ قلت: نعم أيّها الملك، قد أهديت إليك أَدَماً كثيراً، ثم قرّبته إليه فأعجبه واشتهاه. ثم قلت: أيها الملك! إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوّ لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنّه قد أصاب من أشرافنا!.... فغضب، ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربةً ظننت أنّه كسره[1]، فلو انشقَّت لي الأرض لدخلت فيها فَرَقاً منه! ثمّ قلت: أيها الملك! والله لو ظننت إنك تكره هذا ما سألتُكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجلٍ يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟! »[2].

وكان مع عمرو في هذه الرحلة، عُمَارة بن الوليد بن المُغيرة، كان من فتيان قريش جمالاً وشِعْراً، وهو الذي بعثته قريش مع عمرو إلى النجّاشي، يكلّمانه فيمن قدم عليه من المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة، فما يئس عمرو، ومَحِلَ[3] بعُمارة عند النّجاشي، فمات في الحبشة، وعُمارة هو أخو خالد بن الوليد[4].

وهكذا أخفق عمرو في سفارته القرشيّة هذه مرةً أخرى، فردّه النجّاشي إلى مشركي قريش في مكّة خائباً.

٤. عمرو في صراعه النّفسيّ

لقد كان عمرو من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهليّة، مذكوراً بذلك فيهم[5]، وكان شاعراً نظم الشِّعر متشفياً بهزيمة المسلمين في غزوة

---

(١) وفي رواية مغازي الواقدي (٧٤٢/٢): فرفع يده، فضرب بها انفي ضربة ظننت أنّه كسره ».

(٢) سيرة ابن هشام (٣١٨/٣) وانظر مغازي الواقدي (٧٤٢/٢ - ٧٤٤).

(٣) محل به: كاده بسعاية إلى السلطان.

(٤) نسب قريش (٣٢٢) وانظر أنساب الأشراف (٢٣٢/١ - ٢٣٣).

(٥) الاستيعاب (١١٨٨/٣).

أُحُد[1] وفي أغراض أخرى، وكان أشدّ الناس على رسول الله ﷺ[2] وعلى الإسلام والمسلمين.

وكان فوق ذلك معروفاً بالدّهاء وحسن التّصرّف بين رجالات قريش، مما أدّى إلى إرساله سفيراً إلى أرض الحبشة مرتين، لإقناع النّجاشيّ بتسليم المهاجرين من المسلمين إلى أرض الحبشة للمشركين من قريش، ولكنه أخفق في سفارتيه إخفاقاً كاملاً، ولم يحقق شيئاً يذكر لمشركي قريش الذين اختاروه سفيراً لهم، بل كانت من ثمرات سفارتيه تعلق النجاشي بالمسلمين المهاجرين إلى بلاده، وإصراره على الدفاع عنهم، وإعجابه بعقيدتهم وبمنطقهم الصّادق السّليم.

وقد كان أمام عمرو - أسوةً بغيره من قريش - مسلكان لا ثالث لهما:

المسلك الأول: هو البقاء على عقيدة الآباء والأجداد، عقيدة الشِّرك، والمسلك الثاني اعتناق الإسلام، عقيدة التوحيد.

وقد كان إصرار عمرو على عقيدته إصراراً إيجابياً، إذ دافع عنها في بلاده مهبط الوحي، وخارج بلاده في أرض الحبشة وأرض الشّام ومصر، وتحدى الإسلام والمسلمين في السِّلم والحرب، وبذل قصارى جهده ليحقّق نجاحاً للمشركين في ميدان القتال وفي ميدان السياسة، فما حقّق غير الإخفاق المطبق والخيبة والقنوط.

ولعلّ إخفاقه الكامل في سلوكه المسلك الأول، بالرغم من جهوده المتواصلة لإحراز شيء من النجاح، هو الذي حمله على سلوك المسلك الثاني، فقطع صلته نهائياً بالشرك والمشركين، ويمّم شطر الإسلام

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/١١٠ و ١١٦).
(٢) الاستيعاب (٣/١١٩٠).

والمسلمين، وكان تحوّله من عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الأحد نتيجة تجاربه العملية الطويلة، فكان تحوله تحول اقتناع لا تحول عاطفة: تحوّل القائد القدير الذي لم ينتصر أبداً، وتحول السياسي الحصيف الذي لم يوفّق قط، وما انهزم القائد الفذّ، ولا أخفق السياسي البارع، ولكن أخفقت نفسه الخاوية من العقيدة السليمة، فاستسلم القائد واقتنع السياسي باندحار العقيدة السقيمة في مواجهة العقيدة السليمة، والهزيمة تلحق بالمرء لا بسبب قلّة أشيائه، بل بسبب ضحالة أفكاره، لأنّ (المادة) وحدها لا ترفع المعنويات، والعقيدة السليمة وحدها ترفع المعنويات، والمهزوم في نفسه لا ينتصر في الحرب ولا ينجح في السلام.

مع النبيّ ﷺ

١. إسلامه

كانت الحرب بين المسلمين والمشركين، قد حجزت بين الناس وانقطع الكلام، وإنّما كان القتال حيث التقوا. فلما كانت هُدْنَة الحُدَيْبِيَّة في ذي القعدة من السنة السّادسة الهجرية، وضعت الحربُ أوزارها وأمنَ الناس بعضُهم بعضا، فلم يكن أحد تكلّم بالإسلام يعقل شيئاً إلاّ دخل في الإسلام، حتى دخل في تلك الهدنة صناديد المشركين الذين يقومون بالشّرك والحرب: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وأشباه لهم، وإنّما كانت الهُدْنة - حتى نقضوا العهد - اثنين وعشرين شهراً، دخل فيها مثل ما دخل في الإسلام قبل ذلك وأكثر، وفشا الإسلام في كل ناحية من نواحي العرب[١].

ولم يحضر عمرو الحُدَيْبِيَّة ولا صلحها، إذ قصد أرض الحبشة في

---

(١) مغازي الواقدي (٢/٦٢٤).

سفارته القرشية الثانية إلى النجاشي[1]، وقد أسلم عمرو قبل سرية مُؤْتة - بَعْثُ الأمراء إلى الشام - التي كانت في شهر جمادي الأولى من السنة الثامنة الهجرية وبعد هدنة الحديبية وغزوة خيبر[2] التي كانت في شهر محرّم من السنة السابعة الهجرية، أي أنه أسلم قبل عُمْرة القضاء التي كانت في شهر ذي القعدة من السنة السّابعة الهجريّة، وقيل: أسلم بعد عُمْرة القضاء[3]، فقد أسلم عمرو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة[4] في شهر صفر من السنة الثامنة الهجريّة[5] في هدنة الحُدَيْبِيَّة[6].

لقد كان عمرو يفكّر باعتناق الإسلام قبل إعلان إسلامه، ولكنّه أعلن إسلامه سرّاً على يدي النّجاشيّ[7]، ومن الواضح أنّه كان يراود نفسه على الإسلام قبل إعلانه سرّاً للنجاشيّ، فأعلنه للنّجاشي تحقيقاً لتطلعاته الشخصيّة وموافقةً للنّجاشيّ لإرضائه، دون أن يناقض نفسه في هذه الموافقة، فما كان مضطراً لإعلان إسلامه للنّجاشي في حال من الأحوال.

وكان عمرو قد همّ بالاقبال إلى رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة في حين انصرافه من أرض الحبشة بعد عودته في سفارته الثانية، ثم لم يعزم له حتى سنة ثمانٍ الهجرية[8].

---

(١) انظر التفاصيل في مغازي الواقدي (٢/٧٤٢-٧٤٥).
(٢) جوامع السيرة (٢٢٠).
(٣) الدرر (٢٢١).
(٤) انظر سيرته في: أسد الغابة (٣/٣٧٢) والإصابة (٤/٢٢٠) والاستيعاب (٣/١٠٣٤).
(٥) مغازي الواقدي (٢/٧٤٥)، وانظر أسد الغابة (٣/٣٧٢) والاستيعاب (٣/١٠٣٤).
(٦) أسد الغابة (٣/٣٧٢) والإصابة (٤/٢٢٠) والاستيعاب (٣/١٠٣٤) ونسب قريش (٤٠٩) وفي تاريخ خليفة بن خياط (١/٤١) أسلم عمرو بن العاص سنة ست الهجرية، وهذا وهم، لإجماع المصادر المعتمدة كافة على خلافه.
(٧) سيرة ابن هشام (٣/٣١٩) ومغازي الواقدي (٢/٧٤٣) والطبري (٣/٣١) وابن الاثير (٢/٢٣١) واسد الغابة (٤/١١٦) والإصابة (٥/٢).
(٨) الاستيعاب (٣/١١٨٦).

وقد ذكر عمرو قصّة إسلامه فقال: «ثم خرجتُ عامداً إلى رسول الله ﷺ، فلقيت خالد بن الوليد. وذلك قُبَيْل الفتح - فتح مكة الذي كان في رمضان من السنة الثامنة الهجرية - وهو مُقْبِل من مكّة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المَنْسِم[1]، وإن الرّجل لنبيّ، أذْهَبُ والله فأُسْلِم، فحتى متى؟ قلت: والله ما جئتُ إلا لأُسلم. فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ. فتقدَّم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوتُ فقلت: يا رسول الله! إني أبايعك على أن يُغْفَر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخّر، فقال رسول الله ﷺ: **يا عمرو! بايعْ فإن الإسلام يَجُبُّ[2] ما كان قبله، وإنّ الهجرة تَجُبُّ ما كان قبلها**. قال: فبايعته ثم انصرفت»، وفي رواية أنّ النبيّ ﷺ قال: «**فإن الإسلام يَحُتّ[3] ما كان قبله، وإنّ الهجرة تُحتّ ما كان قبلها**»، وكان عثمان بن طلحة مع عمرو وخالد بن الوليد[4].

وكان النبيّ ﷺ حين رأى عَمْراً وصاحبيه قد قال لأصحابه: «**ألقت إليكم مكّة أفلاذ كبدها**» يعني أنّهم وجوه أهل مكّة[5].

وأصبح عمرو بعد إسلامه موضع ثقة النبيّ ﷺ لكفاءاته المتميِّزة وحسن إسلامه، قال عمرو واصفاً هذه الثقة الغالية: «... فوالله ما

---

(١) لقد استقام المنسم: هذا مثل معناه: لقد تبين الأمر ووضح ولم يعد فيه لبس ولا شك. وأصل المنسم: خف البعير. وفي بعض الروايات: لقد استقام الميسم: الحديدة التي توسم بها الإبل وغيرها، أي تعلّم.

(٢) يجبّ: يقطع.

(٣) يحتّ: يسقط.

(٤) سيرة ابن هشام (٣/٣١٩-٣٢٠) ومغازي الواقدي (٢/٧٤٤-٧٤٥) والطبري (٣/٣١).

(٥) أسد الغابة (٣/٣٧٢) والاستيعاب (٣/١٠٣٤).

عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمرٍ جَزَبَهُ[1] منذ أسلمنا»[2].

وقد سأل رجل عمرو بن العاص في يوم من الأيام: «ما أبطأ بك عن الإسلام، وأنت في عقلك؟!»، قال: «إنّا كنّا مع قوم لهم علينا تقدّم، وكانوا ممّن توازي حلومهم الجبال، فلما بُعث النبيّ ﷺ فأنكروا عليه فلذنا بهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبّرنا، فإذا حقٌّ بيِّنٌ، فوقع في قلبي الإسلام، فعرفت قريش ذلك مني من إبطائي عمّا كنت أسرع فيه من عونهم عليه، فبعثوا إلى فتىً منهم فناظرني في ذلك، فقلت: أنشدك الله ربّك وربّ مَنْ قَبلك وَمَنْ بعدك، أنحن أهدى أم فارس والرُّوم؟ قال: نحن أهدى! قلت: نحن أوسع عيشاً أم هم؟ قال: هم! قلت: فما ينفعنا فضلنا عليهم إن لم يكن لنا فضل إلاّ في الدنيا وهم أعظم منّا فيها أمراً في كلّ شيء؟ وقد وقع في نفسي أنّ الذي يقوله محمّد عن أنّ البعث بعد الموت ليجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته حق، ولا خير في التمادي في الباطل»[3].

قال عمرو: «ثم جعل الإسلام في قلبي، فأتيت رسول الله ﷺ لأبايعه، فقلت: أبسط يمينك أبايعك يا رسول الله! فبسط يده، ثمّ إني قبضت يدي، فقال: مالك يا عمرو؟! فقلت: أردتُ أن أشترط! فقال: تشترط ماذا؟! فقلت: أشترط أن يُغفر لي! فقال: أما علمت يا عمرو، أنّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وأنّ الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأنّ الحجّ يهدم ما كان قبله؟ فقد رأيتني ما من أحدٍ أحبّ إليّ من رسول الله ﷺ

---

(١) حزبه: نابه واشتد عليه، وفي رواية: في حربه انظر البداية والنهاية (٢٣٨/٤).
(٢) مغازي الواقدي. (٧٤٥/٢).
(٣) الإصابة (٢/٥) وانظر نسب قريش (٤١٠-٤١١).

ولا أجلّ في عينيّ منه، ولو سُئلت أن أنعته ما أطقتُ، لأني لم أكن أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له»[١].

لقد أسلم عمرو بعد تفكير طويل، لذلك قال النبيّ ﷺ عن إسلامه: «**أسلم النّاس، وآمن عمرو بن العاص**»[٢].

وهذا الوصف النبوي الوجيز لإسلام عمرو يُجزي عن أبلغ المطوّلات وأوضحها وأشملها.

ولما فتح النبيّ ﷺ مكّة المكرّمة في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية، وألقى خطابه من على باب الكعبة المشرّفة، وعفا عن قريش وطاف بالكعبة سبعاً ودخلها وصلّى فيها، وحطّم الأصنام، جلس للبيعة على (الصَّفَا) بالقرب من البيت العتيق، فاجتمع الناس لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام، فكان يبايعهم على السمع والطّاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، فكانت هذه بيعة الرِّجال.

وأما بيعة النِّساء، فإنّه لما فرغ من الرجال بايع النِّساء، فأتاه منهنّ نساء من نساء قريش، وكان من بين النساء المبايعات رَبْطة بنت مُنبِّه ابن الحجّاج[٣].

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٥٩/٤) وانظر فتح مصر والمغرب (٢٤٣).

(٢) أسد الغابة (١١٧/٤)، والحديث رواه الإمام أحمد (١١٥/٤) والترمذي (٣١٦/٢) انظر مقال الأحاديث الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني المنشور في مجلة التمدن الإسلامي الدمشقية في العدد الصادر بالمحرم،١٣٨٢ هـ - المجلد (٢٩) ص (٧-٨).

(٣) ابن الأثير (٢٥٢/٢-٢٥٣)، وفيه: ريطة بنت الحجّاج، وهذا وهم، والصواب كما جاء في أعلاه، انظر أسد الغابة (٤٦١/٥) والإصابة (٨٩/٨) وانظر طبقات ابن سعد (٢٦١/٤)، وهي أم عبد الله بن عمرو بن العاص، ولعلّ الخطأ الوارد في ابن الأثير جاء من الناسخ أو الطابع.

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص قد أسلم قبل أبيه[1]، فأستكملت عائلة عمرو جمعَ شملها تحت لواء الإسلام.

٢. في سرية ذات السّلاسل[2]

كانت هذه السّرية في شهر جمادى الآخرة من السّنة الثامنة الهجرية[3]، وكان سبب إرسال هذه السرية، أن النبيّ ﷺ بلغه أنّ جمعاً من بَلِيٍّ وقُضاعة قد تجمّعوا يريدون أن يَدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص، فعقد له لواءً أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في سَراة المهاجرين والأنصار في ثلاثمائة مجاهد، وأمره أن يستعين بمن مرّ به من العرب، وهي بلاد بَلِيٍّ وَعُذْرَة وَبَلْقِينْ، وذلك أنّ عمرو بن العاص كان ذا رحِم بهم، إذ كانت أمّ العاص بن وائل بَلَويَّة، فأراد رسول الله ﷺ أن يتألّفهم بعمرو. وسار عمرو، وكان يَكمُن النّهار ويسير اللّيل، وكانت معه ثلاثون فرساً، فلما دنا من القوم بلغه أنّ لهم جَمْعاً كثيراً، فنزل قريباً منهم عِشاءً وهم شاتون، فجمع أصحابه الحَطَب يريدون أن يَصْطلوا - وهي أرض باردة - فمنعهم عمرو، فشقّ ذلك عليهم حتى كلّمه في ذلك بعض المهاجرين فغالظه، فقال عمرو: «أُمِرْتَ أن تسمع لي وتُطيع!» قال: «فأفعل».

وبعث عمرو إلى رسول الله ﷺ رافع بن مَكِيْث الجُهنيّ[4] يخبره أنّ

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/٢٦٢).

(٢) ذات السّلاسل: ماء بأرض جذام، يقال له: السلسل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٠٦) وهي وراء وادي القرى، بينها وبين المدينة عشرة أيام سيراً على الأقدام، انظر طبقات ابن سعد (٢/١٣١).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/١٣١) وأنساب الأشراف (١/٣٦٠).

(٤) انظر سيرته في: أسد الغابة (٢/١٥٩) والإصابة (٢/١٩٠) والاستيعاب (٢/١٨٥).

لهم جمعاً كثيراً ويستمده بالرجال، فبعث أبا عُبيدة بن الجرّاح[1] وعقد له لواءً، وبعث معه سَراة المهاجرين - أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما - والأنصار، وأمره رسول الله ﷺ أن يلحق عمرو بن العاص، فخرج أبو عبيدة في مائتين من المجاهدين، وأمره أن يكونا جميعاً ولا يختلفا، فساروا حتى لحقوا بعمرو. وأراد أبو عُبَيْدة أن يَؤُم الناس ويتقدم عَمْراً، فقال له عمرو: «إنّما قدمت عليّ مَدَداً لي، وليس لك أن تَؤُمَّني، وأنا الأمير، وإنّما أرسلك النبيّ ﷺ إليّ مَددَا»، فقال المهاجرون: «كلاّ، بل أنت أمير أصحابك، وهو أمير أصحابه!»، فقال عمرو: «لا، بل أنتم مَدَدٌ لنا!».

ولما رأى أبو عُبيدة الاختلاف، وكان حسن الخُلُق، ليِّن الشَّكيمة، قال: «لِتطمئنّ يا عمرو، وتعلمنّ أن آخر ما عَهَد إليّ رسول الله ﷺ أن قال: إذا قدمت على صاحبك، فتطاوعا ولا تختلفا، وإنّك والله إن عصيتني لأُطيعنّك!»، فأطاع أبو عبيدة، فكان عمرو يصلّي بالناس.

وأصبح مجموع رجال عمرو خمسمائة مجاهد، فسار الليل والنّهار، حتى وَطِيء بلاد بَلِيّ ودوّخها[2]، وكلّما انتهى إلى موضع بلغه أنّه كان بهذا الموضع جمع، فلما سمعوا به تفرّقوا، حتى انتهى إلى أقصى بلاد بَلِيّ وَعُذْرَة وَبَلْقينْ، ولقي في آخر ذلك جمعاً ليس بالكثير، فقاتلوا ساعة وتراموا بالنَّبْل، فحمل المسلمون عليهم، فهربوا وأعجزوا هرباً في البلاد وتفرّقوا، ودوّخ عمرو ما هناك، وأقام أياماً لا يسمع لهم بِجَمْعٍ ولا بمكان صاروا فيه، فكان يبعث أصحاب الخيل، فيأتون بالنساء والنَّعم، وكانوا ينحرون ويذبحون.

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٥٤-٨١).
(٢) دوّخ البلاد: قهرها واستولى عليها.

وكان عمرو بن العاص في طريق عودته إلى المدينة قد احتلم في ليله باردة كأشدّ ما يكون من البرد، فقال لأصحابه: «ما ترون؟ قد والله احتلمتُ، وإن اغتسلتُ مُتُّ»، فدعا بماء فتوضأ وغسل فرجه وتيمّم، ثم قام فصلّى بهم. ولما قدم عمرو على النبيّ ﷺ سأله عن صلاته، فقال: «والذي بعثك بالحقّ لو اغتسلتُ لَمُتُّ، ولم أجد قطُّ برداً مثله، وقد قال الله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾[1]، فضحك النبيّ ﷺ، ولم يقل شيئاً[2].

ولما هزم المسلمون أعداءهم طمعوا فيهم، فأرادوا مطاردتهم، فحال عمرو بينهم وبين ما يريدون. ثم أرادوا أن يوقدوا ناراً يصطلون عليها من البرد - كما ذكرنا - فمنعهم عمرو من ذلك أيضاً، فشق على المسلمين هذا المنع ولم يحتملوا تلك الشدّة التي تصل إلى التهديد بقذف مَنْ يوقد النار فيها، فشكوه إلى رسول الله ﷺ، فكلّمه في ذلك، فقال عمرو: «كرهتُ أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوّهم قلّتهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مَدَد»، فأعجب به رسول الله ﷺ أيّما إعجاب، وحمد له رأيه[3]، كما أقرّه النبيّ ﷺ في اجتهاده بالتيمّم مع وجود الماء خوف الضّرر[4].

وحين علم النبيّ ﷺ بما كان بين أبي عُبَيْدة وعمرو من اختلاف، قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله أبا عبيدة بن الجرّاح»[5]

---

(١) الآية الكريمة من سورة النساء (٤: ٢٩).

(٢) مغازي الواقدي (٢/٧٦٩-٧٧٤) وانظر طبقات ابن سعد (٢/١٣١) وسيرة ابن هشام (٤/٢٩٨) والطبري (٣/٣٢-٣٣) وابن الأثير (٢/٢٣٢) والمحبّر (١٢١) وأنساب الأشراف (١/٣٨٠-٣٨١) وجوامع السيرة (٢٠) وتاريخ خليفة بن خياط (١/٤٨) وعيون الأثر (٢/١٥٧).

(٣) السيرة الحلبية (٣/٢٧٣) وتاريخ الخلفاء للسيوطي (٧٢).

(٤) مغازي الواقدي (٢/٧٧٤).

(٥) مغازي الواقدي (٢/٧٧٣).

تقديراً لموقف أبي عبيدة السليم وتصرّفه الحكيم.

وقد أثبت عمرو في هذه السريّة، أنّه قائد مكيِّث غير متهوّر، متين الضبط قويّ الشخصية، يهتم بأمن رجاله كثيراً، فهو يقاتل كثيراً، فهو يقاتل بسيفه كما يقاتل بعقله بمهارة فائقة، لهذا استطاع تحقيق نتائج باهرة في سريته، فنال إعجاب النبيّ ﷺ وتقديره.

٣ - هدم سُوَاع[١] وفي الغزوات

أ. بعث النبيّ ﷺ في شهر رمضان سنة ثمانٍ الهجرية، حين فتح مكة عمرو بن العاص قائداً لسرية واجبها هدم سُواع صنم هُذَيْل. قال عمرو: «فانتهيت إليه وعنده السّادن، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه، فقال: لا تقدر على ذلك، فقلت: لِمَ؟ فقال: يُمْنع! فقلت: حتى الآن أنت في الباطل! ويحك، هل يسْمع أو يُبْصر! فدنوت منه فكسرته، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا فيه شيئاً، ثمّ قلت للسّادن كيف رأيت؟! فقال: أسلمت لله»[٢].

ب - وكان عمرو قد شهد غزوة الفتح مع رسول الله ﷺ، فقاد سريّته بعد الفتح - فتح مكة المكرمة الذي كان في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجريّة - لهدم سُواع، فنهض بمهمته على أحسن وجه، وأدّى واجبه على ما يرام، ثم عاد الى مكة المكرمة.

وشهد عمرو مع النبيّ ﷺ غزوة حُنَيْنٍ التي كانت في شوّال من السنة الثامنة الهجرية، فلما هرب المشركون وتفرّقوا في كلِّ وجه، بعث رسول الله ﷺ نفراً من أصحابه في الطّلب (المطاردة، فبعث خالد بن

---

(١) سواع: صنم كان برهاط من أصل ينبع، كان سدنته بنو لحيان، انظر كتاب الأصنام للكلبيّ(٩).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/١٤٦) ومغازي الواقدي (٢/٨٧٠).

الوليد في وَجْهٍ، وبعث عمرو بن العاص في وَجْهٍ، وبعث غيرهما في وجوهٍ أخرى[1].

وشهد عمرو مع النبيّ ﷺ حصار مدينة الطّائف الذي كان في شهر شوّال من السنة الثامنة الهجرية أيضاً بعد غزوة حُنَيْن مباشرة، فلما ثبت بنو ثَقِيف، أمر النبيّ ﷺ بالرّحيل عن الطائف، فأثنى عُيَيْنَة بن حِصْن[2] على ثبات ثَقِيف قائلاً عنهم: «مَجَدَةٌ كِرام» فقال عمرو: «قاتلك الله، تمدح قوماً مشركين بالامتناع من رسول الله ﷺ وقد جئت تنصره؟!»[3].

وهكذا نال عمرو شرف الجهاد تحت لواء النبيّ ﷺ.

٤. السّفير إلى عُمَان[4].

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في شهر ذي القعدة سنة ثمانٍ الهجريّة إلى جَيْفَر وعَبْدٍ ابْنَيّ الجُلُنْدَيّ[5]، وهما من الأَزْد، والملك منهما جَيْفر، يدعوهما إلى الإسلام، وكتب معه إليهما كتاباً، وختم الكتاب. قال عمرو: «فلما قدمتُ عُمَان، عمدت إلى عَبْدٍ، وكان أحلم الرّجلين وأسهلهما خلقاً، فقلت: إني رسول رسول الله ﷺ، إليك وإلى أخيك، فقال:

---

(١) مغازي الواقدي (٨١٠/٢).

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة النبيّ ﷺ.

(٣) مغازي الواقدي (٩٣٧/٣).

(٤) عمان: كورة باليمن، وهي على ساحل بحر اليمن والهند، تشمل على بلدان كثيرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢١٥/٦).

(٥) أ. انظر سيرة جيفر في أسد الغابة (٣١٣/١) والإصابة (٢٧٦/١-٢٧٧).
ب - انظر سيرة عبد في: أسد الغابة (٣٣٤/٣) والإصابة (١٠٠/٥) وورد اسمه في ابن الأثير (٢٧٢/٢) عياذ وكذلك في جوامع السيرة (٢٩)، وما جاء في أعلاه هو الصواب، لإجماع المصادر المعتمدة كافة عليه.
جـ. انظر البلاذري (١٠٤) عن سفارة عمرو إليهما.

أخي المقدَّم عليّ بالسنّ والمُلْك، وأنا أُوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، فمكثت أياماً ببابه، ثمّ إنّه دعاني فدخلت عليه، فدفعت الكتـاب إليه مختوماً، ففضّ خاتمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلاّ أني رأيت أخاه أرقّ منه، فقال: دعني يومي هذا وارجع إليّ غداً، فلما كان الغد رجعت إليه، قال: إني فكّرتُ فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إذا ملّكت رجلاً ما في يديّ! قلت: فإني خارج غداً. فلما أيقن بمخرجي أصبح فأرسل إليّ، فدخلت عليه، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وصدّقا بالنبي ﷺ، وخلّيا بيني وبين الصّدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على مَنْ خالفني، فأخذت الصّدقة من أغنيائهم فرددتها على فقرائهم، فلم أزل مقيماً حتى بلغنا وفاة رسول الله ﷺ»[1]، إذ ولاّه النبيّ ﷺ على عُمَان وأعمالها[2]، فعاد إلى المدينة المنورة بعد انتقال النبيّ ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى[3].

وهكذا استطاع عمرو أن يضمّ عدداً ضخماً من العرب إلى الإسلام، وأن يضمّ بلاداً شاسعة إلى بلاد المسلمين.

---

(١) طبقات ابن سعد (١/٢٦٢-٢٦٣) وانظر المحبّر (٧٧) وابن الأثير (٢/٢٧٢) وجوامع السيرة (٢٩)، وفي مغازي الواقدي (٣/٩٧٣): لما رجع رسول الله ﷺ من الجِعِرَّانة، قدم المدينة يوم الجمعة لثلاث ليالٍ بقين من ذي القعدة سنة ثمان الهجرية، فأقام بقية ذي القعدة وذي الحجة، فلما رأى هلال المحرم من سنة تسع الهجرية بعث المصدِّقين، فبعث عمرو بن العاص إلى فزارة» وهذا الخبر لا تؤيده المصادر المعتمدة كافة، انظر مثلاً سيرة ابن هشام (٤/٢٧١) والطبري (٣/١٤٧)، كما أنه ليس من المعقول أن يوفد عمرو إلى عمان في ذي القعدة سنة ثمان، ثم يوفده بعد شهر عاملاً على الصدقة، لأن شهراً واحداً لا يكفي للرحيل إلى عمان والعودة منها، وقد ثبت أنه بقي في عمان عاملاً عليها.

(٢) جوامع السيرة (٢٤) وأنساب الأشراف (١/٥٢٩).

(٣) ابن الأثير (٢/٣٥٢).

لقد نال عمرو، شرف الصّحبة، وشرف الجهاد تحت لواء النبيّ ﷺ وشرف قيادة بعض فصائله التّعْبَويّة، وشرف قيادة قسم من سراياه، وكان أحد سفرائه، وأحد عماله أيضا وأحد عماله على الصدقة.

في ميدان الجهاد

١. في حرب الرِدَّة

مات النبيّ ﷺ، وعمرو عاملاً لرسول الله ﷺ على عُمَان، فأقبل بعد التحاقه عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى حتى انتهى إلى البَحْرين، فوجد المُنذِر بن سَاوَى[1] في الموت. وخرج عمرو عن البحرين إلى بلاد بني عامِر، فنزل بِقُرَّة بن هُبَيْرة[2]، وقُرَّة يقدِّم رجلاً ويؤخِّر أخرى إلى الرِدّة ومعه عسكر من بني عامِر، فذبح له وأكرم مثواه فلما أراد عمرو الرّحيل عن ديار قُرَّة، خلا به قُرَّة وقال: «يا هذا! إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة، فإن أعفيتموها من أخذ أموالها، فتسمع لكم وتُطيع! وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم!»، فقال له عمرو: «أكفرت يا قُرَّة؟! أتخوِّفنا بالعرب؟ فوالله لأُوطئنّ عليك الخيل في حِفْش»، والحفْش بيت تنفرد به النّفساء[3].

ومرَّ عمرو في طريق عودته من عُمان إلى المدينة بمُسَيْلَمَة الكَذَّاب، فأعطاه الأمان، فقال له عمرو: «أعرض لي ما تقول»، فذكر مسيلمة

---

(١) انظر سيرته في: أسد الغابة (٤/٤١٧) والإصابة (٦/١٣٨).

(٢) قرّة بن هبيرة: أحد الوجوه الذين وفدوا على النبيّ ﷺ، فأسلم ثم ارتد بعد وفاة النبيّ ﷺ، فأسره خالد بن الوليد، وبعث به موثقاً إلى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، فاعتذر أنّه خاف مسيلمة الكذّاب على ولده وماله، فأنه لم يرتد إلا في الظّاهر، فعفا عنه أبو بكر، انظر الإصابة (٥/٢٣٨).

(٣) ابن الأثير (٢/٣٦٠).

بعض كلامه، فقال عمرو: «والله إنّك لتعلم أنّك من الكاذبين فتوعّده مسيلمة[1].

وقدم عمرو على المسلمين بالمدينة فأخبرهم بما رآه وسمعه في طريق عودته من عمان إلى المدينة، وكان ممّا أخبرهم به أنّ العساكر معسكرة من (دَبَا)[2] إلى المدينة، فتفرّقوا وتحلقوا حلقاً وأقبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يريد التسليم على عمرو، فمرّ على حلقةٍ فيها عليّ بن أبي طالب وعثمان بن عفّان وَطَلْحَة بن عُبيد الله والزُّبير بن العوَّام وعبدالرحمن بن عَوْف وسَعْد بن أبي وقاص، رضي الله عنهم، فلما دنا عمر منهم سكتوا، فقال: «فيْم أنتم؟»، فلم يجيبوه. فقال لهم: «إنكم تقولون: ما أخوفنا على قريش من العرب!»، قالوا: صدقت! قال: «فلا تخافوهم، أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم، والله لو تدخلون، معاشر قريش، جحْراً لدخلته العرب في آثاركم، فاتّقوا الله فيهم»، ومضى عمر.

فلما قدِم بقُرَّة بن هُبَيْرة على أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه أسيراً، استشهد بعمرو على إسلامه، فأحضر أبو بكر عَمْراً فسأله، فأخبره بقول قُرَّة إلى أن وصل إلى ذكر الزّكاة، فقال قُرَّة: «مهلاً يا عمرو!» فقال: «كلاّ، والله لأخبرنّه بجميعه»، فعفا أبو بكر عنه وقبل إسلامه[3].

ولما عقد أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه أحد عشر لواءً لقادة حرب أهل الردّة، عقد لواءً لعمرو، وأرسله إلى قُضاعة[4]، ففصلت الأمراء

---

(١) الإصابة (٥/٢٣٩).

(٢) دبا: سوق من أسواق العرب بعُمان، وهي مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب وأخبارها وأشعارها، وكانت قديماً قصبة عُمان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣٠-٣١).

(٣) ابن الأثير (٢/٣٥٣) والبلاذري (١٣٥).

(٤) الطبري (٣/٢٤٩) وابن الأثير (٢/٣٤٦).

من (ذي القَصَّة)[1] ولحق بكلِّ أمير جنده، وعهد إلى كلِّ أمير، وكتب إلى جميع المرتدين نسخة واحدة يأمرهم بمراجعة الإسلام ويحذِّرهم، وسير الكتب إليهم مع رسله[2].

وكانت قُضاعة قد ارتدت بعد التحاق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى، وكان عمرو قد حاربها في حياة النبيّ ﷺ في سرية ذات السَّلاسل كما ذكرنا ذلك، فلما أنفذ أبو بكر إلى قُضاعة بقيادة عمرو، سار عمرو على رأس جيشه في الطريق الذي سلكه من قبل حتى وصل إلى بلاد قضاعة، فأعمل السّيف في رقابهم، وغلبهم على أمرهم، فعادوا إلى الإسلام، وعاد عمرو إلى المدينة المنورة حاملا لواء النصر، وكان ذلك في السنة الحادية عشرة الهجرية.

ولا نعرف شيئاً عن تعْداد جيش عمرو، ولا عن تعداد مقاتلي قُضاعة، ولا عن خطّة عمرو في حرب المرتدين من قضاعة، ويبدو أنّ التفوق العددي كان إلى جانب المرتدين، ولكن جيش عمرو كان منظماً له هدف واضح، وتسيطر عليه عقيدة واحدة وقيادة واحدة، والجيش المنظم القليل الذي يتحلّى بالعقيدة الراسخة التي تشيع الانسجام الفكري في صفوفه، ينتصر دوماً على الجيش الكبير غير المنظّم الذي لا يتحلى بالعقيدة ويخلو من الانسجام الفكري.

لقد كان موقف عمرو في حرب الرِدّة متميِّزاً.

---

(١) ذو القصّة: موضع على بريد من المدينة تلقاء نجد، انظر معجم البلدان (١١٤/٧).

(٢) الطبري (٢٤٩/٣) وابن الأثير (٣٤٦/٢) وانظر نص كتاب أبي بكر في الطبري (٢٤٩/٣-٢٥٢) الموجّه الى المرتدين.

٢. في أرض الشّام(١)

أ. ردّ أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه عمرو بن العاص إلى عمله الذي كان رسول الله ﷺ ولّاه إياه في عُمَان، فلما أراد إرسال الجيوش لفتح أرض الشام، كتب إلى عمرو: إني كنت قد رددتك على العمل الذي ولّاك رسول الله ﷺ مرة ووعدك بـه أخرى إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ، وقد وليته. وقد أحببتُ أن أفْرغك لما هو خير لك في الدنيا والآخرة، إلاّ أن يكون الذي أنت فيه أحبّ إليك».

ولما تسلّم عمرو رسالة أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وكان يومئذٍ أميراً على عُمان كتب إلى أبي بكر جواباً على كتابه: «إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدّها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي»(٢).

وبدأ أبو بكر بحشد العرب، وأمر عمراً أن يجمع العرب، فأرسل أبو بكر إلى عمرو بعض مَن اجتمع إليه، وأمّره على فِلَسْطين، وأوصاه بهذه الوصية: «اتَّقِ الله في السرّ والعلانية، فإنه مَنْ يَتّقِ الله يجعلْ له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب ومنْ يتّق الله يُكفِّرْ عنه سيِّئَاته ويُعظم له أجراً، فإن تقوى الله خير ما تَواصى به عباد الله. إنك في سبيل من سُبل الله، لا يَسَعك فيه الأذهان(٣) والتفريط والغفلة عمّا فيه قِوام دينكم وعصمة أمركم، فلا تنِ ولا تفتر»(٤)، وكان عقد لواء

---

(١) أرض الشام: ما نطلق عليه اليوم سورية ولبنان والأردن وفلسطين، غربيها بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وشرقيها البادية من (أيلة) إلى الفرات، ثم من الفرات إلى حدود الروم، وشمالها بلاد الروم، وجنوبيها حد مصر وتيه بني إسرائيل، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٤٣).

(٢) الطبري (٣٨٩/٣) وابن الأثير (٤٠٣/٢).

(٣) يقال: ذهن عن الشيء: أنساه اياه وألهاه عنه، ومثله أذهنه.

(٤) الطبري (٣٩٠/٣).

عمرو في يــوم الخميس لمستهلّ شهر صفر من سنة ثلاث عشرة الهجرية[١].

وأمر أبو بكر عَمْراً أن يسلك طريق (أَيْلَة)[٢] عامداً لِفِلَسْطين، وكان العقد لكلِّ أمير من أمراء الشّام في بدء الأمر ثلاثة آلاف رجل، فلم يزل أبو بكر يتبعهم الامداد حتى صار مع كلِّ أمير سبعة آلاف وخمسمائة[٣]، وكان جيش عمرو مؤلفاً من أهل مكّة والطائف وَهَوازِن وبني كِلاَّب. وقال أبو بكر لعمرو: «قد وليّتك هذا الجيش، فانصرف إلى أرض فِلَسْطين، وكاتب أبا عُبَيْدة وانجده إذا أرادك، ولا تقطع أمراً إلاّ بمشورته»، فأقبل عمرو على عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ،وقال له: «يا أبا حَفْص! أنت تعلم شدّتي على العدو وصبري على الحرب، فلو كلّمتَ الخليفة أن يجعلني أميراً على أبي عبيدة، وقد رأيت منزلتي عند رسول الله ﷺ، وإني لأرجو أن يفتح الله على يديّ البلاد ويهلك الأعداء»، فقال عمر بن الخطّاب: «ما كنتُ بالذي أكَلِّمه في ذلك، فإنه ليس على أبي عبيدة أمير، ولأبو عبيدة أفضل منزلة منك وأقدم سابقة منك، والنبيّ ﷺ قال فيه: أبو عبيدة أمين الأمة»، فقال عمرو: «ما ينقص من منزلتـه إذا كنت والياً عليه؟!»، فقال عمـر: «ويلك يا عمرو! إنّك ما تطلب بقولك هذا إلاّ الرياسة والشرف، فاتق الله ولا تطلب إلاّ شرف الآخرة ووجه الله تعالى»، فقال عمرو: «إن الأمر كما ذكرت»[٤].

---

(١) البلاذري (١٤٩).

(٢) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وهي آخر الحجاز وأوّل الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٩١).

(٣) البلاذري (١٥٠).

(٤) فتوح الشام للواقدي (١/٨) وانظر وصيّة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه في نفس المصدر (١/٨-٩).

وولّى أبو بكر الأُردن شُرَحْبِيْل بن حسَنَة[١]، ويزيد بن أبي سفيان[٢] دِمشق، وقال للأمراء: «إذا اجتمعتم على قتال فأميركم أبو عبيدة عامِر ابن عبد الله بن الجرّاح الفِهْريّ، وإلاّ فيزيد بن أبي سفيان»، وقال: «إذا كان بكم قتال، فأميركم الذي تكونون في عمله»[٣]، أي إذا كان القتال في فلسطين، كان القائد العام عمرو، لأنّه قائد فلسطين، وإذا كان القتال في الأُردن، كان القائد العام هو شرحبيل.. وهكذا.

أما إذا اجتمع القادة في مكان واحد، فالقائد العام هو أبو عبيدة.

ولما وصل الأمراء أرض الشام، نزل عمرو (العَرَبة)[٤]، فبلغ الرّوم ذلك، فكتبوا إلى هِرَقْل وكان بالقُدْس، فقال: «أرى أن تصالحوا المسلمين، فوالله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشّام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الرّوم، فتفرقوا عنه وعصوه، فجمعهم وسار بهم إلى حِمْص، فنزلها، وأعدّ الجنود والعساكر وأراد إشغال كلّ طائفة من المسلمين بطائفة من عسكره لكثرة جنده، لتضعف كلّ فرقة من المسلمين عمّن بإزائه، فأرسل تَذَارِق أخاه لأمه وأبيه في تسعين ألفاً، وبعث قادته الآخرين مع قواتهم ليكون كل قائد منهم بمواجهة أحد قادة المسلمين، فهابهم المسلمون، وكتبوا إلى عمرو يسألونه الرأي، فأجابهم: «إن الرأي لمثلنا الاجتماع، فإن مثلنا إذا اجتمعنا لا نُغْلَب من قِلّة، فإن تفرّقنا لا يقوم كلّ فرقة له بمن استقبلها، لكثرة عدوِّنا». وكتب أمراء المسلمين في أرض الشام إلى أبي بكر الصديق يسألونه الرأي

---

(١) انظر سيرته المفصّلة: في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (١١٣-١١٩).

(٢) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٩٩-١٠٧).

(٣) البلاذري (١٥٠).

(٤) العربة: موضع في أرض فلسطين انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/١٣٨)، وهي قرب مدينة العقبة في الأردن حالياً.

أيضاً، فأجابهم مثل جواب عمرو وقال: «إن مثلكم لا يؤتى من قِلَّة، وإنما يؤتى العشرة آلاف من الذنوب، فاحترسوا منها، فاجتمعوا باليَرْموك متساندين، وليُصلِّ كلّ واحد منكم بأصحابه»[١].

وباجتماع جيوش المسلمين في اليرموك، فَوَّتُوا على الرُّوم فرصة ضرب كل جيش من جيوشهم على انفراد، دون أن تستطيع تلك الجيوش التعاون الوثيق بينها كما ينبغي.

واجتمع المسلمون باليرموك والرُّوم كذلك، فنزل الرّوم (الوَاقُوْصَة)[٢] وهي على ضفة اليرموك، وصار الوادي خندقاً لهم، وهو لِهْبٌ[٣] لا يُدْرك، وإنما أراد قائد الروم يستثبث الرّوم ويأنسوا بالمسلمين وترجع إليهم أفئدتهم طِيَرَتها، فقد كانت معنويات الروم منهارة.

وانتقل المسلمون عن معسكرهم الأول، ونزلوا بحذاء الروم على طريقهم، وليس للروم طريق إلاّ على المسلمين، فقال عمرو: «أيها الناس! أبشروا حُصرت الرّوم، وقلما جاء محصور بخير»[٤].

وأقام المسلمون بإزاء الرّوم أواخر شهر صفر وشهْرَي ربيع، لا يقدرون من الروم على شيءٍ، ولا يخلصُون إليهم: الواقوصة من ورائهم، والخندق من أمامهم، ولا يخرجون خرجةً إلاّ أديل المسلمون منهم[٥]، حتى إذا سلخوا شهر ربيع الأول من سنة ثلاث عشرة الهجرية،

---

(١) الطبري (٣/٣٩٢-٣٩٣) وابن الأثير (٢/٤٠٦).

(٢) الواقوصة: وادٍ بالشام في أرض حوران على اليرموك، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٨٩).

(٣) لِهْب: بالكسر، الفرجة بين جبلين.

(٤) الطبري (٣/٣٩٣) وابن الأثير (٢/٤٠٧).

(٥) يقال: أديل لنا على أعدائنا، أي نصرنا عليهم وكانت الدولة لنا.

استمدوا أبا بكر في شهر صفر، فكتب إلى خالد بن الوليد ليلحق بهم، ويأمره بالمسير إليهم وبالحث وأن يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المُثنى بن حارثة الشيباني[1] ولا يأخذن مَنْ فيه نجدة إلاّ ويترك عند المثنى مثله، وإذا فتح الله عليهم رجع خالد وأصحابه إلى العراق.

ولما تكامل جمع المسلمين باليرموك، خرج الروم للقتال في جمادى الآخرة، فأراد المسلمون الخروج لقتال الروم متساندين، واقترح خالد لتحقيق تساند المسلمين أن يتولّى الأمراء الإمارة بالتعاقب، وأن يسمحوا له بتولي القيادة العامة أولاً، فأمّروه وهم يرون أنّها لن تطول.

وخرج الروم في تعبية لم يرَ الراؤون مثلها قط، وخرج خالد في تعبية لم تُعبِّها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كُردوساً[2] إلى الأربعين: فجعل القلب كراديس وأقام عليها أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشُرَحبيل بن حسنة، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان، وجعل على كل كردوس رجلاً من الشجعان[3]، فكان لعمرو أثر كبير في انتصار المسلمين على الرّوم في هذه المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب أرض الشام للفاتحين المسلمين.

وشهد عمرو فتح دِمَشق بقيادة أبي عبيدة بن الجرَّاح، فنزل بجيشه

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: فتح العراق والجزيرة (٢٧-٥٠).

(٢) كراديس: مفردها كردوس، وهو كتلة من الجنود يتألّف من ألف مقاتل. وينقسم الكردوس إلى أجزاء عشرية: العريف يقود عشرة رجال، وآمر الأعشار يقود مائة رجل، ولكل كردوس قائد له راية، ولعلّ كلمة كردوس معرّبة عن كلمة (كورتيس) الرومانية، انظر كتاب الجندية في الدولة العباسية (٢٥٤) وفي اللغة، الكردوس: القطعة العظيمة من الخيل، ويقال: كردس القائد خيله، أي جعلها كتيبة منه.

(٣) الطبري (٣/٣٩٣-٣٩٧) وابن الأثير (٢/٤٥٧-٤١١).

في ناحية باب (تُوما)[١] أحد أبواب دمشق[٢]، وكان فتح دمشق سنة ثلاث عشرة الهجرية[٣].

ولما فتحت دمشق، سار أبو عبيدة إلى (فِحْل)[٤]، واستخلف على دمشق يزيد بن أبي سفيان، وبعث خالداً على المقدّمة، وعلى الناس شُرَحْبِيل بن حَسَنة، وكان على المجنبتين أبو عبيدة وعمرو بن العاص، فانتصر المسلمون على الروم أيضاً[٥]، وكان لعمرو أثر كبير في إحراز هذا الانتصار، وقد دارت هذه المعركة سنة ثلاث عشرة الهجرية[٦].

وسبب تولي شرحبيل القيادة العامة في هذه المعركة، هو أنّه كان قائد منطقة الأُردن، والمعركة جرت في منطقته، فهو يتولى القيادة العامة تنفيذاً لأوامر أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه، التي أصدرها لقادة فتح أرض الشام التي مرّ ذكرها.

وشهد عمرو مع شُرَحْبِيْل فتح (بَيْسَان)[٧] و (طَبَرِيَّة)[٨] وصالحا أهل الأُردن[٩].

---

(١) البلاذري (١٦٥٦).

(٢) معجم البلدان (١٤/٢).

(٣) الطبري (٤٣٤/٣) وابن الأثير (٤٢٧/٢) وفي البلاذري (١٦٥) انها فتحت سنة أربع عشرة الهجرية.

(٤) فحل: اسم موضع بأرض الشام انظر معجم البلدان (٣٤٠/٦) وهي بالأردن قرب بيسان.

(٥) ابن الأثير (٤٢٩/٢).

(٦) الطبري (٣٣٤/٣).

(٧) بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٣١/٢)، وتقع عبر الأردن في الضفة الغربية منه.

(٨) طبريّة: بلدة مطلّة على البحيرة المعروفة باسمها في طرف جبل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٣/٦)، وهي بلدة فلسطينية معروفة.

(٩) الطبري (٤٤٣/٣) وابن الأثير (٤٣١/٢) ومعجم البلدان (٢٣/٦).

ب. وعلم عمرو أن الرّوم حشدوا جيوشهم وعلى رأسها قائد فلسطين للرُّوم أرطبون (أريطيون) في (أَجْنَادِيْن)[1]، فسار عمرو ومعه شُرَحْبِيْل ابن حسنَة واستخلف على الأردن أبا الأعور السُّلَميّ[2]، وكان الأرطبون أدهى الرّوم وأبعدها غوراً، وكان قد وضع بـ(الرَّملة)[3] جنداً عظيماً وبـ(إيْلِيَاء)[4] جنداً عظيماً أيضاً، فلما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخبر قال: «رمينا أرطبون الرّوم بأرطبون العرب - يريد عَمْراً - فانظروا عمّا تنفرج». وكان معاوية بن أبي سفيان قد شغل أهل (قَيْسَارِيّة)[5] عن عمرو، كما جعل عمرو على قتال إيلياء عَلْقَمَة بن حكِيْم الفِراسِي[6] ومَسْرُوق العَكّيّ[7]، فشغلوا مَن به عنه، وجعل أيضاً أبا أيّوب المالكيّ[8] على مَنْ بالرَّمْلَة من الرُّوم، فشغلهم عنه، وشاغل هؤلاء القادة المسلمون القوات الرُّوميَّة عن قوات عمرو الأصليَّة.

---

(١) اجنادين: موضع معروف بنواحي فلسطين قريب من الرملة، انظر معجم البلدان (١٢٦/١).

(٢) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (١٦٩ - ١٧٣).

(٣) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين، بينها وبين القدس ثمانية عشر ميلاً، انظر معجم البلدان (٢٨٦/٤).

(٤) إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس، انظر معجم البلدان (٣٩٢/١).

(٥) قيساريّة: بلد على ساحل بحر الشام بفلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، انظر معجم البلدان (١٩٥/٧).

(٦) علقمة بن حكيم الفراسي: أدرك النبي ﷺ، وشهد اليرموك، وجهه أبو عبيدة من مرج الصفر مسلحة بين دمشق وفلسطين، استعمله عمر بن الخطّاب على الرّملة واستعمله عمرو بن العاص على قتال إيلياء، انظر الإصابة (١١٢/٥٥).

(٧) مسروق العكّيّ: أدرك النبي ﷺ، وليست له رواية ولا رؤية، شهد اليرموك أميراً على كردوس من الكراديس، وبعثه أبو عبيدة مسلحة بين دمشق وفلسطين، انظر الإصابة (٨٨/٦).

(٨) أبو أيوب المالكي: أدرك النبي ﷺ وشهد فتوح الشام، أمّره عمرو بن العاص على جيش لقتال الروم، انظر الإصابة (١٣/٧).

وأقام عمرو على أَجْنَادِيْن، لا يقدر على الأرطبون، ولا تشفيه الرُّسل، فسار إليه بنفسه، ودخل عليه كأنّه رسول، ففطن به الأرطبون، وقال: «لا شكَّ أنَّ هذا هو الأمير أو مَنْ يأخذ الأمير برأيه»، فأمر رجلاً أن يقعد على طريقه ليقتله إذا مرَّ به. وفطن عمرو إلى غدر الأرطبون، فقال: «قد سمعت مني وسمعتُ منك، وقد وقع قولك مني موقعاً، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكانفه[1] ويشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن، فإن رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى، فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمرك»، فقال الأرطبون: «نعم»، وردّ الرجل الذي أمره بقتل عمرو. وخرج عمرو من عند الأرطبون، فعلم الرّوم بأن عَمْراً خدعه، فقال: «خدعني الرّجل! هذا أدهى الخلق!!».

وبلغت خديعة عمرو مسامع عمر بن الخطّاب، فقال: «لله درّ عمرو!».

وعرف عمرو من استطلاعه الشخصيّ هذا الذي ذكرناه، نقاط الضعف ومواطن القوّة، في مواضع الرّوم، فهاجم جيش الرّوم في أجْنَادين واشتبك معهم في قتال مرير كقتال يوم اليرموك، حتى كثرت القتلى بين الطرفين، ولكن الأرطبون انهزم فآوى إلى مدينة (إِيْلِيَاء)، وأفرج المسلمون الذين يحصرون بيت المَقْدِس لأرطبون ومَنْ معه المنهزمين، فدخل إيلياء، وأزاح المسلمين عنه إلى عمرو في أجنادين، حيث استقرّ عمرو ومَنْ معه من المسلمين في هذه المدينة للاستعداد لقتال جديد، وانضمّ عَلْقَمَة بن حكيم ومسروق العكّيّ وأبو أيوب المالكي

---

(١) لنكانفه: لنعاونه.

ومَنْ معهم من قوات ثانويّة إلى قوات عمرو الأصليّة في أجنادين[1] ، وكان ذلك سنة خمس عشرة الهجريّة[1] .

ولما دخل الأرطبون مدينة إيْلياء (بيت المقدس)، فتح عمرو (غزّة)[2] و (سَبَسْطِيَــة)[3] و (نَــابُلُس)[4] و (اللُّــد)[5] و (يَبْنَــى)[6] و (عَمْواس)[7]، و (بَيْتِ جبْرِين)[8] و (يافا)[9] و (رَفَح)[10]، كما فتح (مَرْج عُيُون)[11].

وقدم أبو عبيدة على عمرو وهو محاصر بيت المَقْدِس، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطّاب: «إني أُعالج عدواً شديداً وبلاداً قد ادَّخرت لك،

---

(١) الطبري (٦٠٥/٣ - ٦٠٧) وابن الأثير (٤٩٨/٢) وانظر البدء والتاريخ (١٨٥/٥).

(٢) غزّة: مدينة في أقصى أرض الشّام من ناحية مصر، من نواحي فلسطين غربي عسقلان، بينها فرسخان، انظر معجم البلدان (٢٨٩/٦).

(٣) سبسطية: بلدة بنواحي فلسطين، بينها وبين القدس يومان، وهي من أعمال نابلس، انظر معجم البلدان (٢٩/٥).

(٤) نابلس: مدينة مشهورة بفلسطين تقع بين جبلين، بينها وبين القدس عشرة فراسخ، انظر معجم البلدان (٢٣٢/٨).

(٥) اللّد: قرية قرب بيت المقدس بفلسطين، انظر معجم البلدان (٣٢٦/٧)، وقد أصبحت اليوم بلدة كبيرة.

(٦) يبني: بليد قرب الرّملة، انظر معجم البلدان (٤٩٦/٨).

(٧) عَمواس: هي كورة بفلسطين بالقرب من القدس، على ستة أميال من الرملة على طريق القدس، انظر معجم البلدان (٢٢٥/٦).

(٨) بيت جبرين: بليد بين القدس وغزّة، بينه وبين القدس مرحلتان، وبينه وبين غزّة أقرب من ذلك، انظر معجم البلدان (٣٢١/٢).

(٩) يافا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين، بين قيساريّة وعكا، انظر معجم البلدان (٤٩٢/٨).

(١٠) رفح: منزل في طريق مصر بعد الداروم، بينه وبين عسقلان يومان، انظر معجم البلدان (٢٦٦/٤).

(١١) مرج عُيُون: موقع بسواحل الشّام، انظر معجم البلدان (١٦/٨).

فرأيك؟ »، فعلم عمر أنّ عَمْراً لم يقل ذلك إلاّ بشيءٍ سمعه، فسار عمر عن المدينة.

وقيل: كان سبب قدوم عمر بن الخطاب إلى الشام، أنّ أبا عبيدة حصر بيت المقدس، فطلب أهلها منه أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشّام، وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطّاب، فكتب إليه بذلك، فسار عمر عن المدينة، واستخلف عليها علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وسار عمر بن الخطّاب، فقدم (الجَابيَة)[١]، وكان المدافعون عن بيت المقدس قد شجوا عَمْراً وأشجاهم، ولم يَقْدِر عليها ولا على (الرَّمْلَة)[٢].

وقدم قسم من أهل بيت المقدس إلى عمر في الجابية، وصالحوه على الجزية وفتحوها له، وكان الذي صالحه العَوَامُ، لأنّ الأرطبون هرب إلى مصر. وأرسل عمر بن الخطاب إلى أهل بيت المقدس والرّملة: بالأمان، وجعل عَلْقَمة بن حكيم على نصف فلسطين وأسكنه الرَّملة، وجعل عَلْقَمة ابن مُجَزِّز[٣] على نصفها الآخر وأسكنه بيت المقدس، فنزل كلّ واحد في عمله في الجنود التي معه، وضمَّ عمراً وشُرَحْبِيل إليه بالجابية، فلما انتهيا إلى الجابية، وافقا عمر بن الخطاب راكباً، فقبّلا ركبتيه وضمّ عمر كلّ واحد منهما مُحْتَضِنا[٤]، وكان هذا الفتح سنة خمس عشرة الهجرية[٥] وقيل: سنة ست عشرة الهجرية[٦]، والأول أصوب.

---

(١) الجابية: قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان في شمالي حوران، انظر معجم البلدان (٣/٣٣).

(٢) الرّملة: مدينة عظيمة بفلسطين، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٨٦).

(٣) علقمة بن مجزّز: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح النبي ﷺ.

(٤) البلاذري (١٨٨ - ١٨٩).

(٥) الطبري (٣/٦٠٧).

(٦) ابن الأثير (٢/٥٠٠).

وكان نصّ معاهدة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أهل بيت المقدس، والذي كان عمرو أحد الشهود على الوثيقة:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبَريئها وسائر ملّتها، أنّه لا تُسكت كنائسهم ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيّزِها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطُوا الجزية كما يُعطِي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الرُّوم واللّصوت[١]، فمن خرج منهم فإنه آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزْية، ومَنْ أحبّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الرُّوم ويخلّي بِيَعهم وصُلُبهم فإنّهم آمنون على أنفسهم وعلى بيَعهم وصُلُبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومَنْ كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومَنْ شاء سار مع الرُّوم، ومَنْ شاء رجع إلى أهله، فإنّه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمّة رسوله وذمّة الخلفاء وذمّة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبدالرحمن بن عوف[٢]، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة[٣] الهجرية.

---

(١) اللصت مثل اللص: السارق، جمعه لصوت.

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة النبي ﷺ.

(٣) الطبري (٣/٦٠٩)، وانظر مجموعة الوثائق السياسية (٣٤٥ - ٣٤٦).

وحاصر عمرو (قَيْسَارِيّة) بعد فتح بيت المقدس، ولكنّه خرج إلى مصر: فتولّى فتحها معاوية بن أبي سفيان[1].

وقد نقض أهل طَبَريّة العهد الذي كان شُرَحْبِيْل بن حَسَنَة قد عقده معهم بعد فتح مدينتهم صلحاً، وكان نقضهم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذ اجتمع مع أهل طبريّة قوم من الرّوم وغيرهم، فأمر أبو عبيدة بغزوهم عمرو بن العاص، فسار إليهم في أربعة آلاف، فاستعاد فتحها على مثل صلْح شُرَحْبَيْل، ويقال: بل فتحها شُرحبيل ثانية[2].

لقد شهد عمرو أكثر معارك فتح أرض الشّام، كما كان فتح أكثر فلسطين على يديه، وأبلى في فتوح أرض الشّام أحسن البلاء.

٣. في فتح مصر

أ. كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو حين فرغ من الشّام كلّها أن يسير إلى مصر بِجُنْدِهِ[3].

وفي رواية، أنّ عمرو بن العاص كان يحاصر قَيْسَاريّة، فاستخلف عليها ابنه ومضى إلى مصر من تِلْقاء نفسه في ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل من المسلمين، فغضب عمر بن الخطّاب لذلك، وكتب إليه يوبِّخه ويعنِّفه على افتتانه عليه برأيه، وأمره بالرجوع إلى موضعه إن وافاه كتابه دون مصر، فورد الكتاب عليه وهو بـ (العَرِيْشْ)[4]. وقيل أيضاً: إن

---

(١) البلاذري (١٩١).

(٢) البلاذري (١٥٩ - ١٦٠).

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (١/١١٤) والطبري (٤/١٠٤) وابن الأثير (٢/٥٦٤) والبداية والنهاية (٧/٩٧).

(٤) العريش: أوّل مدينة مصرية من ناحية الشّام على ساحل بحر الروم وسط الرّمل، انظر معجم البلدان (٦/١٦٢).

عمر بن الخطّاب كتب إلى عمرو يأمره بالشّخوص إلى مصر، فوافاه كتابه وهو محاصر قَيْسَارِيَة[١].

وفي رواية، أن عمر بن الخطاب أقام بإيلياء (بيت‌المقدس) بعدما صالح أهلها، ودخلها أياماً، فأمضى عمرو بن العاص إلى مصر وأمره عليها إن فتحَ الله عليه، فخرج عمرو بن‌العاص إلى مصر بعدما رجع عمر بن الخطاب إلى المدينة المنوّرة[٢].

وفي رواية، أن عمر بن الخطّاب حين قدم الجابية خلا به عمرو بن العاص، فاستأذنه في السير إلى مصر، وكان عمرو قد دخل مصر في الجاهلية وعرف طرقها ورأى كثرة ما فيها[٣]، وقال: «يا أمير المؤمنين: «إئذن لي أن أسير إلى مصر». وحرّضه عليها، وقال له: «إنّك إن فتحتها كانت قوّة للمسلمين وعوناً لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً، وأعجزها من القتال والحرب»، فتخوّف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظّم أمرها عند عمر بن الخطاب ويخبره بحالها ويهوّن عليه فتحها، حتى ركن لذلك فعقد له أربعة آلاف رجل كلّهم من (عَكٍّ) ويقال: بل ثلاثة آلاف وخمسماية[٤]، ثلثهم من غافق[٥] وثلثاهم من عَكٍّ، وغافِق من عكّ أيضاً، فهو غافق بن الشّاهِد بن عَلْقَمة بن عَكّ[٦].

---

(١) البلاذري (٢٩٨).

(٢) الطبري (٤/١٠٦ - ١٠٧).

(٣) فتوح مصر والمغرب (٧٦).

(٤) فتوح مصر والمغرب (٨٠ - ٨١). وعَكّ هم بنو عَكّ بن عدنان بن عبد الله بن الأزد، انظر جمهرة أنساب العرب (٣٢٨ - ٣٢٩). والرجال في جيش عمرو من بني عك. وجاء في معجم البلدان (٢٠٤/٦): عك قبيلة يضاف إليها مخلاف باليمن، ويتصل نسب عك بيعرب بن قحطان.

(٥) فتح مصر والمغرب (٨١)، وغافق بن الشّاهد بن علقمة بن عكّ، انظر جمهرة أنساب العرب (٣٢٨).

(٦) جمهرة أنساب العرب (٣٢٨).

وفي رواية: أن عمر بن الخطاب، قال لعمرو بعد أن استأذنه بالمسير إلى مصر: «سِرْ، وأنا مستخِر الله في سيرك، سيأتيك كتابي سريعاً إن شاء الله، فإن أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي، فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره»، فسار عمرو في جوف الّليل ولم يشعر به أحد من الناس. واستخار عمر الله، فكأنّه تخوّف على المسلمين في وجههم ذلك، فكتب إلى عمرو أن ينصرف بمن معه من المسلمين، فأدرك الكتاب عَمْراً وهو بـ (رَفَح)، فَتخوّف عمرو إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه، وسار هو حتى نزل قرية فيما بين رَفَح والعَرِيْش، فسأل عنها فقيل: إنها من مصر. ودعا عمرو بالكتاب فقرأه على المسلمين، فقال لمن معه: «ألستم تعلمون أنّ هذه القرية من مصر؟»، فوافقوه على أنها من مصر، فقال لهم: «فإن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرني، إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا مصر، فسيروا وامضوا على بركة الله[1].

وليس من المعقول ولا من المنطق في شيءٍ، أن يمضي عمرو لفتح مصر من تلقاء نفسه وبدون استشارة عمر بن الخطّاب وأخذ موافقته على هذا الفتح، ولا أن يقدم عمرو على المغامرة بفتح مصر خلافاً لرغبة عمر بن الخطّاب وموافقته الكاملة الصّريحة، وعمرو أعقل وأدهى وأبْعَد نظراً من أن يتحدّى رغبات عمر بن الخطاب ويخالفه ويعصي أوامره، فيغضب عمر ويكتب إليه موبِّخاً معنِّفاً، وعمر بن الخطاب أقوى وأصلب من أن يفسح المجال لعامل من عُمَّاله أن يخالف رغباته ويتحدّى

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٨٢).

أوامره ويخرج عن طاعته، فلا بدّ من أن عمرو بن العاص أقنع عمر بن الخطاب على فتح مصر، فكانت موافقة عمر بن الخطاب على فتح مصر موافقة صريحةً لا لَبْس فيها ولا غموض.

ولكن متى واين أخذ عمرو موافقة عمر على فتح مصر؟

كان مسير عمرو إلى مصر في سنة تسع عشرة الهجريّة[١]، وفتحت مصر سنة عشرين[٢]، وقيل سنة ست عشرة[٣]، وبالجملة فينبغي أن يكون فتحها قبل عام الرَّمادة، لأنّ عمرو بن العاص حمل الطعام في بحر القُلْزم من مصر إلى المدينة[٤] في عام الرَّمادة الذي كان سنة ثماني عشرة الهجريّة[٥]، أو سنة سبع عشرة[٦]، أي أنّ الفتح كان سنة ست عشرة الهجريّة.

ولم يكن المسلمون قد استكملوا فتح أرض الشّام في تلك السّنة، وقد كان عمرو بأرض الشّام سنة ثماني عشرة الهجرية في طاعون (عَمْواس)[٧]، فلما مات أبو عبيْدة بن الجرّاح استُخلف على الناس مُعَاذ ابن جَبَل[٨]، فلما مات مُعاذ بالطّاعون أيضاً استخلف على الناس عمرو

---

(١) البلاذري (٢٩٨).
(٢) الطبري (١٠٤/٤) وتاريخ خليفة بن خياط (١١٤/١) وابن الأثير (٥٦٤/٢) والبداية والنهاية (٩٧/٧) والعبر (٢٣/١).
(٣) الطبري (١٠٤/٤) وتاريخ ابن الأثير (٥٦٤/٢) والبداية والنهاية (٩٧/٧).
(٤) ابن الأثير (٥٦٤/٢) وانظر البداية والنهاية (٩٧/٧).
(٥) الطبري (٩٦/٤) وابن الأثير (٥٥٥/٢).
(٦) العبر (٢٠/١): أنّه كان سنة سبع عشرة الهجريـة.
(٧) عمواس: كورة من فلسطين قرب بيت المقدس، على أربعة أميال من مدينة الرَّملة على طريق بيت المقدس، انظر معجم البلدان (٢٢٥/٦).
(٨) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: سفراء النبي ﷺ.

ابن العاص، فخرج بالناس إلى الجبال، فلم يكره عمر بن الخطاب ذلك من عمرو[1].

وقد التقى عمرو بعمر بن الخطاب بـ(الجَابِية)، فخلا عمرو بعمر وفاتحه بفتح مصر[2]، وعمر بن الخطاب قدم الجابية أربع مرات، الأولى قُبَيْل فتح بيت المقدس[3]، والثانية بعد فتح بيت المقدس، والثالثة في أيام طاعون عَمواس، ولكنه عاد أدراجه إلى المدينة لانتشار الوباء في المنطقة، والرابعة بعد الطّاعون سنة ثماني عشرة الهجريّة[4]، ومعنى هذا أن عمرو بن العاص كان في أرض الشام حتى نهاية سنة ثماني عشرة الهجريّة.

ويبـــدو أنّ عمرو بن العـــاص سار إلى مصر سنـــة تسع عشرة الهجريّة[5]، ولكنه فتحها سنة عشرين الهجرية[6]، وبذلك يمكن التوفيق بين ما جاء في المصادر المعتمدة عن تاريخ فتح مصر، مع استبعاد ما جاء عن فتح مصر في تلك المصادر قبل سنة تسع عشرة، لأن ذلك يناقض ما جاء في أحداث التاريخ.

---

(١) الطبري (٤/٦٠ - ٦٢) وابن الأثير (٢/٥٥٨ - ٥٥٩) والبداية والنهاية (٧/١٢٠) والعبر (١/٢١).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٨٠).

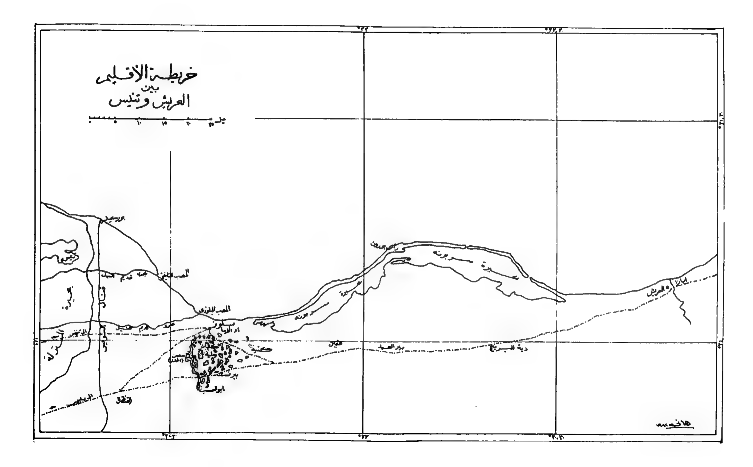
(٣) ابن الأثير (٢/٥٠٠).

(٤) ابن الأثير (٢/٥٥٩ - ٥٦٠).

(٥) ابن الأثير (٢/٥٦١)، وفي صحيح البخاري أن عمر بن الخطّاب قدم الجابية سنة ثماني عشرة.

(٦) البلاذري (٢٩٨).

(٧) تاريخ خليفة بن خياط (١/١١٤) والطبري (٤/١٠٤) وابن الأثير (٢/٥٦٤) والبداية والنهاية (٧/٩٧) والعبر (١/٢٣).


خريطة الأقليم
بين
العريش وتنيس
ميل
بورسعيد
العريش

وقد استطاع عمرو إقناع عمر بن الخطاب بفتح مصر في لقاء الرجلين سنة ثماني عشرة الهجريّة بالجَابيَة، وكان عمر بن الخطّاب حرّياً بالاقتناع، حتى لا تكون أرض الشام معرّضة لخطر مهاجمتها من الرّوم شمالاً من بلاد الرُّوم، وجنوباً من مصر على طريق سيناء البريّ، وغرباً من بحر الروم، وبخاصة أن أرطبون قائد الروم في فلسطين لحق بمصر قُبَيْل استسلام بيت المقدس للمسلمين[١]، ولا بدّ أن يكون مع أرطبون (أريطيون) الذي هرب من بيت المقدس إلى مصر جيش من جيوش الرّوم، وأنه كان يحشد جنود الرّوم في مصر لقتال المسلمين في حالة محاولة المسلمين فتح مصر، أو يحاول استعادة فلسطين إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، فرأى عمرو بن‌العاص أنّ على المسلمين ألا يضيّعوا الوقت سدى دون مسوِّغ، وأن يوقعوا بالأرطبون وقوات الرّوم قبل أن‌يستفحل أمرهم، وأيّده عمر بن الخطاب المعروف بتفكيره السَّوْقيّ الحصيف المتميِّز.

ومن المعروف، أنّ الذين يسيطرون على أرض الشّام، وكانت لديهم القوات الكافية للسيطرة على مصر، فإنهم لا يترددون في الاستيلاء على مصر، وأحداث التاريخ القديم والحديث خير شاهد على ذلك.

وقد كان المسلمون حينذاك في أوج قوّتهم، وقد فتحوا أرض الشام، فلا بدّ من فتح مصر بعد استكمالهم فتح أرض الشام.

وتقدّم عمرو على رأس جيشه البالغ ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل[٢]،

---

(١) الطبري (٦٠٨/٣) وابن الأثير (٥٠١/٢).

(٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة (٨).

فلما بلغ المقوقس[1] قدوم عمرو إلى مصر توجّه إلى (الفُسطَاط)[2]، فكان يجهِّز على عمرو الجيوش، وكان على القصر (يعني قصر الشمع الذي بمصر القديمة في القاهرة) رجل من الرّوم يقال له: الأُعَيْرِج والياً عليه، وكان تحت يد المقوقس، واسمه: جُرَيج بن مِيْنا (جورج). وأقبل عمرو، حتى إذا كان بالعَريش، فكان أول موضع قُوتل فيه (الفَرَما)[3] قاتله الروم قتالاً شديداً نحواً من شهر ولكنهم هُزموا، وكان عبد الله بن سَعْد[4] على ميمنة عمرو منذ خروجه من قَيْسَارِيّه إلى أن فرغ من حربه. ومضى عمرو لا يُدافع إلاّ بالأمر الأخف، حتى نزل (القَوَاصِر)[5]، فلم يجد هناك مقاومة تذكر. وتقدّم عمرو نحو مصر لا يدافع إلاّ بالأمر الخفيف، حتى أتى (بُلْبَيْس)[6]، فقاتله الرّوم بها نحواً من شهر، ففتحها عمرو وانهزم الرّوم. ومضى عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف، حتى أتى (أُم دُنَيْن)[7] فقاتلوا مَنْ بها قتالاً شديداً، ولكن الفتح أبطأ عليه، فكتب

---

(١) يطلق المؤرخون اسم المقوقس على حاكم مصر في ذلك العصر، والمقصود بالمقوقس هو: قيرس بطريق الإسكندرية الملكاني الذي جمع له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج بأرض مصر.

(٢) الفسطاط: مدينة بناها عمرو بن العاص بمصر. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٠/٦)، وهي بمكان حصن بابليون.

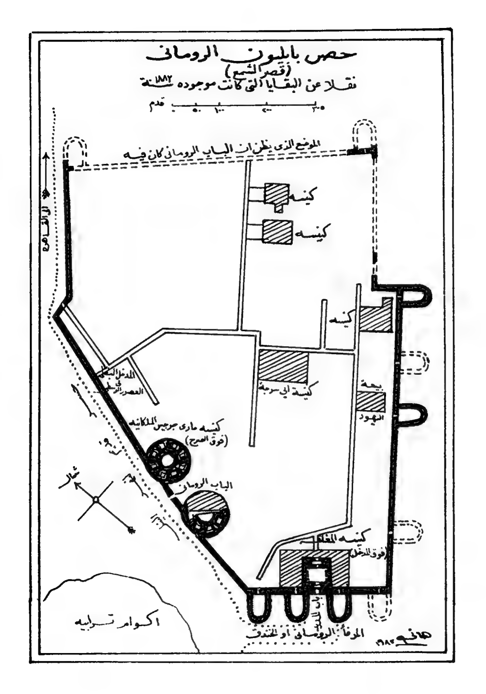
(٣) الفرما: مدينة قديمة بين العريش والفسطاط قرب قطية وشرقي تنِّيس على ساحل البحر على يمين القاصد لمصر. بينها وبين بحر القلزم أربعة أيام، انظر معجم البلدان (٣٦٨/٦)، واسمها الأصلي: بلوز، وكان القبط يسمونها: يرمون، وكانت مفتاح مصر من الشرق، تشرف على الطريق الصحراوي، وتملك ناصية البحر.

(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (٥١/١ - ٧٤).

(٥) القواصر: بلدة قديمة من أعمال مركز التل الكبير، ومكانها الآن القصاصين، وهي بين الفرما والفسطاط، انظر معجم البلدان (١٧٩/٧).

(٦) بلبيس: قاعدة مركز بلبيس من أعمال محافظة الشرقية.

(٧) أم دنين: تقع على النيل، ويقع الآن فيها جامع أولاد عنان وشارع كامل وحديقة الأزبكية.



حصن بابليون الرومانى
(قصر الشمع)
نقلا عن البقايا التى كانت موجوده سنة ١٨٨٢
٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٥٠ ٠ قدم
الموضع الذى يظن ان الباب الرومانى كان فيه
الى القاهرة
كنيسه
كنيسه
كنيسه
كنيسة ابى سرجة
بيعة اليهود
كنيسه مارى جرجس الملكانيه (فوق الصرح)
الباب الرومانى
شمال
كنيسه المعلقه (فوق المدخل)
الموقع الرومانى او الخندق
اكوام ترابيه

إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنـه يستمدّه، فأمدّه بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف مع عمرو، فوصلوا إليه أَرْسالاً يتبع بعضهم بعضاً: على كلّ ألف رجل منهم رجلَ مقام الألف، وهم الزُّبير بن العوام[١]، والمِقْداد بن الأسود[٢]، وعُبَادة بن الصّامت[٣]، وَمسيلَمَة بن مُخَلَّد[٤]، في قول، وقيل: خارِجَة بن حُذافة[٥]، الرابع، لا يعدّون مَسْلَمَة، وقال عمر بن الخطاب لعمرو: «اعلم أنّ معك اثني عشر ألفاً، ولن تُغلب اثنا عشر ألفاً من قلّة»[٦].

وفي رواية أخرى، أن الزُّبير ورد على عمرو في عشرة آلاف، ويقال في اثني عشر ألفاً، فيهم خارجة بن حُذافة العَدَوِيّ وعُمَيْر بن وَهْب الجُمَحِي[٧]، وكان الزُّبير قد همّ بالغزو وأراد إتيان (أَنْطَاكِيَة)[٨]، فقال له عمر: «يا أبا عبد الله! هل لك في ولاية مصر؟» فقال: «لا حاجة لي

---

(١) الزبير بن العوام القرشي الأسدي: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (١٩٧ - ٢٢٨).

(٢) المقداد بن الأسود: أنظر سيرته في: أسد الغابة (٤/٤٠٩) والإصابة (٦/١٣٣) والاستيعاب (٤/١٤٨٠).

(٣) عبادة بن الصّامت: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٢٥٣ - ٢٦٣).

(٤) مسلمة بن مخلّد: أنظر سيرته في: أسد الغابة (٤/٣٦٤) والإصابة (٦/٩٧) والاستيعاب (٣/١٣٩٧).

(٥) خارجة بن حذافة: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشّام ومصر (٢٣٦ - ٢٤٠).

(٦) فتوح مصر والمغرب (٨٤ - ٩١) والنجوم الزاهرة (١/٤ - ٨) وانظر البلاذري (٢٩٨ - ٢٩٩).

(٧) عمير بن وهب الجمحي: انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٢٤١ - ٢٤٨).

(٨) أنطاكية: قصبة العواصم في الثغور الشّامية، بينها وبين حلب يوم وليلة، تقع على بحر الروم، انظر معجم البلدان (١/٣٥٣ - ٣٥٩).

فيها، ولكني أخرج مجاهداً وللمسلمين مُعَاوِناً، فإن وجدتُ عمْراً قد فتحها لم أعرض لعمله وقصدتُ إلى بعض السَّواحل، فرابطت به، وإنوجدتُه في جهاد كنتُ معه»، فسار على ذلك[1].

وحاصر المسلمون حصن بَابِليون[2]، حصاراً شديداً، وكان به جماعة من الرّوم وأكابر القبط ورؤسائهم، وعليهم المقوقس، فقاتلوهم شهراً فلما رأى القوم الجدّ في المسلمين على فتحه ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه، خافوا أن يظهروا عليهم، فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر الأقباط وخرجوا من باب القصر القبليّ وتركوا به جماعة يقاتلون المسلمين، فلحقوا بالجزيرة[3]، وأمروا بقطع الجسر الذي هو على نهر النِّيل. وزُعم أنّ الأعيرج (جورج) قائد حرس الحصن، وقد بقي في الحصن حتى يقضي على ما يُشاع من خروج (قيرس)، وكـان قد تخلف في الحصن بعد المقوقس (قيرس)، فلما خاف فتح الحصن ركب هو وأهل القوّة والشرف، وكانت سفنهم ملصقة بالحصن، ثم لحقوا بالمقوقس بالجزيرة[4].

وبعث المقوقس إلى عمرو: «أن ابعثوا إلينا رسلاً منكم، نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عساهم أن يكون فيه صلاح لنا ولكم». وبعث عمرو إلى المقوقس عشرة نفر من المسلمين، أحدهم عُبَادَة بن الصَّامِت فلم تنجح المفاوضات بين الجانبين[5]، ولم يبق غير القتال لفتح حصن بابليون.

---

(١) البلاذري (٢٩٩).

(٢) بابليون: اسم موضع الفسطاط، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٠)، ويسميه الطبري في (٤/١٠٥): باب اليُون وكذلك في ابن الأثير (٢/٥٦٤).

(٣) هي جزيرة الروضة بالقاهرة.

(٤) فتوح مصر والمغرب (٩٧ - ٩٨) والنجوم الزاهرة (١/١٠).

(٥) انظر تفاصيل المفاوضات في: فتوح مصر والمغرب (٩٧ - ١٠٢) وانظر الفاروق عمر للدكتور هيكل (٢/١١٦).

واستمر الحصار سبعة أشهر، فرأى الزّبير بن العوّام خللاً في سور الحصن، فنصب سلّماً وأسنده إلى الحصن، وقال: «إني أهب نفسي لله تعالى، فمن شاء أن يتبعني، فليفعل»، فتبعه جماعة حتى أوفى على الحصن، فكبّر وكبَّروا، فلما رأى الرّوم أنّ المسلمين قد ظفروا بالحصن، انسحبوا، ففتحت الفُسطاط أبوابها للمسلمين[1].

ولما فتح عمرو حصن بابليون - وكانت معركة فتح هذا الحصن من المعارك الإسلامية الحاسمة في الفتح الإسلامي، فتحت أبواب مصر على مصراعيها للفاتحين المسلمين، كما فتحت معركة القادسيّة الحاسمة أبواب العراق، ومعركة اليرموك الحاسمة أبواب أرض الشّام ومعركة نَهَاوَنْد الحاسمة (معركة فتح الفتوح) أبواب بلاد فارس للفاتحين المسلمين - بدأ عمرو بمعارك استثمار الفوز التي تعقب عادةً كل معركة حاسمة، فوجَّه عَبد الله بن حُذافة السَّهْمِيّ إلى (عَيْن شَمْس)[2]، فغلب على أرضها، وصالح أهل قراها على صلح الفُسطاط.

كما وجّه خارجة بن حُذافة العَدَوِيّ إلى (الفَيُّوم)[3] و (الأَشْمُونين)[4]

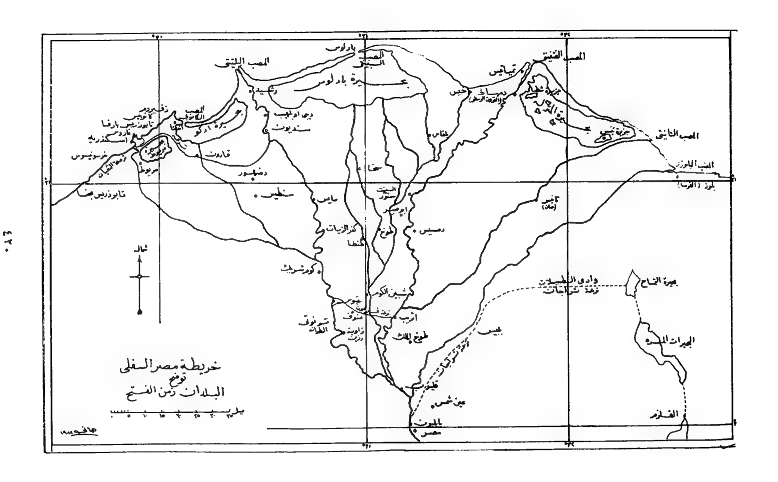
---

(١) فتوح مصر والمغرب (٩١) والبلاذري (٢١٥)، وانظر معجم البلدان (٦/٣٦٨).

(٢) عين شمس: اسم مدينة بمصر، بينها وبين الفسطاط ثلاثة فراسخ، وهي ليست على شاطىء النيل، وكات مدينة كبيرة، انظر معجم البلدان (٦/٢٥٦)، وهي اليوم ضاحية من ضواحي مدينة القاهرة اسمها: مصر الجديدة، وكانت تسمى قديماً: هليوبوليس.

(٣) الفيّوم: ولاية غربيّة، بينها وبين الفسطاط أربعة أيام، بينهما مفازة لا ماء فيها ولا مرعى، انظر معجم البلدان (٦/٤١٤)، ولا يزال هذا الاسم يطلق على هذه المنطقة حتى اليوم، ومدينة الفيوم معروفة مشهورة.

(٤) الأشمونين: اسمها: أشمون، وأهل مصر يقولون: الأشمونين، وهي مدينة أزلية عامرة آهلة، وهي كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٢٦١).


خريطة مصر السفلى
توضح
البلدان زمن الفتح
ميل
شمال
بارلوس
بحيرة بارلوس
رشيد
المصب الكانوبي
بحيرة ادكو
اسكندرية
مريوط
دمنهور
سنطيس
كوم شريك
سايس
كفر الزيات
طنطا
سمنود
ابوصير
دمسيس
دمياط
اتريب
منوف
شبين الكوم
بلبيس
عين شمس
بابليون
مصر
القلزم
بحيرة التمساح
وادي الطميلات
ترعة تراجان
البحيرات المرة
بلوز (الفرما)

و (إخميم)[1] و (البَشْرُودات)[2] وقرى (الصَّعِيْد)[3]، فصالحها أيضاً على مثل صلح الفسْطاط.

كما وجّه عُمَيْر بن وهْب الجُمحِيّ إلى (تِنّيْس)[4] و (دِمْيَاط)[5] و(تُوْنَـــة)[6] و(دَمِيْرَة)[7] و(شَطــــا)[8] و(دقَلَهة)[9] و (بَنَـــا)[10] و(بُوْصِيْر)[11]، فصالحها على مثل صلح الفسطاط أيضاً.

---

(١) إخميم: بلد بالصعيد، وهو بلد قديم على شاطىء النيل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٥٣/١)، والبلد باسمه معروف حتى اليوم.

(٢) البشرودات: هكذا وردت في البلاذري (٣٠٤)، وقد وردت في معجم البلدان: البشرود، وهي الصحيح، وهي كورة من كور بطن الرّيف بمصر من كور الصعيد، انظر معجم البلدان (١٩٠/٢).

(٣) الصعيد: بلاد واسعة بمصر فيها عدّة مدن عظام، منها أسوان وهي أوله من ناحية الجنوب، ثم قوص وقفط وإخميم والبهنساوغير ذلك، وينقسم الصعيد إلى ثلاثة أقسام: الصّعيد الأعلى وحدّة أسوان وآخره قرب إخميم، والثاني من إخميم إلى البهنسا، والأدنى من البهنسا إلى قرب الفسطاط، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٠/٥ - ٣٦١).

(٤) تنيس: جزيرة من بحر مصر قريبة من البر، ما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقيها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤١٩/٢).

(٥) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس والفسطاط، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٥/٤)، وهي معروفة حتى اليوم بهذا الاسم لهذه المدينة.

(٦) تونة: جزيرة قرب تنيس ودمياط، من الديار المصرية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٣٥/٢)..

(٧) دميرة: قرية بمصر قرب دمياط، وهما دميرتان إحداهما تقابل الأخرى على شاطىء النيل في طريق دمياط معجم البلدان (٨٥/٤).

(٨) شطا: بليد بمصر على ثلاثة أميال من دمياط على ضفة البحر الأبيض المتوسط، انظر معجم البلدان (٢٦٤/٥).

(٩) دقهلة: بلد بمصر على شعبة من النيل، بينها وبين دمياط أربعة فراسخ، وبينها وبين دميرة ستة فراسخ، انظر معجم البلدان (٦٥/٤).

(١٠) بنا: بلدة بمصر قديمة: بينها وبين الفسطاط ثمانية عشر ميلاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٨٦/٢).

(١١) بوصير: اسم لأربع قرى بمصر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٠٦/٢).

ووجّه عُقْبَة بن عامر الجُهَنيّ، ويقال مولاه وَرْدَان مولى عمرو إلى سائر قرى أسفل مصر، ففعل مثل ذلك وبذلك استجمع عمرو فتح مصر، فصارت أرضها أرض خَرَاج[1].

ب. لما نزل عمرو على عَيْن شَمسْ، وكان الملك بين القِبْط والنُّوَب، ونزل معه الزُّبير عليها قال أهل مصر لمليكهم: ما تريد إلى قوم فلُّوا كسرى وقيصر وغلبوهم في بلادهم! صَالح القومَ واعْتَقِدْ منهم ولا تَعْرِضْ لهم - وذلك في اليوم الرابع - فأبى، وناهدوهم وقاتلوهم. وارتقى الزّبير عليهم عَنْوَة حتى خرج على عمرو من الباب معهم، فاعتقدوا بعدما أشرفوا على الهَلَكَة، فأجروا ما أخذوا عَنْوَة مجرى ما صالح عليه، فصاروا ذِمَّة، وكان صلحهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهلَ مصر من الأمان على أنفسهم وملّتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم، وبرّهم وبحرهم، لا يدخلَ عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص[2]، ولا يساكنــهم النُّوب، وعلى أهل مصر أن يُعْطُوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصُّلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لُصوتُهم[3]، فإن أبى أحدٌ منهم أن يجيب رُفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمَّتنا ممن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم عن غايته إذا انتهى رُفع عنهم بقدر ذلك ومَنْ دَخلَ في صلحهم من الرُّوم والنُّوَب فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومَنْ أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثاً في كلّ ثلث جباية ما عليهم، على ما في

---

(١) البلاذري (٣٠٤ - ٣٠٥). وانظر الفاروق عمر (١٣٩/٢).

(٢) وفي رواية: ينتقض.

(٣) اللصوت: جمع لصت. وهو اللّص.

هذا الكتاب عهد الله وذمّته وذمّة رسوله وذمّة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين وعلى النُّوبة الذين استجابوا أن يُعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً، وعلى ألاّ يُغْزوا ولا يُمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة.

شهد الزبير، وعبد الله ومحمد ابناه، وكتب وردان وحضر[1].

جـ. ولما فتحِ عمرو مصر، أقام بها، ثم كتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره في الزّحف إلى الإسكنْدَرِيَّة، فكتب إليه يأمره بذلك. وسار إليها من الفُسطاط واستخلف على مصر خارجة بن حذافة العَدَويّ، وكان مَنْ دون الإسكندريّة من الرّوم والقبط قد تجمّعوا له، وقالوا: «نغزوه بالفسطاط قبل أن يبلغنا، ويروم الإسكندريّة»[2].

وكان مع جيش عمرو جماعة من رؤساء القبط، فأصلح القبط الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت القبط لجيش المسلمين أعواناً علىٰ ما أرادوا من قتال الرّوم الذين استعدوا للقاء المسلمين، وقدمت عليهم مراكب كثيرة من أرض الرّوم، فيها جمع من الرّوم عظيم بالعُدّة والسّلاح[3].

ولم يلق عمرو من الرّوم أحداً في طريقه إلى الإسكندريّة حتى (تَرْنُوط)[4]، حيث لقى بها طائفة من الرّوم، فقاتلوه، قتالاً خفيفاً، ثم انهزموا باتجاه الإسكندريّة[5].

---

(١) الطبري (١٠٨/٤ - ١٠٩) والبداية والنهاية (٩٨/٧) وانظر مجموعة الوثائق السياسية (٣٥٢ - ٣٥٣).

(٢) البلاذري (٣٠٩).

(٣) فتوح مصر والمغرب (١٠٧)

(٤) ترنوط: أو طرنوط أو الطرانة، كما يسميها العرب، مدينة قديمة، وقد كان عندها معبر يعبر النيل عليه في الذهاب إلى الإسكندرية، وترنوط الحالية قرية على النيل بمركز كوم حمادة من أعمال محافظة البحيرة.

(٥) فتوح مصر والمغرب (١٠٧).

ويبدو أنَّ عمْراً ابتدأ زحفه نحو هدفه الأصلي: الإسكندرية، على الضفة الغربيّة للنيل من ناحية الصحراء، لأن فيها مجالاً أوسع لخيله، لا يعوقها فيه ما يعترض أرض الدّلتا من الترع الكثيرة وقنوات الرّي المزدحمة.

وعبر عمرو النِّيل إلى الغرب، ومضى بمن معه نحو الإسكندرية، فأرسل شَرِيْك بن سُمَيّ[1] في آثار الرُّوم المنهزمين، فلحقت طلائع المسلمين بالرّوم عند موضع على ستة عشر ميلاً إلى الشمال من تَرْنوط. واستطاع الرّوم أن يثبتوا للمسلمين، فأنفذ شريك رسولاً إلى عمرو يطلب المدد. ولما بلغ الرّوم مجيء الأمداد فرّوا هاربين وقد سمّي هذا الموضع باسم القائد المسلم، وهو معروف حتى اليوم باسم: (كَوْم شَرِيْك)[2] قرية من قرى كَوْم حَمَادة، وكوم حَمَادة مركز من أعمال محافظة البحيرة بمصر في الوقت الحاضر.

ثم التقى المسلمون بالرُّوم وحلفائهم بـ(سُنْطِيْس)[3]، فاقتتلوا بها قتالاً شديداً، فانهزم الرّوم.

---

(١) شريك بن سُمَيّ بن عبد يغوث بن حرز الغطيفي: أحد وفد مراد الذين قدموا على رسول الله ﷺ، كان على مقدمة عمرو بن العاص في طريقه لفتح الإسكندرية، فكثرت عليه الرُّوم بموضع كوم شريك، فخافهم على أصحابه، فلجأ إلى هذا الكوم، فاعتصم به ودافعهم حتى أدركه عمرو بن العاص، وكان قريباً منهم، فاستنقذهم، فسمي: كوم شريك كذلك، انظر معجم البلدان (٧/٣٠٢-٣٠٣).

(٢) كوم شريك: الكوم بفتح أوله ويروى بالضمّ، وأصله الرّمل المشرف، وكوم شريك قرية قرب الإسكندرية انظرمعجم البلدان (٧/٣٠٢).

(٣) ورد اسمها في فتوح مصر والمغرب (١٠٨): سلطيس، وصوابه: سنطيس، وكذلك وردت: سلطيس في معجم البلدان (٥/١٠٦-١٠٧). وسنطيس: قرية كبيرة في نحو منتصف المسافة بين كوم شريك وكريون، على ستة أميال من جنوبي دمنهور، وكانت المعركة عندها معركة شديدة انهزم فيها الرُّوم وتدافعوا نحو الشمال إلى الطريق المؤدية إلى الإسكندرية، انظر الهامش الرقم (٣) من كتاب فتوح مصر والمغرب (١٠٨).

والتقوا بـ(الكِرْيَوْن)[1]، فاقتتلوا بضعة عشر يوماً، وكان عبدالله بن عمرو بن العاص[2] على المقدمة، وحامل اللّواء يومئذ وَرْدان مولى عمرو، فأصابت عبد الله بن عمرو جراحات، فصبر صبراً جميلاً، وصلّى عمرو يومئذ بجيش المسلمين صلاة الخوف: بكل طائفة ركعة وسجدتين. وتكبّد الطرفان خسائر فادحة، وقتل المسلمون من الرّوم مقتلة عظيمة، وطارد المسلمون الرُّوم حتى بلغوا الإسكندرية[3].

وكان للرّوم في الإسكندرية حصون مبنيّة لا تُرام، حصن دون حصن، فنزل المسلمون ما بين (حُلْوَة)[4] إلى (قصر فارس)[5] إلى ما وراء ذلك، ومعهم رؤساء القبط يمدّونهم بما احتاجوه إليه من الأطعمة والعلوفة.

---

(١) كريون: موضع قرب الإسكندرية انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٤٨). وهي مدينة قديمة، زارها ابن حوقل، وذكر عنها في كتابه، أنها كانت في أيامه مدينة عظيمة جيلة على ضفتي ترعة الإسكندرية، وكان التجار يركبون منها القوارب إلى الفسطاط في وقت الصيف إذا علا النيل، وكان في المدينة حاكم تحت إمرته مسلحة من الفرسان والمشاة. وكانت مدينة الكريون آخر حصن من سلسلة الحصون الممتدة للروم بين حصن بابليون والإسكندرية وكان لها شأن عظيم في تجارة القمح وخطر كبير في الحرب، إذ كانت تُشرف على الترعة التي تعتمد عليها الإسكندرية في طعامها وشرابها، ولكن حصونها لم تكن في المنعة على مثل ما كان عليه حصن بابليون.

(٢) عبد الله بن عمرو بن العاص: انظر سيرته في طبقات ابن سعد (٤/٢٦١) وأسد الغابة (٣/٢٣٣) والإصابة (٤/١١١) والاستيعاب (٣/٩٥٦).

(٣) فتوح مصر والمغرب (١٠٦-١٠٩).

(٤) حلوة: موضع بمصر، نزل فيه عمرو بن العاص أيام الفتوح، انظر معجم البلدان (٣/٣٢٧)، وهي موضع كان في الجبهة الشرقية من الإسكندرية.

(٥) قصر فارس: قلعة كانت في شرق الإسكندرية، وقد بناها الفُرْسُ عند حصارهم للإسكندرية قبل الإسلام.

وبقي عمرو بحُلْوة شهرين، ثم تحوّل إلى (المَقْس)[1]، وتصوِّر هذه الرواية رغبة عمرو في القفول إلى حصن بابليون، ليعلم أهل الدّلتا بقربه ويشعرهم شوكته بعد أن عزّ عليه اقتحام أسوار الإسكندرية، فترك حولها جيشاً كافياً لحصار الإسكندرية.

وأخرج الرّوم على قوات المسلمين التي تحاصر الإسكندرية الخيل من ناحية البحيرة مستترة بالحصن، فاشتبكوا بالمسلمين، وقتلوا منها اثني عشر رجلا.

وكانت رسل ملك الرّوم تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادة الرّوم، وكان ملك الرّوم يقول: «لئن ظهرت العرب على الإسكندرية، إنّ ذلك انقطاع ملك الرّوم وهلاكهم، لأنّه ليس للرّوم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية». ولما فتح المسلمون أرض الشّام، قال الملك: «لئن غلبونا على الإسكندرية، لقد هلكت الرّوم وانقطع ملكها»، وأمر بجهازه ومصلحته للخروج إلى الإسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه إعظاماً لها، وأمر ألاّ يتخلّف عنه أحد من الرّوم، وقال: «ما بقاء الرُّوم بعد الإسكندرية» فلما فرغ من جهازه مات سنة عشرين الهجرية[2] وفيها فتحت قَيْساريّة الشّام[3].

وأقام عمرو محاصراً الإسكندرية أشهراً، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطّاب، قال: «ما أبطأوا في فتحها إلاّ لِما أحدثوا».

---

(١) المقس: بين يدي القاهرة على النيل، وكان قبل الإسلام يسمّى: أمّ دُنينَ، وكان فيه حصن ومدينة قبل بناء الفسطاط. وحاصرها عمرو بن العاص وقاتله أهلها قتالاً شديداً حتى افتتحها سنة عشرين الهجرية، انظر معجم البلدان (١٢٥/٨)، وانظر فتوح مصر والمغرب (١١١) حول سير الحوادث في معركة فتح الإسكندرية.

(٢) كان موت هرقل يوم الأحد ١١ شباط (فبراير) سنة (٦٤١م).

(٣) فتوح مصر والمغرب (١١١-١١٢).

ولما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر، كتب إلى عمرو بن العاص: «أما بعد، فقد عجبتُ لإبطائكم في فتح مصر! إنّكم تقاتلونهم منذ سنتين، وما ذاك إلاّ لِمَا أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبّ عدوّكم، وإنّ الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نيّاتهم. وقد كنتُ وجّهتُ إليك أربعة نفرٍ[1]، وأعلمتك أنّ الرّجل منهم مقام ألف رجل على ما كنتُ أعرف، إلاّ أن يكون غيّرهم ما غيّر غيرهم. فإذا أتاك كتابي هذا، فاخطب النّاس وحضّهم على قتال عدوِّهم، ورغّبهم في الصّبر والنيّة، وقدِّم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومُر الناس جميعاً أن يكون لهم صَدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزُّل الرّحمة ووقت الإجابة، وليعجّ الناس إلى الله ويسألوه النصّر على عدوِّه»[2].

ولما أتى عَمْراً كتاب عمر، جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر، ثم دعا أولئك النّفر، فقدّمهم أمام النّاس، وأمر الناس أن يتطهّروا ويصلّوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر[3].

وأرسل المقوقس إلى عمرو يسأله الصلح والمهادنة إلى مدّة، فأبى عمرو ذلك.

وأمر المقوقس النِّساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات بوجوههنّ إلى داخله، وأقام الرّجال بالسِّلاح مقبلين بوجوههم إلى المسلمين ليرهبهم بذلك، فأرسل إليه عمرو: «إنّا قد رأينا ما صنعتَ، وما بالكثرة غلبنا مَنْ غلبنا، فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان». فقال

---

(١) ورد ذكرهم سابقاً، وهم: الزّبير بن العوّام، والمقداد بن عمرو، وعُبادة بن الصّامت، ومَسْلمة بن مخلّد، وقال آخرون: بل خارجة بن حُذافة لا يعدّون مسلمة مع الأربعة.

(٢) فتوح مصر والمغرب (١١٥-١١٦).

(٣) فتوح مصر والمغرب (١١٦).

المقوقس لأصحابه: «قد صدق هؤلاء القوم! أخرجوا ملكنا من دار مملكته حتى أدخلوه القُسْطَنْطِينيَّة، فنحن أولى بالأذعان»، فأغلظ له أصحابه القول وأبوا إلاّ القتال، فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً، وحصروهم ثلاثة أشهر[١]، ففتحها عمرو بالسيف واستخلف عمرو على الإسكندرية عبد الله بن حُذافة السَّهْميّ في رابطة من المسلمين، وانصرف إلى الفُسطاط[٢].

وكان فتح الإسكندرية سنة إحدى وعشرين الهجرّية[٣]، وفي رواية أنها فتحت سنة عشرين الهجرية[٤]، وفي رواية أنها فتحت سنة خمس وعشرين الهجريّة[٥].

وأرجِّح الرواية الأولى، أي أنّ الإسكندرية فتحت سنة إحدى وعشرين الهجريّة[٦]، لأنّ عمرو بن العاص فتح مصر عدا الإسكندرية - سنة عشرين الهجرية، فقد فتح في هذه السنة بعض مصر[٧] لا كلّها، ومن المعروف أنّ الإسكندرية كانت آخر أصقاع مصر فتحاً، فلم يستطع عمرو إكمال فتح مصر كلّها سنة عشرين الهجريّة، فأتمّ فتحها سنة إحدى وعشرين الهجريّة.

أما الذين ذكروا أنّ الإسكندرية فتحت سنة خمس وعشرين

---

(١) في كتاب: فتوح مصر والمغرب (١١٧): حاصر المسلمون تسعة أشهر بعد موت هرقل، وخمسة قبل ذلك.

(٢) البلاذري (٣٠٩-٣١٠) وابن الأثير (٢/٥٦٧) وفتوح مصر والمغرب (١٠٦-١١٠).

(٣) البلاذري (٣٠٩).

(٤) الطبري (٤/١٠٤) وابن الأثير (٢/٥٦٤) والنجوم الزاهرة (١/٢٠).

(٥) الطبري (٤/١٠٤) وابن الأثير (٢/٥٦٤) والنجوم الزاهرة (١/٢٠).

(٦) تاريخ خليفة بن خياط (١/١٢٣).

(٧) العبر (١/٢٣).

الهجرية، فقد خلطوا بين فتحها الأول سنة إحدى وعشرين الهجرية، واستعادة فتحها بعد انتقاضها سنة خمس وعشرين الهجريّة، فقد انتقض أهل الإسكندرية سنة خمس وعشرين الهجرية، فاستعاد عمرو فتحها في هذه السنة[1] أيضاً، كما سيرد ذلك وشيكا. وفي رواية، أن عُبادة بن الصّامت هو الذي فتح الإسكندرية[2].

د. ولما فتح عمرو الإسكندرية بالسيف، غنم ما فيها، واستبقى أهلها ولم يقتل ولم يَسْبِ، وجعلهم ذمّةً كأهل الفسطاط، وكتب إلى عمر ابن الخطّاب بالفتح مع معاوية بن حُدَيْج الكِنْدي ثم السَّكُوْنيّ[3]، وبعث إليه معه بالخمس. ويقال: إن المقوقس صالح عَمْراً على ثلاثة عشر ألف دينار، على أن يخرج من الإسكندرية مَنْ أراد الخروج، ويقيم بها مَنْ أحبّ المقام، وعلى أن يَفرض على كلّ حالم من القبط دينارين، فكتب عمرو لهم بذلك كتابا.

واستخلف عمرو على الاسكندرية عبد الله بن حُذافة في رابطة من المسلمين، وانصرف إلى الفُسطاط[4].

وكان الرُّوم قد عظم عليهم فتح الإسكندرية وظنّوا أنّهم لا يمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الإسكندرية من ملكهم، فكاتبوا مَنْ كان فيها من الرّوم، ودعوهم إلى نقض الصلح، فأجابوهم إلى ذلك[5].

كما أنّ الرّوم الذين بقوا في الإسكندرية، كتبوا إلى قُسْطَنْطين بن

---

(١) الطبري (٤/٢٥٠) وتاريخ خليفة بن خياط (١/١٣٣) وابن الأثير (٣/٨١) والعبر (١/٢٨) والبداية والنهاية (٧/١٥١).

(٢) فتوح مصر والمغرب (١١٦-١١٧).

(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (١/٧٥-٨٩).

(٤) البلاذري (٣١٠).

(٥) ابن الأثير (٣/٨١).

هِرَقْل الذي كان ملك الرّوم في القُسْطَنْطينيَّة يومئذٍ، يخبرونه بقلّة مَنْ عندهم من المسلمين، وبما هم فيه من الذلّة، وأداء الجِزية، فبعث رجلاً من أصحابه يقال له: مَنُويل في ثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة، فدخل الإسكندرية، وقتل مَنْ فيها من روابط المسلمين إلاّ من تملّص منهم فنجا من القتل، وكان ذلك سنة خمس وعشرين الهجريّة.

وبلغ عمرو بن العاص الخبر، فسار إليهم في خمسة عشر ألفاً، فوجد مقاتلي الرُّوم قد خرجوا يعيشون فيما يلي الإسكندرية من قرى مصر، فلقيهم المسلمون، ورشقوهم بالنشّاب ساعة، والمسلمون متترّسون، ثم هاجموهم بعنف، فالتحمت بينهم الحرب، واقتتلوا قتالاً شديداً. وانهزم الرُّوم، ولم يتوقفوا في هزيمتهم إلاّ في الإسكندرية، فتحصّنوا بها، ونصبوا العرّادات[1]، فقاتلهم عمرو على الإسكندرية أشدّ قتال، ونصب المجانيق فحطّمت جُدرها. وألح عمرو بالحرب حتى دخل الاسكندرية بالحرب عَنْوَةً، فقتل المقاتلة وسبى الذريّة، وهرب بعض سكانها من الرُّوم إلى بلاد الرُّوم، وقُتل مَنُويل قائد الروم، وهدم عمرو والمسلمون جدار الإسكندرية، وكان عمرو نذر لئن فتحها ليفعلن ذلك[2].

ولم يوافق المقوقس أهلّ الإسكندرية في انتقاضهم، فأقرّه عمرو بعد استعادة فتح الإسكندرية على أمره الأول[3].

وكان الرّوم لما خرجوا من الإسكندرية إلى القرى التي حولها، قد أخذوا أموال أهل تلك القرى، مَنْ وافقهم، ومَنْ خالفهم، فلما ظفر بهم

---

(١) العرادات: جمع عرادة وهي آلة حربية لرمي الحجارة.

(٢) البلاذري (٣١٠-٣١١) وفتوح مصر والمغرب (٢٣٦-٢٣٧) ومعجم البلدان (٣١٤/٨) وابن الأثير (٨١/٣) وانظر العبر (٢٨/١) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١٣٣/١).

(٣) البلاذري: (٣١١).

المسلمون، جاء أهل القرى الذين خالفوا الذين انتقضوا من الرّوم، وبقوا على ولائهم للمسلمين، فقالوا لعمرو بن العاص: «إنّ الرُّوم، أخذوا دوابنا وأموالنا، ولم نخالف نحن عليكم، وكنّا على الطّاعة»، فردّ عليهم ما عرفوا من أموالهم بعد إقامة البيِّنة[1].

لقد كان أهل مصر الأصليين مع المسلمين على الرُّوم، وكما قال المقوقس لعمرو: «... وأن لا تنقض بالقِبْط، فإنّ النقض لم يأت من قبَلهم»[2]، «وقد تمّ صلح القبط فيما بينك وبينهم، ولم يأت من قِبَلهم نقض، وأنا متمٌّ لك على نفسي، والقبط متمّون لك الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم، وأما الرُّوم، فأنا منهم بريء...»[3] وصارت القبط للمسلمين أعواناً[4] على الروم.

هـ- ومهما قيل في تَعداد جيش المسلمين الذي فتح مصر، فبدأ بأربعة آلاف رجل أو ثلاثة آلاف وخمسائة رجل، وانتهى بعد وصول المدد من المدينة المنورة بقيادة الزُّبير بن العوام بثمانية آلاف فيما إذا صحّ أن تعداد المدد أربعة آلاف رجل، وخمسة عشر ألفاً فيما إذا صحّ أن تعداد المدد اثنا عشر ألفاً، فإن تعداد هذا الجيش الفاتح كان قليلاً للغاية بالنسبة لتحقيق هدف العمليات، وهو فتح مصر، وبالنسبة لتعداد المقاتلين من الرُّوم ومن أهل مصر الذين نهضوا بمهمّة الدفاع عن مصر، فقد ورد بكتاب ملك الرّوم الموجه إلى المقوقس: «إنّما أتاك من العرب اثنا عشر ألفاً، وبمصر مَنْ بها من كثرة عدد القبْط ما لا يُحْصى، فإن

---

(١) ابن الأثير (٣/٨١).

(٢) البلاذري (٣٠٠) وفتوح مصر والمغرب (١٠٧).

(٣) فتوح مصر والمغرب (١٠٥).

(٤) فتوح مصر والمغرب (١٠٦).

كان القبط كرهوا القتال وأحبّوا أداء الجزية إلى العرب: واختاروهم علينا، فإن عندك بمصر من الرُّوم بالإسكندرية ومنْ معك أكثر من مائة ألف، معهم العُدَّة والقُوَّة، والعرب وحالهم وضعفهم ما قد رأيتُ...»[1].

والإدعاء بأن فتح مصر كان نزهة ترفيهيّة للفاتحين، بحجّة أنّ الأقباط كانوا للمسلمين أعواناً على الرُّوم بصورة مطلقة، وأنّ الرُّوم لم يقاتلوا كما ينبغي، ادِّعاء متهافت يدلّ على الجهل المطبق أو على التحيّز والتعصب المقيت، فقد قاوم الرُّوم وأهل البلاد المصريون الفاتحين مقاومة شديدة، وأعانتهم طبيعة بعض المواقع كحصن بابليون وأسوار الإسكندرية على تلك المقاومة، وقد خندقوا خندقاً حول حصن بابليون، وجعلوا له أبواباً، وبثّوا أفنيتها حَسَك[2] الحديد[3]، وثبتوا في كثير من مواضعهم الدفاعيّة ثباتاً عنيداً امتدّ أياماً وأسابيع وأشهراً، وأكمل المسلمون فتح مصر خلال سنتين، وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدل على ثبات المدافعين واستقتال الفاتحين.

لقد كان المدافعون عن مصر متفوقين على المسلمين الفاتحين تفوّقاً ساحقاً بالعَدَد والعُدَد، وكانوا يقاتلون دفاعاً عن بلادهم وعقيدتهم، وكانوا أكثر خبرة بفنون القتال التعبوية من أولئك القادمين من الصحراء، وكانت قواعدهم قريبة منهم وقواعد المسلمين بعيدة عنهم، وكانوا أغنى من المسلمين في المواد التموينية وأوفر حظاً، وكانت مزية اختيار المواضع القتالية بأيديهم، وهذه المواضع المناسبة تساعدهم على الدفاع عنها وتعرقل مهمة الهجوم عليها، وكانت طرق المواصلات البريّة والبحرية

---

(١) فتوح مصر والمغرب (١٠٤).

(٢) حسك الحديد: هو أدوات الحرب كالاسلاك الشائكة التي تعيق تقدم الفرسان والمشاة.

(٣) فتوح مصر والمغرب (٨٨).

مفتوحة للمدافعين عن مصر، فكانت تردهم الإمدادات بالمراكب من قواعد الرُّوم المتقدمة والرئيسة في بلاد الروم الأصلية، ولم تكن المواصلات البحرية مفتوحة ولا متيسِّرة بأيٍّ شكلٍ من الأشكال.

كلّ هذه المزايا القتالية كانت إلى جانب المدافعين عن مصر، ولكنّ المسلمين الفاتحين أحرزوا النصر المؤزر بالإقدام والتضحية والفداء وبالشهداء.

لقد كان المسلمون متفوقين على المدافعين عن مصر بالمعنويات العالية، فكان أحد هؤلاء المدافعين يتمنى أن يموت صاحبه قبله، وكان أحد الفاتحين يتمنّى أن يموت قبل صاحبه، فانتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بالمعنويات العالية التي كانت نتيجة من نتائج أثر الإسلام في النفوس والعقول معاً.

عاد رسل المقوقس من عمرو إلى المقوقس قبل فتح حصن بابليون، وكان المقوقس يومئذ في جزيرة الرّوضة، فقال المقوقس لرسله: «كيف رأيتموهم؟»، فقالوا: «رأينا قوماً الموت أحبّ إلى أحدهم من الحياة، والتّواضع أحبّ إليه من الرِّفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نَهْمة، إنّما جلوسهم على التراب، وأكلهم على رُكبهم، وأجيرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيِّد منهم من العبد، وإذا حضرت الصّلاة لم يتخلّف عنها أحد منهم، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشّعون بصلاتهم»[1].

ووصف المقوقس المسلمين الفاتحين فقال: «والله إنهم على قلّتهم وضعفهم - يريد المسلمين - أقوى وأشدّ منّا على كثرتنا وقوتنا. إن الرّجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منّا، وذلك أنّهم قوم الموت أحبّ

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٩٧).

إلى أحدهم من الحياة، يقاتل الرّجل منهم وهو مُسْتَقْتِل يتمنى ألا يرجع إلى أهله ولا بلده، ويرون أنّ لهم أجراً عظيماً فيمن قتلوا منّا، ويقولون: إنّهم إن قُتلوا دخلوا الجنّة، وليس لهم لذّة في الدنيا ولا رغبة إلا قدر بُلْغَة العيش من الطعام واللّباس. ونحن قوم نكره الموت ونُحبّ الحياة ولذّتها، فكيف نستقيم نحن وهؤلاء؟! وكيف صبرنا معهم؟! »[١].

ومهما يقال في تأييد هذين القولين: قول رسل المقوقس، وقول المقوقس، في وصف المسلمين الفاتحين تصديقاً أو تشكيكا، فإن أفعال المسلمين الفاتحين تصدّق هذين القولين، والأفعال أبلغ وأصدق من الأقوال وأجدى، فالتطبيق العملي للفتح هو الحكَم الفصل في تصديق هذين القولين وغيرهما من أمثالهما من الأقوال، والسيف أصدق إنباءً من الكتب.

لقد انتصر العرب بالإسلام ولن ينتصروا بغيره في يوم من الأيام، والتاريخ خير دليل على ذلك.وكانت انتصارات المسلمين الفاتحين انتصارات عقيدة بدون شك، جعلت من المجتمع الإسلامي الأول مجتمعاً يضمّ قادة متميِّزين وجنوداً متميِّزين، ولم يكونوا كذلك قبل أن يعتنقوا هذه العقيدة ويتمسّكوا بتعاليمها كما هو معروف، فلما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر، عزا سبب الإبطاء إلى تغيير الفاتحين ما بأنفسهم[٢].

وقد كان القِبْط لعمرو أعواناً[٣]، أو كان أكثرهم على أقل تقدير، وخرج معه لفتح الإسكندرية جماعة من رؤساء القبط، فأصلحوا للفاتحين الطّرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط

---

(١) فتوح مصر والمغرب (١٠٥).
(٢) فتوح مصر والمغرب (١١٦).
(٣) فتوح مصر والمغرب (٨٦).

أعواناً على ما أرادوا من قتال الرُّوم[1]، ولم ينقض القبط ولا المقوقس الصّلح الذي عقدوه بينهم وبين الفاتحين كما نقض الرُّوم[2].

وليس موقف القبط بالنسبة للفاتحين، إلاّ استنكاراً لظلم الرُّوم وإعجاباً بعدل المسلمين، فأخلصوا للذين عدلوا، وكرهوا الذين ظلموا، ومصادر القبط القديمة خير شاهد على ذلك.

٤. في لِيبْيا[3]

أ. أراد عمرو القضاء على سلطان الرُّوم في المنطقة الواقعة غربيّ الديار المصرية، ليتخلّص من تعرّض الرُّوم بمصر من الغرب، إذ كان الرُّوم يحتلّون تلك المناطق، ويشكّلون تهديداً برّياً خطيراً لمصر، فسار يخترق الصّحراء حتى بلغ (بَرْقَة)[4].

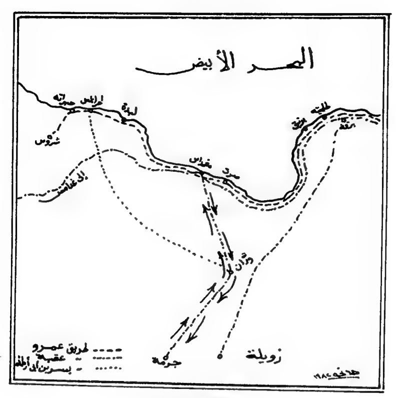
---

(١) فتوح مصر والمغرب (١٠٧).

(٢) فتوح مصر والمغرب (١٠٥-١٠٦).

(٣) ليبيا: اسم قديم ينحدر من الجغرافية القديمة، وتسمى: لوبيا أيضاً، وهي البلاد الواقعة بين حدود مصر شرقاً، وتونس غرباً، والبحر الأبيض المتوسط شمالاً، وحدود السودان جنوباً، وتتكوّن ليبيا من ثلاثة أقسام: طرابلس، وبرقة، وفزّان، انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١-٤).

(٤) برقة: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى كثيرة بين الإسكندرية وأفريقية انظر معجم البلدان (١٣٣/٢) وكانت برقة قبل الفتح الإسلامي تسمى: انطابلس، وهي كلمة روميّة معناها بالعربية: خمس مدن هي: طوشيرا، وسميت فيا بعد: اوسينولي واسمها اليوم: طوكره، وسيرين أو قورين، واسمها اليوم: قرنة أو شحات، ومدينة برنيق، وقد بنيت على أنقاضها مدينة بني غازي، ومدينة أبولونيا: واسمها اليوم سوسة. والمدينة الخامسة هي مدينة: بارش، وسمّيت فيا بعد: أبطوليائيس، واسمها اليوم: المرج، وهي مدن قديمة أسسها اليونان في أزمان مختلفة، وكانت موجودة قبل الفتح الإسلامي، وكان لها شأن في التاريخ القديم، وما زالت معروفة إلى اليوم. انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١١-١٢).



خريطة الفتح العربي في ليبيا
تبين الطرق التى سلكتها الجيوش العربية فى ذهابها إلى ليبيا لفتحها

وكانت بَرْقَة قبل الفتح الإسلامي تابعة للإسكندرية تحت حكم الرُّوم، وكانت أخبار فتح المسلمين لمصر قد انتشرت في كلِّ البلاد المجاورة، وقد اشتملت تلك الأخبار على ما أظهره المسلمون من شجاعة وإقدام، وعلى ما طبّقوه من عدل ومساواة واحترام معابد المغلوبين وأملاكهم وأعراضهم، فكانت هذه الأخبار مطمئنة لنفوس أهل بَرْقة.

وقد انتهى عمرو من فتح الإسكندرية الأولى في ذي القعدة من سنة إحدى وعشرين الهجرية الموافق النصف الأخير من شهر أيلول (سبتمر) من سنة (٦٤٢م)، فسار بجيشه الى برقة لفتحها، ففتحها عمرو وصالح أهلها على الجزية[١]، وكان ذلك سنة اثنتين وعشرين الهجريّة[٢] وفي رواية أخرى أنّ فتحها كان سنة إحدى وعشرين الهجرّية[٣].

وفتحها سنة اثنتين وعشرين الهجرّية أصحّ، لأنّه من المعقول أن يبقى عمرو في الإسكندرية بعد فتحها حتى تستقر أمورها ويسيطر عليها سيطرة كاملة، فإذا كانت المسافة بين الإسكندرية وبرْقة لا تُقطع إلا بعشرين يوماً على الأقل سيراً عل الأقدام وعلى الدّواب، اتّضح لنا أنّ المدّة الباقية من شهري ذي القعدة وذي الحجّة لا تكفي لاستقرار الأمور في الإسكندرية، وإكمال التنقل بين الإسكندرية وبَرْقة، لذلك يبدو أن القول بفتحها سنة اثنتين وعشرين الهجريّة أقرب إلى الصحّة ويتفق مع المنطق السّليم.

وقد صالح عمرو أهل برقة على ثلاثة عشر ألف دينار[٤]، ولم يكن يدخل بَرْقة يومئذ جابي خراج، إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها[٥]، فكان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاثّ أو مُستحثّ، فكانوا أخْصَب قوم بالمغرب، ولم يدخلها فتنة، وكان عبدالله بن عمرو بن العاص يقول: «لولا مالي بالحجاز،

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٢٩-٢٣٠) والبلاذري (٣١٤) والطبري (١٤٤/٤) وابن الأثير (٢٥/٣) ومعجم البلدان (١٣٤/٢).

(٢) ابن الأثير (٢٥/٣).

(٣) الطبري (١٤٤/٤) والنجوم الزاهرة (٧٥/١).

(٤) فتوح مصر والمغرب (٢٢٩) والطبري (١٤٤/٤) والبلاذري (٣١٤).

(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٣٠).

لنزلت بَرْقة، فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها»[1].

وقد هدم المسلمون أسوار مدن بَرْقة، خوفاً من ارتداد أهلها ومحاربة المسلمين من وراء الأسوار[2] أو خوفاً من عودة الرُّوم إليها والدفاع عنها بالاستفادة من تلك الأسوار.

ومن بَرْقة، بعث عمرو إلى (زَوِيلَة)[3] عُقْبَةَ بن نافع الفِهْري، فافتتح زَوِيْلة صُلْحاً[4]. وكان فتحها سنة اثنتين وعشرين أيضاً.

ومن الواضح، أنّ سبب بعث هذه القوة بقيادة عقبة، هو لترصين فتح بَرْقة من الجنوب والجنوب الغربي، بالسيطرة على سكان زويلة وحرمانهم من التعرض بالمسلمين الفاتحين في برْقة، ولتأمين عمق سَوْقِيّ للفتح في برقة، ولتأمين طريق مواصلات جيش عمرو المتّجه من برقة نحو الغرب.

وكتب عمرو إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بعد فتح زويلة، يُعْلِمُهُ أنّه قد ولّى عُقْبة بن نافع الفِهْرِيّ المغرب، فبلغ زَوِيلَة، وأنّ منْ بين زَوِيلة وبرقة سلم كلّهم حسنة طاعتهم، قد أدّى مسلمهم الصّدقة، وأقرّ معاهدهم بالجزية، وأنّه قد وضع على أهل زويلة ومَنْ بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عمّاله أن يأخذوا الصّدقة من الأغنياء،

---

(١) البلاذري (٣١٤-٣١٥).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٢٢).

(٣) زويلة: بلدان أحدهما زويلة السودان مقابل إجدابية في البر، بين بلاد السودان وأفريقية، انظر معجم البلدان (٤١٨/٤)، وهي المقصودة هنا. وهي مدينة من مدن فزّان القديمة، وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة مرزق بنحو (١٥٠) كم وتبعد عن مدينة طرابلس الى الجنوب الشرقي بنحو (٧٧٠) كم. ويعبر عنها بعض المؤرخين والجغرافيين بزويلة السودان إحترازاً عن زويلة أفريقية التي بناها عبيد الله المهدي بقرب تونس، وكانت زويلة زمن الفتح الإسلامي عاصمة فزّان.

(٤) الطبري (١٤٤/٤) وابن الأثير (٢٠/٣).

فيردُّوها على الفقراء، ويأخذوا الجزية من الذمّة، فتحمل إليه بمصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر[1] ومن أهل الصلح صلحهم.

وقد فرض عمرو على أهل زويلة ثلاثمائة رأس من العبيد، وفرض عليهم ما يطيقونه، وهو ما يتفق مع وضع البلد حينذاك، إذ كانوا يتاجرون بالرّقيق، يستوردونه من الجنوب ويصدّرونه إلى الشمال.

وهكذا فتحت بَرْقة وشطر فَزّان.

ب. وتوجّه عمرو إلى طرابس على طريق السّاحل، وهو آمن أن يؤتى من الجنوب، لوجود عقبة في الجنوب، كما أمن عُقبة أن يؤتى من الشمال، لوجود عمرو في الشمال.

ومرّ عمرو في طريقه إلى طرابلس بمدينة (سُرْت)[2] ففتحها، ولم يجد عناء في فتحها، ولم يذكر أحد أنّها فتحت عَنْوة أو صلحاً، مما يدل على أنها لم تكن ذات خطر، فاكتفى منها المسلمون بالاستسلام، وسار المسلمون في طريقهم إلى طرابلس، ومرّوا في طريقهم إليها بـ (لَبْدَة)[3]، فوجدوها خراباً مهدّمة، وحواليها قليل من السكّان وهم خليط من

---

(١) الزرع الذي يسقى بالآلات وفي سقيه مشقة زكاته نصف العشر، والزرع الذي يُسقى بالمطر أو بما لا مشقة فيه فزكاته العشر.

(٢) سرت: مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى باسمها الآن، تبعد عن البحر إلى الجنوب بنحو (٤) أربعة كيلومترات وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو (٥٥٤) كم، وكانت محاطة بسور من التراب، وهي غير سرت المعروفة الآن، وكانت تسامت مدينة الزعفران المعروفة اليوم، انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٢٦).

(٣) لبدة: مدينة قديمة أسسها الفينيقيون في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد، تقع شرقي طرابلس بنحو تسعين كيلومتراً، وقد بنيت مدينة الخمس في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، على جزء كبير منها وبأنقاضها، انظر تفاصيل تاريخها في تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٢٧-٣١) وانظر ما جاء عن لبدة في معجم البلدان (٣١٨/٧).

البربر والرُّوم، ولم ينقل أحد من المؤرخين أنّهم وجدوا فيها أي مقاومة[١].

ونزل عمرو (أَطْرابُلُس)[٢] سنة اثنتين وعشرين الهجريّة، فنزل القبّة التي على الشَرْق من شرقيِّها[٣]، وحاصر المدينة فامتنع أهلها عن التّسليم، وتحصنوا داخل السور، وكان سور طرابلس من المناعة بحيث لم يقدر المسلمون أن يتسوّروه، كما لم يقدروا أن يقتحموا أبوابه. وكان السور يحيط بالمدينة من جهة الشرق والغرب والجنوب، ولم تكن المدينة مسوّرة من الشمال بينها وبين البحر.

وبقي المسلمون على حصارها نحو شهر لا يقدرون منها على شيء.

وفي ذات صباح، ذهب سبعة من المسلمين للاستطلاع أو للصيد، وكانوا مسلّحين بسيوفهم ورماحهم، فساروا حتى وصلوا إلى جهة السّور الغربيّة الشماليّة، فوجدوا السور غير متّصل بالبحر، لأنها لم تكن مسوّرة من الناحية الشمالية كما ذكرنا، وقد يكون البحر في حالة جزرٍ، مما زاد في اتِّساع الطريق بين نهاية السور والبحر، ورأوا أنّه من الممكن الوصول إلى داخل المدينة من هذه الفجوة، فدخلوها من فورهم من ناحية الكنيسة القديمة، وهو مكان مرتفع يقع في الشمال الغربي من المدينة،

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٣٢).

(٢) أطرابلس: مدينة في آخر أرض برقة وأول أرض أفريقية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٢٨٥) و(٦/٣٤) واسمها اليوم طرابلس، وهي مدينة كبيرة على البحر الأبيض المتوسط، عاصمة ليبيا حاليا. وهي مدينة قديمة فينيقية على أرجح الأقوال، أو قرطاجنيّة، وكانت تسمى: تريبولي، ومعناها المدن الثلاث، لأن كلمة (تري) معناها ثلاثة، و(بولي) معناها مدينة، انظر تفاصيل تاريخها في تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٣٣-٣٦).

(٣) هي الهضبة التي فيها قبّة الشيخ عبد الله الشعاب رحمه الله، وهي معروفة اليوم وعليها جامع عبد الله السقاب.

وقد أعملوا سيوفهم في رقاب الرُّوم، وعلت أصواتهم بالتهليل والتكبير. وسمع عمرو وبقية المسلمين تكبير إخوانهم داخل السّور، فأسرعوا إليهم، وتكاثر المسلمون، وعلت سيوفهم رقاب الرُّوم، فذهلوا وذعروا، فلم يسعهم إلا الفرار. وتدافعوا إلى الطرقات المؤدية إلى السفن الراسية على شاطىء المدينة ناجين بأنفسهم إلى عرض البحر، ففتح المسلمون المدينة، وغنموا كلّ ما فيها، وكانت غنائمُ كثيرة، باعها عمرو وفرّق ثمنها على المسلمين[1].

ولم يذكر أحد من المؤرخين، أنّ الرُّوم قاوموا المسلمين حين اقتحموا عليهم المدينة، ويبدو أنّ سبب ذلك هو أثر مباغتة المسلمين للرُّوم في دخول المدينة من مكان لا يتوقعونه وفي زمان لا يتوقعونه، فاستسلموا للمسلمين بدون مقاومة تذكر.

وقد هدم المسلمون سور المدينة، لأنّهم خافوا من انتقاض الرُّوم[2].

وكان أهل حصن (سَبْرَة)[3] قد تحصنوا لما نزل عمرو على طرابلس، فلما امتنعوا عليه بطرابلس أمنوا واطمأنوا. فلما فُتحت طرابلس، جنّد عمرو عسكراً كثيفاً وسيّره إلى سَبْرة، فصبّحوها وقد فتح أهلها الباب وأخرجوا مواشيهم لتسرح، لأنهم لم يكن بلغهم خبر فتح طرابلس، فوقع

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٣٠-٢٣١) وابن الأثير (٣/٢٥-٢٦) وانظر البلاذري (٣١٦) وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (٣٧-٣٨).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٠).

(٣) سبرة: اسم مدينة فتحت بعد طرابلس، انظر معجم البلدان (٥/٢٨-٢٩)، وهي مدينة: صَبْراتة تقع غربي مدينة طرابلس بنحو (٦٧) كلم على ساحل البحر الأبيض المتوسط، أنشأها الفينيقيون حوالي سنة (٩٠٠أو ٨٠٠) قبل الميلاد. وهي من أعظم المدن التي كانت في الشمال الأفريقي، وكانت أكبر من طرابلس، وأعظم منها عمراناً ومدنية، وأروج تجارة، انظر تفاصيل تاريخها في: تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٠-٤٢).

المسلمون عليهم ودخلوا البلد مكابرة وغنموا ما فيه وعادوا إلى عمرو[١].

وكان الجند الذي جرّده عمرو لفتح سَبْرَة من الخيل الكثيفة التي بعثها من ليلته[٢]، لذلك استفاد فرسان عمرو من سرعة الحركة، فباغتوا أهل سَبْرة بالزمان، إذ وصلوا إلى المدينة قبل أن يتسامعوا بفتح طرابلس، فانهارت معنوياتهم، ولم يكن أمامهم مسلك يسلكونه غير الاستسلام.

لقد سبقت خيل عمرو الأخبار، فباغت فرسانُه المدافعين عن سَبْرة، وشلّوا تفكيرهم، وأجبروهم على الاستسلام، وكان الفرسان فاتحو سَبْرة بقيادة عبدالله بن الزبير بن العَوّام[٣].

ولا شكّ في أنّ أخبار حصار المسلمين لطرابلس وصلت إلى أهل سَبْرة (صبراتة) إذ ليس من المعقول أن يبقى المسلمون محاصرين لطرابلس نحو شهر، ولا تصل أخبارهم إليها، خصوصاً لما بينها وبين طرابلس من الروابط الوثيقة، ويظهر أنّه لما طال حصار المسلمين لطرابلس، ظنّ أهل صبراتة أنّهم لا يقدرون على فتحها، فاستكانوا لهذا الظن وأمنوا. وإذا عجز المسلمون عن فتح طرابلس - في ظنّهم - فهم أعجز عن فتح صبراتة، لأنّ سورها أقوى من سور طرابلس، وسكّانها أكثر من سكان طرابلس، فلم يهتموا لأمر المسلمين كثيراً، ولم يعملوا على وقاية مدينتهم من إغارة المسلمين[٤]، فاستهانوا بالمسلمين، فكلّفتهم هذه الاستهانة غاليا.

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٣١) وابن الأثير (٣/٢٦).
(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٣١).
(٣) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي(٢/٣٦-٩١).
(٤) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٢).

جـ. ولما انتهى المسلمون من فتح صبراتة، ساروا إلى (شَروس)[1]، وهي أكبر عواصم البربر القديمة في جبل (نَفُوْسة)[2] التي كانت موجودة زمن الفتح الإسلامي، وما زالت خرائبها إلى اليوم، وكانت إحدى عواصم الجبل، وكانت تحتوي على نحو ثلاثمائة قرية، والعاصمة الأخرى هي (جادو)[3].

وما زال المسلمون يحاولون فتح شَروس حتى فتحوها، ولكننا لا ندري هل فتحت صلحاً أو عَنْوة، إذ لم يتطرق إلى ذلك أحد من المؤرخين وغيرهم[4].

وقبل أن يغادر عمرو مدينة سَرُوْس (شَروس)، كتب إلى عمر بن الخطاب في المدينة المنوّرة يستأذنه في فتح أفريقيّة (تونس): «إنا قد بلغنا طرابلس، وبينها وبين أفريقيّة تسعة أيام، فإن رأى أميرَ المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل»، فلم يوافقه عمر، وردّ عليه بكتاب هذا نصّه: «لا، إنها ليست بأفريقية ولكنها المفرِّقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيتُ»، وذلك أنّ أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الرُّوم

---

(١) شروس: ويقال سَرُوْس - بمهملتين، وهي مدينة جليلة في جبل نفوسة من ناحية أفريقية، وهي كبيرة آهلة، بينها وبين طرابلس خمسة أيام، بينهما حصن لبدة، انظر معجم البلدان (٧٨/٥).

(٢) جبل نفوسة: هو سلسلة جبال صخرية تمتدّ من الغرب إلى الشرق، وهو جزء من سلسلة جبال أطلس التي تبتدىء من بحر الظلمات وتمتد بالمغرب والجزائر وتونس وليبيا، وتنتهي إلى جبال قُماطة غربي مدينة الخمس الليبية بقليل،وما زال إلى اليوم موطن البربر، وفيه عيون جارية، انظر التفاصيل في معجم تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٣-٤٤).

(٣) جادو: مدينة كبيرة في جبل نفوسة، انظر معجم البلدان (٣٤/٣).

(٤) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٤).

شيئاً، فكانوا يغدرون به كثيراً، وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم، وكان خبرهم قد بلغ عمر[١].

د. ولما أنجز عمرو فتح طرابُلُس[٢] - بضم الباء واللام، أو بضم الباء وسكون اللام - وجّه بُسْرى بن أبي أرطأة العَامِريّ القُرَشِيّ[٣] إلى (وَدَّان)[٤]، وذلك في سنة ثلاث وعشرين الهجرية، فصالح أهلها على ثلاثمائة رأس وستين رأساً من العبيد[٥].

وبعد أن غادرهم بُسْر ارتدوا وبقوا على ردّتهم إلى أن فتحهم عُقْبة ابن نافع سنة ست وأربعين الهجرية[٦].

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٣٢) والبلاذري (٣١٦).

(٢) في فتوح مصر والمغرب (٢٦٢): أنّ عمرو بن العاص بعث بسر بن أبي أرطأة وهو محاصر لأهل طرابلس الغرب، وأرجح ما ذكرته في أعلاه لأنّ عمرو بن العاص لا يمكن أن يفرِّط بقائد مثل بسر وبجزء من قوّاته في إرسالها إلى هدف آخر ثانويّ، بينما هو بحاجة إلى قيادة بسر وكلُ جندي من جيشه لفتح هدفه السّوقي: طرابلس، أما بعد أن تمّ لعمر فتح طرابلس، فمن المعقول أن يستغني عن بشر والقوات التي جعلها بقيادته، لفتح ودّان.

(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا قادة فتح المغرب العربي (٢/١٣-٣٥).

(٤) ودّان: كلمة ودان مأخوذة من الود، وهو المحبّة، وهي مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبيّة، ويتبعها: زلة، وهون، وسكونة، وما جاورها، ويطلق على الكل: بلاد ودّان. وكانت ودّان زمن الفتح الإسلامي هي العاصمة، وكان عليها سور، وقد تهدّم ولم يبق منه الآن إلا آثاره وقد امتدّ عمرانها حديثاً خارج السور. وتقع ودّان وهون وسوكنة على خطٍ طوله نحو ستين كيلومتراً، يبتدىء من الشرق بودّان، وينتهي من الغرب إلى سوكنة، مع انحراف سوكنة إلى الجنوب قليلا وتقع زلة في الجنوب الشرقي من ودّان بنحو (١٦٠) كم وتقع ودّان في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو (٧٦٩) كم، وإلى جنوبي سرت بنحو (٢٨٠) كم انظر معجم البلدان (٨/٤٠٥) وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٧).

(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٦٢) واليعقوبي (٢/١٣٤) وتهذيب ابن عساكر (٣/٢٢١) ومعجم البلدان (٨/٤٠٦) وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٩-٧٠).

(٦) معجم البلدان (٨/٤٠٦).

لقد فتح عمرو ليبيا: من بَرْقة إلى صَبْراتة، ومن بلاد الجنوب شَروس وزويلة، وودّان، واستغرقت أعمال الفتح من سنة اثنتين وعشرين الهجرية إلى سنة ثلاث وعشرين الهجرية، وقد فتحت هذه البلاد عَنْوَة (بالحرب) إلاّ بَرْقَة وزويلة، فإنها فتحتا صلحاً[1].

وكان هدف فتح بقَرْقة حماية البلاد المصرية من تعرّض الرُّوم برّاً من الغرب، وكان هدف فتح زويلة هو حماية بَرْقة من تعرض الرّوم وحلفائهم الليبيين براً من الجنوب والجنوب الغربي، وكان هدف فتح منطقة طرابلس هو حماية بَرْقة من تعرّض الروم براً من الغرب، وحماية منطقة زويلة من تعرّض الروم برّاً من الشمال والشمال الغربي، وكان الهدف من فتح منطقة وَدان، هو حماية منطقة طرابلس من الجنوب والجنوب الشرقي من تعرّض الرُّوم وحلفائهم الليبيين بالمسلمين.

ولكن لم يكن فتح عمرو لليبيا فتحاً مستداماً، بل انتقض كثير من أجزائها، فاستعاد المسلمون فتحها من جديد[2]، ولكن الفضل الأول في فتحها كان لعمرو بن العاص.

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٨).

(٢) انظر التفاصيل في: تاريخ الفتح العربي في ليبيا:
(أ) الفتح الثاني (٤٩ هـ-٥٤ هـ).
(ب) الفتح الثالث (٥٥هـ- ٥٩هـ).
(جـ) الفتح الرابع (٦٠ هـ -٦١ هـ).
(د) الفتح الخامس (٦٢ هـ - ٦٦ هـ).
(هـ) الفتح السادس (٦٧ هـ - ٧٧ هـ).
(و) الفتح السابع (٧٨ هـ).
(ز) الفتح الثامن (٧٩ هـ - ٨٥ هـ).
(ح) الفتح التاسع (٩٦ هـ - ٩٧ هـ).
(ط) الفتح العاشر (٩٨ هـ-٩٩ هـ).

وكان عمرو قبل مغادرته مصر، قد اتفق مع المقوقس أن يخبره بكل ما يحدث بعده في مصر من حوادث مصيريّة. وبعد أن انتهى عمرو من فتح شَروس، وقبل أن يرتحل عنها، أتاه كتاب من المقوقس يذكر له فيه، أنّ الرُّوم يريدون نكث العهد، ونقض ما كان بينهم وبينه، وكان عمرو قد عاهد المقوقس ألا يكتمه أمراً يحدث، فانصرف عمرو راجعاً مبادراً لما أتاه[1]، وعاد إلى مصر قبل مقتل عمر بن الخطاب في (٢٧ ذي الحجّة) من سنة ثلاث وعشرين الهجريّة، ونزل عُقْبة بن نافع في زَوْيلة ليتمّ فتحها سنة ثلاث وعشرين الهجريّة، ووصل بَرْقة قبل مقتل عمر بن الخطّاب[2].

٥. في النُّوْبَة[3]

لما فتح المسلمون مصر، غزوا النُّوْبَة، فقفل المسلمون بالجراحات وذهاب الحَدَق من جودة الرّمي، فسمّوا رماة الحَدَق[4]، فقد أراد عمرو أن يؤمِّن مصر من الجنوب فبعث عُقْبة بن نافع الفِهْرِيّ، فدخلت خيول المسلمين النُّوبة كما تدخل صوائف[5] الرُّوم، فلقي المسلمون بالنُّوبة قتالاً شديداً. لقد لاقاهم النوبيّون فرشقوهم بالنّبل، حتى جرح عامّتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحَدَق مفقوءة، فسمي النوبيون: (رماة الحَدَق). ولم يصالحهم عمرو ودأب على مهاجمتهم بين حين وآخر، حتى عُزل عن مصر وولي عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، فصالحهم، فكانت

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٣٢).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٤).

(٣) النوبة: بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر، أول بلادهم بعد أسوان. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٢٣/٨).

(٤) الطبري (١١١/٤) وابن الأثير (٥٦٧/٢).

(٥) صوائف: جمع صائفة: وهي القوة الغازية صيفاً.

بينهم وبين المسلمين هدنة يعطيهم المسلمون شيئاً من القمح والعدس، ويعطيهم النوبيون رقيقاً[1].

وقد ذكر شيخ من حِمْيَرَ قال: «شهدت النّوبة مرتين في ولاية عمر ابن الخطّاب، فلم أر قوماً أحَدّ في حرب منهم؛ لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم: أين تحبّ أن أضع سهمي منك؟ فربما عبث الفتى منّا، فقال: في مكان كذا! فلا يخطئه!! كانوا يكثرون الرّمي بالنّبل، فما يكاد يُرى من نبلهم في الأرض شيء[2]!! فخرجوا إلينا ذات يوم فصافُّونا، ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسِّيوف، فما قدرنا على معالجتهم: رمونا حتى ذهبت الأعين، فعُدّت مائة وخمسين عَيْناً مفقوءة، فقلنا: ما لهؤلاء خير من الصّلح، إنّ سلبهم لقليل، وإنّ نكايتهم لشديدة، فلم يصالحهم عمرو، ولم يزل يكالبهم حتى نُزِع، وولي عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح، فصالحهم»[3].

وقد فتحت مصر سنة عشرين الهجرية كما ذكرنا، والتعرّض بالنّوبة الأول بقيادة عقبة بن نافع لا بد أن يكون بعد فتح الصَّعيد، فمن الواضح أنّ التعرض الإسلامي بالنوبة كان سنة إحدى وعشرين الهجريّة[4]، لأنّ عقبة بعد ذلك أصبح ميدان جهاده في ليبيا كما ذكرنا، ولم يعد إلى مصر قائداً، بل تولّى أفريقية، واقتصر نشاطه العسكري على تلك المناطق والأصقاع.

وهكذا كان عمرو أوّل من فكّر في فتح النّوبة ومهّد لفتحها.

---

(١) البلاذري (٣٣١-٣٣٢).
(٢) يريد أن نبلهم تصيب أهدافها فتقع في الأجسام لا في الأرض.
(٣) البلاذري (٣٣١-٣٣٢).
(٤) انظر كتابنا: عقبة بن نافع الفهري (١١٣) - ط ٤.

٦. في أفْرِيقِيَّة[١]

تولى عثمان بن عفّان رضي الله عنه الخلافة بعد مقتل عمر بن الخطّاب رضي الله عنهما، وذلك سنة أربع وعشرين الهجريّة[٢].

وكان عمرو قد استأذن عمر بن الخطاب في غزو إفريقية، فلم يوافق عمر على فتحها كما ذكرنا، وكان عمرو قد بعث بعثاً قبل سنة خمس وعشرين الهجرية إلى المغرب، فأصابوا غنائم، فكتب إلى عثمان يستأذنه في الغزو إلى أفريقية، فأذن له[٣]، أي أنّ هذا البعث إلى أفريقية كان سنة أربع وعشرين الهجرية كما يبدو، أي بعد تولية عثمان الخلافة.

وفي سنة خمس وعشرين الهجريّة، سيّر عمرو بن العاص إلى أطراف أفريقية عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح غازياً بأمر عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح من جند مصر، ولما سار عبدالله إليها، أمدّه عمرو بالجنود، فغنم هو وجنده، وعاد عبدالله إلى مصر، فكتب إلى عثمان يستأذنه في غزو أفريقية، فأذن له في ذلك[٤].

وكانت قوة عبد الله بن سعد بن أبي سرح على الخيل[٥]، أي أنّها

---

(١) أفريقية: اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية، وينتهي آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس، والجزيرتان في شمالها، فصقليّة منحرفة إلى الشرق، والأندلس منحرفة عنها إلى جهة الغرب، وحدّ أفريقية من طرابلس إلى بجاية، وقيل: إلى مليانة، وقال آخر: حدّها من برقة شرقاً الى طنجة غرباً، وعرضها من البحر إلى الرّمال التي في أول بلاد السودان، انظر التفاصيل في: معجم البلدان (٣٠٠/١) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٤٨).

(٢) الطبري (٢٤٢/٤) وابن الأثير (٧٩/٣) والعبر (٢٧/١).

(٣) الطبري (٢٥٠/٤).

(٤) ابن الأثير (٨٦/٣) وانظر الطبري (٢٥٠/٤) وفي رياض النفوس (٤٤/١) أنه دخلها سنة سبع وعشرين الهجرية.

(٥) الطبري (٢٥٠/٤).

كانت مؤلفة من الفرسان السريعي الحركة، فكانت غزوته هذه غزوة استطلاعية، مهّدت له السبيل لفتح أفريقية[1] بعد أن تولى مصر خلفاً لعمرو بن العاص سنة خمس وعشرين الهجرية[2]، أو في سنة ست وعشرين الهجرية[3] أو في سنة سبع وعشرين الهجرية[4].

وقد ذكرنا من قبلُ، أنّ عمرو بن العاص، كان أوّل من فكر بفتح أفريقية من القادة المسلمين، وذلك لحماية ليبيا من تعرّض الرُّوم وحلفائهم بالمسلمين الذي فتحوا طرابلس والبلاد التي حولها من جهة أفريقيَّة، لأنّ الرُّوم حينذاك كانوا هناك، وكان المسلمون يخشون تعرضاً برّياً من الغرب باتجاه طرابلس، لاستعادة ليبيا من المسلمين، ولكنّ عمر بن الخطّاب كان يحرص غاية الحرص على أرواح المسلمين، ولا يحبّ أن يعرِّض المسلمين للأخطار.

إلا أنّ الأحداث بعد مقتل عمر بن الخطاب، وتولي عثمان بن عفّان الخلافة، فرضت نفسها على المسلمين، نظراً لمحاولة الرُّوم وحلفائهم استرداد ليبيا بمهاجمتها برّاً وبحراً، فسمح عثمان للمسلمين بفتح أفريقية.

---

(١) انظر التفاصيل في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (٥٤/١-٦٢) وانظر سيرته المفصلة في هذا الكتاب (٥١/١-٧٤).

(٢) النجوم الزاهرة (٧٩/١) وتهذيب الأسماء واللغات (٢٧٠/١) وفتوح مصر والمغرب (٢٣٥) وأسد الغابة (١٧٣/٣) والإصابة (٧٧/٤).

(٣) ابن خلدون (١٢٨/٢ ملحق) وتاريخ ابي الفدا (١٦٧/١).

(٤) الطبري (٢٥٣/٤) وابن الأثير (٨٨/٣) والعبر (٢٩/١).

في الاضطرابات الداخلية

١. على عثمان

أقرّ عثمان بن عفّان على مصر عمرو بن العاص سنتين[١] في رواية، وثلاث سنوات في رواية أخرى، وأربع سنوات أو نحوها في رواية ثالثة، ثم عزله عنها وولاّها عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح العامِري، وكان ذلك بدء الشرّ بين عمرو وعثمان[٢]، فغضب عمرو على عثمان غضباً شديداً، وحقد عليه[٣] وكان عزل عمرو عن مصر سنة سبع وعشرين الهجرية على أصحّ الأقوال.

وكان عثمان قبل أن ينزع عمرو نهائياً عن مصر، قد نزعه عن خراجها، واستعمل عبد الله بن سعد على الخَراج، فتباغيا، فكتب عبدالله بن سعد إلى عثمان يقول: «إنّ عَمْراً كسر الخَراج»، وكتب عمرو: «إنّ عبدالله كسر عليّ حيلة الحرب»، فكتب عثمان إلى عمرو: «انصرف»، وولّى عبدالله بن سعد الخَراج والجند. وقدم عمرو على عثمان في المدينة المنوّرة مغضباً، فدخل على عثمان وعليه جُبَّة يمانية محشوة قطناً، فقال له عثمان: «ما حشو جُبّتك؟» قال عمرو: «قد علمت أنّ حشوها عمرو»، فقال عثمان: «لم أرد هذا، إنما سألت: أقطن هو أم غيره؟»[٤].

وبعث عبد الله بن سعد إلى عثمان بمالٍ من مصر، قد حشد فيه، فدخل عمرو على عثمان، فقال يا عمرو! هل تعلم أنّ تلك اللِّقاح[٥] درّت

---

(١) الطبري (٢٥٣/١).

(٢) الاستيعاب (١١٨٣/٣).

(٣) الطبري (٢٥٦/٤).

(٤) الطبري (٢٥٦/٤) وابن الأثير (٣٨/٣).

(٥) اللِّقاح: جمع اللِّقحة، وهي الناقة الحلوب الغزيرة اللّبن.

بعدك!»، فقال عمرو: «إنّ فصَالها[1] هلكت»[2]، وفي رواية أخرى، أن عَمْراً أجاب عثمان: «لأنّكم أعجفتم أولادها»، فكنّى عثمان عن خراج مصر باللّقاح، وكنَّى عمرو عن جور الوالي بعده، وأنه حرم الرزق أهل العطاء، ووفّره على السُّلطان[3].

ومضى عمرو يستشير الناس على عثمان ويحرِّضهم على الثورة، فأرسل عثمان إليه يوماً وقال له: «يا ابن النَّابغة!.... أتطعن عليّ وتأتيني بوجهِ وتذهب عني بآخر؟!...» فقال عمرو: «إنّ كثيراً مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل، فاتّقِ الله يا أمير المؤمنين في رعيَّتك»، فقال عثمان: «والله لقد استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك!»، فقال عمرو: «قد كنت عاملاً لعمر بن الخطّاب، ففارقني وهو عني راضٍ»، فقال عثمان: «وأنا والله لو أخذتك بما أخذك به عمر لاستقمت، ولكني لنْتُ عليك فاجترأت عليّ. أما والله لأنا أعز منك نفراً في الجاهلية وقبل أن ألي هذا السُّلطان»، فقال عمرو: «دَعْ عنك هذا، فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ وهدانا به، قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك عفان، فوالله للعاص كان أشرف من أبيك»، فخرج عمرو من عند عثمان وهو محتقد عليه، يأتي القادة فيؤلبهم عليه، ويعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان، ثم خرج إلى فلسطين[4].

وأرسل عثمان إلى عمّاله، وأرسل إلى عمرو معهم، وسألهم الرأي، فقال عمرو: «يا أمير المؤمنين! إنك قد ركبتَ الناس بمثل بني أُميّة، فقلت وقالوا، وزغتَ وزاغوا، فاعتدل أو اعتزل، فإن أبيتَ، فاعتزم

---

(١) الفِصال: جمع الفَصِيْل، وهو ولد الناقة أو البقرة بعد فطامة وفصله عن أمّه.
(٢) الطبري (٢٥٧/٤) وابن الأثير (٩٣/٣).
(٣) العقد الفريد (٤٦٣/٢).
(٤) الطبري (٣٥٦/١ - ٣٥٧).

عزماً وأقدم قُدُما ». فقال له عثمان: « مالِك! قَمِل فَرْوُك؟ أهذا الجدّ منك! »، فسكت عمرو حتى تفرّقوا، فقال: « والله يا أمير المؤمنين! لأَنتَ أكرم عليّ من ذلك، ولكني علمتُ أنّ الباب مَنْ يبلّغ الناس قولاً كلّ رجل منّا، فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي، فأقود إليك خيراً، وأدفع عنك شرّا »[1].

وفي سنة خمس وثلاثين الهجرية، استدعى عثمان عمّاله من أمصارهم واستدعى معهم عمرو بن العاص، فقدموا عليه في الموسم، فقال: « ويحكم! ما هذه الشكاية والإذاعة؟ والله إني لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يُعْصَب هذا إلا بي! »، فطأنوه وأكّدوا له أنهم وأمصارهم في خير. وقال عثمان: « فما ترى يا عمرو؟ »، قال: « أرى أنّك قد لِنْتَ لهم وتراخيت عنهم، وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيْك، فتشتدّ في موضع الشدّة، وتلين في موضع الّلين. إنّ الشدّة تنبغي لمن لا يألو الناس شرّاً، والّلين لمن يخلف الناس بالنّصح، وقد فرشتها جميعاً الّلين »[2].

وقدم أهل مصر مع القادمين من الأمصار إلى المدينة المنوّرة لخلع عثمان، فأعاد الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أهل مصر إلى ديارهم. وخرج عثمان إلى المسجد فجلس على المنبر،فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: « أما بعد! فإن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمرٌ، فلما تيقّنوا أنه باطل ما بلغهم عنه، رجعوا إلى بلادهم » فناداه عمرو بن العاص من ناحية المسجد: « اتَّقِ الله يا عثمان، فإنك قد ركبتَ نهابير[3] وركبناها معك، فتُبْ إلى الله نَتبْ »، فناداه عثمان:

---

(١) الطبري (٣٣٤/٤ - ٣٣٥) وابن الأثير (١٥٠/٣).

(٢) الطبري (٣٤٢/٤ - ٣٤٣) وانظر ابن الأثير (١٥٤/٣ - ١٥٥).

(٣) النهابير: المهالك.

«وإنك هناك يا ابن النّابغة! قَمِلَتْ والله جبّتك منذ تركتك من العمل»، فنودي من ناحية أخرى: «تُبْ إلى الله وأظهر التّوبة، يكفّ الناس عنك»، فرفع عثمان يديه مدّاً، واستقبل القبلة، وقال: «اللّهم إني أوّل تائب تاب إليك»، ورجع إلى منزله. وخرج عمرو حتى نزل منزله بفلسطين، فكان يقول: «والله إن كنتُ لألقى الراعي فأحرِّضه عليه»[1].

وبينما عمرو في قصره بفلسطين، ومعه ابناه محمّد وعبد الله وغيرهما، إذ مرّ بهم راكب، فناداه عمرو: «من أين قدم الرّجل؟»، فقال: «من المدينة»، قال: «ما فعل الرّجل؟» يعني عثمان، قال: «تركته محصوراً شديد الحصار»، قال عمرو: «أنا أبو عبد الله! قد يضرط العَيْر والمكواة في النار!»[2]. ولم يبرح عمرو مجلسه حتى مرّ به راكب آخر، فناداه عمرو: «ما فعل الرَجل» يعني عثمان، قال: «قُتِلَ»، قال: «أنا أبو عبد الله! إذا حككتُ قَرْحةً نكأتها، إن كنتُ لأحرِّض عليه، حتى إني لأحرِّض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل».

ومهما تكن أسباب عزل عمرو عن مصر، فقد أثّر عزله في نفسه أعظم الأثر، ولم يغفر أمر عزله لعثمان، فظل حاقداً عليه مناوئاً له، وكان يرجو تغييره لعلّ مَنْ يخلفه يعيده إلى منصبه الأثير.

٢ . مع مُعَاوِيَة

تولّى الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة بعد مقتل عثمان ابن عفان رضي الله عنه سنة خمس وثلاثين الهجريّة[3].

---

(١) الطبري (٣٦٠/٤) وابن الأثير (١٦٣/٣).

(٢) مثل يضرب للرجل يخاف الأمر فيجزع قبل وقوعه فيه، انظر مجمع الأمثال (٩٥/٢).

(٣) الطبري (٤٢٧/٤) وابن الأثير (١٩٠/٣) والعبر (٣٦/١).

وفرّق الإمام عليّ عماله على الأمصار في سنة ست وثلاثين الهجريّة[1]، فلم يكن عمرو من بينهم.

وكان عمرو قد سار عن المدينة المنورة قبل أن يقتل عثمان، فسكن فلسطين، ومعه ابناه عبد الله ومحمّد. فبلغه بيعة عليّ فاشتدّ عليه، ولكنّه أقام ينتظر ما يصْنع الناس. وسمع أن معاوية بن أبي سفيان بالشام لا يبايع علياً، وكان معاوية أحب إليه من عليّ، فدعا ابنيه عبد الله ومحمّداً فاستشارهما وقال: «ما تريان؟ أما عليّ، فلا خير عنده، وهو يُدلّ بسابقته، وهو غير مشركي في شيءٍ من أمره»، **فقال له عبدالله**[2]: «توفّى النبيّ ﷺ وأبو بكر وعمر وهم عنك راضون، فأرى أن تكفّ يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فتبايعه»، وقال له ابنه **محمّد**[3]: «أنت ناب من أنياب العرب، ولا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت!»، فقال عمرو: «أما أنت يا عبد الله، فأمرتني بما هو خير لي في آخرتي وأسلم لي في ديني، وأما أنت يا محمّد، فأمرتني بما هو خير لي في دنياي وشرّ لي في آخرتي»[4]، وكان عمرو قد تلقى كتاباً من معاوية: «أما بعد! فإنه كان من أمر عليّ وطَلْحَة والزُّبَيْر وعائشة ما قد بلغك، فقد سقط إلينا مروان[5] في رافضة أهل البصرة، وقدم عليّ جرير بن عبد الله[6] في بيعة عليّ، وحبست نفسي عليك حتى تأتيني، فأقدم على بركة الله»[7].

---

(1) الطبري (٤/٤٤٢) وابن الأثير (٣/٢٥١).

(2) عبد الله بن عمرو بن العاص: انظر سيرته في طبقات ابن سعد (٤/٢٦١).

(3) محمد بن عمرو بن العاص: انظر سيرته في أسد الغابة (٤/٣٢٧).

(4) الطبري (٤/٥٥٨ ـ ٥٦٠) وابن الأثير (٣/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥).

(5) يريد: مروان بن الحكم.

(6) جرير بن عبد الله البجلي: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٦ - ٣٧١) وكتابنا: سفراء النبي ﷺ.

(7) اليعقوبي (٢/١٦١) والإمامة والسياسة (١/٩٥).

وخرج عمرو ومعه أبناه عبدالله ومحمّد، حتى قدم على معاوية، فوجد أهل الشام يحضون معاوية على الطّلب بدم عثمان، فقال عمرو: «أنتم على الحق! اطلبوا بدم الخليفة المظلوم»[1]، فبايع عمرو معاوية على الطّلب بدم عثمان، وكان ذلك سنة ست وثلاثين الهجرية[2]، وكتبا بينهما كتاباً هذا نصّه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تعاهد عليه معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ببيت المقدس من بعد قتل عثمان ابن عفّان، وحمل كلّ واحد صاحبه الأمانة. إن بيننا عهد الله على التناصر والتخالص والتناصح في أمر الله والإسلام، ولا يَخْذُل أحدنا صاحبه بشيء، ولا يتخذ من دونه وليْجَةَ[3]. ولا يحول بيننا ولد ولا والد أبداً ما حيينا فيما استطعنا، فإذا فُتِحَت مصر، فإن عَمْراً على أرضها وإمارته التي أمّره عليها أمير المؤمنين، وبيننا التناصح والتوازر والتعاون على ما نابنا من الأمور، ومعاوية أمير على عمرو بن العاص في الناس وفي عامّة الأمر حتى يجمع الله الأمّة، فإنهما يدخلان في أحسن أمرهما على أحسن الذي بينهما في أمر الله الذي بينهما من الشرط في هذه الصحيفة»، وكتب وَرْدان سنة ثمان وثلاثين الهجرية[4].

وقد التحق عمرو بمعاوية سنة ست وثلاثين الهجرية كما ذكرنا، وجرى توقيع هذا الكتاب بينهما سنة ثمان وثلاثين الهجريّة، ويبدو أنّ المفاوضات طالت بين الرجلين حتى اتّفقا على ما اتفقا عليه، والمهم في

---

(١) الطبري (٤/٥٦٠) وابن الأثير (٣/٢٧٥ - ٢٧٦).

(٢) الطبري (٤/٥٥٨) وابن الأثير (٣/٢٧٤).

(٣) الوليجة: بطانة الرّجل، ومَنْ تتخذه معتمداً عليه من غير أهلك. ويقال: هو وليجتكم: لصيق بكم. (ج) ولائج.

(٤) طبقات ابن سعد (٤/٢٥٤) وانظر الإمامة والسياسة (١/٩٦)، ووردان مولى عمرو ابن العاص.

هذه الاتفاقيّة هو تولي عمرو ولاية مصر، وهو ما يحرص عليه ويتمناه، وما كان بإمكانه أن يحصل عليه من الإمام عليّ بن أبي طالب، فأمكن الحصول عليه من معاوية، وبهذا حقّق عمرو أملاً من أكبر آماله.

وهكذا انحاز عمرو إلى جبهة معاوية، وربط مصيره بمصير معاوية، وما فعل ذلك حبّا بمعاوية، بل حباً بمصر وولاية مصر.

٣ . في صِفِّيْن[١]

بدأ الاقتتال في صِفِّين بين قوّات عليّ بن أبي طالب من جهة وقوات معاوية بن أبي سفيان من جهة أخرى سنة ست وثلاثين الهجرية[٢] وانتهت سنة سبع وثلاثين الهجرية[٣]، وكان الإمام عليّ في مائة وعشرين ألفاً، ومعاوية في تسعين ألفاً، وقتل في الحرب بينهما سبعون ألفاً[٤]، منهم من أصحاب عليّ خمسة وعشرون ألفاً، ومن أصحاب معاوية خمسة وأربعون ألفاً، وقتل مع عليّ خمسة وعشرون صحابياً بدرياً، وكان مدّة المقام بصفّين مائة يوم وعشرة أيام، وكانت الوقائع تسعين وقعة[٥].

وبلغ معاوية خروج عليّ لقتاله، فاستشار عَمْراً فقال: «أما إذا سار عليّ، فسر إليه بنفسك، ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك»، فتجهز معاوية، وتجهز الناس، وحضّهم عمرو وضعّف علياً وأصحابه وقال: «إنّ أهل العراق قد فرّقوا جمعهم ووهّنوا شوكتهم وفلّوا حدّهم. وأهل

---

(١) صفّين: موضع بقرب الرّقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي، بين الرقّة وبالس. انظر معجم البلدان (٥/٣٧٠).

(٢) الطبري (٤/٥٦١) وابن الأثير (٣/٢٧٦).

(٣) معجم البلدان (٥/٣٧٠) والعبر (١/٣٨).

(٤) في العبر (١/٣٨): قتل بين الفريقين ستون ألفاً.

(٥) معجم البلدان (٥/٣٧٠)، وانظر التفاصيل في الطبري (٤/٥٦٣-٥٧٣) و(٥/٥-٦٣) وابن الأثير (٢٧٦-٣١٦).

البصرة مخالفون لعليّ بن قُتل منهم، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل[1]، وإنما سار عليٌّ في شرذمة قليلة، وقد قتل خليفتكم، والله الله في حقِّكم أن تضيِّعوه وفي دمكم أن تُطلُّوه». وكتَّبَ معاوية أهل الشّام، وعقد لواءً لعمرو، ولواء لابنيه عبد الله ومحمّد، ولواء لغلام عمرو وَرْدَان، وعقد عليّ لواء لغلامه قَنْبَر. فقال عمرو:

هــل يُغْنِيَنْ وَرْدَانُ عَنّــي قَنْبَراً ... وتُغْنِي السَّكُونُ[2] عِني حِمْيَرا[3]
إذا الكُمَاةُ لَبِسُوا السَّنَوَّرا[4]

وبلغ ذلك عليّاً فقال:

لأُصْبِحَنَّ العــاصِيَ بن العــاصِي ... سبعين ألفاً عــاقــدي النَّواصِي
مُجَنَّبِيْنَ الخيــلَ بــالقِــلاصي[5] ... مُسْتَحقِبِيْنَ حَلَــقَ الــدِّلاص[6]

فلما سمع ذلك معاوية، قال: «ما أرى ابن أبي طالب إلا قد وفى لك»[7].

وكان عمرو المستشار الأول لمعاوية وموضوع سرِّه قبل نشوب

---

(١) انظر تفاصيل يوم الجمل في: الطبري (٤/٤٤٤ - ٥٤١) وابن الأثير (٣/٢٠٥ - ٢٦٤).
(٢) السَّكون: السَّكون بن أشرس بن كندة، قبيلة يمانية في الأصل، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٢٩).
(٣) حمير: بنو حمير بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان، قبيلة كبيرة يمانية في الأصل انظر جمهرة أنساب العرب (٤٣٢).
(٤) السنور: جملة السِّلاح. ولبوس من سَيْر يلبس في الحرب كالدِّرع.
(٥) القلاص: جمع قلوص، والقلوص من الإبل: الفتية المجتمعة الخَلْق، وذلك من حين تُركب إلى التاسعة من عمرها، ثم هي ناقة.
(٦) الدِّلاص: اللّين البرّاق الأملس. ودرع دلاص: ليِّنة.
(٧) الطبري (٤/٥٦٣) وابن الأثير (٣/٢٧٩).

الاقتتال في صفّين[١]، واجتمع أهل الشّام إلى أمرائهم في ميدان المعركة وقبل الاقتتال، فخرج معاوية وعمرو يكتّبان الكتائب ويعبّيان الناس[٢] تمهيداً لنشوب الاقتتال. قال أحد شهود العيان يوم صفّين: «نظرت إلى عمرو بن العاص يوم صفّين، وقد وضِعَتْ له الكراسيّ، يصفّ الناس بنفسه صفوفاً ويقول: لقَصّ الشّارب، وهو حاسر...»[٣].

وكان عمرو يوم صفّين على خيل دمشق وخيول أهل الشام كلّها[٤]، ولما اشتد القتال بين الجانبين، شجّع عمرو معاوية على الصّبر قائلاً: «اليوم صبر وغداً فخر»[٥].

وكان عمرو يباشر القتال في القلب أيام صفّين بنفسه، فلما كان يوم من تلك الأيام، اقتتل أهل العراق وأهل الشّام حتى غابت الشّمس، فإذا كتيبة خَشْنَا، في نحو خمسمائة فيها عمرو، فاقبل الإمام عليّ في كتيبة أخرى نحو من عدد الذين مع عمرو، فاقتتلوا ساعة من الليل حتى كثرت القتلى بينهم، فَصَاح عمرو بأصحابه: «الأرضَ يا أهل الشّام»، فترجّلوا ودبَّ بهم، وترجّل أهل العراق، فكان عمرو يباشر القتال وهو يقول:

وصَبَرْنَــا عــلى مَواطِنِ ضَنْــكٍ وخُطوبٍ ترى البيــاض الوليــدا

وأقبل رجل من أهل العراق فخلص إلى عمرو وضربه ضربةً جرحه بها على العاتق وهو يقول: «أنا أبو السَّمْراء!». وأدركه عمرو، فضربه

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٩٠).
(٢) ابن الأثير (٣/٢٩٣).
(٣) طبقات ابن سعد (٤/٢٥٥).
(٤) الطبري (٥/١٢) وابن الأثير (٣/٢٩٤).
(٥) ابن الأثير (٣/٣٠٣).

ضربه أثْبَتَهُ، ثم انحاز عمرو في أصحابه، وانحاز أصحابه[1].

واقتتل الناس بصفِّين قتالاً شديداً لم يكن في هذه الأمّة مثله قط، حتى كره أهل الشّام وأهل العراق وملّوه من طول تباذلهم السّيف، فقال عمرو - وهو يومئذٍ على القتال - لمعاوية: «هل أنت مطيعي، فتأمر رجالاً بنشر المصاحف، ثمّ يقولون: يا أهل العراق! ندعوكم إلى القرآن وإلى ما في فاتحته إلى خاتمته، فإنّك إن تفعل ذلك يختلف أهل العراق، ولا يزيد ذلك أمرَ أهل الشّام إلاّ استجماعا»، فأطاعه معاوية، ففعل. وأمر عمرو رجالاً من أهل الشّام، فقُرىء المصحف ثمّ نادى: «يا أهل العراق! ندعوكم إلى القرآن»، فاختلف أهل العراق، فقالت طائفة: «أوَلسنا على كتاب الله وبيعتنا؟!»، وقال آخرون كرهوا القتال: «أجبْنَا إلى كتاب الله»، فلما رأى الإمام عليٌّ وَهْنَهُم وكراهَتهم للقتال، قارب معاوية فيما يدعوه إليه، واختلف بينهم الرُّسل[2].

٤. في التّحكيم

كان عمرو قد رأى أنّ أمر أهل العراق قد اشتدّ، وخاف الهلاك، فاقترح على معاوية رفع المصاحف، فأنقذ أهل الشّام من هزيمة منكرة، وفرّق أهل العراق.

وكان نصّ كتاب التّحكيم بين أهل العراق وأهل الشّام: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سُفيان، قاضى عليٌّ على أهل الكوفة ومَنْ معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشّام ومَنْ كان معهم من المؤمنين

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٥٤/٤ -٢٥٥).
(٢) طبقات ابن سعد (٢٥٥/٤ - ٢٥٦) وانظر التفاصيل في الطبري (٤٨ - ٦٣) وابن الأثير (٣١٦/٣ - ٣٢٠).

والمسلمين، إنّا ننزل عند حُكم الله عزّ وجلّ وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره، وإنّ كتاب الله عزّ وجلّ بيننا من فاتحته إلى خاتمته. نُحي ما أحيا، ونميت ما أمات. فما وجد الحَكَمَان في كتاب الله عزّ وجلّ - وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس[1] وعمرو بن العاص القُرَشِيّ - عَمِلاَ به، وما لم يجدا في كتاب الله عزّ وجلّ، فالسُّنّة العادلة الجامعة غير المفرِّقة. وأخذ الحَكَمان من عليّ ومعاوية ومن الجندين من العهود والميثاق والثقة من الناس، أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتَقاضَيان عليه، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقُه أنّا على ما في هذه الصحيفة، وأن وجبتْ قضيّتهما على المؤمنين، فإنّ الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، وشاهدهم وغائبهم، وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهدُ الله وميثاقه أن يحكُما بين هذه الأمة، ولا يَرُدَّاها في حرب ولا فُرقة حتى يُعصيا، وأجَلُ القضاء إلى رمضان. وإن أحبّا أن يؤخِّرا ذلك أخَّراه على تراضٍ منهما، وإن تُوفّي أحد الحكمين، فإنّ أمير الشّيعة يختار مكانه، ولا يألو من أهل المَعدلة والقسط، وإن مكان قضيّتهما الذي يقضيان فيه مكان عدلٌ بين أهل الكوفة وأهل الشّام، وإن رضيَا وأحبّا فلا يحضرهما فيه إلاّ مَنْ أرادا، ويأخذ الحَكَمان مَنْ أرادا من الشّهود، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة، وهم أنصار على مَنْ ترك ما في هذه الصحيفة، وأراد فيه إلحاداً وظُلماً. اللّهم إنا نستنصرك على مَنْ تَرَكَ هذه الصحيفة».

وشهد على هذه الصحيفة نخبة من أصحاب عليّ بن أبي طالب

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (١٧٨ - ١٩١).

ومعاوية بن أبي سفيان[1]، وكتب الكتاب يوم الاربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين الهجرية[2].

ورجع الناس من صفِّين، فلما رجع عليّ خالف الخوارج وخرجوا، وكان ذلك أول ما ظهروا، وأنكروا تحكيم الرجال[3].

ولما جاء وقت اجتماع الحكَمين، أرسل عليٌّ أربعمائة رجل، وأرسل معهم عبد الله بن العبّاس ليصلي بهم ويلي أمورهم، ومعهم أبو موسى الأشعري.

كما أرسل معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشّام، حتى توافوا من (دُوْمَة الجَنْدَل)[4] بـ (أَذْرُح)[5].

وكان عمرو إذا أتاه كتاب من معاوية ،لا يُدْرى بما جاء فيه ،ولا يسأله أهل الشّام عن شيءٍ. وكان أهل العراق يسألون عبد الله بن العبّاس عن كتاب يصله من عليّ، فإن كتمهم ظنّوا به الظنون وقالوا: أتُراه كتب بكذا وكذا؟! فقال ابن العبّاس: «أما تعقلون؟ وأنتم عندي كلّ يوم تظنّون فِيَّ الظّنون؟ ».

فلما اجتمع الحكَمان قال عمرو: «يا أبا موسى! ألست تعلم أنّ عثمان قُتل مظلوماً؟ »، قال: «بلى! »، قال: «فما يمنعك منه وبيته في قريش

---

(١) الطبري (٥/٥٣ - ٥٤) وابن الأثير (٣/٣٢٠ - ٣٢١) والأخبار الطوال للدينوري (١٩٦ - ١٩٧)، وانظر مجموعة الوثائق السياسية (٣٥٨ - ٣٦٢).

(٢) الطبري (٥/٥٦ - ٥٧) وابن الأثير (٣/٣٢١).

(٣) ابن الأثير (٣/٣٢٢).

(٤) دومة الجندل: حصن على سبعة مراحل من دمشق، يقع بين دمشق والمدينة المنورة. وانظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/١٠٦). وفي طبقات ابن سعد (٢/١٦٦): أنّ بين دومة الجندل وبين المدينة المنوّرة خمس عشرة ليلة.

(٥) أذرح: اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشّراة ثمّ من نواحي البلقاء وعَمّان مجاورة لأرض الحجاز، انظر معجم البلدان (١/١٦١).

كما علمتَ؟ فإن خفتَ أن يقول الناس: ليست له سابقة، فقل: وجدته وَلِيَّ عثمان الخليفة المظلوم والطّالب بدمه، الحسن السياسة والتدبير، وهو أخو أُم حبيبة زوج رسول الله ﷺ[1]، وكاتبه، وقد صحبه»، وعرّض له بسلطان!!.

فقال أبو موسى: «يا عمرو! اتَّقِ الله! فأمّا ما ذكرتَ من شرف معاوية، فإنّ هذا ليس على الشّرف تولاّه أهله، ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصّباح، إنما هو لأهل الدين والفضل، مع أنّي لو كنت مُعطيَة أفضل قريش شرفاً أعطيته عليّ بن أبي طالب. وأما قولك إنّ معاوية وليّ دم عثمان فولِّه هذا الأمر، فلم أكن لأوّليه وأدع المهاجرين الأولين. وأما تعريضك لي بالسلطان، فوالله لو خرج معاوية لي من سلطانه كلّه لما وُلّيته، وما كنتُ لأرتشي في حكم الله! ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطّاب رحمه الله»[2].

وقال عمرو: «فما يمنعك من ابني وأنت تعلم فضله وصلاحه؟»، فقال: «إن ابنك رجل صِدق، ولكنّك قد غمسته في هذه الفتنة»، فقال عمرو: «إن هذا الأمر لا يصلح إلا لرجل يأكل ويطعم». وكانت في عبد الله بن عمر بن الخطاب[3] غفلة، فقال له عبد الله بن الزبير: «افطِن!»، فانتبه، فقال عبد الله بن عمر: «لا والله، لا أرشو عليها شيئاً أبداً»، وقال: «يا ابن العاص! إنّ العرب أسندت إليك أمرها بعدما تقارعت بالسيوف، وتناجزت بالرِّماح، فلا تُردَّنّهم في فتنة».

---

(١) انظر سيرتها المفصلة في: طبقات ابن سعد (٨/ ٩٦) وأسد الغابة (٥/ ٥٧٣) والإصابة (٨/ ٨٤) و (٨/ ٢٢٢) والاستيعاب (٤/ ١٨٤٣) و (٤/ ١٩٢٩).

(٢) يريد: تولية عبد الله بن عمر بن الخطّاب.

(٣) انظر سيرته المفصلة في: طبقات ابن سعد (٤/ ١٤٢) وأسد الغابة (٣/ ٢٢٧) والإصابة (٤/ ١٠٧) والاستيعاب (٣/ ٩٥٠) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/ ٢٧٨).

وكان عمرو قد عوّد أبا موسى أن يقدِّمه في الكلام، يقول له: «أنت صاحب رسول الله ﷺ، وأسنّ مني، فتكلّم». وتعوّد ذلك أبو موسى، وأراد عمرو بذلك كلُّه أن يقدِّمه في خلع عليّ، فلما أراده عمرو على ابنه وعلى معاوية فأبى، وأراد أبو موسى ابن عمر فأبى عمرو، قال له عمرو: خبِّرني ما رأيك؟ قال: «أرى أن نخلع هذين الرجلين، ونجعل الأمر شورى، فيختار المسلمون لأنفسهم مَنْ أحَبّوا»، فقال عمرو: «الرأي ما رأيتَ».

وأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فقال عمرو: «يا أبا موسى! أعلمهم أنّ رأينا قد اتّفق».

وتكلّم أبو موسى فقال: «إنّ رأينا قد اتّفق على أمرٍ نرجو أن يُصْلِحَ اللهُ به أمر هذه الأمّة».

فقال عمرو: «صدق وبرّ، تقدّم يا أبا موسى فتكلّم».

وتقدم أبو موسى، فقال له عبد الله بن العبّاس: «والله إنّي لأظنُّه قد خدعك، إن كنتما اتفقتما على أمرٍ فقدِّمه، فليتكلّم به قبلك، ثم تكلّم به بعده، فإنّه رجل غادر، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما، فإذا قمتَ في الناس خالفك»، ولكنّ أبا موسى أجاب ابن العبّاس: «إنّا قد اتّفقنا».

وقال أبو موسى: «أيّها الناس! إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نرَ أصلح لأمرها ولا أَلَمَّ لشَعَثِها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلع عليّاً ومعاوية، ويولّيَ الناس أَمْرهم مَنْ أحبّوا، وإني قد خلعتُ عليّاً ومعاوية، فاستقبلوا أمركم وولّوا عليكم مَنْ رأيتموه أهلاً»، ثم تَنَحّى!!

وأقبل عمرو، فقام وقال: «إنّ هذا قد قال ما سمعتوه، وخلع صاحبُه، وأنا أخلع صاحبَه كما خلعه، وأثبِّتُ صاحبي معاوية، فإنه وليّ

ابن عفان والطّالب بدمه وأحقّ النّاس بمقامه».

فقال سعد بن أبي وقّاص[1]: «ما أضعفك يا أبا موسى عن عمرو ومكايده!»، فقال أبو موسى: «فما أصنع؟ وافقني على أمرٍ، ثم نزع عنه!».

والتمس أهل الشام أبا موسى، فهرب إلى مكة المكرّمة، أما عمرو فانصرف إلى الشام وسلّم على معاوية بالخلافة[2].

وقد جرى التحكيم سنة سبع وثلاثين الهجرية[3].

وهذا نموذج من نماذج دهاء عمرو، فقد خدع أبا موسى، وجعله يخلع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه علناً، وانتصر على أبي موسى بدهائه وفطنته وذكائه الخارق.

٥. في مصر

كان قَيْس بن سعد بن عُبَادة الأنصاري[4] أوّل والٍ على مصر لعليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه، إذ ولاّه مصر لما ولي الخلافة وبعثه إليها، فوصل إليها في مستهل شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين الهجريّة، ولكن علي بن أبي طالب عزله عن مصر بعد أربعة أشهر وخمسة أيام، وكان عزله في خامس رجب سنة سبع وثلاثين الهجريّة[5]. وولى مصر

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٤٨ - ٢٩٦).

(٢) انظر التفاصيل في: الطبري (٦٧/٥ - ٧١) وابن الأثير (٣٢٩/٣ - ٣٣٤) والبداية والنهاية (٢٧٦/٧ - ٢٧٨) وطبقات ابن سعد (٢٥٦/٤ - ٢٥٧) وتاريخ خليفة بن خياط (١٧٣/١ - ١٧٤) والعبر (٤٣/١).

(٣) الطبري (٦٧/٥) وابن الأثير (٣٢٩/٣) والعبر (٣٨/١).

(٤) انظر سيرته في: النجوم الزاهرة (٩٥/١ - ٩٦).

(٥) انظر النجوم الزاهرة (٩٦/١ - ٩٧).

محمد بن أبي بكر الصديق[١]، بعد قيس[٢].

وقدم محمد بن أبي بكر الصدّيق مصر ودخلها في النصف من شهر رمضان سنة سبع وثلاثين الهجريّة[٣]، ففتك محمّد بالمصريين الذين يشايعون معاوية وهدم دورهم، ونهب دورهم وأموالهم وسجن ذراريهم، فنصب المصريون الموالون لمعاوية لمحمد الحرب وحاربوه، ثم صالحهم على أن يسيِّرهم إلى معاوية، فلحقوا بمعاوية بالشّام[٤]، وبقي فيها مَنْ بقي ظاهراً أو مختفياً.

وكان أهل الشّام ينتظرون بعد صِفّين أمر الحَكَمَين، فلما تفرّقا بايع أهل الشّام معاوية بالخلافة، ولم يزدد إلا قوّة. واختلف الناس بالعراق على عليّ، فما كان لمعاوية هَمٌّ إلاّ مصر، وكان يهاب أهلها لقُربهم منه وشدّتهم على مَنْ كان على رأي عثمان، وكان يرجو أنّه إذا ظهر عليها ظهر على حرب عليّ لعظم خراجها[٥].

ودعا معاوية مستشاريه وعلى رأسهم عمرو[٦]، فكان رأي عمرو كما قال لمعاوية: «دعوتنا لتسألنا عن رأينا في مصر، فإن كنتَ جمعتنا لذلك، فاعزمْ واصْبِرْ، منْعِمَ الرأي رأيتَ في افتتاحها، فإنّ فيها عزَّك وعزّ أصحابك، وكبتَ عدوّك وذلّ أهل الشّقاق عليك»، فقال معاوية: «أهمّك يا ابن العاص ما أهمّك!»،، وذلك أنّ عَمْراً صالح معاوية على قتال عليّ، على أن له مصر طُعْمَةً ما بقي. وأقبل معاوية على أصحابه وقال: «أصاب أبو عبد الله! فما ترون؟»، فقالوا: «ما نرى إلا ما رأى

---

(١) انظر سيرته في النجوم الزاهرة (١٠٦/١ - ١٠٧).

(٢) ابن الأثير (٣٥٢/٣).

(٣) النجوم الزاهرة (١٠٧/١) والولاة والقضاة (٢٧).

(٤) النجوم الزاهرة (١٠٧/١) والولاة والقضاة (٢٧).

(٥) الطبري (٩٧/٥) وابن الأثير (٣٥٤/٣).

(٦) انظر أسماء المقربين في ابن الأثير (٣٥٤/٣).

عمرو »، فقال: «فكيف أصنع، فإن عمراً لم يفسِّر كيف أصنع! »، فقال عمرو: «أرى أن تبعث جيشاً كثيفاً، عليهم رجل حازم صابر تأمنه وتثق به، فيأتي مصر، فإنّه سيأتيه مَنْ كان على مثل رأينا، فيظاهره على عدوِّنا، فإن اجتمع جندك ومَنْ بها على رأينا، رجوت أن ينصرك الله». ولكن معاوية كان له رأي آخر، فقال: «أرى أن نُكاتب مَنْ بها من شيعتنا، فنمنِّيهم ونأمرهم بالثبات، ونكاتب مَنْ بها من عدوِّنا، فندعوهم إلى صلحنا ونمنِّيهم شكرنا ونخوِّفهم حربنا، فإن كان ما أردنا بغير قتال فذاك الذي أردنا، وإلا كان حربهم من بعد ذلك. إنك يا ابن العاص بُورك لك في الشدّة والعَجَلة، وأنا بورك لي في التّؤدة»، فقال عمرو: «افعل ما ترى، فما أرى أمرنا يصير إلاّ إلى الحرب».

وكتب معاوية إلى مَسْلَمَة بن مُخَلّد[1] ومعاوية بن حُدَيج السَّكُونيّ[2]، وكانا قد خالفا عليّاً، يشكرهما على ذلك، ويحثهما على الطلب بدم عثمان، ويعدهما المواساة في سلطانه. ولما وقفا على كتاب معاوية، أجاب مَسْلَمَة عن نفسه وعن ابن حُدَيج: «أما بعد. فإن الأمر الذي بذلنا له أنفسنا واتبعنا به أمر الله، أمر نرجو به ثواب ربِّنا والنَّصر على مَنْ خالفنا، وتعجيل النّقمة على مَنْ سعى على إمامنا. وأما ما ذكرت من المواساة في سلطانك، فتالله إنّ ذلك أمر ما له نهضنا ولا إياه أردنا، فعجِّل إلينا بخَيلك ورَجْلك، فإنّ عدوّنا قد أصبحوا لنا هائبين، فإن يأتنا مدد يفتح الله عليك، والسّلام».

---

(١) مسلمة بن مخلد: انظر سيرته في: أسد الغابة (٣٦٤/٤) والإصابة (٩٧/٦) والاستيعاب (١٣٩٧/٣).

(٢) معاوية بن حديج السّكوني: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد المغرب العربي (٧٥/١ - ٨٩).

فجاء معاوية هذا الكتاب وهو بفلسطين، فدعا مستشاريه وعلى رأسهم عمرو، وقال لهم: «ما ترون؟»، فقالوا: «نرى أن تبعث جنداً».

وأمر معاويةُ عَمْراً ليتجهّز إلى مصر، وبعث معه ستة آلاف رجل، ووصّاه بالتؤدة وترك العجلة.

وسار عمرو، فنزل أدني أرض مصر، فاجتمعت إليه العثمانيّة، فأقام بهم. وكتب عمرو إلى محمّد بن أبي بكر الصدِّيق: «أما بعد. فَتَنَحَّ عني بدمك يا ابن أبي بكر، فإني لا أحبّ أن يصيبك مني ظَفَر. إنّ الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك، وهم مُسْلِموك، فاخرج منها إني لك من النّاصحين» وبعث معه كتاب معاوية في مثل هذا المعنى أيضاً، ويتهدّده، يقصد حصار عثمان.

وأرسل محمّد بن أبي بكر الصدِّيق الكتابين: كتاب عمرو وكتاب معاوية - إلى عليّ بن أبي طالب، وأخبره بنزول عمرو بأرض مصر، وأنّه رأى التثاقل ممّن عنده، ويستمدّه.

وكتب عليّ إلى محمد بن أبي بكر، يأمره أن يضمّ شيعته إليه، ويعده إنفاذ الجيوش إليه، ويأمره بالصّبر لعدوّه وقتاله.

وقام محمّد بن أبي بكر في الناس، وندبهم إلى الخروج إلى عدوّهم، فانتدب الفان قدّمهم أمامه بقيادة أحد رجاله[1]، ثم خرج محمّد بعد مقدمته في ألفين أيضاً.

وأقبل عمرو نحو مقدّمة محمّد بن أبي بكر، فلما دنا منها سرّح الكتائب كتيبة بعد كتيبة، فجعل قائد مقدمة محمد لا تأتيه كتيبة إلا

---

(١) هو كنانة بن بشر.

حمل عليها فألحقها بعمرو مهزومة، فلما رأى ذلك عمرو بعث إلى معاوية ابن حُدَيْج، فأتاه في مثل الدّهم[1]، فأحاطوا بمقدّمة محمّد، واجتمع أهل الشام أيضاً عليهم من كلّ جانب، فنزل قائد مقدّمة محمد عن فرسه ونزل معه أصحابه، فضاربهم بسيفه حتى استشهد.

وبلغ قتله محمد بن أبي بكر، فتفرّق عنه أصحابه، وأقبل نحوه عمرو، وما بقي معه أحد، فخرج محمّد يمشي في الطريق، فانتهى إلى خربة في ناحية الطريق فأوى إليها.

وسار عمرو حتى دخل الفُسطاط.

وخرج معاوية بن حُدَيج: في طلب محمد بن أبي بكر، فانتهى إلى جماعة في قارعة الطريق فسألهم عنه، فقال أحدهم: «دخلت تلك الخربة، فرأيت فيها رجلاً جالساً»، فقال ابن حُدَيج: «هو هو!»، فدخلوا عليه فاستخرجوه، وقد كاد يموت عطشاً.

وأقبلوا به نحو الفسطاط، فوثب أخوه عبدالرحمن بن أبي بكر إلى عمرو، وكان في جنده، وقال: «أتقتل أخي صبراً!» ابعث إلى ابن حُدَيْج، فانْهَهُ عنه» فبعث إليه يأمره أن يأتيه بمحمّد، فرفض ابن حُديْج امر عمرو.

وقال محمد لمن حوله: «اسقوني ماء»، فقال له معاوية بن حُديْج: «لاسقاني الله إن سقيتك قطرة أبدا، إنّكم منعتم عثمان شرب الماء، والله لأقتلنّك حتى يسقيك الله من الحميم والغَسَّاق»[2].

---

(١) الدّهم: العدد الكثير، يقال: جاءهم دهم من الناس، وجيش دهم: كثير (ج): دُهُوم.

(٢) الغسَّاق: ما يسيل من جلود أهل النار وصديدهم، وفي التنزيل العزيز: ﴿إلاَّ حَمِيماً وغَسَّاقاً﴾ (سورة النبأ، آية ٢٥) وقرىء: (وغَساقا).

وقتل معاوية بن حُديج محمّد بن أبي بكر بعد جدال، ثم ألقاه في جوف حمار، ثم أحرقه بالنار!!

وقد قيل: إنّ محمّداً قاتل عَمْراً ومَنْ معه قتالاً شديداً، فقُتل قائد مقدمته وانهزم محمد واختبأ، فدُلّ عليه معاوية بن حُديج، فأحاط به فخرج محمّد وقاتل حتى قُتل.

وأما عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقام في الناس خطيباً وأخبرهم خبر مصر وقصْد عمرو إياها، وندبهم إلى أنجادهم وحثّهم على ذلك، فتثاقل الناس عن إجابته، وأخيراً خرج ألفان توجّهوا إلى مصر وجاءته أخبار قتل محمّد بن أبي بكر، فأعاد الجيش الذي أنفذه[1].

وهكذا ضمّ معاوية بن أبي سفيان مصر إلى جانبه، وفقدها عليّ بن أبي طالب، وكان ذلك سنة ثمان وثلاثين الهجريّة[2].

ولما صار الأمر في يدي معاوية بعد صِفِّين، استكثر طُعْمَة مصر لعمرو ما عاش، ورأى عمرو أنّ الأمر كلّه قد صلح به وبتدبيره وعنائه وسَعْيه فيه، وظنّ أنّ معاوية سيزيده الشّام مع مصر، فلم يفعل معاوية. وتنكّر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالظا، وتميّز الناس وظنّوا أنّه لا يجتمع أمرهما، فدخل بينهما معاوية بن حُدَيْج فأصلح أمرهما، وكتب بينهما كتاباً، وشرط فيه شروطا لمعاوية وعمرو خاصةً وللناس عليه، وأنّ لعمرو ولاية مصر سبع سنين، وعلى أنّ على عمرو السّمع والطّاعة لمعاوية، وتواثقا وتعاهدا على ذلك، وأشهدا عليهما به شهوداً. ثم مضى عمرو بن العاص على مصر والياً عليها، وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين

---

(١) الطبري (٤/٩٤-١٠٥) وابن الأثير (٣/٣٥٢-٣٥٩) والنجوم الزاهرة (١/١٠٧-١١٢) والولاة والقضاة (٢٨-٢٩).

(٢) الطبري (٥/٩٤) وابن الأثير (٣/٣٥٢) والعبر (٤٤).

الهجرية، فما مكث عمرو إلاّ سنتين أو ثلاثا حتى مات[١].

وكان عمرو يقول لمعاوية حين خرجت الخوارج على عليّ: «كيف رأيت تدبيري لك، حيث ضاقت نفسك مستهزئاً على فرسك الوَرْدِ تستبطئه، أشرت عليك أن تدعوهم إلى كتاب الله، وعرفت أن أهل العراق أهل شُبَهٍ وأنّهم يختلفون عليه، فقد اشتغل عليٌّ عنك بهم، وهم آخر هذا قاتلوه، ليس جندٌ أوهَنَ كَيْداً منهم»[٢]، فكان هذا من جملة ما يذكره عمرو لمعاوية من أفضاله عليه، ليستحوذ على ولاية مصر، التي كانت أعزّ أمانيه وأغلاها.

وحقّق عمرو سنة ثمان وثلاثين الهجرية أحلامه وأمانيه، فدخل الفسطاط وتولّى مصر التي كان يصبو إلى ولايتها منذ عزله عنها سنة سبع وعشرين الهجرية عثمان بن عفان رضي الله عنه[٣]، بعد أن طال انتظاره لهذه الولاية إحدى عشرة سنة لم ينس مصر لحظة واحدة من لحظاتها، وعمل جاهداً بكلّ طاقاته الماديّة والمعنوية لاستردادها لنفسه وتولي حكمها، فتحقّق له ما أراد بعد عناء شاق طويل وجهد عظيم جهيد.

ولكنّ القدر كان له بالمرصاد، فما استمتع بمصر غير سنوات، معدودات ثم فارق الحياة، فتخلّى عن مصر نهائياً وتخلّت عنه، كأنه لم يبذل ما بذل من أجل مصر من جهد وعناء، وأمره إلى الله.

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٥٨/٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٢٥٧/٤-٢٥٨).

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (١٣٤/١) وابن الاثير (٨٨/٣) والعبر (٢٩/١).

٦. في المؤامرة الكبرى

اجتمع ثلاثة من الخوارج[١]، فتذاكروا أمر النّاس، وعابوا وُلاتهم، ثم ذكروا أهل (النَّهْرَوَان)[٢] فترحّموا عليهم، وقالوا: «ما نصنع بالبقاء بعدهم؟ فلو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضّلالة، وأرحنا منهم البلاد!»، فقال الأول: «أنا أكفيكم عليّاً»، وكان من أهل مصر، وقال الثاني: «أنا أكفيكم معاوية»، وقال الثالث: «انا أكفيكم عمرو بن العاص».

وتعاهدوا ألاّ ينكص أحدهم عن صاحبه الذي توجّه إليه حتى يقتله أو يموت دونه، وأخذوا سيوفهم فسمُّوها، واتّعدوا لسبع عشرة من رمضان سنة أربعين الهجرية.

وقصد كلّ رجل منهم الجهة التي يريد، فأتى الأول الكوفة، وأتى الثاني دِمَشْق، وأتي الثالث الفُسطاط.

فلما كانت ليلة الجمعة، وهي الليلة التي واعد كلّ واحد من أولئك الثلاثة من الخوارج صاحبيه أن يقتل المسؤول عن قتله، قتل الأول عليّاً، فصاح الناس، فقال عليّ: «لا يفوتنكم الرجل»، فشدّ الناس عليه وأخذوه. فلما قُبض عليّ رضي الله عنه بعث الحسن بن عليّ إلى قاتل أبيه، فقدّمه وقتله.

---

(١) هم: عبد الرحمن بن مُلجم المُرادي الذي تعهد بقتل عليّ، والبُرك بن عبد الله التّميمي الصُّرَيمي الذي وعد بقتل معاوية، وعمرو بن بكر التميمي الذي تعهد بقتل عمرو بن العاص، انظر ابن الأثير (٣/٣٣٨-٣٨٩).

(٢) النَّهْروان: كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقيّ، حدّها الأعلى متصل ببغداد، وفيها عدّة بلاد متوسطة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٤٧-٣٥١)، وانظر ما جاء عن يوم النهروان الذي كان بين علي بن أبي طالب والخوارج في الطبري (٥/٧٢-٩٣) وابن الأثير (٣/٣٤١-٣٥٠) وكان هذا اليوم في سنة سبع وثلاثين الهجرية.

أما الثاني، فإنه قعد لمعاوية في تلك الليلة «التي ضُرب فيها عليّ، فلما خرج معاوية ليصلّي الغداة، شدّ عليه بالسّيف، فوقع السّيف في أليته، فأُخذ. وأمر به معاوية، فقُتل.

وأمر معاوية عند ذلك بالمقصورات وحرس الليل وقيام الشُّرَط على رأسه إذا سجد، وهو أوّل من عملها في الإسلام.

وأما الثالث، فإنه جلس لعمرو بن العاص تلك الليلة، فلم يخرج، وكان اشتكى بطنه، فأمر خارجة بن حُذافة العَدَوِيّ، وكان صاحب شرطته، فخرج ليصلي بالناس. وشد عليه الخارجيّ وهو يرى أنّه عمرو ابن العاص ، فضربه، فقتله.

وأخذ الناس الخارجي القاتل إلى عمرو، فسلّموا عليه بالإمرة، فقال: «مَنْ هذا؟»، قالوا: عمرو! قال: «فمن قتلتُ؟»، قالوا: خارجة! فقال: «أما والله ما ظننته غيرك»، فقال عمرو: «أردتني وأراد الله خارجة»، فذهبت مثلا.

وقدّم عمرو الخارجيَّ وقتله.

وهكذا نجا عمرو من القتل غيلة، وقُتل خارجة وقاتله لِظنّ أنّه عمرو، ولم يعرف أنّه لم يقتل عَمْراً إلا بعد أن سبق السّيف العَذَل، ولا حارس كالأجل.

ويبدو أنّ معاوية بن أبي سفيان استدعى عَمْراً من مصر إلى دمشق ورافقه في سفره من دمشق إلى الكوفة في العراق، فقد ورد ذكر عمرو في قصّة تسليم الحسن بن عليّ الخلافة إلى معاوية[1]، وما كان عمرو

---

(١) الطبري (١٤٣/٥-١٥٢) وابن الأثير (٣٨٧/٣-٣٩٦) والبداية والنهاية (٣٢٦/٧-٣٣١).

(٢) الطبري (١٦٣/٥) وابن الأثير (٤٠٧/٣).

ليغيب عن شهود مثل هذا الحدث الخطير في تاريخ المسلمين، وهو المستشار الأول لمعاوية والمقرّب اليه، والذي يستشار في الملمّات.

الإنسان

١. الوالي

لما أسلم عمرو، قرّبه النبيّ ﷺ لمعرفته وشجاعته، وولاّه غُزاة ذات السّلاسل، واستعمله على عُمَان، فمات النبيّ ﷺ وهو أميرها[١]، قال عمرو: «بعث إليّ النبيّ ﷺ، فقال: **خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني**. فأتيته، فقال: **إني أريد أن ابعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك وأرغب لك من المال رغبة صالحة**. فقلت: يا رسول الله! ما أسلمتُ من أجل المال، بل أسلمتُ رغبة في الإسلام. فقال: **يا عمرو! نعماً بالمال الصّالح للمرء الصّالح**»[٢]. وكان النبيّ الكريم عليه الصلاة والسلام يقول عن عمرو: «**عمرو بن العاص من صالحي قريش**»[٣] فقد أسلم عمرو وحسن إسلامه وأخلص لدينه، وكان إيمانه راسخاً، حتى قال النبيّ ﷺ في عمرو: «**أسلم الناس، وآمن عمرو بن العاص**»[٤].

ولما قُبض رسول الله ﷺ، بعثه أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه

---

(١) الإصابة (٥/٢) والحلّة السّيراء (١/١٣).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤/٢٠٢) وانظر الإصابة (٥/ ٣) والاستيعاب (٣/١١٨٦).

(٣) أسد الغابة (٤/١١٧) والإصابة (٥/٣).

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/١٥٥) والترمذي (٢١٦)، وانظر أسد الغابة (٤/١١٧)، وانظر مقال: الأحاديث الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني المنشور في مجلة التمدن الإسلامي الدمشقية (٧-٨) في العدد الصادر بالمحرم ١٣٨٢ هـ من المجلد (٢٩).

أميراً من أمراء الشام[١]، فشهد معارك فتح الشام في أيام أبي بكر الصدِّيق قائداً وإدارياً.

وولاّه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلسطين والأُردن[٢]، ثم كتب إليه أن يسير إلى مصر، ففتحها عمرو، فولاّه مصر إلى أن مات عمر بن الخطاب[٣].

لقد كان عمر إذا استعمل عاملاً كتب عليه كتاباً وأشهد عليه رهطاً من الأنصار، أن لا يركب بِرْذَوْناً، ولا يأكل نقيّاً، ولا يلبس رقيقاً، ولا يغلق بابه دون حاجة المسلمين. وكان يكتب إلى أمراء الأمصار: «بأنّ لكم معاشر الولاة حقّاً على الرعيّة، ولهم مثل ذلك، فإنه ليس من حلم أحبّ إلى الله ولا أعمّ نفعاً من حلم إمامٍ ورفقه، وأنّه ليس جهل أبغض إلى الله ولا أعمّ ضرراً من جهل إمام وخُرْقه، وإنّه مَنْ يطلب العافية فيمن بين ظهرانيه يُنزل الله عليه العافية من فوقه»[٤].

وكان عمر يقول: «مَنْ استعمل رجلاً لمودّة أو لقرابة لا يُشغله إلاّ ذاك، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»[٥]. وكان يقول: «أيّما عامل لي ظلم أحداً فبلغني مظلمته فلم أغيِّرها، فأنا ظلمته»[٦].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنّا عند عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، إذ جاءه رجل من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين! هذا مقام العائذ بك، قال: وما لك؟ قال: أجرى عمرو بن العاص الخيل

---

(١) ابن الأثير (٢/٤٢١).
(٢) تاريخ خليفة بن خياط (١/١٢٩).
(٣) طبقات ابن سعد (٧/٤٩٣) وتاريخ خليفة بن خياط (١/١٣٠) وابن الأثير (٣/٧٧).
(٤) تاريخ عمر لابن الجوزي (٨٥).
(٥) تاريخ عمر (٥٦).
(٦) تاريخ عمر (٨٧).

بمصر، فأقبلت فرس لي، فلما تراَها الناس، قام محمّد بن عمرو فقال: فرسي وربّ الكعبة! فلما دنا مني عرفته، فقلت: فرسي وربّ الكعبة! فقام يضربني بالسّوط ويقول: خذها... خذها.. خذها.. وأنا ابن الأكرمين! فوالله ما زاد عمر على أن قال: اجلس! ثم كتب إلى عمرو: إذا جاءك كتابي هذا، فأقبل وأقبل معك بابنك محمّد. فدعا عمرو ابنه فقال: أحدثت حدثاً؟! أجنيت جناية؟! قال: لا. قال: فما بال عمر يكتب فيك؟ فقدما على عمر، فوالله إنّا لعند عمر بـ(مِنًى)[1]، إذ نحن بعمرو وقد أقبل في إزارٍ ورداء، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه، فإذا هو خلف أبيه، فقال: أين المصريّ، فقال: ها أنا ذا. قال: دونك الدرّة، اضرب بهـــــا ابن الأكرمين... اضرب ابن الأكرمين.. اضرب ابن الأكرمين... فضربه حتى أثخنه، ثم قال: أجِلْها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلاّ بفضل سلطانه. فقال: يا أمير المؤمنين! لقد ضربتُ مَنْ ضربني. فقال: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه! يا عمرو! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أحراراً أمّهم؟؟ ثم التفت إلى المصريّ، فقال: انصرف راشداً، فإن رابك ريبٌ فاكتب إليّ»[2].

بل حاسب عمر بن الخطاب عمْراً وقاسمه ماله، فقد كتب عمر إلى عمرو: «من عبد الله عمر بن الخطاب، إلى عمرو بن العاص. سلام عليك. أما بعد، فإنه بلغني أنّك فشت لك فاشية من خيل وإبلٍ وغنمٍ وعبيد، وعهدي بك قبل ذلك أن لا مالَ عندك، فاكتب إليّ من أين أصْل هذا المال ولا تكتمْه».

---

(١) منى: بلدة على فرسخ من مكة، تعتمر أيام موسم الحج، وتخلو أيام السنة إلا من يحفظها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٥٨/٨-١٥٩).

(٢) تاريخ عمر (٧٣) وفتوح مصر والمغرب (٢٢٥-٢٢٦).

فكان جواب عمرو: «من عمرو بن العاص، إلى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين. سلام عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين، يذكر فيه ما فشا لي، وأنه يعرفني قبل ذلك ولا مالَ لي. وإني أُعْلِم أميرَ المؤمنين، إني ببلدٍ السِّعر به رخيص، وإني أعالج من الحِرْفَة والزراعة ما يعالجه أهله[1]، وليس في رزق أمير المؤمنين سَعَة، وبالله لو رأيت خيانتك حلالاً ما خُنتك، فأَقْصِرْ أيّها الرّجل، فإن لنا أحساباً هي خير من العمل لك. إن رجعنا إليها عِشْنا بها. ولعمري إنّ عندك[2] مَنْ لا يَذُم معيشته ولا تُذَم له. وذكرت أنّ عندك من المهاجرين الأولين من هو خير مني[3]، فأنى كان ذلك ولم نَفْتحْ قُفْلك ولم نَشْرَكك في عملك»[4].

فكتب إليه عمر: «أما بعد، فإني والله ما أنا من أساطيرك التي تُسَطِّر، وَنسقك الكلام في[5] غير مَرْجع! وما يُغني عنك أن تُزَكّي نفسك، وقد بعثت إليك محمّد بن مَسْلَمَة[6] فشاطره مالك، فإنكم أيّها الأمراء جلستم على عيون المال، ثم لم يُعوزكم عُذْر، تجمعون لأبنائكم، وتمهدون لأنفسكم، أما إنّكم تجمعون العار، وتُورِّثون النار[7]، والسلام».

فلما قدم عليه محمّد بن مَسْلَمة، صنع له طعاماً كثيراً، فأبى محمد بن

---

(١) في نسخة أخرى: الناس.

(٢) يشير عمرو بقوله: «إن عندك... الخ» إلى غنى أهله بالحجاز وثرائهم.

(٣) التكملة من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٥٨/١) ولا يستقيم الكلام بدونها.

(٤) في شرح نهج البلاغة: «فإذا كان ذاك، فوالله ما دققت لك يا أمير المؤمنين بابا، ولا فتحت لك قفلا».

(٥) في نسخة أخرى: من.

(٦) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة النبيّ ﷺ.

(٧) في نسخة أخرى: «تجمعون النار، وتورثون البوار». والذي في شرح نهج البلاغة: «تأكلون النار، وتتعجلون العار».

مَسْلمة أن يأكل منه شيئاً، فقال له عمرو: «أتحرِّمون طعامنا؟!» فقال: «لو قدمت إليّ طعامَ الضَّيف أكلتهُ، ولكنك قدمتَ إليّ طعاماً هو تقْدمة شرّ، والله لا أشرب عندك الماء، فاكتب لي كل شيءٍ هو لك ولا تكْتمه»، فشاطره ماله بأجمعه، حتى بقيت نَعْلاه فأخذ إحداهما وترك الأخرى[1]، وقد قاسم عمر بن الخطاب أموال كثير من عمّاله ممن هو أفضل من عمرو إيماناً وسابقة، ولم يقتصر على مقاسمة عمرو وحده.

لقد كان عمر بن الخطاب إذا نظر إلى عمرو يمشي يقول: «ما ينبغي لأبي عبدالله أن يمشي على الأرض إلا أميراً»[2].

وكان عمر بن الخطاب إذا استضعف رجلاً في رأيه وعقله قال: «أشهد أنّ خالقك وخالق عمرو واحد»، يريد خالق الأضداد[3].

وكان عمر بن الخطّاب إذا رأى الرّجل يتلجلج يقول: «أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد»[4].

ولعلّ في ذكر بعض إنجازاته العظيمة في مصر، ما يسوِّغ اختياره والياً من عمر بن الخطاب على مصر، وهو المعروف بحرصه الشديد على اختيار الرّجل المناسب للعمل المناسب.

فقد فتح عمرو مصر كلّها، وفتح ليبيا كلّها كما ذكرنا، وليس هذا الفتح الواسع بقليل. وقد بنى مدينة الفُسطاط، ولسبب تسمية مصر بالفسطاط أقوال كثيرة، منها، أنَّ عَمْراً لما أراد التوجّه لفتح الإسكندرية أمر بنزع فسطاطه (خيمته) فإذا فيه يمامة قد فرخت، فقال

---

(١) العقد الفريد: (٤٦/١-٤٨) والبلاذري (٣٠٧-٣٠٨).

(٢) الإصابة (٢/٥) واليعقوبي (١٩٧/٢-١٩٨) والنجوم الزاهرة (٦٣/١).

(٣) الاستيعاب (١١٨٨/٣) والنجوم الزاهرة (٦٤/١).

(٤) الإصابة (٢/٥-٣) والنجوم الزاهرة (٦٤/١) وعيون الأخبار (١٧١/٢).

عمرو: «لقد تحرّم منّا بتحرَّم»، فأمر به فأُقِرّ كما هو، وأوصى به صاحب القصر. فلما قفل المسلمون من الإسكندرية قالوا: اين ننزل؟ قالوا: الفُسطاط - يعنون فسطاط عمرو الذي خلّفه بمصر مضروباً لأجل اليمامة، فغلب عليه ذلك.

ولما رجع عمرو من الإسكندرية سنة إحدى وعشرين الهجرية، نزل موضع فسطاطه، وتنافست القبائل بعضها مع بعض في المواضع، فولّى عمرو معاوية بن حُدَيج وغيره على الخطط، وكانوا هم الذين نزّلوا الناس وفصلوا بين القبائل، وذلك في سنة إحدى وعشرين الهجرية[١].

كما بنى عمرو جامع عمرو بن العاص بالفُسطاط، وكان موضعه خاناً، فلما رجعوا من الإسكندرية بعد فتحها سأل عمرو صاحبه أن يجعله مسجداً، فقال له صاحبه: «إني أتصدق به على المسلمين»، وسلّمه إليهم، فبُني الجامع سنة إحدى وعشرين الهجريّة، وكان طوله خمسين ذراعاً في عرض ثلاثين ذراعاً، ويقال: إنّه وقف على إقامة قبلته ثمانون رجلاً من الصحابة. ولم يكن لهذا المسجد محراب مجوّف، فجعل له محراب مجوّف بعد عمرو. وكان للمسجد بابان يقابلان دار عمرو بن العاص، وبابان في بحريّه، وبابان في غربيّه، وكان الخارج من شارع القناديل يجد ركن الجامع الشرقيّ محاذياً لركن دار عمرو الغربيّ، وكان طوله من القبلة إلى البحريّ مثل طول دار عمرو، وسقفه مطأطأ جدّاً، ولا صحن له، وكان النّاس يصطفون بفنائه، وكان بينه وبين دار عمرو سبعة أذرع، وكان الطريق محيطاً به من جميع جوانبه، وكان عمرو قد اتخذ منبراً، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يَعْزم عليه في كسره

---

(٤) النجوم الزاهرة (١/٦٤-٦٥).

ويقول «أما بِحَسْبِكَ أن تقوم قائماً والمسلمون تحت عَقِبَيْك»، فكسره عمرو[1].

وجعل عمرو أهل مصر أهل ذمة، فوضع عليهم الجزية في رقابهم، والخراج في أرضهم، وكتب بذلك إلى عمر بن الخطّاب. فأجازه[2]، ولم يقسم الأرض بأمر عمر الذي كتب إليه: أقرّها حتى يغزو منها حَبَلُ الحَبَلَة[3].

وجمع عمرو الفَعَلة، واحتفر الخليج الذي بحاشية الفُسطاط الذي يقال له: خليج أمير المؤمنين، فساقه من النيل إلى (القُلْزُم)[4]، فلم يأت الحول حتى جرت به السُّفن، فحمل فيه ما أراد من الطّعام إلى المدينة ومكّة، ثمّ لم يزل يُحْمَل فيه الطعام حتى حمل فيه بعد عمر بن عبد العزيز، ثمّ ضيّعته الولاةُ بعد ذلك، فتُرِك وغلب عليه الرّمل، فانقطع، فصار مُنْتَهَاه إلى ذنب (التِمْسَاح)[5] من ناحية (طحا)[6] القُلْزُم[7].

---

(١) النجوم الزاهرة (١/٦٦-٦٧) وانظر البدء والتاريخ (٤/٨٨).

(٢) البلاذري (٢٩٩).

(٣) الحبل: الولد في بطن أمّه، والحبلة: النساء الحابلات انظر البلاذري (٣٠٠). وحبل الحبلة: يريد حتى يغزو منها أولاد الأولاد ويكون عاماً في الناس والدواب، أي يكثر المسلمون فيها بالتوالد، فإذا قسمت لم يكن قد انفرد بها الآباء دون الأولاد: أو يكون أراد المنع من القسمة حيث علقه على أمرٍ مجهول، انظر: لسان العرب، مادة حبل، وتفرّد بروايته الإمام أحمد. انظر النجوم الزاهرة (١/٢٥).

(٤) القلزم: بليدة كانت على ساحل بحر اليمن (البحر الأحمر) من جهة مصر، وإليها ينسب البحر، فيقال: بحر القلزم، انظر تقويم البلدان (١١٦-١١٧) ومعجم البلدان (٧/١٤٥-١٤٧)، وانظر مكانها بالضبط في خريطة: الفتح الإسلامي لمصر.

(٥) التمساح: هي بحيرة التمساح، ومكانها معروف، انظر خريطة: الفتح الإسلامي لمصر.

(٦) طحا: بلدة مصرية قديمة من بلاد مركز البهنسا من أعمال محافظة المنيا، وكان سكانها في صدر الإسلام خمسة عشر ألف نفس، انظر الهامش (٤) من كتاب: فتوح مصر والمغرب (١٩٢)، وانظر ما جاء عنها في معجم البلدان (٦/٣٠)، والمقصود بها هذا الموضع القريب من ذنب بحيرة التمساح، كما يبدو في سياق الخبر.

(٧) انظر التفاصيل في: فتوح مصر والمغرب (٢١٦ - ٢٢٢).

ولكنّ أهم ما أنجزه عمرو في المجالات الإدارية وغيرها، هو إدخال العربية لغةً والإسلام ديناً في مصر وليبيا، وفي غير هذين القطرين العربيّين المُسْلِمَين مما فتح من الأقطار شرقاً وغرباً. امتدّت من عُمَان على الخليج العربي شرقاً إلى بلاد الشام على البحر الأبيض المتوسط غرباً، فكان فتحه فتحاً مُسْتَداماً من أيامه الأولى حتى اليوم، وسيبقى كذلك حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها. لأنه كان فتح مبادىء يعتمد اللغة والدين ولم يكن استعباداً يعتمد السّيف والقهر.

فقد أسر المسلمون في مصر من الرّوم والقبط، فأمر عمر بردِّهم إلى قراهم وصيّرهم أهل ذمّة، على أن يخيِّروهم بين الإسلام، فإن من أسلم فهو من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، وإن اختار دينه، فيُعاد إلى قريته[1].

ولما انتهى المسلمون الى (بَلْهِيْب)[2] في طريقهم بعد فتح الاسكندرية، أرسل صاحب الإسكندرية إلى عمرو: «إني كنتُ أخرج الجزيّة إلى مَنْ هو أبغض إليّ منكم معشر العرب: لفارس والرّوم، فإن أحببتَ أن أعطيك الجزية على أن تردّ عليّ ما أصبتم من سبايا أرضي؛ فعلتُ».

وبعث إليه عمرو: «إنّ ورائي أميراً لا أستطيع أن أصنع أمراً دونه، فإن شئت أن أمسِكَ وتُمسِك عنّي، حتى أكتب إليه بالذي

---

(١) فتوح مصر والمغرب (١٢٢ - ١٢٣).

(٢) بلهيب: وردت في معجم البلدان:، بلهيب، وفي كتاب: المسالك والممالك وفي خطط المقريزي باسم: بلهيت، وكذلك في قوانين الدواوين وتحفة الإرشاد، وهي منية الزناطرة بالبحيرة، ومحلّها اليوم فزارة بمركز المحمودية. انظر الهامش (١) من ص (١٢٢) من كتاب: فتوح مصر والمغرب، وهي قرية من قرى مصر بالقرب من الاسكندرية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٨١-٢٨٢).

عرضَت عليّ، فان قَبِل ذلك منك قبلتُ، وإن أمرني بغير ذلك مضَيتُ لأمره »، فوافق صاحب الإسكندرية.

وكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب، وكانوا لا يُخفون على الجند كتاباً كتبوا به، يذكر له الذي عرض عليه صاحب الاسكندرية، وقال: « وفي أيدينا بقايا من سَبْيهم ». وجاء جواب عمر وفيه: « أما بعد. فإنه جاءني كتابك تذكر أنّ صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن تردّ عليه ما أصيب من سبايا أرضه، ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحبّ إليّ من فيءٍ يُقسَم، ثمّ كأنه لم يكن، فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية، على أن تخيّروا مَنْ في أيديكم من سَبْيهم بين الإسلام وبين دين قومه، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، ومَنْ اختار دين قومه، وُضِع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه...... ».

وجمع المسلمون ما بأيديهم من السبايا، واجتمعت النصارى، فيتقدّم الرجل من السبايا، ويُخيّر بين الإسلام والنّصرانيّة، فإذا اختار الإسلام كبّر المسلمون، ثمّ يضمّه المسلمون إلى صفوفهم، وإذا اختار النّصرانيّة نخرت النّصارى ثم حازوه إليهم. وقد كان بين السبايا أبو مريم عبد الله ابن عبد الرحمن الذي اختار الإسلام،فأصبح عريف زُبيْد[1]. فقد عرض المسلمون عليه الإسلام وعرض عليه النصارى النّصرانية، وأبوه وأمه وإخوته في النصارى، فاختار الإسلام[2].

وحين حاصر عمرو حصن بابليون، أرسل إلى حُماة الحصن: « لا

---

(١) زبيد بن صعب بن سعد العشيرة بن مَذْحج، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٤١١-٤١٢).

(٢) الطبري (١٠٥/٤-١٠٦) وابن الأثير (٥٦٧/٢-٥٦٨).

تعجّلونا لنعذر إليكم، وترون رأيكم بعد»، فكفّوا أصحابهم. وأرسل إليهم عمرو: «إني بارز، فليبرز إليّ أبو مريم وأبو مريام»، فأجابوه إلى ذلك، وأمن بعضهم بعضاً، فقال لهم عمرو: «أنتما راهبا هذه البلدة، فاسمعا! إنّ الله عزّ وجلّ بعث محمداً ﷺ بالحق وأمره به، وأمرنا به محمّد ﷺ وأدّى إلينا كلّ الذي أُمِرَ به. ثمّ مضى صلوات الله عليه ورحمته وقد قضى الذي عليه، وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس. فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومَنْ لم يجبنا عَرَضْنا عليه الجزية، وبذلنا له المنعة، وقد أعلمنا أنّا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا فيكم، وإن لكم إن أجبتمونا بذلك ذمّة إلى ذمّة. ومما عهد إلينا أميرنا: استوصوا بالقِبْطِيِّين خيراً، فإنّ رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيّين خيراً، لأن لهم رَحِماً وذمّة»[1]، فما تم الفتح أو كاد، إلاّ وكان من أهل مصر في جيش عمرو جنود، بلغ قسم منهم رتبة عريف على إخوانه العرب الأقحاح المسلمين.

فلا عجب أن يكون القبْط لعمرو أعوانا[2]، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط لفتح الإسكندرية، فعاونوا المسلمين معاونات عسكرية وإدارية ساعدتهم على الفتح[3]، ولم ينقض القبط ولا المقوقس الصّلح الذي عقدوه بينهم وبين الفاتحين كما نقض الرّوم[4]، لأنّ القبط أعجبوا بعدل المسلمين بقدر كرههم لظلم الرّوم. وهذا ما يقرره المؤرخون المسلمون والأقباط القُدامى. ولا عبرة لادعاءات غير المنصفين من

---

(١) الطبري (٤/١٠٧).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٨٦).

(٣) فتوح مصر والمغرب (١٠٧).

(٤) فتوح مصر والمغرب (١٠٥ - ١٠٦).

المستشرقين والمؤرخين الأجانب المحدثين، فوراء ادعاءاتهم تحيُّز للنصرانية يناقض الموضوعيّة وحوادث التاريخ.

والحق أن عَمْراً أثبت كفاية إدارية فذّة في ولايته لمصر، ولو كانت محاسبة عمر بن الخطاب لعمرو على المال كما ذكرنا، لخيانة عمرو في أمانته على المال، لما أبقاه لحظة واحدة على مصر، وقد حاسب عمر بن الخطّاب كلّ عمّاله أشدّ الحساب على المال، ومنهم مَنْ هو أفضل من عمرو سابقة وتديناً وورعاً وتقوى، ولكنّ عمر كان يحب أن يبقي عماله مثلاً رفيعاً في النّقاء والبعد عن الشبهات، حتى يكونوا موضع ثقة رعيتهم الكاملة المطلقة، فهو يحاسبهم حرصاً عليهم ورغبة في استكمال سيطرتهم على رعيتهم بمثالهم الشخصي المتّسم بالطّهر والأمانة، وتبادل الثقة الكاملة المطلقة بين الحكّام والمحكومين، والثقة المتبادلة أهمّ كثيراً من المال وأجدى للحاكم والمحكوم.

وأقرّه عثمان بن عفّان رضي الله عنه على مصر أربع سنين أو نحوها ثمّ عزله عنها وولاّها عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح العامريّ، فقد بويع عثمان بالخلافة في شهر المحرّم لثلاث مضين منه سنة أربع وعشرين الهجريّة[١]، وعزل عثمان عن مصر عَمْراً سنة سبع وعشرين الهجريّة[٢]، فقد عُزل عمرو عن خراج مصر سنة سبع وعشرين الهجريّة، واستُعمل عليه عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، وكان أخا عثمان من الرضاعة، فتباغيا. وكتب عمرو إلى عثمان يقول: «إنّ عبد الله قد كسر عليّ مكيدة الحرب»، وكتب عبد الله بن سعد إلى عثمان: «إنّ عَمْراً كسر

---

(١) الطبري (٢٤٢/٤) وابن الأثير (٧٩/٣) والعبر (٢٧/١).

(٢) الطبري (٢٥٣/٤) وابن الأثير (٨٨/٣) والعبر (٢٩/١) والاستيعاب (١١٨٨/٣).

عليّ الخرَاج »، فعزل عثمان عَمْراً واستقدمه، واستعمل بدله عبد الله على حرب مصر وخراجها[1].

وفي رواية، أن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، قد ولّى عبد الله بن سعد على الصَّعيد، فكانت ولايته من الصّعيد إلى الفَيّوم. وطمع عمرو أن يعزل عثمان عبد الله بن سعد عن الصّعيد، فوفد إلى عثمان وكلّمه في ذلك، فقال له عثمان: «ولاّه عمرُ بن الخطّاب الصعيدَ وليس بينه وبينه حُرمة ولا خاصة، وقد علمت أنه أخي في الرّضاعة، فكيف أعزله عمّا ولاّه غيري؟!»، فغضب عمرو وقال: «لست راجعاً إلاّ على ذلك»، فكتب عثمان إلى عبد الله بن سعد يؤمِّره على مصر كلِّها[2].

وأرجِّح الرواية الأولى، فقد عزل عثمان عَمْراً عن الخراج، لأن عثمان كان يستطيع السيطرة على عبد الله بن سعد، ولا يستطيع أن يسيطر على عمرو كما ينبغي أو كما كان عمر بن الخطاب يفعل، كما أنّ عثمان كان يميل إلى ذويه فيصل رحمهم بشتّى الصِّلات، ومنها توليتهم الولايات، كما فعل في مصر وفي أقطار أخرى. وقد يكون من أسباب تولية عثمان ذويه الولايات وعزل ولاتها الأخرين وهم ولاة عمر بن الخطّاب، أنّ عثمان يستطيع فرض السيطرة الكاملة على ذويه، ولا يستطيع فرضها على ولاة عمر، وبخاصة أنهم كانوا من أصحاب السّابقة في الإسلام أو من أصحاب الأيام، أو من أصحاب السّابقة والأيام في نفس الوقت، أو من ذوي الكفايات العالية.

ولم يعد إلى مصر من جديد حتى سنة ثمان وثلاثين الهجريّة[3]، فقد

---

(٣) الطبري (٢٥٦/٤) وابن الاثير (٨٨/٣) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١٣٤/١).
(٤) فتوح مصر والمغرب (٢٣٣).
(٥) تاريخ خليفة بن خياط (١٧٤/١ - ١٧٥) والطبري (٩٤/٥-٩٥).

سيّره معاوية بن أبي سفيان إلى مصر، فاستنقذها من محمّد بن أبي بكر الصدِّيق عامل عليّ بنأبي طالب على مصر، فاستعمله معاوية عليها إلى أن مات[١].

لقد عمل عمرو على مصر لعمر بن الخطّاب سنتين، ولعثمان بن عفّان أربع سنين إلا شهرين، ولمعاوية بن أبي سفيان سنتين إلا شهراً[٢]، ثم مات عمرو، فانتهت بموته حياة فاتح من أعظم الفاتحين وإداريّ من ألمع الإداريين، بعد أن نهض بواجبه في الفتح والإدارة على أحسن وجه، إذ لا يماري أحد في أهمية فتوحاته وبقائها على الدّهر، ولا يجادل عاقل في قابليته الادارية الفذّة. وقد سجّل عمرو صفحات ناصعة في تاريخ الإسلام فاتحاً وإدارياً، كما أنّ صفحاته مشرقة في سائر تواريخ الأمم الأخرى شرقيّة وغربية وقديماً وحديثاً.

٢. العالم

كان عمرو عالماً من علماء الدين الحنيف، قدّمه في العلم على الرّغم من تأخّر إسلامه، ذكاؤه وحرصه على التعلّم من النبيّ ﷺ وأصحابه العلماء، وإتقانه القراءة والكتابة، وكان إتقانها في أيامه نادراً في أُمّة تفشّت فيها الأُمِيَّة، فقد كان عمرو أحد كتّاب النبيّ ﷺ[٣].

وقد روى عن النبيّ ﷺ تسعة وثلاثين حديثاً[٤] أو سبعة وثلاثين

---

(١) طبقات ابن سعد (٤٩٣/٧) وأسد الغابة (١١٧/٤) والإصابة (٣/٥) والاستيعاب (١١٨٨/٣)، وانظر تفاصيل استعادته مصر في: الطبري (٩٤/٥-١٠٥) وابن الاثير (٣٥٢/٣-٣٥٩).

(٢) الطبري (١٨١/٥) وابن الاثير (٤٢٥/٣).

(٣) العقد الفريد (١٦٨/٤).

(٤) أسماء الصحابة الرواة - ملحق بجوامع السيرة (٢٨٠) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٩٠).

حديثاً[1]، اتّفق البخاري ومُسْلم على ثلاثة أحاديث، ولمسلم حديثان، وللبخاري بعض حديث[2]، وروى عنه أبو عثمان النّهديّ وقيس بن أبي حازم وعُرْوة بن الزُّبير وعبد الرحمن بن شماسة (بفتح الشين وضمّها)[3]، كما روى عنه ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص[4]، ومولاه أبو قيس وعليّ بن رَباح الَّلخْمِي ومحمّد بن كعب القُرْظِيّ وعمارة بن خزيمة بن ثابت وغيرهم، وروى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها[5].

وكان متفقّهاً في الدين، يدلّ على ذلك معاملته للأسرى والسبايا، وفرضه الجزية والخراج، كما تدلّ على ذلك نصوص العهود التي عقدها مع أهل البلاد المفتوحة وبخاصة في مصر، ومعاملته أهل الذمّة، وعرضه تعاليم الفتح في الإسلام: الإسلام، أو الجزية، أو القتال.

وكان مجتهداً في الدين: اجتهد على عهد النبيّ ﷺ، واجتهد بعد التحاقه عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى.

ومن اجتهاده على عهد النبيّ ﷺ ما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، قال عمرو: «احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت ان اغتسلتُ أن أهلك، فتيمّمت ثمّ صلّيت بأصحابي صلاة الصبح. فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «**يا عمرو! صلّيت بأصحابك وأنت جُنُب؟!** فقلت: نعم يا رسول الله! إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن أنا اغتسلتُ أن أهلك، وذكرتُ قول الله عزّ وجل: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما**﴾[6]، فتيممت

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣١).
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣١) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٩٠).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣١).
(٤) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٩٠).
(٥) تهذيب التهذيب (٨/٥٦).
(٦) سورة النساء، آية ٢٩.

ثمّ صلّيت! فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً »[1]، وكان ذلك في سرية ذات السّلاسل، التي كان من جنودها أبو بكر الصدّيق وعمر بن الخطّاب وأبو عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنهم[2].

وكان عمرو يقول: «عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مَثَل»[3].

أما اجتهاد عمرو بعد التحاق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى، ففي سنة ثماني عشرة الهجرية، كان طاعون عمواس، فلما اشتعل قام أبو عُبَيْدَة في الناس خطيباً، فقال: «أيّها النّاس! إنّ هذا الوَجَع رحمة بكم ودعوة نبيّكم محمّد ﷺ، وموت الصّالحين قبلَكُم، وإنّ أبا عُبَيْدَة يسأل الله أن يقسم له حظّه»، فطُعِن، فمات. واستُخلف على الناس مُعَاذ بن جبل[4]، فقام خطيباً بعده فقال: «أيّها الناس! إنّ هذا الوجع رحمة ربّكم ودعوة نبيّكم وموت الصالحين قبلَكُم، وإنّ مُعاذاً يسأل الله أن يقسم لآل مُعَاذ منه حظّهم»، فطُعن ابنه عبد الرحمن بن مُعَاذ، فمات. ثم قام فدعا به لنفسه، فطُعِن في راحته، فكان ينظر إليها ثمّ يُقَبِّل ظهر كفّه، ثمّ يقول: «ما أحبّ أن لي بما فيك شيئاً من الدنيا»، فلما مات استُخلف على النّاس عمرو بن العاص، فقام خطيباً في الناس، فقال: «أيّها الناس! إنّ هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النّار، فتجبّلوا[5] منه في الجبال»، فقال أبو وائلة الهُذَلِيّ[6]: «كذبت! والله لقد صحبتُ رسول

---

(١) و (٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/٧٦٩-٧٧٥) وطبقات ابن سعد (٢/١٣١) وسيرة ابن هشام (٤٠/٢٩٨) والطبري (٣/٣٢-٣٣) وابن الأثير (٢/٢٣٢) والمحبّر (١٢١) وأنساب الأشراف (١/٣٨٠-٣٨١) وجوامع السيرة (٢٠) وعيون الأثر (٢/١٥٧)، وانظر حديث صلاة عمرو في مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤/٢٠٣).

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤/٢٠٣).

(٤) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: سفراء النبيّ ﷺ.

(٥) تجبّل القوم: أي دخلوا في الجبل.

(٦) انظر سيرته في: الإصابة (٧/٢١١-٢١٢).

الله ﷺ وأنت شرٌّ من حماري هذا»[١]، فقال عمرو: «والله ما أردّ عليك ما تقول! وايمُ الله لا نُقيم عليه» ثمّ خرج وخرج النّاس فتفرّقوا، ورفعه الله عنهم، فبلغ ذلك عمر بن الخطّاب من رأي عمرو بن العاص، فما كرهه[٢].

وقد اختلف هؤلاء الصحابة الكرام في اجتهادهم، ولكنّ عمر بن الخطاب، أقرّ عَمْراً على اجتهاده.

وقد كان عمرو يروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثمّ أصاب فله أجران، وإذا حكم واجتهد ثمّ أخطأ فله أجر**»[٣].

وعن عمرو بن العاص، قال: «جاء رسول الله ﷺ خصمان يختصمان، فقال لعمرو: **اقضِ بينهما يا عمرو**. فقال: أنت أولى بذلك مني يا رسول الله! قال: **وإن كان**. قال: فإذا قضيتُ بينهما فما لي؟ قال: **إن أنت قضيتَ بينهما فأصبت القضاء، فلك عشر حسنات، وإن أنت اجتهدت فأخطأت فلك حسنة**»[٤]، وتكليفه بالقضاء من النبيّ ﷺ وبحضرته، دليل على متانته في الفقه وذكائه وحصافته.

وكان عمرو من أصحاب الفُتْيا من الصّحابة[٥]، وكفى بذلك دليلاً على علمه في الدين.

وقد وصفه رجل فقال: «صحبت عمرو بن العاص، فما رأيت رجلاً أبين قرآناً، ولا أكرم خُلقاً، ولا أشبه سريرة بعلانية منه»[٦].

---

(١) يريد أنه كان كافراً ولم يسلم بعد.
(٢) الطبري (٤/٦١ - ٦٢).
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤/٢٠٤).
(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤/٢٠٥).
(٥) أصحاب الفتيا من الصحابة ومَنْ بعدهم على مراتبهم في كثرة الفتيا - ملحق بجوامع السيرة - (٣٢٠).
(٦) الإصابة (٥/٢).

لقد كان عمرو عالماً من علماء الدين، تلقى علمه من النبيّ ﷺ، فكان قارئاً للقرآن الكريم، محدِّثاً، فقيهاً، مجتهداً في الدين، من أصحاب الفُتْيا من الصحابة الكرام، ومن قضاة المسلمين الأولين.

٣ . الكاتب

كان عمرو كاتباً بليغاً في نثره ونظمه، ولعلّ كتابه إلى عمر بن الخطاب يصف فيه مصر بعد فتحها، يُعدّ من أبلغ الرّسائل ليس في العربيّة فقط، بل في كلِّ لغات العالم[١].

فقد كتب عمر بن الخطّاب إلى عمرو: «أَنْ صِفْ لي مصر»، فكتب إليه عمرو: «ورد كتاب أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - يسألني عن مصر: اعلم يا أمير المؤمنين، أنّ مصر قرية غَبْراء[٢] وشجرة خضراء. طولُها شهر، وعَرْضها عَشْر[٣]، يكْنُفُهَا جَبَل أغبَر، ورَمْل أَعْفَر[٤]، يخطُّ وسَطَها نيلٌ مباركُ الغُدُوات، ميمونُ الرَّوْحات، تجري فيه الزيادة والنقصان كَجَرْي الشّمس والقمر، له أوانٌ يدرُّ حِلاَبُهُ[٥]، ويكثر فيه ذُبابه، تمدّه عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا ما اصْلَخَمَّ عَجَّاجُه[٦]، وتعظّمت أمواجُه، فاض على جانبيه، فلم يمكن التخلّص من القُرَى

---

(١) نشر نصّ ترجمة كتاب عمرو الكاتب الفرنسي (أوكتاف أوزان)، ووصفه بأنّه من أكبر آيات البلاغة في كلّ لغات العالم، انظر تاريخ عمرو بن العاص للدكتور حسن إبراهيم (١٦٩).

(٢) غبراء: وصف من الغبرة بالضم، لون الغبار، مثل مصر بقرية غبراء، وواديها الخصيب بشجرة خضراء.

(٣) المراد عشرة أيام، والمعنى أنّ عرضها أقلّ من طولها.

(٤) أعفر: رمل أحمر. والأعفر أيضاً: الأبيض وليس بالشديد البياض.

(٥) الدر بالفتح: اللّبن. والحلاب: استخراج ما في الضرع من اللّبن كالحلب. والمعنى: له وقت يغزر فيه ماؤه ويفيض.

(٦) اصلخمّ: اشتدَّ، بعير مصلخم: أي جسيم شديد ماضٍ. ونهر عجّاج: أي كثير الماء، تسمع لمائه المتدفق عجيجاً، أي صوتاً.

بعضها إلى بعض إلاّ في صغار المراكب، وخفاف القَوارب، وزوارق كأنهنَّ في المخَايل وُرْقُ الأصائل[١]، فإذا تكامل في زيادته نَكَصَ على عَقِبَيْهِ كأوّل ما بدأ في جَرْيته، وَطَما في دِرَّته[٢]، فعند ذلك تخرج أهلُ مِلَّة مَحْقورة، وذمّة مخفورة، يحرثون في الأرض، ويذرون في الحَبِّ، يرجون بذلك النّماء من الرّب، لغيرهم ما سَعَوا من كَدِّهم، فناله منهم بغير جِدّهم. فإذا أحدق[٣] الزّرع وأشرق، سقاه النّدى، وغَذَاه من تحته الثَّرى، فبينما مصرُ يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هي عَنْبَرَة سوداء، فإذا هي زُمُرُّدةٌ خضراء، فإذا هي ديباجَةٌ رَقْشَاء[٤]، فتبارك الله الخالق لما يشاء. والذي يُصْلِحُ هذه البلادَ ويُنَمِّيها، ويُقرّ قاطنيها فيها، ألاّ يُقْبَل خسيسها في رئيسها، وألاّ يُسْتَأْدَى[٥] خَراجُ ثمرة إلاّ في أوانها، وأن يُصْرف ثلثُ ارتفاعها في عمل جسورها وتُرعها، فإذا تقرّر الحال مع العمّال على هذه الأحوال، تضاعف ارتفاع المال، واللهُ تعالى يوفّق في المبدأ والمآل». فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «لله دَرُّكَ يا ابن العاص! لقد وصَفْتَ لي خبراً كأني أشاهده»[٦].

وليست هذه الرِّسالة أبلغ رسائل عمرو، ولكنّها من أبلغها وأمثالها من رسائله كثير.

---

(١) المخايل: جمع مخيلة كمعيشة، خال الشيء مخيلة: ظنّه. والأصائل: جمع أصيل، وهو العشي. والورق: جمع ورقاء، وهي الحمامة، في لونها بياض إلى سواد.

(٢) نكص: رجع. وطما الماء يطمو ويطمي: علا. والدرّة بالكسر: اسم من الدر بالفتح، وهو اللّبن كما تقدّم. والمعنى: في زيادته وفيضه.

(٣) أحدق: اي استدار. وأشرق: تفتح نوره.

(٤) الديباجة: الخد. والرقشاء: المنطقة بسواد وبياض.

(٥) أي يطلب أداءه.

(٦) النجوم الزاهرة (١/٣٢-٣٣).

وفي سنة ثمانٍ وعشرين الهجرية، فتح معاوية بن أبي سفيان جزيرة (قُبْرُس) المعروفة في البحر الأبيض المتوسِّط، وكان معاوية قد لجّ على عمر بن الخطاب في غزو البحر وقرب الرُّوم من مدينة حِمْص، وقال: «إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نُباح كلابهم وصياح دجاجهم»، حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب إلى عمرو بن العاص «صِفْ لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه»، فكتب عمرو إلى عمر: «إني رأيت خَلْقاً كبيراً يركبه خلْق صغير، إن ركَنَ[1] خرّق القلوب، وإن تحرّك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلَّة، والشكّ كثرة، هم فيه كدودٍ على عود، إن مال غرق، وان نجا برِق[2]»، فلما قرأه عمر، كتب إلى معاوية: «لا والذي بعث محمداً بالحق، لا أحمل فيه مسلماً أبداً»[3].

إنّ بلاغته مؤثِّرة في العقول والقلوب معاً، ولو اقتصر هَمّ عمرو على النثر الفنّي، لكان له شأن عظيم من كتاب العربيّة اللامعين.

٤ . الشاعر

رُويت لعمرو آثار في الشِّعر، تسلكه بين الشّعراء، قال في يوم أُحُد، وكان يومئذٍ مُشركاً:

خَرَجْنا من الفَيْفَا عليهم كأنَّنا مع الصُّبْح من رَضْوَى الحَبيكُ المُنَطَّقُ[4]
تَمَنَّتْ بنو النّجَّار جَهْلاً لقاءَنا لَدَى جَنْبِ سَلْعٍ والأَمانِيّ تَصْدُقُ[5]

---

(١) ركن: سكن.

(٢) البرق: الحيرة والدهش.

(٣) الطبري (٤/٢٥٨ - ٢٥٩) وابن الاثير (٣/٩٥)، وانظر العقد الفريد (١/٨٩) وعيون الأخبار (١/١٣٧).

(٤) الفيفا: الأرض القفر التي لا تنبت شيئاً، وأصله ممدود، وقد قصره هنا حين اضطر إلى ذلك. ورضوى: اسم جبل. والحبيك: الذي فيه طرائق. والمنطّق: الحزم الشديد.

(٥) سلع: اسم جبل قريب من المدينة.

فما راعَهُمْ بـالشرِّ إلاّ فُجَاءَةً كرادِيْسُ خَيْلٍ في الأزِقّة تَمْرُقُ[1]
أرادوا لِكَيْمَا يَسْتَبِيْحُوا قِبَابَنَا ودُونَ القِبَابِ اليومَ ضَرْبٌ مُحَرِّقُ
وكانت قِبَاباً أُومِنَت قَبْلَ ما تَرَى إذا رَامَهَا قَوْمٌ أُبِيحُوا وأُحْنِقُوا[2]
كأنّ رُؤوسَ الخَزْرَجِيِّينَ غُدْوَةً وأَيْمَانَهُمْ بالمَشْرَفِيَّةِ بَرْوَقُ[3]

وقال في يوم أُحُد أيضاً:

لمَّا رأيتُ الحَرْبَ يَنْزو شَرُّها بالرَّضْفِ نَزْوا[4]
وَتَنَازَلَتْ شَهْبَاءُ تَلْحُو النَّاسَ بالضَّرَّاءِ لَحْوا[5]
أيْقَنْتُ أنَّ الموتَ حَقٌّ والحياةُ تكونُ لغْوا
حَمَّلْتُ أثوابي على عَتَدٍ يَبُذُّ الخَيْلَ رَهْوا[6]
سَلِس إذا نكَّبْنَ في البَيْداء يَعْلُو الطِّرْفَ عُلْوا[7]
وإذا تَنَزَّلَ ماؤُهُ من عِطْفِهِ يَزْدَادُ زَهْوا[8]

---

(١) الكراديس: جماعات الخيل. وتمرق: تخرج، كما يمرق السهم من الرميّة.

(٢) أحنقوا بالبناء للمجهول: فعل بهم ما يغيظهم ويغضبهم. يريد أنّهم أعزّة لا يقدر أحد عليهم.

(٣) البروق: نبات له أصول يشبه البصل. يريد أنّهم ضعاف. انظر نص الأبيات في سيرة ابن هشام (١١٠/٣-١١١).

(٤) ينزو: يرتفع ويثب. والرضف: الحجارة المحماة بالنّار.

(٥) شهباء: يعني بها كتيبة كثيرة السّلاح. وتلحو الناس: تضعفهم وتقلّ من شأنهم.

(٦) العتد: الفرس الشديد. ويبذ الخيل: يسبقها. والرّهو: السّاكن اللّين.

(٧) سلس: سهل المقاد لا يجمح. والبيداء: القفر. ويعلو الطرف: يسبقه، يريد أنّه سريع.

(٨) تنزل ماؤه: عرقه. وعطفه: جانبه. والزهو: الاعجاب والتكبّر. يريد أنّه لا يضعف ولا يفتر مهما جرى.

رَبِــــذٍ كَيَعْفُورِ الصَّرِيمَـــــةِ رَاعَـــــــــهُ الرَّمونَ دَحْوا[١]
شَنِـــج نَسَاهُ ضَـــابِــــطٍ للخَيْـــلِ إرْخَـــاءً وَعَـــدْوا[٢]
فَفِـــــدًى لَهُمْ أُمِّي غَـــــداة الرَّوع إذ يمشُونَ قَطْوا[٣]
سَيْراً إلى كَبْشِ الكتيبـــــــةِ إذْ جَلَتْـــــــهُ الشَّمْسُ جَلْوا[٤]

وكان عُمارة بن الوليد مع عمرو في أرض الحبشة، وعُمارة أخو خالد ابن الوليد، فاختلف عمرو وعُمارة[٥]، فقال عمرو:

تَعَلَّمْ عُمَــارُ أنّ من شرِّ شُبْهــةٍ[٦] لمثلِكَ أَنْ يُدْعَى ابن عَمٍ له انتمى[٧]
لئن كنتَ ذا بُرْدَيْنِ أحوى مرجَّلاً فلستَ براءٍ لابن عمِّــك مُحرمــا
إذا المرء لم يتركْ طعاماً يُحبُّهُ ولم يَنْهَ قلباً هائماً[٨] حيث يَمَّمَا
قَضَى وَطَراً منه[٩] وغادر سُبَّةً إذا ذُكِرَتْ أَمثـالُهــا تملأُ الفَما[١٠]

---

(١) ربذ: سريع خفيف القوائم في مشيه. واليعفور: ولد الظبية. والصريمة: الرملة المنقطعة. وراعه: أخافه وأفزعه. والدحو: الانبساط. يصف فرسه بأنّه شديد السرعة، فكأنّه حين يجري ظبي في منقطع الرّمل، قد أفزعه الرّماة، ورأى الصيّادين، فهو يجري جرياً متتابعاً لا يلوي على شيءٍ.

(٢) شنج: منقبض. والنسا: عرق مستبطن الفخذين. وضابط: أي ممسك. والارخاء والعدو: ضربان من السّير.

(٣) القطو: مشى فيه تبختر كمشي القطاة.

(٤) كبش الكتيبــة: رئيسهــا. وجلتـــه: أبرزتـــه، انظر الأبيـــات في سيرة ابن هشام (١١٦/٣-١١٧).

(٥) انظر التفاصيل في: أنساب الأشراف (٢٣٢/١ - ٢٣٣).

(٦) في أنساب الأشراف (٢٣٣/١): شيمة.

(٧) في أنساب الأشراف: ابنا، وهي قراءة غير صحيحة.

(٨) في أنساب الأشراف: غاوياً.

(٩) في أنساب الأشراف: منها.

(١٠) أنساب الأشراف (٢٣٣/١) والحلة السيراء (١٥/١).

وقال عمرو في حرب صفّين:

شُبّتِ الحربُ فأعددتُ لها مفرغَ الحاركِ مَحْبوكَ السَّبَجْ[1]
يَصِلُ الشَّدّ بشدٍ فإذا وَفَتِ الخيل من الشدِّ مَعَجْ[2]
جُرْشَعٌ أَعْظَمُهُ جَفْرَتُهُ فإذا ابتلَّ من الماءِ حَدَجْ[3]

وكتب عمرو إلى معاوية بن أبي سفيان:

مُعَاوِيَ لا أُعطيكَ دِيني ولم أَنلْ به منك دُنْيَا فأنْظُرَنْ كيف تَصْنَعُ؟
وما الدِّينُ والدّنيَا سواءٌ وإنّني لآخذ ما تُعطى ورَأسي مُقَنَّعُ
فإنْ تُعطني مِصْراً فَأَرْبِحْ بصَفْقَةٍ أخذتَ بها شيخاً يَضُرّ ويَنْفَعُ[4]

وممّا يُعزى إلى عمرو قوله:

وأُغْضِي على أشياءَ لو شِئتُ قُلْتُها ولو قُلتُهَا لم أُبْقِ للصُّلح موضِعَا
فإنْ كانَ عُوْدِي من نُضَارٍ فإنني لأكرهُ يوماً أنْ أُحطِّمَ خِرْوَعا[5]

تلك نماذج قليلة من شعره، تدلّ على قابليّته الشّعريَّة المتميِّزة، وثراء رصيده اللّغوي بالكلمات العربية الفصحى الأصيلة، ولعلّه لو تفرّغ للشِّعر ولم تشغله حوادث الأيام بالحرب والسياسة والإدارة لكان له شأن مرموق بين الشعراء الفحول.

---

(١) الحارك من الفرس: كاهله. والسَّبج: خرزٌ أسود.
(٢) معج: أسرعَ.
(٣) الحلّة السيراء (١/١٥-١٦)، ولا وجود لهذه الأبيات في كتاب: وقعة صفين، لنصر بن مزاحم المنقري (طبعة عبد السلام هارون). القاهرة- ١٣٦٥ هـ.
(٤) العقد الفريد (٣٤٥/٤) والحلّة السيراء (١٦/١)، ووردت هذه الأبيات بنظام آخر في: وقعة صفين.
(٥) الخروع: كلّ نبت ضعيف ينثني. وانظر مصدر هذين البيتين في كتاب: الحلّة السيراء (١٧/١).

وكان يروي الشِّعر ويلقيه على الأسماع حين يجد إلى ذلك سبيلا، ومن مَنْقُوله لا من مَقُوله، ما ذكره لمعاوية بن أبي سفيان، أن بكّارة الهلاليّة[1]، قالت:

يا زيدُ دونك فاسْتَشِرْ من دارنا ... سَيْفاً حُسَاماً في التُراب دَفِيْنَا

قـد كنـتُ أَذْخَرَه ليوم كَرِيهَـةٍ ... فـاليوم أَبْرَزَهُ الزَّمـانُ مَصُوْنـا[2]

ومن النادر أن يقول المرء شعراً، إلاّ إذا حفظ كثيراً من الشِّعر ورواه.

٥. الخطيب

كان عمرو خطيباً مصقعاً من ألمع خطباء الصّحابة رضي الله عنه، وقد شهد أحدهم[3] خطبة لعمرو، فقال: «رحتُ أنا ووالدي إلى صلاة الجمعة تهجيراً[4] وذلك آخر الشتاء بعد حَمِيْم النّصارى[5] بأيّام يسيرة، فأطلنا الركوع، إذ أقبل رجال بأيديهم السِّياط يزجرون الناس، فَذُعِرْتُ! فقلت: يا أبتِ! من هؤلاء؟! فقال: يا بُنيّ، هؤلاء الشُّرَط. فأقام المؤذنون الصلاة، فقام عمرو بن العاص على المنبر، فرأيتُ رجلاً رَبْعة قصير القامة، وافر الهامة، أَدْعج[6]، أَبْلج[7]، عليه ثياب موشِيّة

---

(١) انظر قصة وفادتها على معاوية بن أبي سفيان في: العقد الفريد (٢/١٠٤-١٠٥).

(٢) العقد الفريد (٢/١٠٥).

(٣) هو بَجِيْر بن ذاخِر المَعَافِريّ، انظر فتوح مصر والمغرب (١٨٩) والنجوم الزاهرة (١/٧٢).

(٤) الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر. وتهجّر: سار في الهاجرة.

(٥) هو خميس العهد، وحميم النصارى: الغطاس الذي يقع في ١١ طوبة.

(٦) أدعج: أسود، ويقال: رجل أدعج اللون.

(٧) أبلج: بَعُدَ ما بين حاجبيه.

كأنّ به العِقْيان[1] يأتلق، عليه حُلَّة وعمامة وجُبَّة، فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً، وصلّى على النبيّ ﷺ، ووعظ الناس، وأمرهم ونهاهم، فسمعته يحضّ على الزّكاة وصِلة الأرحام، ويأمر بالاقتصاد، وينهى عن الفُضول[2] وكثرة العيال وقال في ذلك: يا معشر الناس! إيّاكم وخلالاً أربعة، فإنها تدعو إلى النَّصْب بعد الراحة، وإلى الضِّيق بعد السَّعة، وإلى المذلّة بعد العزّة، إياكم وكثرة العيال، وإخفاض الحال، وتضييع المال، والقِيل بعد القال، في غير دَرَك[3] ولا نوال[4]. ثم إنّه لا بدّ من فراغٍ يؤول إليه المرء في توزيع جسمه والتدبير لشأنه، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها، ومَنْ صار إلى ذلك فليأخذ بالقصْد والنّصيب الأقل، ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه، فَيحُور[5] من الخير عاطلا، وعن حلال الله وحرامه غافلا.

« يا معشر النّاس! إنّه قد تدلّت الجوزاء، وذَكَتْ الشِّعْرى، وأقلعت السّماء، وارتفع الوباء، وقلّ الندى، وطابَ المَرْعَى، ووضعت الحوامل، ودرجت السّخائل[6]، وعلى الرّاعي بحسن رعيّته حُسْن النّظر، فحيَّ لكم على بركة الله إلى ريفكم، فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده، وأَرْبِعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها، فإنها جُنَّتكم[7] من عدوّكم

---

(1) العقيان: الذهب الخالص.

(2) الفضول: جمع فضل، وهو الزيادة على الاقتصاد.

(3) درك: تَبِعة.

(4) نوال: النّصيب والعطاء.

(5) يحور: يرجع، وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّه ظَنَّ أَنْ لن يَحُوْرَ﴾، والآية الكريمة من سورة الانشقاق (٨٤: ١٤).

(6) السخائل: ولد الشاة ذكراً كان أو أنثى من المعز والضأن.

(7) المجنّة: الترس.

وبهامغانمكم وأنفالكم، واستوصوا بمن جاورتموه من القِبْط خيرا، وإيّاكم والمشمومات والمعسولات، فإنهن يُفْسِدنَ الدِّين ويُقَصِّرْنَ الهِمَم»[١].

والذي يقرأ هذا الخطاب بإمعان، يتلمّس بالإضافة إلى بلاغته وبيانه المشرق وإيجازه ووضوح مقاصده، اهتمام عمرو برعيّته وتوجيههم إلى الصّلاح والخير، واهتمامه بالناحيتين الاجتماعية والاقتصادية للمواطنين، فهو بحق رجل دولة بكل معنى الكلمة، يأمر الناس بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويشعر بمسؤولياته في توجيههم توجيهاً سليماً يفيدهم في دنياهم وآخرتهم.

ومن نماذج خطبه في الحرب، خطبته في صِفِّين، فقد أراد معاوية بن أبي سفيان أن يخطب بصفِّين، فقال له عمرو: «دعني أتكلّم، فإن أتيتُ على ما تريد، وإلاّ كنتَ من وراء ذلك» فأذن له. وتكلّم عمرو بكلمات، قال: «قدِّموا المُسْتَلْئِمَةَ[٢]، وأخِّروا الحُسَّر[٣] كونوا مِقَصَّ الشَّارب[٤]، أعيرونا أيديكم ساعة، قد بلغ الحقُّ مَفْصِلَه[٥]، إنّما هو ظالم أو مظلوم»[٦].

ولا أعرف خطاباً في مثل هذا الموقف، أوضح بياناً، وأجزل عبارة، وأوجز كلاماً، وأصحّ منطقاً، مثل هذا الخطاب الذي اختصر به تعبية الميدان بكلمات معدودات.

---

(١) فتوح مصر والمغرب (١٨٩-١٩٠) والنجوم الزاهرة (١/٧٢-٧٣).

(٢) المستلئمة: الطّائفة التي عليها اللأْم وهي الدروع.

(٣) الحُسَّر: جمع حاسر. والحاسر من الجنود: مَنْ لا درع له.

(٤) كونوا مقصّ الشارب: يريد كونوا في صفوف متراصفة باستواء الشارب عند قصّه وتعديله.

(٥) المفصل: ملتقى كلّ عظمين في الجسد، أي بلغ الحق مداه.

(٦) عيون الأخبار (٢/٢١٥).

٦. الدّاهية

كان الإمام الشَّعْبيّ رحمه الله يقول: «دهاة العرب أربعة، معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمُغِيْرة بن شُعْبة[١]، وزياد[٢] فأمّا معاوية فللحلم والأناة، وأما عمرو فللمعضلات، وأما المغيرة فللمبادهة، وأما زياد فللكبير والصغير»[٣].

وقالوا: «الدُّهاة أربعة: معاوية للرويَّة، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة للمعضلات، وزياد لكلّ صغيرة وكبيرة»[٤].

وكان من دهائه دخوله على الأرطبون وتخلّصه منه بعد أن انكشف أمره للأربطون، فلما سمع عمر بن الخطاب بخديعة عمرو للأرطبون، قال: «لله درّ عمرو»، كما قال عنه الارطبون: «هذا أدهى الخلق»[٥].

ولما فتح عمرو قَيْساريّة من أرض فلسطين، سار حتى نزل غَزَّة، فبعث إليه عِلْجُها: «أن ابعث إليّ رجلاً أكلّمه». وفكّر عمرو، فقال: «ما لهذا أحدٌ غيري!».

وخرج عمرو حتى دخل على العِلْج، فكلّمه، فسمع كلاماً لم يسمع قطّ مثله، فقال العلج: «حدِّثني هل فيأصحابك أحد مثلك؟»، قال: «لا تسأل عن هذا، إنّي هيِّن عليهم إذ بعثوا بي إليك، وعرّضوني لما عرّضوني له، ولا يَدْرون ما تصنع بي!»، فأمر له بجائزة وكُسْوة، وبعث إلى البوّاب: «إذا مرّ بك، فاضرب عُنقه وخُذ ما معه».

---

(١) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٣١-٤٥٥).

(٢) زياد بن أبي سفيان: انظر سيرته في أسد الغابة (٢/٢١٥).

(٣) الاستيعاب (٣/١١٨٨).

(٤) العقد الفريد (٥/٧).

(٥) انظر التفاصيل في الطبري (٣/٦٠٥-٦٠٧) وابن الأثير (٢/٤٩٨).

وخرج عمرو من عنده، فمرّ برجلٍ من نصارى غَسَّان فعرفه، فقال: «يا عمرو! قد أحسنت الدّخول فأحْسن الخروج»، ففطن عمرو لما أراده، فرجع. وقال له الملك: «ما ردّك إلينا؟!» فقال: «نظرت فيما أعطيتني، فلم أجد ذلك يَسع بني عمّي، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العَطِيّة، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد!»، فقال: «صدقت! اعْجِل بهم»، وبعث إلى البوّاب: أن خلِّ سبيله.

وخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمِنَ قال: «لا عُدْتُ لمثلها أبدا»، فلما صالحه عمرو ودخل عليه العِلْج، قال له: «أنت هو!!»، قال: «نعم، على ما كان من غدْرك»[1].

وكرّر عمرو هذه العمليّة مرة ثالثة في أيام فتح مصر، فحين استعصى عليه فتح حصن بابلْيون، أقدم على دخول الحصن، ودخل على صاحبه، فتناظرا في شيءٍ مما هم فيه، فقال عمرو: «أُخْرُج استشير أصحابي».

وكان صاحب الحصن أوصى الذي على الباب، إذا مَرَّ به عمرو أن يُلْقي عليه صخرة فيقتله، فمرّ عمرو وهو يريد الخروج برجل من العرب، فقال له: «قد دخلت فانظر كيف تخرج!».

ورجع عمرو إلى صاحب الحصن، فقال له: «إني أريد أن آتيك بنفرٍ من أصحابي، حتى يسمعوا منك مثل الذي سمعتُ»، فقال العِلْج في نفسه: «قتل جماعة أحبّ إليّ من قتل واحد»، فأرسل إلى الذي كان أمره ما أمره من قتل عمرو: «ألا تَعْرِضْ له»، رجاء أن يأتيه بأصحابه فيقتلهم.

---

(١) العقد الفريد (١/١٢٤-١٢٥).

وخرج عمرو[1]، وتخلّص من موت أكيد بدهائه.

ومهما قيل في إثبات هذه المحاولات الثلاث أونفيها، فإنها تدلّ على ما عرف عنه من دهاء، إذ لم تنسب مثل هذه المحاولات لغيره من القادة والولاة.

ولعلّ ما يثبت دهاءه، ما عرضه على معاوية بن أبي سفيان في معركة صِفّين من رفع المصاحف، مما أدّى إلى اختلاف أهل العراق وائتلاف أهل الشام[2].

كما أنّ إغراءه أبي موسى الأشعري لخلع عليّ بن أبي طالب، وتقديمه له ليعلن هذا الخلع، هو من دهائه. فلما أعلن أبو موسى خلع عليّ، أقبل عمرو فأعلن تثبيت معاوية بن أبي سفيان وخلْع عليّ[3]، وهذا من بعض دهائه.

وخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمّ كلثوم ابنة أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، فقالت أمّ كلثوم: «لا حاجة لي فيه، إنّه خشِنُ العيش شديد على النساء». وأرسلت عائشة أمّ المؤمنين إلى عمرو، فقال: «أنا أكفيك».

وأتى عمر فقال: «بلغني خبر أعيذك بالله منه»، قال: «ما هو؟»، قال: «خطبت أمّ كلثوم بنت أبي بكر»[4]، قال: نعم، أفرغبتَ بي عنها،

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٩٣).

(٢) انظر التفاصيل في: طبقات ابن سعد (٤/٢٥٥-٢٥٦) والطبري (٥/٤٨-٦٣) وابن الأثير (٣/٣١٦-٣٢٠).

(٣) انظر التفاصيل في: طبقات ابن سعد (٤/٢٥٦-٢٥٧) وتاريخ خليفة بن خياط (١/١٧٣-١٧٤) والطبري (٥/٦٧-٧١) وابن الاثير (٣/٣٢٩-٣٣٤) والبداية والنهاية (٧/٢٧٦-٢٧٨) والعبر (١/٤٣) والعقد الفريد (٤/٣٤٦-٣٥١).

(٤) أم كلثوم بنت أبي بكر، انظر سيرتها المفصلة في طبقات ابن سعد (٨/٤٦٢) أسد الغابة (٥/٦١١).

أم رغبت بها عني؟! » قال: «ولا واحدة، ولكنّها حَدَثَةٌ نشأت تحت كنف أمير المؤمنين في لينٍ ورفق، وفيك غِلْظة، ونحن نهابك وما نقدر أن نردّك عن خُلق من أخلاقك، فكيف بها إن خالفتك في شيءٍ، فسطوت بها، كنتَ قد خلفت أبا بكرٍ في ولده بغير ما يحقّ عليك»، فقال: «وكيف بعائشة وقد كلّمتها؟»، قال: أنا لك بها، وأدلك على خيرٍ منها، أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب[1]، تعلق بها بسبب من رسول الله ﷺ»[2]، وهكذا حقّق رغبة أم كلثوم بنت أبي بكر الصدِّيق بدهائه من غير أن يُزعج عمر بن الخطاب.

ولما مات عمر بن الخطاب، وأخرجت جَنازته، اجتمع أهل الشورى في بيت المال، وقيل في حجرة عائشة أم المؤمنين بإذنها، فجاء عمرو والمغيرة بن شُعبة فجلسا في الباب، فحصبها سعد بن أبي وقاص[3] وأقامها وقال: «تريدان أن تقولا: حضرنا، وكنّا من أهل الشورى»[4].

وتولّى عثمان بن عفّان رضي الله عنه الخلافة، فدعا عُبيدَ الله بن عمر ابن الخطّاب[5]، كان قتل قاتل أبيه أبا لؤلؤة، وقتل جُفَيْنة رجلاً نصرانياً من أهل (الحيْرة)[6]، وقتل الهُرْمزان[7]، وإنّما قتل عبيدالله

---

(١) أم كلثوم بنت عليّ بن ابي طالب: انظر سيرتها المفصلة في طبقات ابن سعد (٨/٤٦٣) وأسد الغابة (٥/٦١٤) والإصابة (٨/٢٧٥) والاستيعاب (٢/١٩٥٤).

(٢) الطبري (٤/١٩٩-٢٠٠) وابن الأثير (٣/٥٤-٥٥).

(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٤٨-٢٩٦).

(٤) الطبري (٤/٢٣٠) وابن الأثير (٣/٦٨).

(٥) عبيد الله بن عمر بن الخطّاب: انظر سيرته المفصّلة في أسد الغابة (٣/٣٤٢) والاستيعاب (٣/١٠١٠).

(٦) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، على موضع يقال له النّجف. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٣٨٦).

(٧) الهرمزان: أحد زعماء الفرس الذين أسروا في فتح الأهواز وقد حارب المسلمين في الأهواز مدة طويلة.

هؤلاء النّفر، لأنّ عبدالرحمن بن أبي بكر الصدِّيق[1] قال غداة قُتل عمر: «رأيت عشيّة أمس الهرمزان وأبا لؤلؤة وجُفَيْنة وهم يتناجون، فلما رأوني ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه وهو الخنجر الذي ضُرب به عمر»، فقتلهم عبيدالله. ولما أحضره عثمان، قال: «أشيروا عليّ في هذا الرّجل الذي فتق في الإسلام ما فتق»، فقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «أرى أن تقتله»، فقال بعض المهاجرين: «قُتل عمر أمس، ويُقتل ابنه اليوم!»، فقال عمرو بن العاص: «إنّ الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان، إنّما كان هذا الحدث ولا سلطان لك»، فأخذ عثمان برأي عمرو، وقال: «أنا وليّهم، وقد جعلتها دِيّة، واحتملتها من مالي»[2]، وبذلك أنقذ عثمانَ من أوّل موقف عصيب صادفه في خلافته، كان يمكن أن يؤدي إلى اختلاف المسلمين في المدينة المنورة.

وقدم معاوية بن أبي سفيان من الشام، وعمرو بن العاص من مِصْر، على عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فأقعدهما بين يديه، وجعل يُسائلهما عن أعمالهما، إلى أن اعترض عمرو في حديث معاوية، فقال له معاوية: «أعملي تَعيب وإليّ تَقْصِد؟ هلمَّ تُخبر أمير المؤمنين عن عملي، وأخبره عن عملك»، فقال عمرو في نفسه: «فعلمتُ أنّه بعملي أبصرُ منّي بعَمله، وأنّ عمر لا يدع أوّل هذا الحديث حتى يصير إلى آخره، فأردت أن أفعل شيئاً أشغل به عمر عن ذلك فرفعتُ يَدي فلطمتُ معاوية»، فقال عمر: «تالله ما رأيت رجلاً أسفَه منك! قُمْ يا معاوية فاقتصّ منه»، قال معاوية: «إنّ أبي أمرني ألاّ أقضي أمراً دونه»، فأرسل عمر

---

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق: انظر سيرته المفصلة في الاستيعاب (٨٢٤/٢).
(٢) الطبري (٢٣٩/٤) وابن الأثير (٧٥/٣).

إلى أبي سُفيان[1]، فلما أتاه ألقَى له وسادةً، وقال: «قال رسول الله ﷺ: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»[2]، ثم قصّ عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية، فقال: «لهذا بعثت إليّ! أخوه وابن عمّه، وقد أتى غير كبير، وقد وهبت ذلك له»[3].

والخبر يبدو أنّه موضوع، فإن صحّ فهو يدلّ على سرعة بديهة عمرو وذكائه المتألّق، وهما صفتان من صفات الدُّهاة.

وقد قال معاوية بن أبي سفيان يوماً لعمرو: «ما بلغ عن عقلك؟»، فقال: «ما دخلت في شيءٍ قط إلاّ خرجت منه»[4]. وفي رواية أنّه قال: «لم أدخل في أمرٍ قطّ فكرِهته إلاّ خرجت منه»، وكان يقول: «ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشرّ، ولكنّه الذي يعرف خير الشرّين»[5].

لقد كان عمرو بحق: أحد الدّهاة المقدّمين في المكر والرأي[6]، وكان من شجعان العرب وأبطالهم ودُهاتهم[7]، وكان معدوداً من دُهاة العرب وشجعانهم[8]، وكان من أبطال العرب ودهاتهم وذا رأي[9]، وكان من

---

(١) أبو سفيان صَخْر بن حرب بن أميّة القرشي الأُموي انظر سيرته في: أسد الغابة (٢١٦/٥) والإصابة (٢٣٧/٣) والاستيعاب (١٦٧٧/٤) وتهذيب الأسماء واللغات (٢٣٩/٢).

(٢) رواه الطبرانيّ في الكبير وابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان والحاكم، وهو حديث صحيح، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢٣/١).

(٣) العقد الفريد (١٧/١) وعيون الأخبار (٢٠٠/١).

(٤) العقد الفريد (٢٤٢/٢).

(٥) عيون الأخبار (٢٨٠/١).

(٦) الاستيعاب (١١٨٨/٣).

(٧) أسد الغابة (١١٧/٤).

(٨) البداية والنهاية (٢٦/٨).

(٩) تهذيب الاسماء واللغات (٣٠/٢).

أفراد الدّهر دهاءً وجلادةً وحزماً ورأياً وفصاحة[١]، وكان من دُهاة قريش وأجلادها وذوي الحزم والرأي[٢].

إنه من دُهاة العرب المعدودين

٧. الحكيم

الحِكْمة هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، وهي العلم والتفقّه، وفي التنزيل العزيز: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾[٣]، وهي الكلام الذي يقلّ لفظه ويجلّ معناه، والحكيم هو ذو الحِكْمَة.

وقد كان عمرو حكيماً حقّاً في أقواله وتصرّفاته.

ومن أقواله الحكيمة: «لا سلطان إلاّ بالرِّجال، ولا رجال إلاّ بمال، ولا مال إلاّ بعمارة ولا عمارة إلا بعَدْلٍ»[٤].

وقيل لعمرو: ما العقْلُ؟ فقال: «الإصابة بالظنّ، ومعرفة ما يكون بما قد كان»[٥]. وقال: ليس العاقل الذي يعرف الخيرَ من الشرّ، إنّما العاقل الذي يعرف خير الشرّين»[٦].

وكان يقول: «اعمل لدُنياك عمل مَنْ يعيش أبدا، واعمل لآخرتك عمل مَنْ يموت غدا»[٧]، وقال: «اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك تموتُ غداً»[٨].

---

(١) النجوم الزاهرة (١/٦٤).
(٢) العبر (١/٥١).
(٣) سورة لقمان، آية ١٢.
(٤) العقد الفريد (١/٣٣).
(٥) العقد الفريد (٢/٢٤١).
(٦) العقد الفريد (٣/١١).
(٧) العقد الفريد (٣/٢٧).
(٨) العقد الفريد (٦/٢٠٢).

وسمع عمرو رجلاً يقول: الرُّجلة[1] قطعة من العذاب »، فقال له: « لم تُحْسن، بل العذاب قطعة من الرُّجْلَة »[2].

وكان يقول: « ثلاثة لا أناة فيهنّ، المبادرة بالعمل الصّالح، ودفن الميِّت ، وتزويج الكُفْءِ »[3].

وكان يقول: « ثلاثة لا أملُّهم: جليسي ما فَهِم عنّي، ودابتي ما حملت رجلِيّ، وثوبي ما سترني »، وزاد آخر: « وامرأتي ما أحسنت عِشْرتي »[4].

وقال معاوية بن أبي سفيان لعمرو: « ما بقي من لذّة الدنيا تلذّه؟ »، قال: « محادثة أهل العلم، وخبرٌ صالح يأتيني من ضَيْعتي »[5].

وكان يقول: « ما استودعت رجلاً سِرّاً فأفشاه، فلُمته، لأني كنت أضيق صدراً منه حين استودعته إيّاه حتى أفشاه »[6].

وقال عمرو حين تحكّم الحكمان: « أكثروا الطّعام، فوالله ما بَطُنَ[7] قوم قطّ، إلاّ فقدوا بعض عقولهم، وما مضت عزمة رجل بات بطيناً »[8].

---

(١) الرُّجلة: المشي على الرجلين.
(٢) العقد الفريد (٦/٢٢٨).
(٣) العقد الفريد (٢/٢٥٧).
(٤) عيون الأخبار (١/٣٠٧).
(٥) عيون الأخبار (١/٣٠٩).
(٦) عيون الأخبار (١/٤٠) والعقد الفريد (١/٦٥).
(٧) البطنة: الكظّة وهي امتلاء البطن من الطعام، ومن أمثالهم: « البطنة تذهب الفطنة ».
(٨) عيون الأخبار (٣/٢١٩).

وقد ذكرنا أنّ خصمين جاء النبيّ ﷺ، فقال النبيّ ﷺ: « **اقْضِ بينهما يا عمرو** »[1].

وكان بين طَلْحة بن عُبَيْد الله[2] والزُّبير بن العوّام مداراة في وادٍ بالمدينة، فقالا: « نجعل بيننا عمرو بن العاص »، فأتياه، فقال لهما: « أنتما في فضلكما وقديم سوابقكما ونعمة الله عليكما تختلفان! وقد سمعتما من رسول الله ﷺ مثل ما سمعتُ، وحضرتما من قوله مثل الذي حضرتُ، فيمن اقتطع شبراً من أرض أخيه بغير حق أنّه يُطَوَّقُه من سبع أرضين! والحَكَم أحوج إلى العدل من المحكوم عليه، وذلك لأنّ الحكَمَ إذا جار رُزِىء دينه، والمحكوم عليه إذا جير عليه رُزِىء عَرَض الدنيا. إن شئتما فأدليا بحجتّكما، وإن شئتما فأصلحا ذات بينكما »، فاصطلحا وأعطى كلّ واحد منهما صاحبه الرضا[3].

وهكذا يقضي عمرو بين الخصوم من دون أن يقضي، فيحلّ المشاكل بينهم والمعضلات، ويزيل من بينهم سوء التّفاهم والخِلافات، بأسلوب من الحكمة فريد.

وقال يوماً لمعاوية: « إنّ الكريم يصول إذا جاع، واللّئيم يصول إذا شبع، فسُد خصاصة (حاجة) الكريم، واقمع اللّئيم ». وقال معاوية لعمرو: « مَنْ أبلغ النّاس؟ »، قال: « من كان رأيه ردّاً لهواه »، فقال: « ومَنْ أسخى النّاس؟ »، فقال: « مَنْ بذل دنياه في صلاح دينه »، قال: « مَنْ أشجع النّاس؟ »، قال: « مَنْ ردّ جهله بحلمه »، ومن غرر أقواله: « موت

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد (٤/٢٠٥).

(٢) طلحة بن عبيد الله: انظر سيرته في: طبقات ابن سعد (٣/٢١٤-٢٢٥) وأسد الغابة (٣/٥٩-٦٢) والإصابة (٣/٢٩٠-٢٩٢) والاستيعاب (٢/٧٦٤-٧٧٠) والرياض النضرة في مناقب العشرة (٢/٣٣٤-٣٥١).

(٣) عيون الأخبار (١/٧٠).

ألف من العِلْيَة، أقلّ ضرراً من ارتفاع واحد من السّفلة». وقال: «إذا أنا افشيتُ سّري إلى صديقي فأذاعه فهو في حلّ»، فقيل له: وكيف ذلك؟! فقال: «أنا كنت أحقّ بصيانته»[1].

وما أصدق جابر بن عبد الله[2] رضي الله عنه في قوله: «صحبتُ عمر بن الخطّاب، فما رأيت أقرأ لكتاب الله منه، ولا أفقه في دين الله منه، ولا أحسن مداراة منه. وصحبتُ طلحة بن عُبيد الله، فما رأيت رجلاً أعطى للجزيل منه من غير مسألة، وصحبت معاوية، فما رأيت رجلاً أحلم منه. وصحبتُ عمرو بن العاص، فما رأيتُ رجلاً أبْين، أو قال أنصَع ظرفاً منه[3]، ولا أكرم جليساً، ولا أشبه سريرة بعلانية منه. وصحبت المغيرة بن شُعبة، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب، لا يُخْرجُ من باب منها إلا بمكرٍ، لخرج من أبوابها كلّها[4]».

وقد ذكرنا من أقواله الحكيمة وتصرّفاته المتّزنة، وأفكاره الحصيفة، عند الحديث على دهائه، فالتفريق بين الداهية والحكيم بالنسبة لعمرو وأضرابه صعب، وقد فرّقت بينهما لغرض إلقاء الضوء على شخصيته العمليّة النّاضجة لا لغرض بين الخصلتين اللّتين كانتا من خصال عمرو في حياته العملية، فهو حكيم داهية، أو داهية حكيم، او هو حكيم لأنه داهية وداهية لأنّه حكيم: فقد كان من أدهى العرب وأحسنهم رأياً وتدبيراً[5].

---

(١) زعماء الإسلام - للدكتور حسن ابراهيم حسن (١٣٦)، وانظر ما جاء في فصل: (من كلامه) في كتاب: ابن العاص - للأستاذ عبّاس محمود العقاد. والعِلْيَة: جمع العَلِيّ، يقال: هم عِلْيَة القوم: وجوه الناس.

(٢) جابر بن عبد الله: انظر سيرته في طبقات ابن سعد (٥٧٤/٣) وأسد الغابة (٢٥٦/١) والإصابة (٢٢٢/١) والاستيعاب (٢١٩/١) والاستبصار (١٤٩).

(٣) تستعمل النّصاعة في الظرف، والمراد ظهوره.

(٤) النجوم الزاهرة (٦٤/١).

(٥) النجوم الزاهرة (١١٦/١).

٨ . الرّجل

مفتاح شخصية عمرو، أنّه كان يستعرض جوانب (القوة) دائما، ويوازن بين ما لدى أعدائه وأصحابه على حدٍ سواء من (القُدرة) موازنة طويلة، حتى لا يخفى عليه منها وجه من وجوه الرأي، فقد كان رجلا يتقن الحساب ويجيد المساومة... يقف ساكناً ويفكّر طويلاً، ثم يساوم في حرص.

إنّه يشترط دائما... هكذا كان موقفه في كلّ أمرٍ!!

وكان يحبّ الإمارة، ويحرص عليها حرصاً عظيما، وفي سبيل أن يتولى الإمارة كان مستعداً أن يفعل كلّ شيء.

وحين استشار ابنيه: عبد الله، ومحمّد في متابعة عليّ بن أبي طالب أو معاوية بن أبي سفيان، قال له ابنه عبدالله: «إنْ كنتَ لا بدّ فاعلاً، فإلى عليّ»، فأجاب عمرو: «إني إنْ أتيتُ عليّاً قال: إنّما أنت رجل من المسلمين. وإن أتيتُ معاوية، يَخْلِطُني بنفسه، ويُشركني بأمره»، فأتى معاوية[١].

وكان يحبّ مصر حباً أخذ عليه مجامع قلبه وعقله، ومن أجل مصر كان مع معاوية، ولا ألوم عَمْراً ولا غيره في حبّ مصر، فما سكنها أحد إلاّ وتشبّث بالبقاء فيها، فإذا رحل عنها مختاراً أو مضطراً، حنّ إلى العودة إليها حنين الأم إلى وليدها الوحيد. وقد كنت أقرأ مثل هذا الكلام وأسمع مَنْ يحَدِّثني به، فسكنت مصر سنين عددا، ثم رحلت عنها مضطراً إلى وطني، فما انقطع حنيني إلى العودة إليها من جديد، وأصبحت العودة إليها من أعزّ أمانيّ على نفسي، فهي تُنسي صاحب الوطن وطنه الأول، ويُنسي أهلها الطيِّبون الأهل والولد.

---

(١) النجوم الزاهرة (١/١١٣).

وكما كان عمرو يحب الإمارة، وبخاصة إمارة مصر، فقد كان يحب جمع المال، قال له معاوية وهو شيخ: «ما بقي منك يا عمرو؟»، قال: «مال أغرسه فأصيب من ثمرته وغلّته»، وقيل لعمرو: ما المروءة؟ فقال: «يُصلح الرّجل ماله، ويُحسن إلى إخوانه»[١]، فلما مات خلّف أموالاً عظيمة إلى الغاية[٢]. ثلاثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار، ومن الغَلّة ما يبلغ ارتفاعها في السنة مائتي ألف دينار، ومن الورق ألفي ألف درهم[٤]، وفي رواية: أنّه لم يترك إلا سبعة دنانير[٤] فقط، وأنّه أعتق كلّ مملوك له[٥] في سبيل الله.

والتناقض واضح بين الروايتين عمّا خلّفه بعد موته، وأرى أنّ الروايتين مبالغ فيهما، فالرجل على خدمته للإسلام في الفتوح، بين فئتين من الناس، متحيِّز له، ومتحيِّز عليه، ولكن الحق أحقّ أن يُتَّبع كان عطاء عمرو السنوي مائتي دينار على إمارته، فقد كتب إليه عمر ابن الخطاب: «أن أفرض لكلِّ مَنْ بايع تحت الشجرة في مائتين من العطاء، وأبلغ ذلك لنفسك بإمارتك»[٦]، وكان يصيبه من جهاده المتواصل كثير من الغنائم، وكان في بلد السّعر به رخيص، وكان يعالج الزراعة لأنّ عطاءه قليل[٧] لا يكاد يسدّ حاجته، ويبدو أنّه لم يكن مسرفاً في نفقاته على نفسه، فقد رُئي وهو على نعلة هَرِمة، وهو إذ ذاك أمير مصر، فقيل له: أتركب هذه وأنت أمير مصر؟ فقال: «لا ملل

(١) طبقات ابن سعد (٢٦١/٤).
(٢) تهذيب التهذيب (٥٧/٨) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٩٠).
(٣) البدء والتاريخ (٣/٦).
(٤) الولاة والقضاة (٣٤).
(٥) طبقات ابن سعد (٢٦١/٤).
(٦) طبقات ابن سعد (٤٩٧/٧).
(٧) العقد الفريد (٤٦/١-٤٨) وانظر البلاذري (٣٠٧-٣٠٨).

عندي لدابتي ما حملتني، ولا امرأتي ما أحسنت عشرتي، ولا لصديقي ما حفظ سري... إنّ الملل من كواذب الأخلاق»[١]، ويظهر على جواب عمرو حسن التخلّص بما عرف عنه من ذكاء ودهاء وحكمة.

ولعلّ الدليل على التزام عمرو بالاقتصاد على نفسه، هو أنه لم يشجّع الشّعراء على الالتفاف حوله والثناء عليه، فلا ذكر لإقبال الشعراء عليه ولا لمدحهم له في المصادر المعتمدة المتيسِّرة لنا، والشعراء يُقبلون على الأجواد ويخصّونهم بمديحهم دون سواهم من الناس.

ولكن يبدو أنّه لا يردُّ محتاجاً إلى مساعدته، وهو القائل: «والله لرُجلٌ ينام على شِقّة مرةً وعلى شِقة أخرى، يراني موضعاً لحاجته، لأوجَبُ عليّ حقّاً إذا سألنيها منّي إذا قضيتها له»[٢].

لقد كان عمرو يرى نفسه أكبر من أن يستجدي الثناء بالمال، وهو الذي استحق الثناء بالأعمال.

وقد كان لعمرو منزل في فلسطين[٣]، وله بدمشق دار عند سقيفة كُرْدُوس ودار عند باب الجابية ودار عند عين الحِمَى[٤]، وله بالفُسطاط دار قريبة من مسجده بينها الطريق، وداره الأخرى اللاّصقة إلى جنبها[٥] وكان كثير العيال، يأوي عياله إلى تلك الدّور.

والحديث على حبّ عمرو العذريّ لمصر وطموحه العظيم لاستعادة ولايته عليها بتأييد معاوية حديث منطقيّ معقول، ولكنّ القول بأن

---

(١) النجوم الزاهرة (١/٧١).
(٢) العقد الفريد (١/٢٢٩-٢٣٠).
(٣) ابن الاثير (٣/١٦٣).
(٤) النجوم الزاهرة (١/٦٢) وفيه عين الحمار، والتصحيح من تاريخ الإسلام للذهبي.
(٥) فتوح مصر والمغرب (١٣٩).

عمْراً أصبح مع معاوية من أجل مصر وحدها لا يغني عن كلِّ قول، فقد كان عمرو يميل إلى معاوية ويألفه ويستطيع التفاهم معه ويعرف مزاياه، وكان يقول في معاوية: «اتقوا أكرم قريش وابن كريمها، مَنْ يضحك في الغضب، ولا ينام إلا على الرضا[1]، ويتناول ما فوقه من تحته»[2]، فهو يراه له نِدّاً، إن لم يكن أقلّ منه في السابقة إلى الإسلام وفي الفتوح.

أما أمر عمرو مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فمختلف جداً عن أمره مع معاوية، فهو يرى أنّ عليّ بن أبي طالب أفضل منه من جميع الوجوه، لذلك كان التفاهم مع معاوية سهلاً ومع عليّ صعباً، إلاّ إذا رضي عمرو أن يكون فرداً من المسلمين، وهيهات..!

وكان عمرو حليماً، فقد ذكروا أنّه جُعل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرو بن العاص عن أمّه وهو على المنبر، فسأله الرّجل، فقال عمرو: «أمّي سَلْمَى بنت حَرْمَلة، تُلَقّب: النابغة، من بني عَنَزة، أصابتها رماح العرب، فبيعت بعُكاظ، فاشتراها الفاكهة بن المُغِيْرة، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت له، فأنجبت فإن جعل لك شي، فخذه»[3].

وقال رجل لعمرو: «والله لأتفرغنّ لك»، فقال: «هنالك وقعت في الشُّغل»، قال: «كأنّك تُهَدِّدُني، والله لئن قلتَ لي كلمةً، لأقولنّ لك عشراً»، قال: وأنت والله لئن قلت لي عشراً، لم أقل لك واحدة»[4].

---

(١) أي الذي لا يبيت إلاّ منتقماً ممّن أغضبه مرضياً نفسه بذلك.

(٢) يصفه بالدهاء وحسن السياسة وسعة الحيلة، حتى إنّه ينال ما صعب من الأمور بأيسر وسيلة، انظر العقد الفريد (١/٢٥).

(٣) أسد الغابة (٤/١١٥-١١٦) والاستيعاب (٣/١١٨٤-١١٨٥) وانظر العقد الفريد (١/٥٤) وعيون الأخبار (١/٢٨٤).

(٤) العقد الفريد (٢/٢٧٥).

وكان متواضعاً يعترف بالحقّ لأهله، فقد دخل عمرو مكّة المكرّمة، فرأى قوماً من قريش قد تحلّقوا حلْقة، فلما رأوه رموا بأبصارهم إليه فعدل إليهم وقال: «أحْسَبكم كنتم في شيءٍ من ذكري»،قالوا: أجل! كنّا نماثل بينك وبين أخيك هِشام[١]، أيّكما أفضل. فقال عمرو: «إن لهشام عليّ أربعة: أمّه ابنة هشام بن المغيرة، وأمّي مَنْ قد عرفتم، وكان أحبّ الناس إلى أبيه منّي، وقد عرفتم معرفة الوالد بالولد، وأسْلم قبلي، واستشهد وبقيتُ»[٢].

وقالوا لعمرو: «أنت خير، أم أخوك هشام بن العاص؟» قال: «أخبركم عنّي وعنه، عرضنا أنفسنا على الله، فَقَبِلَه وتركني»[٣]، وقد استشهد هشام في أجْنادين[٤].

وكان يعتز بنفسه وبكرامته، فقد كتب عمر بن الخطاب وهو على مصر يسأله فيه عن أصل المال الذي جمعه، فغضب عمرو، وكان ممّا أجاب به: «... والله لو كانت خيانتك حلالاً ما خنتك وقد ائتمنتني، فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن خيانتك»[٥].

أما مع معاوية بن أبي سفيان، فكان يرى نفسه لمعاوية ندّاً، فقد قال عمرو يوما لمعاوية: «والله ما أدري يا أمير المؤمنين، أشجاع أنت أم جبان؟»، فقال معاوية:

«شُجاعٌ إذا ما أَمْكَنَتْنِي فُرْصَةٌ   وإن لم تكنْ لي فُرْصةٌ فجَبَانٌ»[٦]

---

(١) هشام بن العاص: انظر سيرته في طبقات ابن سعد (١٩١/٤) وأسد الغابة (٦٣/٥) والإصابة (٢٨٦/٦) والاستيعاب (١٥٣٩/٤).

(٢) العقد الفريد (٢٨٩/٢).

(٣) طبقات ابن سعد (١٩٢/٤).

(٥) طبقات ابن سعد (١٩٣/٤).

(٦) العقد الفريد (٤٦/١-٤٨) وانظر البلاذري (٣٠٧-٣٠٨).

(٧) العقد الفريد (٩٩/١).

واجتمع عمرو مع معاوية مرّة فقال له معاوية: «مَن الناس؟»، فقال: «أنا وأنت والمغيرة بن شُعبة وزياد»، فقال معاوية: «كيف ذلك؟»، قال عمرو: «أما أنت للتأنّي، وأما أنا فللبديهة، وأما المغيرة فللمعضلات، وأما زياد فللصغير والكبير». قال معاوية: «أما ذانك فقد غابا، فهاتِ بديهتك يا عمرو!»، قال: «وتريد ذلك؟»، قال: «نعم». قال: «فأخرج مَنْ عندك»، فأخرجهم معاوية! فقال عمرو: «يا أمير المؤمنين! أُسارّك!»، فأدنى معاوية رأسه منه، فقال عمرو: «هذا من ذاك! مَنْ معنا في البيت حتى أسارك!!»[1].

وقال عمرو لمعاوية أيّام وقعة صِفّين: «يا معاوية! أحرقت كَبِدي بقصصك، أترى أنّا خالفنا عليّاً لفضلٍ منّا عليه؟! لا والله، إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها، وايمِ الله، لتقطعنّ لي قطعة من دنياك، أو لأُنابذنّك»، فأعطاه مصر، يُعْطي أهلها عطاءهم، وما بقي فله[2].

وكان إدارياً عادلا: تحبّب إلى سكّان البلاد، ورد إليهم حقوقهم المغتصبة، وقطع دابر ما كان يثير تذمّرهم، وأبقى أرضهم على حالها لم يقسمها بين الفاتحين من المسلمين[3]، وحرص على رفاهية السكّان وعدم إرهاقهم بالضرائب، فقد جبى خراج مصر وجزيتها ألفي ألف، وجباها خلفه عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح أربعة آلاف ألف، فقال عثمان لعمرو: «إن اللّقاح بمصر بعدك درّت ألبانها»، فقال عمرو: «ذاك لأنّكم أعجفتم أولادها»[4]، فأصبح أهل مصر في أيامه آمنين على أموالهم ودمائهم ونسائهم وأولادهم، لا يباع منهم أحد، وفرض عليهم خراجاً لا

---

(١) النجوم الزاهرة (١/١١٦).

(٢) النجوم الزاهرة (١/٦٣).

(٣) البلاذري (٣٠١ و٣٠٦).

(٤) البلاذري (٣٠٣) والمقريزي (١/٧٩٠).

يُزاد عليهم، على أن يُدْفع عنهم خوف عدوِّهم[١]، ونفّذ فيهم وصية النبيّ ﷺ: «إذا افتتحتم مصر، فاستوصوا بالقِبْطِ خيراً، فإنّ لهم ذِمّة ورحماً»[٢].

وكان عمرو رَبْعَة، قصير القامة، وافر الهامة، أَدْعج، أبلج[٣]، يخضب بالسّواد[٤]، ويهتم بملبسه ومسكنه ومأكله[٥].

وأخو عمرو هو هشام الذي استُشهد يوم أجنادين، وكان صحابياً، ولا عقب له، وأمّه: أمّ حَرْملة بنت هشام بن المغيرة المخزوميّ[٦]، وكان هشام قديم الإسلام، هاجر إلى الحبشة في المرّة الثانية، ثمّ قدم مكّة للهجرة إلى المدينة، فحبسه أبوه، فلم يزل محبوساً بمكّة حتى مات أبوه في السّنة الأولى من الهجرة. ثمّ حبسه قومه بعد أبيه، فلم يزل يحتال، حتى تخلّص وقدم على النبيّ ﷺ بعد الخندق، وجاهد حتى قُتل بالشّام، وكان أصغر سنّاً من أخيه عمرو، وكان يكنى أبا العاص، فكناه رسول الله ﷺ: أبا مُطِيْع[٧].

وإخوة عمرو لأمّه: عُرْوَة بن أبي أُثاثة العَدَوِيّ[٨]، وأَرْنَب بنت

---

(١) البلاذري (٣٠٦).

(٢) فتوح مصر والمغرب (١٥١) والبلاذري (٣٠٧) والنجوم الزاهرة (١/٢٨-٢٩).

(٣) فتوح مصر والمغرب (١٩٠) وانظر الإصابة (٥/٢).

(٤) فتوح مصر والمغرب (٢٤١) وانظر أسد الغابة (٤/١١٧).

(٥) فتوح مصر والمغرب (١٩٠) و (٢٤١)، وانظر أسد الغابة (٤/١١٧).

(٦) جمهرة أنساب العرب (١٦٣) وانظر نسب قريش (٤٠٩).

(٧) أنساب الأشراف (١/٢١٥) وانظر الدرر (٥٣).

(٨) عروة بن أثاثة العدوي: انظر سيرته في أسد الغابة (٣/٤٠٢) والإصابة (٤/٢٣٦)، وفيه: عروة بن ابانة والاستيعاب (٣/١٠٦٤).

عفيف بن العاص[١]، وعُقْبَة بن نافع بن عبد القيس بن لَقِيْط، من بني الحارث بن فِهْر القُرَشِيّ[٢].

وولد عمرو بن العاص: عبدَ الله بن عمرو، صحب رسول الله ﷺ، وروى عنه الحديث، وكان يصوم الدهر ويقوم الليل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال له: «صُمْ وأَفطر، وصَلِّ ونَمْ»، وأمه: رَيْطَة بنت مُنَبِّه ابن الحجّاج بن عامر[٣]، وعبد الله من فضلاء الصّحابة، وله بالوَهط[٤] ومكّة عَقِب كثير. يناهز المائة[٥].

وولد عمرو أيضاً: محمّد بن عمرو بن العاص، لا عقِبَ له، وأُمّه من بَلِيّ[٦].

وتزوج عمرو: أم كلثوم بنت عُقْبَة بن أبي مُعَيْط، وكانت من المهاجرات، فتزوجها الزُّبير بن العوام، فطلّقها، فتزوجها بعده عبد الرحمن بن عوف، فلما مات عنها تزوجها عمرو بن العاص[٧].

وتزوّج أم كلثوم بنت أبي مُعَيْط، التي تزوجها أولاً زيد بن حارثة الكلبي[٨] مولى رسول الله ﷺ، ثم عبد الرحمن بن عوف، ثم الزبير بن العوام ثم عمرو بن العاص[٩].

---

(١) أرنب بنت عفيف: انظر سيرتها في الإصابة (٨/٤)، وفيه: أرنب بنت عفيف بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس.

(٢) نسب قريش (٤٠٩) وجمهرة أنساب العرب (١٦٣).

(٣) نسب قريش (٤١١).

(٤) الوهط: قرية بالطائف.

(٥) جمهرة أنساب العرب.

(٦) نسب قريش (٤١١).

(٧) المحبّر (٤٠٧ - ٤٠٨).

(٨) انظر سيرته في كتابنا: قادة النبيّ ﷺ.

(٩) المحبّر (٤٤٦).

وتزوّج عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفَيْل بن عبد العُزَّى، التي تزوجها بعد عُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، ثم عبد الله بن أبي بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم محمد بن أبي بكر فقتل عنها بمصر، فتزوجها عمرو ابن العاص[1].

وكانت رَيْطَة أم عبد الله بن عمرو بن العاص زوجته أيضاً كما ذكرنا.

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب نديماً لعمرو بن العاص في الجاهلية[2]، مما يدلّ على أنه كان من الشخصيات البارزة قبل الإسلام.

وأخيراً داهم الموت هذا الداهية، بعد أن ملأ صفحات التاريخ بأعماله المجيدة وترك آثاراً باقية على الدّهر وبخاصة في الفتوح.

فقد مرض مرض موته سنة ثلاث وأربعين الهجرية، فاشتدّ عليه المرض[3]، وكان من النّادر أن يزوره المرض، لاهتمامه الشديد بصحته وعافيته وعنايته الكبيرة بها، فهو مثلا، لا يغتسل من الجنابة إذا خشي الضرر من البرد، بل يصلي متيمماً كما فعل وهو قائد غزوة ذات السّلاسل[4]، ولا يخرج إلى صلاة الجماعة وهو أمير إذا كان متوعّكاً، بل يؤم الناس وكيله، كما فعل في صلاة الصبح من يوم محاولة اغتياله[5].

ولا نصّ في المصادر المعتمدة عن سبب مرضه الأخير، ويبدو أنه مرض الشيخوخة، إذ كان قد بلغ من الكِبَر عتيّا.

---

(١) المحبّر (٤٢٧).

(٢) المحبّر (١٧٧).

(٣) الولاة والقضاة (٣٣).

(٤) طبقات ابن سعد (١٣١/٢) ومغازي الواقدي (٧٦٦/٢ - ٧٧٤) وسيرة ابن هشام (٢٩٨/٤) وعيون الأثر (١٥٧/٢).

(٥) الولاة والقضاة (٣١ - ٣٢).

وقد قيل لعمرو في مرضه: «كيف تَجِدُك؟»، قال: «أجِدني أذوب ولا أتوب، وأجد نَجْوِي أكثر من رُزْئي[١]، فما بقاء الشّيخ على هذا!»[٢].

ولما حضرت عمرو الوفاة، دمعت عيناه، فقال عبد الله بن عمرو: «يا أبا عبد الله! أَجَزَعٌ من الموت يحملك على هذا؟»، فقال: «لا! ولكن مّما بعد الموت»[٣].

ودخل عبد الله بن العبّاس على عمرو وهو مريض، فقال: «كيف أصبحت؟»، قال: «أصبحت وقد أصلحتُ من دنيايّ قليلاً، وأفسدت من ديني كثيراً، فلو كان ما أصلحتُ هو ما أفسدتُ لفُزْتُ، ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت، ولو كان يُنْجِيني أن أهرُب لهربت، فعِظْني بموعظةٍ أنتفع بها يا ابن أخي!»، فقال: «هيهات يا أبا عبد الله!»، فقال: «اللّهمّ إنّ ابن عبّاس يُقْنِطُني من رحمتك، فخذ مني حتى ترضى»[٤].

وكان عمرو يقول: «عَجَباً لمن نزل به الموت وعقله معه، كيف لا يصفه؟!». فلما نزل به قال له ابنه عبد الله: «يا ابتِ! إنّك كنت تقول: عجباً لمن نزل به الموت وعقله معه، كيف لا يصفه؟ فَصِفْ لنا الموت وعقلك معك»، فقال: «يا بُنيّ! الموتُ أجلّ من أن يوصف، ولكني سأصف لك منه شيئاً: أجدني كأنّ على عنقي جبال رَضْوَى، وأجدني

---

(١) النجو: ما يخرج من البطن من ريح أو غائط، والرزء: ما يناله الانسان من الطعام.

(٢) عيون الأخبار (٣/٤٩).

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٤٢).

(٤) قال الذّهبي وأيده الطحاوي، حدثني المزنّي، سمعت الشّافعيّ رضي الله عنه يقول، ثم أورد ما ذكرناه في أعلاه، انظر النجوم الزاهرة (١/١١٥-١١٦).

كأنّ في جوفي شوك السُّلاَّء، وأجدني كأن نَفَسي يخرج من ثَقْب إبرة »[١].

ولما كان عمرو عند الموت، دعا حَرَسه فقال: «أيّ صاحب كنتُ لكم؟»، قالوا: «كنت لنا صاحب صِدْق، تُكرمنا وتُعطينا وتفعل وتفعل». قال: «فإني كنتُ أفعل ذلك لتمنعوني من الموت، وإن الموت ها هوذا قد نزل بي، فأغْنوه عني»، فنظر القوم بعضهم إلى بعض، فقالوا: «والله ما كنّا نَحْسِبُك تَكَلَّمُ بالعَوْراء يا أبا عبد الله، قد علمت انّا لا نُغْني عنك من الموت شيئاً به»، فقال: «أما والله قلتُها وإنّي لأَعْلَمُ أنّكم لا تُغنون عنّي من الموت شيئاً، ولكن والله لأنْ أكون لم أتخذ منكم رجلاً قط يمنعني من الموت، أحبّ إليّ من كذا وكذا، فيا وَيْحَ ابن أبي طالب إذ يقول: حَرَسٌ أمراءَ أجَلِه»، ثم قال: «اللّهم لا بَرِيء فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر، وإلاّ تُدْرِكني برحمةٍ أكـن من الهالكين»[٢].

ولما احتضر جمع بنيه، فقال: «يا بَنِيّ! ما تغنون عني من أمر الله شيئاً؟»، قالوا: «يا أبانا، إنّه الموت، ولو كان غيره لوقيناك بأنفسنا، فقال: «أسندوني»، فأسندوه، ثم قال: «اللّهم إنّك أمرتني فلم أأتمر، وزجرتني فلم أزدجر، اللهم لا قويّ فأنتصر، ولا بريء فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر، أستغفرك وأتوب إليك، لا إله إلاّ أنت إني كنت من الظالمين»[٣].

وذكر عبد الله بن عمرو أن أباه أوصاه، قال: «يا بُنيّ! إذا متّ فاغسلني غَسْلَةً بالماء، ثم جفِّفني في ثوب، ثم اغسلني الثانية بماء قراح،

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٦٠/٤).
(٢) طبقات ابن سعد (٢٥٩/٤ - ٢٦٠).
(٣) العقد الفريد (٢٣٣/٣).

ثمّ جفِّفْني في ثوب، ثمّ اغسلني الثالثة بماء فيه شيء من كافور، ثمّ جَفِّفْنِي في ثوب. ثمّ إذا ألبستني الثياب فأزرَّ عليّ فإني مخاصم، ثمّ إذا أنت حملتني على السّرير، فامْشِ بي مَشْياً بين المِشْيَتَين وكُنْ خلفَ الجنازة، فإنّ مُقدّمها للملائكة وخلفها لبني آدم، فإذا أنت وضعتني في القبر، فَسُنّ عليّ التراب سَنًّا »، ثم قال: « اللّهمّ أمرتنا فركبْنا، ونهيتنا فأضَعْنَا، فلا بَرِيء فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر، ولكن لا إله إلا الله »، وما زال يقولها حتى مات[١].

فذرفت عيناه فبكى، فقال له ابنه عبد الله: « يا أبتَ، ما كنت أخشى أن ينزل بك أمر من أمر الله إلاّ صبرت عليه »، فقال: « يا بُنيّ! إنّه نزل بأبيك خلال ثلاث: أما أولاهنّ فانقطاع عمله، وأما الثانية فَهَوْلُ المُطَّلَع، وأما الثالثة ففراق الأحبة وهي أيسرهنّ. اللّهمّ أمرتَ فتوانيتُ ونهيت فعصيتُ، اللّهمّ فمن شِيَمِكَ العفو والتجاوز »[٢].

وذكر شهود عيان شهدوا احتضار عمرو، فذكر أحدهم[٣] ما رأى، فقال: « حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت، فحوّل وجهه إلى الحائط يبكي طويلاً، وابنه يقول له: « ما يُبْكِيك؟ أما بشّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشّرك بكذا؟ وهو في ذلك يبكي ووجهه إلى الحائط. ثمّ أقبل بوجهه إلينا فقال: إنّ أفضل ممّا تَعُدّ عليّ شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ﷺ. ولكنني كنتُ على أطباقٍ ثلاثٍ: قد رأيتُني ما من الناس من أحدٍ أبغض إليّ من رسول الله ﷺ، ولا أحبّ إليّ من أن أسْتَمْكِنَ منه فأقتله، فلو متّ على تلك الطبقة لكنتُ من أهل النّار. ثمّ جعل الله الإسلام في قلبي، فأتيتُ رسول الله ﷺ

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٦٠/٤).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٣٤٤).

(٣) هو ابن شِماسة المَهْرِيّ، انظر طبقات ابن سعد (٢٥٨/٤).

لأبايعه، فقلت: ابسط يمينك أُبايعك يا رسول الله! فبسط يده، ثمّ إني قبضتُ يدي، فقال: **مالك يا عمرو!** فقلت: أردتُ أن أشترطَ، فقال: **تشترط ماذا؟** فقلت: أشترط أن يُغْفَرَ لي، فقال: **أما علمتَ يا عمرو أنّ الإسلام يَهْدِمُ ما كان قبله، وأنّ الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأنّ الحجّ يهدم ما كان قبله؟** فقد رأيتني ما من النّاس أحد أحبّ إليّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلّ عينيّ منه، ولو سُئِلْتُ أن أنْعَتَه ما أطقتُ، لأني لم أكن أطيق أن أملأ عينيّ إجلالاً له، فلو متّ على تلك الطبقة رجوت أن أكون من أهل الجنّة. ثمّ ولينا أشياء بعدُ، فلست أدري ما أنا فيها أو ما حالي فيها. فإذا أنا متّ فلا تَصْحَبْني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فسُنّوا عليّ التراب سنّاً، فإذا فرغتم من قبري فامكثوا عند قبري قدر ما يُنْحَرُ جَزورٌ ويُقْسَم لحمها، فإني أستأنس بكم، حتى أعلم ماذا أراجع به رُسُلَ ربّي »[1].

وقال عمرو: « فوالله إني إن كنتُ لأشدّ الناس حياء من رسول الله ﷺ، ما ملأت عينيّ منه، ولا راجعته بما أُريد، حتى لحق بالله، حياءً منه »[2].

وعن عبد الله بن عمرو، أن أباه قال: « اللّهم أمرتَ بأمور ونهيت عن أمور، فتركنا كثيراً مما أمرت، ووقعنا في كثير مما نهيت، اللّهمّ لا إله إلاّ أنت »، ثمّ أخذ بإبهامه فلم يزل يُهلّل حتى تُوفي[3].

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/٢٥٨-٢٥٩) والنجوم الزاهرة (١/١١٥)، وانظر صحيح مسلم (١/١٩٦).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٤٣).

(٣) فتوح مصر والمغرب (٣٤٤) وانظر عيون الأخبار (٢٠/٣١٠) والعقد الفريد (٣/٢٣٣) والنجوم الزاهرة (١/١١٥) والولاة والقضاة (٣٣).

وكانت وفاة عمرو ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين الهجرية[1] (٦٦٤ م) في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وقيل: توفي سنة اثنتين وأربعين الهجريّة، وقيل: أربع وأربعين الهجريّة، وقيل: إحدى وخمسين الهجريّة[2]، والأول أصح[3] لإجماع المصادر المعتمدة عليه دون استثناء.

ودُفن عمرو بجبل (المُقَطَّم)[4] من ناحية (الفَجّ)[5]، وكان طريق الناس يومئذٍ إلى الحجاز[6]، وقد غسله عبد الله بن عمرو ابنه، ثم أخرجه حتى صلّى الصّبح فوضعه بالمُصَلّى في جامع عمرو، ثم جلس. حتى إذا رأى الناس قد انقطعوا من الطُرُق: الرجال والنساء، قام فصلّى عليه، ولم يبـقَ أحد شهِد العيد إلاّ صلّى عليه، ثم صلّى العيد بالناس، وكان أبوه استخلفه على صلاة مصر وخراجها[7].

وقبل أن يصلّي عبد الله بن عمرو على أبيه عمرو: قال: «والله ما أحبّ أن لي بأبي أبا رجل من العرب، وما أحبّ أنّ الله يعلم أنّ عيني دمعت عليه جزعا، وأنّ لي حُمْر النَّعَم»، ثم كبّر[8] للصّلاة على الميت.

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (١/١٩٠) والطبري (٥/١٨١) وفتوح مصر والمغرب (٢٤٢) وابن الأثير (٣/٤٢٥) وطبقات ابن سعد (٤/٢٦١) والولاة والقضاة (٣٤) والعبر (١/٥١) والبدء والتاريخ (٦/٣) والبداية والنهاية (٨/٢٥) وتهذيب التهذيب (٨/٥٧) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٠) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٢٩٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٢٦١) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٠).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٠).

(٤) المقطم: وهو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/١٢٦-١٢٧).

(٥) الفج: الطريق الواسع بين جبلين، جمعه: فِجَاج، ثم كل طريق فج أيضاً، بفتح أوّله وتشديد ثانيه.

(٦) فتوح مصر والمغرب (٢٤٥).

(٧) الولاة والقضاة (٣٤).

(٨) فتوح مصر والمغرب (٢٤٥).

وفي موت عمرو، قال عبد الله بن الزّبير:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الـدَّهْرَ أَخْنَـتْ رُيُوبُـه على عَمْرو السَّهْمِيّ تُجْبَى له مِصْرُ
فأضْحَى نَبِيْذاً بِالعَرَاءِ وضُلِّلَتْ مكـائـدُه عنـه وأَمْوَالُـه الـدَّثْرُ[1]
ولم يُغْنِ عنـه جَمْعُهُ واحتِيَـالُـه ولا كَيدُه حتى أُتِيْحَ له الدَّهْرُ[2]

وليس من شك، أن عَمْراً كان يتمتع بمزايا متميِّزة، تجعله في صفوف البارزين في تاريخ الشعوب والباقين في أقوالهم وأعمالهم من ذوي المواهب الفذّة والعقول الرّاجحة.

وقد أنصف عمرو نفسه حين قسّم حياته إلى ثلاثة أدوار: دور الجاهلية، ودور الإسلام على عهد النبيّ ﷺ والشيخين: أبي بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب، والصّدر الأول من عهد عثمان بن عفّان. ودور الإسلام بعد عزله عن مِصْر في أيّام عثمان حتى توفاه الله. ولعلّه قد جزع حين حضرته الوفاة مما جنت يداه في الدور الثالث من حياته، فقد أثّر فيه عزله عن مصر، وهو الذي أحبّ مصر حبًّا أخذ عليه مجامع قلبه وجوارحه، وهو القائل في ولاية مصر: «ولاية مصر جامعة تعدِل الخلافة»[3]، فاقتحم من أجل مصر ما اقتحم من شبهات، فلامَ نفسه بغير هوادة علنًا على ما جنت يداه.

وأرى أنّ شعور عمرو بالحزن والأسى والنّدم وتأنيب الضمير على ما فرّط في جنب الله، دليل عميق على إيمانه الرّاسخ العميق، إذ لو لم يكن مؤمناً حقًّا، لما أنّب نفسه جهراً أمام الناس قبل أن يؤنّبه غيره، لذلك قال النبي الكريم عليه الصلاة في عمرو: «**أسلم الناس وآمن عمرو**

---

(١) الدّثر: المال الكثير.
(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٤٥).
(٣) النجوم الزاهرة (١/٣١).

ابن العاص »[١] ، وقال: « **عمرو بن العاص من صالحي قريش** »[٢] ، وقال: « **نِعْم أهل البيت: عبد الله وأبو عبد الله وأمّ عبد الله** »[٣] ، وقال عليه الصلاة والسلام فيه وفي أخيه هشام: « **ابنا العاص مؤمنان** »[٤] ، وفضائله ومناقبه كثيرة جداً[٥].

وحدّث ابنا العاص: هشام وعمرو، قالا: « ما جلسنا مجلساً في عهد رسول الله ﷺ ، كنّا به أشدّ اغتباطاً من مجلس جلسناه يوماً جئنا، فإذا أُناس عند حُجر رسول الله ﷺ ، يتراجعون في القرآن. فلما رأيناهم اعتزلناهم، ورسول الله ﷺ ، خلف الحُجر يسمع كلامهم، فخرج علينا رسول الله ﷺ مُغْضَباً يُعْرف الغَضَبُ في وجهه، حتى وقف عليهم فقال: « **أيْ قَوْمُ! بهذا ضَلَّت الأممُ قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض. إنّ القرآن لم يُنْزَل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن يُصَدِّق بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تَشابَهَ عليكم فآمنوا به** ». ثمّ التفت إليّ وإلى أخي، فغبطنا أنفسنا أن لا يكون رآنا معهم »[٦] .

وليس أدلّ على إيمانه من قوله على منبره: «لقد أصبحتم وأمسيتم

---

(١) رواه الترمذي، انظر النجوم الزاهرة (٦٢/١)، ورواه أحمد بن حنبل (١٥٥/٤)، وانظر البداية والنهاية (٢٦/٨).

(٢) أخرجه الترمذي، انظر النجوم الزاهرة (٦٢/١) وتهذيب التهذيب (٥٦/٨) والبداية والنهاية (٢٦/٨) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٩٠).

(٣) البداية والنهاية (٥٦/٨).

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣٢٧/٤) و (٣٥٣/٤) وانظر طبقات ابن سعد (١٩١/٤) والبداية والنهاية (٥٦/٨) والنجوم الزاهرة (٦٢/١) وتهذيب التهذيب (٥٦/٨) والاستيعاب (١١٩١/٣).

(٥) تهذيب التهذيب (٥٧/٨).

(٦) طبقات ابن سعد (١٩٢/٤).

ترغبون فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيها. والله ما أتت على رسول الله ﷺ من دهره إلاّ كان الذي عليه أكثر مما له »[١]، ويقول: « والله إن كنتُ لأشدّ الناس حياءً من رسول الله ﷺ، فما ملأتُ عينيَّ من رسول الله ﷺ، ولا راجعته بما أريد، حتى لحق بالله عزّ وجلّ، حياءً منه »[٢].

فهل يمكن أن تصدر مثل هذه الأقوال، أو يشعر بهذا الشعور، إلاّ مؤمن قويّ الإيمان؟!

وقد عاش عمرو بعد عمر بن الخطاب عشرين سنة، لأنّ عمر تُوفي سنة ثلاث وعشرين الهجرية[٣]، وتوفي عمرو سنة ثلاث وأربعين الهجرية كما ذكرنا، وكان عمرُ عمر بن الخطاب ثلاثاً وستين سنة على الأصح[٤]. وكان عمرو يقول: « أذكر يوم وُلد عمر بن الخطاب »[٥]، فكان عمره لما ولد عمر بن الخطّاب سبع سنين، فعاش تسعين سنة[٦]، أي أنّه ولد سنة سبع وأربعين قبل الهجرة (٥٧٧ م)، ومات سنة ثلاث وأربعين الهجرية[٧] (٦٦٤ م)، فعاش تسعين سنة قمريّة[٨]، وسبعاً وثمانين سنة شمسيّة.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٠٤/٤).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٠٤/٤).

(٣) الطبري (١٩٠/٤).

(٤) ابن الأثير (٥٣/٣).

(٥) تهذيب التهذيب (٥٧/٨).

(٦) الإصابة (٣/٥).

(٧) شذرات الذهب (٥٣/١) وتاريخ أبي الفدا (١٨٤/١) والإصابة (٣/٥) والاستيعاب (١١٨٨/٣).

(٨) في تهذيب الأسماء واللغات (٧٠/٢): أنّ عمره كان سبعين سنة، وفي مصادر أخرى أنه كان عمره أكثر من تسعين سنة، انظر مثلا الإصابة (٣/٥).

وبموته انتهت حياة قائد من أعظم قادة الفتح الإسلامي، وإداريّ من ألمع إداريّي البلاد الإسلامية، وداهية من أبرز دهاة العرب والمسلمين.

القائد

١. في ولاية عمرو بن العاص الثانية التي بدأت سنة ثمان وثلاثين الهجرية وانتهت بانتهاء حياته سنة ثلاث وأربعين الهجرية، والتي كانت في خلافة معاوية بن أبي سفيان، لم يقتصر نشاط عمرو على القضايا الإدارية، بل شملت الفتوح كما هو دأبه دائماً، وكان مجال نشاطه في الفتوح هو ساحة ليبيا وأفريقيا (تُونس).

فقد عقد عمرو لشَرِيْك بن سُمَيّ الغُطَيفي[١] على غزو لَوَاتَة (وقد تضم لامه) من البربر، فغزاهم شَرِيْك في سنة أربعين، فصالحهم ثمّ انتقضوا بعد ذلك على عمرو بن العاص، فبعث إليهم عُقْبَة بن نافع بن عبد القَيَسْ الفِهْرِي في سنة إحدى وأربعين الهجريّة، فغزاهم[٢]. وانتهى عُقبة بن نافع إلى لواتة ومزاتة في ليبيا، فأطاعوا ثم كفروا، فغزاهم في سنته فقتل وسبى. ثم افتتح سنة اثنتين وأربعين الهجريّة (غدامِس)[٣]، فقتل وسبى. وفتح سنة ثلاث وأربعين الهجريّة، وَدَّان وهي من بَرْقَة، وافتتح عامة بلاد البربر[٤]. كما عقد عمرو لشَريك مع عُقْبَة سنة ثلاث وأربعين الهجرية، فلما قفلا كان شديد الدّنف من مرض موته[٥].

---

(١) انظر سيرته في الجامع (٥٧٥/١).

(٢) الولاة والقضاة (٣٢).

(٣) غدامس: واحة من واحات طرابلس الصحراوية، تقع في الجنوب الغربي من طرابلس وعلى بعد (٥٠٠) كم منها على جهة المسامتة، انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٧٣).

(٤) ابن الاثير (٤١٩/٣) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١٨٩/١).

(٥) الولاة والقضاة (٣٢ - ٣٣).

٢ . وقد عوّدنا عمرو أن يقود الفاتحين في ولايته إلى الفتوح، كما فعل في ولايته الأولى على مصر على عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، حيث قاد جيش المسلمين الذي فتح ليبيا، ولكنه في ولايته الأولى اختار قائدين من قادته لتأمين استمراريّة الفتوح، ويبدو أن أسباب تخلّيه على القيادة هي: لتوطيد الأمن والاستقرار في مصر قاعدة فتح أفريقيا، بعد الهزّات العنيفة التي اجتاحتها في أواخر عهد عثمان بن عفان وفي أيام الفتنة الكبرى، وبعد الحروب التي عانتها بين أهل الكوفة، وأهل الشام وانقسام أهلها شيعاً وأحزابا. والسبب الثاني، أنّه أصبح شيخاً طاعناً في السِنِّ لا يتحمل أعباء الجهاد بما فيه من مشقة وتضحية وفداء كما يتحمّلها الشباب والكهول، والسبب الثالث: أنّ أمراض الشيخوخة أصبحت تعتاده وتلازمه ولا تكاد تفارقه إلاّ قليلا.

ومنذ بدأ عمرو يزاول مهنة القتال ابتداءً من غزوة بدر الكبرى التي كانت في شهر رمضان من السنة الثانية الهجريّة، أصبح عمرو يمارس هذه المهنة بكفاية ونجاح ما دام قادراً على حمل السّيف: كان من حُماة قافلة أبي سفيان[١] التي كانت السبب المباشر لغزوة بَدْر، وشهد غزوة أُحُد التي كانت في شهر شوّال من السنة الثالثة الهجرية مع المشركين على المسلمين[٢]، وشهد غزوة الأحزاب (الخندق) التي كانت في شهر شوّال من السنة الخامسة الهجريّة مع المشركين على المسلمين أيضاً[٣].

ولم يقض المدة بين غزوة أُحُد وغزوة الأحزاب متعطّلا، فقد كان

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٤٤) وانظر جوامع السيرة (١٠٧) والدرر (١١٠) وابن الأثير (٦/١١٦).

(٢) مغازي الواقدي (١/٢٩٩) و (١/٣٠٨).

(٣) مغازي الواقدي (٢/٤٦٥).

يعمل على إعداد مشركي قريش للحرب، كما كان يعمل لحشد الأحزاب للحرب أيضاً، فكانت غزوة الأحزابمن ثمرات جهوده المتواصلة مع أقرانه من أعداء الإسلام.

ولم يشهد عمرو غزوة الحُدَيْبِيّة مع المشركين، لأنه كان في سفارة لقريش لدى بلاط النّجاشي ملك الحبشة، في محاولة طرد المسلمين من الحبشة أو تسليمهم إلى مشركي قريش، ولكن سفارته الحبشيّة باءت بالإخفاق، لأنّ النّجاشيّ لم يتجاوب مع عمرو، وحكّم عقله ومنطقه فرفض ما عرضه عليه عمرو رفضاً قاطعاً، فعاد عمرو إلى قريش خائبا[1].

وأسلم عمرو في السنة الثامنة، فتولّى قيادة سرية من سرايا النبيّ ﷺ وشهد كثيراً من غزواته، وكان سفيره الى عُمان وعامله عليها ومن عمّاله على الصّدقة أيضاً، كما ذكرنا ذلك بالتفصيل.

وبعد التحاق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى سنة إحدى عشرة الهجريّة، مضى عمرو في جهاده، فشهد حرب الرِدّة، وشهد فتوح الشّام، وفتح مصر وليبيا، ولم يتخلّف عن الجهاد يوماً واحداً حتى عزله عثمان بن عفّان عن مصر سنة سبع وعشرين الهجريّة[2] على أصح الأقوال.

لقد أمضى عمرو في الحرب ست سنوات في قتال المسلمين (٢ هـ-٨ هـ)، وأمضى عشرين سنة في الجهاد مع المسلمين قائداً فاتحاً وسفيراً وإداريًّا، وامتدّت ساحة عملياته من عُمان على الخليج العربي

---

(١) سيرة ابن هشام (٣٥٦/١-٣٦١) وابن الاثير (٧٩/٢-٨١) وأنساب الأشراف (٢٣٢/١) حول سفارة عمرو الأولى إلى الحبشة، وانظر نسب قريش (٣٢٢) وأنساب الأشراف (٢٣٢/١-٢٣٣) حول سفارته الثانية.

(٢) الطبري (٢٥٣/٤).

شرقاً، إلى مشارف تونس على البحر الأبيض المتوسط غرباً، في خدمة الإسلام والمسلمين.

ولم يكن عمرو قد تخلّى عن سيفه بعد عزله عن مصر مختاراً، بل كان مكرها يتحيّن الفرصة السّانحة ليعود إلى سيفه أو يعود سيفه إليه، فلما انضم إلى معاوية التحم في الاقتتال بين المسلمين في صِفِّين وفي مصر مرة أخرى، حتى توفي سنة ثلاث وأربعين الهجريّة، فسقط المحارب دون أن يسقط السّيف من يده.

٣. لقد أتيحت لعمرو فرصة القتال والجهاد والاقتتال من السنة الثانية الهجرية حتى سنة ثلاث وأربعين الهجرية، حمل السيف إحدى وثلاثين سنة منها مختاراً، وانتزع منه السّيف عشر سنوات أو نحوها قسرا، أي أنّه أمضى خمسة وسبعين بالمائة من سني حياته التي أتيحت له خلالها حمل السيف مقاتلاً ومجاهداً ومقتتلاً. وهو مقبل على سيفه إقبال المحبّ الغاوي المحترف، مما أكسبه ممارسة طويلة لفنون القتال العمليّة، وتجربة عملية عريضة للقيادة في شتى الميادين ومختلف الظروف والأحوال.

والتجربة العملية في الحرب، إحدى مزايا القائد العبقري الثلاث: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العمليّة.

وبدون شك، كان عمرو من ذوي الطبع الموهوب في القيادة، فهو يحبّ هذه المهنة ويطلبها ويطالب بها ويحرص عليها، ويغضب أشدّ الغضب إذا جُرِّد منها، ويأوي الى مَنْ يهبها له، وينفر ممّن لا يوفرها له. وحتى إذا تولّى إمارة قطر من الأقطار، فإنه كان يسخّر نفسه للقيادة في ميدان الحرب ولا يسخّرها للقضايا الإدارية، فهو يؤثر أن يكون غازياً على أن يكون واليا، ويفضّل أخطار القتال على الراحة في القُصُور، دون أن تؤثّر واجباته في الجهاد في واجباته الإدارية.

وقد نافس أبا عُبَيْدة بن الجرّاح أمين الأمّة على القيادة في سرية ذات السّلاسل، وكان بإمرة أبي عبيدة حينذاك أبو بكر الصدِّيق وعمر ابن الخطاب، وغيرهما من كبار الصّحابة، فانصاع أبو عُبَيْدة لإدارة عمرو، وأصبح بإمرته، وأبو عبيدة هو مَنْ هو سابقةً وإيماناً وجهادا.

كما أنّ عمرو كان ألمعيّ الذكاء، حاضر البديهة، راجح العقل، حكيماً داهية من دهاة العرب المعدودين.

أما علمه المكتسب، فقد كان كلّ عربيّ قبل الإسلام وبعده، يتعلّم فنون الحرب السّائدة في حينه، الرماية، والفروسية، واستعمال السيف والرمح والأسلحة الأخرى، وممارسة التعبيّة الصغرى في استخدام الأرض لحمايته من الرّصد والرّمي والتعسكر، وكان عمرو قارئاً كاتباً ومن مثقفي العرب القلائل في أيامه، ممّا أعانه على اكتساب العلوم النظريّة والعملية في فنون القتال.

فلا عجب أن يمتدّ نشاط عمرو القياديّ من عُمان إلى تونس، عبر آلاف الأميال، في قارتين من قارات العالم: آسيا وأفريقيا، ثم لا يرتد له لواء في حروبه، بل يقود رجاله من نصر إلى نصر، ويبقى فتحه فتحاً مستداماً عبر القرون والأحقاب، ممّا يثبت أنّه كان قائداً عبقريًّا حقًّا.

٤. وصفات عمرو القياديّة، واضحة كلّ الوضوح من معاركه ونتائجها، فقد كان قادراً بكفاية نادرة على إصدار القرارات السّريعة الصحيحة في مختلف الظروف والأحوال. والقرار السّريع الصحيح يستند على عاملين رئيسين: القابليّة العقليّة للقائد أولاً، والحصول على المعلومات عن العدو والأرض ثانيا.

وقد تطرقنا إلى قابلية عمرو الفذّة بما فيه الكفاية، وبقي علينا أن نتطرّق الى العامل الثاني، وهو الحصول على المعلومات عن العدو والأرض.

لقد كان عمرو يقدِّر حقّ التّقدير قيمة الاستطلاع، لهذا كان يواجه عدوّه وهو يعرف عنه كلّ شيءٍ تقريباً، فيتحرّك نحوه مفتوح العينين في النور لا في الظلام.

فقد كان من أسباب نجاحه في سرية ذات السّلاسل، أن أمّ العاص ابن وائل والد عمرو من بني (بَلِيّ)[1]، لذلك عاونه أخواله في تيسير مهمّته وأمدوه بالمعلومات الضرورية لإحراز النّصر.

وكان لمعرفة عمرو بطبيعة بلاد الشّام وفلسطين بخاصة: طبيعة أرضها، ومناطقها المناسبة للقتال، وبالطرق التقربيّة إلى تلك المناطق، وبمزايا أهلها المحليِّين ومزايا الرُّوم الدخلاء، أثر حاسم في انتصاره على الرُّوم وحلفائهم في معارك فتح بلاد الشّام.

والظاهر أنه لم يكتف بالمعلومات المتيسَّرة لديه عن فلسطين بالذات، فأقدم على مغامرة استطلاعية فذّة، فقام باستطلاع شخصي لمقر قائد الروم (أرطبون)، واطّلع على نقاط الضعف في مواضع الرُّوم وقوّاتهم عامة وقائدهم، وبذلك انتصر عليهم بعد مناوشات طالت كثيراً، ولكن هذه المغامرة الاستطلاعيّة الخطيرة كادت أن تكلِّفه حياته، لولا دهاؤه وحسن تخلّصه من موقفه العصيب.

وكان لزيارة مصر الذي قام بها عمرو قبل إسلامه، أثر كبير في معرفته أحوال مصر وأخبارها وطرقها، وطبيعة أرضها، ومدى الاضطهاد، الديني والسياسيّ الذي يعانيه المصريون من الرّوم. فلا عجب أن يُقدم عمرو على فتح مصر وبقيادته ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل فقط، إذ لولا تيسّر المعلومات الكافية لديه عن مصر وأهلها وعداوتهم

---

(١) الطبري (٣/٣٢-٣٣) وابن الأثير (٢/٢٣٢)، وفي ابن الأثير: أنّ أمّ عمرو من بلى، والصواب أنّ أمّ والدة العاص بن وائل من بلى.

للرُّوم واستعدادهم لمعاونة المسلمين دون الرُّوم، لما كان من المعقول أن يُقدم على فتح مصر بمثل هذا العدد الضئيل من الرجال.

٥. وكان عمرو يتمتّع بحاسة متميِّزة لتأثير طبيعة الأرض في سير القتال، فهو الذي أشار على قادة المسلمين في بلاد الشام بالاجتماع في اليرموك، فلما نزل الرُّوم معسكرهم انتقل المسلمون من معسكرهم القديم إلى معسكر جديد مناسب، فنزلوا على طريق انسحاب الروم، وليس للروم طريق إلاّ على المسلمين!... حينذاك هتف عمرو: «أيّها الناس! أبشروا، حُصرت والله الرُّوم، وقلّما جاء محصور بخير»[1].

وكما كان يحرص على جمع المعلومات عن العدو والأرض، كان يحرص على منع العدو من جمع المعلومات عن قوّاته وأرضه. فقد منع رجاله في سريّة ذات السّلاسل- وفيهم كبار الصّحابة: أبو بكر وعمر بن الخطّاب، وأبو عُبَيْدة بن الجرّاح رضي الله عنهم وغيرهم من كبار المهاجرين والأنصار من إشعال النار ليلاً على الرّغم من شدّة البرد وقسوته، ليحول دون كشف مواضعهم للعدو وكشف عددهم القليل للعدو أيضاً.

وهذا المثال يدلّ على إيمان عمرو بأهمية الضّبط والطّاعة والسيطرة، لذلك كان يفرض على رجاله ضبطاً عالياً، ويطالبهم بالطّاعة المطلقة لأوامره، ويسيطر عليهم سيطرة تامة، وهو يدلّ على شدّة ضبط عمرو وسيطرته النافذة على مرؤوسيه بصرف النظر عن قيمتهم الاجتماعية والدينيّة والسياسية.

٦. وكان على جانب عظيم من الشّجاعة الشّخصيّة، فقد كان من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهليّة مذكوراً بذلك فيهم[2]، وكان جريئاً

(١) الطبري (٣/٣٩٣) وابن الأثير (٢/٤٠٧).
(٢) الاستيعاب (٣/١١٨٨).

مِقْداماً[1]، وقد وصفه عثمان بن عفّان لعمر بن الخطّاب رضي الله عنهم بقوله: «إنّ عَمْراً لَمُخَبَّراً وفيه إقدام وحبّ للإمارة...»[2]. وقد باشر القتال في القلب أيام صفّين، فلما كان يوم من تلك الأيام اقتتل أهل العراق وأهل الشام حتى غابت الشّمس، ثمّ اقتتلوا ساعة من اللّيل حتى كثرت القتلى بينهم، فصاح عمرو بأصحابه: «الأرض... الأرض... يا أهل الشام»، فترجّلوا ودبّ بهم، وترجّل أهل العراق أيضاً، فكان عمرو يقاتل وهو يقول:

وَصَبرُنا على مَواطِنِ ضَنْكٍ   وخُطوبٍ تُرى البياض الوليدا

فأقبل رجل من أهل العراق، فضرب عَمْراً ضربةً جرحه على العاتق، فأدركه عمرو فضربه ضربة قضت عليه[3].

ومواقفه البطوليّة التي تدلّ على شجاعته الشخصيّة أكثر من أن تُعدّ وتُحصى.

٧. ولكنه كان يحارب بعقله كما كان يحارب بسيفه، بل كان عقله أمضى حَدًّا من سيفه، فيستعمل عقله في الحرب أكثر مما يستعمل سيفه.

لقد حاول أن يحوّل القتال بين عليّ ومعاوية، من حرب السيوف إلى حرب العقول، لكي يشلّ قوّة رجال عليّ وطاقاتهم القتالية، ويفرّق بين صفوفهم.

وعمل جاهداً على تشكيك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بأخلص رجاله وأعوانه، وأغرى قسماً من أهل الكوفة بالمال والوعود ليكونوا رَتَلاً خامساً بين صفوف رجال عليّ بن أبي طالب.

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٨٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٢٥٤ - ٢٥٥).

ولما حاقت الهزيمة بأهل الشّام في صِفِّين، أشار عمرو على معاوية بن أبي سفيان برفع المصاحف، فنشب الخلاف بين رجال عليّ بن أبي طالب: منهم مَنْ أجاب، ومنهم مَنْ خالف لعلمه بأنّ رفع المصاحف خدعة، وبذلك نجا أهل الشام من اندحار أكيد، وتفرّق شمل أصحاب عليّ من أهل العراق فلم يجتمع شملهم بعدها أبداً[1].

وفي فتح مصر، استهان القِبط بالفاتحين، وقال قائلهم: «ما أَرَثّ[2] العرب! ما رأينا مثلنا دان لمثلهم»، فخاف عمرو أن يطمِّعهم ذلك، فأرى عمرو المصريين حال العرب في بلادهم قبل الفتح، وكيف أصبحوا بعد الفتح في تمتعهم بأسباب الحياة، وحالهم في الحرب، ثم قال للمصريين: «علمتُ حالكم حين رأيتم اقتصاد العرب، فخشيت أن تهلكوا، فأحببتُ أن أريكم حالهم في أرضهم كيف كانت، ثم حالهم في أرضكم، ثم حالهم في الحرب، فقد رأيتم ظفرهم بكم وذلك عيشهم، وقد كُلِبوا[3] على بلادكم بما نالوا في اليوم الثاني، فأردت أن تعلموا أن ما رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني وراجعٌ إلى عيش اليوم الأول».

وتفرّق المصريون وهم يقولون: «لقد رمتكم العرب برجلهم».

وبلغ عمر بن الخطّاب، ذلك، فقال: «والله إنّ حربه لَلَيِّنة، ما لها سَطْوة ولا سَوْرَة[4] كَسَوْرات الحروب من غيره»[5].

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٥٥/٤ - ٢٥٦) وانظر التفاصيل في الطبري (٤٨/٥ - ٦٣) وابن الأثير (٣١٦/٣-٣٣٢).

(٢) الأرث: البالي. ورث الثوب: بَلِي، فهو أَرَث.

(٣) كَلِبَ العدو على الشيء: اشتدّ حرصه عليه.

(٤) السّورة: الشّدة والحدّة والهياج. وسورة الغضب: شدّته وحدّته وهياجه.

(٥) انظر التفاصيل في الطبري (١١٠/٤) وابن الأثير (٥٦٦/٢).

لقد كان عمرو يجيد حرب الدعاية، ويؤمن بمبدأ: الحرب خدعة.

وكان يحارب بعقله وسيفه، ولا يحارب بسيفه إلاّ إذا أعيته الحرب بعقله ولم يبق أمامه لتحقيق أهدافه إلاّ السّيف، وكان يمتلك في الحربين الشّجاعة الشخصيّة التي تقود إلى النصر ولا تقود إلى الهزيمة.

٨. وكان يتحلّى بالإرادة القويّة الثابتة، قبل إسلامه، وبعد إسلامه، حتى مضى إلى جوار الله.

كانت إرادته القويّة الثابتة قبل إسلامه، تتركّز على محاربة الإسلام والمسلمين، فحارب هذا الدين والذين اعتنقوه حرباً لا هوادة فيها في ميدان القتال، فقاتل المسلمين في أُحُد والأحزاب.

وكانت تلك الإرادة تتركّز بعد إسلامه في خدمة الإسلام والمسلمين، فحقّق ذلك عن طريق سفارته النبويّة وولايته على عُمان وتوليه جمع الصدقات أحد عمالها للنبيّ ﷺ، فلما التحق النبي ﷺ بالرّفيق الأعلى، حقّق إرادته في خدمة الإسلام والمسلمين عن طريق حرب الرِدَّة وفتوح الشّام ومصر وليبيا والتمهيد المؤثّر في فتح أفريقيا.

ولكن إرادته القوية الثابتة تتمثل في تحقيق طموحه في فتح مصر، وإقناع عمر بن الخطاب للموافقة على هذا الفتح، ومسيرته الطويلة الشاقة في فتح مصر بالسيف تارة وبالمفاوضات تارة أخرى، وبالقتال مرّة، وبالسّلام مرّة أخرى، حتى حقّق طموحه في فتح مصر.

ولما انتزع عثمان بن عفان منه مصر، وجه إرادته لزعزعة مركز عثمان عن الخلافة، ولكن خليفة عثمان وهو عليّ بن أبي طالب لم يحقّق له طموحه في تولي مصر، فوجّه إرادته القوية مع معاوية على عليّ من أجل ولاية مصر، حتى تحقق له ما أراد بإرادته القويّة التي لا تلين.

ان إرادة عمرو القوية الثابتة تبدو واضحة على كل أعماله إنساناً وقائداً وإدارياً وسفيراً.

٩. وكان يتحمل المسؤولية ويحبّها ولا يتهرّب منها ولا يلقيها على عواتق الآخرين خوفاً من عواقبها وبخاصة في حالات الإخفاق.

وقد نافس أبا عبيدة بن الجراح على الإمارة في سرية ذات السلاسل على عهد النبيّ ﷺ، فرضخ أبو عبيدة لعمرو خوفاً من الاختلاف.

وكان يطمح أن يتولى القيادة في فتح بلاد الشام منافساً في ذلك أبا عُبَيْدَة بن الجرّاح دون أن ينافسه أبو عُبَيْدَة، فكانت المنافسة من طرف واحد، ولكن أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه لم يحقِّق له هذا الطموح، ولم يؤيِّده عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ولم يعاونه في تحقيق ما طمح له من منصب رفيع.

والتطلع إلى الإمارة بما فيها من مسؤوليات جسام، يدلّ على أن الذي يتطلّع إليها يحبّ المسؤولية ولا يتهرّب منها أو يبتعد عنها بالوقوف في الظلّ مغموراً لا يعرف الناس ولا يعرفه الناس.

ولا يقتصر حبّ عمرو للمسؤولية على قيادته العسكريّة، بل يتعدّاها إلى مختلف نشاطه في الجانب غير العسكري من حياته، فإقدامه على الاجتهاد في الدين والنبيّ ﷺ على قيد الحياة، والقرآن الكريم ينزل، وجهة نظره في اجتهاده للنبيّ ﷺ - كما حدث بعد عودته من سرية ذات السلاسل - دليل على حبّه للمسؤولية الأدبيّة الكاملة وتمسّكه بمسؤوليته الكاملة دون خوف أو وَجَل.

لقد كان عمرو بحق يحب المسؤولية ويريدها لنفسه ويطالب بها ولا يستطيع الصبر على التخلّي عنها طويلاً.

١٠. وكانت له نفسيّة لا تتبدّل في حالتي النّصر والاندحار، والواقع أنه لم يُصب باندحار حقيقيّ في معاركه، بل أصيب بمواقف حرجة للغاية، كموقفه بعد رِدّة العرب، فمرّ في طريقه من عُمان إلى المدينة المنورة بمُسَيْلَمَة الكذّاب في ديار بني حَنِيفَة في طريق عودته إلى المدينة،

فما انهارت معنوياته ولا استكان ولا هان، بل استطاع التخلّص من مُسَيْلمة الذي كان يقضي بالموت على المسلم الذي لا يرتدّ عن دينه ويتبع مُسيلمة، وبخاصة إذا كان من قُريش، وكان من قادة قريش، ومن ولاة النبيّ ﷺ وقادته وسفرائه ومن المسلمين البارزين.

ولم تتبدل نفسية عمرو حين تأخّر فتح الإسكندرية، حتى سمع لوم عمر بن الخطّاب وتقريعه على التأخير، بل بقي يفكّر ويدبّر ويستشير ويخطّط، حتى تمّ له فتح الإسكندرية بالصبر والمعاناة والعمل الدائب وثبات المعنويات.

ولعلّ تبدّل النّفس البشرية تكون في حالة النّصر أشدّ خطراً من حالة الاندحار، إذ تصاب النفس بالغرور والكبرياء والاستعلاء والظلم والعدوان، وقد انتصر عمرو كثيراً، فما عرفنا أن نفسيته تبدّلت في حالة النصر، فوقع في شباك الأنفس الأمّارة بالسوء، بل بقيت نفسيته كما كانت، تلتزم بالحق وتأمر به، وتبتعد عن الظلم وتنهى عنه، ولا تتقاذفها الهواجس والانفعالات.

١١ . وكان يتمتع بمزيّة سبق النّظر، يحسب لكل شيء حسابه بدقّة وإتقان، ولا يترك أمراً مهما يكن طفيفاً تحت رحمة الصُّدَق. وحين فزع أهل المدينة المنوّرة على عهد النبي ﷺ، لبس عمرو سلاحه وقصد المسجد، على حين تفرّق المسلمون، فخطب رسول الله ﷺ فقال: «**ألا كان مفزعكم إلى الله ورسوله؟! ألا فَعَلتم كما فعل هذان الرّجلان المؤمنان**»[1]، والرجلان كانا: عمرو بن العاص وسالم مولى أبي حُذَيْفَة[2].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٠٣/٤)، والرجلان هما: عمرو بن العاص وسالم مولى أبي حذيفة.

(٢) سالم مولى أبي حذيفة: انظر في طبقات ابن سعد (٨٥/٣) وأسد الغابة (٢٤٥/٢) والإصابة (٥٦/٣) و الاستيعاب (٥٦٧/٢).

كما أنّ بُعد نظره، جعله يحول بين رجاله وبين مطاردة قُضاعه بعد هزيمتها في سرية ذات السّلاسل، خوفاً من وجود مددٍ لها، فيقع رجاله في كمين يكبِّدهم خسائر فادحة، أو يجعلهم يقاتلون عدوّاً متفوقاً عليهم دون مسوِّغ[1].

وكل المعارك التي خاضها في حرب الرِدَّة وفي فتوح الشَّام ومصر وليبيا، فيها شواهد كثيرة على تمتعه بمزيّة بُعْد النّظر، كما أنّ أعماله غير العسكريّة في الإدارة والسياسة وحتى في علاقاته الشخصية كان بعيد النّظر، يقظاً أشد اليقظة، حذراً أشدَّ الحذر، وكان في قيادته لا ينام ولا يُنِيْم تَحَسُّباً لأسوأ الاحتمالات، فلا يؤخذ على حين غُرّة أبداً.

١٢. وكان من أولئك القادة الذين يعرفون حق المعرفة نفسيات رجاله وقابلياتهم، لأنه يعايشهم في حلِّهم وترحالهم وأمنهم وخوفهم وسلمهم وحربهم أكثر مما يعايش أهله الأقربين، ويعيش بينهم أكثر مما يعيش بين أهله وعشيرته.

وهذه المعرفة الوثيقة، جعلته يكلِّف كلّ فرد من أفراد قواته بالواجب الذي يناسب نفسيته ويقارب كفايته، ويجعله يُقبل على واجبه إقبال محب له لا كاره وقادر عليه لا عاجز عنه، مما جعل رجاله ينهضون بواجباتهم بشوق ولهفة وحماسة، وينجحون في أدائها نجاحاً كبيراً.

وبالنسبة للنفسيات والقابليات، كان يلقي على عواتق قسم منهم واجبات القتال الفرديّ، وعلى قسم منهم واجبات القيادات التي تعمل بسيطرته المباشرة، وعلى قسم منهم واجبات القيادة التي تعمل بسيطرته غير المباشرة، كالقيادة المستقلّة في فتح أنحاء مصر بعد استسلام حصن بابليون في المعركة الحاسمة. كما كان يكلِّف قسماً منهم بواجب السفراء

---

(١) مغازي الواقدي (٢/٧٧٤).

بينه وبين العدو، وواجب المفاوضين، وغيرها من الواجبات الآخرى التي جاء ذكرها في معاركه الكثيرة شرقاً وغرباً.

والسبب الوحيد لنجاح رجاله في أداء الواجبات التي ألقاها عمرو على عواتقهم، هو معرفته التّامة بنفسيات وقابليات رجاله، فكان يضع الرّجل المناسب في الواجب المناسب.

ويبدو أنه كان في تعيينه القادة المرؤوسين بخاصة واختيار الإداريين ورجاله الشّرطة والقضاة لا يتأثر إلا بالكفايات العالية المتميّزة والإيمان الصادق العميق، واستعراض اسماء قادته المرؤوسين وأصحاب المناصب الأخرى الذين أختارهم عمرو خير دليل على ذلك.

١٣. وكان يثق برجاله ثقة تامّة ويثقون به ثقة لا حدود لها. والدليل على ثقته برجاله، هو أنه كان يقودهم مدة طويلة في فتوح بلاد الشام، وعندما سُمِح له بفتح مصر، اختار رجاله من الذين عملوا بقيادته ردحاً طويلاً. وخَبِرَ كفاياتهم ومزاياهم ونفسياتهم، ولولا ثقته الكاملة بهم لما أقدم على محاولة فتح مصر وعددهم يومئذٍ كان ثلاثة آلاف وخمسماية رجل، لأن تَعداد رجاله بالنسبة لواجبهم في الفتح قليل جدا، ولكنه أقدم على محاولة فتح مصر، وبقيادته هؤلاء الرجال القليلون عَدَداً، لأنه كان يثق بهم ثقة تامة.

وقد أثبتت قوات عمرو بأنّها حريّة بثقته الكاملة، فقد أنجزت له واجبات الفتوح بصورة تدعو إلى التّقدير والإعجاب، كما أنها صبرت على حصار حصن بابليون سبعة أشهر، حتى استطاعت فتحة[١]، وصبرت ثلاثة أشهر على حصار الإسكندرية حتى استطاعت فتحها[٢]، ومن

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٩٥).

(٢) فتوح مصر والمغرب (١٠٦).

المعلوم أنّ الجيش الذي يصبر على الحصار طويلاً يُعَدّ من الجيوش ذات التّدريب العالي والضبط المتين والمعنويات الرفيعة، ومثل هذا الجيش يستحقّ كلّ الثقة من قائد في كلّ زمان ومكان وفي مختلف الظروف والأحوال.

أما ثقة رجال عمرو بعمرو، فلأنه قائد منتصر، يقود رجاله من نصر إلى نصر، ولأنه يضرب أروع الأمثال لرجاله في التضحية والفداء، فكان يقود رجاله من الأمام، يقول لهم: اتبعوني، ولا يقودهم من الخلف، فيأمرهم بالتقدّم، ويقبع هو في موقع أمين بعيد عن الأخطار[1].

١٤. وكان يستأثر بالخطر، ويؤثر رجاله بالأمن، فيدخل حصون أعدائه، ويحاور قادة الأعداء، ويعرِّض نفسه لأفدح الأخطار[2]، ولا يستأثر بالخير دونهم ولا يترفع عنهم، ويعاملهم معاملة الآباء للأبناء.

وكانت أخلاقه الشخصية رضيّة جداً، وهو القائل: «ما أفحشت قط إلا ثلاث مرّات: مرتين في الجاهلية، وهذه الثالثة، وما منهنّ مرّة إلا وقد ندمت واستحييتُ، وما استحييتُ من واحدة منهنّ أشدّ مما استحييت مما قلتُ لك، والله إني لأرجو ألاّ أعود إلى الرابعة ما حييتُ»، وكان قد قال لرجل من رجاله في ساحة القتال كلمة نابية[3]، فقال له: «استغفر لي ما كنتُ قلتُ لك»، فاستغفر له الرّجل[4].

وقد وصفه رجل من ثُقات المسلمين فقال: «صحبتُ عمرو بن

(١) انظر فتوح مصر والمغرب (١١٤).
(٢) انظر فتوح مصر والمغرب (٩٣).
(٣) انظر فتوح مصر والمغرب (١١٤).
(٤) فتوح مصر والمغرب (١١٥).

العاص، فما رأيت رجلاً أَبْيَن قرآناً، ولا أكرم خُلُقاً، ولا أشبه سريرة بعلانية منه»[1].

وكما كان موضع ثقة رجاله، كان موضع ثقة رؤسائه، فقد كان أحد سفراء النبي ﷺ وأحد قادته وأحد ولاته وأحد عماله على الصدقات، ولا أعرف صحابياً غير عمرو تولّى للنبي ﷺ كلّ هذه المناصب السياسية والعسكرية والإداريّة والمالية في حياته المباركة، مما يدلّ على ثقة النبي ﷺ بعمرو سياسياً وعسكرياً وإدارياً ومالياً، كما كلفه بالقضاء في قضيّة من القضايا، وكان من أصحاب الفُتْيَا من الصّحابة والمجتهدين بالدين في حياة النبي ﷺ، مما يدل على ثقته بعلم عمرو وكفايته القضائية.

وكان موضع ثقة أبي بكر الصّديق رضي الله عنه، فقد كان أحد قادته، وكان موضع ثقة عمرو بن الخطاب رضي الله عنه، إذ كان أحد قادته وولاته، وكان موضع ثقة عثمان بن عفان رضي الله عنه، لأنه كان أحد قادته وولاته، وقد عزله عن مصر لأنه يستطيع أن يسيطر على خلفه ولا يستطيع السيطرة عليه، وكان بعد عزله عن مصر موضع استشارته فيما يعرض له من معضلات جسام، مما يدلّ على أنّه كان موضع ثقته حتى بعد عزلة عن مصر وتوتّر العلاقات الشخصيّة بين الرجلين

وقد فرّقت السياسة بين الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعد توليه الخلافة وبين عمرو بن العاص الذي كان يطمح باستعادة ولايته على مصر، والسياسة لا تتدخّل في شيءٍ إلا أفسدته، وإلا فلا يمكن أن يكون الإمام عليّ يجهل مكان ومكانة عمرو وأهميته القصوى للدولة الإسلاميّة الفتية قائداً وإدارياً وسياسياً ومفكّراً، كماأنّ عمْراً لا يمكن أن

(١) الإصابة (٥/٢).

ينكر مكان عليّ ومكانته وأهميته القصوى للدولة الإسلامية الفتية خليفة من الخلفاء الرّاشدين المهديين.

أما الثّقة بين معاوية بن أبي سفيان وعمرو فمعروفة، وهي أشهر من أن تكون بحاجة إلى إيضاح أو تفصيل.

ومن الطبيعي أن يثق بالقائد المنتصر، الذي يقود رجاله من الأمام، ويضرب لهم أروع الأمثال في الشّجاعة والإقدام والتضحية والفداء، والذي يتحلّى بالخلق الكريم والكفاية العالية، رجالُه الذين يعملون بقيادته ورؤساؤه الذي يعمل بإمرتهم ويكون موضع ثقة أمّته عامة، وأن يبادلهم ثقة بثقة، والثقة المتبادلة هي التي تشيع الانسجام والضبط والتعاون بين الرئيس والمرؤوس والقائد والمقود من أجل تحقيق النصر المؤزّر.

ولا يمكن أن ينتصر قائد لا يثق به رجاله، ولا قائد لا يثق برجاله، فالثقة المتبادلة من العوامل الحاسمة لإحراز النصر بين القادة من جهة والرجال من جهة أخرى.

١٥. وكان يحبّ رجاله، وكان رجاله يحبونه، وكانت المحبّة المتبادلة شائعة بين القيادة والجنود، وقد قال له حرسه حين حضرته الوفاة: «كنتَ لنا صاحب صِدْقٍ، تكرمنا وتعطينا، وتفعل وتفعل»[١]، مما كان ينعم به عليهم ويهبه لهم ويكرمهم به.

ولكن عمرو كان يعرف واجباته فيؤدّيها كاملة، ويحاسب نفسه على أدائها قبل أن يحاسبه غيره، ويعرف حقوقه فيطالب بها ويحاسب غيره عليها، ولا يتغاضى عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٥٩/٤).

كما كان يعرف حقوق رجاله، فيؤديها لهم أداء كاملا، ويعرف واجباتهم فلا يسكت على إهمالها، أو أدائها غير كاملة أو بشكل غير متقن.

والمحبّة المتبادلة شيء، والحقوق والواجبات شيء آخر، وما كانت المحبّة المتبادلة تؤثّر في مجرى حقوق عمرو وواجباته وحقوق رجاله وواجباتهم.

وقد كان رجل ممّن خرج مع عمرو حين خرج من الشام إلى مصر، أُصيب بجملٍ له، فأتى إلى عمرو يستحمله، فقال له عمرو: «تحمّل مع صحابك حتى تبلغ أوائل العامر»، فلما بلغوا العريش جاءه فأمر له بجملين، ثم قال له: «لن تزالوا بخيرٍ ما رحمتكم أئمتكم، فإذا لم يرحموكم هلكتم وهلكوا»[1].

وكان الذين لا يعرفون عمرو بن العاص، لا يستطيعون أن يميّزوه عن رجاله في شيءٍ، إذ كان أحدهم: «ما يُعْرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيِّد منهم من العبد»، كما وصف رسل المُقَوْقِس عمرو بن العاص ورجاله[2].

وكان عمرو يرفق بالحيوان الضّعيف، وإنما سمِّيت الفُسطاط، لأنّ عَمْراً لما أراد التوجّه إلى الإسكندرية لقتال مَنْ بها من الرّوم، أمر بنزع فسطاطه، فإذا فيه يَمَامُ قد فرّخ، فقال عمرو: «لقد تحرّم منّا بمتحرّم»، وأمر بالفسطاط فأقرّ كما هو، وأوصى به مَنْ بقي. ولما قفل المسلمون من الإسكندرية، قالوا: أين ننزل؟ قالوا: الفسطاط، لفسطاط عمرو الذي كان خلّفه[3]. فإذا كان هذا مبلغ رفقه بالحيوان، فهو برجاله أرفق.

---

(١) فتوح مصر والمغرب(٨٥).
(٢) فتوح مصر والمغرب (٩٧) والنجوم الزاهرة (١١/١).
(٣) فتوح مصر والمغرب (١٣٣).

ولكنّ حبّه العميق لرجاله، لم يكن يمنعه أن يحثهم على أداء واجباتهم الكاملة، فقد كان عمرو يُذَمِّر[1] المسلمين ويحثهم على الثبات، فقال له رجل من اليمن: «إنا لم نُخلَق من حجارة ولا من حديد[2]»، وعمرو كان يريد رجاله في أداء واجباتهم حجارَة وحديدا في صلابتهم لا يكلّون ولا يملون.

وحين أراد رجاله أن يوقدوا ناراً في ليلة شاتية قاسية البرد، منَعهم عمرو وهدّد مَنْ يوقد النار بقذفه فيها[3]، وكان ذلك في غزوة ذات السلاسل على عهد النبي ﷺ، وهذا دليل جديد على حبّ عمرو لرجاله، لأنّه لو سمح لهم بإيقاد النار لاكتشف عدوّهم قلّتهم واستكمن مواضعهم، ولقضى عليهم بسهولة ويُسر.

وقد كان عمرو يحبّ أخاه هشام بن العاص حباً عظيماً ويفضّله على نفسه كما ذكرنا، وكان هشام يعمل بقيادة أخيه عمرو في معركة أجنادين من معارك فتوح الشام، ولما انهزم الرّوم يوم أجنادين انتهوا إلى موضع لا يعبره إلاّ إنسان، فجعلت الرّوم تُقاتل عليه وقد تقدّموه وعبروه. وتقدّم هشام فقاتل عليه حتى قُتل، ووقع على تلك الثُّلمة فسدّها. ولما انتهى المسلمون إليها هابوا أن يوطِئوه الخيلَ، فقال عمرو: «أيتها الناس! إنّ الله قد استشهده ورفع روحه، وإنما هو جُثّة فأوطئوه الخيلَ»، ثم أوْطأه هو وتبعه النّاس حتى قطعوه. ولما انتهت الهزيمة

---

(١) يذمّر: يحضّ ويشجّع، وفي حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا وإنّ الشيطان قد ذمَّر حزبه».

(٢) النجوم الزاهرة (٢٦/١).

(٣) السيرة الحلبية (٢٧٣/٣) وتاريخ الخلفاء للسيوطي (٧٢).

ورجع المسلمون إلى العسكر، كرّ إليه عمرو، فجعل يجمع لحمَه وأعضاءه وعظامه، ثمّ حمله في نَطْعٍ[1] فواراه[2].

لقد كان عمرو من أولئك القادة الذين يبادلون رجالهم حباً بحب، ولكن ليس على حساب الواجب، لا تناقض بين المحبة المتبادلة والحرص على الواجب لدى القائد حقاً ورجاله، فهما متلازمان وعليهما تُبْنَى الثقة المتبادلة التي لاتكون إلا بالمحبّة المتبادلة والعمل الدائب المتواصل من أجل إحراز النّصر.

١٦. وكانت لعمرو شخصيّة قويّة جداً لكفاياته العقليّة والخُلُقيَّة المتميزة، وكان شخصيّة من شخصيّات العرب قبل الإسلام وبعده.

كان سفيراً لقُريش في الجاهلية إلى الحبشة كما ذكرنا، وكان قائداً من قادتهم، وكان من ذوي الرأي فيهم.

وبعد إسلام عمرو مباشرة قدّمه رسول الله ﷺ، وكان عمرو يقول: «ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في حربه منذ أسلمتُ»، فكان من قادة النبي ﷺ ومن سفرائه وعمّاله وكتّابه ودعاته، كما كان من قادة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومن قادة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما ومن عمالهما على مصر، ومن عمال معاوية بن أبي سفيان وقادته حتى تُوفّي عمرو بمصر، فكان يفرض شخصيته المرموقة على الحكام والمحكومين في الجاهلية والإسلام.

وحتى بعد أن عزله عثمان بن عفّان عن مصر، لم يستطع تجاهل شخصيّته الفذّة، فكان يستقدمه في الملمّات، ويستشيره في أموره.

---

(١) النّطع: بساط من الجلد، كثيراً ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل.
(٢) طبقات ابن سعد (١٩٤/٤).

والحديث عن شخصية عمر يطول، وإثبات أنّه كان ذا شخصيّة قوية جداً لا مسوِّغ له لأنه واضح معروف مشهور، والمعروف لا يُعرف كما يقولون.

وكانت له قابلية بدنية فائقة، أعانته على تحمّل أعباء القتال في الصحراء وفي المناطق الحارة كمنطقة الخليج العربيّ، والمناطق المعتدلة كبلاد الشّام ومصر وليبيا، وفي مختلف الفصول شتاءً وصيفاً. واحتفظ بهذه القابليّة حتى في أواخر عمره، ويبدو أنه كان صحيح البدن يتمتّع بالصّحة والعافية لا يعاني الأمراض إلاّ قليلاً. ولعلّ اهتمامه براحته حين يستقرّ، وابتعاده عن مواطن الأوبئة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، واعتناءه بغذائه وكسائه ومسكنه، دخل في اعتدال صحّته وعافيته وتخلّصه من الأمراض والأوبئة.

وكان له ماضٍ ناصعٌ مجيد: أبوه سيِّد من سادات قريش، وهو ناب من أنياب العرب، خدم قومه قُريشاً بكلِّ طاقاته المادية والمعنوية في التجارة والسفارة والسِّلم والحرب، وكان ذلك قبل إسلامه.

فلما أسلم، خدم الإسلام والمسلمين خدمة لا ينافسه فيها كثير من أنداده القادة والولاة والسفراء والنابهين من المسلمين.

يكفي أن نذكر أنّ ماضيه المجيد في عهد النبيﷺ، جعله الوحيد من الصحابة الذي تولّى القيادة والسفارة والولاية وجباية الصدقات والكتابة للنبي ﷺ، إذ من الصحابة من تولّى منصباً من تلك المناصب أو منصبين، ولكن لم يتولها واحد منهم مجتمعة للنبيّ ﷺ أبداً.

ويكفي أن يكون قائداً من قادة أبي بكر الصدِّيق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، ومن ولاة عمر وعثمان ومعاوية، وحسبه أن يقال عنه: إنّه كان من ولاة عمر، وما كلّ أحدٍ بقادرٍ على تولّي قطر من أقطار المسلمين لعمر.

ويكفي أن يكون أحد قادة فتح أرض الشّام بعامة وفلسطين بخاصة، وفاتح مصر وليبيا وجزء من تونُس.

ويكفي أن يكون له أثر في نشر الإسلام من الخليج العربي شرقاً إلى امتداد ليبيا على البحر الأبيض المتوسط غرباً، ونشر العربية لغة في أرض الشام ومصر وشمالي أفريقيّة.

إنّ ماضي عمرو ناصع مجيد، يضفي عليه مجداً وشرفاً بغير حدود.

١٧. تلك هي مجمل مزاياه القيادية، فإذا طبّقنا أعماله العسكرية في حروبه على مبادىء الحرب، وهي الجوهر الذي يبنى في القائد (السجيّة) السّليمة في تصرّفاته الحربيّة، وهي العنصر الذي يتكوّن منه مسلك القائد في أعماله الميدانيّة بصورة عفويّة وطبيعية وغير متكلّفة، لوجدنا أنّ عَمْراً طبق مبادىء الحرب كافة بكفاية واقتدار في معاركه كلّها، مما كان له أثر حاسم في انتصاراته.

وأوّل مبادىء الحرب التي طبّقها عمرو في حروبه، هو مبدأ: اختيار المقصد وإدامته[1]، فقد كان عمرو ماهراً للغاية في تطبيق هذا المبدأ، بل يبدو أنّه كان يفكِّر بمقصده من معاركه مُسَبّقاً، وكأن هذا المقصد أمرٌ مدبّر لا دخل للارتجال أو للتفكير الفوري فيه إلاّ في المعارك التعبويّة الصغرى. أما في المعارك الكبرى - وبخاصة السّوْقيّة منها، فكان مقصد عمرو واضحاً جليّاً، أعدّه قبل مدّة من الزّمن، وعمل على إعداده، وبذل قصارى جهده لإخراجه من حيِّز التفكير النظري إلى ميدان التطبيق العملي.

---

(١) اختيار المقصد وإدامته: في كلّ عمليّة حربيّة، من اللّازم اختيار المقصد وتعريفه بوضوح. والمقصد النهائي هو تحطيم إرادة العدو على القتال، ويجب أن توجّه كلّ صفحة من صفحات الحرب نحو هذا المقصد النهائي، ولكن لكل منها مقصد محدود يجب أن يُعْرف بوضوح.

كان مقصد النبي ﷺ من سريّة ذات السلاسل التي تولّى قيادتها عمرو: صدّ جمع قُضَاعة الذين يريدون أن يهاجموا أطراف المدينة المنوّرة.

ولما قرب عمرو من القوم، بلغه أنّ لهم جمعاً غفيراً، فاستمدّ رسول الله ﷺ، لأنه أيقن أنّه لن يستطيع تحقيق مقصد النبي ﷺ من هذه السرية بقوته الراهنة.

وجاءه المدد بقيادة أبي عُبَيْدة بن الجرّاح، فأصرّ عمرو على توحيد القيادة لتحقيق مقصد النبي ﷺ من هذه السرية، لأهمية توحيد القيادة وضرورة وجود قائد واحد، يدير معركةً واحدة، على رأس قوّة واحدة. وعلى الرغم من حرص عمرو الشّديد على الإمارة، إلا أنّ التفاتته البارعة إلى حصر القيادة بيده فقط، كانت ذات أهمية بالغة لتحقيق المقصد المرسوم، لأن وجود قائدين على رأس قوّة واحدة يؤدي إلى الارتباك والبلبلة وضياع المسؤولية وتفرّق الشّمل وبعثرة الجهود، فلا يتحقق المقصد المطلوب كما ينبغي.

وكان مقصد أبي بكر الصديق رضي الله عنه من إرسال جيوشه وقادته إلى بلاد الشّام، هو فتح هذه البلاد، وضمّها إلى الدولة الإسلامية الفتيّة، وذلك بتطهير بلاد الشّام من الرّوم، لحماية الحدود الشمالية الغربية لبلاد المسلمين.

ولم يكن مقصد أبي بكر قابلاً للتحقيق، لو بقيت الجيوش الإسلامية متفرّقة، فأشار عمرو على قادة المسلمين في أرض الشام بالاجتماع في اليرموك، وهو الذي أشار بتوحيد القيادة، فاجتمعت الجيوش الإسلامية، في اليرموك بإشارة عمرو، وتوحّدت القيادة في تلك المعركة الحاسمة، وبذلك حشد الجيوش الإسلامية بقيادة واحدة في موضع مناسب اختاره عمرو، فقال عمرو للمسلمين: «أبشروا، حصرت والله

الرّوم، وقلّ ما جاء محصور بخير»، وبذلك حقق عمرو نصف النصر قبل نشوب القتال، لأنه جرّ الرّوم إلى منطقة قتالية بصالح المسلمين لا بصالح الرّوم، وحشد في تلك المنطقة جيوش المسلمين كافة، وجعلها تعمل بقيادة موحّدة.

ولما نشب القتال، أحرز المسلمون نصراً عظيماً على الروم، فتحقق مقصد أبي بكر الصديق ومقصد قادة المسلمين الميدانيين.

وبدون شك، كان مقصد عمرو في فتوح الشّام واضحاً جداً، وكان يديم مقصده بطريقته الخاصّة في القيادة: يقاتل بسيفه، ويقاتل بعقله، ويحاول أن يحصل على أكبر الأرباح بأقل الخسائر.

أما مقصده في فتوح مصر وليبيا، فقد كان مقصداً مدبّراً، فما ترك فرصة التقى عمر بن الخطّاب بها إلا وفاتحه بفتح مصر وأغراه بفتحها، حتى استطاع أن يحصل على موافقة عمر، فانطلق قُدماً لوضع مقصده في الفتح موضع التنفيذ.

وما يقال عن فتح مصر، يقال عن فتح ليبيا أيضاً، فما زال بعمر حتى وافق على فتحها.

وكان مقصد عمرو أن يفتح أفْرِيقِيّة (تُونس) بعد فتح ليبيا، ولكنّ عمر رفض ما عرضه عليه عمرو من الإقدام على فتحها، فلما تُوفي عمر وخلفه عثمان، حقّق عمرو ما كان يصبو إليه من فتح افريقيّة، فبدأ بفتحها، ولكنّ عزله عن مصر حال بينه وبين إكمال ما يريد.

وكان التحاق عمرو بمعاوية بن أبي سفيان، وما جرى في معركة صِفِّين، وإقدام عمرو على انتزاع مصر من سيطرة الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أدلّة قاطعة على اختيار مقصده مدبّراً وإدامته حتى يحقّقه مهما بَعُدَ الشّوط وطال الزّمن.

لقد كان عمرو ماهراً في اختيار المقصد وإدامته.

١٨ . وكان يطبِّق مبدأ: التَّعَرّض[١]، بل كان قائداً تعرّضيّاً لم يخض معركة دفاعية في حياته العسكرية الطويلة في سنواتها العريضة بنتائجها العميقة بأثرها وتأثيرها.

ومن النادر أن نجد قائداً لم يخض في حياته العسكريّة كلِّها معركة دفاعية واحدة، وكانت كلّ معاركه تعرّضيّة.

وكان يطبِّق مبدأ: المباغتة، والمباغتة أقوى مبادىء الحرب وأبعدها أثراً في الحرب، وتأثيرها المعنوي عظيم جداً، وتأثيرها من الناحية النفسيّة يكمن فيما تحدثه من شلل في تفكير القائد الخصم وفي قواته أيضاً.

لقد كان عمرو يسير الّليل ويكمن النّهار، ليباغت عدوّه كما فعل في سرية ذات السّلاسل وغيرها من معاركه.

وكان لا يأذن لأصحابه بإيقاد النار ليلاً في الشتاء، لكي لا يطّلع عدوّهم على قلّتهم فيستهين بهم ويهاجم ليوقع فيهم الخسائر الفادحة، كما فعل في سرية ذات السّلاسل وفي غيرها من معاركه أيضاً، ليوهم العدو أنّ المسلمين في كثرة، فيؤثِّر في معنوياتهم ويباغتهم بالهجوم عليهم ويضطرهم على الفرار أو الاستسلام.

وكان عمرو يفرِّق أصحابه ليرى العدو أنّهم أكثر مما هم عَدَداً وعُدَدا، كما فعل في معركة حصار حصن بابليون الحاسمة، ليزعزع معنويات العدو[٢] بإيهامه أنّ المسلمين في عدد ضخم من الرجال.

---

(١) التعرّض: هو الهجوم على العدو لسحقه، ولا يتم الحصول على النّصر إلا بالتّعرض وحده.

(٢) فتوح مصر والمغرب (٩٢) والنجوم الزاهرة(١/٩).

وكان يقوم باستطلاع شخصي لمقرّات قـادة العدو، ليطّلع على نقاط الضعف فيهم وفي قوّاتهم ومواضعهم، ويباغتهم من حيث لا يحتسبون.

ويُطلع العدو على استقامة المسلمين وعدلهم وتواضعهم ليقول قائلهم: «رأينا قوماً الموت أحبّ إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحبّ إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم رغبة ولا نَهْمه، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على رُكَبهم، وأجيرهم كواحدٍ منهم، وما يُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيِّد منهم من العبد، وإذا حضرت الصّلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون في صلاتهم»، فقال عند ذلك المقوقس: «والذي يُحلف به، لو أنّ هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد»[١]، فيستسلم العدو كما فعل القِبط، ويكونون عوناً لهم على عدوِّهم المشترك: الرُّوم.

وقد استطاع عمرو أن يزعزع معنويات عدوّه في معارك كثيرة بالمفاوضات الشخصية أو بالمفاوضين الآخرين من المسلمين، فربح نصف المعركة قبل أن يخوضها، ثم ضرب ضربته في المكان المناسب والزمان المناسب، فانهارت معنويات عدوه، وفرّ من استطاع الفرار، واستسلم الباقون للمسلمين.

وفي الوقت الذي استطاع عمرو أن يباغت عدوّه في كل معركة خاضها بالتأثير في المعنويات العادية بخاصة، فإنه حرم عدوّه من مباغتته في أية معركة خاضها، فلم يسجِّل التاريخ العسكري لعمرو عليه أنّ العدو باغت رجاله، لأنه كان حذراً غاية الحذر، متيقظاً غاية اليقظة، يحمي قوّاته بالمقدّمات والمؤخّرات والسّاقات والمجنبات، ولا يترك ثغرة يمكن أن يتسرّب منها العدو لضرب قوّاته بصورة مباغِتَةٍ.

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٩٧).

والمباغتة تكون إما بالمكان بالهجوم من مكان لا يتوقّعه العدو، أو تكون بالزمان بالهجوم في زمان لا يتوقّعه العدو، أو بالأسلوب بالهجوم في أسلوب قتالي لا يعرفه العدو أو لا يتوقّعه.

وقد طبق عمرو هذه الأساليب الثلاثة في المباغتة في حروبه، فقد طبق المباغتة بالمكان في فتح طرابلس بتسرّب المسلمين إلى داخل المدينة من مكان لا يتوقعه العدو كما ذكرنا ذلك. وطبّق المباغتة بالزمان في فتح مدينة صبراتة الليبية، فقد هاجمها المسلمون في زمان لا يتوقّعه أهلها، فلما ظفر بمدينة طرابلس جرّد خيلاً كثيفة من ليلته، وأمرهم بسرعة السّير، فصبّحت خيله المدينة وقد غفل أهلها، وفتحوا أبوابها لتَسْرَح ماشيتهم، فدخلها المسلمون واحتوى عمرو ما فيها[1]، وقد ذكرنا ذلك في الحديث عن فتح ليبيا.

وطبق المباغتة بالأسلوب، بهجوم الفرسان السّريع الخاطف واندفاعهم بالعمق والتغلغل بعيداً في صفوف العدو، فمن المعروف أنّ الخيول العربية أسرع من خيول الروم، وأن الفارس العربي أخفّ حركة من الفارس الرومي، لخفة تجهيزاته وأسلحته، وأمهر في فروسيته وأقدر على استعمال السّيف والرّمح، يضاف إلى ذلك حماسته الدينية في الجهاد وشدّة ضبطه وطاعته والتزامه بالنّظام، وهذه الحماسة والضبط والطاعة والنِّظام من أثر الإسلام على المجاهدين العرب، إذ لم يكن العرب كذلك قبل الإسلام بلا مراء ومن المعلوم أنّ المباغتة أهم مبادىء الحرب على الإطلاق.

١٩. وكان عمرو يطبِّق مبدأ: تحشيد القوّة، وهو حشد أعظم قوّة مادية ومعنوية، واستخدامها في الزمان والمكان المناسبين.

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٣١).

فقد قاد سرية ذات السّلاسل، فلما قرب من قُضَاعة بلغه أنّ لهم جمعاً غفيراً، فاستمدّ رسول الله ﷺ، فبعث إليه أبا عُبَيْدَة بن الجَرّاح في مائتين وعقد له لواءً، وبعث معه سُراة المهاجرين والأنصار، وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا، وبذلك استطاع عمرو حشد القوّة المناسبة للواجب المناسب، فانتصر على قُضَاعة، وأنجز واجب سريته كما ينبغي.

وارتدّت قُضَاعة بعد التحاق النبي ﷺ، فعقد أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه لوءً لعمرو على جيش من جيوش المسلمين وأمره بقتال قُضَاعة، فسار عمرو في الطريق الذي سلكه في سرية ذات السّلاسل، حتى وصل بلاد قُضاعة، فأعمل السيف في رقابها وغلبهم على أمرهم، لأنّه الجيش الذي تولّى قيادته كان متكامل الحشد قادراً على النهوض بأداء واجبه بنجاح.

وكانت جيوش المسلمين متفرقة في بلاد الشّام، وكان كلّ جيش من تلك الجيوش بقيادة قائد من قادة المسلمين، فأشار عمرو على قادة المسلمين بالاجتماع في اليرموك، وتوحيد قيادتهم، لمواجهة الرُّوم بجيوش موحَّدة وقيادة موحَّدة، لإمكان إحراز النصر عليهم؛ لأن بقاء جيوش المسلمين متفرقة في بلاد الشّام، يؤدي إلى أن تبقى ضعيفة تجاه جيش الروم الموحّـد قوّةً وقيادةً، وأن تقاتل جيوش الرُّوم كلّ جيش من جيوش المسلمين على انفراد، دون أن يتعاون المسلمون على قتال عدوِّهم، لتفرّق تلك الجيوش ووجودها متباعدة وبقيادات شتَّى. فكان رأي عمرو باجتماع جيوش المسلمين في اليرموك وتوحيد قيادتهم، أدّى إلى استكمال تحشيد الجيش الإسلامي استعداداً لخوض المعركة بقوات موحَّدة وقيادة واحدة، لا بقوّات متفرِّقة، وقيادات كثيرة.

وتحشيد القوّة للمسلمين في اليرموك، مثال عمليّ رائع على تطبيق

هذا المبدأ بشكل مثالي يقود إلى النصر.

وهذا الحشد لجيوش المسلمين في موضع واحد، اختار المسلمون لأنفسهم ولم يختره عدوّهم لهم، وتوحيد قيادتهم، واختيار موعد نشوب القتال دون أن يضطرهم عدوهم إلى نشوب القتال، كان بمشورة عمرو وتوجيهه، ويمكن أن يكون درساً مهماً جداً من الدروس المستفادة التي ينبغي على العسكريين المسلمين تعلّمها بصورة متقنة وتطبيقها عملياً في الحرب.

وهذا الدّرس ينبغي أن يعلّم في الكليّات العسكرية وكليّات الأركان والقيادة وجامعات الدراسات العسكرية العليا، فخير الدروس ما كان مستفاداً من معارك المسلمين وتاريخهم المجيد، لأنّه طُبِّق على أرضهم وطبّقه أمثالهم من الرِّجال.

وفي فتح مصر، قاد عمرو في المعارك التمهيديّة قبل معركة (بابليون) الحاسمة جيشاً تعداده ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل. وحاصر عمرو حصن بابليون بجيشه القليل عَدَدا، فكان أقلّ من أن يستطيع فتح هذا الحصن الحصين، فكتب إلى عمر بن الخطّاب يستمدّه، فأمدّه بأربعة آلاف[1]، على كلّ ألف رجل منهم رجل من الأبطال، وكتب إليه: «إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كلّ ألفٍ منهم رجل مقام الألف: الزُّبَيْر بن العوَّام والمِقْداد بن عمرو، وعُبَادة بن الصّامت، ومسْلَمَة بن مُخَلَّد - وقال آخرون: بل خارجة بن حُذَافَة الرابع، لا يعدّون مَسْلَمَة - إنّ معك اثني عشر ألفاً، ولا يُغْلَب اثنا عشر ألفاً من قلّة»[2].

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٨٧).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٩١).

وفي رواية أخرى، أنّ عمر بن الخطّاب أشفق على عمرو، فأرسل الزُّبير في أثره في اثني عشر ألفاً، فشهد معه الفتح[1].

ومهما يكن من أمرٍ، فإن عَمْراً انتظر المدد، فحشد جيشه حول حصن بابليون بعد وصول المدد إليه، فأصبح جيشه قادراً على فتح حصن بَابليون، فحاصر الحصن حتى استسلم، فكانت معركة حصن بابليون معركة حاسمة، فتحت أبواب مصر للفاتحين المسلمين.

وكان عثمان بن عفّان رضي الله عنه قد دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر: «كتبتُ إلى عمرو بن العاص، يسير إلى مصر من الشّام». فقال عثمان: «يا أمير المؤمنين! إنّ عَمْراً لَمُجَرَّأٌ، وفيه إقدام وحبّ للإمارة، وأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة، فيعرِّض المسلمين للهلكة، رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا»[2].

وكان جريئاً مِقْداماً محبّاً للإمارة بحق، ولكنّه لا يخرج من غير ثقة ولا جماعة، بل يحسب لكلِّ أمرٍ حسابه، ويدخل في حسابه أسوأ الاحتمالات، ويتّخذ لكلِّ أمر عدّته، ولكلِّ معضلة ما يفرِّجها، ومن حساباته تطبيق مبدأ: تحشيد القوى، أو تحشيد القوّة، تطبيقاً مثالياً، دون أن يترك للمجازفة أيّ مجال..

٢٠. وكان يطبِّق مبدأ: الاقتصاد بالجهود، وهو استخدام أصغر القوّات للحماية، أو لتحويل انتباه العدو إلى جهة أخرى، أو صدّ قوّة معادية أكبر منها، على أن تكون القوات المستخدمة قادرة على النهوض بواجبها وتحقيق الهدف من الواجب الذي أُسند إليها. والاقتصاد بالجهود يدلّ على الاستخدام المتوازن للقوى، والتصرف الحكيم بالمواد

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٩٢).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٨٣).

العسكريـــة لغرض الحصول عـــلى التحشّد المؤثّر في الزمـــان والمكـــان الحاسمين.

وليس مبدأ: الاقتصاد بالجهود، مناقضاً لمبدأ: تحشيد القوّة، بل هما متكاملان، الأول يحول دون التبذير بالقوّة بدون مسوّغ، فهو حشد القوّة الكافية للواجب المعيّن دون إسراف ولا تبذير، ولا إفراط ولا تفريط، والثاني، هو حشد القوة الكافية للواجب المعيّن، دون إسراف ولا تبذير، ولا افراط ولا تفريط، فهما حشد القوة المناسبة للواجب المناسب، في الزمان والمكان المناسبين.

وقد طبّق مبدأ: الاقتصاد بالجهود في معاركه كافة عدا سرية ذات السلاسل على عهد النبيّ ﷺ، وحصار حصن بابليون، في فتح مصر على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، أمّا معاركه الكثيرة الأخرى في حرب الرِدّة، وفتوح الشّام، وفتوح مصر وليبيا، فاقتصر على القوات المتيسرة لديه، واستفاد من القوات المحليّة المتيسِّرة أيضاً.

وكمثال على تطبيقه مبدأ: الاقتصاد بالجهود، ما فعله بعد فتح حصن بابليون، فإنه وجّه قادته شمالاً وغرباً وجنوباً لاستكمال فتح مصر بالقوات المتيسِّرة لديه، فخاض قادته معارك استثمار الفوز التي تكون اعتيادياً بعد المعركة الحاسمة وهي معركة بابليون، واستكملوا فتح مصر، من الصَّعيد حتى الدلتا، ولم يبق غير الإسكندرية، فسار عمرو على رأس قواته لفتحها، وحقق هدفه في الفتح، دون أن يكلِّف الخليفة بقوات جديدة، فكان عمرو بحق مريحاً لقيادته العليا، لا يكلِّفها ما تطيق ولا ما لا تطيق.

ولا نعلم أنّه استمدّ الخليفة في فتح ليبيا، بل اكتفى بقواته المتيسِّرة لديه، على الرغم من طول خطوط مواصلاته وبعد المسافة الشّاسعة بين قاعدته المتقدِّمة في الفُسطاط وبين طرابلس في ليبيا.

ويبدو أنّ ثقة عمرو العالية بشجاعته وإقدامه، اختصر له الطريق في كثير من المواقف لتحقيق أهدافه بسهولة ويسر، كاقتحامه مقرات قادة الأعداء كأنّه رسول المسلمين، واقتحامه حصون الأعداء مع قليل من جنده كما اقتحم حصن الإسكندرية[1]، مما عرّض نفسه لأعظم الأخطار. ومع ذلك فقد كان عمرو في قيادته من الأمثلة الأُسوة في تطبيق مبدأ: الاقتصاد بالمجهود.

٢١. وكان عمرو: يطبِّق مبدأ: الأمن، وهو من أهم مبادىء الحرب، لتوفير الحماية لقواته ومواصلاتها، وقاية لها من مباغتة العدو لها، ومنعاً للعدو من الحصول على المعلومات عن قواته والأرض التي يقاتل عليها، ومواطن الضعف والقوّة في قوّاته عَدَداً وعُددا وتنظيماً وتسليماً وقيادة ومعنويات ومعاقل وحصونا.

فقد حرص على السُّرى ليلاً والاختفاء نهاراً كما فعل في مسير الاقتراب في سرّية ذات السّلاسل، كما حرص على عدم إبقاء النار وعدم المطاردة في تلك السرية حفاظا على أمن رجاله.

وكان يخرج المقدّمات والمجنبات والمؤخرات والسّاقات، ويستخدم الدوريات الاستطلاعية والدوريات القتالية، حفاظاً على أمن رجاله، والحصول على المعلومات عن العدو، وحرمانه من الحصول على المعلومات عن قواته وأرضه.

تلك أمثلة على تطبيقه مبدأ: الأمن، على النّطاق التعبوي، لذلك لم يستطع عدوّه أبداً مباغتة قواته ولا الحصول على المعلومات الضرورية عنها.

---

(١) فتوح مصر والمغرب (١١٤).

أما تطبيقه هذا المبدأ على النِّطاق السَّوْقي، فمظهره فتح مصر لتأمين بلاد الشّام من الجنوب والجنوب الغربي ومن الغرب باتجاه البحر، وفي فتح ليبيا لتأمين حدود مصر من الغرب، ومحاولته فتح النّوبة لتأمين مصر من الجنوب، وفتح افريقية لتأمين حدود ليبيا الغربيّة.

وهكذا كان عمرو في تطبيق مبدأ: الأمن، لا تحمي قوّاته التي بقيادته حسب، بل يحمي حدود الدولة الإسلامية على المدى القريب والبعيد.

٢٢.- وكان عمرو يطبِّق مبدأ: المرونة، وهو المبدأ الذي كان يسمى قبل الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م-١٩٤٥م) بمبدأ: قابليّة الحركة، فأصبح يُسمّى بعد تلك الحرب مبدأ: المرونة، لانّ قابليّة الحركة تدلّ على الحركة الماديّة، وهي صفة نسبيّة لا يُعبِّر عنها تعبيرا صحيحاً إلاّ بالمقارنة مع قابليّة حركة العدو.

إنّ المرونة تعني أكثر من ذلك، إنّها لا تتضمنّ قوّة الحركة حسب، بل قوّة العمل السّريع كذلك، فعلى القائد أن يكون مرن الفكر، وعليه أن يطبِّق تلك المرونة عند وضع الخطط لحملته، وأن تكون خططه بشكل يمكِّنه من أن يعدِّل سريعاً في عمليات قوّاته حين تضطرّه الظروف التي لم تكن بالحُسبان.

ولعلّ من نافلة القول إثبات ما كانت تتمتع به خطط عمرو التعبويّة والسّوْقية من مرونة، كما كانت المرونة تسيطر على تطبيق تلك الخطط في ميادين القتال. فقد كان عمرو ألمعيّ الذكاء، حاضر البديهة، واسع الأفق، عاقلاً متّزناً مجرِّباً قارئاً كاتبا، ونتيجة لكلِّ ذلك كانت قراراته سريعة صحيحة، وخططه موفّقة سليمة، والموقف يتبدّل بسرعة في القتال تارة وببطء تارة أخرى، فكانت خطط عمرو مرنة جداً لتناسب المواقف المتبدِّلة باستمرار في المعركة، لذلك كانت خططه

ناجحة للغاية في مجال التطبيق العملي.

وقد كان يستفيد من الفرسان بما عرف عنهم من قابلية سريعة للحركة واندفاع في تحمّل الواجبات التي تحتاج إلى سرعة الحركة لإنجازها، كما فعل بعد فتح طرابلس، حيث فتح صبراتة بسرعة الحركة كما ذكرنا.

٢٣. وكان يطبِّق مبدأ: التّعاون وهو توحيد جهود الطاقات القتالية لبلوغ الغرض المطلوب من المعركة.

ولكن تعاون عمرو كان يشمل نطاقاً أوسع من توحيد جهود المقاتلين لإحراز النصر، فقد كان متعاوناً مع قيادته العليا، ومع القادة العامِّين من أنداده، ومع صنوف جيشه، ومع قادته المرؤوسين، ومع السّكان المحليين أيضاً، لتحقيق هدفه الأول وهو إحراز النصر، مع تحقيق أهدافه الأخرى في العلاقة الاجتماعية والاخّوة الدينيّة والإفادة من القادرين على القتال محليّاً لدعم جيشه بالرجال والقضايا الإدارية.

فقد كان عمرو متعاوناً مع قيادته العليا (الخليفة) تعاوناً وثيقاً، فكان يستشير الخليفة فيما يعترضه من معضلات، كما فعل باستشارة عمر ابن الخطّاب في أسرى منطقة الإسكندرية، فأمر عمر بردِّهم بعد أن يخيّرهم بين الإسلام وبين البقاء على دينهم[١]، كما ذكرنا ذلك. وكما فعل باستشارة عمر بن الخطاب في قسمة أرض مصر، فأمر عمر بأن تبقى غير مقسّمة ويبقى ريعها للمسلمين كافة لا لقسم منهم[٢]، وكما استشاره في الإقدام على فتح افريقية فلم يوافق عمر على فتحها في حينه[٣].

---

(١) فتوح مصر والمغرب (١٢٢-١٢٣).

(٢) النجوم الزاهرة (١/٣٥).

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٣٢).

وكان عمرو متعاوناً مع القادة العامين من أمثاله وأنداده كأفضل ما يكون التعاون، فقد عقد أبو بكر الصدِّيق لأبي عُبيدة بن الجرّاح وعمرو بن العاص وشُرحبيل بن حَسَنة ويزيد بن أبي سفيان ألوية لفتح بلاد الشام، وكان لكلٍّ قائد من أولئك القادة قيادته المستقلّة على منطقته الخاصة به من بلاد الشّام، وكان عمرو على فلسطين، فإذا اجتمع قائدان أو أكثر في منطقة من مناطق الفتح، كان القائد العام على الجميع هو قائد تلك المنطقة[1]، فتعاون عمرو مع أشقائه القادة الآخرين تعاونا وثيقاً بالرأي السّديد وبالحرب والقتال، كما تعاون مع أولئك القادة وخالد بن الوليد في معركة اليرموك تعاوناً وثيقاً، وكان هو صاحب فكرة اجتماع المسلمين في اليرموك كما أسلفنا.

وكان يجعل بحكمته وقيادته الفذة التعاون بين صنوف جيشه وثيقاً متكاملاً، وكان من ثمرات هذا التعاون الوثيق ما أحرزه المسلمون بقيادة عمرو من انتصارات متعاقبة شرقاً وغرباً.

وكان عمرو متعاوناً مع قادته المرؤوسين، فقد أرسل قادته إلى نواحي مصر بعد فتح حصن بابليون، ففتح كلّ قائد منهم المناطق التي وُكّلَ له فتحها، لأنّ عمْرا كان يتعاون معهم ويعاونهم بكلٍّ ما يحتاجون إليه للنهوض بتنفيذ واجباتهم المرسومة.

وكان يتعاون مع السكّان المحليين، كما فعل في سرية ذات السلاسل، إذ استعان بقسم من المسلمين في تلك المنطقة كما ذكرنا سابقاً.

وفي فتح مصر، عاونه المصريون، فكان القِبط الذي كانوا بالفَرْما أعواناً لعمرو[2]، وعاونه المقوقس[3]، كما عاونه القبط حين خرج لفتح

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٣/٣٨٧-٣٩٤) وابن الأثير (٢/٤٠٢-٤١٠).
(٢) فتوح مصر والمغرب (٨٦).
(٣) فتوح مصر والمغرب (١٠٢).

الإسكندرية فقد خرج معه جماعة من رؤساء القِبْط: أصلحوا للمسلمين الطُّرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الرُّوم[1].

ولا يمكن أن نجد قائدا في التاريخ العسكريّ القديم أو الحديث، تعاون مثل هذا التعاون الوثيق على أوسع نطاق، مع مَنْ فوقه، ومع منْ يساويه، ومع مرؤوسيه قادةً وجندا، ومع السكان المحليِّين من عرب وعجم، ومسلمين وغير مسلمين، فقد عهدنا أكثر القادة يكون متعاوناً مع مَن فوقه ولا يكون مع أنداده ومرؤوسيه، ومنهم من لا يتعاون مع من هو أعلى منه ويتعاون مع أنداده ومرؤوسيه، وما أقل القادة الذين تعاونوا مع السكّان المحلّيين.

ولكن عمرو، في عقليّته الراجحة، وكياسته، وحصافته، ودهائه، وبُعْد نظره، وهو قبل ذلك وبعد ذلك آلِفٌ مألوف، سريرته كعلانيته، وعلانيته كسريرته، يعرف حقوقه وواجباته، فيؤدي واجباته، ويطالب بحقوقه، لا يعتدي على أحد، ولا يرضى أن يعتدي عليه أحد أو على غيره من الناس.

٢٤. وكان يطبّق مبدأ: إدامة المعنويّات، وهي الصفات التي تميِّز الرجال الملتزمين بالعقيدة الرّاسخة والضبط المتين، بها تظهر الطّاعة القائمة على الحبّ، وتبرز الشّجاعة في القتال والصبر على تحمّل المشاق وتبرز المزايا التي تجعل المقاتل مطيعا باسلاً صبورا.

وقد كان رجال عمرو من الصّحابة والتابعين، من القرن الأول الهجريّ، خير القرون على الإطلاق، المتميِّز بالإيمان الراسخ والجهاد في سبيل الله والتضحية والفداء.

---

(١) فتوح مصر والمغرب (١٠٧).

حاصر عمرو حصن بابليون، فلما أبطأ الفتح عليه، قال الزُّبير بن العوّام: «إني أهب نفسي لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين»، فوضع سُلَّماً إلى جانب الحصن، ثمّ صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيرة أن يجيبوه جميعاً. فما شعر المسلمون إلا والزبير على رأس الحصن يكبِّر ومعه السيف، وتحامل الناس على السُلَّم حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن ينكسر، ولما اقتحم الزّبير، وتبعه مَنْ تبعه، كبّر وكبّر مَنْ معه، وأجابهم المسلمون من خارج الحصن، لم يشك أهل الحصن أنّ المسلمين قد اقتحموا الحصن جميعاً، فهربوا. وعمد الزّبير وأصحابه إلى باب الحصن، ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن[1].

ولما حصر المسلمون حصن بابليون، كان عُبادة بن الصّامت في ناحية يُصلي وفرسه عنده، فرآه قوم من الرّوم، فخرجوا إليه. ولما دنوا منه سلّم من صلاته، ووثب على فرسه، ثم حمل عليهم. ولما رأوه غير مُكَذِّب عنهم ولّوا راجعين، وتبعهم، فجعلوا يلقون مناطقهم ومتاعهم ليشغلوه بذلك عن طلبهم، فلا يلتفت إليهم، حتى دخلوا الحصن. ورُمي عُبادة من فوق الحصن بالحجارة فرجع. ولم يَعْرِض لشيءٍ ممّا كانوا طرحوا من متاعهم حتى رجع إلى موضعه الذي كان به، فاستقبل الصّلاة، وخرج الرّوم إلى متاعهم يجمعونه[2].

وقتل أحد المسلمين أحد جنود الرّوم، فلم يبال بالذي قتله، ولم يرغب في سَلَبه، ولم ينزعه عنه، وقد كان سَلَبه ثياب الديباج وعصابة من الذّهب، ولم يطلب دابّته، ولم يلتفت إلى شيءٍ من ذلك، وهو يرفع صوته بالقرآن الكريم، وانصرف حتى بلغ خيمته، فنزل عن فرسه،

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٩٤-٩٥).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٩٣-٩٤).

فربطه، وركز رمحه، ولم يُعلم احداً من أصحابه[١].

تلك نماذج من رجال عمرو الملتزمين بالعقيدة الرّاسخة، ومن الطبيعيّ أنّ رجاله ليسوا جميعاً كالزبير في شجاعته وكعبادة وصاحبه في تعفّفهما، ولكن الأكثرية كذلك، والحكم للأكثرية على كلّ حال.

ولما حاصر المسلمون الإسكندرية، قال صاحب المقدّمة: «لا تعجلوا، حتى آمركم برأيي»، فلما فُتح الباب دخل رجلان من رجاله، فقُتلا، فبكى صاحب المقدّمة، فقيل له: «لِمَ بكيتَ وهما شهيدان؟!»، فقال: «ليت أنّهما شهيدان! لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنّة عاصٍ، وقد أمرتُ ألا يدخلوا حتى يأتيهم رأيي، فدخلوا بغير إذني**»[٢].

وقد علمتَ أنّ أصحاب عمرو في سرية ذات السّلاسل، جمعوا حطباً يريدون أن يصطلوا ليلاً، وهم شاتون في أرض باردة، فمنعهم عمرو، فشق ذلك عليهم حتى كلّمه في ذلك بعض المهاجرين فغالظه، فقال عمرو: «أُمِرْتَ أن تَسْمع لي وتطيع!»، قال: «فأفْعَلْ»[٣].

أما تحلّي عمرو بالضبط المتين، فقد ذكرناه في مكانه، وهو ضبط متين إلى أبعد الحدود.

وتلك نماذج من رجال عمرو بالضبط المتين، وهو ضبط يعتبر مفخرة من مفاخر جيش المسلمين في الصّدر الأول للإسلام، بل يمكن اعتباره مثالاً رائعاً يُحتذى في كل زمان ومكان في كلّ جيش قديم وحديث.

---

(١) فتوح مصر والمغرب (١١٠-١١١).

(٢) فتوح مصر والمغرب (١١٣).

(٣) انظر التفاصيل في مغازي الواقدي (٢/٧٦٩-٧٧٤) والسيرة الحلبية (٣/٢٧٣) وتاريخ الخلفاء للسيوطي (٧٢).

فلا عجب أن يصبر رجال عمرو على تحمّل المشاق صبراً جميلا، وأن يستقتلوا في ميادين القتال، فتنتصر الفئة القليلة على الفئة الكبيرة بإذن الله، ولكن بعد أن تساقط المجاهدون شهداء، فكانت نسبة الشهداء في مسيرة حروب الردّة والفتوح من الصحابة ثمانين بالمائة، إذ كلّ خمسة منهم، مات واحد منه حتف أنفه على فراشه، واستشهد أربعة منهم في ساحات الجهاد.

ولكنّ القول بأنّ العقيدة الراسخة والضّبط المتين ترفع معنويات المقاتلين لا يُغني عن كلِّ قول، فالواقع أن صفات القائد المتميِّزة في الشجاعة والاقدام والذكاء والمزايا الأخرى التي ذكرناها التي تجعل منه أسوة حسنة لرجاله، عامل مهم من عوامل رفع المعنويات وإدامتها.

كما أنّ القائد المجرِّب المنتصر الذي يقود رجاله من نصر إلى نصر، عامل مهم جداً من عوامل رفع المعنويات وإدامتها.

وقد ذكرنا مزايا قيادة عمرو المتميِّزة التي تجعله مثالاً شخصياً لرجاله، وبتلك المزايا كان قائدا منتصراً، لم يخسر معركة خاضها، وانتصر في كلِّ معركة قادها. هذا القائد المتمكّن يقود رجالاً من ذوي العقيدة الراسخة والإيمان العميق والضبط المتين، لذلك كان القائد يطبِّق مبدأ: إدامة المعنويات، في رجال لا تزعزع معنوياتهم الخطوب والأهوال.

٢٥. وطبّق عمرو مبدأ: الأمور الإدارية، فمها تكن خطّة العمليات سليمة ومرنة ومتكاملة وقابلة للتطبيق بنجاح، إلا أنّها لا يمكن أن تُؤتي ثمراتها المتوقّعة إلا إذا كانت مستندة على خطّة إداريّة سليمة ومرنة ومتكاملة وقابلة للتطبيق أيضاً.

إن خطّة العمليات والخطّة الإدارية متكاملتان، بل هما خطّة واحدة لا تختلفان إلاّ بالاسمين فقط، فلا قيمة لخطّة حركات بدون خطّة

إدارية، ولا قيمة لخطّة إدارية بدون خطّة حركات.

وقد كان عمرو يهتم بالخطّة الإدارية اهتمامه بخطّة الحركات: الإعاشة، الأرواء، التجهيز، التسليح، الطبابة، الفَعَلة، النّقل، البريد، العطاء.

لقد كان أغنياء المسلمين يؤمنون إعاشتهم وإعاشة الفقراء من المسلمين، وكان المجاهدون يحملون زادهم معهم ما استطاعوا، ويتزودون محلّياً أيضاً، وكان المقاتلون يستفيدون من المغانم في إعاشتهم، وكانت نساء المسلمين المرافقات لأزواجهنّ يعملن في إعداد الطعام والتموين لذويهن ولغيرهم أيضاً، أما الذي لا ترافقه امرأة ولا تعاونه امرأة في إعداد طعامه، فإنّه يُعدّ طعامه بنفسه، فقد كان الطعام بسيطاً واعداده سهلا.

وقد اكتفى عمرو في فتوح الشام بتزويد رجاله بالأرزاق محلّياً، أما في فتح مصر فلم يقتصر عمرو على الاكتفاء المحليّ بالأرزاق، بل زادت أرزاقه على حاجة رجاله بعد فتح مصر، فأرسل قسماً منها إلى مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة كما ذكرنا.

كما استطاع تزويد رجاله بالأرزاق في فتح ليبيا من الانتاج الليبيّ، وكانت ليبيا غنيّة بالحبوب بخاصة.

اما العلف، فقد كان متيّسراً محليّاً في بلاد الشّام ومصر وليبيا، فلم يكن علف حيوانات الركوب والنقل بالنسبة لعمرو يشكّل مشكلة إداريّة في مرحلة الفتوح، وربما عاني بعض الصعوبات في تأمين العلف محلّياً في حرب الردّة، لأنّها كانت في منطقة صحراويّة.

ولا نعلم أنّ رجال عمرو عانوا من نقص في الأرزاق، ولا عانت حيواناتهم من نقص في العلف، مما يدلّ على أن أمور الإعاشة كانت تجري بدون مشاكل تُذكر.

كما أن الأرواء كان ميسوراً في مرحلة الفتوح الشاميّة والمصرية، ومن المحتمل أن جيش عمرو عانى صعوبات في الارواء في قسم من مناطق ليبيا الصحراويّة.

وكانت النساء ينهضنّ بواجب الارواء، فهو واجب من واجباتهنّ في الحرب، كنّ يمارسنه قبل الإسلام، واستمروا على ممارسته بعد الإسلام أيضاً.

وكان تجهيز المقاتلين بالألبسة يقع على القادرين منهم على الانفاق، الذين يكسون أنفسهم ويكسون الفقراء منهم، وكانت الغنائم توزّع على الذين شهدوا القتال، ومن هـذه الغنائم صنوف الأقمشة والتجهيزات والملابس وعُدّة الحيوانات، وكان عمرو يفرض في شروط الصلح بعض الألبسة للمقاتلين، كما فعل عندما فتح حصن بابليون: «فرض عليهم عمرو - على أهل الحصن ومن حوله - لكلِّ رجل من أصحابه ديناراً وجُبَّة وبُرْنُساً وعمامة وخُفَّيْن، وسألوه أن يأذن لهم أن يهيئوا له ولأصحابه - أي لعمرو وأصحابه - صنيعاً - أي طعاماً - ففعل»[1].

أما تسليح المقاتلين، فكان على الأغنياء الذين يسلّحون أنفسهم ويسلّحون مَنْ يستطيعون تسليحه من المقاتلين. والذين لا سلاح لهم. يُسلحون من مستودع السّلاح التابع لبيت المال. كما أن الغنائم تكثّف تسليح المسلمين المقاتلين في أعقاب كلِّ نصرٍ جديد.

وقد كان مع رجال عمرو في فتح مصر وليبيا عدا الأسلحة التقليدية، وهي السيوف والرماح، كان معهم المنجنيقات أيضاً، فقد ألحّ

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٨٨).

على حصن بابليون ووضع عليه المنْجَنِيق[١]، واستخدم المنجنيق في حصار الإسكندرية[٢]، واستخدمه في أماكن أخرى.

لقد كان تسليح رجال عمرو جيّدا.

أما الطبابة، فقد كان مع الجيش أطباء من العرب، يرثون هذه المهنة أباً عن جدّ، ويعالجون الأمراض الطارئة والجّرحى، وكان للنساء في تمريض الجرحى أثر كبير، وكانت المرأة تختصّ بمهنة تمريض الجرحى، فينقل الجريح إلى خيام في الخلف، ويعالج، وتسهر النساء عليه حتى يشفى.

وكان مع جيش عمرو الفَعَلة لتمهيد الطرق ونصب الجسور وتأمين العبور، وقد استعان عمرو برؤساء القِبط في طريقه لفتح الإسكندرية، فأصلحوا له الطرق، وأقاموا له الجسور والأسواق[٣].

وكان عمرو يعتمد الخيل والجمال بالدرجة الأولى، والحمير والبغال، بالدرجة الثانية، في تنقّله من مرحلة إلى أخرى، وفي نقل مواده التموينيّة، وكان الموسرون من المسلمين يحملون أنفسهم ويحملون مَنْ يقدرن على حمله ممّن لا يجدون ما يحملون أنفسهم عليه، ويُحمل الآخرون على إبل الصدقة وخيل الصّدقة التي هي تابعة لبيت مال المسلمين. وقد حمل عمرو كلّ رجل من رجاله لم يجد ما يحمل نفسه عليه، فقد جاءه رجل حين خرج من الشّام إلى مصر أُصيب بجمل له، فأتى إلى عمرو يستحمله، فقال له عمرو: «تحمّل مع صحابك حتى نبلغ أوائل العامر»، فلما بلغوا العَرِيش جاءه، فأمر له بِجَملين[٤].

(١) فتوح مصر والمغرب (٩٢).
(٢) فتوح مصر والمغرب (١١٣).
(٣) فتوح مصر والمغرب (١٠٧).
(٤) فتوح مصر والمغرب (٨٥).

وتتضاعف نقلية المسلمين بالغنائم، بعد كل معركة ينتصرون بها على عدوِّهم، فلا تبقى لديهم مشاكل في نقليتهم عل النِّطاق الشخصي لكل مقاتل من المقاتلين، وعلى النِّطاق الجماعيّ لكلّ جيش من جيوش المسلمين.

أما البريد، فكان بين عمرو والخليفة بصورة رئيسة في أيام حروب الردّة والفتوح، وكان قبل أن يلتحق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى بين عمرو من جهة والرّسول القائد عليه الصّلاة والسّلام من جهة ثانية.

فقد بعث عمرو إلى النبيّ ﷺ من سرية ذات السلاسل وقبل أن يشتبك بقُضاعة وَبِلِيّ رسولاً هو رافع بن مكِيْث الجُهَنِيّ يخبره أنّ للمشركين جمعا كثيراً ويستمدّه، كما ذكرنا ذلك عند الحديث على غزوة ذات السّلاسل.

وبعث عمرو إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بشيراً بفتح الإسكندرية فلما قدم على عمر أخبره بفتح الإسكندرية، فخرّ عمر ساجداً وقال: «الحمد لله»[1].

وأنقل هنا حديث لقاء معاوية بن حُديج بعمر بن الخطّاب لطرافته وفائدته، ولعله يكون عبرة لمن يعتبر من الحاكمين.

قال معاوية بن حُدَيْج: «بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطّاب بفتح الإسكندرية، فقدمت المدينة في الظّهيرة، فأنخت راحلتي[2] بباب المسجد، فبينما أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطّاب، فرأتني شاحبا عليّ ثياب السّفر، فأتتني، فقالت: مَنْ أنت؟

---

(١) فتوح مصر والمغرب (١١٩).

(٢) الراحلة من الإبل: الصالح للأسفار والأحمال.

فقلت: أنا معاوية بن حُدَيْج، رسول عمرو بن العاص، فانصرفت عني، ثم أقبلت تشتدّ، أسمع حفيف إزارها على ساقها، حتى دنت مني فقالت: قُمْ فأجِبْ، أمير المؤمنين يدعوك! فتبعتها، فلما دخلت فإذا بعمر بن الخطّاب يتناول رداءه بإحدى يديه، ويشدّ إزاره بالأخرى، فقال: ما عندك؟ قلت: خير يا أمير المؤمنين! فتح الله الإسكندرية. فخرج معي إلى المسجد، فقال للمؤذّن: أذّنْ في الناس: الصّلاة جامعة. فاجتمع الناس، ثم قال لي: قُمْ فأخبر أصحابك! فقمت فأخبرتهم. ثم صلّى، ودخل منزله، واستقبل القِبْلة فدعا بدعوات، ثمّ جلس، فقال: يا جارية! هل من طعام؟ فأتت بخبز وزيت، فقال: كُلْ! فأكلت على حياء ثم قال: يا جارية! هل من تمر؟ فأتت بتمرٍ في طبق، فقال: كُلْ، فأكلت على حياء، ثمّ قال: ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟ قال: قلت أمير المؤمنين قائل[1]! قال: بئس ما قلت أو بئس ما ظننت، لئن نمت النّهار لأُضَيِّعَنَّ الرَّعيّة، ولئن نمتُ الليلَ لأُضَيِّعَنّ نفسي، فكيف بالنّوم مع هَذين يا معاوية[2].

ولا أريد أن أعلّق على هذا الكلام، لئلا أفسد ما فيه من معانٍ سامية وروحانية رفيعة، ولكن لا بأس من أن أتمنى أن يعتبر به الحكّام، ففيه عِبَر كثيرة لمن يريد أن يعتبر قبل فوات الأوان.

وكان البريد حينذاك بسيطاً غير معقّد، وسيلته البعير للمسافات البعيدة الشاسعة، والحصان للمسافات غير الشّاسعة وبخاصة التي تتّسم بطابع أهمية السّرعة في نقل الأخبار والمعلومات.

---

(١) قائل: نائم في الظهيرة.

(٢) فتوح مصر والمغرب (١١٩-١٢٠).

أما العطاء، فقد فرض عمر بن الخطّاب العطاء من بيت مال المسلمين لكلِّ مسلم ومسلمة وصبي من المسلمين، وذلك سنة خمس عشرة الهجريّة، فبدأ بالعبّاس بن عبد المطّلب عمّ النبيّ ﷺ، ثمّ فرض لأهل بَدْرٍ خمسة آلاف خمسة آلاف، ثم فرض لمن بعد بدْرٍ إلى الحُدَيْبِيَّة أربعة آلاف أربعة آلاف، ثم فرض لمن بعد الحُدَيْبِيَّة إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردّة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف، في ذلك مَنْ شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومَنْ وَلِي الأيام قبل القادسية، كل هؤلاء ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف، ثم فرض لأهل القادسيّة وأهل الشام ألفين ألفين، وفرض لأهل البلاء النازع منهم الفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة، وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً، ثم جعل من بقي من المسلمين طبقات، ففرض لقسم منهم خمسمائة خمسمائة، ومنهم ثلاثمائة ثلاثمائة، ومنهم مائتين وخمسين مائتين وخمسين، ومنهم مائتين، وسوى كلّ طبقة في العطاء قويهم وضعيفهم وعربهم وعجمهم.

وأَلْحَقَ بأهل بَدْرٍ أربعة من غير أهلها: الحسن والحسين وأبا ذر الغفّاري وسلمان الفارسيّ، وكان فرض للعباس خمسة وعشرين ألفاً، وقيل اثني عشر ألفاً. وأعطى نساء النبيّ ﷺ عشرة آلاف عشرة آلاف، وفضّل عائشة بألفين لمحبّة رسول الله ﷺ إيّاها، فلم تأخذ. وجعل نساء أهل بدر في خمسمائة خمسمائة، ونساء مَنْ بعدهم إلى الحُدَيْبِيَّة على أربعمائة أربعمائة، ونساء مَنْ بعد ذلك إلى الايام ثلاثمائة ثلاثمائة، ونساء أهل القادسية مائتين مائتين، ثم سوى بين النساء بعد ذلك. وجعل الصبيان سواء على مائة مائة، وقال عمر قبل موته: «لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف، ألفاً يجعلها الرجل في أهله، وألفاً يزوّدها معه، وألفاً يتجهّز بها، وألفاً يترفق بها». فمات قبل أن يفعل[1].

---

(١) الطبري (٣/٦١٣-٦١٧) وابن الأثير (٢/٥٠٢-٥٠٥).

والمبالغ المذكورة بالدراهم، يوم كانت الشّاة بنصف درهم، ويعطى العطاء سنوياً من بيت المال، ودوّن عمر بن الخطّاب الديوان[1]، الذي يضمّ أسماء المستحقين العطاء من المسلمين ومقدار استحقاقهم والجهة المسؤولة عن دفع العطاء لهم، ومكان الدّفع الذي يكون اعتيادياً في البلد الذي يعيش فيه المسلم.

والعطاء هو الرّاتب كما يُطلق عليه في العراق، والمرتّب كما يطلق عليه في مصر، ولكن العطاء يدفع لمستحقه سنوياً، والرّاتب أو المرتّب يدفع لمستحقه شهرياً.

وقد كان عمرو يدفع عطاء رجاله من بيت مال المسلمين، فيعيش به المقاتل ويعيش به أهله أسوة بالمسلمين جميعاً.

ولكن المقاتل له مورد آخر غير العطاء، فهو يأخذ نصيبه من الغنائم: سهم للراجل، وسهمان للفَرَس، أي أنّ الراجل يتقاضى سهماً واحداً، بينما يتقاضى الفارس ثلاثة أسهم: سهم له، وسهمان لفرسه.

وللمقاتل أيضاً سَلَبُ مَنْ يقتله من الأعداء: سلاحه، وتجهيزاته، وركوبه، وكان الذين يقتلون رجلاً من الأعداء يستحوذون على ما خلّفه في ساحة المعركة ويتصرّفون به بيعاً وشراء.

وكان عمرو يطبّق تعاليم العطاء والغنائم والسَّلَب، وكانت موارد بيت مال المسلمين في مصر تغطي تكاليف العطاء وتفيض عنه، فيرسل عمرو ما يفيض من الأموال إلى عاصمة الدول الإسلامية: المدينة المنوّرة.

أما عطاء عمرو، فقد جعله عمر بن الخطّاب مائتي دينار كما ذكرنا، إذ كتب إلى عمرو: «انظر مَنْ كانَ قِبَلِكَ ممّن بايع النبيّ ﷺ تحت

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٣٠٠).

الشجرة، فَأَتِمَّ له مائتي دينار، وأَتَمَّ لنفسك بإمارتك مائتي دينار، ولخارجة بن حُذافة بشجاعته، ولقيس بن العاص[1] بضيافته»[2].

وقد تكرّر ذكر النِّساء في النهوض بالأمور الإدارية أيام الحرب، إذ يكون مجمل واجبهن في القتال: تموين المقاتلين والعناية بالمرضى والجرحى بعد نقلهم من الميدان إلى الخطوط الخلفية، والمشاركة بالقتال إن حزب الأمر وأملت الضرورة القصوى ذلك.

وفي صحيح البخاري، (باب غزو المرأة في البحر)، أن ابنة مِلْحَان[3] تزوجت عُبادة بن الصَّامِت، فركبت البحر مع بنت قَرَظَة[4].

وانظر: (باب حمل الرجل امرأته في الغزو دون بعض نسائه)، وفيه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «أنّ النبيّ ﷺ كان إذا أراد أن يخرج أقرع بين نسائه، فأيتهنّ يخرج سهمها خرج بها النبيّ ﷺ، فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع النبيّ ﷺ بعدما أنزل الحجاب».

وانظر: (باب غزو النِّساء وقتالهنّ مع الرِّجال)، وفيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما كان يوم أُحُد، انهزم الناس عن النبيّ ﷺ. ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأمّ سليم وإنها لمشمرتان، أرى خَدَم[5] سوقهما تَنْقُزان[6] القرب»[7]، وقال غيره: تنقلان القرَب

---

(١) في اسد الغابة (٤/٢١٩): قيس بن أبي العاص، شهد فتح مصر، وولي قضاء مصر لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه.

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٢٦١).

(٣) أمّ حرام بنت ملحان، انظر سيرتها في الاستيعاب (٤/١٩٣١).

(٤) هي فاختة بنت قريظة من بني نوفل بن عبد مناف، زوج معاوية بن أبي سفيان. كانت مع زوجها في فتح قبرس، انظر الاستيعاب (٤/١٩٣١).

(٥) خدم: الخلاخل، وانظر سيرة أم سليم في طبقات ابن سعد (٨/٤٢٤) وأسد الغابة (٥/٥٩١) والإصابة (٨/٢٤٣) والاستيعاب (٤/١٩٤٠).

(٦) تنقزان: تسرعان المشي كالهرولة، وتثبان، والنقز: الوثب والقفز.

(٧) القرب: جمع قربة، من جلد لحمل الماء.

على متونها ثم تفرغانه في أفواه القوم »، وانظر أيضاً: (باب حمل النِّساء القِرَب إلى الغزو).

وانظر: (باب مداواة النِّساء الجرحى في الغزو) وفيه عن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ[1] قالت: «كنا مع النبيّ ﷺ نسقي ونداوي الجرحى ونردّ القتلى ».

وانظر: (باب ردّ النِّساء الجرحى والقتلى)، وفيه عن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ قالت: «كنا نغزو مع النبيّ ﷺ، فنسقي القوم، ونخدمهم، ونردّ القتلى والجرحى إلى المدينة ».

قال الفقهاء رحمهم الله: إنّ الجهاد فرض كِفاية، ولا يجب على أصحاب الأعذار لأعذارهم، ولا يجب على المرأة لأنّها مشغولة بحقّ زوجها، وحقّ العبد مُقَدّم على حقّ الله. ويدلّ هذا على أنّ الزّوج إذا أَذن لامرأته أن تخرج مجاهدة أو أخذها معه في الجهاد، لا يكون عليه ولا عليها من بأسٍ في ذلك. ويدلّ ذلك أيضاً على أن المرأة إذا لم تكن ذات زوج تشتغل بحقّه، فهي والرّجل في وجود الجهاد سواء.. وهذا كلّه إذا لم يهجم العدو، فإذا هجم العدو، وجب على جميع الناس أن يخرجوا للدِّفاع عن الحوزة[2].

وكان عمرو قد أخرج امرأته رَيْطَة أم عبد الله بن عمرو بن العاص في حركته من الفسطاط إلى الإسكندرية لفتح الإسكندريّة، وكانت معه في حصار الإسكندرية، فلما تحرّج موقف المسلمين، وأصبح الموقف خطيراً، قال لعمرو أحد رجاله محذِّراً: «إنّ العدوّ قد غشّوك، ونحن

---

(١) الربيع بنت معوذ الأنصارية: انظر سيرتها في طبقات ابن سعد (٤٤٧/٨) وأسد الغابة (٤٥١/٥) والإصابة (٧٩/٨) والاستيعاب (١٨٣٧/٤).

(٢) انظر التفاصيل عن ذلك في: فتح الباري بشرح البخاري (٥٧/٦-٦٠) بولاق - ١٣٠٠ هـ.

نخاف على رائطة »، يريد امرأته رَيْطة. فقال عمرو: «إذن تجدون رِياطاً كثيرة »[٢]، يريد أنه سيثبت مهما يكلّفه الأمر من تضحيات.

وقُبيْل حصار الإسكندريّة، خاض عمرو معركة الكِرْيَوْن التي مرّ ذكرها، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص على المقدَّمة، فأصابت عبد الله جراحات كثيرة، فصلّى عمرو برجاله يومئذ صلاة الخوف: بكل طائفة ركعة وسجدتين[٣]، فلا بدّ أن رَيْطة أمّ عبد الله مرّضته وداوت جروحه ورعته حقّ رعايته.

ومن الواضح أنّ قسماً من رجال عمرو رافقتهم نساؤهم، فنهضن بواجباتهنّ الإداريّة كما نهضت زوج القائد عمرو بتلك الواجبات.

٢٦. إنّ عمرو كان يطبّق مبادىء الحرب بكفاية دون أن يتعلّمها في المدارس العسكرية والمعاهد والكليّات، بل تعلّمها من تجاربه في الحياة، إذ لم تكن في أيّامه وفي محيطه مدارس عسكرية ومعاهد وكليّات تلقّن مبادىء الحرب والعلوم والفنون العسكريّة بعامة، فعلّمته الحياة ما لم تعلّمه المدارس والمعاهد والكلّيات.

ولكنّ عَمْراً لم يقتصر على مزايا القيادة وصفاتها وعلى تطبيق مبادىء الحرب بكفاية، بل كان يتّسم بمزايا قيادية إضافية، من النّادر أن يتّسم بها القادة الآخرون إلاّ في عدد محدود من القادة على رأسهم الرسول القائد عليه الصلاة والســلام، وعدد محدود من قادة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري، وعدد محدود من قادة المسلمين في القرون الأخرى، وعلى رأسهم صلاح الدين الأيوبي.

أوّل هذه المزايا هي: المساواة، فقد كان عمرو يساوي نفسه بغيره،

---

(١) فتوح مصر والمغرب (١١٣).
(٢) فتو مصر والمغرب (١٠٩).

ويساوي غيره نفسه بعمرو، لا فرق بين المسلمين، فهم سواسية كأسنان المشط. وقد تسرّب عمرو أكثر من مرّة إلى مقرّات قادة أعدائه أحصى المؤرخون منها ثلاث مرات، باعتباره أحد المسلمين أو باعتباره رسول قائدهم، ولكن فطنة أولئك القادة جعلتهم يشكّون بأنه عمرو قائد المسلمين وليس رسول عمرو أو أحد المسلمين، وكان مبعث شكّهم رجاحة عقله وحصافته ومنطقه السّليم، ولكنّهم لم يقطعوا الشك باليقين، لذلك استطاع عمرو بدهائه التملّص منهم والتخلّص من خطر عظيم. ولو أنّهم أيقنوا أنّه عمرو لما تردّدوا في قتله لحظة واحدة، لأنّه كان عليهم وحده أخطر من جيش كامل، إلاّ أنّهم شكّوا، مما يدلّ على أنّ الغريب عن جيش المسلمين كان لا يفرّق بين الأمير والأجير والكبير والصغير والغني والفقير، فكلّهم سواء في المساواة المطلقة مَظْهرا.

وفي أيام حصار حصن بابليون، كان الرُّسل تمشي بين الطرفين: عمرو والمقوقس. وأتت رسُل المقوقس مقرّ عمرو، فحبسهم يومين وليلتين، حتى خاف عليهم المقوقس، فقال لأصحابه: «أترون أنّهم يقتلون الرّسل ويحبسونهم ويستحلّون ذلك في دينهم؟»، وإنّما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين. فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال لهم: «كيف رأيتموهم؟»، فكان من جملة ما قالوه: «... وأجيرهم كواحد منهم، ما يُعرَف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيِّد منهم من العبد....»[1].

إن مبدأ المساواة كان مطبقاً في مجتمع عمرو أيام السّلام، أما أيام الحروب، فكان عمرو يستأثر بالأخطار ويؤثر رجاله بالأمن، وقد اتصف قومه مَنْ قدر على الدّعة والرّخاء فاختار المشقّة والخطر، ليحمي قومه ويصدّ عنهم الأعداء.

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٩٧).

٢٧ . والمزيّة الثانية هي مزيّة الاستشارة، فقد كان عمرو يستشير أصحابه في كلّ المواقف الصّعبة، كما كان يستشيره رؤساؤه المباشرون وغيرهم من الناس.

وقد رأيت استشارة عمر بن الخطاب لعمرو في ركوب البحر، وجواب عمرو على استشارة عمر، وامتناع عمر عن ركوب البحر نتيجة لمشورة عمرو.

ورأيت استشارة عثمان بن عفّان لعمرو في الاضطرابات الداخليّة، مع أن عَمْراً يومها كان رجلاً من رجال المسلمين لا سلطة له على أحد بعد عزله عن مصر.

ورأيت استشارة معاوية بن أبي سفيان لعمرو في كثير من المعضلات التي عاناها في السّلم والحرب.

ورأيت استشارة قادة المسلمين في بلاد الشّام لعمرو في مجابهة الرّوم بعد اجتماعهم، فأشار عمرو على قادة المسلمين بالاجتماع في (اليرموك)، فكان ما أراد عمرو.

أما عن استشارة عمرو لغيره، فقد رأيت استشارته لولديه: عبد الله، ومحمد، في الالتحاق بمعاوية بن أبي سفيان، وجواب ولديه على استشارة عمرو.

واستشار عمرو أصحابه في الصلح والجزية بين المسلمين وبين المقوقس، وبعد المناقشة اجتمعوا على عهد بين المسلمين وبين المصريين[1].

واستشار مَسْلَمة بن مُخَلَّد الأنصاري في قتال حماة الاسكندرية

---

(١) فتوح مصر والمغرب (١٠٣).

لفتحها، فأشار عليه مسْلَمة بعُبادة بن الصَامِت لتولي قيادة فتح الإسكندريّة، ففعل عمرو[1].

واستشارات عمرو لغيره كثيرة جداً، اقتصرنا على ذكر نماذج منها.

وقد استشار عمرو في السّبايا والأسرى عمرَ بن الخطّاب، واستشاره في تقسيم الأرض المفتوحة على الفاتحين، كما سبق ذكره من قَبْلُ، كما استشاره بكثير من القضايا الأخرى.

لقد كان عمرو يستشيره رؤساؤه من الخلفاء، وزملاؤه من القادة، وغيرهم من الناس، فكان لا يبخل برأيه الرّصين على أحد.

وكان يستشير رؤساءه من الخلفاء، وزملاءه من القادة، وغيرهم من الناس، فيعمل بمشورتهم ما استطاع.

ولم يكن يتحيّز لرأيه ولا يتعصّب لفكره، بل كان يحاول الأخذ بكلّ رأي راجح مهما يكن مصدره ومكانة صاحبه الاجتماعية.

لقد كان يتقن فنّ الاستشارة، وهو فنّ لا يتقنه إلاّ ذوو العقول والأحلام.

٢٨ . والمزيّة الثالثة والأخيرة من مزايا عمرو القياديّة، الأسلوب القتالي المتميِّز الذي استخدمه عمرو في حروبه، فهو لا يشابه أسلوب مَنْ قبله من القادة، ولا أسلوب مَنْ عاصره من القادة، ولا أسلوب من جاء بعده من القادة.

هذا الأسلوب القتاليّ المتميِّز الفريد، الذي اختصّ به عمرو دون سواه، أو ركّز عليه في عمليّاته الحربية كافة أكثر من غيره من القادة، حتى يمكن أن نطلق عليه: الأسلوب العَمْرِيّ في القتال، يتلخّص في: استعمال سلاح العقل أولاً، واستعمال السلاح ثانياً، بمعنى: أنّ سلاح

---

(١) فتوح مصر والمغرب (١١٦).

العقل يجب أن يعمل عمله في العدو أولاً، فإذا انتصر هذا السّلاح بدون الأسلحة الأخرى، فذلك هو المطلوب، وإلا أكملت الأسلحة الحربيّة عمل سلاح العقل، لإحراز النصر بالسلاحين معاً: سلاح العقل، والسّلاح التقليدي ثانياً.

وكان عمرو يصول بسلاح العقل في كلّ معركة خاضها بما يناسبها من تعبية، تفيد رجاله وتوحِّدهم وتضاعف من قوتهم وترفع من معنوياتهم، وتضرّ عدوّه وتفرِّقهم وتقلّل من قوتهم وتزعزع معنوياتهم، فيكون لرجاله بفضل سلاح العقل الغُنْم دوماً، ويقع على عدوّه بتأثير هذا السّلاح فيه الغُرْم أبدا.

وكان عمرو أدهى من أن يستخدم سلاح العقل في فراغ، بل كان يستخدمه في إيجاد حقيقة راهنة، واستغلالها، وتعميق أثرها وتأثيرها، ثم توجيهها الوجهة التي يريد لمصلحة المسلمين ومصلحة الفتوح، ومصلحة فئته أيضاً، كما فعل في استعمال سلاح العقل لمصلحة فئته في الفتنة الكبرى.

قبل سرّية ذات السّلاسل، استغل عمرو قرابته لبني بَلِيّ إحدى القبائل المستهدفة، لأنّهم تجمّعوا وقُضاعة يريدون أن يدنوا إلى أطراف النبيّ ﷺ، وكانت أم العاص والدة عمرو من بَلِيّ، فكان بنو بَلِيّ من أخوال عمرو. واتّصل ببني بَلِيّ واستثار فيهم حميّتهم القبلية وصلة القرابة به، واستفاد من المعلومات التي نقلوها عن تجمّعات قُضاعة قبل نشوب القتال، فعلم أنه لا يقدر عليهم بقواته الراهنة، فاستمد النبيّ ﷺ، فلما جاءه المدد، تعرّض بقضاعة في الوقت والمكان المناسبين، فأدّى ذلك إلى انتصاره، وكان من أسباب النصر حصوله على المعلومات المبكِّرة عن عدوِّه، وحرص بَلِيّ على معاونته ونصره وعدم حرصها على معاونة قضاعة ونصرها، وكان لسلاح العقل الذي سخّره

عمرو قبل نشوب القتال وفي أثنائه، أثر حاسم في تسخير بَلِيّ لمعاونته مادياً ومعنوياً.

وفي حرب الرِدّة، كان ميدان عمليّات عمرو قُضاعة وَبَلِيّ أيضاً، وهو ميدان عمليات سرية ذات السّلاسل، فاستغلّ عمرو بسلاح العقل الذين بقوا على إسلامهم في المنطقة، كما استغلّ المتردِّدين الذين حاروا بين الإسلام والرِدّة، كما استغلّ المتفرِّجين الذي لا يهمّهم من أمر الحرب شيء، هذا بالإضافة إلى استغلاله أخواله بني بَلِيّ واستفادته من تجربته المستفيضة في سرية ذات السّلاسل، فقد عرف تلك المنطقة معرفة تفصيليّة دقيقة، وسخّر تلك التجربة الثمينة في حربه الجديدة.

واستغل الذين ثبتوا على الإسلام، فضمّهم إلى صفوف رجاله، واستفاد من خبرتهم المفصّلة بالمنطقة والمرتدين.

واستغلّ المتردِّدين الحائرين بين الإسلام والرِّدة، فأقنعهم بالثّبات على الإسلام لمصلحتهم الدينويّة والأخروية، وخوَّفهم من نتائج ردّتهم على مصيرهم ومصير ما يملكون، فاستمال المتردِّدين وضمّهم إلى صفوف رجاله، واستفاد من خبرتهم العمليّة المفصّلة بالمنطقة والمرتدين.

واستغلّ المتفرِّجين وأقنعهم بفوائد انحيازهم إلى المسلمين لحاضرهم ومستقبلهم ودينهم ودنياهم، فانحاز أكثرهم إلى صفوف رجاله، واستفاد من معلوماتهم المفصّلة عن الأرض والعدو.

وكان له بنو بَلِيّ أخواله، كما كانوا له في سرية ذات السّلاسل، فما قصّروا في إعانته وعونه في شيء، وكانوا عند حسن ظنّه بهم.

وهكذا ربح بسلاح العقل نصف المعركة، قبل أن ينشب القتال، فلما نشب أحرز النّصر بسهولة ويسر، لأنّه فرق عدوّه وأضعفه، ووحّد رجاله وقوّاهم.

وفي معارك فتوح الشّام، استفاد عمرو من خبرته بطبيعة أرض

الشّام وبقسم من الرهبان والتّجار والعرب الغساسنة من سكانها نتيجة لرحلاته المتكررة إلى بلاد الشام في تجارته.

واستغلّ خبرته بطبيعة أرض الشّام بمشورته لاجتماع المسلمين باليرموك، كما استغل خبرته بطبيعة الأرض في معاركه الأخرى في فتوح الشّام.

واستغلّ معرفته بقسم من الرهبان والتّجار والعرب الغساسنة في الحصول على المعلومات منهم عن الرّوم: قيادتهم، ونيّاتهم، وعَدَدهم، وعُدَدِهم، ومواطن قوّتهم وضعفهم.

ولكنّ استغلاله للعرب الغساسنة من أهل الشّام كان أكثر أثراً وأبعد تأثيراً، فقد ذكّرهم أنّ عزّ الإسلام عزّ للعرب كافة في كلّ مكان. وأنّهم إذا أسلموا كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، أما إذا بقوا على دينهم فلأهل الذمّة في الإسلام مكان عظيم، ولأهل الكتاب مكانة عظيمة، ولا إكراه في الدين.

وأشاع ما جاء به الإسلام من العدل المطلق، والمسلمون والرّوم ليسوا في العدل سواء، فلا ظلم في الإسلام.

وقارن بين الضرائب التي يتقاضاها الرّوم، والجزية التي يتقاضاها المسلمون من الذين يحافظون على دينهم ولا يعتنقون الإسلام، والفرق المادي بين الضرائب الروميّة والجزية الإسلامية فرق جسيم.

وقد أدّى قبول المسلمين خوض المعركة في أرض تناسبهم هي أرض اليرموك ولا تناسب عدوّهم، إلى تهيئة سبب مهم جداً من أسباب إحراز النّصر.

وأدّى اجتماع المسلمين في مكان واحد، بقيادة واحدة في اليرموك، إلى حشد قوتهم وحرمان عدوِّهم من ضرب جيوشهم على انفراد، ليسهل عليه التغلّب عليها واحدة بعد أخرى ويزدردها لُقمة بعد لُقمة.

وأدّى حصوله على المعلومات المفّصلة عن العدو والأرض، إلى وضع خطّة متكاملة لهزيمة العدو في المكان والزّمان المناسبين.

وأدّى إلى استثارة الرّحم العربيّ بين العرب المسلمين القادمين من الصحراء والعرب غير المسلمين في بلاد الشّام، إلاّ أن عرب الشام لم يقاتلوا عرب الجزيرة كما ينبغي، ولم يؤيِّدوا حلفاءهم الرّوم كما يجب، وقاتل مَنْ قاتل منهم خوفاً من العقاب لا قياماً بالواجب، وشتان بين مَن يقاتل خوفاً من العقاب وبين مَن يقاتل للقيام بالواجب.

وأدّى تطلّع المسحوقين من أهل البلاد إلى عدل المسلمين، إلى عدم تعاونهم مع الرّوم أو وقوفهم على الحياد، وكانوا على كلِّ حال قلوبهم مع المسلمين، يتمنّون أن ينقذوهم من ظلم الرُّوم إلى عدل المسلمين.

وأدّى تطلع أهل البلاد المحكومين بالاستعباد الرّومي إلى تخفيف الضرائب الثقيلة عن كاهلهم بالفتح الإسلامي، إلى اعتبار الفتح إنقاذاً واعتبار المسلمين منقذين، والناحية الماديّة تؤثر في المحكومين وتجعلهم يميلون ميلاً كاسحاً إلى مَنْ يفيدهم مادياً بتخفيف الضرائب عن كواهلهم.

ذلك بعض ثمرات سلاح العقل الذي كان يشهره عمرو قائداً في فتح أرض الشام.

وفي معارك فتوح مصر وليبيا، كانت خبرة عمرو بقتال الرّوم قد تضاعفت بعد انتصاره عليهم في معارك عدّة من معارك فتوح الشّام، فاستغلّ هذه الخبرة في معاركه الجديدة في فتوح مصر بخاصة وفتوح ليبيا بعامة.

وكان عمرو قد زار مصر في الجاهلية تاجراً، فتعرّف على طبيعتها وقسم من أهلها، كما لمس تذمّر القبْط من حكّامهم الرُّوم لفداحة ضرائبهم المفروضة على المصريين أولاً، ولتردّي الرُّوم المستعبِدين بظلم

المصريين المستعبَدِين وتذمّر المصريين من هذا الظلم ثانيا، والتناقض المذهبي بين الرّوم من جهة والقبْط من جهة أخرى ثالثاً وأخيراً، لذلك استقرّ في ذهن عمرو أنّ بالإمكان فتح مصر بسهولة ويسر نسبيّاً.

واستغلّ عمرو خبرته القديمة بطبيعة مصر ومواقعها ومواطن قوّتها ومواطن ضعفها، فكانت لهذه الخبرة فوائد لا تقدّر بثمن في حربه للرّوم على أرض مصر الطيِّبة.

واستغلّ معرفته لقسم من سكّان مصر من التجـار وغيرهم، فحصل منهم على معلومات تفصيلية عن الرّوم عدو المسلمين وعدو المصريين المشترك.

وقارن بين الجزية التي يفرضها المسلمون على المصريين الذين يبقون على دينهم، وبين ضرائب الروم المختلفة على المصريين، فأظهرت تلك المقارنة انّ ضرائب الروم أضعاف جزية المسلمين.

ولا جزية على الذين يعتنقون الإسلام، بل يصبحون جزءًا من مجتمع الأُخوّة الإسلامي، لا فرق بين مسلم وآخر في الواجبات والحقوق.

وأبرز عمرو عدل الإسلام، فهو يأمر بالعدل وينهى عن الظلم، ولا يرضى في حالٍ من الأحوال عن الظلم والظالمين.

وعمّق التناقض المذهبيّ بين الرّوم من جهة، والأقباط من جهة أخرى، ومنح الحرّية المطلقة لرئيس القبط الدينيّ الذي كان مطارداً من الروم ومختفياً عن الأنظار، كما منح المصريين الحرّية الدينية المطلقة أيضاً.

وأصبح المصريون يعلّلون أنفسهم بالتخلّص من ضرائب الروم الفادحة التي أثقلت كواهلهم، ويعلّلون أنفسهم بالتخلّص من ظلم الرّوم الذي شمل السكّان جميعاً بدون استثناء ويعلّلون أنفسهم بالتخلّص من الاكراه الدينيّ والتمتّع بالحريّة الدينيّة المطلقة، فاعتبر القبط قدوم المسلمين

لفتح مصر إنقاذاً لهم، واعتبروا المسلمين بحقٍ لهم منقذين، لذلك كانوا مع المسلمين الفاتحين بقلوبهم وعاطفتهم، وعاونوهم في الفتح وتعاونوا معهم، ولم يعاونوا الرّوم إلاّ مكرهين لا راغبين ومضطرين لا مختارين وموظفين لا متطوّعين.

لقد استعمل عمرو أسلوب سلاح العقل قبل معاركه وفي أثنائها، فكان من ثمراته انتصاراته العظيمة.

وما يقال عن فتوح مصر، يقال عن فتوح ليبيا تقريباً.

أما استعمال عمرو لسلاح العقل لمصلحة فئته في الفتنة الكبرى، في المعارك التي خاضها على الفئة الأخرى، فتلخّص في معركتين رئيستين: معركة صِفّين في العراق، ومعركة استنقاذ مصر من محمد بن أبي بكر الصدّيق عامل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه عليها.

لقد استخدم عمرو سلاح العقل قبل معركة صفّين وفي أثنائها، فقد اتّصل سراً بأصحاب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في الكوفة وغيرها في محاولة لاستمالتهم إلى فئته بالاغراء والوعود، كما كشف كثيرا من اتصالاته السريّة عمداً، وبخاصة بالنسبة للذين لم يستطع استمالتهم إلى فئته بقصد التّشكيك بينهم وبين عليّ بن أبي طالب، وقد نجح في استمالة قسم من العراقيين ونجح في انتزاع ثقة عليّ بقسم منهم.

وفي أثناء معركة صفّين، اقترح رفع المصاحف، فلما رُفعت ازداد أهل الشّام اجتماعا، وازداد أهل العراق فرقةً، ودبّ الخلاف بين أصحاب عليّ رضي الله عنه، ولم يجتمعوا بعدها أبداً.

وبذلك أنقذ أهل الشام من هزيمة شنيعة في معركة صفّين.

ولم يكن هَمٌّ بعد صفّين يُشغل عَمْراً إلا انتزاع مصر من أصحاب عليّ رضي الله عنه، فشكّل عليّاً بالولاة القادرين على السّيطرة على مصر وبالقادرين على إدارتها وضبطها، واتّصل بأصحابه في مصر - وما

أكثرهم للتجمّع والمطالبة بدم عثمان بن عفّان رضي الله عنه، فبدأت الفتن والقلاقل في مصر، ثم أخذت تتصاعد، فلما توجّه عمرو إلى مصر على رأس جيش من أهل الشّام لاستنقاذها من محمد بن أبي بكر الصدِّيق، كان قد أحرز على نصف النصر قبل أن ينشب القتال.

ولما وصل عمرو بجيشه مصر، والتقى بجيش محمد بن أبي بكر الصدِّيق، كان انتصاره مضمونا، لأنّ جيش أبي بكر أطبق عليه جيش خارجيّ قادم من الشام، وجيش داخليّ من أهل مصر، فانهارت مقاومة جيش محمد بسرعة، لأنّ عددهم كان قليلاً، ولأن خلافهم الداخلي بين أصحابه كان كبيراً، ولا ينتصر مثل هذا الجيش أبداً.

وما كاد عمرو يحلّ في قصره بالفُسطاط والياً على مصر لمعاوية بن أبي سفيان، إلاّ وانتهى أمر الانحراف والمنحرفين، وتوقّف أمر الخلاف والمخالفين، فقد كان سلاح العقل لعمرو هو الذي يستفز الانحراف ويستثير الخلاف، فلما حقق أهدافه وعاد إلى مصر وعادت إليه مصر، عاد الهدوء والأمن يسودان مصر كما كانا في ولاية عمرو الأولى، فأراح عمرو واستراح، وحقّق أمنيته الغالية العودة إلى ولاية مصر.

وقد اقتصرنا على دور سلاح العقل في معارك عمرو، ولم نتطرّق إلى نشاط عمرو في استخدام هذا السلاح في مناحي الحياة الأُخرى، فقد كان يستخدمه في السّلام كما كان يستخدمه في الحرب، وكان هذا السّلاح ملازماً له ملازمة الظل لصاحبه لا ينفك عنه ولا يستغني، فيتخلّص به من مآزق السّلام - وما أكثرها - كما يتخلّص به من مآزق الحرب، وينال به النصر في السّلام، كما ينال به النصّر في الحرب، سواء بسواء.

وإذا كان للأسلحة التقليديّة لغير عمرو من القادة الأسبقيّة المكلّفة في المعارك على سلاح العقل، فإنّ الأسبقيّة المطلقة بالنسبة لعمرو هي لسلاح العقل، فهو أولاً، والأسلحة التقليدية لها المكان الثاني، فالرأي

قبل شجاعة الشّجعان، كما قال أحد الشعراء القُدامى فهو أوّل ولها المحلّ الثاني.

وسلاح العقل الذي استخدمه عمرو في معاركه كافة، ميّز حربه على حرب غيره من القادة، فقال عمر بن الخطّاب عن حرب عمرو: «والله إنّ حربه لَلَيِّنة، ما لها سَطْوَة ولا سَوْرة كسطوات الحروب من غيره»[1].

وصدق عمر في وصف حرب عمرو، فما لها سَطْوة ولا سَوْرة، ولكن لها ثمرات يانعة كأحسن ما تكون ثمرات الحروب من غيره ذات السَّطوة والسَّوْرة: النّصر المبين.

وهنا لا ينبغي أن يظنّ أحدٌ أنّ عَمْراً وحده من القادة كان يستعمل سلاح العقل، ويجعل له الأسبقية على السلاح التقليديّ، والواقع أنّ هناك كثيراً من القادة يستعملون سلاح العقل ويجعلون له الأسبقية على السّلاح التقليدي بعد استنفاد سلاح العقل كلّ جهوده وكلّ أغراضه ومختلف طرقه وأساليبه.

واستعمال سلاح العقل أولاً إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على اعتماد القائد المطلق على نفسه وقابليته العقلية المتميِّزة بالدرجة الأولى، فهو واثق بالنصر، فلا بأس أن يحرزه بأقل ما يمكن من الخسائر في الأرواح والأموال والعرق والدماء والدّموع.

كما أنّه لا يوجد قائد لا يستعمل سلاح العقل، ولكن استعمال هذا السّلاح يكون بدرجات بالنسبة للقادة، فمنهم مَنْ يجعله في المقام الأول، ويكون السّلاح الاعتيادي في المقام الثاني، ومنهم مَنْ يجعلهم في المقام الثاني، ويكون للسّلاح الاعتيادي المقام الأول، وأكثر القادة من الصِّنف الثاني، أي من الذين يجعلون للسّلاح الاعتياديّ المقام الأول، وأقلّهم من

---

(١) ابن الأثير (٢/٥٦٧).

الصِّنف الأول، أي من الذين لسلاح العقل المقام الأول، فما كلّ قائد يثق بأنّه سيحرز النّصر إن لم يكن بالعقل فبالسيّف، وآخر الدواء الكيّ، وما دامت الحرب تجرّ بالويلات على الغالب والمغلوب، وتُكلِّف غالياً في خسائر الأرواح والأموال والممتلكات بالنسبة للمنتصر والمندحر، فهي شرّ لا مراء فيه وأمر ينبغي تجنّبه بالعقل إن استطاع القائد تجنّبه بالعقل، وتفاديه بغير الخسائر والأضرار إن استطاع القائد تفادي الخسائر والأضرار بالتي هي أحسن، وإلاّ فإذا لم يكن إلاّ الأسِنّة مركبا، فما حيلة المضطّر إلا ركوبها، كما يقول الشاعر العربيّ القديم.

٢٩. ذلك هو عمر، وتلك هي سمات قيادته، فلا عجب أن يترك بصماته على بلاد شاسعة من ديار العرب تمتد من الخليج العربيّ إلى البحر الأبيض المتوسط في حياته وتبقى بصماته من بعده حتى اليوم، وستبقى حتى يرث الله الأرضَ وَمَن عليها، لأنّ فتحه كان فتحاً مستداما لأنّه فتح مبادىء لا فتح سيوف، والمبادىء إلى بقاء، والاستعباد إلى فناء.

لقد كانت خسائر عمرو في حروبه في الفتوح من المسلمين قليلة، وكانت أرباحه للإسلام بالفتوح كثيرة، فأدّى الذي عليه قائداً من أبرز قادة الفتح الإسلاميّ وأبرز قادة المسلمين على الإطلاق منذ جاء الإسلام حتى اليوم، واذا كان هناك مجال للاختلاف في تقويمه إنساناً، فلا مجال للاختلاف في تقويمه قائداً، فقد عجزت النساء أن يلدن مثل عمرو، وهو من القادة الذين لا يتكرّرون إلا نادراً.

إنّه ليس من أعظم قادة العرب والمسلمين فحسب، بل هو من أعظم قادة الأمم الأخرى بشهادة مفكري الأمم الأخرى المنصفين.

السَّفير

عمل عمرو سفيراً في عهدين متناقضين: عهد الجاهلية، وعهد الإسلام، فقد كان سفيراً لمشركي قريش إلى النجاشيّ ملك بلاد الحبشة

في الجاهليّة، وأصبح سفيراً من سفراء النبيّ ﷺ بعد إسلام عمرو وبعد أن حسن إسلامه.

كان عمرو في جاهليّته من أشدّ الناس عداوةً للذين آمنوا، وقد قصد بلاد الحبشة مرتين سفيراً لمشركي قريش، في محاولة لتسليم المسلمين المهاجرين إلى بلاد الحبشة إلى قومهم مشركي قريش ليفتنوهم عن دينهم، وكانت سفارته الأولى إلى بلاد الحبشة بعد هجرة المسلمين إليها في السنة الخامسة من النبوة، وكانت سفارته الثانية إلى بلاد الحبشة بعد غزوة الحُدَيْبِيَّة التي لم يشهدها عمرو ولم يشهد صلحها، وكانت سفارته هذه في أواخر السّنة السادسة الهجرية أو أوائل السنة السابعة الهجريّة، فأخفق عمرو في إغراء النّجاشيّ بالهدايا الثمينة، والكلام المعسول، ومحاولة إبراز التناقض بين عقيدة النّجاشي المسيحيّة وعقيدة المسلمين المهاجرين وبخاصة في المسيح عليه السلام.

وقد بذل عمرو قُصارى جهده في سفارته ليجعل النّجاشي مع مشركي قريش على المسلمين المهاجرين إلى بلاده، ولكنّه أخفق في مسعاه إخفاقاً كاملاً، على الرغم مما بذله من جهود مضنية من أجل تحقيق هدفه. ولم يكن عمرو يتوقّع أن يخفق في مسعاه ولا كانت قريش تتوقع إخفاقه، فقد بذل عمرو كلّ ما يستطيع بشر قادر ذكيّ بذله من هدايا ومحاورة ومداورة وإقناع دون جدوى، كما أنّ مشركي قريش أوفدوا ألمع رجالهم وأقدرهم وأذكاهم وأدهاهم وأبرعهم حيلة ومكرا، فما استطاع أن يغيِّر حال المسلمين المهاجرين من الأمن إلى الخوف ومن الرّجاء إلى القنوط.

ويبدو أنّ إخفاق عمرو في سفارتيه إلى أرض الحبشة، جعله يراجع نفسه من جديد، فقد حاول صرف الناس عن الإسلام، فازداد إقبالهم عليه، وآذى المسلمين، فازداد تعلّقهم بالإسلام، ووضع العراقيل مع

مشركي قريش ليحولوا دون هجرة المسلمين، فهاجروا إلى الحبشة أولاً وإلى المدينة ثانياً، وحاول أن يؤذي المهاجرين في الحبشة، فاشتدّ عضدهم وتضاعفت مكانتهم.

وكما أخفق عمرو في محاولاته السلميّة للصدّ عن دين الله وإلحاق الأذى بالمسلمين، فقد أخفق عمرو في محاولاته الحربية لهزيمة المسلمين وتكبيدهم الخسائر المادية والمعنويّة، بل انهزم المشركون وتكبّدوا الخسائر الماديّة والمعنوية، وعاد عمرو خائباً بعد عناء لم يثمر جهده غير الاخفاق.

وهكذا عانى عمرو إخفاقاً في محاولاته للصدّ عن دين الله بالوسائل السلميَّة والحربيَّة، دون أن يدّخر وسعاً لإحراز النّجاح أو شيءٍ من النجاح في الحالتين، مما جعله يعتقد أنّ إخفاقه لم يكن نتيجة لتقصيره بل نتيجة لقوّة قاهرة، فلم يكن صراعه بين قوّته بشراً، وقوة المسلمين بشراً، بل كان صراعه بين قوّته بشراً، وقوة خالق البشر، لذلك توالت هزائمه، وتعاقبت إخفاقاته، دون تقصير منه، فأعلن إسلامه بعد يقين ناتج عن تفكير متّصل عميق، فكان إسلام عمرو كما وصفه النبيّ ﷺ: «**أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص**»، ولا عجب أن يبلغ تفكير عمرو المتّصل العميق أقصى مداه بالإسلام وانتصاراته المتوالية، والشِّرك وهزائمه المتوالية، في أرض الحبشة وأمام النّجاشيّ، فيعلن إسلامه على يديّ النّجاشيّ، كما تنصّ على ذلك المصادر المعتمدة، ثم يعود إلى مكّة ومنها إلى المدينة مهاجراً إلى الله ورسوله، ليعلن إسلامه علناً، أمام النبيّ ﷺ، بعد أن أعلنه سرّاً أمام النّجاشيّ في بلاد الحبشة.

وكان انتماء عمرو حين كان مشركاً للمشركين من قريش بخاصة وللمشركين من العرب بعامة، وكان ولاؤه لقريش من أهل مكّة المكرمة الذين ظلّوا على شركهم ولم يُسْلِموا وكان إيمانه على ما وجد عليه آباءه وأجداده من عبادة الأصنام والأوثان وما وجد عليه ذوي الأحلام من

أشراف قريش ثقة بأحلامهم التي ضلّت ضلالاً بعيداً، فضلّ كما ضلّوا تقليداً لا تفهّماً وتعصّباً لا تعقّلا، والعقيدة بعد ذلك تخصّ العواطف أكثر مما تخصّ العقول، وتداعب الوجدان أكثر مما تقارب العقل، وما تعمى الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور.

ولكن عقل عمرو عمل عمله في كشف زيف الشرك، وتكشيف عبادة الأصنام والأوثان، فاكتشف نفسه بالعقل الذي ظلّ يحاوره ويداوره ويناقشه الحساب، حتى وجد أنّ مكانه السليم ليس في صفوف المشركين، بل في صفوف المسلمين، وليس مع الشّرك بل مع الإسلام.

وقبل أن يُسْلِم عمرو كان انتماؤه للمشركين وولاؤه لقومه قريش وإيمانه بالظّلالة لا غبار عليه، وكان مخلصاً في انتمائه صادقاً في ولائه وظلاله، ومع ذلك بالإضافة إلى كفاياته الشخصيّة المتميِّزة، أخفق في سفارتيه، دون أن يكون مقصِّراً في مسعاه، ولكنّه اقتنع أنّه كان يقاوم تياراً جارفاً لا يقوى بشر على مقاومته ولا يفلح، فآثر بحصافته وعقليته الرّاجحة أن يكون مع التّيار لا عليه، فآمن عمرو وأسلم الناس.

وبدأت صفحة جديدة لعمرو بعد إسلامه، بعد أن انتهت صفحة قديمة، فأصبح انتماؤه وولاؤه للإسلام والمسلمين، وإيمانه بالإسلام وبما جاء به الإسلام في كتاب الله وسنة نبيِّه عليه الصلاة والسّلام لغةً وعقيدة وتشريعاً ومُثُلاً عليا في محاسن الأخلاق.

وتولّى عمرو بعد إسلامه سفارته الثالثة، وهي سفارته النبويّة التي كانت سنة ثمانٍ الهجرية إلى جَيْفَر وَعَبْدٍ ابْنَيّ الجُلُنْدَيّ في عُمان، وهما من الأَزْد، والمَلِك منهما جَيْفَر يدعوهما إلى الإسلام، فأسلَمَ المَلِكُ، وأسلم أخوه عَبْد،وأسلم معهما كثير من العرب أهل عُمّان.

وكان الفرق بين سفارتيه الأوليين وسفارته النبويّة عظيماً جداً، فقد كانت سفارتاه الأوليان إلى أرض الحبشة للسيطرة على المسلمين

المهاجرين المستضعفين الذين كانوا أناساً بلا غدٍ بالنسبة لهجرتهم وغربتهم وهوانهم على الناس، وكان إقناع النجاشيّ بما عرضه عليه عمرو من تسليم المسلمين المهاجرين لقريش المشركين، كفيلاً لترحيلهم عن أرض الحبشة إلى مكّة، ليلاقوا من المشركين مصيراً أسود من تعذيب وتنكيل وإهانة وقتل وصنوف مما يفعله الخصوم الألداء بخصومهم الضعفاء. أما سفارته النبويّة فكانت إلى مملكة ومَلِك ورعية، فأسلموا غير مكترثين بالمنصب الرفيع والمُلْك الواسع والرعيّة المطيعة، فأخفق في سفارته الأولى والثانية وكان نجاحه ميسوراً، ونجح في سفارته الثالثة، وكان إخفاقه متوقعاً، لأنه كان في سفارتيه الأوليين على باطل، فأخفق الباطل ولم يُخفق عمرو، وكان في سفارته النبويّة على حق، فنجح الحق ونجح بنجاحه عمرو أيضا.

وبدون شك، فقد كان مخلصاً في انتمائه صادقاً في إيمانه، في حالتي إخفاقه ونجاحه، حين كان سفيراً لمشركي قريش: ثم أصبح سفيراً للنبيّ ﷺ، ولو لم يكن مخلصاً صادقاً لما اختارته قريش المشركة لسفارتها قبل إسلامه، ولما اختاره النبيّ ﷺ بعد إسلامه، فالإسلام يَجُبّ ما كان قبله، كما قال عليه الصلاة والسلام.

تلك هي المزيّة الأولى لسفارة عمرو: الانتماء والإيمان.

أما المزيّة الثانية، فهي: الفصاحة، والعلم، وحسن الخلق.

وقد تحدّثنا عن هذه المزيّة كثيراً في الحديث على عمرو الإنسان، فلا مجال لإعادة ما تحدّثنا عنه من قبل، ونكتفي بذكر نماذج تدلّ على فصاحته وعلمه وحسن خلقه، فقد يُغني القليل هنا عن الكثير هناك، وباستطاعة مَنْ يحب التّفاصيل أن يجدها في مكانها من هذه الدِّراسة.

لقد كان عمرو عربياً، وكان العرب مشهورين بالفصاحة، ومن قريش أفصح العرب، وكان مشهوراً بالفصاحة، كما اشتهر بِحِكمه

البليغة التي ذكرنا أمثلة منها عند الحديث عليه حكيما، وكان كاتباً قارئاً بليغاً في نثره ونظمه، وقد رويت له آثار في الشّعر والخطب الطوال تسلكه بين الشعراء والخطباء المجيدين.

وكان عالماً من علماء الدين الحنيف، فقيهاً محدّثاً، مجتهداً في الدين، من أصحاب الفُتيا من صحابة رسول الله ﷺ، ومن قضاة المسلمين الأولين.

وقد ذكرنا علمه عند الحديث عليه عالماً في الحديث على عمرو الإنسان.

أما خلقه الكريم، فقد وصفه رجل فقال: «ما رأيت رجلاً أبين قرآناً، ولا أكرم خلقاً، ولا أشبه سريرة بعلانية منه».

وفي حديث إسلام عمرو، وصف إسلامه فقال: «... وما كان أحد أحبّ إليّ من رسول الله ﷺ ولا أجلّ في عينيّ منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينيّ منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأنني لم أكن أملأ عينيّ منه...»[1]، والحياء إذا تيسر في إنسان - وبخاصة في مثل هذه الدرجة وبمثل هذا الاخلاص - دليل على حسن الخلق.

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه، انظر شرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم (١٩٦/١) وانظر طبقات ابن سعد (٢٥٩/٤) والنجوم الزاهرة (١١٥/١). وقد فهم (بتلر) صاحب كتاب: فتح العرب لمصر، كما جاء في (ص ١٧٨) من هذا الكتاب، الذي ترجمه: محمد فريد أبو حديد ما نصّه: «فكان عمرو لا يرفع عينه من وجه النبيّ عرفاناً منه لصنيعه، وكان يقول: «والله ما كنت أملأ عينيّ منه أو أنظر إلى وجهه ما اردت، إلا رأيت الحياء في وجهه». وحديث عمرو يدلّ على حيائه من النبيّ ﷺ لا حياء النبيّ ﷺ من عمرو، فعكس المؤلف الأجنبي المعنى وفهمه معكوساً.

وقد اطلعت على كتاب بتلر، فرأيت فيه انحرافات كثيرة، وكانت أكثر مصادره ومراجعه أجنبيّة، فجاء فتح مصر كما أراده المؤلف الأجنبيّ لا كما حدث فعلاً، وجاء وصف عمرو بن العاص كما تخيلّه المؤلف لا كما كان فعلاً، وكان له رأيه في

لقد كان عمرو يبهر مَنْ يتّصل به من الناس بفصاحته، ويدهشهم بعلمه، ويأخذهم بحسن أخلاقه، ويأسرهم بمزاياه الكثيرة في السِّلم والحرب وفي السّراء والضَّراء، فكان زينة المجالس إذا جلس، والظّاهر بين الناس إذا قام.

أما المزيّة الثالثة لسفارة عمرو، فهي الصبر والحكمة.

وقد أبدى عمرو في سفارتيه الأوليين لمشركي قريش إلى النجّاشي ملك الحبشة صبراً عجيباً في الاعداد للرحلة من مكّة إلى الحبشة وإعداد الهدايا التي يحبّها النّجاشيّ وخاصته، واستقطاب حاشية النّجاشيّ بالهدايا الثمينة لضمان ولائهم له ومعاونته عند النّجاشيّ على المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة.

كما صبر صَبْراً جميلاً على دراسة ما جاء به الإسلام بالنسبة للمسيح عليه السّلام، ومحاولة تفهّم التناقض بين تعاليم الإسلام الخاصّة بالمسيح عليه السّلام وما جاء في تعاليم المسيحيّة، وإبراز هذا التناقض للنجّاشيّ من أجل استثارته للتنكيل بالمسلمين المهاجرين.

كما صبر صَبْراً جميلاً على اتّصالاته المستمرة الطويلة بحاشية النجاشي والنجاشي، وعلى مفاوضتهم بغياب المسلمين المهاجرين وبحضورهم.

وكانت تصرّفات عمرو في سفارتيه هاتين تتسم بالحكمة والاتزان، فبذل قصارى جهده لتحقيق هدفه، ولكنّه رضي بالسّلامة والخيبة بالرغم مما بذله من عناء.

= عمرو يخالف ما جاء في المصادر العربية الإسلامية، لذلك اطلعت على هذا الكتاب ولم اعتمده بل اعتمدت المصادر العربية الإسلامية، فما ينبغي أن نستورد تاريخنا من المؤلفين الأجانب، وبخاصة إذا كان انحرافها واضحاً جلياً، فأهل مكّة أدرى بشعابها، كما يقول المثل العربيّ القديم.

أما في سفارته الثالثة، وهي سفارته النبويّة إلى عُمان، فقد اتسمت بالصبر والحكمة أيضاً، فعرف مزايا الملك ومزايا أخيه، ففاتح الملك بعد أن فاتح أخاه الذي فاتحه قبل الملك، فكان أخو الملك عند حسن ظن عمرو، وعاونه في مهمته معاونة صادقة.

لقد كان عمرو حكيماً في أقواله وتصرّفاته، كما ذكرنا في الحديث على: الحكيم، كجزء من تفصيل: عمرو الإنسان.

أما المزيّة الرابعة لسفارة عمرو، فهي: سعة الحيلة، وقد تحدثنا عن دهائه طويلاً، إذ كان من دُهاة العرب الأربعة المشهورين، حاضر البديهة عظيم الذكاء، طويل التجربة، ويكفي أن نتذكّر قوله: «ما دخلتُ في شيءٍ قطّ إلا خرجت منه»[1]، وقوله: «لم أدخل في أمرٍ قط فكرهته إلاّ خرجت منه»، وقوله: «ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشرّ، ولكنّه الذي يعرف خير الشرين»[2].

لقد كان أحد الدّهاة المقدّمين في المكر والرأي[3]، وكان من دهاة العرب[4]، وكان معدوداً من دهاة العرب[5]، وكان من أبطال العرب ودهاتهم، ذا رأي[6].

ولعلّ دخوله على قادة أعدائه الذين يحاربهم في الميدان في مقراتهم وتخلّصه منهم بعد انكشاف أمره لهم ومعرفتهم بأنّه القائد وليس رسوله، أدلّة قاطعة على سعة حيلة عمرو.

---

(١) العقد الفريد (٢/٢٤٢).
(٢) عيون الأخبار (١/٢٨٠).
(٣) الاستيعاب (٣/١١٨٨).
(٤) أسد الغابة (٤/١١٧).
(٥) البداية والنهاية (٨/٢٦).
(٦) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٠).

وتملّصه من النجاشيّ في سفارته الأوليين بعد غضب النجاشيّ عليه، دليل على سعة حيلة عمرو.

وتفوّقه في النجاح، لا نجاحه فحسب، في سفارته النبويّة إلى عُمان، دليل على سعة حيلة عمرو.

واجتياز الفيافي والقفار في طريق عودته من عُمان إلى المدينة المنوّرة، مجتازاً المناطق الملغومة بالمرتدين، منهم قُرَّة بن هُبَيْرَة ومُسَيْلَمَة الكذّاب، بعد التحاق النبيﷺ بالرّفيق الأعلى، وتخلّصه من الأعداء المرتدين و نجاته بنفسه منهم، وهم أحرص ما يكونون على إبادة مَنْ هم أقلّ منه شأناً من المسلمين، دليل على سعة حيلة عمرو وذكائه الخارق وحسن تصرّفه وبُعد نظره ودهائه العظيم.

إنّ كلّ أعمال عمرو السلميّة والحربية، أدلّة قاطعة ملموسة على سعة حيلته، بل تميّزه في هذا المجال.

أما المزيّة الخامسة لسفارة عمرو، فهي رواء مظهره، فقد كان أَدْعَجَ أَبْلَج، يخضب شعره بالسّواد، يهتم بملبسه، وبذلك يكون مظهره مقبولاً إن لم يكن حَسَناً، وقد كان سفيراً لمشركي قريش إلى الحبشة، وعمرو بهذا الوصف يبدو حسن المظهر بالنسبة للحبشة، ثمّ كان سفيراً نبويا إلى عُمَان، وهم من العرب الأَزْد، وعمرو بهذا الوصف يبدو مقبول المظهر بالنسبة للعرب قومه، فهو منهم وهم منه، والعرب متقاربون في الغالب مظهراً.

ولكنّ المَخْبَر أهم بكثير من المظهر، وقد كانت طاقات عمرو في مَخْبَرِه متميِّزة ونادرة، ولا تتكرّر إلا قليلاً جداً، ولكن المظهر أيضاً مزيّة من مزايا السّفير، فكان لا بدّ من ذكرها وعدم إغفالها.

ولم تكن هذه المزايا الخمس التي كانت متيسِّرة لعمرو سفيراً مقتصرة عليه وحده، دون سفراء النبيﷺ الآخرين، بل كانت متيسرة فيهم

جميعاً بدون استثناء، ولكن كلّ مزيّة على انفراد لم تكن متساوية كميّة ونوعيّة في كلّ سفير؛ بل كانت على درجات متفاوتة فيما بينهم، ولكنّها كانت درجات عالية لا يهبط مستواها أبداً، بل يرتفع هذا المستوى، والتفاوت هو في درجة الارتفاع وحده.

وكانت مزية: رواء المظهر، مرتفعة الدرجة في سفراء النبي ﷺ الذين أوفدهم إلى كسرى الفُرْس وقيصر الرّوم ومقوقس مصر، لأنّ هؤلاء الملوك كانوا يهتمون بالمظهر كثيراً، ويؤثّر فيهم المظهر قبل أن يتأثّروا بالمَخْبَر، ويكون صاحب المظهر الحسن أقرب إلى نفوسهم وأقدر على التأثير فيها وأحرى أن يُستقبل بالقبول والحفاوة.

وما تذكرت المزايا الخمس الرئيسة التي كانت في سفراء النبي ﷺ قبل خمسة عشر قرناً خلت - وهناك مزايا فرعية أخرى متيسِّرة فيهم أيضاً بشكل أو بآخر، لم نتطرّق إليها خوفاً من الاطناب واكتفاء بالمزايا الرئيسة فحسب. ما تذكّرت تلك المزايا التي سنّها عليه الصّلاة والسّلام في اختيار السّفراء وطبّقها في اختيار سفرائه، وطبقها الخلفاء الراشدون من بعده، وخلفاء بني أُميّة وبني العباس في أكثر سفرائهم، إلاّ وتمنيت أن يطبِّقها المسلمون في هذا القرن لاختبار سفرائهم، إذ يبدو أنّهم يعمدون إلى مخالفة توفّر هذه المزايا في السفير أو يتعمّدون مخالفتها، والنتيجة أن أكثر سفراء الدول الإسلاميّة - إلاّ النادر منهم - وجودهم من مصلحة أعداء دولهم لا من مصلحة دولهم، ما في ذلك أدنى شك، ولعلّ أولئك السفراء قبل غيرهم يعرفون هذه الحقيقة، فلا انتماء ولا إيمان، ولا فصاحة ولا علم ولا عمل، ولا حسن خلق في أي شكل من أشكاله، ولا صبر على حل المشاكل والأزمات، ولا حكمة في معالجة الأمور والمعضلات، ولا سعة حيلة في السياسة والاقتصاد، ولا رواء مظهر، فهو ضريبة على دولته وكفى.

ليت لنا سفراء من أمثال عمرو، فما أحوجنا إلى أمثاله في هذه الأيام!

عمرو بن العاص في التاريخ

١. يذكر التاريخ، أن عمرو بن العاص، كان ابن سيِّد من سادات قريش البارزين الذين أظهروا عداوتهم للنبي ﷺ وللمسلمين وناصبوهم العداء الشديد، ولكنه كان يحترم حريّة الرأي ويتميّز بالذكاء والدهاء، وكان من أغنياء قريش المترفين، مشهوراً بالكرم وحسن الوفادة ومعاونة المحتاج، فمدحه الشعراء في حياته ورثوه بعد وفاته.

ويذكر له، أنّه كان من بني سَهْم، أحد بطون قريش العشرة الذين انتهى إليها الشّرف قبل الإسلام، وكان لكلّ بطن من تلك البطون واجب خاص بها، فكان بنو سَهْم أصحاب الحكومة في قريش، والحكومة عمل يشبه القضاء، وكان لهم الرئاسة على الأموال الخاصة بآلهة قريش.

ويذكر له أنّه نشأ في بيئة حضريّة بمكّة، لم تنقطع صلتها بالبداوة، برعاية والده الألمعيّ وأمّه الذكية الحصيفة، وترعرع في بيئته صالحة لتنشئة القادة والإداريين.

ويذكر له، أن قريشاً أوفدته إلى النجّاشيّ في أرض الحبشة، ليعيد النجاشي المسلمين المهاجرين إلى أرضه ويسلمهم إلى عمرو بن العاص ليعيدهم إلى كفّار قريش بمكّة، فأخفق عمرو في سفارته، وبقي المسلمون المهاجرون بحماية النجاشي في أرض الحبشة.

ويذكر له، أنّه قاتل المسلمين مع المشركين في غزوتي أُحُد والأحزاب قائداً مرؤوساً، وبذل قصارى جهده لإحراز النّصر على المسلمين دون جدوى.

ويذكر له، أنّ قريشاً أوفدته مرةً ثانية سفيراً إلى النجاشي ملك

الحبشة، ليسلِّم إليه المسلمين المهاجرين إلى أرضه، ليعيدهم إلى مشركي قريش في مكة، فأخفق عمرو في سفارته الثانية إخفاقاً كاملاً، كما أخفق في سفارته الأولى.

ويذكر له، أنّه كان من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية، مذكوراً بذلك فيهم، وكان شاعراً ومن أشد الناس على النبي ﷺ وعلى الإسلام والمسلمين، معروفاً بالدّهاء وحسن التّصرف بين رجالات قريش، وكان قائداً من ألمع قادة قريش وسياسياً من أبرز ساستهم، ولكنّه أخفق في عداوته للإسلام والمسلمين بالرغم من كفايته وجهوده، فاقتنع أنّه على الباطل وأنّ النبي ﷺ والإسلام والمسلمين على الحق، فتحوّل بكلّ طاقاته إلى الدين الجديد تحوّل اقتناع لا تحوّل عاطفة، وَقطع صلته نهائياً بالشِّرك والمشركين.

ويذكر له، أنه من القلائل الذي لهم تاريخ معروف في الجاهلية، فأضاف إليه ما سطره في تاريخه الإسلامي بعد إسلامه.

٢. ويذكر التاريخ لعمرو، أنّه أسلم في السنة الثامنة الهجرية قبل الفتح، وهاجر إلى المدينة، فأصبح موضع ثقة النبيّ ﷺ وموضع اعتماده، وكان إقباله على الإسلام نتيجة لتفكيره العميق واقتناعه الكامل، فأسلم الناس وآمن عمرو، كما وصف إقبال عمرو على الإسلام النبي ﷺ.

ويذكر له، أنه كان أحد قادة النبي ﷺ، فتولّى سرية ذات السّلاسل، ونجح في قيادته نجاحاً باهراً.

ويذكر له، أنّه تولّى قيادة سرية هدم سُواع صنم هُذَيل، فأدّى واجبه وهدم الصّنم.

ويذكر له، أنّه شهد غزوة فتح مكّة وغزوة حُنَيْن وغزوة حصار الطَّائف، فأبلى مع المسلمين في هذه الغزوات أعظم البلاء.

ويذكر له، أنّه نال شرف الصحبة، وشرف الجهاد تحت لواء الرّسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام.

ويذكر له، أنّه حظي بمناصب قيادية وسياسية وإدارية ومالية، ولم يحظ بها غيره من الصحابة عليهم رضوان الله، بالرغم من أنّ إسلامه كان متأخراً نسبياً، فقد كان قائداً من قادة النبي ﷺ ومن سفرائه، وولاته، ومن عماله على الصدقة، وهذا ما لم يتسنَ لغيره من الصحابة على عهد النبي ﷺ.

٣ - ويذكر له، أنه شهد حرب الرِدَّة قائداً على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأنّه انتصر على المرتدين من قُضَاعة انتصاراً عظيماً، فعادوا إلى الإسلام من جديد.

ويذكر له، أنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أعاده إلى ولاية عُمَان، فلم يكد يستقرّ فيها، إلاّ وولاّه قيادة جيش من جيوش المسلمين المتوجّهة لفتح بلاد الشّام، وجعله على فِلَسْطِين بالذات.

ويذكر له، أنّه أشار على قادة جيوش المسلمين بالاجتماع في موضع واحد بقيادة موحّدة، فاجتمعوا باليرموك بعد أن كانوا متفرقين في مواضع بعيدة يصعب التعاون بينها، ويسهل على الرّوم ضربها على انفراد.

ويذكر له، أنّه شهد معركة اليرموك الحاسمة قائداً لميمنة المسلمين، فكان لعمرو أثر كبير في انتصار المسلمين على الروم في تلك المعركة الحاسمة، التي فتحت أبواب أرض الشام للفاتحين المسلمين.

ويذكر له، أنّه شهد فتح دمشق، وشهد فتح الأُردن، وكان لقيادته أثر كبير في انتصار المسلمين على الرُّوم.

ويذكر له أنه فتح فلسطين عدا القُدس. الذي شهد عمر بن الخطّاب

رضي الله عنه فتحها مع قادة المسلمين الآخرين، وأنّه أبلى في فتح فلسطين أعظم البلاء.

ويذكر له، أنّه فتح مصر، كِنَانة الله في أرضه، وغرس في تربتها الطاهرة العربيةَ لغةً والإسلام دينا، ولا تزال منذ فُتحت ترعى العربية والإسلام.

ويذكر له، أنّه أوّل مَنْ فتح ليبيا، وأدخل إلى ربوعها العربيةَ لغةً والإسلام ديناً.

ويذكر له، أنه أوّل مَنْ فكّر في فتح النُّوبَة ومهّد لفتحها، ولكنه لم يستطع فتحها في حينه.

ويذكر له، أنه أول من فكر بفتح افْرِيقْيَّة (تونس) ومهّد لفتحها، وبعث البعوث لتحقيق فتحها.

لقد كان من ثمرات جهاده فتح فلسطين ومصر وليبيا، وهي بلاد لم يفتح غيره من قادة الفتح في عهد الإسلام أوسع منها وأكثر خيراً، هذا بالإضافة إلى مشاركته في حروب الردّة وفتوح الشّام.

٣. ويذكر له، أنّه ناصب عثمان العداء، لأنه عزله عن مصر، وكان يحبّ مصر حباً جمّاً، ولا يطيق أن يبتعد عنها.

ويذكر له، أنّه انحاز إلى معاوية بن أبي سفيان في الفتنة الكبرى على الإمام علي بن طالب، حبّاً بمصر لا حبّاً بمعاوية أو كرها بعليّ.

ويذكر له، أنّه شهد معركة صفّين مع مُعاوية علَىٰ علي بن أبي طالب، وكان قائداً لأحد التشكيلات التعبوية من قوّات أهل الشّام. وكان المستشار الأول لمعاوية في هذه المعركة، وهو الذي أشار على معاوية برفع المصاحف، ففرّق أهل العراق من جماعة الإمام عليّ بن أبي طالب وأنشب الخلاف فيما بينهم، وأنقذ أهل الشّام من هزيمة نكراء.

ويذكر له، أنّه كان أحد الحَكَمَيْن في التحكيم بين عليّ ومعاوية، فخدع أبا موسى الأشعري الذي خلع صاحبه عليّاً، فأقرّ عمرو صاحبه معاوية وعاد إلى الشّام ليسلم على معاوية بالخلافة.

ويذكر له، أنّه استطاع استعادة مصر من حكم عليّ إلى حكم معاوية، وقتل أميرها لعليّ وهو محمد بن أبي بكر الصدِّيق، وتولّى هو على مصر، فحقّق لنفسه أعزّ أمانيها وأغلاها.

ويذكر له، أنّه نجا من مؤامرة اغتياله، فقُتل خارجة بن حُذافة وكان يظِن قاتله أنّه عمرو، وقُتل عليٌّ بن أبي طالب في الكوفة، وجرح معاويةبن أبي سفيان في دمشق.

ويذكر له، أنّه شهد تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب عن الخلافة بالكوفة لمعاوية بن أبي سفيان.

ويذكر له، أنّه في هذه المدّة من حياته خلط عملاً صالحاً بآخر سيىء، ولم يقتصر على العمل الصالح كما فعل في ميدان الجهاد والفتوح.

٤. ويذكر التاريخ لعمرو، أنّه كان أحد ولاة النبيﷺ وأبي بكر الصدِّيق وعمر بن الخطّاب وعثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان، وأنّه كان إدارياً لامعاً من ألمع الإداريين المسلمين في أيامه وحتى اليوم.

ويذكر له، أنّه كان عالماً في الدين الحنيف، محدِّثاً، فقيهاً، مجتهداً، وكان من أصحاب الفُتيا من الصحابة، وكان قاضياً متقناً للقرآن الكريم.

ويذكر له، أنه كان كاتباً بليغاً في نظمه ونثره، وله رسائل وأقوال مأثورة، وله شعر يدلّ على شاعريته المتميِّزة ورصيده اللّغوي الكبير.

ويذكر له، أنّه كان خطيباً مصقعاً، من ألمع خطباء الصحابة والتّابعين من بعدهم، من أبلغ خطباء العرب في كلّ العصور.

ويذكر له، أنّه من دهاة العرب المعدودين وشجعانهم، وكان من أفراد الدّهر دهاءً وجلادة وحزماً ورأيا.

ويذكر له، أنّه كان حكيماً من الحكماء، له أقوال كثيرة في الحكمة تجري مجرى الأمثال السائرة، ولا تزال بالغة الحكمة حتى اليوم، كأنّها من أحاديث اليوم لا من أحاديث القرون.

ويذكر له، أنّه كان ذا شخصيّة قويّة نافذة، يحب الإمارة، غير مسرف، حليماً، متواضعاً، منصفاً، معتزاً بكرامته، إدارياً عادلاً، مؤمناً لا غبار على إيمانه.

ويذكر له، أنّه كان قائداً عبقرياً، فهو من ذوي الطبع الموهوب والعلم المكتسب والتجربة العملية، وكانت صفات القيادة متجسِّدة فيه، ويطبق مبادىء الحرب في عملياته بكفاية واقتدار.

ويذكر له، أنّه كان سفيراً فذاً، استطاع أن يستقطب أهل عُمَان شعباً ومَلِكاً ويجعلهم يعتنقون الإسلام وينتهون عن الشِّرك.

ويذكر التاريخ له، أنّه كان يتحلّى بكفايات عالية، أهلته لاحراز النجاح في السّلم والنصر في الحرب، وأبرزته على أقرانه في حياته، وعلى أمثاله بعد رحيله.

ويذكر له، أنّ هناك إجماعاً على تقدير أعماله مجاهدا، واختلافاً على تقويم أعماله إنسانا.

رضي الله عن الصحابي الجليل، القائد الفاتح، الإداري الحازم، الفقيه المحدِّث، العالم المجتهد، الشّاعر النّاثر، الكاتب الخطيب، الحكيم الداهية، السفير اللّامع، عمرو بن العاص السَّهْمِيّ القُرشِيّ.

العلاء بن الحَضْرَمِيّ
السّفير القائد

نسبه وأيامه الأولى

هو العَلاء بن الحَضْرَمِيّ، واسم الحضرميّ والد العلاء هو عبد الله بن عَبَّاد بن أكبر بن ربيعة بن مالك بن عُوَيْف بن مالك بن الخَزْرَج بن أياد ابن صُدَىّ بن زيد بن مُقنّع بن حَضْرَمَوْت الحَضْرَمي[1]، ويقال في أبيه: عبد الله بن عِمَاد، ويقال غير ذلك، وفي نسبه بعض الاختلافات[2]، ولكنّهم لا يختلفون أنّ أباه من حضْرَمَوْت[3]، فنسب إليها: الحَضْرَميّ.

سكن أبوه مكّة الكرّمة، وحالف حرب بن أُمَيَّة والد أبي سُفْيَان بن حَرْب[4]، فهو حليف بني أُمَيّة[5].

وكان للعلاء عدة إخوة، منهم: مَيْمُون بن الحضرميّ صاحب البئر

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٣٤١/١)، وانظر الاختلاف في نسبه في جمهرة أنساب العرب (٤٦١).

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٣٥٩/٤) والإصابة (٢٥٩/٤) وأسد الغابة (٧/٤) والاستيعاب (١٠٨٥/٣).

(٣) الاستيعاب (١٠٨٦/٣).

(٤) أسد الغابة (٧/٤).

(٥) تهذيب الأسماء واللغات (٣٤١/١).

التي بأعلى مكّة بـ (الأبْطَح)[1]، يقال لها: (بئر ميمون)[2] مشهورة على طريق أهل العراق إلى الحج، وكان حفرها في الجاهلية[3].

ومنهم: عمرو بن الحضرميّ، وهو أوّل قتيل من المشركين في الإسلام، وماله أوّل مال خُمِّس في الإسلام[4]، قتله المسلمون في سرية نَخْلَة بقيادة عبدالله بن جَحْش[5] التي كانت في شهر رجب من السنة الثانية الهجريّة[6].

ومنهم: عامر بن الحضرميّ الذي قُتل يوم (بَدْرٍ) كافراً[7].

وأختهم: الصَّعبة بنت الحضرميّ التي كانت تحت أبي سُفْيَان بن حَرْب، فطلّقها، فخلف عليها عُبَيْدالله بن عثمان التَّيْمِيّ، فولدت له طَلْحَة بن عُبَيْدالله[8]، أحد العشرة المبشرة بالجنّة[9].

ولا نعرف شيئاً عن تاريخ العلاء في الجاهلية، متى وُلِدَ، وكيف نشأ وترعرع، وما هو نشاطه، فقد بدأ تاريخ العلاء مع الإسلام، فهو ابن من

---

(١) الأبطح: كلّ مسيل فيه دقاق الحصى فهو أبطح، والابطح يضاف إلى مكّة وإلى مِنى، لأنّ المسافة بينه وبينها واحدة، وربما كان إلى مِنَى أقرب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٥/١).

(٢) بئر ميمون: بئر بالأبطح قرب مكّة، حفرها بأعلى مكّة في الجاهلية ميمون بن الحضرمي، وعنـد قبر أبي جعفر المنصور، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢).

(٣) الإصابة (٢٥٩/٤) وطبقات ابن سعد (٣٥٩/٤).

(٤) الاستيعاب (١٠٨٦/٣) وأسد الغابة (٧/٤).

(٥) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة النبي ﷺ.

(٦) انظر التفاصيل في جوامع السيرة (١٠٤ - ١٠٦) وانظر الإصابة (٢٥٩/٤).

(٧) أسد الغابة (٧/٤).

(٨) طبقات ابن سعد (٣٥٩/٤).

(٩) انظر سيرته المفصلة في: طبقات ابن سعد (٢١٤/٣) وحلية الأولياء (٨٧/١) والرياض النضرة (٣٣٤/٢) وأسد الغابة (٥٩/٣) والإصابة (٢٩٠/٣) والاستيعاب (٧٦٤/٢).

أبناء هذا الدين، عُرف به وبفضله، ولولا الإسلام لما عُرف أبدا، أُسوةً بأبيه وإخوته وغيرهم من أهله ومن غير أهله، الذين لا نعرف من أخبارهم غير أسمائهم - مجرّد أسمائهم فحسب، إذا برزوا بين أقرانهم، وإلا لم تُعرف حتى أسمائهم!

لقد كان العلاء من عائلة عربية، من قبيلة عربية، سكنت عائلته مكّة المكرّمة، وحالفت بطناً من بطون قريش: بني أُمية بن عبد شَمْس ابن عبد مَنَاف[1].

وأسلم العلاء قبل فتح مكّة[2]، فشهد مع النبي ﷺ غزوة فتح مكّة، ويوم حُنَيْن وحصار الطّائف، في السّنة الثامنة الهجريّة.

وفي رواية أنّه أسلم قديما[3]، ولا دليل على ذلك، إذ لم يرد ذكره في سرايا النبي ﷺ وغزواته، ولا في الهجرة إلى المدينة والمؤاخاة والنّشاط الاجتماعي للمسلمين قبل الهجرة وبعدها، والصّواب أنّه أسلم قبل فتح مكّة، فبدأ نشاطه في السّلام والحرب مع المسلمين يظهر متأخراً عن المسلمين الأولين السّابقين إلى الإسلام.

وعلى كلٍّ حال، نال العلاء شرف الصُّحبة وشرف الجهاد تحت لواء النبي ﷺ.

السفير

بعث النبي ﷺ العلاء مُنْصَرَفَه من (الجِعْرانَة)[4] إلى المُنْذِر بن سَاوَى العَبْدِيّ بالبَحْرَين، وكتب رسول ﷺ كتاباً إلى المنذر بن ساوى مع

---

(١) طبقات ابن سعد (٣٥٩/٤).
(٢) طبقات ابن سعد (٣٥٩/٤).
(٣) طبقات ابن سعد (٣٥٩/٤).
(٤) الجعرانة: ماء بين الطائف ومكة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٠٩/٣).

العلاء يدعوه فيه إلى الإسلام[١]، وخلّى بين العلاء وبين الصّدقة يجتبيها، وكتب رسول الله ﷺ للعلاء كتاباً فيه فرائض الصَّدقة في الإبل والبقر والغنم والثمار والأموال يصدِّقهم على ذلك، وأمره أن يأخذ الصَّدقة من أغنيائهم فيردها على فقرائهم[٢].

وقد بعث النبيّ ﷺ العلاء إلى المنذر بن سَاوَى أخي عبد القَيْس صاحب البحرين[٣]، فصالح المنذر: على أنّ على المجوس الجزية ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم[٤]، وأسلم المنذر وأسلم جميع العرب بالبحرين، وكانت ولاية البحرين يومئذٍ للفرس. وأما أهل البلاد من يهود ونصارى ومجوس، فإنهم صالحوا العلاء والمنذر على الجزية: من كلّ حالم دينار، ولم يكن بالبحرين قتال، إنما بعضهم أسلم وبعضهم صالح[٥].

وكان نصّ كتاب النبي ﷺ الذي حمله العلاء إلى المنذر بن سَاوَى:

بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمّد رسول الله.

إلى: المنذر بن ساوى.

سلام عَلى مَنْ اتّبع الهُدَى. أما بعد: فإني أدعوك إلى الإسلام، فأَسْلِم تَسْلَم، يَجعل الله لك ما تحتَ

---

(١) طبقات ابن سعد (٣٦٠/٤) وسيرة ابن هشام (٢٧١/٤) والبدء والتاريخ (١٠٢/٥) و(٢٢٩/٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٣٦٠/٤).

(٣) الطبري (٦٤٥/٢).

(٤) ابن الأثير (٢٣٠/٢).

(٥) ابن الأثير (٢١٥/٢).

يديك، واعْلَمْ أنّ ديني سيظهر إلى مُنْتَهى الخُفّ والحافِر[1].

علامة الختم: رسول الله محمد

وهذا نصّ كتاب آخر من النبيﷺ إلى المنذر بن ساوى:

بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمّد رسول الله.

إلى: المنذر بن سَاوَى.

سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله غيره، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّداً عبده ورسوله.

أما بعد: فإني أُذكرك الله عزّ وجلّ، فإنه مَنْ يَنصَح فإنما يَنْصَح نفسه، وإنّه مَنْ يُطِعْ رسُلي ويَتّبع أمرهم فقد أطاعني، ومَنْ نصَح لهم فقد نصَح لي. وإنّ رسلي قد أثنوا عليك خيرا، وإني قد شفَّعْتُك في قومك، فاتْرك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوتُ عن أهل الذنـوب، فاقْبَلْ منهم. وإنك مهما تصلح فلن نعزلـك عن عملـك، ومَنْ أقـام عـلى يهوديّتـه أو مجوسيته فعليه الجزية[2].

علامة الختم: رسول الله محمد

---

(١) انظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٨٩ - ٨٠).

(٢) القلقشندي (٣٦٨/٦) وطبقات ابن سعد (٢٦٣/١) وزاد المعاد (٦١/٣ - ٦٢). وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٨٠ - ٨١) حول نصّ هذا الكتاب النبوي الكريم واكتشاف أصل الكتاب في دمشق.

وكان جواب المنذر إلى النبي ﷺ.

أما بعد يا رسول الله! فإني قرأت كتابك على أهل (هَجَر)[1]، فمنهم من أحبَّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم مَنْ كَرِهَه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث إليّ في ذلك أمرك[2].

التوقيع

وكان نصّ جواب النبي ﷺ إلى المنذر:

بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد رسول الله

إلى: المنذر بن ساوَى

سلام الله عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد! فإنّ كتابك جاءني، وسمعتُ ما فيه، فمن صلّى صلاتنا، واستَقْبَلَ قِبْلَتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ما لنا، وعليه ما علينا. ومَنْ لم يفعل فعليه دينار من قيمة المُعَافِريّ.

---

(١) هجر: قاعدة البحرين، وقيل: ناحية البحرين كلّها هجر وهو الصواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٤٤٥-٤٤٧).

(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٦٣) وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٨١-٨٢).

والسلام عليكم ورحمة الله، يغفر الله لك[١]

علامة الختم: الله / رسول / محمد

وكتب رسول الله ﷺ للعلاء بن الحضرميّ عن الزّكاة كتاباً، فيه فرائض الصدقة في الإبل والبقر والغنم والثمار والأموال يصدّقهم على ذلك، وأمره أن يأخذ من أغنيائهم، فيردّها على فقرائهم[٢].

ولم يُرْوَ نصّ الكتاب[٣].

وكان رسول الله ﷺ قد كتب إلى العلاء بن الحضرميّ: أن يقدم عليه بعشرين رجلاً من عبد القَيسْ، فقدم عليه منهم بعشرين رجلاً، رأسهم عبد الله بن عَوْف الأَشَجّ، واستخلف العلاء على البحرين المنذر بن ساوى[٤].

ولم يُرْوَ نصّ الكتاب[٥].

وكتب النبي ﷺ إلى أهل هَجَر (البحرين):

بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد رسول الله.

إلى: أهل هَجَر.

سِلْمٌ أنتم. فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو.

---

(١) انظر الطبري (٢٩/٣) والقلقشندي (٣٧٦/٦)، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٨٢ - ٨٣)، وانظر أيضاً: فتوح البلدان (١١٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٢٦٣/١).

(٣) مجموعة الوثائق السياسية (٨٣).

(٤) طبقات ابن سعد (٣٦٠/٤).

(٥) مجموعة الوثائق السياسية (٨٤).

أما بعد! فإني أوصيكم بالله وبأنفسكم، أن لا تضلّوا بعدَ إذ هُدِيتم، وأن تَغْوُوا بعد أن رُشِدْتُمْ.

أما بعد! فقد جاءني وفدكم، فلم آت إليهم إلاّ ما سرّهم. ولو أني اجتهدت فيكم جُهْدِي كلّه أخرجتكم من هَجَر، فَشَفَّعْتُ غائبكم، وأفضلتُ على شاهدكم، فاذكروا نعمة الله عليكم.

أما بعد! فإنّه قد أتاني الذي صنعتم، وإنّه مَنْ يُحْسِنُ منكم لا أحمل عليه ذنب المُسيء، فإذا جاءكم أمرائي فأطيعوهم، وانصروهم على أمر الله وفي سبيله، وإنّه مَنْ يعمل منكم صالحاً فلم يَضِلّ عند الله ولا عندي(١).

علامة الختم: الله رسول محمد

وكتب رسول الله ﷺ، إلى المنذر بن ساوى.

من: محمد رسول الله.

إلى: المنذر بن ساوى.

أما بعد! فإنّ رُسُلِي قد حمدوك، وإنك مهما تُصْلِحْ أصْلِحْ إليك وأُثِبْكَ على عملك، وتَنْصَحْ لله ولرسوله.

والسلام عليك(٢).

علامة الختم: الله رسول محمد

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٧٥/١ - ٢٧٦) وانظر تفاصيل المراجع والمصادر في: مجموعة الوثائق السياسية (٨٤ - ٨٥)، وانظر أيضاً: فتوح البلدان (١٠٧ - ١٠٨).

(٢) طبقات ابن سعد (٧٦/١) وانظر مجموعة الوثائق السياسية (٨٥).

وبعث النبي ﷺ بهذه الرسالة مع العلاء بن الحضرميّ[١].

وكتب عليه الصّلاة والسّلام إلى المنذر بن ساوى في مجوس هجر ما نصّه:

أعرض عليهم الإسلام، فإن أسلموا فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، ومَنْ أَبَى، فعليه الجزية من غير أكلٍ لذبائحهم ولا نكاح نسائهم[٢].

وكتب إلى المنذر بن ساوى أيضاً ما نصّه:

افرض على كلّ رجل ليس له أَرض، أربعة دراهم وعباءة[٣].

وكتب إلى المنذر بن ساوى أيضاً ما نصّه:

أما بعد! فإني قد بعثت إليك قُدامَة وأبا هُرَيْرَة، فادْفَعْ إليهما ما اجتمع عندك من جِزْيَة أرضك، والسلام[٤].

وكتب رسول الله ﷺ، إلى العلاء بن الحضرمي:

أما بعد! فإني قد بعثت إلى المنذر بن ساوَى مَنْ يَقْبَضُ منه ما اجتمع عنده من الجزية، فَعَجِّلْهُ بها، وابعث معها ما اجتمع عندك من الصّدَقَة والعُشورِ، والسلام[٥].

علامة الختم: الله رسول محمد

(١) طبقات ابن سعد (٢٧٦/١).

(٢) طبقات ابن سعد (٢٦٣/١) وانظر المصادر والمراجع في مجموعة الوثائق السياسية (٨٦).

(٣) انظر المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٨٦ - ٨٧).

(٤) طبقات ابن سعد (٢٧٦/١)، وانظر المراجع والمصادر في: مجموعة الوثائق السياسية (٨٧)، وقدامة الذي ورد ذكره هو قدامة بن مظعون، انظر سيرته في: أسد الغابة (١٩٨/٤ - ٢٠٠).

(٥) طبقات ابن سعد (٢٧٦/١) وانظر المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٨٧ - ٨٨).

وكتب رسول الله ﷺ إلى الأكبر بن عبد القَيْس ما نصّه:

من: محمد رسول الله.

إلى: الأكْبر بن عبد القَيْس.

إنّهم آمنون بأمان الله وأمان رسوله على ما أحدثوا في الجاهلية من القُحم، وعليهم الوفاء بما عاهدوا، ولهم أن لا يُحْبَسوا عن طريق المِيْرة ولا يُمْنَعُوا صَوْبَ القَطْر، ولا يُحْرَموا حَريمَ الثّمار عند بلوغه.

والعلاء بن الحضرميّ أمينُ رسول الله على برِّها، وبحْرها، وحاضرها، وسراياها، وما خرج منها. وأهل البحرين خُفراؤه من الضَّيْم وأعوانُه على الظَّالم، وأنصاره في الملاحم، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه، لا يُبَدِّلون قولاً، ولا يُريدوا فُرْقةً، ولهم على جند المسلمين الشَّركة في الفيء، والعدل في الحُكْمِ، والقصد في السيرة، حُكْمٌ لا تبديل له في الفريقين كَلَيْهما، والله ورسوله يشهد عليهم[1].

علامة الختم: الله
رسول
محمد

(١) طبقات ابن سعد (٢٨٣/١)، وانظر تفاصيل المراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٩٤ - ٩٥)، والأكبر بن عبد القيس لا يعرفه أهل الأنساب، ولعل الصواب: الأكبر من عبد القيس. ولعلّ الصواب في: حريم الثار، هو: جريم الثار، والجريم والصريم والجديد كلّه التمر إذا صرم، يريد أنهم ينتفعون بثارهم حين الجذّ، ولا ينتظرون مجيء المصدِّق إلى بلادهم، ويؤدون الزكاة بالأمانة. (نقلا من: مجموعة الوثائق السياسية ص (٩٥و ٤١٣).

وهذا نصّ آخر لكتاب رسول الله ﷺ إلى عبد القيس:

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا كتـاب من محمـد رسول الله، لعبـد القيس وحاشيتها في البحرين وما حولها.

إنكم أتيتموني مسلمين، مؤمنين بالله ورسوله، وعاهدتم على دينه، فقبلتُ، على أن تطيعوا الله ورسوله فيما أحببتم وكرهتم، وتقيموا الصّلاة، وتؤتوا الزّكاة، وتحجّوا البيت، وتصوموا رمضان، وكونوا قائمين لله بالقسط ولو على أنفسكم، وعلى أن تؤخذ من حواشي أموال أغنيـائكم، فترد على فقرائكم، على فريضة الله ورسوله في أموال المسلمين[١].

علامة الختم: الله رسول محمد

كما كتب كتاباً إلى شبيب بن قُرَّة[٢] من وفد عبد القيس وصُحَار بن العبَّاس[٣] من وفد عبد القيس أيضاً والمُشَمْرَخ بن خالد السّعدي[٤] من وفد عبد القيس أيضاً.

ولم تُرْوَ نصوص هذه الكتب[٥].

---

(١) عمر الموصلي - الجزء الثامن - ورقة ٣١ - ٣٢ ألف، نقلاً من: مجموعة الوثائق السياسية (٩٥).

(٢) الإصابة (١٩٣/٣).

(٣) الإصابة (٢٣٥/٣ - ٢٣٦).

(٤) أسد الغابة (٣٦٧/٤ - ٣٦٨).

(٥) انظر: مجموعة الوثائق السياسية (٩٦).

لقد بدأت قصّة العلاء مع البحرين سفيراً للنبي ﷺ وداعياً من دعاته إلى الإسلام، فنجح في سفارته ودعوته أعظم النجاح، واستطاع أن يستنقذ البحرين من السيطرة الفارسية بإسلام عامل الفُرس عليها المنذر ابن ساوى الذي أسلم وحسن إسلامه حتى توفاه الله بعد التحاق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى وقبل رِدَّة أهل البحرين، والعلاء عنده أميراً لرسول الله ﷺ على البحرين[1]، ثمّ أصبح عامل رسول الله ﷺ على الصَّدقات في البحرين[2]، فنجح أعظم النجاح أميراً وجابيا كما نجح سفيراً وداعيا.

ويبدو من دراسة الرّسائل النبويّة إلى العلاء وغيره من حكّام البحرين وقادتها، ومن الإجراءات المتّخذة من قِبَل الذين تسلموا تلك الرّسائل تنفيذاً وعملا، النظام السّائد الدقيق في الناحية التطبيقية للدولة الإسلاميّة الوليدة، بالإضافة إلى الناحية الإنسانية الرفيعة في التنفيذ والتطبيق عدلاً ورحمة، فما يؤخذ من أموال أغنياء البلد، يعود إلى فقراء البلد، مما يؤدي إلى التواصل والتراحم والتعاون على هدى وبصيرة.

إنّه التطبيق العمليّ لتعاليم الإسلام في الحكم والإدارة، فهو عدل السماء لا عدل الأرض، وهذا العدل المطلق هو الذي جعل المنذر بن ساوى وأمثاله ينحازون إلى الإسلام ديناً ويتخلّون عن أديانهم القديمة، وإلى نبيٍّ الإسلام قائداً ويتخلّون عن حكامهم القدامى، بالرغم من صعوبة التخلي عن الدين القديم إلى دين جديد بالنسبة للنفس البشريّة، وعن أكبر دولة عالمية في حينه إلى حكم جديد غير معروف ولا مضمون.

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/٢٤٣) والدرر (٢٧٢) وجوامع السيرة (٢٤) وابن الأثير (٢/٢٩٨).
(٢) سيرة ابن هشام (٤/٢٧١) والطبري (٣/١٤٧) وابن الأثير (٢/٣٠١).

ولكنه الحق إذا جاء، فإنّه يزهق الباطل، ثمّ هو هدى الله، يهدي به مَنْ يشاء من عباده.

ومهما يقال عن ضعف الإمبراطورية الساسانية وانحلال السلطة المركزيّة للأكاسرة حينذاك، الاّ أنّ ذلك لا يسوِّغ استبدال دولة ناشئة غير مضمونة بدولة عريقة مضمونة، وانتقال ولاء من دولة ذات كيان إلى سلطة مجهولة الكيان.

ولكنّه الإيمان الذي يكتسح العقبات والصعاب، ويقلب الحسابات المادية إلى حسابات غير ماديّة.

وما حدث يناقض كلّ المقاييس الماديّة، ويناقض حسابات الحكام بخاصة، ولكنّه حدثَ عملياً كما هو معروف.

لقد كان العلاء موضع ثقة النبي ﷺ سفيراً وداعياً، وأميراً وجابياً، وكانت ثقة النبي ﷺ بالعلاء في موضعها، كما اثبتت أعماله والأحداث والأيام.

في ميدان الجهاد

١. جهاده في حرب المرتدين

عقد أبو بكر الصدِّيق أحد عشر لواءً لحرب المرتدين، أحدهم للعلاء وأمره بالبحرين[١] لحرب المرتدين في تلك المناطق وما حولها.

وكان النبي ﷺ قد مرض، كما مرض المنذر بن سَاوى أيضاً، وكان مرضهما في شهر واحد، فمات النبي ﷺ، ومات بعده المنذر بن ساوى، فارتدّ أهل البحرين[٢]، كما ارتد غيرهم في سائر أرجاء شبه الجزيرة

---

(١) الطبري (٢٤٩/٣) وابن الأثير (٣٤٦/٢).

(٢) الطبري (٣٠١/٣).

العربية، فعاد العلاء إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد سبقته رِدّة أهل البحرين.

وكان بالبحرين خلق كثير من العرب: من عبد القَيْس، وبكْر بن وائل، وتَمِيْم، مقيمين في باديتها، وكان على العرب بها من قِبَل الفُرس على عهد رسول الله ﷺ المنذر بن ساوَى، أحد بني عبد الله بن زيد بن عبد الله بن دارِم بن مالِك بن حَنْظَلَة، وعبد الله بن زيد هذا هو: الأَسْبَذِيّ، نسبة إلى قرية بَهجَر يقال لها: الأَسْبَذ، ويقال: إنّه نُسب إلى الأَسْبَذِيين، وهم قوم كانوا يعبدون الخيل بالبحرين[1].

وسار العلاء على رأس جيشه إلى البحرين على طريق (الدَّهَناء)[2] وهي صحراء مخوفة خالية من الماء والمرعى، فلاقى العلاء ورجاله صعوبات ومشقّة عند قطعها، حتى أصبحت حياته وحياتهم في خطر عظيم[3].

وكان الجارود بن المُعَلّى العَبْدِي[4] قد قدم على النبي ﷺ، فلما تفقّه في الدين ردّه إلى قومه عبد القيس، فكان فيهم. ولما مات المنذر بن ساوى ارتدّ بعده أهل البحرين، فأما بنو بكر فتمّت على ردّتها، وأما عبد القيس فإنّهم جمعهم الجارود، وكان بلغه أنهم قالوا: «لو كان محمّد نبيّاً لم يمتْ»، فلما اجتمعوا إليه قال لهم: «أتعلمون أنّه كان لله أنبياء فيما مضى؟»؛ قالوا: «نعم»، قال: «فما فعلوا؟»، قالوا: «ماتوا!»، قال: «فإنّ محمّداً ﷺ قد مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، فأسلموا وثبتوا على إسلامهم، فحضرهم المرتدون

(١) فتوح البلدان (١٠٦ - ١٠٧).
(٢) الدّهناء: صحراء واسعة بنجد في ديار بني تميم، انظر تقويم البلدان (٨٤).
(٣) ابن الأثير (٣٦٩/٢).
(٤) أنظر سيرته في أسد الغابة (٢٦٠/١) والإصابة (٢٢٧/١).

حتى استنقذهم العلاء. واجتمعت ربيعة بالبحرين على الردّة إلا الجارود ومَن تبعه، وقالوا: «نردّ المُلْك في المنذر بن النعمان بن المنذر»[1]، وجعلوا عليهم ابناً للنُّعمان بن المنذر يقال له: المنذر[2].

وخرج الحُطَم بن ضُبَيْعَة أخو بني قيس بن ثعلبة في بكر بن وائل، فاجتمع إليه من غير المرتدين مَمَّن لم يزل مشركاً، حتى نزل (القَطِيْف)[3] وهَجَر، واستغووا (الخَطّ)[4] ومن بها من الزُّط والسبابجة، وبعث بعثاً إلى (دارِين)[5] وبعث إلى (جُوَاثا)[6]، فحصر المسلمين الذين كانوا فيها، فاشتدّ الحصر على مَنْ بها، فقال عبد الله بن حَذَف، وقد قتلهم الجوع:

ألا أبْلِغ أبَا بَكْرٍ رسولاً ... وفتيان المدينة أجمعينَا
فهل لكُمُ إلى قوم كرام ... قُعُودٍ في جُوَاثَا مُحْصَرِيْنَا
كأنَّ دِماءهم في كلِّ فجٍّ ... شُعَاعُ الشَّمس يُغْشَى النَّاظِرينا
توكّلنا على الرحمن إنّا ... وجَدْنا النَّصْر للمتوكِّلينا

وكان العلاء على رأس جيشه في طريقه من المدينة المنورة إلى هدفه، يجتاز (الدَّهْنَاء)، صابراً على تحمّل أعباء اجتياز الصحراء،

---

(١) الطبري (٣/٣٠١-٣٠٣) وابن الأثير (٢/٣٦٨).
(٢) فتوح البلدان (١١٤).
(٣) القطيف: مدينة بالبحرين، وكانت قصبتها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٣١).
(٤) الخط: أرض في سِيف البحرين وعمان، كانت تجلب إليها الرماح القَنا من الهند، انظر معجم البلدان (٣/٤٤٩).
(٥) دارين: فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند، انظر معجم البلدان (٤/٢٥).
(٦) جواثا: في معجم البلدان: جُواثا، بالضم، وبين الألفين ثاء مثلثة، يمدّ ويقصر، وهو حصن لعبد القيس بالبحرين، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/١٥٥ - ١٥٦).

متحمِّلاً المشقّات بإيمان وصبر، حتى أدركوا الجارود بن المُعَلَّى العَبْدِي ومَنْ معه من المسلمين في البحرين، فأمر العلاءُ أن ينزل الجارود بعبد القيس من قومه المسلمين على الحُطَم مما يليه، وسار هو فيمن معه حتى نزل الحُطَم مما يلي هَجَر في منطقة جَوَاثا.

واجتمع المشركون كلّهم إلى الحُطَم إلاّ أهل دارين، واجتمع المسلمون إلى العلاء، وخندق المسلمون على أنفسهم، وخندق المشركون على أنفسهم أيضاً، وكان المسلمون والمشركون يتراوحون القتال ويرجعون إلى خنادقهم، فكانوا كذلك شهراً. وبينما هم كذلك سمع المسلمون ضوضاء هزيمة أو قتال، فبعث العلاءُ عبدَ الله بن حَذَف ليستطلع جليّة الأمر، فعاد ليخبر المسلمين أنّ المشركين سُكارى، فخرج عليهم المسلمون، ووضعوا فيهم السيف كيف شاءوا. وهرب المشركون، فكانوا بين ناجٍ ومقتول ومأسور. واستولى المسلمون على معسكر المشركين، ولم يفلت رجل من المشركين إلا بما عليه من ثياب، وكان الحُطَم بين قتلى المشركين.

وطارد المسلمون المشركين الهاربين، فأُسر المنذر بن النُّعمان بن المنذر الذي كان قد سوّده المشركون» فأسلم المنذر[١].

وفي رواية أخرى، أنّ العلاء سار بالمسلمين حتى نزل جُوَاثا وهو حصن البحرين، فدلفت إليه ربيعة، فخرج إليها بمن معه من العرب والعجم، فقاتلها قتالاً شديداً. ثمّ إنّ المسلمين لجأوا إلى الحصن، فحصرهم فيه عدوّهم. ثمّ إنّ العلاء خرج بالمسلمين ذات ليلة، فبيّتَ ربيعة، فقاتلوا قتالاً شديداً، وقتل الحُطَم[٢].

---

(١) الطبري (٣٠٤/٣ - ٣١٠) وابن الأثير (٣٦٨/٢ - ٣٧١)، وانظر البدء والتاريخ (١١٥/٥).

(٢) فتوح البلدان (١١٤ - ١١٥).

وفي رواية ثالثة، أنّ الحُطَم أتى ربيعة بجُوَاثا، وقد كفر أهلها جميعاً، وأمّروا عليهم المنذر بن النُّعمان بن المنذر، فأقام معهم. وحصرهم العلاء حتى فتح جُواثا وقتل الحُطَم[1]، وكان ذلك سنة اثنتي عشرة الهجرية على عهد أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه[2].

والرواية الثالثة تقارب الرواية الأولى: المشركون في جُوَاثا، والمسلمون خارجها، وهذا ما أرجِّحه، لأن المرتدين أعلنوا ردّتهم قبل عودة العلاء إلى البحرين، فلا بدّ أن يلجأوا إلى حصن حصين في البحرين، يعينهم على الدفاع ويساعدهم على صدِّ المسلمين، فبادروا إلى حصن البحرين في جُوَاثا وتحصّنوا في داخله قبل قدوم العلاء وجيشه، فحاصرهم العلاء واستطاع إحراز النَّصر عليهم.

وكانت معركة جُواثا بين المسلمين والمشركين معركة سَوْقيّة حاسمة بالنسبة لحرب المرتدين في البحرين، وكانت المعارك التالية بين المسلمين والمشركين معارك تعبوية من معارك استثمار الفوز فأصبح النصر مضموناً للمسلمين على المشركين بعد اندحار المشركين في المعركة السَّوقِيّة الحاسمة في جُوَاثا.

واستشهد بجُواثا عبد الله بن سُهَيْل بن عمرو[3]، أحد بني عامر بن لؤي، ويكنَّى: أبا سُهَيْل، وأمّة: فاختة بنت عامر بن نَوْفَل بن عبد مَنَاف، وكان عبد الله أقبل مع المشركين يوم بَدْرٍ. ثمّ انحاز إلى المسلمين مسلماً، وشهد بَدْراً مع النبيّ ﷺ، فلما بلغ أباه سهيل بن عمرو خبره قال: «عند الله أحتسبه». ولقيه أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وكان

---

(١) فتوح البلدان (١١٥).

(٢) معجم البلدان (٣/١٥٥).

(٣) عبد الله بن سهيل بن عمرو: انظر سيرته في طبقات ابن سعد (٣/٤٠٦) وأسد الغابة (٣/١٨٠) والإصابة (٤/٨٣) والاستيعاب (٣/٩٢٥).

بمكّة حاجّاً، فعزاه به، فقال سُهَيْل: «إنه بلغني أنّ رسول الله ﷺ قال: «**يشفع الشّهيد في سبعين من أهله. وإني لأرجو أن لا يبدأ ابني بأحدٍ قبلي**»، وكان يوم استُشهد ابن ثمانٍ وثلاثين سنة. واستشهد عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ[1] يوم جُواثا أيضاً، وقيل استشهد يوم اليَمَامَة[2].

ولم تذكر المصادر التي بين أيدينا عدد المسلمين الذين استُشهدوا في هذه المعركة الحاسمة، ولكنّ بعض تلك المصادر ذكرت البدريين الذين استشهدوا في جواثا فقط، مما يدل على أن هذه المعركة لم تكن سهلة التكاليف، بل كانت معركة قاسية جداً، مما يدل على أن المسلمين لم يباغتوا المشركين وهم سكارى، بل قاتلوا المشركين وهم مستعدّون للقتال في معركة مدبّرة، ولا يمنع أن يكون قسم من المشركين سكارى، ولكن لم يكن كلّ المشركين سكارى على كلّ حال، وإلاّ لما تكبّد المسلمون هذا العدد الضخم من الشهداء وهذا النّصب الشديد لإحراز النّصر.

وقصد معظم الهاربين من المشركين يوم جُواثا إلى دارين، فركبوا إليها السُّفن، ولحق الباقون ببلاد قومهم، فكتب العلاء إلى مَنْ ثبت على إسلامه من بكر بن وائل، منهم عُتَيْبَة بن النَّهَّاس[3] والمُثَنّى بن حارثة[4] وغيرهما يأمرهم بالقعود للمنهزمين والمرتدّين بكل طريق، ففعلوا، وجاءت رسلهم إلى العلاء بذلك. وندب الناس إلى دارِين وقال لهم:

---

(١) عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ: أنظر سيرته في طبقات ابن سعد (٥٤٠/٣) وأسد الغابة (١٩٧/٣) والإصابة (٩٥/٣) والاستيعاب (٩٤٠/٣).

(٢) فتوح البلدان (١١٦).

(٣) عتيبة بن النهاس: انظر ما جاء عنه في: ابن الأثير (٣٧١/٢ و ٣٨٨ و ٣٩٢ و ٤٤٦ و ٤٤٧) و (١٤٧/٣ و ١٤٩٠ و ١٨٧) و (٢٢٤/٤) وغيره من المصادر التاريخية.

(٤) المثنى بن حارثة الشيباني: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٩ - ٥٠).

« قد أراكم الله من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر ، فانهضوا إلى عدوِّكم واستعرضوا البحر ». وارتحل العلاء وارتحلوا ، حتى اقتحم البحر على الخيل والإبل والحمير وغير ذلك ، وفيهم الراجل ، ودعا الله ودعوا ، فاجتازوا ذلك الخليج بإذن الله ، يمشون على مثل رملة فوقها ماء يغمر أخفاق الإبل ، وبين السّاحل ودارين يوم وليلة لسفن البحر ، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً ، فظفر المسلمون وانهزم المشركون ، وأكثر المسلمون القتل في المشركين ، فما تركوا بها مُخْبِراً ، وغنموا وسبوا ، فلما فرغوا رجعوا حتى عبروا ، فثبت الإسلام في البحرين بالقضاء على المرتدين.

وكتب العلاء إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ، يعرِّفه هزيمة المرتدين وقتل الحُطَم[1].

وفي رواية ، أنَّ أحد الأدلاّء دلّ العلاء وجيشه على المخاضة إلى دارين ، فتقحّم العلاء في جماعة من المسلمين البحر ، فلم يشعر أهل دارين إلاّ بالتكبير ، فخرجوا وقاتل المسلمون أهل دارين من ثلاثة أوجه ، فقتلوا مقاتلتهم ، وحووا الذراري والسبي[2].

ومهما يكن من أمر ، فقد استطاع العلاء استعادة فتح البحرين كافة عَنْوَة ، وخاض عدّة معارك[3] لاستعادة البحرين والقضاء على المرتدين ، وقد جعل قسم من المؤرخين استعادة فتح المناطق البحرانية بعد معركة جُواثا قد جرى سنة ثلاث عشرة الهجرية على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه[4] ، ولكنّ سير حوادث القتال وتعاقب الأحداث يدل على

---

(١) الطبري (٣/٣١٠ - ٣١٣) وابن الأثير (٢/٣٧١ - ٣٧٢)، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/٨٣).

(٢) فتوح البلدان (١١٧ - ١١٨).

(٣) انظر التفاصيل في: فتوح البلدان (١١٥ - ١١٨) وتاريخ خليفة بن خياط (١/٩٣ - ٩٤).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط (١/٩٣ - ٩٤) وانظر فتوح البلدان (١١٧ - ١١٨).

أنّ استعادة الفتح جرى على عهد أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وهذا ما يؤيده معظم المصادر المعتمدة.

وهكذا استطاع العلاء فتح البحرين صلحاً على عهد رسول الله ﷺ، واستطاع استعادة فتح البحرين عَنْوَة على عهد أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وكان للعلاء أثر كبير في قتال المرتدين من أهل البحرين[1].

٢. جهاده في منطقة فارس

فاز العلاء في قتال أهل الرِدَّة بالفضل، فلما ظفر سعد بن أبي وقّاص بأهل القادسيّة وأزاح الأكاسرة، جاء بأعظم مما فعله العلاء في حرب الرِدَّة، فأراد العلاء أن يصنع بالفُرس شيئاً ويحرز النصر عليهم كنصر سعد على الفُرس في القادسيّة التي كانت سنة أربع عشرة الهجريّة، دون أن يفكِّر في مغبَّة المعصية وأهميّة الطاعة، إذ كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد نهاه عن الغزو في البحر، ونهى غيره أيضاً، اتباعاً لرسول الله ﷺ وأبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، خوفاً من أخطار ركوب البحر، دون كفاية خاصة وتجربة طويلة بركوبه.

ولكنّ العلاء ندب الناس إلى فارس، فأجابوه، ففرّقهم أجناداً، على أحدها الجارود بن المُعَلّى. وعلى الآخر سَوَّار بن همَّام، وعلى الآخر خُلَيْد بن المُنْذِر بن سَاوَى، وخُلَيْد على جميع الناس، وحملهم في البحر إلى فارس، بغير إذن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه.

وعبرت الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا إلى (إصْطَخْر)[2]، وبإزائهم أهل فارس، وعليهم، الهِرْبِذ، فجالت الفُرْس بين المسلمين وبين سفنهم، وقطعوا خطوط رجعة المسلمين إلى سفنهم، فقام خُلَيْد في

---

(١) أسد الغابة (٧/٤).

(٢) إصطخر: بلدة بفارس، سعتها مقدار ميل، وهي من أقدم مدن فارس وأشهرها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٢٧٥ - ٢٧٧).

الناس، فخطبهم فقال: «أما بعد! فإنّ القوم لم يدعوكم إلى حربهم، وإنما جئتم لمحاربتهم، والسفن والأرض لمن غلب، فـ ﴿استعينوا بالصَّبْرِ والصَّلاة وإنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلاَّ عَلَى الخاشعين﴾[1]، فأجابوه إلى ذلك. ثم صلى المسلمون الظهر وهاجوا الفُرس، وقاتلوهم قتالاً شديداً بمكان يدعى: (طاوُوس)[2]، فقتل سُوّار والجارود.

وكان خليد قد أمر أصحابه أن يقاتلوا الفُرس رجّالةً، ففعلوا، فقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة. ثم خرج المسلمون يريدون البَصْرَة، فلم يجدوا إلى الرجوع إلى البحر سبيلا، وأخذت الفرسُ منهم طرقهم، فعسكروا وامتنعوا باتِّخاذ موضع دفاعيّ دافع عنه المسلمون دفاعاً مستميتا[3].

وكان السَّوَّار قد قاتل قتالاً شديداً قبل أن يُقتل، وجعل يرتجز يومئذٍ ويذكر قومه ويقول:

يـــا آل عبــــد القَيْس للقراعِ	قـد حَفَلَ الأَمْدَادُ بـالجراع[4]
وكلُّهم في سَنَنِ المِصَــــــاع[5]	يُحْسِنُ ضَرْبَ القومِ بـــالقَطَّـــاع

حتى قُتل عليه رحمة الله.

وجعل الجارور الذي قاتل قتال الأبطال قبل أن يُقتل يرتجز ويقول:

لو كـــانَ شيئـــاً أَمـــاً أَكَلْتُـــهْ	أو كـان مـاءً سادِماً جَهَرْتُه[6]

لكن بحراً جاءنا أَنكَرْتُهْ

(١) الآية الكريمة سورة البقرة (٢: ٤٥).
(٢) طاووس: موضع بنواحي بحر فارس على سِيْف البحر، انظر معجم البلدان (١٠/٦).
(٣) الطبري (٧٩/٤ - ٨٢) وابن الأثير (٥٣٨/٢ - ٥٣٩).
(٤) يقال: حفل القوم، إذا اجتمعوا أو احتشدوا. والجراع: جمع جرعة، وهي الرملة الطيبة المنبت التي لا وعوثة فيها.
(٥) المصاع: المجالدة والمضاربة.
(٦) الماء السّادم: المتغيّر. وجهرته: عرفته وكشفته.

حتى قُتل عليه رحمة الله.

وجعل خُلَيْد يومئذٍ يرتجز ويقول:

يــــآل تَمـــــيم أجْمِعوا النُّزُول   وكــــــــــادَ جَيْشُ عُمَرٍ يَزُولْ
وكلّهم يَعْلَم ما أقول[1]

وقال خُلَيْد في يوم طاووس:

بطاووس ناهبنا الملوك وخيُلنا   عشية شَهْرَاك[2] عَلونَ الرواسيا
أطاحت جموعَ الفُرسِ من رأس حالقٍ   تراه كموَّار السَّحاب مناغيا
فلا يبعدنّ الله قوماً تتابعوا   فقد خضبوا يوم اللِّقاء العواليا[3]

ولكن تفوق الفرس السّاحق على المسلمين، جعل الخيار الوحيد أمام المسلمين هو الدفاع المستميت.

ولما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه صنيع العلاء، أرسل عُتْبَة بن غَزْوان[4] أمير البصرة، يأمره بإنفاذ جندٍ كثيف من المسلمين إلى المسلمين المحاصرين بفارس قبل أن يهلكوا، وكتب إلى عُتْبَة: «إنّ العلاء بن الحضرمي حمل جنداً من المسلمين، فأقطعهم أهل فارس، وعصاني، فخشيت عليهم ألاّ يُنْصروا وأن يغلَبوا وينشَبوا، فاندب إليهم الناس، واضممهم إليك قبل أن يجتاحوا»[5].

وأرسل عُتُبة جيشاً كثيفاً من البصرة إلى فارس في اثني عشر ألف

---

(١) الطبري (٤/٨٠).

(٢) شهراك: اسم قائد الفرس. انظر الطبري (٤/٨١). وجاء اسمه: شهراك في معجم البلدان (٦/١٠).

(٤) معجم البلدان (٦/١٠).

(٥) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٢١ - ٤٣٠).

(٦) الطبري (٤/٨١).

مقاتل، فيهم عاصم بن عمرو التَّميْمي[1] وعَرْفَجَة بن هَرْثَمَة البَارقي[2] والأحنف بن قيس التّمِيْمي[3] وغيرهم، فخرجوا على النعال يجتنبون الخيل، وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم[4] أحد بني عامر بن لؤي، فسار بالناس وساحل بهم لا يعرف له أحد، حتى التقى أبو سَبْرَاة وخُلَيْد بحيث أُخذ عليهم الطريق عُقَيْبَ وقعة طاووس، وكان قد وَلِيَ قتال المسلمين الذين كانوا بقيادة خُلَيْد أهلُ إصْطَخْر وحدهم ومَنْ شذّ من غيرهم. وكان أهل إصطخر حيث أخذوا الطريق على المسلمين، فجمعوا أهل فارس عليهم، فجاؤوا من كلِّ جهة، فالتقوا هم وأبو سَبْرَة بعد موضع طاووس وقد توافت إلى المسلمين إمداداتهم، وكان الفرس بقيادة شَهْراك (شَهْرَكٍ شَهْرَك)، فاقتتل الجانبان: المسلمون والمشركون، ففتح الله على المسلمين وقتل المشركين وأصاب المسلمون منهم ما شاؤوا، وهي الغزوة التي شرفت فيها نابتة البصرة، وكانوا أفضل نوابت الأمصار، ثم أنكفأوا بما أصابوا، وكان عُتبة كتب إليهم بالحث وقلّة العُرْجَة[5]، فرجعوا إلى البصرة سالمين[6].

لقد استطاع جيش البصرة بقيادة أبي سَبْرة، انقاذ جيش البحرين الذي أرسله العلاء إلى أرض فارس بقيادة خُلَيْد بعد قتال مرير، وكان ذلك سنة سبع عشرة الهجريّة[7].

---

(١) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢٧٧ - ٢٧٩).

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٨٧ - ٣٩٤)، وكان العلاء قد بعث عرفجة بن هرثمة إلى أسياف البحر، فقطع في السفن، فكان أول من فتح جزيرة بأرض فارس واتخذ فيها مسجداً أو أغار على باريخان والأسياف وذلك في سنة أربع عشرة الهجرية، انظر طبقات ابن سعد (٣٦٢/٤).

(٣) أنظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢١٥ - ٢٤٦).

(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (١٥٥ - ١٦٠).

(٥) العرجة: المقام.

(٦) الطبري (٧٩/٤ - ٨٢) وابن الأثير (٥٣٨/٢ - ٥٣٩).

(٧) الطبري (٧٩/٤).

لقد فتح العلاء بالرغم من إخفاق حملته في هذه الغزوة، أسيافاً[١] من فارس[٢]، كما ذكـر بعض المؤرخين.

ومن الواضح أنّ قوات العلاء انسحبت من فارس بعد أن طوّقها العدو وضيّق عليها الخناق، فاضطرّت على أن ترضى من الغنيمة بالإياب، فقد كان موقفها حرجاً يائساً، فما استطاعت أن تفتح شيئاً من فارس، ولكنّ حملة العلاء قدّمت تجارب عسكرية جديدة للمسلمين الفاتحين، فعرفوا منطقة فارس معرفة عملية، وخبروا طاقات الفُرس وأساليب قتالهم، مما هيّأ لهم أسباب فتح بلاد فارس بسهولة ويسر بعد مدّة قصيرة كما هو معروف.

وعلى هذا يمكن اعتبار حملة العلاء على أرض فارس، إخفاقاً تعبوياً ونصراً سَوْقِيّاً[٣]، والنصر السَّوْقِيّ أهم من الاخفاق التعبوي على كل حال.

الإداريّ

ولّى النبيّ ﷺ البحرين العلاء[٤] ليدعو أهلها إلى الإسلام أو الجزية، فأسلم المنذر بن سَاوَى وأسلم جميع العرب هناك وبعض العجم. أما المجوس واليهود، والنصارى، فإنهم صالحوا العلاء، وكتب بينه وبينهم كتاباً هذا نصّه:

---

(١) أسياف: جمع سِيْف بكسر السين، وهو ساحل البحر.
(٢) المعارف (٢٨٤).
(٣) استرتجياً.
(٤) جمهرة أنساب العرب (٤٦١) وفتوح البلدان (١٠٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما صالح عليه العلاء بن الحضرميّ أهل البحرين، صالحهم على أن يكفونا العمل ويقاسمونا التمر، فمن لم يـفِ بهذا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وأما جزية الرؤوس، فإنه أخذ لها من كلّ حالم ديناراً.

وكتب رسول الله ﷺ إلى أهل البحرين: «**أما بعد! فإنكم إذا أقمتم الصّلاة، وآتيتم الزّكاة، ونصحتم الله ورسوله، وآتيتم عشر النّخل، ونصف عشر الحَبِّ ولم تمجّسوا**[١] **أولادكم فلكم ما أسلمتم عليه، غير أنّ بيت النار لله ورسوله، وإن أبيتم فعليكم الجزية**». وكان العلاء يقول: «بعثني رسول الله ﷺ إلى البحرين (أو قال هَجَر)، وكنت آتي الحائط بين الأخوة قد أسلم بعضهم، فآخذ من المسلم العشر ومن المشرك الخراج»، ولم يكن بالبحرين في أيام رسول الله ﷺ قتال، ولكن أسلم بعضهم، وصالح بعضهم العلاء على أنصاف الحب والتمر[٢].

وقد حمل العلاء من مال البحرين إلى بيت مال المسلمين مائة وثمانين ألفاً من الدراهم في رواية، وثمانين ألفاً[٣] من الدراهم في رواية ثانية.

وبقي العلاء على البحرين حتى التحق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى[٤] في رواية.

---

(١) مجسّ: مجَّسه تمجيساً - صيّره مجوسياً وتمجّس: صار من المجوس، كما يقال: تهوّد، وتنصّر.

(٢) انظر التفاصيل في فتوح البلدان (١٠٦-١٠٩).

(٣) البدء والتاريخ (٥/٢٥).

(٤) فتوح البلدان (١١١).

وفي رواية أخرى، أنّ النبيّ ﷺ بعث العلاء إلى البحرين، ثمّ عزله عن البحرين، وبعث أبان بن سعيد بن العاص[1]، وقال له: «**اسْتَوْصي بعبد القيس خيراً وأكرم سَراتهم**»[2].

وفي رواية ثالثة، أنّ العلاء كان على ناحية من البحرين منها القَطِيْف، وأن أبان كان على ناحية أخرى، فيها الخَطّ[3].

وأكثر المراجع والمصادر المعتمدة، تتّفق على أنّ النبيّ ﷺ لم يعزل العلاء عن البحرين[4]، والتحق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى والعلاء لا يزال والياً على البحرين، فأقرّه عليها أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، وهذا ما يؤيده المنطق السليم، فما كان أبو بكر ليولي العلاء على البحرين بعد أن عزله النبيّ ﷺ عنها، ولا أن يعقد له لواءً لحرب المرتدين في البحرين بعد أن عزله النبيّ ﷺ، وكانت سياسة أبي بكر في تولية الولاة معروفة: إقرار ولاة النبيّ ﷺ على ولاياتهم وتثبيتهم على عملهم.

ويبدو أنّ النبيّ ﷺ، ولى أبان بن سعيد منطقة من مناطق البحرين، فاشتبه ذلك على قسم من المؤرخين، فحسبوا أنّ النبيّ ﷺ عزل العلاء عن البحرين، وما عزله ولكن ولى مَنْ يعينه.

وقد أحسن العلاء في ولايته غاية الإحسان، كما أحسن في تولي الصدقات، وكان كاتباً من كتّاب النبيّ ﷺ[5]، وهناك نصوص في بعض الكتب النبويّة تذكر أنّ كاتبها هو العلاء[6].

---

(١) انظر سيرته في: أسد الغابة (٣٥/١-٣٧) والإصابة (١٠/١-١١) والاستيعاب (٦٢/١-٦٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٣٦٠/٤-٣٦١) وفتوح البلدان (١١١).

(٣) فتوح البلدان (١١١) والمحبّر (١٢٦).

(٤) انظر مثلاً: أسد الغابة (٧/٤) والإصابة (٢٥٩/٤) والاستيعاب (١٠٨٦/٣).

(٥) الطبري (١٧٣/٣) وابن الأثير (٣١٣/٢) وأنساب الأشراف (٥٣٢/١).

(٦) انظر تاريخ الواقدي (٧٨٢/٢).

وكما كان العلاء من عمّال النبيّ ﷺ، فقد كان من عمال خليفته أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فكان عامله على البحرين[١] حتى توفي أبو بكر، فأقرّه عمر بن الخطّاب رضي الله عنه[٢].

ولما استعمل عمر بن الخطاب على البصرة عُتبة بن غَزْوَان سنة أربع عشرة الهجرية، كتب إلى عُتَبة فيما كتب: «يا عُتَبَة! إني قد استعملتك على أرض الهند، وهي حومة من حومة العدو، وأرجو أن يكفيك الله ما حولها، وأن يعينك عليها. وقد كتبت إلى العلاء بن الحضرميّ أن يمدّك بِعَرْفَجة بن هَرْثَمة، وهو ذو مجاهدة العدو ومكايدته، فإذا قدم عليك فاستشره وقرِّبه...»[٣]، مما يدل على أنّ العلاء كان ناجحاً في إدارة ولايته، مكتفياً ذاتياً برجاله في إدارتها، ولديه قوات إضافية متيسِّرة، يعاون بها الأمصار المجاورة عند حاجتها إلى معاونته.

وجاءت سنة سبع عشرة الهجرية، والعلاء على البحرين، وكان العلاء يباري سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فطار العلاء على سعد في الرِدَّة بالفضل، فلما ظفر سعد بالقادسيّة سنة أربع عشرة الهجرّية، وأزاح الأكاسرة عن العراق، وأخذ حدود ما يلي (السَّوَاد)[٤]، واستعلَىَ وجاء بأعظم مما كان العلاء جاء به، سرّ العلاء أن يصنع شيئاً في الأعاجم، فرجا أن يُدال كما قد كان أُديل، ولم يقدِّر العلاء ولم ينظر فيما بين

---

(١) الطبري (٤٢٧/٣) وابن الأثير (٤٢١/٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٩١/١).

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (٩١/١).

(٣) الطبري (٥٩٣/٣) وابن الأثير (٤٨٦/٢).

(٤) السواد: رستاق العراق وضياعها، وسمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار؛ لأنّه حين تاخم جزيرة العرب التي لا زرع فيها ولا شجر، إذا خرجوا من أرضهم ظهرت لهم خضرة الزرع والأشجار، فيسمونه: سواداً. وحدّ السواد من حديثه المفصل طولاً إلى عبَّادان، ومن العُذيب بالقادسية إلى حلوان عرضاً، فيكون طوله مائة وستين فرسخاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٥٩/٥-١٦٤).

فضل الطاعة والمعصية بجدٍّ، وكان عمر بن الخطاب قد نهاه عن البحر، فلم يقدِّر الطاعة والمعصية، فحمل الناس في البحر إلى فارس بغير إذن عمر، وكان عمر لا يأذن لأحدٍ في ركوب البحر غازيا، يكره المخاطرة بجنده استناناً بالنبيّ ﷺ وبأبي بكر، لم يغزُ فيه النبيّ ﷺ ولا أبو بكر، فنُكب المسلمون في فارس كما ذكرنا. ولما بلغ عمر الذي صنع العلاء من بعثه ذلك الجيش في البحر، اشتدّ غضبه على العلاء، وكتب إليه بعزله وتوّعده: وأمره بأثقل الأشياء عليه، وأبغض الوجوه إليه، بتأمير سعد عليه وقال: «الْحَقْ بسعد بن أبي وقاص فيمن قِبَلَك» فخرج بمن معه نحو سعد[١].

وفي رواية، أنّ عمر بن الخطّاب كتب الى العلاء وهو عامله على البحرين يأمره بالقدوم عليه، وولّى عثمان بن أبي العاص[٢] الثقفي البحرين وعُمَان، فلما قدم العلاء المدينة المنورة، ولاّه البصرة مكان عُتْبَة بن غزوان، فلم يصل إليها حتى مات[٣].

وفي رواية، أنّ عمر بن الخطّاب كتب إلى العلاء وهو بالبحرين: «أن سِرْ إلى عُتْبَة فقد وليتك عمله»، فسار العلاء، فمات بـ(تِيَاس)[٤] من أرض بني تَمِيْم قبل أن يصل[٥] إلى البصرة.

وفي رواية، أنّ عمر بن الخطّاب، ولاّه البصرة بعد وفاة عتبة بن غزوان، فمات قبل أن يصل إليها[٦].

---

(١) الطبري (٤/٧٩-٨١) وابن الأثير (٢/٥٣٨-٥٣٩).

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (٢٦٢-٢٦٩).

(٣) فتوح البلدان (١١٢).

(٤) تياس: ماء للعرب بين الحجاز والبصرة، وقيل: جبل بين البصرة واليمامة، انظر معجم البلدان (٢/٤٣٨).

(٥) تاريخ خليفة بن خياط (١/٩٦) والمعارف (٢٨٤).

(٦) الاستيعاب (٣/١٠٨٦).

وأرجّح أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، ولاّه البصرة بعد موت عُتْبَة بن غزوان وعزله عن البحرين، لأنّ عمر لم يكن ليبقيه في البحرين بعد إخفاق حملته على أرض فارس، ومخالفته لأمر عمر في عدم ركوب البحر، وهي مخالفة صريحة لأوامر عمر الجازمة في عدم ركوب البحر، فكان عزله عن البحرين عقاباً له.

ولكنّ هذا العقاب لم يكن ليصل إلى حدّ كسر عزّة العلاء وتحميله من الأمر ما لا يطيق، وذلك بجعله تحت إمرة سعد بن أبي وقاص المباشرة، الذي كان العلاء ينافسه في خدمة الإسلام عن طريق الفتح، فمن المعقول إذاً نقله من البحرين إلى ولاية أخرى قريبة من البحرين هي البصرة، فيكون ذلك العقاب عقاباً لا يرقى إلى درجة الإذلال والمهانة والانتقام، التي كانت بعيدة كلّ البعد عن خلق السّلف الصالح من أمثال عمر بن الخطّاب وعن خلق القرآن الكريم.

كما أنّهم كانوا لا يحطِّمون المرء لزلّة من الزلاّت، ضاربين بماضيه المجيد عرض الحائط، ومتناسين أعماله في خدمة الإسلام والمسلمين، بل كانوا يذكرون المرء بأحسن ما فيه ولا ينسون له ما قدّمت يداه من خير.

لقد كانوا بحق يبنون الرجال، بعكس الحاكمين اليوم، الذين يحطِّمون الرجال، بالقضاء عليهم دون رحمة بعد أوّل زلّة من الزلاّت، غير مكترثين بماضي المرء وأعماله المجيدة.

فما أحرى حكّام اليوم أن يتعلّموا كيف كان السَّلف الصّالح يبنون الرجال، فقد اختصّ حكّام اليوم بتحطيم الرجال، حتى خلت الديار من الرجال، وسادت العُمْلة الرديئة على العُمْلة الجيدة، وأشباه الرجال على الرجال!.

وقد أحسن العلاء سفيراً وقائداً ووالياً وجابياً غاية الإحسان، وأخطأ مرة، والحسنات يذهبن السيئات.

الإنسان

أصل العلاء من حَضْرَمَوْت، سكن أبوه مكة المكرّمة، فولد بها العلاء ونشأ، وتعلّم القراءة والكتابة، وكان الذين يحسنون القراءة والكتابة قليلين جداً في عرب الجزيرة العربية، فأصبح أحد كتّاب النبيّ ﷺ[1] في كتابة الوحي ورسائله النبويّة.

وأخباره إنساناً قليلة جداً في المصادر المعتمدة، لا تتناسب مع ما بذله من جهد صادق أمين في خدمة الإسلام والمسلمين سفيراً وأميراً وجابياً ومجاهداً وقائداً، فلا ندري متى ولد، وكيف عاش، وهل له عقب أم ليس له عقب، ولا نعلم عن عقبه شيئاً.

وقد تحدّثت المصادر المعتمدة عن إيمانه العميق وتقواه وورعه، ويقال إنّه كان مستجاب الدعوة[2]، كدليل على تقواه وورعه العميقين، وكان الصحابيّ الجليل أبو هُرَيْرَة رضي الله عنه يقول: «رأيتُ من العلاء بن الحضرميّ ثلاثة أشياء لا أزال أحبّه أبداً: رأيته قطع البحر على فرسه يوم دَارِين، وقدم من المدينة يريد البحرين، فلما كان بالدَّهْناء نفد ماؤهم فدعا الله فنبع لهم من تحت رَمْلةٍ فارتووا وارتحلوا، وأُنْسيَ رجل منهم بعض متاعه فرجع فأخذه ولم يجد الماء، وخرجت معه من البحرين إلى صفّ البصرة، فلما كنا بلِياسٍ مات ونحن على غير ماء، فأبدى الله لنا سحابة فمُطِرْنا فغسّلناه وحفرنا له بسيوفنا ولم نُلْحد له ودفنّاه

---

(١) ابن الأثير (٢/٣١٣) والسيرة الحلبية (٢/٣٦٤).

(٢) الاستيعاب (٢/١٠٨٧) والمعارف (٢٨٤) وتهذيب الأسماء واللغات (١/٣٤٢).

ومضينا، فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: دفنّاه ولم نُلْحِد له، فرجعنا لنُلْحِدَ له، فلم نجد موضع قبره»[1].

وذكرت تلك المصادر المعتمدة، أنّ العلاء سلك بجيشه الدَّهْناء في طريقه من المدينة إلى البحرين لحرب المرتدين في رِدَّة أهل البحرين، حتى إذا كانوا في بُحْبُوحتها - بحبوحة الدَّهْنَاء - نزل وأمر الناس بالنزول في الليل، فنفرت إبلهم بأحمالها، فما بقي عندهم بعير ولا زاد ولا ماء، فلحقهم من الغمِّ ما لا يعلمه إلاَّ الله ووصّى بعضهم بعضاً، فدعاهم العلاء فاجتمعوا إليه، فقال: «ما هذا الذي غلب عليكم من الغم؟!»، فقالوا: «كيف نُلام ونحن إن بلغنا غداً لم تحمَ الشمس حتى نهلك!»، فقال: «لن تُراعوا! أنتم المسلمون، وفي سبيل الله وأنصار الله، فأبشروا فوالله لن تُخْذلوا». فلما صلّوا الصبح، دعا العلاءُ ودعوا معه، فلمع لهم الماء، فمشوا إليه وشربوا واغتسلوا، فما تعالى النَّهار حتى أقبلت الإبل تُجمع من كلِّ وجه، فأناخت إليهم، فسقوها، وكان أبو هريرة فيهم، فلما ساروا عن ذلك المكان، قال لِمنْجاب بن راشد[2]: «كيف علمك بموضع الماء؟»، قال: «عارف به!»، فقال: «كنْ معي حتى تُقيمني عليه»، قال: «فرجعتُ به إلى ذلك المكان فلم نجد الاّ غدير الماء فقلت له: والله لولا الغدير لأخبرتك أنّ هذا هو المكان، وما رأيت بهذا المكان ماءً قبل اليوم»[3].

وكتب العلاء إلى أبي بكر الصدِّيق: «أما بعد! فإنّ الله تبارك وتعالى فجّر لنا الدَّهْنَاء فيضاً لا تُرى غواربه، وأرانا آية وعبرة بعد غمّ وكرب، لنحمد الله ونمجِّده، فادْعُ الله واستنصره لجنوده وأعوان دينه».

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/٣٦٣).
(٢) هو الدليل في رحلة العلاء والمسلمين في هذه الرحلة الصحراوية.
(٣) الطبري (٣/٣٠٦-٣٠٨) وابن الأثير (٢/٣٦٩).

فلما تسلّم أبو بكر الصدِّيق كتاب العلاء حمد الله ودعاه، وقال: «لا زالت العرب فيما تحدَّث عن بلدانها، يقولون: إنّ لقمان حين سئل عن الدَّهناء: أيحتقرونها أو يَدَعونها؟ نهاهم، وقال: لا تبلغها الأَرْشيَة، ولم تقرّ العيون، وإنّ شأن هذا الفَيْض من عظيم الآيات، وما سمعنا به في أُمّة قبلها. اللّهم أخلف محمّداً ﷺ فيناً»[1].

هذا بعض ما جاء عن إحدى كرامات الرجل الصالح العلاء في الدَّهْناء.

أما ما جاء عن كرامة من كراماته في استعادة فتح دَارين، من أنّه ندبالناس إلى دارين، ثمّ جمعهم فخطبهم، وقال: «إنّ الله قد جمع لكم أحزاب الشياطين وشُرَد الحرب، وقد أراكم من آياته في البرّ لتعتبروا بها في البحر، فانهضوا إلى عدوِّكم، ثم استعرضوا البحر إليهم، فإن الله قد جَمعهم»، فقالوا: نفعل ولا نهاب والله بعد الدَّهْناء هَوْلاً ما بقينا».

وارتحل العلاء وارتحلوا، حتى إذا أتى ساحل البحر اقتحموا على الصَّاهل[2] والجَامِل[3] والشَّاحج[4] والنّاهق والرّاكب والرَّاحل[5]، ودعا ودعوْا، وكان دعاؤه ودعاؤهم: يا أرحم الرّاحمين، يا كريم، يا حليم، يا أحد، يا صَمَد، يا حيّ، يا محيي الموتى، يا حيّ يا قيوم، لا إله إلا الله أنت، يا ربّنا»، فأجازوا ذلك الخليج بإذن الله جميعاً يمشون على مثل رَمْلة مَيْثاءَ، فوقها ماء يغمرُ أخفاف الإبل، وإن ما بين السّاحل ودَارين مسيرة يوم وليلة بسُفن البحر في بعض الحالات[6].

---

(١) الطبري (٣/٣١٣).

(٢) الصاهل: الفرس، والصهيل صوته.

(٣) الجامل: القطيع من الأبل.

(٤) الشاحج: البغل، والشحيج صوته.

(٥) في الأغاني: فارتحل وارتحلوا حتى أتى ساحل البحر. فاقتحموا على الخيل، هم والحمولة والإبل والبغال. الراكب والراجل.

(٦) الطبري (٣/٣١٠-٣١١).

وللمرء أن يصدّق ما روته المصادر المعتمدة للعلاء أو لا يصدّق، ولكن ذكر أمثال هاتين الكرامتين للعلاء إن دّلتا على شيءٍ فإنّهما تدلاّن على ما كان يتمتّع به من إيمان عميق، ولا شيء يُسْتكْثر على المؤمن الحق، فطالما أثمر الإيمان الأعاجيب، وليس من الصواب أن نقيس كل شيءٍ بالمقاييس المادية وحدها دون غيرها من المقاييس، إذ هناك من القضايا المعنوية ما يصعب قياسها بالمقاييس الماديّة، فشتان بين المادة والروح.

ولئن حرصتُ على نقل هاتين الكرامتين للعلاء من المصادر المعتمدة، فلكي أسرد كلّ ما جاء عن العلاء تحقيقاً للأمانة العلميّة، ولكي أعطي صورة متكاملة عنه إنسانا.

لقد كان العلاء بالإضافة الى ورعه وتقواه، شهماً غيوراً، صادقاً وفياً، يتحلّى بمزايا الخلق الكريم، وكان متفرغاً بكل طاقاته المادية والمعنوية لخدمة الإسلام والمسلمين، فكأنه نسي نفسه وأهله في تفرّغه لخدمة مصالح دينه وإخوته في الدين، إذ لا نعلم أنّه ترك درهماً ولا ديناراً، ولا متاعاً ولا دارا، بل ترك هذا الذكر الحميد الذي هو أثمن من كل مال وعقار.

روى له البخاري ومسلم حديثاً واحداً، وروى عنه السّائب بن يزيد وأبو هريرة[١]، وروى أربعة أحاديث[٢] في مجموع ما رواه من أحاديث.

وأخيرا، انتهت حياة العلاء، فتوفي سنة أربع عشرة الهجريّة (٦٣٥م) وقيل: سنة إحدى وعشرين[٣] (٦٤١م). وفي رواية أخرى: أنه

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٣٤٢/١).

(٢) أسماء الصحابة الرواة – ملحق بجوامع السيرة (٢٩٠).

(٣) أسد الغابة (٧/٤) والإصابة (٢٥٩/٤) والاستيعاب (١٠٨٦/٣) وتهذيب الأسماء واللغات (٣٤١/١–٣٤٢) والبداية والنهاية (١٢٠/٧).

مات في سنة أربع عشرة الهجريّة في أول سنة خمس عشرة الهجريّة، وقيل: توفي سنة عشرين الهجرية[1].

تلك نماذج من المصادر المعتمدة التي تردّدت في تاريخ وفاة العلاء، ولكن هناك مصادر معتمدة لم تتردّد، فقد نصت على أنه توفي سنة إحدى وعشرين الهجريّة[2]، وهذا ما نرجحّه لأنّ العلاء غزا أرض فارس سنة سبع عشرة الهجريّة، فلا بدّ من أن تكون وفاته بعد ذلك، أي سنة إحدى وعشرين الهجرية، وهي السنة التي تردّدت قسم من المصادر المعتمدة في إثباتها سنة لوفاة العلاء، ولكنها ذكرتها دون البت في أمرها، بينما لم يتردد قسم آخر من المصادر في النصّ على أنها سنة وفاة العلاء.

لقد كان العلاء بحق من أولئك الرجال الأفذاذ والذين عاشوا لعقيدتهم وماتوا في سبيلها، فنسوا أوّل ما نسوا في غمرة التفرغ لخدمة تلك العقيدة أنفسهم، فما نساهم الله ولا الناس ولا التاريخ، وكانوا الأسوة الحسنة للذين يعملون لقلوبهم لا لجيوبهم، وللمصلحة العامة لا للمصلحة الخاصة، ولعقيدتهم وإخوتهم في العقيدة لا لأنفسهم وأهليهم في النسب والقُربى.

القائد

كان للعلاء أثر عظيم في قتال أهل الرِدَّة عند البحرين[3]، فقد استطاع إحراز النّصر على المرتدين، بالرغم من تفوقهم السّاحق على المسلمين في العَدَد والعُدَد، ونشوب القتال في عقر دارهم بعيداً عن قواعد المسلمين.

---

(١) فتوح البلدان (١١١-١١٢).

(٢) ابن الأثير (٢١/٣) والعبر (٢٥/١) وجمهرة أنساب العرب (٤٦١).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٣٤٢/١).

ولكنّه لم يكن مصيباً في قراره الخاص بعبور البحر إلى فارس، لأنّ إطاعة الأوامر أساس من أقوى أسس الجندية في كلّ زمان ومكان.

ولست أشك بتاتاً، في أنّ العلاء اجتهد فأخطأ، وأنّ نيّته سليمة تتَّجه بكلٍّ طاقاتها لخدمة الإسلام والمسلمين - ومن هذه الطّاقات، سلوك طريق التّنافس الشّريف في الفتوح، إلاّ أن ذلك لا يسوِّغ مطلقاً مخالفته للأوامر الصّريحة الصّادرة إليه من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بعدم ركوب البحر، خوفاً على المسلمين.

ولكنّ هذه المخالفة بالذات، تدلّ على حبّ العلاء للمسؤولية وإقدامه على تحملها كاملة، حتى تجاه قائد أعلى قويّ غاية القوّة، مثل عمر بن الخطاب.

لقد كان العلاء ينافس سعداً في ميدان الفتوح، فأين ينافسه إذا لم يعبر البحر إلى فارس؟ لقد كان العبور إلى فارس، هو المسلك الوحيد الذي يستطيع العلاء سلوكه دون منافس، ويستطيع من خلاله أن يحقِّق فتحاً جديداً للمسلمين، لأنّ العراق قد فتحه سعد فذهب بفخره وأجره، والبلاد العربية في جنوب البحرين تدين بالإسلام ويحكمها ولاةٌ مسلمون، فليس للعلاء ميدان يظهر به جهاده وجهوده غير بلاد فارس، ولكن كان عليه أن يحصل على موافقة قائده الأعلى عمر بن الخطاب في ركوب البحر إلى فارس، وبخاصة وأن عمر أعرف بالظروف المناسبة لخوض المعركة في فارس، وأقدر عل استكمال ما تحتاج إليه تلك المعركة من أمور ماديّة ومعنويّة، قبل خوضها لضمان النصر، ثم هو المسؤول الأول عن إدارة المعارك لقادته كافة في جميع جبهات القتال.

لقد اجتهد العلاء فأخطأ، وللمخطىء حسنة، وللمصيب حسنات.

وكانت له قابليّة متميّزة على إصدار القرارات السريعة الصحيحة، لذكائه وحرصه على الحصول على المعلومات عن العدو، وحذره ويقظته،

ومعرفته المستفيضة بالأرض التي يقاتل عليها وبالعدو الذي يقاتله، لأنّه أمضى ما يناهز الأربع سنوات في البحرين سفيراً وأميراً وعاملاً على الصدقات وداعياً إلى الله.

وكان يتحلّى بالشجاعة الشخصية النادرة، فهو من قادة العقيدة الذين لا يبالون أوقعوا على الموت، أم وقع الموت عليهم، والشّهادة في سبيل الله من أغلى أمانيهم، وإنّما الجهاد بالنسبة إليهم يؤدي إمّا إلى النّصر أو الشهادة، فهم يحرصون على الشهادة حرصهم على النّصر، ومعنوياتهم العالية المرتكزة على الإيمان الرّاسخ هي من أهم عوامل شجاعتهم الشخصيّة.

وكان يتحلّى بالإرادة القويّة الثابتة التي لا تتزعزع ولا تتردد ولا تنثني ولعلّ أوضح دليل على إرادته القويّة الثابتة، اجتيازه الدّهناء على رأس جيشه، وليس اجتيازها بالأمر اليسير.

وسرّ إرادته القويّة، ثقته العظيمة بالله، واعتماده عليه وتوكّله على قدرته، وإيمانه المطلق بأنّ الله لا يخزيه ما دام على الحق.

وكانت له نفسيّة لا تتبدّل في حالتي اليسر والعسر، فالمؤمن بخير على كل حال، اذا انتصر شكر، وإذا اندحر صبر.

وكان يتمتع بمزية سبق النظر، فيحسب لكل أمر حسابه، ويتّخذ التدابير المبكرة الكفيلة بما عسى أن يلاقيه من مشاكل وعقبات، وبالحلول الناجعة المعقولة لحلّها.

وكان يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم لأنّه عايشهم في الحلّ والسفر، وفي السلم والحرب، مختلطاً اختلاطاً راسخاً بهم، كأنّه فرد منهم له ما لهم وعليه ما عليهم، فكان يستخدم الرجل المناسب في المكان المناسب حسب كفايته وقابليته ونفسيّته، وهذا هو سر نجاحه قائداً وإدارياً أو هو في أسرار نجاحه.

وكان يثق برجاله ثقة بغير حدود، وكانوا يثقون به ثقة عمياء، لأنّه كان يعمل لهم أكثر مما يعمل لنفسه، بل نسي نفسه في غمرة العمل الدّائب لأصحابه، فيؤثرهم على نفسه ولا يؤثر نفسه عليهم، وبهذا استحوذ على ثقتهم المطلقة به قائداً وإدارياً وإنساناً.

وكان يحبّ رجاله، ويبادلونه حبّاً بحب، لأنّه يعطيهم من نفسه كلّ شيء، ولا يريد لنفسه منهم شيئاً، ويسخّر نفسه لمصالحهم، ولا يسخّرهم لمصالحه، ويعطيهم ولا يأخذ منهم.

وكان يتحلّى بشخصية قويّة نافذة، يفرض احترامه على رجاله بدون قسر، فيطيعونه طاعة الواثق بمن يثق به والمحب بمن يحب، فكان يعرف ما عليه من واجبات فيؤدِّيها دون نقصان، ويعرف ما على غيره من واجبات في خدمة الإسلام والمسلمين، فيؤدي رجاله واجباتهم أداء الذي يجد قائده يسبقه في أداء واجباته ويحرص على تنفيذ أوامره شخصياً قبل أن يطالب غيره بتنفيذها.

وكان يتحلّى بالقابلية البدنية التي تعينه على تحمل المشّاق، والدليل على تلك القابلية نجاحه في اجتياز الدَّهْناء وصبره الطويل على تحمل أعباء التنقل والقتال.

وكان له ماضٍ ناصع مجيد في خدمة الإسلام والمسلمين، وبخاصة في فتح البحرين صلحاً بسفارته النبويّة، وأمجاده في الجهاد تحت لواء النبيّ ﷺ معروفة.

وعند تطبيق عمليات العلاء العسكرية على مبادىء الحرب، نجد أنّه كان يطبِّق مبدأ: اختيار المقصد وإدامته، يضعه أمام عينيه ولا يحيد عنه، وكانت معاركه تعرضيّة لم يتخذ خطّة الدفاع، فكان يؤمن بأنّ الهجوم أنجع وسائل الدفاع.

وكان في معاركه يطبِّق مبدأ المباغتة، أهمّ مبادىء الحرب على

الإطلاق: مباغتة بالمكان كما فعل بعبور صحراء الدَّهْناء ليصل إلى البحرين من أقصر طريق بأسرع وقت ممكن من اتِّجاه لا يتوقعه المرتدّون - بالرغم من أخطار عبور هذه الصحراء، ومباغتة في الزّمان، كما فعل في مهاجمة المرتدين من أهل البحرين في وقت لا يتوقّعونه.

وكان يطبِّق مبدأ حشد القوّة، فقد عقد أبو بكر الصدِّيق له لواء على جيش في المدينة المنورة، فزحف على رأس هذا الجيش إلى المرتدين في البحرين، وكان يستنهض المسلمين الذين يمرّ بهم في طريقه إلى هدفه، كما ضم إلى هؤلاء جميعاً مُسلمي البحرين الذين ثبتوا على الإسلام ولم يرتدوا، فحشد طاقات المجاهدين كافة لحرب المرتدين.

ولكنّه كان يطبِّق مبدأ الاقتصاد بالقوة، فيخصِّص القوات المناسبة لتحقيق أهدافه القتالية دون إفراط في الكميّة ولا تفريط فيها.

وكانت خططه التعبويّة مرنة، يستطيع تبديلها أو تحويرها حسب الظروف والأحوال.

وكان يطبِّق مبدأ التعاون بين أقسام قواته المختلفة، وبين مجموعة قوّاته والقيادة الإسلامية العليا في قاعدة المسلمين الرئيسة: المدينة المنورة.

وكان يطبق مبدأ إدامة المعنويات، فيرفع معنويات رجاله بإيمانه العميق وأسوته الحسنة وإحراز النصر، وكان وجوده كافياً لرفع معنويات رجاله في أقسى الظروف والأحوال.

وكان يطبِّق مبدأ الأمن، بإخراج المقدِّمات والمجنبات والمؤخّرات والسّاقات ومفارز الاستطلاع والحذر واليقظة والحصول على المعلومات المفصلة عن المرتدين.

وكان يطبِّق مبدأ الامور الإدارية، فما علمنا أنّ قواته جاعت أو

عطشت أو شكت قلّة وسائط نقلها أو نقص الطبابة فيها. فكانت قضايا جيشه الإدارية جارية على أحسن وجه.

إنّه كان يطبِّق مبادىء الحرب كافة بكفاية واقتدار وحرص، لذلك انتصر في جميع المعارك التي خاضها، فهو من قادة المسلمين المتميِّزين.

عوامل نجاح السَّفير

كان نجاح العلاء في سفارته النبوية نجاحاً باهراً، فقد أسلم المنذر بن سَاوى عامل كسرى على البحرين، وأسلم معه من أهله وقومه كثير، وأصبحت البحرين جزءاً من الدولة الإسلاميّة الناشئة صلحاً بدون قتال، فكان نجاح العلاء في سفارته النبوية أقصى ما يطمح إليه سفير ناجح في سفارته، فما عوامل نجاحه سفيرا؟

يمكن أن نعدِّد خمسة عوامل لهذا النجاح الباهر: الأول: هو الانتماء والإيمان، والثاني: هو الفصاحة والعلم وحسن الخلق، والثالث: هو الصبر والحكمة، والرابع: هو سعة الحيلة والدّهاء، والخامس: هو رواء المظهر.

أما العامل الأول، وهو الانتماء والإيمان، فقد كان العلاء مسلماً حقاً في انتمائه، لا يعرف إلا خدمة الإسلام والمسلمين، كأنه لم يخلق إلاّ لتحقيق هذا الهدف السّامي الرفيع.

وقد كاد لتفرغه الكامل من أجل هذا الهدف، أن ينسى نفسه وما تحتاج إليه من رغبات في الحياة، وما تصبو إليه من آمال في المستقبل القريب والبعيد.

وكان انتماؤه للإسلام عميق الجذور في نفسه، أنساه كلّ انتماء آخر قبل إسلامه، فتفرّغ لانتمائه الجديد.

وكان مؤمناً صادق الإيمان، بل كان فذّاً في إيمانه، برز على كثير من المسلمين في أيامه، مع أنّ الذين برز بينهم هم من مجتمع الصحابة عليهم

رضوان الله، فوصف بأنّه: مستجاب الدّعوة، وأنّ له كرامات سجّلها له المؤرخون وأصحاب السِّير والمؤلّفون.

لقد كان في انتمائه إلى الإسلام، وإخلاصه لهذا الدين، وإيمانه الرّاسخ بما جاء به من عند الله، والتزامه الثابت بكتاب الله وسنّة رسوله عليه الصّلاة والسلام، أسوةً حسنة لمن عاش معه ولمن جاء بعده من المسلمين، ومثلاً أعلى يُحتذى به في الانتماء الحق الراسخ والإيمان الصادق المتين.

أما العامل الثاني، وهو الفصاحة والعلم وحسن الخلق، فمن المعروف أنّ العربيّ في أيام العلاء، كان مشهوراً بفصاحته، ونزول القرآن الكريم على المجتمع العربي حينذاك متحدياً ذلك المجتمع بفصاحته، دليل قاطع على ما كان يتمتع به المجتمع العربي يومئذٍ من فصاحة عالية وبلاغة رفيعة.

واختيار العلاء ليتولى إحدى السفارات النبويّة إلى منطقة عربية مشهود لها بالفصاحة، دليل على أنّ العلاء كان متميِّزاً بفصاحته على أقرانه في ذلك المجتمع العربيّ الفصيح، فما كان النبيّ ﷺ ليختار سفيراً إلى بلاد عربية معروفة بالفصاحة والبيان إلاّ إذا كان متميزاً بفصاحته، ليكلِّم الناس بأسلوب يؤثر في قلوبهم وعقولهم معاً.

وقد ذكرنا أنّ العلاء كان يحسن القراءة والكتابة في مجتمع أمي يندر فيه مَنْ يُحسن القراءة والكتابة، والطريق إلى العلم هو القراءة والكتابة كما هو معروف. وكان العلاء من رواة الحديث كما علمنا، كما كان فقيهاً مما رشّحه ليكون أحد عمال الصدقات للنبي ﷺ، وما كان ليتسنّم هذا المنصب المرموق لولا فقهه في الدين. كما أن النزاهة المطلقة هي إحدى شروط تسنّم هذا المنصب، والنزاهة سمه من سمات حسن الخلق، والإسلام جاء ليتمِّم محاسن الأخلاق ومكارمها.

وقد كان حسن الخلق من سمات المسلم الحق، ولا يزال حسن الخلق

من سماته حتى اليوم، سيبقى من سماته ما بقي هذا الدين.

وقد كان مجتمع الصحابة عليهم رضوان الله، مجتمعاً متميِّزاً بكثير من المزايا والصفات، لعلّ من أبرزها حسن الخلق، فكانوا قمّة في محاسن الإخلاق، وكان العلاء فرداً من هذا المجتمع المتميِّز بمكارم الأخلاق، وكانمن أفضلهم خلقاً.

أما العامل الثالث،وهو الصبر والحكمة، فقد كان الصبر الجميل سمة من سمات الصّحابة، وهو مزيّة من مزايا محاسن الاخلاق وصفة من صفات المؤمنين الصادقين.

وقد وردت مادة: (صَبَر) ومشتقاتها في مائة وثلاث آيات في القرآن الكريم حثاً على التمسّك بمزية الصّبر، وهي مزيّة أمر بها الدين وحث على التمسك بأهدابها.

وما جزع العلاء في مفاوضاته أيام سفارته وقبلها وبعدها، بل صبر على تبليغ الدعوة، حتى حقّق هدفه المنشود.

وكان حكيماً في مفاوضاته، ولم يكن فظاً غليظ القلب، فما انفض الذين حمل الدّعوة إليهم، بل أحاطوا به إحاطة السِّوار بالمعصم، وكانوا له أهله بعد أهله وإخوةً وأصحابا.

ونجاحه الباهر في سفارته دليل حاسم على حكمته وأناته وسعة صدره وحلمه وصبره الجميل.

أما العامل الرابع،وهو سعة الحيلة، فإن النتائج التي حقّقها العلاء في سفارته النبوية، تثبت أنّه كان على جانب عظيم من سعة الحيلة، ولو لم يكن ألمعيّ الذكاء، راجح العقل، قويّ المنطق، بعيد النظر، حاضر البديهة، صائب الرأي، نقي الفكر، لما كُتب له في مهمته الصعبة التوفيق والنّجاح.

والعامل الخامس والأخير، وهو رواء المظهر، ولا نصوص على رواء مظهر العلاء في المصادر المعتمدة المتيسِّرة التي ذكرته وتحدثت عنه، ولكن يمكن استنتاج ذلك من توليته السفارة النبوية، فقد اختار النبي ﷺ سفراءه بموجب شروط معينة واضحة، منها رواء المظهر، فليس من المعقول أن يتحلّى سفراء النبي ﷺ بهذا الرواء إلاّ العلاء، فلا بدّ من أن تشمله شروط اختيار السفراء كافة كما شملت غيره من زملائه السفراء.

والعلاء وأبوه وإخوته وآل بيته حلفاء بني أميّة، وهم معروفون بالاهتمام بمظهرهم قبل الإسلام وبعده، ومن المعقول أن يقتدي الحليف بحليفه، وبخاصة وأنهم يعيشون بتماس شديد، متعاونين في البأساء والضرَّاء.

والصّعبة أخت العلاء، كانت تحت أبي سفيان بن حرب، وكان أبو سفيان سيد قريش وقائدهم حتى السنة الثامنة الهجرية، حيث أسلم بعد فتح مكّة وتخلّى عن زعامته وقيادته لمن هو أحقّ بها منه من المسلمين الأولين، فليس من المعقول أن يتزوج الصّعبة وهي ليست قرشيّة ويتخلّى عن بنات قومه قريش، إلا إذا كان وراء زواجه بها جمالها غير الاعتياديّ، فأغراه بها جمالها الباهر، واختارها حليلة له. فلما طلّقها خلف عليها عُبَيْد الله بن عثمان التّيمِيّ فولدت له طلحة بن عُبَيْد الله أحد العشرة المبشّرين بالجنة، مما يدل على جمالها حتى بعد أن تخلّى عنها ريعان الشباب، فما كسدت بعد طلاقها، بل أقبل عليها أشراف قريش.

وكان طلحة بن عُبيد الله رضي الله عنه، حسن الوجه، دقيق العِرْنين[1]، ولا يستبعد أن يكون طلحة قد خوّل، فورث الجمال عن أمه وأخواله.

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٢٢٩)، والعرنين: ما صلب من عظم الأنف حيث يكون الشمم.

تلك هي مجرّد استنتاجات، قد تصدق وقد لا تصدق، ولكنّها لا تغيّر حقيقة تفوق نجاح العلاء في سفارته النبوية، إذ كان نجاحه في تلك السفارة باهراً فاق كل توقّع وحساب، وهذا هو الواقع الذي لا يستطيع أن يماري به أحدٌ من الناس.

العلاء في التاريخ

يذكر التّاريخ للعلاء، أنه كان سفير النبي ﷺ إلى البحرين، فاستطاع فتح البحرين صلحاً بدون قتال، ودخل أهل البحرين في دين الله أفواجاً.

ويذكر له، أنّه أحد عمال النبي ﷺ على الصّدقات، وأحد أُمرائه على البحرين.

ويذكر له، أنّه نال شرف الصُّحبة وشرف الجهاد تحت لواء النبي ﷺ.

ويذكر له، أنّ النبي ﷺ التحق بالرفيق الأعلى، والعلاء لا يزال على البحرين فأقرّه عليها أبو بكر الصدِّيق، وأقرّه عليها عمر بن الخطّاب بعد أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهما.

ويذكر له، أنّه كان أحد قادة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في حروب رِدَّة البحرين، فكان له أثر عظيم في قتال أهل الرِدَّة عند البحرين[١].

ويذكر له، أنّه كان أول قائد من قادة المسلمين ركب البحر، ففتح جزءاً من ساحل فارس الغربيّ، ومهد السبيل للمسلمين الفاتحين لفتح بلاد فارس وضمّها إلى الدولة الإسلاميّة.

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٣٤٢/١).

ويذكر له، أنّه أوّل قائد مسلم، بعث قائداً مسلماً للفتح في البحر[1]، فعرف المسلمون السفن وركوب البحر، وكانوا لا يعرفون غير الإبل سفن الصحراء.

رضي الله عن الصحابي الجليل، السفير اللّامع، الإداري الحازم، القائد الفاتح، المحدّث الفقيه، العلاء بن الحَضْرَمِيّ.

---

(١) بعث عرفجة بن هرثمة البارقي لفتح بعض جزر الخليج العربي وبعض مناطق خوزستان، انظر التفاصيل في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٥ - ٣٦٣).

الحارث بن عُمَيْر الأَزْدِيّ
السَّفير الشَّهيد

نسبه وإسلامه وأيامه الأولى

هو الحارث بن عُمَيْر الأَزْدِي، أحد بني لِهْب[١]، ولِهْب هذا هو ابن أَحْجن بن كَعْب بن الحارث بن كَعْب بن عبد الله بن مالِك بن نَصْر بن الأَزْد[٢].

وبنو لِهْب بن أَحْجَن، بطن من بطون الأَزْد، وهم وبنو خُزَيْمَة أَعْيَفُ[٣] العرب، فيهم يقول كُثَيِّر[٤].

تَيَمَّمْتُ لِهْباً أبتغِي العلمَ عندهم　　　وقد رُدَّ عِلْمُ العائفين إلى لِهْبِ[٥]

وقال آخر[٦]:

فما أعْيَــفَ اللِّهْــبِيّ لا دَرَّ دَرُّه　　　وأزجره للطَّـير لا عَزَّ نــاصِرُه[٧]

(١) أسد الغابة (٣٤١/١) والاصابة (٢٩٩/١) والاستيعاب (٢٩٧/١).

(٢) جهرة أنساب العرب (٣٧٦).

(٣) العِيافة: زجر الطّير والتّفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرّها، والظنّ والحدس، وأعيف العرب: أكبرهم معرفة بزجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرّها.

(٤) هو كُثَيِّر عَزَّة.

(٥) عيون الأخبار (١٤٨/١) والأغاني (٤٠/٨).

(٦) هو كثـير عزّة أيضـاً كما في زهر الآداب (١٦٩/٢) ومحـاسن البيهقي (٢٢/٢-٢٣) والمستظرف (١٦٩/٢) وعيون الأخبـــار (١٤٧/١) وشرح الشريشي للمقـــامـــات (٢١٥/٢) في قصّة طويلة.

(٧) رواية المصادر السّابقة: «النهدي» مكان «اللهبي».

ولا نعرف شيئاً عن أيامه الأولى قبل الإسلام، ولا عن إسلامة ومتى كان وأين؟ ولا نعرف شيئاً عن الغزوات التي شهدها مع النبي ﷺ ولا عن السَّرايا التي شهدها مع الصَّحابة رضي الله عنهم، كما لا نعرف شيئاً عن جهوده في المجتمع الإسلامي الجديد.

السَّفير

بعث النبي ﷺ الحارث بكتابه إلى ملك الرُّوم، وقيل إلى ملك بُصْرى[1]، وفي رواية أخرى أنّه بعثه إلى ملك بُصْرى بكتاب[2]، والرواية الثانية هي الصّواب، لأن السفير لو كان متوجِّهاً إلى ملك الرُّوم، لما استطاع أحد من الغساسنة قتله أو الوقوف في طريقه، ولكنه كان سفيراً إلى ملك بُصْرى، وهو غَسَّاني أيضاً، فعرض له شُرَحْبِيْل بن عمرو الغَسَّانِيّ في موقع مُؤْتَة[3] فقال: «أين تريد؟»، قال: «الشام»، قال: «لعلّك من رُسُل محمد؟»، قال: «نعم، أنا رسول رسول الله»، فأمر به، فأُوثِق رِباطاً، ثم قدّمه فضرب عنقَه صبراً، ولم يُقْتَل لرسول الله ﷺ رسول غيره. وبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فاشتدّ عليه، ونَدَبَ الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ومَنْ قتله، فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجُرْف[4]. ولم يبيِّن رسول الله ﷺ الأمر، فلما صلى رسول الله ﷺ الظّهر

---

(١) بصرى: قصبة كورة حوران من أعمال دمشق، مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٠٨)، انظر أسد الغابة (١/٣٤٣) والاستيعاب (١/٢٩٨) حول إرساله إلى ملك الرُّوم أو ملك بُصْرى.

(٢) الإصابة (١/١٩٩) وانظر أسد الغابة (١/٣٤٣) والاستيعاب (١/٢٩٨) ومغازي الواقدي (٢/٧٥٥).

(٣) مؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشّام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/١٩٠).

(٤) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشّام، انظر معجم البلدان (٣/٨٧).

جلس وجلس أصحابه، فعيّن قادة سرية مُؤتَة، وعقد لها اللّواء، وتحرك المسلمون إلى هدفهم[1]، في نحو ثلاثة آلاف، فلقيهم الروم في نحو مائة ألف[2] في مؤتة.

ولم ينتصر المسلمون مادياً في هذه الملحمة، لأن الرُّوم وحلفاءهم كانوا متفوِّقين على المسلمين عَدَداً وعُدَداً[3]، ولكن المسلمين انتصروا على الرُّوم وحلفائهم انتصاراً معنوياً لا شك فيه، إذا كانت أوّل معركة يتعرّض بها المسلمون على جيش الرُّوم وحلفائه، فعرفوا مواطن قوّة الرّوم ومواطن ضعفهم، فاستفادوا من هذه الدروس في غزوة تَبوك وفي معارك الفتح بعد انتقال النبيﷺ إلى الرفيق الأعلى.

ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها معركة مُؤتَة، فإنّ نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى، فبينما رأى الرّوم تلك المعركة غارة من الغارات التي اعتاد البدو شنّها للنّهب والسّلب، كانت هذه المعركة في الحقيقة معركة من نوع جديد لم تقدّر دولة الرُّوم أهميّتَها، فهي حرب منظّمة كانت لها مهمة خاصة جعلت المسلمين يتطلّعون جدّياً لفتح أرض الشّام[4].

وكان لهذه المعركة أثر كبير في معنويات المسلمين، إذ لمسوا عملياً

---

(١) مغازي الواقدي (٢/٧٧٥ - ٧٥٦) وأسد الغابة (١/٣٤٢) والإصابة (١/٢٩٩) والاستيعاب (١/٢٩٨).

(٢) أسد الغابة (١/٣٤٢) والاستيعاب (١/٢٩٨).

(٣) انظر سرية مؤتة في: مغازي الواقدي (٢/٧٥٥) وسيرة ابن هشام (٤/١٥) وطبقات ابن سعد (٢/٩٢) والطبري (٣/١٠٧) وعيون الأثر (٢/١٥٣) والبداية والنهاية (٤/٢٤١) وزاد المعاد (٢/٣٧٤) والإمتاع (٣٤٤) و تاريخ الخميس (٢/٧٠) والبخاري (٥/١٤٣).

(٤) الفاروق القائد (٢٣).

أن النبي ﷺ لا يسكت على ضيم يحيق بالمسلمين جماعات وأفراد، وأنّه يدافع عنهم بكلّ الوسائل الممكنة لرفع الضّيم عنهم واستعادة حقوقهم المهضومة حتى ولو أدّى ذلك إلى نشوب القتال، كما حدث في معركة مؤتة، مما جعل المسلمين يلمسون أنّ هناك مَنْ يدافع عن حقوقهم بصدق وإصرار، وهي ليست عرضة للضياع.

الإنسان

كانت معركة مُؤتَة في شهر جمادى الأول من السّنة الثامنة الهجرية[1]، وكان السبب المباشر لهذه المعركة هو استشهاد الحارث بن عُمير الأزديّ في مُؤتة بيد شُرَحْبِيْل بن عمرو الغَسّاني غيلة، وعزم النبي ﷺ على الأخذ بحقّ هذا السّفير النبوي الشّهيد.

وكان حشد المسلمين وحركتهم من المدينة المنوّرة قاعدة المسلمين الرئيسة إلى هدفهم في مؤتة سريعاً، كما تذكر المصادر المعتمدة التي سجّلت أحداث معركة مؤتة.

نستنتج من ذلك، أن استشهاد الحارث بن عُمَير الأزدي كان قبل جمادى الأولى من السنة الثامنة الهجرية بحوالي شهر واحد، يزيد ذلك قليلاً، أو ينقص قليلا، باعتبار أنّ المدة التي استغرقها وصول نعيه من مؤتة إلى المدينة، وحشد المسلمين في المدينة، وحركتهم من المدينة إلى مُؤتة، تستغرق شهراً أو قريباً من الشهر، فيكون استشهاد الحارث على هذا الأساس في شهر ربيع الثاني من السنة الثامنة الهجرية على وجه التقريب.

متى ولد الحارث، وما هي أعماله، ومتى أسلم، ومن أين جاء إلى

---

(١) طبقات ابن سعد (١٢٨/٢) وجوامع السيرة.

المدينة، وما هو جهاده وما هي جهوده، وما علاقاته بالآخرين، وكم عدد أبنائه وبناته، وأيّ نوع من الرجال كان؟

لا ندري شيئاً قليلاً أو كثيراً عن كلّ ذلك، لأن المصادر المعتمدة سكتت عنها سكوتاً تاماً. حتى معظم المصادر التي تحدّثت على سفراء النبي ﷺ إلى ملوك العصر في حينه، سكتت عن ذكر حتى اسمه بين سفراء النبي ﷺ، بينما استُشهد الحارث بسبب سفارته، فكان من المتوقّع أن يكون له ذكر مرموق بين السّفراء، لأنّه منهم أولاً، ولأنه شهيد ثانيا، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، وبقي مغموراً بين الأسماء[1].

ولكن يمكن أن نستنتج مزاياه الشخصية من مجرّد إيفاده سفيراً نبوياً إلى ملك من ملوك الغساسنة في بلاد الشّام، الذين كانوا حلفاء دولة الرّوم، إحدى الدولتين العظميين في العالم يومذاك: دولة الرُّوم، ودولة الفُرس.

وأولى هذه المزايا إيمانه العميق، فلولا هذا الإيمان لما أُتيحت له الفرصة للنهوض بأعباء سفارة نبويّة.

ومنها تعلّم القرآن والسنة والتفقّه في الدين، لأن مهمة السفير النبوي الحيويّة، هي في أنّه داعية ذو كفاية عالية بين الدّعاة، وهذه الكفاية تيسّرها له علومه الدينية وثقافته الإسلامية.

ولكن العلوم الدينية وحدها، وبتعبير آخر، التّفقّه في الدين، ليست كافية وحدها بدون اندفاع شخصي يحفّز الداعية على تأدية واجبه بأمانة

(١) انظر مثلاً: طبقات ابن سعد (١/٢٥٨ - ٢٩١) وسيرة ابن هشام (٤/٢٧٨ - ٢٨٠) والطبري (٢/٦٤٤ - ٦٥٧) والبداية والنهاية (٤/٢٦٨ - ٢٧٣) وأنساب الأشراف (١/٥٣١) وتهذيب الأسماء واللغات (١/٣٠) وعيون الأثر (٢/٢٥٩ - ٢٧١) وجوامع السيرة (٢٩ - ٣١).

وقوّة وحرص، فلا بدّ من أن يتيسَّر في الداعية: العلم المكتسب وهو التفقه في الدين، والطّبع الموهوب، وهو الاندفاع الشخصي والقابلية الشخصية على وضع العلم في حيِّز التنفيذ.

ومنها تحلّيه بالذّكاء والدّهاء، ليستطيع الاقناع من جهة، والتخلّص من المواقف الحرجة بلباقة وكياسة واتِّزان.

ومنها تحلّيه بالشّجاعة، إذ إنّ مواجهة ملك في مُلكه وسط أعوانه وجنده، وهو وحيد لا حول ولا طولَ، بحاجة إلى شجاعة عاقلة، بعيدة عن التهور والاندفاع.

ومنها تحلّيه بالحكمة، وبُعْد النّظر، وحضور البديهة، فهي كفيلة بمعالجة الأمور الطّارئة، وغير المتوقّعة، والمستجدّة، ووضع الحلول المناسبة لها في المكان والزّمان المناسبين.

تلك هي مجمل المزايا الشخصيّة المستَنْتَجَة، فقد كان النبيّ ﷺ الأسوة الحسنة للمسلمين في حاضرهم ومستقبلهم، وكان معلّم خير القرون: قرن الصّحابة، والقرون التالية، وكان يضع الرّجل المناسب في العمل المناسب تبعاً لمصلحة الإسلام والمسلمين العليا، لا تبعاً لأيّة مصلحة أخرى، فلا يولّي السِّفارة مَنْ لا يتحلّى بتلك المزايا والخصال.

مزاياه سفيراً

مزايا السّفراء التي تُتيح لهم الفرصة لنيل شرف تولّي مثل هذا المنصب الخطير على عهد الرِّسالة معروفة، استنباطاً من دراسة مزايا سفراء النبيّ ﷺ، ذلك لأنّ أعمالهم وأقوالهم وتصرّفاتهم في معالجة الأمور، تشير إلى مزاياهم بوضوح وجلاء.

والمُسَجَّل في تاريخ أولئك السُّفراء، يُعِين على اكتشاف مزاياهم الشخصيّة في حالة عدم التّصريح بها، أما في حالة التّصريح بها، فالمزايا

المصرَّح بها مكتشفة مُسَبَّقاً وليست بحاجة إلى اكتشاف جديد.

ولكنّ الأمر مختلف جداً بالنِّسبة الى الحارث بن عُمَير الأَزدي، فأخباره قليلة للغاية، وقد استُشهد قبل أن يؤدي مهمّته في سفارته، فالأمر معكوس بالنسبة إليه خِلافاً لإخوانه سفراء النبيّ ﷺ الآخرين الذين أخبارهم متيسِّرة وأدّوا مهمتهم في سفاراتهم، فلا بدّ من أن يكون استنباط مزايا الحارث سفيراً معكوساً أيضاً، أي أنّ السّفراء الآخرين استُنبطت مزاياهم من أعمالهم وأقوالهم وتصرفاتهم المسجّلة في المصادر المعتمدة، ومزايا الحارث تُستنبط قياساً على مزايا السفراء النبويين الآخرين، فالنبيّ ﷺ التزم بتلك المزايا في تعيين سفرائه قاطبة بدون استثناء، فلا بدّ من أن يكون الحارث حائزاً على تلك المزايا أسوة بإخوانه السّفراء الآخرين، وإلاّ لما نال شرف هذا المنصب الخطير أبداً على عهد النبيّ ﷺ القدوة الحسنة لجيله وللأجيال.

لقد كان الحارث مؤمناً حقاً راسخ الإيمان، وإيمانه العميق هو الذي جعله يدين بالانتماء المطلق إلى الإسلام عقيدةً والى المسلمين أمةً، فكانت له (قضيّة) يحرص عليها أعظم الحرص، ويسعى الى تحقيقها أشدَّ السّعي، من أجل توطيد أركان الإسلام وعزّ المسلمين، ولتكون كلمة الله هي العليا.

ومهمّة السّفارة إلى بلد بعيد، وإلى ملك معروف له دين لا يتخلّى عنه بسهولة، وله ما ومَنْ يحميه ويحمي دينه، بالنسبة إلى سفير غير معروف، يحمل ديناً يخالف دين الملك، ويُقدم على سفارته وحيداً بلا حماية ولا حُماة، هذه المهمة ليست سهلة، بل هي مهمّة صعبة جداً ومحفوفة بالأخطار الجسيمة، ومع ذلك أقبل الحارث على تحمل أعباء سفارته وليس في ذهنه إلاّ الحرص الشديد على تنفيذها، دون أن يفكِّر ولو لحظة واحدة بالأخطار الجسيمة المحدقة به، وهذا الاقبال بهذه

الحماسة دليل قاطع على صدق ولاء الحارث لدينه وأمّته وعلى إيمانه الراسخ العميق.

وليست بي حاجة إلى إثبات أن الحارث كان فصيحاً، فهو عربيٌ أصيل، في وقت كانت فيه الفصاحة سليقة، لأنّ العرب لم يكونوا في حينه قد اختلطوا بالعجم اختلاطاً واسعاً، ولم يكن الحارث عن قومه العرب بمعزل، والقرآن على النبي ﷺ ينزل، ومعجزته الكبرى في بلاغته وفصاحته على العرب البلغاء الفصحاء. كما أن الحارث موفد إلى ملك عربيّ، يهتّم بالفصاحة ويعيش مع النّخبة المختارة من فصحاء رجاله، فلا بدّ من أن يكون الحارث فصيحاً لئلا يكون متخلّفاً عن المجتمع الذي يواجهه فيؤثر ذلك في سفارته أثراً غير محمود، وليكلّم الناس الذين بُعث إليهم بما يفهمون.

كما أنّ أساس سفارة الحارث، هي دعوة ملك بُصْرى ومَنْ معه إلى الإسلام، ولا يمكن أن يكون الذي تولى الدّعوة إلا عالماً بالدّين، فهو فصيح عالم بدون شك.

أما حسن الخلق، فإن روح الدين وعموده الفقري هو حسن الخلق، وثمرة كلّ جهوده هو حسن الخلق وقد بعث النبيّ ﷺ ليتمّم مكارم الأخلاق، فلا بدّ من يكون الحارث مثلا رائعاً من أمثلة حسن الأخلاق.

ولما سأله شُرَحْبيل بن عمرو الغَسَّاني: «لعلّك من رُسُل محمّد؟»، أجابه الحارث بدون تردّد: نعم، أنا رسول رسول الله»، مِمّا أدّى إلى قتله صبراً. وكان بمقدور الحارث أن يزعم أنّه تاجر أو قاصد قومٍ أو بلد لغرض أو لآخـر، ولكنّه صدق شُرَحْبِيْلَ، والصّدق سيّد الأخلاق.

وكان يتمتع بمزيتي الصبر والحكمة، فقد صبر على السفر الشاق الطويل، وصبر على لقاء الأصدقاء والأعداء، وصبر أخيراً على الموت صبرا.

لقد كان الحارث يتمتّع بمزية الصبر الجميل.

ولو لم يكن متمتّعاً بمزية الحكمة البالغة، لما صار سفيراً من سفراء النبيّ ﷺ، بل لا بدّ من أن يكون من المتمرّدين على مَن حوله بهذه المزيّة الحميدة.

وكان يتمتّع بخصلة: سِعة الحيلة، ليمارس دعوة الملك ومَن حوله إلى الإسلام بكفاية واقتدار، وحتى لا ينقطع دون إنجاز مهمّته التي جاء من أجلها.

وربّما يرد على البال، أنّ الحارث إذا كان واسع الحيلة، فكيف عجز عن الخلاص من الموت على يد شُرَحْبِيل؟

والواقع أنّني بحثت كثيراً في المصادر المعتمدة عن معلومات تلقي الضوء عل شرحبيل هذا، فلمّا لم أجد شيئاً من أخباره في تلك المصادر، استنتجتُ أنّه كان رجلاً على الهامش، يحترف التكسّب من قطع الطرق، أو كان يتولّى واجب الشرطيّ للرُّوم أو الغساسنة على حدودهم الجنوبيّة المتاخمة للمسلمين، وينزل العقاب الصّارم بأعداء الرّوم والغساسنة، وليس كالمسلمين أعداء للرّوم والغساسنة يومذاك.

ومثل هذا الإنسان: قاطع الطريق، أو الشرطيّ، لا تنفع معه سعة الحيلة والدّهاء، فهو مقيّد بمصلحته أو بواجبه، أعمته مصلحته عن رؤية العدل، وأعماه واجبه عن رؤية الصواب.

ولا بدّ من أن يكون الحارث متمتّعاً بمزية: رواء المظهر، حتى يمكن أن يُعطي انطباعاً حسناً من أوّل نظرة لملك بُصْرى، مما يكون له أثر طيِّب في نفسه، تُعين الحارث على بداية سفارته بداية مشجِّعة، قد تؤدّي بها في آخر الأمر إلى الفلاح.

وقد كان تعداد الصَّحابة في السنة الثامنة الهجرية كبيراً، وبالإمكان

اختيار من يتوافر فيه: رواء المظهر، من بينهم ليكون سفيراً إلى ملك من الملوك.

وهكذا اتّفق في الحارث، رواء المظهر، برواء المَخْبر، فكان بحق من أفضل السفراء النّبويين، إن لم يكن أفضلهم، لأنّه وحده من بينهم، السّفير الشّهيد.

وهكذا توافرت في الحارث بن عُمَيْر الأَزَديّ، مزايا: الانتماء، والإيمان، والفصاحة والعلم وحسن الخُلق، والصّبر والحكمة، وسعة الحيلة، ورواء المظهر، تلك المزايا التي توافرت في الحارث وفي غيره من سفراء النبيّ ﷺ بدون استثناء، والتي استحقّوا بسببها وحدها دون سائر الأسباب الأخرى، شرف السّفارة النبوية، وهو شرف لو تعلمون عظيم.

ومضى السّفراء النبويون الآخرون من بعد الحارث إلى جوار الله، وجاور الحارث ربّه قبلهم وسبقهم إلى هذا الجوار، فاستحقّ وحده من بينهم ما وُصِف به وما لا يزال يُوْصف به: السَفير الشّهيد.

الحارث بن عُمَيْر في التّاريخ

يذكر التاريخ، للحارث بن عُمَيْر الأَزْدِيّ، أنّه كان من صحابة رسول الله ﷺ.

وأنّه كان سفيراً نبوياً من سفراء النبيّ ﷺ، وداعية من دعاة المسلمين الأولين من الصحابة، إلى الاسلام.

ويذكر له، أنّه لم يُقتل لرسول الله ﷺ سفير غيره من سفرائه إلى ملوك الأمم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

ويذكر له، أنّه استُشهد في سبيل الإسلام والمسلمين، ولتكون كلمة

الله هي العليا، فكان لَبِنَة من لَبِنَات الشّهداء في صرح مجد الإسلام والمسلمين.

ويذكر له، أنّه ضحّى بروحه من أجل عقيدته ومُثُلِها العُليا، ولم يُضَحِّ بعقيدته ومُثُلها العليا من أجل روحه.

ويذكر له، أنّه كان مثالاً حيّاً رائعاً للمؤمن المحتسب الصّابر، وكان ولا يزال وسيبقى مثالاً حيّاً يُحتذى به، وأسوة حسنة وقدوة صالحة للمؤمنين المحتسبين الصابرين.

رضي الله عن الصحابيّ الجليل، المجاهد البطل، السّفير الشهيد، الحارث بن عُمَيْر الأَزْدِي.

المُهاجر بن أبي أُمَيَّة القُرَشِيّ المَخْزوميّ
السَّفير القائد

نسبه وأيّامه الأولى

هو المُهاجر بن أبي أُمَيَّة بن المُغِيرة بن عبد الله بن عمر بن مَخْزوم القُرَشيّ المخْزوميّ، أخو أم سَلَمَة زوج النبيّ ﷺ لأبيها وأُمّها[1].

وكان اسم المهاجر: الوليد، فكرهه رسول الله ﷺ، وسمَّاه المُهَاجِر[2]، ويبدو أنّه هاجر من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة، ولا هجرة بعد الفتح - أي فتح مكّة، أي أنّه أسلم قبل الفتح، فسمّاه النبيّ ﷺ: المهاجر.

أبوه: أبو أُميّة بن المغيرة الذي يُقال له: (زاد الرّكب)[3]، واسمه: حُذَيْفة، ويقال: سُهَيْل، ويقال: هشام، والصّحيح المشهور: حُذَيْفة[4]، وكان يُقال له: (زاد الرّكب)، لكرمه وحدبه على ضيوفه.

وأُمُّه: عاتِكَة بنت عامِر بن ربيعة بن مالِك بن حذَيْفة بن علْقمة،

---

(١) أسد الغابة (٤/٤٢٢) وانظر نسب قريش (٣١٦) وجمهرة أنساب العرب (١٤٦) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/١١٦). وفي الإصابة (٦/١٤٤): المهاجر بن أبي امية بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وما ذكرناه هو الصواب، لإجماع المصادر المعتمدة عليه.

(٢) أسد الغابة (٤/٤٢٢) وجمهرة أنساب العرب (١٤٦) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/١١٦) والإصابة (٦/١٤٤).

(٣) نسب قريش (٣١٦).

(٤) تهذيب الأسماء واللّغات (٢/١١٦).

أحد بني فِراس بن غَنْم بن مالك بن كِنَانة[1] الكنانيَّة، وعلقمة يقال له: (جِذْل الطِّعان)[2]، مما يدل على مهارته في الطِّعان وشجاعته وإقدامه.

وأخبار المهاجر في المصادر المعتمدة المتيسِّرة لدينا قليلة جداً، فلا نعرف عن أيامه الأولى قبل إسلامه شيئاً، كما لا نعرف متى أسلم بالضّبط، أي لا نعلم السّنة التي أسلم فيها.

وفي رواية، أن النبيّ ﷺ أرسله إلى اليمن بعد غزوة الحُدَيْبيَّة يدعوهم إلى الإسلام[3]، وكانت هذه الغزوة في شهر ذي القعدة من السّنة السّادسة الهجرية[4].

وفي رواية أخرى، أنّ النبيّ ﷺ، كاتب أهل اليمن سنة تسع الهجرّية بعد الفتح[5]، وسنناقش هاتين الروايتين بعد قليل.

وقد تخلّف المهاجر عن رسول الله ﷺ في غزوة تَبُوك، فرجع النّبيّ ﷺ وهو عاتب عليه، فشفعت فيه أخته أمّ سَلَمَة أمّ المؤمنين، فقبل النبيّ ﷺ شفاعتها، فأحضرته، فاعتذر إلى النبيّ ﷺ، فرضي عليه[6]، وكانت غزوة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة الهجرية[7].

---

(1) نسب قريش (٣١٦)، وانظر المحبّر (٢٧٤).

(2) نسب قريش (٣١٦). والجذل: أصل الشجرة وغيرها بعد ذهاب الفرع، وفي الأثر: «يبصر أحدكم القذي في عين أخيه، ولا يبصر الجذل في عينه»، ويقال: إنه لجذل حِكاك، وهو جذيلها المحكّك لم يستشفِ برأيه. وفلان جذل غنم أو إبل: لمن يحسن رعيتها والقيام عليها. وجذل طعان: الماهر بالطِّعان.

(3) سيرة ابن هشام (٤/٢٧٨-٢٧٩).

(4) طبقات ابن سعد (٢/٩٥).

(5) أسد الغابة (٣/٣٦٨).

(6) أسد الغابة (٤/٤٢٢- ٤٢٣)، والإصابة (٦/١٤٤)، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/٦٢) والمحبّر (١٢٦) وأنساب الأشراف (١/٥٢٩) وجوامع السيرة (٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/١١٦).

(7) طبقات ابن سعد (٢/١٦٥).

ولا ذكر للمهاجر في غزوات النبيّ ﷺ ولا في أعماله الاجتماعية والإدارية الأخرى في أيام السّلام.

ولم تكن سفارة المهاجر إلى اليمن في السنة السّادسة الهجرية، بل كانت في السنة التاسعة الهجرّية، كما سنرى وشيكا.

كما لم يكن من مسلمة الفتح ولا ذكر له في غزوات النبيّ ﷺ قبل الفتح، وقد سمّاه النبيّ ﷺ: مهاجراً، مما يدل على أن إسلامه كان متأخّراً، وأرجّح أنه أسلم قُبَيْل الفتح، فلم يشهد الغزوات، ولو لم يكن إسلامه قُبَيْل الفتح لما سمّاه النبيّ ﷺ: المهاجر.

وكان المهاجر قد شهد غزوة بَدْر الكبرى التي كانت في السنة الثانية الهجرية[1] مع المشركين، وقُتل أخواه يومئذ: هشام ومسعود[2]، فأسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، ولكنّه تأخر في إسلامه، فنال شرف الصّحبة، دون أن ينال شرف الجهاد تحت لواء الرّسول القائد عليه الصّلاة والسلام.

السفير إلى اليمن

أرسل رسول الله ﷺ المهاجر إلى الحارث بن عبد كُلالَ الحِمْيَري ملك اليمن[3] يدعوه إلى الإسلام[4].

فقد خرج رسول الله ﷺ ذات يوم بعد عُمْرته التي صُدَّ عنها يوم الحُدَيْبيَّة فقال: «**أيّها الناس! إنّ الله قد بعثني رحمةً وكافةً، فلا**

---

(١) ابن الأثير (١١٦/٢).

(٢) نسب قريش (٣١٦): قُتل مسعود يوم بدر مشركا، وقتل هشام يوم أحد مشركاً أيضا.

(٣) سيرة ابن هشام (٢٧٩/٤) وانظر أسد الغابة (٤٢٢/٤) وتهذيب الأسماء واللغات (١١٦/٢).

(٤) سيرة ابن هشام (٢٧٨/٤).

تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريّون على عيسى بن مريم». فقال أصحابه: «وكيف اختلف الحواريّون يا رسول الله؟!»، قال: «**دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأمّا مَنْ بعثه مَبْعثاً قريباً فرضي، وأما مَنْ بعثه مبعثاً بعيداً، فكره وجهه وتثاقل، فشكا ذلك عيسى إلى الله، فأصبح المتثاقلون وكلّ واحد منهم يتكلّم بلغة الأمّة التي بُعث إليها**»، فبعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، وكان من رسله المهاجر بن أبي أميّة المخزومي إلى الحارث ابن عبد كُلَال الحِمْيَري ملك اليمن[١].

وقد أرسل النَّبي ﷺ رسله في المحرّم سنة سبع الهجرية، فقد رجع رسول الله ﷺ من الحُدَيْبيَّة إلى المدينة المنورة في ذي الحجّة سنة ست الهجريّة، فأرسل الرّسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتباً، فخرج رسله في المحرّم سنة سبع الهجِريّة[٢].

وأكثر المصادر المعتمدة تُعدِّد رسله، وهم ستة، ليس بينهم المهاجر، كما أنّ اليمن تفصل مكّة بينه وبين قاعدة المسلمين في المدينة، وكانت مكّة قاعدة المشركين حينذاك، ولم تُفتح إلاّ في السنة الثامنة الهجريّة[٣]، لهذا لم تكن اليمن والطرق المؤدية إليها آمنة قبل فتح مكّة.

والخلاف ليس على إرسال المهاجر إلى الحارث بن عبد كُلال، بل على التوقيت فحسب، ولم تصبح الطرق المؤدية إلى اليمن آمنة بالنسبة للمسلمين إلا بعد فتح مكّة، وأرجح أن النبيّ ﷺ بعث المهاجر بعد

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/٢٧٨-٢٧٩) وانظر طبقات ابن سعد (١/٢٦٤).
(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨).
(٣) طبقات ابن سعد (٢/١٣٤) وجوامع السيرة (٢٢٦).

فتح مكّة لا قبل الفتح، أسوة بالرُّسل الذين بعثهم إلى الملوك بعد الفتح[1]، فقد كاتب النبيّ ﷺ أهل اليمن سنة تسع الهجرية[2]، لا قبلها وهذا هو الصواب.

ولم يكن الحارث ملكاً، بل كان قَيْلاً من أقيال اليمن[3]، ولكنه كان من أبرز ذوي السُّلطان اليمنيين، لهذا بعث إليه النبيّ ﷺ المهاجرّ ومُعاذ بن جَبَل[4]، وله ذكر في حديث عمرو بن حزْم الذي بعثه النبيّ ﷺ إلى الحارث بن عبد كُلال وكتب إليه كتاباً فيه فرائض الصدقات والديّات، وليست للحارث صحبة إنما كان موجوداً في حياة النبيّ ﷺ[5].

وهذه هي نص الرِّسالة النبويّة التي حملها المهاجر بن أبي أُميَّة المخزومي إلى الحارث بن عبد كُلال وصحبه في اليمن:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله

إلى الحارث ومسروح (الصواب شُرَحْبِيْل) ونُعيم بن عبد كُلال:

سِلْمٌ أنتم ما آمنتم بالله ورسوله، وأنّ الله وحده لا شريك له، بعث موسى بآياته، وخلق عيسى بكلماته،

---

(١) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٢٦٢/١-٢٩١).

(٢) أسد الغابة (٣٦٨/٣).

(٣) القيل: من ملوك اليمن في الجاهلية دون الملك الأعظم (ج) أقوال، وأقيال.

(٤) جوامع السيرة (٣٠).

(٥) طبقات ابن سعد (٢٦٤/١).

(٦) أسد الغابة (٣٣٩/١).

قالت اليهود: عُزَيْرٌ ابن الله، وقالت النّصارى الله ثالث ثلاثة، عيسى ابن الله »[1].

علامة الختم: الله رسول محمد

وأسلم الحارث، وأسلم مَن معه من إخوته ورعيّتهم، فعاد المهاجر ببشرى الإسلام لأهل اليمن، حتى وصل إلى المدينة المنورة، حيث بلّغ النبيّ ﷺ بنتائج سفارته إلى اليمن.

لقد نجح المهاجر في سفارته نجاحاً باهراً، وكان مثالاً للسفير المتّزن الحصيف.

وعلى كلّ حال، فقد كانت سفارة المهاجر، ذات أثر وتأثير في اليمن، وكانت من أقدم السفارات النبوية إلى اليمن، إن لم تكن أقدمها على الإطلاق[2].

المجاهد

١. ردّة اليمن

وليّ رسول الله ﷺ المهاجر (كِنْدَة)[3] و (الصّدِف)[4]، فقد تخلّف عن رسول الله ﷺ بغزوة (تبوك)، فرجع رسول الله ﷺ وهو عاتب عليه، فشفعت فيه أخته أمّ سَلَمَة أُمّ المؤمنين، فقبل شفاعتها، فأحضرته،

(١) طبقات ابن سعد (٢٨٢/١).

(٢) انظر تفاصيل التحقيق في: السفارة النبوية إلى الحارث بن عبد كُلال في اليمن في مقدمة هذا الكتاب.

(٣) كندة: مخلاف باليمن باسم قبيلة كندة اليمنيّة، انظر معجم البلدان (٢٨٤/٧)، وكندة هي: كندة بن عَدِي بن الحارث بن مُرَّة بن أُدَد بن زيد بن يَشْجُب بن عَريب ابن زيد بن كَهْلان بن سَبَأ، انظر جمهرة أنساب العرب (٤١٨ - ٤٢٥).

(٤) الصَّدِف: مخلاف باليمن منسوب إلى القبيلة، انظر معجم البلدان (٣٤٥/٥)، والصّدف هم في بني حَضْرَمَوْت، وهو الصّدف بن أسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت الأكبر، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٦١).

فاعتذر إلى النبيّ ﷺ فرضي عنه، واستعمله على صدقات كندة والصَّدِف[1]، فتوفي رسول الله ﷺ ولم يَسر إليها. فبعثه أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، إلى قتال مَنْ باليمن من المرتدين، فلما فرغ سار إلى عمله[2].

وفي رواية أخرى، أنّ النبيّ ﷺ بعث المهاجر إلى صَنْعَاء، فخرج عليه العَنْسيّ وهو بها[3]، والصواب ما جاء في الرواية الأولى، لإجماع أكثر المصادر المعتمدة عليها أولاً، ولأنّ الذي أورد الرواية الثانية استدرك عليها، فذكر أنّ النبي ﷺ ولىّ المهاجر كِنْـدة، فاشتكى رسول الله ﷺ، فلم يذهب حتى وجّهه أبو بكر[4].

وكان تولية النبي ﷺ المهاجر كِنْدَة والصَّدِف بعد عودته إلى المدينة من حجّة الوَداع[5] التي كانت سنة عشر الهجريّة[6].

أما ما أخرجه الطبراني، أنّ وائل بن حُجْر[7] لما أراد الشخوص إلى بلاده قال: يا رسول الله! اكتب لي إلى قومي كتاباً، فكتب ثلاثة كتب، كتاب خاص به فضله على قومه هذا نصّه:

---

(١) أسد الغابة (٤/٤٤٢ - ٤٢٣) والإصابة (٦/١٤٤)؛ وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/٦٢) والمحبر (١٢٦) وأنساب الأشراف (١/٥٢٩) وجوامع السيرة (٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/١١٦).

(٢) أسد الغابة (٤/٤٢٣) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/١١٦).

(٣) الطبري (٣/١٤٧) وابن الأثير (٢/٣٠١).

(٤) الطبري(٣/٢٢٨) وابن الأثير (٢/٣٣٦ - ٣٣٧) و (٢/٣٧٨)وأسد الغابة (٤/٤٢٣).

(٥) الطبري (٣/٣٢٨).

(٦) الطبري (٣/١٤٨) وابن الأثير (٢/٣٠٢) والعبر (١/١٢).

(٧) وائل بن حجر الحضرميّ: انظر سيرته في أسد الغابة (٥/٨١) والإصابة (٦/٣١٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد رسول الله.

إلى: المهاجر بن أبي أُمَيّة.

إنّ وائلاً يستَسْعى[1] وَيَتَرفّل[2] على الأقيال حيث كانوا من حَضْرَمَوْت[3].

علامة الختم: الله
رسول
محمد

فيؤيد توليته على كِنْدَة والصّدِف وهما من حضرموت، وهي وثيقة يعرضها وائل على عامل النبي ﷺ بعد التحاقه بولايته. ويبدو أنّ المهاجر تسلّم هذا الكتاب بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، فقد عاش وائل بن حُجْر إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان كما هو معروف[4]، ولم يلتحق المهاجر بولايته إلا بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى كما ذكرنا من قبل.

وكان الأسود العَنْسِيّ، اسمه: عَيْهَلَة بن كَعْب العَنْسِيّ، وعَنْس: بطن من مَذْحج، وكان يُلقّب: ذا الخمار، لأنه كان معتماً مُتَخَمِّراً أبداً[5].

ولما عاد النبي ﷺ من حجّة الوَداع من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة، وتمرّض من السّفر غير مرض موته، بلغ الأسود العَنْسِيّ ذلك،

---

(١) يستسعى: يطلب ولاية.

(٢) ترفل: صار أميراً أو حاكما ويسعى ويترفل على الأقيال، أي يتسوّد ويترأس استعارة من ترفيل الثوب: أي إسباغه وإسباله، أنظر لسان العرب (٣/٣١١).

(٣) الإصابة (١٤٤ - ١٤٥) وأنظر مجموعة الوثائق السياسية (١٦٩).

(٤) أسد الغابة (٥/٨١) والإصابة (٦/٣١٢).

(٥) ابن الأثير (٢/٣٣٩) وانظر جهرة أنساب العرب (٤٠٥).

فادّعى النبوّة، وكان مشعبذاً يُريهم الأعاجيب، فاتبعته مَذْحج، وكانت ردّة الأسود أوّل ردّة في الإسلام على عهد النبيﷺ، وغزا (نَجْرَان)[١]، فأخرج عنها عمرو بن حَزْم[٢] وخالد بن سعيد[٣].

ووثب قيس بن عبد يَغُوْث بن مَكْشُوْح[٤] على فَرْوَة بن مُسَيْك[٥] وهو على مُراد[٦]، فأجلاه ونزل منزله.

وسار الأسود عن نَجْران إلى صنْعَاء، فخرج إليه شَهْر بن باذَان[٧]، فلقيه، فقتل شَهْر بن باذان لخمس وعشرين ليلة من خروج الأسود.

واستتبّ للأسود ملك اليمن، فتزوج امرأة شهر بن باذان بعد قتله، وهي ابنة عمّ فيروز.

وجاء إلى مُعَاذ بن جَبَل والمسلمين في اليمن وحضرموت كُتُب النبيﷺ يأمرهم بقتال الأسود، فقام مُعَاذ في ذلك، وقويت نفوس المسلمين.

وقُتل الأسود في داره بمعاونة زوجه التي كانت امرأة شهر بن باذان

---

(١) نجران: من مخاليف اليمن، من ناحية مكة المكرمة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٨/٨ - ٢٦٥).

(٢) عمرو بن حزم بن زيد الأنصاري الخزرجي النجّاري، انظر سيرته المفصلة في: أسد الغابة (٢٢/٤) والإصابة (٢٠٩/٥) والاستيعاب (١٢٦١/٣).

(٣) خالد بن سعيد بن العاص بن أُميّة بن عبد شمس القرشي الأموي، انظر سيرته المفصلة في: أسد الغابة (٨٢/٢-٨٤) والإصابة (٩١/٢-٩٢).

(٤) قيس بن عبد يغوث بن مكشوح المرادي، انظر سيرته المفصلة في: أسد الغابة (٢٢٢/٤) و (٢٢٧/٤) والإصابة (٢٦٥/٥).

(٥) فروة بن مسيك المراديّ، انظر سيرته المفصلة في: أسد الغابة (١٨٠/٤) والإصابة (٢٠٩/٥) والاستيعاب (١٢٦١/٣).

(٦) مراد بن مالك بن أدد من مذحج.

(٧) أنظر سيرته المفصلة في أسد الغابة (٦/٣) والإصابة (٢٢٦/٣).

قبله، قتله فيروز ومَنْ معه، فتراجع أصحاب النبي ﷺ إلى أعمالهم، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ في حياته بمقتل الأسود العَنْسِيّ.

وكان أوّل أمر العَنْسِيّ إلى آخره ثلاثة أشهر وقيل: قريب من أربعة أشهر، وكان قدوم البشير بقتله في آخر ربيع الأول بعد موت النبي ﷺ فكان أوّل بشارة أتت أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه، وهو بالمدينة[1].

ولما قُتل الأسود، عاد أمر المسلمين في اليمن كما كان، ولم يبق شيء يكرهونه إلاّ شراذم من أصحاب الأسود.

وأتى موت النبي ﷺ، فانتفضت الأمور واضطربت الأرض[2] من جديد، فقد كان أكثر الذين أسلموا في اليمن حديثي عهد بالجاهلية[3]، أسلموا وما حسن إسلامهم بَعْدُ.

٢. وصايا العمليات

ولما عاد أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي[4] من بعثه إلى تخوم أرض الشام الجنوبية وأراح هو وجنده ظهرَهم واستراحوا، وقد جاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم، قطع أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه البعوث وعقد الألوية، فعقد أحد عشر لواءً، أحدها للمهاجر، وأمره بجنود العَنْسِيّ ومعونة الأبناء على قيس بن مَكْشُوح وَمَنْ أعانه من أهل اليمن عليهم، ثم يمضي إلى كِنْدَة بحضْرَمَوْت[5].

وفصلت الأمراء من (ذي القَصَّة)[6] ونزلوا على مقصدهم، فلحق

---

(١) انظر التفاصيل في: الطبري (٣/٢٢٧ - ٢٤٠) وابن الأثير (٢/٣٣٦ - ٣٤١).

(٢) ابن الأثير (٢/٣٤١).

(٣) الطبري (٣/٢٣٩).

(٤) أنظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٣٣ - ٥١).

(٥) الطبري (٣/٢٤٩) وابن الأثير (٢/٣٤٥ - ٣٤٦).

(٦) ذو القصة: موضع على بريد من المدينة تلقاء نجد، انظر معجم البلدان (٧/١١٤).

بكلّ أمير جنده، وقد عهد إليهم عهده، وكتب إلى جميع مَنْ بعث إليه من جميع المرتدّة[1].

وكان نصّ عهد أبي بكر لأمراء الأجناد في حرب المرتدين:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ، لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال مَنْ رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتّقي الله ما استطاع في أمره كلّه: سرِّه وعلانيته، وأمره بالجدّ في أمر الله ومجاهدة مَنْ تولّى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أمانيّ الشيطان، بعد أن يُعْذِر إليهم فيدعوَهم بداعية الإسلام؛ فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شنَّ غارته عليهم، حتى يقرُّوا له، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم، فيأخذ ما عليهم، ويعطيهم الذي لهم، ولا يُنْظرهم[2]، ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوّهم. فمن أجاب إلى أمر الله عزّ وجلّ وأقرّ له، قَبلَ ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف، وإنما يقاتل مَنْ كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، فإذا أجاب الدّعوة لم يكن عليه سبيل، فكان الله حسيبه بعد فيما استتر به، ومَنْ لم يُجِب داعية الله قُتل وقُوتل حيث كان، وحيث بلغ مُراغمة[3]، ولا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام، فمن أجابه وأقرّ به قبل منه وعلّمه، ومَنْ أبى قاتله، فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسِّلاح والنيران، ثم قسّم ما أفاء الله عليه، إلاّ الخُمس فإنّه يبلّغناه، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وألاّ يدخل فيهم حَشْواً[4] حتى يعرفهم ويعلم ما هم، ولا يكونوا عيوناً، ولئلا يؤتى

---

(١) الطبري (٢٤٩/٣) وابن الأثير (٣٤٦/٢).

(٢) ينظرهم: يؤخرهم ويمهلهم.

(٣) مراغمة: المراغم - المذهب والمهرب، والحصن والملجأ.

(٤) الحشو من الناس: الذي لا يعتمد عليه.

المسلمون من قِبَلهم، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السّير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصُّحبة ولين القول(١).

وكما كانت خطّة أبي بكر السَّوْقيّة في تقسيم مناطق المرتدين على القادة المسلمين ومعرفة واجب كل قائد منهم بوضوح، بالغة الدّقة واضحة غاية الوضوح، كانت وصايا العمليات لقادته بالغة الدّقة واضحة غاية الوضوح أيضاً، مما أدّى إلى انتصار الفئة القليلة من المسلمين على الفئة الكثيرة من المرتدين بسرعة وسهولة ويسر.

ولا أعرف وصايا عمليات لقائد أعلى في التاريخ العسكري القديم والحديث أكثر دقة وأشدّ وضوحاً من وصايا عمليات أبي بكر لقادته، فما كان أبو بكر يصدر عن رأيه الشخصي، بل كان يطبِّق تعاليم الإسلام في القتال.

٣. الكتب إلى المرتدين

وكتب أبو بكر إلى مَنْ بعث إليه من جميع المرتدين وغير المرتدين، وحمل قادته إليهم رسائله، وكان نصّ كتاب أبي بكر إلى القبائل واحداً.

بسم الله الرحمن الرحيم

من: أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إلى: مَنْ بلَغَهُ كتابي هذا من عامة وخاصّة، أقام على إسلامه، أو رجع عنه.

---

(١) الطبري (٣/٢٥١-٢٥٢) وصبح الأعشى للقلقشندي (١٠/١٩٢-١٩٣).

سلام على مَنْ اتّبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى. فإني أَحْمَد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، نُقِرُّ بما جاء به، ونُكفِّر مَنْ أبى ونجاهده.

أما بعد، فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا، لينذِر مَنْ كان حيّاً ويحق القول على الكافرين. فهدى الله بالحقّ مَنْ أجاب إليه، وضرب رسول الله ﷺ بإذنه مَنْ أدبر عنه، حتى صار إلى الإسلام طَوْعاً وكَرْهاً.

ثم توفّى الله رسوله ﷺ، وقد نفذ لأمر الله، ونصح لأمّته، وقضى الذي عليه، وكان الله قد بيّنّ له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل فقال: ﴿إنّك ميت وإنهم ميتون﴾[1]، وقال: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾[2]، وقال للمؤمنين: ﴿وما محمد إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾[3]، فمن كان إنما يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد ماتَ، ومَنْ كان إنّما يعبد الله وحده لا شريك له، فإنّ الله له بالمرصاد حيٌّ قَيُّومٌ لا يموت، ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ، حافظ لأمره، منتقم من عدوّه، يجزيه.

---

(١) سورة الزمر، آية ٣٠.
(٢) سورة الأنبياء، آية ٣٤.
(٣) سورة آل عمران، آية ١٤٤.
(٤) السنة: النعاس، وهو مبدأ النوم، والغفلة.

وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله، وما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلّم، وأن تهتدوا بهُداه، وأن تعتصموا بدين الله، فإن كلَّ مَنْ لم يهدِهِ الله ضال، وكلّ مَنْ لم يُعَافِه مبتلًى، وكلّ مَنْ لم يُعِنْه الله مخذول، فمن هداه الله كان مُهْتَدِياً، ومَنْ أَضَلَّهُ كان ضالاً، قال الله تعالى: ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشدا﴾[١]، ولم يُقْبل منه في الدنيا عملٌ حتى يقرّ به، ولم يُقْبل منه في الآخرة صَرْف ولا عَدْلٌ.

وقد بلغني رجوعُ مَنْ رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالإسلام وعمل به، اغتراراً بالله، وجهالةً في أمره، وإجابةً للشيطان، قال تعالى: ﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو، بئس للظالمين بدلا﴾[٢]. وقال: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[٣]، وإني بعثت إليكم (فلاناً) في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته ألاّ يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقرَّ وكف وعمِلَ صالحاً قَبِلَ منه وأعانه عليه، ومَنْ أبى أَمَرْتُ أن يقاتله على ذلك، ثم لا يُبْقِي على أحدٍ منهم قدّر عليه، وأن يُحرقهم بالنار، ويقتلهم كلّ قِتْلة، وأن يَسبيَ النساء والذراريّ، ولا يقبل من أحد إلاّ الإسلام؛ فمَن أتّبعه فهو خير له، ومَنْ تركه فلن يعجز الله.

---

(١) سورة الكهف، آية ١٧.
(٢) سورة الكهف، آية ٥٠.
(٣) سورة فاطر، آية ٦.

وقد أمرتُ رسولي أن يقرأ كتابي في كلِّ مجمع لكم، والداعية الأذان، فإذا أذَّنَ المسلمون فأذَّنوا كفُّوا عنهم، وإن لم يؤذِّنوا عاجلوهم، وإن أذَّنوا اسألوهم ما عليهم، فإن أبَوْا عاجلوهم، وإن أقرّوا قَبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم[1].

٣. في الجهاد

بعث أبو بكر الصدِّيق السّرايا إلى المرتدين، فأرسل عِكْرَمة بن أبي جَهْل في عسكر إلى مُسَيْلَمة الكذاب وأهل اليَمامة، فعجل عكرمة ليذهب بصوتها، فواقعهم فنكبوه. وكتب عكرمة إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه بالخبر، فكتب إليه أبو بكر: «لا أرينّك ولا تراني، لا ترجعـنّ فتوهن الناس. امض إلى حُذَيْفة[2] وعَرْفَجة[3] فقاتل أهل عُمَانِ ومَهْرَة[4]، ثم تسير أنت وجندك تستبرون مَنْ مَرّرْتُم به، حتى تلتقوا أنتم والمهاجرين أُمَيَّة باليمن وحَضْرَمَوْتَ»[5].

وكان أمر المسلمين قد استتب بعد قتل الأسود العَنْسِيّ في ربيع الأول من السنة الحادية عشرة الهجرية أي قُبَيْل انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فلما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وأتى موتُ النبي ﷺ أهل اليمن وحضرموت، انتقضت الأمور واضطربت الأرض[6].

---

(١) الطبري (٢٤٩/٣ - ٢٥١).

(٢) حذيفة بن مِحْصَن الغلفاني: أنظر سيرته المفصلة في: أسد الغابة (٣٩٠/١) والإصابة (٣٣٢/١) والإستيعاب (٣٣٦/١).

(٣) عرفجة بن هرثمة البارقي: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٨٧ - ٣٩٤).

(٤) مهرة: بلاد تنسب إليها الإبل، باسم قبيلة مهرة التي تنسب إليهم الإبل، وباليمن لهم مخلاف، انظر معجم البلدان (٢١١/٨).

(٥) الطبري (٢٨١/٣) وابن الأثير (٣٦٠/٢).

(٦) ابن الأثير (٣٤١/٢).

وكان المهاجر لمّا تأخّر بالمدينة قد استخلف زياد بن أبي لَبِيْد الأنصاري على عمله، وكان زياد حينذاك على حضرموت[1].

ونزل بنو عمرو بن معاوية من كِنْدَة (المحاجِر)[2] وهي أحماء حموها. ونزلت بنو الحارث بن معاوية من كندة محاجرها أيضاً، ونزل الأشعث ابن قيس مَحْجَراً والسِّمط بن الأسود مَحْجَراً، وأطبقت بنو معاوية من كندة كلّها على منع الصّدقة إلا شُرَحْبيل بن السِّمْط وابنه، فإنها قالا لبني معاوية: «إنّه لقبيح بالأحرار التنقّل، إنّ الكرام ليلزمون الشُّبْهَة فيتكرّمون أن ينتقلوا إلى أوضح منها مخافة العار، فكيف الانتقال من الأمر الحسن الجميل والحق إلى الباطل والقبيح! اللّهم إنّا لا نمالىء قومنا على ذلك».

وبَيَّتَ زيادُ المرتدين من بني معاوية من كندة، فقتل منهم وهرب مَنْ أطاق الهرب، وعاد زياد بالأموال والسّبي، واجتازوا بالأشعث بن قيس الكِنْدِيّ، فثار في قومه وجمع الجموع لحرب المسلمين.

وكتب زياد إلى المهاجر يستحثّه، فلقيه الكتاب في الطريق، فاستخلف على الجند عِكْرِمة بن أبي جَهْل، وتعجّل في سَرَعَان الناس، وقدم إلى زياد.

وسار المهاجر إلى كِندة، فالتقوا بمَحْجَر الزُّرْقان فاقتتلوا، فانهزمت كنده وقُتلت، وخرجوا هُرَّاباً فالتجأوا إلى (النُجَيْر)[3]، وقد رَمُّوه

---

(١) ابن الأثير (٢/٣٧٩).

(٢) المحاجر: جمع مَحْجَر، وهو الموضع في الجبل يقطع منه الحجارة.

(٣) النجير: حصن باليمن قرب حضرموت منيع لجأ إليه أهل الردّة. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٦٨ - ٢٧٠)، وورد في أسد الغابة (٤/٤٢٣): النجير، وورد في الإصابة (٦/١٤٤): البخير، والصواب ما ذكرناه، وسرعان الناس: أوائلهم ومحجر زرقان: موضع زرقان بأرض حضرموت.

وأصلحوه. ونزل المهاجر عليهم، واجتمعت كندة في النُجَيْر فتحصّنوا به، فحصرهم المسلمون. وقدم عكرمة بن أبي جهل مع مَنْ معه من المسلمين، فاشتدّ الحصر على كندة، وتفرّقت السرايا في طلبهم، فقتلوا منهم.

وخرج مَنْ بالنُجَيْر من كِنْدَة وغيرهم، وقاتلوا المسلمين، فكثر فيهم القتل، فرجعوا إلى حصنهم، وانهارت معنوياتهم وخافوا القتل وخاف الرؤساء على نفوسهم.

وخرج الأشعث ومعه تسعة نفر، فطلبوا الأمان على أن يفتحوا باب الحصن للمسلمين، فأُجيبوا إلى ذلك، وكتبوا بذلك كتاباً، ولكنّ الأشعث نسي أن يكتب نفسه مع الذين أُعطي لهم الأمان.

وفُتح باب الحصن، فدخل المسلمون، فلم يدعوا مقاتلاً إلا قتلوه وأخذوا الأموال والسّبي. فلما فرغوا منهم دعا الأشعث أولئك النفر والكتاب معهم، فعرضهم وأجار مَنْ في الكتاب، فإذا الأشعث ليس منهم، فقال المهاجر: «الحمد لله الذي خَطأ فاك يا أشعث يا عدوّ الله! قد كنت أشتهي أن يخزيك الله»، فقيل له: «أخِّره، وسيِّره إلى أبي بكر، فهو أعلم بالحكم فيه» فسيّره إلى أبي بكر مع السّبي[١].

وقيل: إنّ الحصار لما اشتدّ على مَنْ بالنُّجَيْر، نزل الأشعث إلى المهاجر وزياد والمسلمين، فسألهم الأمان على دمه وماله حتى يقدموا به على أبي بكر فيرى فيه رأيه، على أن يفتح لهم النُّجَيْر ويسلّم إليهم مَنْ فيه، فقبلوا ذلك منه، ففتح لهم الحصن، فقتلوا المقاتلة وأرسلوا الأشعث مع السّبي إلى أبي بكر[٢].

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٣/٣٣٠ - ٣٣٩) وابن الأثير (٢/٣٧٨ - ٣٨٢).

(٢) ابن الأثير (٢/٣٨٢).

وقدم القوم على أبي بكر رضي الله عنه بالفتح والسّبايا والأسرى، فحقن أبو بكر دم الأشعث وردّ عليه أهله، وخلّى عن القوم[1] أيضاً.

وكتب أبو بكر إلى المهاجر يخيِّره: اليمن، أو حضرموت، فاختار اليمن.

وهكذا انتهت حرب الرِدّة في اليمن وحضرموت، وكان ذلك سنة إحدى عشرة الهجرية[2]، وعاد العرب إلى الوحدة تحت لواء الإسلام في تلك المناطق.

٤ ـ في عمليّات استثمار الفوز

كانت معركة النُّجَيْر معركة حاسمة بالنسبة للمسلمين والمرتدين. فانتهت مقاومة المرتدين الخطيرة، وبقيت عمليات التّطهير التي يطلق عليها: عمليات استثمار الفوز، وهي عمليات ثانوية من الناحية العسكرية، لأنّ النّصر فيها مضمون للمسلمين.

وكتب امرؤ القيس بن عابِس الكنْدِي[3] إلى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وعامله على كِنْدَة والصَّدِف يومئذ المهاجر بن أبي أُمَيَّة، وعامله على حضرموت زياد بن لَبِيْد الأنصاريّ.

شَمِتَ البغايا يوم أعلن جَهْبَلٌ[4] ... بنعي أحمد النبيّ المهتدي

صلّى عليه الله من مُسْتَوْدَعٍ[5] ... أمسى بيثرب ثاوياً في مُلْحَدِ[6]

---

(١) الطبري (٣/٣٣٨-٣٣٩) وابن الأثير (٢/٣٨٢).

(٢) الطبري (٢/٣٣٠) وتاريخ خليفة بن خياط (١/٨٤).

(٣) انظر سيرته في أسد الغابة (١/١١٥).

(٤) الجهبل: العظيم الرأس، والمُسِنّ، والعظيم من تيوس الجبل (ج): جهابل.

(٥) مستودع: مكان الوديعة، ومكان آدم وحواء في الجنّة.

(٦) الملحد: اللّحد، وهو الشق يكون في جانب القبر للميت.

يا راكباً! إما عرضتَ فَبلِّغَنْ   عني أبـا بكرٍ خليفـة أحمدِ
لا تـتركنَّ عواهراً سُوْد الذُّرى   يزعمن أن محمـداً لم يفقـد
اشفِ الغليـل بقطعهنّ فـإنّها   كـالجَمْر بين جوانحي لم تـبرد

وكتب إلى أبي بكر رجل من أشراف اليمن[1]:

أبلـغْ أبـا بكرٍ إذا مـا جئتـه   أنّ البغـايـا رُمْنَ كـلَّ مَرام
أظهرنَ من موت النـبيّ شماتـةً   وخضبن أيـديهنّ بـالعُـلاَّم[2]
فـاقطع هُـديتَ أكفهنّ بصارمٍ   كـالـبرق أومـضَ في متون غَمام

فلما قدم كتابها على أبي بكر قال: «جزى الله أخا كِنْدَة وأخا حضرموت عن الإسلام خيراً».

ثم كتب إلى المهاجر بن أبي أُمَيّة.

بسم الله الرحمن الرحيم

من أبي بكر.

إلى : المهاجر بن أبي أُمَيَّة.

أما بعد. فإن العبدين الصّالحين امرأ القيس بن عابس الكِنْدي وشدّاد بن مالك الحَضْرميّ اللذين أقاما على دينها إذ رجع عنه جلّ قومها، فأثابها الله على ذلك ثواب الصّالحين وصرع الآخرين مصارع الظالمين، كتبا إليّ يزعمان أن قِبَلَهُا نسوة من أهل اليمن، كُنَّ يتمنينّ

---

(١) هو شداد بن مالك بن ضمعج، انظر المحبر (١٨٦)،ولم أجد سيرته المفصلة في المصادر التي بين يديّ.
(٢) العُلاَّم: الحِنّاء.

موت رسول الله ﷺ ، وتأشّب[1] إليهنّ قِيَان لكِنْدة وعواهر لحَضْرَمَوْت، فخضبن أيديهنّ وأظهرنّ محاسنهن وضربن بالدّفوف جَراءة منهنّ على الله واستخفافاً بحقّه وحقّ رسوله صلى الله عليه وسلم. فإذا جاءك كتابي هذا، فسِرْ إليهنّ بخيلك ورجلك حتى تقطع أيديهنّ. فإن دفعك عنهنّ دافع أو حال بينك وبينهنّ حائل، فأعذر إليهنّ باتّخاذ الحجّة عليه، وأعلمه ما دخل فيه من الإثم والعدوان، فإن رجع فاقبل منه، وإن أبَىٰ فنابذه على سواء، إنّ الله لا يهدي كيد الخائبين. ولعمر الله ما أظنّ رجلاً بل هو اليقين زيّنَ لهنّ أسوأ فعلهنّ، ومنعك من قطعهنّ على مثل جناح البعوضة من دين محمد ﷺ وأيم الله يا ابن أبي أُمَيّة! إني حين أخصّك بهذا الأمر دون أن أتولاّه نفسي، لطيِّبة نفسي لك بالأجر العظيم والثواب الجزيل. واعلم أنّها كرامة ساقها الله إليك، إذا أجرى ذلك على يدك عصمنا الله وإيّاك بالتقوى، وجعل الآخرة خيراً لنا ولك من الأولى.

علامة الختم

فلما قرأ المهاجر الكتاب، جمع خيله ورجله ثم سار إليهنّ، فحال بينه وبينهنّ رجال من كِنْدة وحضرموت، فأعذر إليهم، فأبوا إلا قتاله، ثم رجع عنه عامتهم، فقاتلهم فهزمهم، وأخذ النسوة فقطع أيديهنّ[2].

وكان قد وقع إلى المهاجر أيضاً امرأتان مغنيتان، غنّت إحداهما بشتم رسول الله ﷺ ، فقطع يدها ونزع ثنيّتها، فكتب إليه أبو بكر رضي الله عنه:

---

(١) تأشب القوم: تجمعوا واختلطوا.

(٢) المحبّر (١٨٦-١٨٨).

من: أبي بكر.

إلى: المهاجر بن أبي أُمَيَّة.

بلغني الـذي سِرْتَ بـه في المرأة الـتي تغنّـت وزمّرت بشتيمـة رسول الله ﷺ، فلولا ما قد سبقتني فيها لأمرتك بقتلها، لأنّ حدّ الأنبياء ليس يشبه الحدود، فمن تعاطى ذلك من مسلـم فهو مرتدّ، أو معاهدٌ فهو محارب غادر[1].

كما كتب إليه أبو بكر رضي الله عنه، في التي تغنّت بهجاء المسلمين: «أما بعد، فقد بلغني أنّك قطعت يد امرأة في أن تغنّت بهجاء المسلمين، ونزعت ثنيّتها، فإذا كانت ممن تدّعي الإسلام فأدبٌ وتقدمة دون المُثْلَة، وإن كانت ذِمِيّة فلعمري لما صفحت عنه من الشِّرك كان أعظم، ولو كنتُ تقدّمت إليك في مثل هذا لبلغتُ مكروهاً، فاقبل الدّعة[2] واياك والمُثْلة في الناس، فإنّها مأثم ومُنفِّرة إلاّ في قصاص»[3].

ولم تقتصر عمليات المهاجر التطهيريّة على النساء، بل كانت هذه العمليات جزءاً من عمليات التطهير الشّاملة الأخرى التي فرضت الأمن والاستقرار في ربوع اليمن وحضرموت، وأعادت إلى الدولة الإسلامية الفتيّة هيبتها واحترامها في تلك الربوع وإلى الوحدة تماسكها ونشاطها تحت لواء الإسلام.

وكتب أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه إلى عُمّال الردّة، ومنهم المهاجر:

«أما بعد: فإن أحبّ مَنْ أدخلتم في أموركم إليّ منْ لم يَرْتد، ومَنْ

---

(١) الطبري (٣/٣٤١).

(٢) الدّعة: الخفض والسّعة في العيش.

(٣) الطبري (٣/٣٤١-٣٤٢).

كان ممن لم يَرْتَدّ، فأجمعوا على ذلك، فاتخذوا منها صنائع، وائذنوا لمن شاء بالانصراف، ولا تستعينوا بمرتدّ في جهاد عدوّ»[1].

وهكذا وضع أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، هذه (القاعدة) في استخدام الرجال في الجهاد استخدام الذين ثبتوا على الإسلام ولم يرتدوا في الجهاد، وتجميد المرتدين الذين عادوا من جديد إلى الإسلام دون الاستعانة بهم في تحمّل أعباء الجهاد، فما يستطيع تحمل أعباء الجهاد إلاّ المؤمنون حقاً الذين نجحوا في اجتياز اختبار العقيدة، أما الذين أخفقوا في هذا الاختبار، فقد يقاتلون دفاعاً عن مصالح جيوبهم، ولكنّهم لا يقاتلون دفاعاً عن خلجات قلوبهم، والنصر دائماً لأصحاب القلوب لا لأصحاب الجيوب.

وكان أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، قد كتب إلى المهاجر مع المُغيْرة بن شُعْبة الثَّقَفيّ[2]:

«إذا جاء كم كتابي هذا ولم تظفروا، فإن ظفرتم بالقوم فاقتلوا المُقاتلة واسبُوا الذرّية إن أخذتموهم عَنْوَة، أو ينزلوا على حكمي، فإن جَرَى بينكم صُلْح قبل ذلك فعلَى أن تخرجوهم من ديارهم، فإني أكرهُ أن أُقرّ أقواماً فعلوا فعلهم في منازلهم، ليعلموا أن قد أساءوا، وليذوقوا وبال بعض الذي أَتَوْا»[3]، وقد طبّق المهاجر هذه الخطّة السَّوْقيّة في مرحلتين: الجهاد الأصليّ في معركته الحاسمة، معركة حصن النُّجَيْر، والجهاد التطهيري في استثمار الفوز، وكان بحق من أولئك القادة الذين يسخّرون طاقاتهم المادّية والمعنوية دفاعاً عن عقيدتهم، ولا يسخّرون عقيدتهم دفاعاً عن مصالحهم الذاتيّة.

لقد أحسن المهاجر في أداء واجبه قائدا

---

(١) الطبري (٣/٣٤١).

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٣١-٤٥٠).

(٣) الطبري (٣/٣٣٧).

الإنسان

أخبار المهاجر إنساناً قليلة في المصادر المعتمدة التي بين أيدينا، فقد عرفنا أنّه من قُريش ومن بني مَخْزوم، وعرفنا أباه وأمّه، دون أن نعرف تفاصيل حياته الأولى قبل إسلامه وبعد إسلامه.

وقد تزوج أسماء بنت النُّعمان بن الأسود بن الحارث بن شَراحيل بن كِنْدِي بن الجَوْن من كِنْدَة حين كان على اليمن[1] ولا نعرف عن زوجاته الأخريات شيئاً.

إخوته: عبد الله بن أبي أُميَّة، كان شديد الخلاف على المسلمين، ثمّ خرج مهاجراً من مكّة يريد النبيّ ﷺ، فلقيه بالسُّلُوب فوق العَرْج، بين السُّقْيا والعَرْج، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، حتى شفعت له أمُّ سَلَمة بنت أبي أُميَّة زوج النبيّ ﷺ، وهو أخوها لأبيها، فَقَبِل منه، وشهد فتح مكّة وحُنَيْناً، وقُتل يوم الطائف مسلماً.

وزُهَيْر بن أبي أُميَّة، وكان من رجال قريش. وقُرَيْبَة الكبرى، ولدت لزَمعة بن الأسود بن المُطَّلب بن أسد بن عبد العُزَّى.

وأمّهم: عاتكة بنت عبد المُطَّلب بن هاشم بن عبد مَنَاف.

وهشام بن أبي أُمية، قُتل يوم أُحُد كافراً، ومَسْعود بن أبي أُميّة، قُتل يوم بَدْرٍ كافراً، وأمها من ثقيْف.

والمُهاجر بن أبي أُميّة، وأخته لأُمّه أم سَلَمة بنت أبي أُميَّة زوج النبيّ ﷺ، كانت عند أبي سَلَمة بن عبد الأَسَد[2]، فولدت له: سَلَمة، وعمر، وزينب، ثم تُوفّي عنها، فخلف عليها رسول الله ﷺ.

---

(١) المحبّر (٩٥) وانظر أنساب الأشراف (٤٥٦/١).
(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة النبيّ ﷺ.

وقُرَيْبَة الصُغْرى، ولدت عبد الله، وأمّ حكيم، ابني عبد الرحمن بن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه[1].

ولا ذكر لعقب المهاجر، ولا نعرف عنهم شيئاً.

وكان المهاجر من سفراء النبيّ ﷺ ومن عمّاله كما أسلفنا، وكان من عمال أبي بكر الصديق رضي الله عنه[2]، كما كان من قادة جيوشه في حروب الردّة كما ذكرنا. وله في قتال الرِدَّة باليمن أثر كبير[3]، وقال في قتال الردّة أشعاراً[4].

ولا نعلم سنة وفاته[5]، وقد ورد ذكره في عمّال أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، ولم يرد ذكره بعد ذلك.

وهذه هي كلّ أخبار المهاجر المتيسرة إنساناً في المصادر المعتمدة المتيسِّرة، وما أقلها من أخبار بالنسبة لقدر هذا الصحابيّ الجليل.

القائد والسّفير

١ . القائد

المهاجر من بني مَخْزوم، وهم بطن من عشرة أبطن من قريش، انتهى إليها الشّرف قبل الإسلام، فكان في بني مخزوم القُبة وأعنّة

---

(١) نسب قريش (٣١٥-٣١٦) وانظر جمهرة أنساب العرب (١٤٦).

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (٩١/١).

(٣) أسد الغابة (٤٢٣/٤).

(٤) الإصابة (١٤٥/٦) ونص عبارة الإصابة: «وقال المرزباني في معجم الشعراء: قاتل أهل الردّة وقال في ذلك أشعارا» ولم أجده في النسخة المطبوعة من معجم الشعراء للمرزباني، وهي غير تامة، انظر معجم الشعراء للمرزباني - ملحق بكتاب المؤتلف والمختلف للآمدي - القاهرة - ١٣٥٤ هـ.

(٥) في الأعلام للزركلي (٢٥٣/٨)، أن وفاته كانت سنة ١٢ هـ، والمصادر التي اعتمدها هذا المرجع لا تنص على ذلك.

الخيل. أما القبة، فكانوا يضربونها ويجمعون ما يجهّزون به الجيش، وأما الأعِنَّة، فهي قيادة الفرسان في الحرب[1]، لهذا فضلة المهاجر بالقيادة والأمور الإدارية للمقاتلين (عريقة)، تمتدّ إلى أيام الجاهليّة، (ووثيقة)، لأنّه نشأ في بطن من بطون قريش التي مارست القيادة والأمور الإدارية ردحاً طويلاً، و(مباشرة)، لأنه كان على تماس شديد بالقادة من بني مخزوم وبالإداريين منهم أيضاً.

ولكنّ نسب المهاجر القيادي والإداري ليس كافياً لتوليته القيادة وبخاصة في الأيام الأولى من أيام الإسلام، إذ لا يتولى المناصب القياديّة إلاّ المؤمن الصّادق الذي يتحلّى بالعقيدة الرّاسخة، ويتحلّى بمزية الاستعداد للتضحية في سبيلها، كما ينبغي أن يكون ذا كفاية قيادية عالية، فالعقيدة الراسخة، والكفاية العالية، هما الشرطان الرئيسان لتولي المناصب القيادية، وليس من شروط تولّي هذه المناصب النسب العريق: ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[2].

ولكنّ النّسب وعامل الوراثة في الأنساب له أثر في انتقال صفات الآباء إلى الأبناء والأحفاد، إذا لم تكن كاملة وقد تكون منقوصة أو مزيدة، كما أنّ البيئة تؤثر في المرء، فإذا نشأ في بيئة قيادية كما هو الحال في بني مخزوم والمهاجر، فلا بدّ من أن يتأثّر ببيئته التي يعايشها ويقضي كلّ وقته تقريباً في محيطها، وكان الاتصال العائلي والتواصل في المحيط العربيّ بين بطون قريش في الجاهلية وثيقاً جداً.

فإذا لم يكن نسب المهاجر السبب الأول والأخير على قيادته، فإنه بدون شك سبب من تلك الأسباب، إن لم يكن أكثرها أهمية، فليس أقلّها أهميّة على كلّ حال.

---

(١) أسد الغابة (٩٣/٢) والاستيعاب (٤٢٧/٢) وانظر بلوغ الأرب (١٥٠/١).

(٢) سورة الحجرات، آية ١٣.

وقد خاض المهاجر في حروب الردّة، نوعين من المعارك: معركة حاسمة، هي معركة حصن النُّجَيْر، ومعارك استثار الفوز أو معارك التطهير، وهي التي خاضها بعد معركة النُّجَيْر، فأبلى في معاركه كافة أحسن البلاء، وقاد رجاله إلى النصر، وأعاد الوحدة إلى ربوع اليمن وحضرموت تحت لواء الإسلام.

وحين كان في طريقه إلى اليمن لتسلّم مهام منصبه قائداً ووالياً، كان المرتدون قد استشرى أمرهم وتضاعف خطرهم، مما اضطر وكيله على القيادة أن يستعجل التحاقه بمنصبه، ليتولى معالجة الأمور بنفسه، ويضع لها الحلول المناسبة.

وقدم المهاجر على عجل، ومعه قوّاته الخفيفة السريعة الحركة، فوجد جموع المرتدين قد حشدوا جموعهم في منطقة حصن النُّجَيْر، واستفادوا من الحصن لتعزيز عملياتهم العسكرية، وجعلوه قاعدة لعملياتهم وموقعاً حصيناً يلجأون إليه عند الحاجة، لحماية أنفسهم، ولقبول معركة الحصار في داخله، فوضع المهاجر المجاهدين بتماس شديد بالمرتدين. وضيّق على المرتدين الخناق، حتى اضطرهم إلى قبول الحصار في الحصن، فحاصرهم حصاراً شديداً، حتى انهارت معنويات المرتدين واستسلموا للمسلمين بشرط إنقاذ حياة عدد محدود منهم، وبذلك انتهت المعركة لصالح المسلمين.

ودراسة معركة النُّجَيْر، تدل على أنّ المهاجر كان يقدّر قيمة الوقت في الحرب، فسارع إلى قواته الرئيسة في منطقة النُّجير، ولم يبق مع قواته التي جاءت مدداً لها، لأن تأخره يفسح المجال للمرتدين باستكمال استعداداتهم ومضاعفة أعدادهم وجمع حشودهم وتنظيم خططهم للقتال.

كما أنّ مطالبة وكيله في القيادة من المهاجر أن يلتحق بقيادته على عجل، يدلّ على أنّه كان قائداً على جانب عظيم من الكفاية القياديّة

بحيث يؤثر وجوده على رأس رجاله في سير القتال ونتائجه المرتقبة في المسلمين والمرتدين أيضاً من الناحيتين المادية والمعنوية.

ونستطيع أن نستنتج أنّه كان ذا قرار سريع صحيح، شجاعاً، ذا إرادة قويّة ثابتة، يتحمّل المسؤولية ويحبها ولا يتملّص منها أو يحاول إلقائها على عوائق الآخرين، ذا نفسية ثابتة لا تتبدّل في حالتي النصر والاندحار، يتحلى بمزية سبق النظر، عارفاً بنفسيات رجاله وقابلياتهم، يثق برجاله ويثقون به ويحبّهم ويحبونه، ذا شخصيّة قويّة نافذة، قويّ الإيمان راسخ العقيدة، فهو يقاتل عن مبادىء ومن أجل مبادىء، ويضحي من أجل مبادئه بكلّ ما يملك من مادة وروح.

كما أن انتصاره في معركة النُّجير، يدلّ على كفايته المتميزة في إدارة القتال، وبخاصة في الحصار، وأنّه كان قائداً يقظاً كلّ اليقظة، حذراً كل الحذر، صابراً على تحمّل أعباء القتال.

وعند تطبيق مزايا المهاجر القيادية على مبادىء الحرب، نجد أنّه كان يطبّق مبدأ: اختيار المقصد وإدامته، وكان مقصده الأول والأخير إعادة المرتدين إلى حظيرة الإسلام، فما حاد أبداً عن تحقيق هذا المقصد.

وكان قائداً تعرّضياً، يطبِّق مبدأ: التعرّض، فقد بدأ عملياته متعرضاً، وانتهى منها متعرضاً، ولم يدافع أبداً خلال مدّة قيادته.

وكان يطبِّق مبدأ: حشد القوة، فقد حشد قوات المسلمين الذين بقوا على الإسلام في اليمن وحضرموت، واستفاد من قوات عِكْرِمة بن أبي جَهْل، وحشد المجاهدين من مكة والطائف، وحشد كل مَنْ قدر على حشده من المسلمين وهو في طريقه من المدينة إلى اليمن وحضرموت.

ولكنّه كان يطبِّق مبدأ: الاقتصاد بالجهود، فلا يندب قوة لواجب إلاّ إذا كانت كافية لذلك الواجب، دون إسراف في الجهود.

والحق أنّ القادة المسلمين الأُوَل، كانوا يطبِّقون هذا المبدأ تطبيقاً حاسماً، فهم يخافون الله، لذلك يحرصون أعظم الحرص على دماء المسلمين أن يُراق دون مسوِّغ.

وكان يطبِّق مبدأ: الأمن، فيحمي قوّاته من العدو، ولا يعرضها لمباغتته، ولا نعرف أنّ قوّات المهاجر تعرّضت لمباغتة العدو لها أو لتهديد منها من عدوِّها في يوم من الأيام.

وكان يطبِّق مبدأ: المرونة، فكانت خططه التعبويّة مرنة تتّسم بالحكمة والدقّة والشّمول، لذلك أحرز النصر على عدوِّه في كل معركة خاضها.

وكان يطبِّق مبدأ: التعاون، فكان تعاونه بين قواته التي جاء بها من الحجاز، وقواته التي ثبتت على الإسلام في اليمن وحضرموت، وقوات عكرمة وغيره من القادة تعاوناً وثيقاً لتحقيق هدف مشترك واحد: إعلاء كلمة الله.

وكان يطبق مبدأ: إدامة المعنويات، فهو الصحابي الجليل، وشقيق أمُّ المؤمنين وأحد رجال بني مخزوم، طاقة من طاقات رفع المعنويات وإدامتها.

وكان يطبِّق مبدأ: الأمور الإدارية، فيرعى رجاله غاية الرعاية، ويؤمِّن لهم ما يحتاجون إليه من مأكل ومشرب وملبس ومَرْكب ومعسكر وغيرها من شؤونهم الإدارية.

وكان يساوي نفسه مع غيره من رجاله، بل كان يستأثر بالخطر، ويؤثرهم بالأمن، ويسهر على مصالحهم أكثر مما يسهر على مصالحه.

لقد كان المهاجر قائداً متميِّزاً.

٢. السّفير

كان المهاجر يتحلّى بخصلة: الانتماء والإيمان، فقد كان مسلماً حسن الإسلام، وكان مؤمناً راسخ الإيمان، وكان يعيش من أجل عقيدته: الإسلام، وأُمّته الإسلامية، وكان يحمل (قضيّةً) يؤمن بها ويضحّي من أجلها، ويهمّه أن ترتفع راياتها وتنتشر في كل مكان.

وكان على جانب عظيم من الفصاحة، فهو من قريش أفصح العرب، ومن أبرز بطون قريش، وكانت فصاحته وسيلة لتوضيح أفكاره وشرحها على أحسن وجه.

وكانت معلوماته في الدين، كافية بالنسبة لغير المسلمين أو المسلمين الجدد، فهو صحابي تلقّى العلم من المعلّم الأوّل النبيّ ﷺ.

وكان يتّسم بحسن الخلق، فالنبيّ ﷺ بُعث ليتمِّم مكارم الأخلاق، كما أنّ رجال قريش بعامة كانوا على جانب عظيم من الخلق الكريم قبل الإسلام وبعده.

وكان يتّصف بالصبر الجميل، والحكمة والتأنّي، فلا يتسرّع ولا يغضب فيجتاحه الغضب، ولا يتهوّر، ويحلم ما وسعه الحلم.

وكان واسع الحيلة، ألمعيّ الذكاء، يُقدِّر ويدبِّر ويصدر عن تفكير عميق ومشورة مستفيضة، لذلك تكون قراراته واقعيّة وصائبة، وأجوبته سديدة سليمة.

وليس هناك ما ينص في المصادر التي بين أيدينا عن رواء مظهره سلباً أو إيجاباً، فقد سكت الذين أرّخوه أو ذكروه عن هذه الناحية. ولكنّ المصادر تنص على أنّ شقيقته أم سلَمَة[١] أُم المؤمنين رضي الله

---

(١) انظر سيرتها المفصلة في: أسد الغابة (٥/٥٨٨) والإصابة (٨/٢٤٠) والاستيعاب (٤/١٩٣٩).

عنها كانت: «موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأي الصائب»[1].

فإذا كان مظهر المهاجر في روائه كمظهر شقيقته أُمُّ سَلَمَة في روائها أيضاً، فقد حاز المهاجر على الشروط التي كان يلتزم بها النبيّ ﷺ والمسلمون الأولون في الصدر الأول للإسلام في اختيار السفراء.

ولعلّ اختياره سفيراً دليل على رواء مظهره، وأنّه كان يشابه شقيقته في مظهرها.

وهكذا يتوافق رواء الخبر ورواء المظهر في المهاجر بن أبي أُمية المخزومي، فأدّى واجبه سفيراً ناجحاً، كما أدّى واجبه قائداً متميِّزاً.

وقد كان المهاجر موفّقاً في سفراته، تماماً كما كان موفّقاً في قيادته.

المهاجر في التّاريخ

يذكر التاريخ للمهاجر، أنّه كان أحد صحابة رسول الله ﷺ، وأحد الذين جاهدوا تحت لوائه، فنال شرف الصحبة وشرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد عليه الصّلاة والسّلام.

ويذكر له، أن النبي ﷺ أرسله سفيراً إلى أحد ملوك اليمن، فأدّى واجبه في سفارته أداءً جيداً.

ويذكر له، أنّ النبي ﷺ استعمله على صدقات كِنْدَة والصَّدِف، فلم يلتحق بمنصبه لوفاة النبي ﷺ، والتحق به بعد وفاته عليه الصّلاة والسلام.

---

(١) الإصابة (٢٤١/٨).

ويذكر له، أنّه كان أحد قادة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، أرسله لحرب المرتدين في اليمن وحضرموت، فأبلى في حرب الرِدَّة أعظم البلاء.

ويذكر له، أنّه كان أحد عمّال أبي بكر الصدّيق على اليمن، فبقي في منصبه إلى أن انتقل أبو بكر الصدّيق الى جوار الله.

رضي الله عن الصحابيّ الجليل، السفير العامل، القائد المنتصر، المهاجر بن أبي أُمَيّة المخزوميّ القُرَشِيّ.

جَرِيْر بن عبد الله البَجَلِيّ
السَّفير القائد

« اللّهمّ ثبِّتْهُ واجعله هادِياً مَهْدِيًّا »

محمد رسول الله ﷺ

نسبه وأيامه الأولى

هو جَرِيْر بن عبد الله بن جابر، وهو الشَّلِيْل، بن مالك بن نَصْر بن ثَعْلَبَة بن جُشَم بن عُوَيْف بن خُزَيْمَة بن حرب بن عليّ بن مالك بن سَعْد ابن نَذِيْر بن قَسْر بن عَبْقَر بن أنمار بن إراش بن عمرو بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كَهْلَان بن سَبَأ. وبنو عمرو بن الغوث بن نَبْت هم أخو الأَزْد بن الغَوْث بن نَبْت بن زيد بن كَهْلان بن سَبَأ[1].

والأَزْد وبَجِيْلَة من قبائل قَحْطان، وكذلك خَثْعَم وبنو هَمْدان وبنو الهان وبنو الأشْعَر وبنو طيء وبنو مَذْحج وبنو خَوْلان وبنو المعَافِر وبنو عاملة وبنو جُذَام وبنو لَخم وبنو كِنْدَة وبنو حِمْيَر، لأن سَبَأ بن يَشْجُب ابن يَعْرُب بن قَحْطَان، من قبائل اليمن[2].

نسب بنو بَجِيْلَة إلى أمهم بَجِيْلة بنت صَعْب بن عليّ بن سَعْد العَشِيْرَة[3].

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٣٨٦ - ٣٨٧).
(٢) جمهرة أنساب العرب (٤٨٤- ٤٨٥).
(٣) أسد الغابة (٢٧٩/١).

وقد اختلف النسّابون في بَجيلة، فمنهم من جعلهم من اليمن: أنمار ابن إراش بن عمرو الذي هو أخو الأزْد، وهو قول الكلبيّ وأكثر أهل النّسب، ومنهم من قال: أنمار بن نزار بن مَعَدّ، كما ذكر ابن إسحاق[1]، ولكنّ ابن هشام استدرك على ابن إسحاق، فذكر نسب بَجيْلة: أنمار بن إراش بن عمرو بن الغَوْث بن نَبْت بن مالك بن زيد كَهْلان بن سَبَأ[2] كالنسب الذي ذكرناه، فهو الصواب لإجماع المصادر المعتمدة كافة عليه.

كما أنّ النبي ﷺ بعث جريراً إلى اليمن مقاتلاً[3] وداعياً[4] وسفيراً، مما يدل على معرفته التفصيلية باليمن، فَبجيْلة يمانية[5] دون شك.

كان سيِّداً في الجاهلية[6] وسيِّد قومه[7]، واختلفوا في موعد إسلامه، فهناك مَنْ يذكر أنه أسلم قبل أربعين يوماً من وفاة النبيّ ﷺ[8]، وهذا خطأ لما ثبت في الصحيحين: البخاري ومسلم، أنّ النبي ﷺ قال لجرير: «استنصت الناس»، في حَجَّة الوداع، وذلك قبل التحاق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى بأكثر من ثمانين يوماً[9].

وجزم الواقدي، بأنّ جريراً وفد على النبيّ ﷺ في شهر رمضان سنة عشر الهجريّة، وهذا خطأ أيضاً، لأنّ جريراً يروي: «أنّه سمع

---

(١) سيرة ابن هشام (٧٩/١) وانظر أسد الغابة (٢٧٩/١) والاستيعاب (٢٣٧/١).
(٢) سيرة ابن هشام (٨٠/١).
(٣) فتح الباري بشرح البخاري (٦٠/٨).
(٤) طبقات ابن سعد (٢٦٥/١ - ٢٦٦).
(٥) سيرة ابن هشام (٨٠/١).
(٦) الاستيعاب (٢٣٨/١).
(٧) أسد الغابة (٢٧٩/١).
(٨) أسد الغابة (٢٧٩/١) والاستيعاب (٢٣٧/١).
(٩) الإصابة (٢٤٢/١).

الرسول ينعي النّجاشِيّ »، وهذا يدلّ على أنّ إسلام جرير كان قبل سنة عشر الهجريّة[1]، لأن النجاشِيّ مات قبل ذلك.

والنّجاشي لقب لكلِّ مَنْ مَلَكَ الحبشة[2].

والصحيح أن جريراً أسلم سنة تسع الهجريّة، وهي سنة الوفود[3].

لقد كان جرير موضع ثقة النبيّ ﷺ، قال جرير: «ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلاّ ضحك»[4]، ونال شرف الصُّحبة، ولكنه لم ينل شرف الجهاد تحت لواء النبيّ ﷺ، فلا ذكر له في غزوات النبيّ ﷺ وسراياه.

هَدْم ذي الخَلَصَة

أرسل النبيّ ﷺ جريراً لهدم ذي الخَلَصَة، وهي من الأصنام: بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التّاج، وكانت بـ(تَبَالَة)[5] بين مكّة واليمن، على مسيرة سبع ليالٍ من مكة، وكان سدنتها بنو أُمَامَة من باهِلَة بن أَعْصُر،

---

(١) الإصابة (٢٤٢/١).

(٢) شرح النووي على مسلم (٣٣٧/٢ - ٣٣٨).

(٣) فتح الباري بشرح البخاري (٩٩/٧)، وفي طبقات ابن سعد (٣٢٧/١)، يذكر أنّه وفد على النبيّ ﷺ سنة عشر الهجريّة مع وفد بجيلة، وانظر أيضاً طبقات ابن سعد (٢٢/٦).

(٤) فتح الباري بشرح البخاري (٩٩/٧) وشرح النووي على مسلم (١٩٤/٥).

(٥) تبالة: بلدة مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن، وبين تبالة ومكة اثنان وخمسون فرسخاً نحو مسيرة ثمانية أيام، وبينها وبين الطائف ستة أيام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٥٧/٢-٣٥٨)، وفي كتاب الاصنام (٣٤): بينها وبين مكة سبع ليالٍ.

وكانت تعظِّمها وتهدي لها خَثْعَم وبَجِيْلَة وأَزْد السَّرَاة[1] ومَنْ قاربهم من بطون العرب من هوازن[2].

وذو الخَلَصَة الذي فيه هذا الصّنم، بيت كان يطلق عليه في الجاهلية اسم: الكعبة اليمانيّة[3].

وقال رجل من العرب في ذي الخَلَصَة:

لو كنتَ يا ذا الْخَلَصِ الموتورا مِثْلي، وكان شيخُك المقبورا
لم تَنْهَ عن قتل العُداةِ زُوْرا

وكان أبوه قُتل، فأراد الطّلب بثأره، فأتى ذا الخَلَصَة، فاستقسم عنده بالأزلام، فخرج السَّهم بنهيه عن ذلك، فقال هذه الأبيات، ومن الناس مَنْ ينحلها امرأ القيس بن حُجْر الكِنْدِي[4].

وسار جرير إلى ذي الخَلَصَة، على رأس مائة وخمسين فارساً، فهدم الصّنم والبيت وحرقها وعاد سالماً، فدعا له النبي ﷺ[5]، ودعا للذين كانوا معه[6]، وسجد شكراً لله تعالى[7].

---

(١) أزد السراة: هم أزد شنوءة، وهم بنو كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك ابن نصر بن الأزد. والسراة: جبل مشرف على عَرَفَة ينقاد الى صنعاء. والسراة: الأرض والجبال الحاجزة بين تهامة واليمن، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٥٩-٦١).
(٢) كتاب الأصنام (٣٤ - ٣٥).
(٣) شرح النووي على مسلم (٥/١٩٤).
(٤) سيرة ابن هشام (١/٩١).
(٥) فتح الباري بشرح البخاري (٧/٩٩) وشرح النووي على مسلم (٥/١٩٥).
(٦) أسد الغابة (١/٢٨٠).
(٧) ابن الأثير (٢/٣٠٤).

وعن جرير قال: «قال رسول الله ﷺ: **ألا تكفيني ذا الخَلَصَة؟** فقلت: يا رسول الله! إني رجل لا أثبتُ على الخيل، فصكّ في صدري، فقال: **اللّهم ثَبِّتْهُ، واجعله هادياً مهدياً**، فخرجت في مائة وخمسين من قومي، فأتيناها، فأحرقناها»[1].

وإرسال النبيّ ﷺ جريراً لهدم صنم قومه وحرقه، دليل على ثقته بإيمانه العميق، لأن قوم جرير كانوا من القبائل العربيّة التي كانت تعظّم هذا الصنم في الجاهلية، كما أنّ تنفيذ جرير هذا الواجب دليل على تخليه نهائياً عن عقيدته التي كان عليها قبل إسلامه، وتمسّكه بالإسلام تمسّكاً قويا صادقاً.

وهكذا اقتلع جرير جذور الشِّرك من أصوله في تلك المنطقة، فدخل الناس في دين الله أفواجاً.

السَّفير

بعث رسول الله ﷺ جريراً إلى ذي الكلاع بن ناكور بن حبيب بن مالك بن حَسَّان بن تُبَّع[2] وذي عمرو[3] باليمن يدعوهما إلى الإسلام، فأسلما، وأسلمت ضُرَيْبَة بنت أبْرَهَة بن الصُّبَّاح امرأة ذي الكَلَاع[4]. ويبدو أن النبيّ ﷺ بعث جريراً إلى اليمن سنة إحدى عشرة الهجريّة.

وكان النبيّ ﷺ كتب إلى ذي الكلاع مع جرير[5]، ولم يُرْوَ نَصّ الكتاب. وكان ذو عمرو يهوديًّا، ووفد ذو الكلاع على عمر بن الخطّاب

---

(١) الاستيعاب (٢٣٨/١) وانظر أسد الغابة (٢٨٠/١).
(٢) انظر سيرته المفصلة في: أسد الغابة (١٤٣/٢ - ١٤٤).
(٣) انظر سيرته المفصلة في: أسد الغابة (١٤٢/٢).
(٤) طبقات ابن سعد (٢٦٥/١-٢٦٦) والمحبّر (٧٥).
(٥) الاشتقاق لابن دريد (٣٠٨).

رضي الله عنه، فأغزاه الشّام، فلم يزل بها حتى قُتل بصِفّين مع معاوية ابن أبي سفيان[1]، ومعركة صِفّين كانت سنة سبع وثلاثين الهجريّة[2] (٦٥٧ م).

وتوفي رسول الله ﷺ، وجرير في اليمن، فأخبره ذو عمرو بوفاته صلى الله عليه وسلّم، فخرج جرير إلى المدينة المنوّرة[3].

وهكذا نهض جرير بواجبه سفيراً بنجاح، كما نهض بواجبه داعياً بنجاح أيضاً.

المجاهد

١. في ردّة اليمن:

عاد جرير إلى المدينة المنورة بعد انتقال النبيّ ﷺ الى الرفيق الأعلى، فأخبر أبا بكر الصدّيق بارتداد مَنْ ارتدّ وثبات من ثبت على الإسلام.

وردّ أبو بكر جريراً إلى بَجيْلَة قومه، وأمره أن يستنفر من قومه مَنْ ثبت على الإسلام، ويقاتل بهم مَنْ ارتدَّ عن الإسلام، وأن يأتي خَثْعَم فيقاتل من خرج غضباً لذي الخَلَصَة، فخرج جرير وفعل ما أمره، فلم يقم له أحد إلاّ نفرٌ يسير، فقتلهم وتتبّعهم[4].

وتوجّه جرير إلى (نَجْران)[5]، فأقام بها انتظاراً لأمر أبي بكر[6]

---

(١) الحبّر (٧٥).

(٢) العبر (١/٣٨).

(٣) طبقات ابن سعد (١/٢٦٦).

(٤) الطبري (٣/٣٢٢) وابن الأثير (٢/٣٧٥).

(٥) نجران: من مخاليف اليمن، من ناحية مكة المكرّمة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٥٨-٢٦٥).

(٦) الطبري (٣/٣٢٢).

الصدِّيق رضي الله عنه في قتال المرتدين.

ولما فَصَل المهاجر بن أبي أُميّة من عند أبي بكر، وكان آخر مَنْ فَصَل، متوجِّهاً من المدينة المنورة لحرب المرتدين في اليمن، اتّخذ مكّة المكرّمة طريقاً، ثم مرّ الطّائف، ثم مضى حتى إذا حاذَى جريراً في نَجْران، ضمّه إليه[1]، وبجيلة مع جرير[2]، فقاتل جرير وأتباعه أهل الردّة تحت لواء المهاجر بن أبي أُميَّة، فسار المهاجر من نصر إلى نصر حتى نزل صنعاء، وكتب إلى أبي بكر بذلك[3].

لقد ثبت جرير على الإسلام بالرغم من ارتداد معظم بَجِيْلة قومه، فكان ثباته ذا أثر عظيم في إعادة بجيلة إلى الإسلام، فأصبحوا قوة ضاربة على المرتدين مع المسلمين، فكان ثبات جرير وانضمام بجيلة إلى المسلمين من العوامل المهمّة لانتصار المسلمين السريع الحاسم على المرتدين من أهل اليمن، فعادت الوحدة إلى اليمن ضمن الدولة الإسلامية تحت لواء الإسلام.

٢. في فتح العراق:

كان جرير يجاهد تحت لواء خالد بن سعيد[4] بن العاص بالشام، فاستأذنه بالمسير إلى أبي بكر الصدِّيق بالمدينة ليكلِّمه في قومه بِجَيْلَة ليجمعهم له، وكانوا أوزاعاً متفرقين في العرب، فأذن له خالد بن سعيد. وقدم جرير على أبي بكر الصدِّيق، وذكر له ذلك، وأن رسول الله ﷺ وعده به، وشهد له شهود، فغضب أبو بكر وقال: «ترى شغلنا

---

(١) الطبري (٣/٣٢٩).

(٢) ابن الأثير (٢/٣٧٧).

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٣/٣٢٨ - ٣٣٠) وابن الأثير (٢/٣٧٥-٣٧٨).

(٤) هو خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، انظر سيرته المفصلة في: أسد الغابة (٢/٨٢) والإصابة (٢/٩١) والاستيعاب (٢/٤٢٠).

وما نحن بغوث المسلمين ممن بإزائهم من فارس والرّوم، ثم أنت تكلّفني ما لا يُغْني! »، وأمره بالمسير إلى خالد بن الوليد في العراق، فسار حتى قدم عليه بعد فتح (الحِيْرَة)(١)، ولم يشهد شيئاً مما قبلها بالعراق، ولا شيئاً مما كان فيه خالد من قتل أهل الرِدّة(٢)، وكان قدوم جرير إلى خالد بن الوليد في العراق سنة اثنتي عشرة الهجريّة(٣).

وشهد جرير فتـوح خالد بعد الحيرة(٤)، وكان أحد شهود معاهدة خالد بن الوليد مع أهل (بانِقْيَا)(٥) و(بَسْما)(٦) التي كانت في شهر صفر من سنة اثنتي عشرة الهجريّة(٧)، كما شهد على وثيقة الصلح التي عقدها خالد مع أهل المنطقة التي تقع بين (الفَلاَلِيْج)(٨) إلى (هُرْمُزْجِرْد)(٩) مع آخرين من المسلمين(١٠)، مما يدلّ على أنه شهد هذه المعارك بعد فتح الحيرة مباشرة تحت لواء خالد بن الوليد، كما شارك في المفاوضات بين المسلمين من جهة أحد ممثليهم في المفاوضات وبين أهالي تلك المناطق من البلاد المفتوحة من العراق، فكان مجاهداً وسياسياً مفاوضاً في وقت واحد، وأحد أعوان خالد بن الوليد المقرّبين.

---

(١) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة، على موضع يقال له النجف، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٦/٣).

(٢) الطبري (٣٦٥/٣) وابن الأثير (٣٩٣/٢).

(٣) الطبري (٣٦٥/٣).

(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٣٦٥/٣-٣٧٣) وابن الأثير (٣٩٢/٢-٣٩٥).

(٥) بانقيا: ناحية من نواحي الكوفة، انظر معجم البلدان (٥٠/٢).

(٦) بسما: لعلها بسوسا، قرب الكوفة، انظر معجم البلدان (١٨٢/٢).

(٧) الطبري (٣٦٨/٣).

(٨) فلاليج: فلاليج السواد، قراها، إحداها: فلُّوجة، انظر معجم البلدان (٣٩١/٦).

(٩) هرمزد جرد: ناحية بأطراف العراق، انظر معجم البلدان (٤٦٠/٨).

(١٠) الطبري (٣٦٩/٣).

ولم يقتصر نشاط جرير خلال هذه السنة - سنة اثنتي عشرة الهجريّة - على الجهاد، بل شمل الإدارة أيضاً، فبعث خالد بن الوليد عمّاله لقبض الجزية، وكان جرير عامله على بانِقْيَا وبَسْمَا، فنزل على المَنَعَة وقبض الجزية[1]، واكتُتِبَ عُمّال الخراج، وكتبوا البراءات لأهل الخراج من نسخة واحدة وهذا نصّها:

بسم الله الرحمن الرحيم

براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التي صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد، وقد قبضتُ الذي صالحهم عليه خالد، وخالد والمسلمون لكم يَدٌ على مَنْ بدّل صلح خالد، ما أقررتم بالجزية، وكففتم. أمانكم أمان، وصلحكم صلح، نحن لكم على الوفاء.

وأشهدوا لهم النّفر من الصحابة الذين كان خالد أشهدهم: وكان جرير أحد الشهود على هذه الوثيقة[2].

ونزل خالد الحيرة، واستقام له أمر ما بين الفلاليج إلى أسفل السّواد[3]، وفرّق سواد الحيرة يومئذ على جماعة من رجاله، كان بينهم جرير[4].

وشهد جرير معارك الفتح بعد الحيرة، وفي معركة (المُصَيَّخ)[5] التي

---

(۱) الطبري (۳/۳٦۹).

(۲) الطبري (۳/۳۷۰ - ۳۷۱).

(۳) السّواد: سهول العراق وضياعها التي افتتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، سمي بذلك لسواده بالزروع والأشجار والنخيل، لأنّه حين تاخم جزيرة العرب التي لا زرع فيها ولا شجر، كانوا إذا خرجوا من أرضهم ظهرت لهم خضرة الزرع والأشجار، فيسمّونه سواداً، وسموه سواداً لخضرته، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٥٩-١٦٤).

(٤) الطبري (۳/۳۷۲).

(٥) المصيخ: مصيخ بهراء، ماء بالشام، ورده خالد بعد سُوَى في مسيره إلى الشام، انظر معجم البلدان (٨/٧٩-٨٠).

كانت بقيادة خالد بن الوليد، قتل جرير عبد العُزّى بن أبي رُهْم بن قِرْواش أخا أوس مَناة، من النَّمْر، وكان معه كتاب من أبي بكر الصدِّيق بإسلامه، فوداه أبو بكر وأوصى بأولاده[1]، ومن الواضح أنّ جريراً قتله خطأً، إذ لم يكن يعلم بإسلامه ولا بكتاب أبي بكر الصدِّيق الذي معه.

٣. في أرض الشام:

لما غادر خالد بن الوليد العراق إلى أرض الشّام، كان أحد الذين استصحبهم معه من صحابة رسول الله ﷺ والذين كانوا بإمرته في العراق، جريرا، فشهد معه معارك خالد كافة في طريقه إلى الشّام.

وفي معركة اليرموك الحاسمة التي كانت سنة ثلاث عشرة الهجريّة[2]، برز اسم جرير أحد الفدائيين الفرسان من المهاجرين والأنصار، وهم مائة فارس، انتخبهم خالد من بين أفراد جيش المسلمين في اليرموك، كلّ فارس منهم يردّ جيشاً وحده[3]، للتأثير بهم في معنويات الروم قُبيل معركة اليرموك الحاسمة.

ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن دور جرير في معركة اليرموك، ويبدو أنّه كان دوراً مشرِّفاً.

---

(١) الطبري (٣٨١/٣).

(٢) الطبري (٣٩٤/٣) وابن الأثير (٤١٠/٢).

(٣) فتوح الشام للواقدي (١٢٠/١).

٤ . في العراق ثانيةً:

عاد جرير من أرض الشام إلى المدينة مبشّراً بانتصار المسلمين على الرُّوم في معركة اليرموك[١].

وكان أبو بكر الصّدّيق قد مضى إلى ربّه، وكان عمر بن الخطّاب قد خلفه، فطلب منه جرير أن يجمع له بجيْلَة قومه تحقيقاً لوعد النبيّ ﷺ بجمع بجيلة لجرير. وكتب عمر إلى عمّاله: «إنّه مَنْ كان يُنسب إلى بَجيلة في الجاهلية، وثبت عليه في الإسلام، فأخرجوه إلى جرير»، ففعلوا ذلك. ولما اجتمعوا أمرهم عمر بالعراق، فأبوا إلاّ الشّام، فعزم عمر على العراق وينفلهم ربع الخُمس، فأجابوا، فسيّرهم عمر إلى المُثَنَّى ابن حارثة الشّيباني[٢] بالعراق، لأن عمر ندب الناس إلى المثنى لما بلغه خبر وقعة أبي عبيد الثقفي في (الجسر)[٣]، وكان فيمن ندب بجيلة[٤].

وتوجّه جرير على رأس بجيلة إلى المُثَنَّى في العراق، فكتب المثنى إلى جرير: «إنّا جاءنا أمرٌ لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا، فعجّلوا اللّحاق بنا، وموعدكم البُوَيْب»[٥]، وكان جرير ممدّا له[٦].

وانتهى جرير إلى المثنى، فشهد تحت لواء المثنى معركة البُوَيْب التي انتصر فيها المسلمون على الفرس انتصاراً عظيماً[٧].

---

(١) الطبري (٣/٤٥٥).

(٢) المثنى بن حارثة الشيباني: انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٧ - ٥٠).

(٣) انظر التفاصيل في: الطبري: (٣/٤٥٠ - ٤٥٩) وابن الأثير (٢/٤٣٨ - ٤٤٠).

(٤) الطبري (٣/٤٦٠) وابن الأثير (٢/٤٤١).

(٥) البويب: نهر كان بالعراق موضع الكوفة يأخذ من الفرات، انظر معجم البلدان (٢/٣١٠).

(٦) الطبري (٣/٤٦١).

(٧) انظر تفاصيل معركة البويب في الطبري (٣/٤٦٠ - ٤٧٢) وابن الأثير (٢/٤٤١ - ٤٤٥).

وبعد معركة البُوَيْب استأذن جريرُ المثنّى في مطاردة الفُرس المنهزمين، فكتب جرير إلى المثنى: «إن الله عزّ وجلّ قد سلّم وكفى، ووجّه لنا ما رأيت، وليس دون القوم شيء، فتأذن لنا بالإقدام»، فأذن المثنى لجرير والآخرين في مطاردة المنهزمين، فأغار حتى بلغ (ساباط)[1]، فتحصّن أهل ساباط منهم واستباحوا (القُرَيّات)[2] دونها، ورماهم أهل الحصن بساباط عن حصنهم، وكان أوّل مَنْ دخل حصنهم ثلاثة قواد، أحدهم جرير، وقد تبعهم أوزاع من الناس، ثم عادوا إلى المثنى[3].

ويبدو أنّ بعض الخلافات نشبت بين المُثَنَّى وجرير بعد معركة البُوَيْب. فقد أقبل جرير حتى إذا مرّ قريباً من المثنى، كتب إليه جرير: إني لستُ فاعلاً إلاّ أن يأمرني بذلك أمير المؤمنين، أنت أمير وأنا أمير. ثم سار جرير فلقيه مِهْرَان بن باذان - وكان من عظماء فارس - عند النُّخَيْلَة[4]، قد قطع إليه الجسر، فاقتتلا قتالاً شديداً. فشد أحد المسلمين[5] على مهران فطعنه، فوقع عن دابته، فاقتحم عليه جرير واحتزّ رأسه. واختصما من سَلَبه، ثم اصطلحا فيه، فأخذ جرير سلاح مِهْران، وأخذ الثاني مِنْطقته[6].

وحين اصطدم مهران بجرير في ساحة القتال، وأصبحا في تماس شديد، قال مِهْران:

---

(١) ساباط: بليدة قريبة من المدائن، أنظر معجم البلدان (٥/٢).
(٢) القريات: جمع تصغير القرية.
(٣) الطبري (٣/٤٧٠).
(٤) النخيلة: موضع قرب الكوفة على سَمْت الشّام، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٧٦ - ٢٧٧).
(٥) هو المنذر بن حسّان بن ضِرار الضَّبِّيّ، انظر الطبري (٣/٤٧٢).
(٦) الطبري (٣/٤٧١ - ٤٧٢).

إن تَسْألوا عنّي فـــإِني مِهْرانْ أنـــا لِمَنْ أَنْكرَني ابن بـــاذانْ

وكان باذان عاملاً لكسرى على اليمن، وكان ابنه مهران معه في اليمن، فأتقن العربية هناك[1].

وجاب المثنّى السّواد، وأرسل جريراً إلى مَيْسان[2]، وخاض المثنى معركة (الخَنَافس)[3] التي انتصر المسلمون فيها على الفرس في هذه المعركة[4].

واجتمع الفرس على يَزْدَجَرْد فملّكوه عليهم، وتبارى رؤساؤهم في طاعته ومعونته، فسمّى الجنود لكل مسلحة كانت لكسرى أو موضع ثغر. وبلغ ذلك المثنى والمسلمين، فكتبوا إلى عمر بن الخطّاب، فلم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السّواد: مَنْ كان له منهم عهد ومَنْ لم يكن له منهم عهد، فخرج المثنى برجاله حتى نزل بذي قار[5]، وتنزّل الناس بالطَّف[6]، حتى جاءهم كتاب عمر: «أما بعد. فاخرجوا من بين ظهرِي الأعاجم، وتفرّقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حدود أرضكم، ولا تَدَعُوا في ربيعة أحداً ولا مُضَر ولا حلفائهم أحداً من أهل

---

(١) الطبري (٤٧٢/٣).

(٢) ميسان: اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل، بين البصرة وواسط، قصبتها ميسان، أنظر معجم البلدان (٢٢٤/٨ - ٢٢٥).

(٣) الخنافس: أرض للعرب في طرف العراق قرب الأنبار، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٦٨/٣).

(٤) انظر تفاصيل معركة الخنافس في: الطبري (٤٧٢/٣) - ٤٧٦) وابن الأثير (٤٤٥/٢ - ٤٤٧).

(٥) ذو قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة، بينها وبين واسط، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٧ - ١٠).

(٦) الطف: طف الفرات، أي الشاطىء. والطف أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية، انظر معجم البلدان (٥١/٦).

النَّجدات ولا فارساً إلاّ اجتلبتموه، فإن جاء طائعاً وإلاّ حشرتموه. احملوا العرَب على الجدّ إذ جدّ العجم، فتلقوا جِدّهم بجِدّكم».

ونزل المثنى بذي قار، ونزل الناس بالجُلّ[1] وشَراف إلى غُضَيّ[2]، وغُضَيّ حيال البصرة، فكان جرير بغُضَيّ. فكانوا في أمواه الطَّف من أولها إلى آخرها مسالح بعضهم ينظر إلى بعض، ويُغيث بعضهم بعضاً إن كان قتال، وذلك في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة الهجريّة[3].

وكان المثنّى قد كتب إلى عمر يَمْحَل[4] بجرير، فكتب عمر إلى المثنّى: «إني لم أكن لأستعملك على رجل من أصحاب محمّد ﷺ - يعني جريراً -»، وقد وجّه عمر سعد بن أبي وقّاص[5] إلى العراق في ستّة آلاف أمَّرَهُ عليهم، وكتب إلى المثنّى وجرير أن يجتمعا إلى سعد بن أبي وقّاص، وأمّرَ سعداً عليهما، فسار سعد حتى نزل شَراف[6]، وسار المثنّى وجرير حتى نزلا عليه، فشتا بها سعد، واجتمع إليه الناس، ومات المثنى بن حارثة رحمه الله[7].

ولم يكن الخلاف بين الرجلين لنوازع شخصية، فانتهى الخلاف بينهما بموت المثنى وتأمير سعد بن أبي وقّاص عليهما، وكثيراً ما تحدث مثل هذه الخلافات في أيام القتال بين القادة، لظروف الحرب الصعبة أولاً، ولاختلاف الاجتهاد في معالجة مشاكل القتال ثانياً.

---

(١) الجل: موضع قريب من السلمان بالبادية، أنظر معجم البلدان (١٢٨/٣).

(٢) غضيّ: جبال البصرة، انظر معجم البلدان (٢٩٧/٦).

(٣) الطبري (٤٧٨/٣).

(٤) يمحل به: أي يعرض.

(٥) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٢٤٨).

(٦) شراف: ماء بنجد له ذكر كثير في آثار الصحابة، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٤٦/٥ - ٢٤٧).

(٧) الطبري (٤٧٢/٣).

لقد كان جرير أحد قادة المثنّى المقرّبين إليه، وقد أعانه وعاونه في تحمّل أعباء قيادته، وكان التعاون بين القائدين اللامعين وثيقاً، والاختلاف في الرأي من أجل المصلحة العامة، ليس كالاختلاف في الرأي من أجل المصلحة الخاصة، وما اختلاف القائدين إلاّ اختلاف في الاجتهاد.

٥. في القادسيّة[١]:

وقاتلت بَجِيْلة بقيادة جرير تحت لواء سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية الحاسمة، التي فتحت أبواب العراق للمسلمين بعد انتصارهم على الفُرس، وكان تعداد بجيلة يومئذٍ يُقدّر بألفي مقاتل[٢].

وكان بسعد عِرْق النَّسَا وَدَمامِيل، فاستخلف خالد بن عُرْفطة[٣] على الناس، فاختلف عليه الناس، فقال: «احملوني وأشرفوا بي على الناس» فارتقوا به، فأكبّ مُطّلِعاً عليهم: يأمر خالداً، فيأمر خالد الناس، وكان ممن شغب على سعد وجوه من وجوه الناس، فهمّ بهم سعد وأراد معاقبتهم عقاباً صارماً، ولكنّه اكتفى بحبسهم في القصر. فقال جرير: «أما إني بايعت رسول الله ﷺ على أن أسمع وأطيع لمن ولاّه الله الأمر وإن كان عبداً حبشيّاً»[٤]، فما وافق على الفتنة، وعمل جاهداً على إطفاء نارها.

---

(١) القادسيّة: موضع بينه وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً، وبينه وبينَ العذيب أربعة أميال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٥) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٣٩).

(٢) الطبري (٤٨٦/٣).

(٣) خالد بن عرفطة العذري: انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٠١ - ٣٠٥).

(٤) الطبري (٥٣١/٣).

وجعل سعد على ميمنة الناس جريراً[١] في ترتيباته التعبوية للمعركة، كما حصل على الميسرة قائد من قادته الآخرين، مما يدلّ على أن جريراً كان قائداً بارزاً من قادة سعد في القادسيّة.

وكان لجرير وبجيلة قومه أثر عظيم في انتصار المسلمين على الفرس في هذه المعركة الحاسمة، ففي الأول من أيام القادسيّة (يوم أرْماث)، وجّه الفُرس ثلاثة عشر فيلاً، وفي رواية أخرى ستّة عشر فيلاً إلى مواقع بجيلة، ففرقت بين الكتائب وأذعرت الخيل، وكادت بجيلة أن تفنى عن بكرة أبيها بعد فرار خيلها ذعراً من الفيلة، ولكنّ مشاة (الرجالة) بجيلة ثبتوا في مواضعهم ثبات الأبطال، وأعانهم على الثّبات تدارك سعد لهم ببني أسد الذين هاجوا الفيلة وحماتها هجوماً عنيفاً بقيادة طُلَيْحَة الأسدي، فاستطاعوا بمعاونة ربيعة بقيادة الأشعث بن قيس الكِنْدِي بعد جهد جهيد وعناء شديد أن يجعلوا الفيلة والقوّات الفارسيّة التي تساندها تولّي الأدبار[٢].

وتركت بجيلة كثيراً من الشّهداء في ساحة المعركة، ولكن ثباتها المدهش العنيد، أتاح للمسلمين تدارك الموقف الخطير الذي كان نتيجة من نتائج هجوم فيلة الفرس على قوّاتهم.

وفي ليلة اليوم الرابع من أيّام القادسِيّة (ليلة الهرير)، حملت بجيلة على القوّات الفارسيّة مع مَنْ حمل عليها من القبائل العربية، غير منتظَرة أمر سعد بالحملة، فعذرها سعد قائلاً: «اللّهمّ أغفرها لهم وانصرهم»، فقضوا في تلك الليلة على عدد ضخم من الفُرس، وفي بلاء بجيلة بقيادة جرير، قال سعد:

ومـا أرجو بجِيْلَـة غَـير أنّي ... أُؤَمَّـــل أجرَهم يومَ الحِسَابِ

---

(١) الطبري (٥٧٥/٣).

(٢) الطبري (٥٣٨/٣ - ٥٤٠) وابن الأثير (٤٧١/٢ -٤٧٢).

فقـــد لقيـــت خيولُهُمْ خيولاً　　وقـــد وقَـــعَ الفوارسُ في ضِرابِ
وقـــد دَلَفَـــتْ بعَرْضتهم فيولُ　　كـأنّ زُهـاءهـا إبـلٌ جِرابُ[1]

وكان سعد في شعره هذا يردّ على قول جرير:

أنـــا جرير كُنْيَـــتي أبو عَمِرْو　　قـــد نصر اللهُ وسعـــدٌ في القَصِرْ

ولما فرّ الفُرس من ساحة المعركة، وجّه سعد عِياض بن غَنْم[2]، وجعل على مقدمته هاشم بن عُتْبَة بن أبي وقاص[3] وعلى ميمنته جرير وعلى ميسرته زُهْرَة بن حَوِيّة التّميمي[4]، وتخلّف سعد لما به من الوجع، فطارد المسلمون الفرس إلى (سَابَاط) قريباً من المدائن، فأشفق الناس من أن يكون للعدو كمين، ولكن هاشم بن عُتْبَة تغلغل في مطاردته للفرس حتى وصل إلى (جلُوْلاَء)[5]، وكان بها جماعة من الفرس استطاع المسلمون تشتيتهم[6].

لقد كان لبجيلة وعلى رأسها جرير، آثار باقية في معركة القادسية الحاسمة التي دارت رحاها بين المسلمين من جهة والفُرس من جهة أخرى سنة أربع عشرة الهجريّة، فكانت بجيلة بين القبائل العربية التي

---

(١) في البيت إقواء، والزهاء: العدد الكثير والكبر والفخر أيضاً.

(٢) عياض بن غنم: انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٦٩ - ٤٧٩).

(٣) هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص: انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٢١ - ٣٣٠).

(٤) زهرة بن حوية التميميّ: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٠٦ - ٣١٨).

(٥) جلولاء: موضع على نهر ديالى، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، بين يعقوبا وخانقين، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٢٩/٣).

(٦) الطبري (٥٧٨/٣) وابن الأثير (٤٨٠/٢).

أحسنت غاية الإحسان في ذلك اليوم، وأبلت فيه أحسن البلاء. كما كان جرير بين القادة الآخرين الذين أحسنوا غاية الإحسان في ذلك اليوم، وأبلوا فيه أحسن البلاء، مما زيّن صفحات التاريخ ولا يزال يزيّنها حتى اليوم، وستبقى تلك الصفحات المشرّفة ما بقي التاريخ.

٦. الفاتح:

وشهد جرير مع قومه معركة فتح (المدائن) عاصمة كسرى تحت لواء سعد بن أبي وقاص، كما شهد معركة فتح جَلُولاء تحت راية هاشم بن عُتْبة بن أبي وقّاص الزُّهريّ، فلما استطاع المسلمون إحراز النّصر على القوات الفارسيّة في جلولاء ضمّ هاشم إلى بجيلة خيلاً كثيفة وجعلهم بقيادة جرير، وأبقاهم قوّة ساترة في جلولاء لتكون بين المسلمين والفُرس حمايةً للمسلمين، فهاجم جرير (خانِقينْ)[١]، وكان فيها فلول من الفرس، فقتل بعضهم وفرّ الباقي[٢].

وأمدَّ سعدٌ جريراً بنحو ثلاثة آلاف مقاتل من المسلمين، وأمره أن يسير لفتح (حُلْوان)[٣]، فلما كان بالقرب منها، هرب (يزدجرد) ملك الفُرْس إلى (أَصْبَهان)[٤]، ففتح جرير حُلوان صلحاً. ثم سار إلى (قَرْمِيْسِيْن)[٥]، ففتحها صلحاً أيضاً. وبقي جرير والياً على حُلوان، حتى

---

(١) خانقين: بلدة بالقرب من الحدود العراقية - الإيرانية، تقع في العراق على طريق بغداد - همذان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٩٢/٣).

(٢) البلاذري (٣٦٩).

(٣) حلوان: مدينة بالعراق، تقع في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٢٢/٣).

(٤) أصبهان: مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وهي من نواحي الجبل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٦٩/١ - ٢٧٥).

(٥) قرميسين: جاء اسمها في البلاذري: (قرماسين) ص (٤٢٣)، وهي على طريق مكة، والصواب ما ذكرناه في أعلاه. وهي بلدة معروفة، بينها وبين همذان ثلاثون فرسخاً، =

أمره عَمَّار بن ياسر[1] والي الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص أن يتحرّك مدداً لأبي موسى الأشعري[2] في (خُوْزسْتَان)[3]، فغادرها جرير مخلّفاً عليها عَزْرَة بن قَيْس البَجَلِي[4]، وقد نزل حُلوان قوم من ولد جرير، فأعقابهم بها[5].

ولا تزال في منطقة خانقين وحلوان قبيلة باسم: (باجِلاَّن) وهي بمعنى: (بَجَلِيّ) نسبة إلى بَجِيلة القبيلة العربية المعروفة[6].

= وهي بين همذان وحلوان، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٦٣) وحول قرماسين (٣/٦٢).

(١) عمّار بن ياسر: انظر سيرته المفصلة في: طبقات ابن سعد (٣/٢٤٦ - ٢٦٤) وأسد الغابة (٤/٤٣ - ٤٧) والإصابة (٤/٢٧٣ - ٢٧٤) والاستيعاب (٣/١١٣٥ - ١١٤١).

(٢) أبو موسى الأشعري: أنظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (١٧٨ - ١٩١).

(٣) خوزستان: اسم لجميع بلاد الخوز، وأهل تلك البلاد يقال لهم الخوز، والبلاد تتاخم نواحيّ تُسْتَر وجنديسابور وناحية إيذَج وأصبهان. وأرض خوزستان أشبه شيء بأرض العراق، ومياهها كثيرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٤٨٨ - ٤٨٩).

(٤) عزرة بن قيس البجلي لم أجد له ذكراً في المصادر المتيسِّرة لديّ، ومن الواضح أنه قريب جرير ومن بجيلة قومه وموضع ثقته واعتماده.

(٥) البلاذري (٤٢٣) ومجمل فتوح الإسلام ـ ملحق بجوامع السيرة ـ لابن حزم (٢٤٥)، ولكن الطبري يذكر أنّ فتح حلوان وخانقين كان على يدي القعقاع بن عمرو التميمي، انظر الطبري (٤/٢٨). ولا أرى اختلافاً بين ما جاء في الطبري والبلاذري، إذ أن القعقاع فتحها حين طارد الفرس، ولكن جريراً ثبّت هذا الفتح بقواته الضاربة، ثم تسرّب عمقاً إلى قرميسين داخل ايران.

(٦) لأنّ الألف والنون في (باجلان) علامة نسبة بهلويّة، كما هي فيالكلمة: بابكان نسبة إلى بابك، أنظر كتاب دستور بهلوي (٢٠٧) - بمبي - ١٩٣٤. فباجلان إذن نسبة إلى بجيلة، وقد اسقطت منها التاء المربوطة بعد أن تحوّلت إلى هاء صامتة تخفيفاً، فأضيفت إلى آخر الكلمة أداة النسبة البجلوية (ان) ثم اشبعت فتحة الباء فتحوّلت ألفاً، فأصبحت الكلمة: (باجلان).

٧. في بلاد فارس:

شهد جرير سنة سبع عشرة الهجرية فتح رَامهُرْمُز[١]. والسُّوس[٢] وتُسْتُر[٣] تحت لواء أبي سَبْرَة بن أبي رُهْم[٤]، فقد كتب عمر بن الخطّاب إلى سعد بن أبي وقاص: «أن أبعث إلى الأهواز بعثاً كثيفاً مع النُّعْمَان ابن مُقَرِّن المُزَنِيّ، وعجِّل، وأبعث (وذكر أسماء القادة) وجرير بن عبد الله البَجَلي، فلينزلوا بإزاء الهُرْمزان حتى يتبيَّنوا أمره»، كما كتب إلى أبي موسى الأشعري: «أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً..»، ثم قال: «وعلى أهل الكوفة وأهل البصرة جميعاً أبو سَبْرة بن أبي رُهم، وكلّ مَنْ أتاه فمدد له[٥]، وكان ذلك سنة سبع عشرة الهجريّة[٦].

وبرز اسم جرير من جديد في معركة (نَهَاوَنْد)[٧] الحاسمة، فكان من بين أشراف العرب وأبطالهم المعدودين الذين خاضوا تلك المعركة[٨]، تحت لواء النُّعمان بن مُقَرِّن المُزَنِيّ، فأبلى جرير في هذه المعركة أعظم البلاء.

وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، قد كتب إلى النُّعمان بن مُقَرِّن

---

(١) رامهرمز: مدينة مشهورة في خوزستان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢١٢/٤).

(٢) السوس: بلد بخوزستان، وهي تعريب الشوش، ومعناه: الحسن والنزه، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧١/٥).

(٣) تستر: أعظم مدينة بخوزستان، وهي تعريب: شوشتر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٦/٢) والمسالك والممالك (٦٤).

(٤) أبو سبرة بن أبي رهم القرشي العامري: أنظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (١٥٥ - ١٦٠).

(٥) الطبري (٨٣/٤ - ٨٤).

(٦) انظر تفاصيل فتح هذه البلاد في الطبري (٨٣/٤ - ٩٥).

(٧) نهاوند: اعتق مدينة في الجبل، وهي مدينة قديمة في ايران، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٢٩/٨).

(٨) الطبري (١١٥/٤).

المُزَنِيّ: «إنْ أُصِبْتَ فالأمير حُذَيْفَة بن اليَمَان، فإن أُصيب فجرير بن عبد الله البجليّ، فإن أُصيب فالمُغِيْرَة بن شُعْبَة، ثم الأَشْعَث بن قَيْس»[١]، مما يدلّ على منزلة جرير الرّفيعة عند عمر بن الخطّاب.

وفي رواية، أنّ المغيرة بن شعبة حين كان والياً على الكوفة، أرسل جريراً لفتح (هَمَذان)[٢]، فقاتل أهلها وأُصيبت عينه بسهم فقال: «احتسبتها عند الله الذي زيّن بها وجهي، ونوّر لي ما شاء، ثمّ سلبنيها في سبيله»، ثم فتحها على مثل صلح نَهاوند، وغلب على أرضها قسراً[٣].

وكان فتح نهاوند سنة إحدى وعشرين الهجريّة[٤]، وكان فتح همذان سنة اثنتين وعشرين الهجريّة[٥].

وفي رواية، أنّ الذي فتح همذان هو نُعَيْم بن مُقَرّن المُزَنِيّ والقعقاع ابن عمرو التميمي[٦]، ولا أرى تضارباً بين الروايتين، لأنّ فتح نُعيم لها كان بقواته الخفيفة، أما فتح جرير فكان بقواته الضّاربة، حيث ثبّتَ فتحها وضمّها نهائياً إلى بلاد المسلمين، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من تلك البلاد.

وفي أيّام عثمان بن عفّان، افتتح جرير إِرْمِينيَة[٧]، ولا يصحّ ذلك في المصادر العربية الإسلاميّة المعتمدة.

---

(١) البلاذري (٤٢٥).
(٢) همذان: مدينة من أكبر مدن ايران وأقدمها، انظر معجم البلدان (٤٧٤/٨).
(٣) ابن الأثير (٢٣/٣) والبلاذري (٤٣٣).
(٤) الطبري (١١٤/٤).
(٥) ابن الأثير (٢٢/٣).
(٦) انظر التفاصيل في الطبري (١٤٦/٤ - ١٥٠).
(٧) البدء والتاريخ (١٩٨/٥) وانظر عما جاء عن إرمينية في معجم البلدان (٢٠٣/١-٢٠٦).

لقد امتدت ساحة جهاد جرير من بلاد الشّام غرباً، إلى العراق بخاصة، الى إيران شرقا، قائداً مرؤوساً تارة، وقائداً مستقلاً تارة أخرى، فأحسن في قيادته في الحالتين، وأثبت عمليّاً أنّه قائد متميز.

الإنسان

كان جرير من عمّال أبي بكر الصدّيق على نَجْران[1]، ويبدو أنّه تولّى نَجْران بعد حرب الردّة، فلما بدأ المجاهدون يتدفّقون على ساحة قتال أرض الشّام والعراق، آثر جرير أن يكون غازياً على أن يبقى والياً.

وسكن جرير الكوفة وابتنى بها داراً في القسم المخصّص لسُكنى قبيلة بَجيلة[2] قوم جرير.

وقد ولاّه عثمان بن عفّان رضي الله عنه (قَرْقيْسيَاء)[3]، وبقي عليها حتى تُوفي عثمان[4]. وفي رواية أخرى، أنّ عثمان ولاّه همذان، فبقي والياً عليها حتى استدعاه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعد منصرفه من البصرة إلى الكوفة، وفراغه من معركة (الجمل)[5]، لذلك لم يشهد جرير تلك المعركة.

وغادر جرير همذان بعد أخذ البيعة من أهلها لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فلما وصل إلى الكوفة، أوفده عليٌّ إلى معاوية بن أبي

---

(١) الطبري (٤٢٧/٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٢٢/٦) والإصابة (٢٤٢/١).

(٣) قرقيسياء: بلدة على الخابور عند مصب الخابور في الفرات، انظر معجم البلدان (٦٠/٧).

(٤) الطبري (٤٢٢/٤) وابن الأثير (١٨٦/٣).

(٥) الطبري (٥٦١/٣).

سفيان يدعوه إلى الدّخول في طاعته، وكتب معه كتاباً يُعْلِم معاوية فيه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار.

وانتهى جرير إلى معاوية، فكلّمه ووعظه وألحّ عليه في الكلام والوعظ، ولكنّ معاوية جعل يسمع منه ولا يقول شيئاً، وإنّما يطاوله ويسرف في مطاولته، ويدعو مع ذلك وجوه أهل الشّام وقادة الجيش مظهراً استشارتهم فيما يطلب إليه عليّ بن أبي طالب ويعظّم لهم قتل عثمان ويحرِّضهم على المطالبة بدمه.

وأخيراً عاد جرير إلى الكوفة ليخبر عليّاً خبر معاوية واجتماع أهل الشّام على قتاله، فلم يرض عليٌّ على نتائج سفارة جرير، كما أنّ جماعة من أصحاب عليّ، وعلى رأسهم الأشْتر النَّخْعي، أسمعوا جريراً ما يكره من نقد سفارته، فغضب جرير وارتحل بأهله إلى قَرْقِيْسياء معتزلاً[١] الفريقين[٢]، مع أنّه كان من الموالين لعليّ ومن أبرز شيعته[٣].

وفي معركة (صِفِّين) بين عليّ ومعاوية، انقسمت القبائل العربية المسلمة على نفسها، فكان مع الطرفين قسم من كلّ قبيلة عربيّة عدا بجيلة، فقد كانت كلّها مع عليٍّ بن أبي طالب، ولم يشهد منها أحد هذه المعركة مع قوات معاوية[٤]، وهذا يثبت أنّ جريراً اعتزل الطرفين، ولم يلتحق بمعاوية كما يزعم بعض الرّواة.

والدليل القاطع على أن جريراً لم يلتحق بمعاوية، أنّه بقي مغموراً في خلافته، لا ذكر له في ولاية أو قيادة أو تكريم.

---

(١) الطبري (٣/٥٦١-٥٦٢).
(٢) الإصابة (١/٢٤٢).
(٣) البدء والتاريخ (٥/١٢٤).
(٤) ابن الأثير (٣/٢٩٦).

وباعتزال جرير، انتهت حياته العامة، حتى وافاه الأجل سنة إحدى وخمسين الهجريّة[1] (٦٧١م)، وقيل: سنة أربع وخمسين الهجريّة[2] (٦٧٣م)، والأصح أنّه توفي سنة إحدى وخمسين الهجريّة[3] لإجماع كثير من المصادر المعتمدة على ذلك.

لقد كان جرير سيِّد قومه في الجاهليَّة والإسلام[4]، قال النبيّ ﷺ لما دخل عليه جرير: «**إذا أتاكم كريم قوم، فأكرموه**»[5].

وكان مؤمناً حقاً، لم يُبَدِّل ولم يُغَيِّر منذ آمن بالله ورسوله، وقد أخلص للدّعوة مجاهداً وداعياً وسفيراً، وسهر على مصالح رعيّته حتى أصبح واليا، فلما نشب القتال بين المسلمين أيّام الفتنة الكبرى، وأصبحت سيوف المسلمين عليهم لا على أعدائهم، لم يلطِّخ يده بدماء المسلمين ولا ضميره بكرههم، بل سعى جاهداً لجمع كلمة الأمَّة، فلما أخفق في مهمّته لا بتقصير منه بل لأنّ التيار كان جارفاً لا يقوى أي فرد على الوقوف أمامه، ترك الدنيا وما فيها، واعتزل الفتن منزوياً في عقر داره في (قرقيسياء).

وكان شاعراً خطيباً لَسِناً، فقد قدم على عمر بن الخطّاب رضي الله عنه من عند سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه، فقال له عمر: «كيف تركت سَعْداً في ولايته؟» فقال: «تركته أكرم الناس مقدرةً، وأحسنهم معذرة، هو كالأم البرّة، يجمع لها كما تجمع الذرّة[6]، مع أنّه ميمون

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (٢٠٥/١) وابن الأثير (٤٨٩/٣) والبداية والنهاية (٥٦/٨) والعبر (٥٧/١).

(٢) ابن الأثير (٤٨٩/٣) والبداية والنهاية (٥٦/٨).

(٣) العبر (٥٧/١).

(٤) الاستيعاب (٢٣٨/١).

(٥) الإصابة (٢٤٢/١) وأسد الغابة (٢٧٩/١) والاستيعاب (٢٣٧/١).

(٦) الذر: صغار النمل، واحدته ذرّة.

الأثر، مرزوق الظّفر، أشد الناس عند البأس، وأحبّ قريش إلى الناس »[١].

قال عمر: « فأخبرني عن الناس »، فقال جرير: « هم كسِهام الجَعْبَة[٢]، منها القائم الرّائش[٣]، ومنها العَضِل[٤] الطائش، وابن أبي وقّاص ثِقافها[٥]، يغمز عَضِلها، ويقيم ميلها، والله أعلم بالسّرائر يا عمر! »، قال: « أخبروني عن إسلامهم »، قال: « يقيمون الصّلاة لأوقاتها ويؤتون الطّاعة لولاتها »، فقال عمر: « الحمد لله - إذا كانت الصّلاة، أُوتيت الزكاة، وإذا كانت الطّاعة كانت الجماعة ». وجرير هو القائل: « الخرس خير من الخلابة[٦]، والبكم خير من البذاء »[٧].

وكان ذكياً محدِّثاً عالماً بأمور دينه فقيها، روى مائة حديث عن رسول الله ﷺ[٨]، اتفق البخاري ومسلم على ثمانية، وانفرد البخاري بحديث ومسلم بستة أحاديث[٩]، وروي عن عمر بن الخطّاب ومعاوية بن أبي سفيان، وروى عنه أولاده المنذر وعبيد الله وأيوب وإبراهيم، وابن ابنه أبو زرعة بن عمرو، وأنس وأبو وائل وزيد بن وهب وزياد بن علاقة والشّعبيّ وقيس بن أبي حازم وهمام بن الحارث وأبو ظبيان حصين ابن جندب وغيرهم[١٠].

---

(١) الاستيعاب (٢٣٩/١).

(٢) الجعبة: وعاء السّهام والنبال.

(٣) الرائش: ذو الريش إشارة إلى كماله واستقامته.

(٤) العضل من السّهام: المعوج.

(٥) الثقاف: أداة من خشب أو حديد تثقف بها الرماح لتستوي وتعتدل.

(٦) الخلابة: القول.

(٧) الاستيعاب (٢٣٩/١).

(٨) اسماء الصحابة الرواة - ملحق بجوامع السيرة (٢٧٨) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٦١).

(٩) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٦١).

(١٠) تهذيب التهذيب (٧٣/٢).

كما عدّه العلماء من أهل الفُتيا من أصحاب رسول الله ﷺ البارزين، وتسلسله الرابع عشر في مراتبهم من كثرة الفُتيا[1].

وكان كيِّساً فطناً عاقلاً حاضر البديهة. وجد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في مجلسه رائحة من بعض جلسائه، فقال عمر: «عزمتُ على صاحب هذه الرائحة إلا قام فتوضأ!»، فقال جرير: «علينا كلّنا يا أمير المؤمنين فاعزم»، فقال عمر: «عليكم كلّكم عزمتُ»، ثم التفت إلى جرير وقال له: «ما زلت سيِّداً في الجاهلية والإسلام»[2].

وكان آلفاً مألوفاً: أحبّه النبيّ ﷺ، قال جرير: «ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلاّ تَبَسَّم»، رواه الشيخان وغيرهما[3] ولما جالسه النبيّ ﷺ بسط له رداءه وقال: «إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه»[4].

وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك خادم النبيّ ﷺ قال: «خرجت مع جرير في سفرٍ، فكان يخدمني، فقلت له: لا تفعل! فقال: إني رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ أشياء آليتُ ألاّ أصحب أحداً منهم إلا خدمته»، وكان جرير أكبر من أنس رضي الله عنهما[5].

وكان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «جرير منّا أهل البيت»[6]، ومناقبه كثيرة ومن مستطرفاتها أنّه اشترى له وكيله فرساً بثلاثمائة درهم، فرآها جرير فتخيّل أنها تساوي أربعمائة، فقال لصاحبها:

---

(١) أصحاب الفتيا - ملحق بجوامع السيرة لابن حزم (٣١٩).
(٢) الاستيعاب (٢٣٨/١).
(٣) تهذيب التهذيب (٧٣/٢).
(٤) البداية والنهاية (٥٦/٨).
(٥) تهذيب الأسماء واللغات (١٤٧/١).
(٦) الإصابة (٢٤٣/١).

«أتبيعها بأربعمائة؟»، قال «نعم»، تخيّل أنّها تساوي خمسمائة، فقال: «أتبيعها بخمسمائة»، قال: «نعم»، ثم تخيل أنها تساوي ستمائة ثم سبعمائة ثم ثمانمائة، فاشتراها بثمانمائة[1].

وبلغ مقدار حبه لقومه بَجِيْلَة، أن حصل على وعد من رسول الله ﷺ أن يجمعهم له وكانوا أشتاتاً بين القبائل العربية الأخرى، فاستنجز أبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه هذا الوعد، إلاّ أنّ ظروفه لم تساعده على إنجازه، فطالب عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بإنجازه، فجمعهم له وسيّرهم إلى العراق بقيادته لحرب الفُرس.

وكان يثق بنفسه ويعرف لها قدرها ولا يتخلّى عن حقٍ من حقوقها، فقد أراد عمر بن الخطاب أن يؤمِّر عَرْفَجَة بن هَرْثَمَة البَارِقيّ[2] على بجيلة يسيِّرهم إلى العراق، باعتبار عرفجة قد خالطهم وعاش بين ظهرانيهم ردحاً طويلاً ولكنّ جريراً غضب وقال لبجيلة: «كلموا أمير المؤمنين»، فقالوا لعمر: «استعملت علينا رجلاً ليس منا»، فأرسل عمر إلى عرفجة وقال له: «ما يقول هؤلاء؟»، قال: «صدقوا يا أمير المؤمنين! لستُ منهم، ولكنني من الأَزْد، كنا أصبنا في الجاهلية دماً من قومنا، فلحقنا ببجيلة، فبلغنا فيهم من السؤدد «ما بلغك»، فقال عمر: «فأثبت على منزلتك فدافعهم كما يدافعونك»، فقال: «لست فاعلاً ولا سائراً معهم»، فأمّر عمر جريراً على بجيلة، فسار بهم إلى العراق[3].

وكان شهماً كريماً شجاعاً وفياً، جمع صفات العربي الأصيل، ومزايا خلق المسلم الصادق، فلا عجب أن يكون نموذجاً كاملاً للمؤمن المجاهد

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/١٤٨).

(٢) عرفجة بن هرثمة البارقي: انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٨٧-٣٩٤).

(٣) الطبري (٣/٤٦٢-٤٦٣).

الصّابر المحتسب، الذي يبذل غاية جهده لخدمة عقيدته وأمّته في السّلم والحرب. ولا عجب أن يستحوذ على إعجاب الناس بمزاياه، فيقول فيه أحد الشعراء مردِّداً صدى إعجاب الناس بسجاياه الكريمة:

لولا جَريرٌ هلكــــتْ بَجيْلَــــة نِعْمَ الفـــتى وبئْسَتِ القَبِيْلـــة

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما مُدح مَنْ هُجِيَ قوْمه»[1].

ولست أشكّ في أنّ الشاعر لم يرد هجاء بجيلة نظراً لماضيها المشرِّف، ولكنّه أراد أن يبرز أثر جرير الشخصيّ في رفع منزلة بجيلة ومكانتها بين القبائل العربيّة الأخرى، وإلا لكان هجاء بجيلة يغضب أوّل مَنْ يغضب جريراً قبل غيره من أفراد بجيلة.

لقد كان مخلصاً لكلِّ مسلم بدون استثناء، قال جرير «كما في البخاري ومسلم : «بايعت رسول الله ﷺ، على إقام الصّلاة، وإيتاء الزّكاة،والنّصح لكل مسلم»[2]، فصدق ما عاهد الله عليه في كلِّ حياته، فقد نزل الكوفة ثمّ تحوّل إلى قرقيسياء فنزلها وقال: «لا أقيم ببلدة يشتم فيها عثمان»[3]، واعتزل عليّاً ومعاوية[4] فلم يقاتل مسلما، فهو تقيّ نقيّ، يخاف الله ويحاسب نفسه، فلا يحيد عن تعاليم الدين الحنيف أبدا.

يكنى أبا عمرو،وقيل يكنى أبا عبد الله[5]، وكان أولاده: عبد الله، وعبيد الله، والمنذر، وإبراهيم، وبشير[6]، وأيوب، وعمرو[7].

---

(١) الاستيعاب (١/٢٧٨).
(٢) تهذيب الأسماء واللّغات (١/١٤٧).
(٣) تهذيب التهذيب (٢/٧٣).
(٤) تهذيب الأسماء واللّغات (١/١٤٧).
(٥) الإصابة (١/٢٤٢).
(٦) جمهرة أنساب العرب (٣٨٧).
(٧) تهذيب التهذيب (٢/٧٣).

وكان جميل الصورة، وحين قدم على النبيّ ﷺ مسلماً قال النبيّ ﷺ: «**إنّه يقدم عليكم من هذا الفجّ من خير ذي يَمَن، وإنّ على وجهه مسحة ملك**»، فلما دخل نظر الناس إليه، فكان كما وصف رسول الله ﷺ، وأخبروه بذلك فحمد الله تعالى[١] وكان عمر يقول: «جرير يوسف هذه الأمة» لجماله وكماله وحسن فعاله[٢]، وكان طويل القامة يصل إلى سنام البعير، يخضب لحيته بزعفران باللّيل ويغسلها إذا أصبح[٣].

رآه عبد الملك بن عُمَيْر فقال: «رأيت جريراً كأن وجهه شقة قمر»[٤]، فكان أحد المتعمِّمين بمكّة مخافة النساء على أنفسهم من جمالهم[٥].

وكان أعور ذهبت عينه بـ(همذان)[٦]، فكان معدوداً من العوران الأشراف[٧]، وقد ذهبت عينه في ميدان الجهاد.

توفي بقرقيسياء سنة إحدى وخمسين الهجريّة[٨]، وهذا ما نرجِّحه لأنّه اعتزل في هذه المدينة، فلم يبرحها حتى توفاه الله.

وفي رواية أنه توفي بالسَّراة[٩]، وهو جبل مشرف على جبل عرفة ينقاد إلى صنعاء[١٠]، والأول أصحّ.

---

(١) البداية والنهاية (٥٥/٨).
(٢) البدء والتاريخ (١٠٣/٥) وانظر تهذيب الاسماء واللّغات (١٤٧/١).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١٤٧/١).
(٤) البداية والنهاية (٥٦/٧).
(٥) المحبّر (٢٣٢).
(٦) المعارف (٥٨٦) والمحبر (٢٦١).
(٧) المحبّر(٣٠٢).
(٨) تهذيب الأسماء واللغات (١٤٧/١).
(٩) طبقات ابن سعد (٢٢/٦).
(١٠) معجم البلدان (٥٩/٥).

وهكذا مضى رجل من رجال العقيدة إلى ربه، بعد أن بيّض صفحات من التاريخ بأعماله المجيدة.

القائد

لمسنا بوضوح في مزايا جرير الشخصيّة، بعض الصفات التي تؤهّله لتولي قيادة الرجال في أخطر المواقف وأحرج الظروف، فهو قائد يتحلّى بعقيدة راسخة، كريم النّسب، شجاع مقدام، عالم ذكيّ، حاضر البديهة، لذلك أمّره النبيّ ﷺ في حياته المباركة حين وجّهه لتحطيم صنم (ذي الخَلَصة)، هذا الواجب الذي لم يكن سهلاً في تلك الأيام، وبخاصة وأنّ جذور الشّرك لم تكن قد اجتثّت تماماً من أصولها، وأنّ المشركين كانوا يسترخصون أرواحهم وأموالهم في سبيل الذّود عن أصنامهم، كما أنّ هذا الصنم كانت بَجيلة قوم جرير تعبده وتقدّسه، لهذا لم يوجّه النبيّ ﷺ لمثل هذا الواجب الخطير غير الصّفوة المختارة من أصحابه، أمثال عليّ بن أبي طالب وخالد بن الوليد وجرير.

وكان من قادة أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه في حروب الردّة ومع فتح بلاد الشام، ومن قادة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في معارك فتح العراق وبلاد فارس، وكان أحد قادة الفتح الإسلاميّ العظيم.

لقد كانت له قابليّة متميِّزة على إصدار قرار سريع صحيح، نظراً لتجربته العمليّة الطويلة في الحروب وحدّة ذكائه وسرعة بديهته، لذلك قادت قراراته الصّائبة الحصيفة رجاله إلى النّصر.

وكان متميزاً بالشجاعة والاقدام، لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه، لذلك اختاره خالد ليكون ضمن المئة الفدائيين الذين حطّموا معنويات الرّوم في معركة اليـرموك الحاسمة ببطولاتهم الفَذّة وإقدامهم المجيد.

وكان يتحلّى بالإدارة القويّة الثابتة التي لا تعرف التردّد والخور، فكان إذا قرّر أمراً واقتنع به، أقدم على تنفيذه دون تردّد.

وكان يتحمّل المسؤولية ويحبّها، ولا يتهرّب منها أو يلقيها على عواتق الآخرين، لذلك أصرّ على جمع بجيلة وقيادتهم، ولم يرض بقيادة رجل ليس من قومه.

وكانت نفسيّته رصينة قوية لا تتبدّل في حالتي النّصر والاندحار، فلا يغترّ بالنصر ويركبه الطّيش، ولا يضعف بالاندحار ويرديه الانهيار فهو صابر في الحالتين.

وكان يتحلّى بمزيّة سبق النّظر، فيعالج المشاكل قبل وقوعها بتلافي الأسباب التي تثيرها، ويُعدّ لكلّ أمرٍ عدّته قبل وقت مناسب.

وكان عارفاً بنفسيات رجاله وقابلياتهم، لمعايشتهم بتماس شديد في السِّلم والحرب، فيوكل لكلِّ رجل منهم الواجب الذي يناسب حالته النفسية وقابليته العقلية والبدنية.

وكان يثق برجاله ويثقون به، وكان موضع ثقة الخلفاء وقادتهم، نظراً لكفاءته واستقامته وحسن تدبيره.

وكان يحبّ رجاله ويبادلونه حبّاً بحب، وكان محبوباً من الخلفاء وقادتهم ومن الناس كافة، وكان محبوباً من النبيّ ﷺ لاستقامته ورجاحة عقله وشجاعته.

وكان يتحلّى بشخصية قويّة تفرض احترامها على الآخرين، دون ظلم أحد أو استعباد أحد من الناس، ولعلّ خلقه الكريم فرض احترامه على قومه وغيرهم احتراماً نابعاً من القلوب.

وكان يتحلّى بالقابلية البدنية المتميزة، لذلك استطاع تحمل أعباء القتال صيفاً وشتاء وفي جميع الظروف والأحوال.

وكان ذا ماضٍ ناصع مجيد، سيّداً في الجاهليّة، وسيِّداً في الإسلام، ثبت على الإسلام وقاتل الذين ارتدوا من قومه بخاصة ومن غيرهم بعامة. كما كان من أصحاب الأيام، أثبت شجاعة وإقداماً في المعارك التي خاضها.

وعند تطبيق مزايا قيادة جرير على مبادىء الحرب، نجد أنّه كان يطبِّق مبدأ: اختيار المقصد وإدامته، فيضع مقصده عن عملياته العسكرية نصب عينيه دوماً، ويسعى بكل طاقاته الماديّة والمعنوية على تحقيقه.

وكان يطبِّق مبدأ: التعرّض، فكان قائداً تعرّضياً في معاركه داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها، ولم يتّخذ خطّة الدفاع في تلك المعارك.

وكان يطبِّق مبدأ: المباغتة، وقد ظهر تطبيقه هذا المبدأ في معاركه التي خاضها في العراق وفارس على الفُرْس وحلفائهم.

وكان يطبِّق مبدأ: تحشيد القوّة، فقد ألحّ على جمع بجيلة قومه، حتى نجح في مسعاه، فقادهم إلى ميدان الجهاد، وما جَمْعُ هذه القبيلة بعد شتاتٍ إلاّ تحشيد القوّة في المكان والزمان المناسبين.

وكان يطبِّق مبدأ: الاقتصاد في الجهود، فلم يعرف عنه أنّه أسرف في استخدام قوّة من قواته دون مسوِّغ، بل لم يعرف عنه أنّه أسرف في استخدام رجل من رجاله دون مسوِّغ، والحقّ أنّ القادة المسلمين تميِّزوا بتطبيق هذا المبدأ الحيوي، لأنّهم يخافون الله، فلا يبذرون بقطرة واحدة من دم رجل من رجالهم إلاّ لضرورة قصوى.

وكان يطبِّق مبدأ: الأمن، بحماية رجاله من العدو وحرمانه من الحصول على المعلومات الضروريّة عنهم، لذلك لم يستطع العدو مباغتة رجال جرير أبداً، لأنّه كان حريصاً على أمنهم.

وكان يطبِّق مبدأ: المرونة، في خططه، وفي تطبيقها، وفي التعاون على القادة المرؤوسين والعامين الآخرين.

وكان يطبِّق مبدأ: التعاون، فقد كان متعاوناً تعاوناً وثيقاً مع القادة الذين عمل بأمرتهم أو الذين عملوا بإمرته، فهو يعرف مسؤوليته فيؤديها، ويعرف حقوقه على غيره فيطالبه بها.

وكان يطبِّق مبدأ: إدامة المعنويات، فقد كان بشخصيته الفذّة وشجاعته النّادرة وعقليته الراجحة وإيمانه العميق، كتلةً ضخمةً من المعنويات العالية، ينقلها إلى رجاله بالعدوى وبالأعمال المجيدة والمواقف المشرِّفة والأقوال الحكيمة.

وكان يطبِّق مبدأ: الأمور الإدارية، فما شكا رجل من رجاله الجوع أو العطش أو العري أو التنقل. وكانت الأمور الإدارية لها الأسبقية الأولى في التطبيق العمليّ.

وبالإضافة إلى كلِّ ذلك، كان يساوي نفسه برجاله، بل كان يستأثر بالخطر، ويؤثرهم بالأمن.

كما كان يتحلّى بمزيّة: الاستشارة، فكان يستشير رجاله، ويعمل بمشورتهم ويعمل معهم فريقاً واحداً متماسكا.

لقد كان جرير قائداً متميزاً.

السّفير

حين يدرس باحث سيرة جرير (الإنسان)، يتمنّى أن يكون لدى العرب والمسلمين أمثاله من السفراء، إذاً لتبدّل الحال غير الحال.

فما هي مزاياه التي أهّلته ليكون أحد سفراء النبيّ ﷺ؟

فقد كان ينتمي بكلّ جوارحه لأمّته الإسلامية ويسترخص في سبيلها روحه وما يملك من مال وعقار، وكان حافزه الأوّل والأخير لهذا الانتماء

العضوي المصيريّ هو إيمانه العميق بتعاليم الدين الحنيف.

وبالرغم من أنّ إسلام جرير جاء متأخراً نسبيّاً قبيل انتقال النبيّ ﷺ إلى الرفيق الأعلى، إلاّ أنّ إسلامه حسن بسرعة، فكأنَّ أكثر الناس أسلموا في أوّل الأمر ثم آمنوا بالتدريج، ولكنّ جريراً آمن بعد إسلامه فوراً، لذلك ثبت على الإسلام ثبات الراسيات بالرغم من ردّة أكثر قومه، وهدم ذا الخَلَصَة صنم قومه قبل إسلامهم، وقاتل المرتدين كافة وبدأ بالمرتدين من قومه، وهذا دليل على إيمانه العميق الراسخ الذي جعله يحبّ لله ويكره لله، ولا دخل لنزوات الجاهلية في حبه مَنْ يحبّ وكرهه مَنْ يكره.

تلك هي مزيته الأولى: الانتماء المطلق العضوي لأمته، وإيمانه الراسخ العميق بالإسلام.

أما المزيّة الثانية التي قادته إلى النجاح في سفارته، فهي: الفصاحة، والعلم، وحسن الخلق.

لقد كان جرير شاعراً بليغاً، وقد ذكرنا نماذج من أقواله في الحديث عنه إنسانا.

وكان عالماً، استطاع أن يروي مائة حديث عن النبيّ ﷺ، وقد صاحبه مدة قليلة جداً، بينما غيره من الصحابة الكرام لم يَرْوا عن النبيّ ﷺ مثل هذا العدد الكبير من الأحاديث النبويّة الشريفة، وقد صاحبوا النبيّ ﷺ مدة أطول بكثير مما صاحبه بها جرير، وهذا دليل على ذكائه الخارق وشدّة لهفته على تلقي العلم من منابعه الأصيلة.

كما أنّ العلماء اعتبروا جريراً من أبرز أصحاب الفتيا من الصحابة، وهم علماء المسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ.

أما حسن خلق جرير، فحدِّث عن البحر ولا حرج، وقد رأيت

كيف كان يخدم أنس خادم رسول الله ﷺ إكراماً لرسول الله عليه الصلاة والسّلام بخاصة والأنصار بعامة.

والأمثلة على حسن أخلاق جرير أكثر من أن تحصى، فقد جمع فضائل العرب ومزايا الإسلام في شخصه بشراً سوّياً يمشي على الأرض ويعايش الناس.

والمزيّة الثالثة هي الصبر والحكمة.

فقد صبر وصابر في قتال المرتدين، حتى انتصر عليهم، وصبر وصابر في قتال الروم على أرض الشام، حتى انتصر عليهم، وصبر وصابر في قتال الفُرس على العراق وفارس، حتى انتصر عليهم.

وصبر صبراً جميلاً في محاولة جمع بجيلة، حتى نجح في محاولته على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه.

لقد كان جرير بحق يتحلّى بالصبر الجميل.

أما حكمته، فتظهر واضحة في حديثه مع النبيّ ﷺ والشيخين من بعده: أبي بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب، وفي حواره مع عثمان ذي النورين وعليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، مما جعله يستحوذ على ثقتهم واحترامهم.

ولا أدلّ على حكمته من اعتزاله الفتنة الكبرى، فلم يشهر سيفه على مسلم، ولم يكن سبباً مباشراً أو غير مباشر في نزف قطرة دم مسلم بسيف أخيه المسلم لا بسيف عدوّ من أعداء الإسلام والمسلمين، فليس من الحكمة أن يربح المرء هذه الدنيا ويخسر نفسه، وصدق الله العظيم: **﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾**[1]، فخسر جرير باعتزاله مستقبله السياسي والإداري

---

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة (٢: ٨٦).

والعسكري، ولكنه ربح الآخرة، وما عند الناس لا يبقى، وما عند الله خير وأبقى.

إن اعتزال جرير الفتنة الكبرى كان مسلكاً سليماً بالنسبة لتعاليم الدين الحنيف الذي ارتضاه جرير لنفسه، وهو عين الحكمة بالنسبة لوجهة نظري وعين الصّواب.

والمزيّة الرابعة التي قادت جريراً إلى النّجاح في سفارته النبوية، هي مزيّة: سعة الحيلة، فقد كان ذكاؤه النّادر وعقليته المتّزنة وبديهته الحاضرة وشخصيّته القوية وعلمه وفصاحته وحسن تصرّفه، هي الأدلة القاطعة على سعة حيلته ونفاذ بصيرته وسيطرته على المفاوضات سيطرة كاملة.

وليس هناك في المصادر المعتمدة نصوص محادثاته في سفارته، ولكنّ الأثر يدلّ على الأثير، ومزايا جرير إنساناً على سعة حيلته وأفقه أيضا.

والمزيّة الخامسة التي تحلّى بها جرير فاستحق أن يتولّى سفارة من السفارات النبويّة، هي رواء المظهر.

فكما كان يتمتّع برواء المخبر، كان يتمتع برواء المظهر، كان جميلاً رائع الجمال، يلفت بجماله أنظار الرجال والنساء، كما يلفت طوله الفارع الأنظار إليه، فقد آتاه الله بسطة في الجِسْم. وكان رئيساً من رؤساء القبائل العربيّة في الجاهلية والإسلام، فلا بدّ من أن يهتمّ بمظهره الخارجي بما يُضفي عليه شيئاً من الرّوعة والبهاء.

تلك هي المزايا الخمس الرئيسة التي كان السّلف الصّالح يحرصون على أن يتمتع بها السفراء المسلمون، لذلك كانت السفارات الإسلامية غالباً ناجحة جداً وتأتي بنتائج باهرة لصالح الإسلام والمسلمين.

ولا يتمنّى كلّ عربيّ ومسلم أكثر من أن يحرص الحكّام العرب والمسلمون اليوم على اختيار سفراء الدول العربيّة والإسلاميّة بالشروط

التي كان السّلف الصالح يختارون على هديها سفراءهم، لينجح السفراء العرب والمسلمون الجُدد نجاح أسلافهم قبل قرون.

وبالإضافة إلى المزايا التي كان يتمتّع بها جرير، فإنه كان رئيساً من رؤساء القبائل اليمانية ومن أهل اليمن ومعروفاً في أرجائها، وكانت سفارته إلى ملكين أو حاكمين من حكّام اليمن ومن رؤساء القبائل اليمانية أيضاً مما سهّل على جرير مهمّته في سفارته لمعرفته الوثيقة بالرجلين اللذين أوفد إليهما ولمعرفته الوثيقة باليمن وأهلها أيضاً.

لكنّ سفارة جرير لم تقتصر على اليمن وحدها، فقد كان القائد قديماً يعمل قائداً لرجاله، وسياسياً في مفاوضة سكّان البلاد المفتوحة وعقد المعاهدات معهم، وإدارياً في إدارة البلاد المفتوحة، فكان جرير مفاوضاً وشاهداً في معاهدة خالد بن الوليد أهل بانِقْيا وبَسْمَا في سواد العراق، كما كان مفاوضاً وشاهداً في معاهدة النّعمان بن مقرّن المزني مع أهل (ماه)[1] في أرض فارس، كما كان مفاوضاً رئيساً في البلاد التي فتحها قائداً مستقلاً.

لقد كان جرير من ألمع سفراء النبيّ ﷺ.

جرير في التاريخ

يذكر التاريخ لجرير، أنّه أسلم متأخّراً، فنال شرف الصّحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد عليه الصّلاة والسّلام.

ويذكر له، أنّه كان أحد سفراء النبيّ ﷺ إلى الملوك والرؤساء العرب وغير العرب، فكان سفيره إلى مِلكَيْن من ملوك اليمن الخضراء.

---

(١) ماه: هي مدينة نهاوند، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣٧٥).

ويذكر له، أنّه هدم صنم ذي الخَلَصَة وحرقه، وكان صنم قومه والقبائل العربية القريبة من قومه نسبا، فاجتثّ جذور الشِّرك في تلك المناطق.

ويذكر له، أنّه ثبت على الإسلام، وحارب المرتدين من قومه ومن غيرهم في اليمن، فأعاد الوحدة إلى الصفوف تحت لواء الإسلام.

ويذكر له، أنّه شهد فتح العراق التمهيدي تحت لواء خالد بن الوليد، وأنّه شهد معه اليرموك في أرض الشّام، وكان أحد الفدائيين المئة المنتخبين من جيش المسلمين، الذين حطّموا معنويات الروم في عملياتهم الفدائية.

ويذكر له، أنّه سعى لِجَمْع بَجِيْلة قومه، وكانوا أشتاتاً في القبائل العربية الأخرى، فنجح في مسعاه، وتولّى قيادة قومه في ميدان فتح العراق بعد جمعهم، فقاتل تحت لواء المثنى بن حارثة الشيبانيّ في العراق، وأبلى في فتوح المثنى أعظم البلاء.

ويذكر له، أنّه قاد بجيلة قومه تحت لواء سعد بن أبي وقّاص في القادسية، فكان له ولقومه في النصر أثر عظيم.

ويذكر له، أنّه شهد تحت لواء سعد بن أبي وقاص فتح مدينة (المدائن) عاصمة كسرى، وشهد فتح محور نهر ديالى تحت لواء هاشم بن عُتْبَة بن أبي وقاص، فكان له في تلك الفتوح شأن كبير.

ويذكر له، أنّه فتح مدينة خانِقِيْن ومدينة حُلْوان ومدينة قُرْمِيْسِيْن ومدينة هَمَذَان.

ويذكر له، أنه شهد استكمال فتح الأهواز، كما شهد معركة فتح الفتوح في نَهَاوند بقيادة النُّعمان بن مُقَرِّن المُزَنِيّ.

ويذكر له، أنّه اعتزل الفتنة الكبرى، وأنّه اشترى دينه بدنياه، ولم

يشتر دنياه بدينه، فاعتزل الناس في داره، غير مكترث بولاية أو قيادة أو جاهٍ أو مالٍ أو سمعة.

رضي الله عن الصَّحابيّ الجليل، المحدِّث الفقيه، المجاهد الصّادق، القائد الفاتح، جرير بن عبد الله البَجَلِيّ.

مُعَاذ بن جَبَل الأنصارِيّ الخَزْرَجِيّ
الصّحابيّ العالم السَّفير المجاهد

«أَعْلَمُ أُمَّتي بالحلال والحرام مُعاذ بن جبل».

محمد رسول الله
صلّى الله عليه وسلم

نسبه وأيّامه الأولى

هو مُعَاذ بن جَبَل بن عمرو بن أَوْس بن عائذ بن عَدِيّ بن كعب بن عمرو بن أُدَيّ بن سَعْد، وأُدَيّ بن سعد، هو أخو سَلِمَة بن سعد[١]، وأُدي ابن سَعْد بن عليّ بن أَسد بن ساردَة بن تَرِيد بن جُشَم بن الخَزْرَج[٢] الأنصاري الخزرجيّ ثم الجُشَمِيّ. وأُدَي الذي يُنسب إليه هو أخو سلمة ابن سعد القبيلة التي ينسب إليها من الأنصار، وقد نسبه بعضهم في بني سَلِمَة، وادّعته بنو سلمة لأنّه كان أخا سَهْل بن محمّد بن الجَدّ بن قيس لأمّه، وسَهْل من بني سَلِمَة، بينما معاذ من بني أُدَيّ، ولم يبق من بني أُدَيّ أحد، وعدادهم في بني سلمة[٣].

---

(١) طبقات ابن سعد (٥٨٣/٣).
(٢) جمهرة أنساب العرب (٣٥٨) وانظر أسد الغابة (٣٧٦/٤) والاستيعاب (١٤٠٢/٣) وفيها: يزيد بن جشم.
(٣) أسد الغابة (٣٧٦/٤) والاستيعاب (١٤٠٣/٣).

أُمّه: هند بنت سهل بن جُهَيْنَة ثم من بني الرَّبْعَة[1].

يُكنّى: أبا عبد الرحمن[2]، وقد شهد بيعة العَقَبة الثانية[3] مع السبعين من الأنصار[4]، والصواب مع ثلاث وسبعين رجلاً وامرأتين من الأنصار[5]، فبايعوا رسول الله ﷺ عند العَقَبَة على أن يمنعوه ممّا يمنعون منه نساءهم وآباءهم وأُزُرَهم[6] وأن يرحل هو إليهم وأصحابه[7]، وكان ذلك في السنة الثالثة عشرة من النبوَّة[8].

ولما قدم الأنصار الذين بايعوا النبيّ ﷺ المدينة، أظهروا الإسلام بها، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشِّرك، منهم عمرو ابن الجَمُوح بن زيد بن حَرَام بن كعب بن غَنْم بن كعب بن سَلِمَة. وكان ابنه معاذ بن عمرو الذي شهد العَقَبَة وبايع رسول الله ﷺ، وكان عمرو ابن الجَمُوْح سيِّداً من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صَنَماً من خشب يقال له: مُنَاة، كما كان الأشراف يصنعون، تتخذ إلهاً تُعظِّمه وتُظهره، فلما أسلم فتيان بني سَلِمَة: معاذ بن جبل، ومعاذ بن عمرو، في فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، فكانوا يدلجون باللّيل على صنم عمرو بن الجموح، فيحملونه ويطرحونه في بعض حُفر بني سلمة وفيها عِذَرُ[9] الناس منكّساً على رأسه، فإذا أصبح

---

(١) طبقات ابن سعد (٥٨٣/٣) وانظر المعارف (٥٤ ٢)، وهي أي أُمّه من جُهَيْنَة.

(٢) طبقات ابن سعد (٥٨٣/٣) وأسد الغابة (٣٧٦/٤) والإصابة (١٠٦/٦) والاستيعاب (١٤٠٣/٣).

(٣) أسد الغابة (٣٧٦/٤).

(٤) طبقات ابن سعد (٥٨٣/٣).

(٥) سيرة ابن هشام (٤٩/٢) وجوامع السيرة (٧٥).

(٦) الأزر: جمع إزار، وهو كناية عن المرأة والنّفس، والثانية هي المقصودة هنا.

(٧) جوامع السيرة (٧٤) والدرر (٧٤).

(٨) البدء والتاريخ (٤/ ١٦٦).

(٩) عذر: جمع عَذِرَة، وهي الغائط.

عمرو قال: «ويلكم! مَنْ عدا على آلهتنا هذه اللّيلة؟!»، ثم يغدو يلتمس الصنم، حتى إذا وجده غَسَله وطهّره وطيّبه، ثم قال: «أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأُخْزِيَنَّهُ، فإذا أمسى ونام عمرو عَدَوا عليه ففعلوا به مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطهِّره ويُطيِّبه. ثم يعدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به مثل ذلك، فلما أكثروا عليه، استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلَّقه عليه، ثم قال له: «إني والله ما أعلم مَنْ يَصْنع بك ما ترى، فإن كان فيك خَيْرٌ فامتنع، فهذا السّيف معك»، فلما أمسى ونام عمرو وعَدَوا على صنمه، فأخذوا السيف من عُنُقه، ثم أخذوا كلباً مَيْتاً فقرنوه به بحَبْل، ثم أَلْقُوه في بئر من آبار بني سَلِمَة فيها عِذَر من عِذَر الناس، وَغَدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر مُنَكَّساً مقروناً بكلبٍ ميت، فلما رآه أبصر شأنه وكلّمه مَنْ أسلم من قومه، فأسلم رحمه الله وحسن إسلامه[1].
وكان معاذ بن جبل يكسر أصنام بني سَلِمَة لما أسلم هو وثَعْلَبَة بن عَنَمَة وعبد الله بن أُنَيْس[2]، فكان داعياً إلى الله ولا يسكت عن الذين لا يهتدون من قومه، فيكسر أصنامهم.

وكان عُمُرُ معاذ لما أسلم ثماني عشرة سنة[3]، وكان من أفضل شباب الأنصار حلماً وحياءً وسخاء[4].

وفي رواية أخرى: أن سبب إسلام معاذ، أنّ عبد الله بن رَوَاحة كان أخاً لمعاذ في الجاهلية، وكان لمعاذ صَنَمٌ، فأتى عبد الله منزل معاذ،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٦١ - ٦٢).
(٢) طبقات ابن سعد (٣/٥٨٣) وانظر أسد الغابة (٤/٣٧٨).
(٣) أسد الغابة (٤/٣٧٦) وتهذيب التهذيب (١٠/١٨٦).
(٤) الإصابة (٦/١٠٧).

ومعاذٌ غائب، ففلذ[١] صنم معاذ فلذاً، فلما رجع معاذ وجد امرأته تبكي، فقال: «ما وراءك!؟!»، فأخبرته بصنيع ابن رَوَاحة بإلَهِهِ، فتفكّر معاذ في نفسه وقال: «لو كان عند هذا طائل، لامتنع»، ثم جاء إلى عبد الله بن رواحة، وقال: «انطلق بنا إلى رسول الله»، فانطلق به فأسلم[٢]، حيث رافقه إلى بيعة العَقَبَة التي شهدها معاذ وشهدها عبد الله ابن رَوَاحَة أيضاً، فاختار النبيّ ﷺ ابن رَوَاحَة نقيباً من بين اثني عشر نقيباً اختارهم عليه الصّلاة والسّلام[٣].

لقد كان معاذ من أوائل من أقبل على اعتناق الإسلام من الأنصار، فأقبل على اعتناقه إقبال الشباب على ما يحبّ، فسعى إلى النبي ﷺ في موطنه مكة، قبل هجرة النبيّ ﷺ من مكّة إلى المدينة، فلما عاد معاذ من رحلة الإيمان إلى المدينة، عاد إليها داعياً إلى الله، يعيش للدعوة لا لنفسه، وينتظر مع الأنصار هجرة النبيّ ﷺ وهجرة المهاجرين إلى دار الهجرة، ليكونوا يداً واحدة في خدمة الإسلام والمسلمين.

جهاده

شهد معاذ غزوة (بَدْر) الكبرى[٤] الحاسمة التي كانت في شهر رمضان من السنة الثانية الهجرية، وقد شهد هذه الغزوة وهو ابن عشرين أو إحدى وعشرين سنة[٥].

---

(١) فلذ الشيء فَلْذاً: قطعه. والفِلَذ: جمع الفِلْذَة، وهي القطعة من الكبد واللحم والذهب والفضة.

(٢) البدء والتاريخ (٥/١١٧ - ١١٨).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/٦٧) وأنساب الأشراف (١/٢٤٤) والمحبّر (٢٦٩).

(٤) سيرة ابن هشام (٢/٣٤٧) ومغازي الواقدي (١/١٧٠) والدرر (١٣٤) وجوامع السيرة (١٣٩).

(٥) طبقات ابن سعد (٣/٥٩٠).

وشهد معاذ غزوة (أُحُد)[1] التي كانت في شهر شوال من السنة الثالثة الهجريّة، وفي هذه الغـزوة استُشهد حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ كما هو معروف، فمضى سعد بن مُعاذ رضي الله عنه إلى نسائه وساقهن، فلم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله ﷺ، فبكين بين المغرب والعشاء حمزة رضي الله عنه، فلما سمع النبيّ ﷺ البكاء، قال: «**ما هذا؟!**»، فقيل: نساء الأنصار يبكين على حمزة، فقال رسول الله ﷺ: «**رضي الله عنكنّ وعن أولادكُنّ!**»، وأمر أن ترد النساء إلى منازلهن، وكان معاذ بن جبل قد جاء بنساء بني سَلِمَة فبكيـن على حمزة مع نساء الأنصار[2].

وشهد معاذ غزوة (المُرَيْسِيْع)[3]، وكان مع المسلمين ثلاثون فرساً: في المهاجرين منها عشرة، وفي الأنصار عشرون، وكان معاذ من بين الأنصار فارساً[4]، وكانت هذه الغزوة في شهر شعبان من السنة الخامسة الهجريّة.

وشهد غزوة يهود بني (قريظة)، وكان مع المسلمين ستة وثلاثون فارساً، وكان معاذ أحد فرسان الأنصار[5]، وكانت هذه الغزوة في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة الهجرية.

وشهد معاذ غزوة (خَيْبَر)، فقسم النبي ﷺ الغنائم بين المسلمين، وجعل رؤساء على المسلمين، لكلِّ مائة رجل منهم رئيس، وكان رئيس

---

(1) أسد الغابة (٣٧٦/٤).

(2) مغازي الواقدي (٣١٦/١ - ٣١٧).

(3) المريسيع: اسم ماء في ناحية قُدَيد إلى الساحل، انظر معجم البلدان (٤١/٨)، وهو ماء لخزاعة، بينه وبين الفُرْع نحو يوم، انظر وفاء الوفا (٣٧٣/٢).

(4) مغازي الواقدي (٤٠٥/١).

(5) مغازي الواقدي (٤٩٨/٢).

بني سَلِمَة معاذ[١]، وكانت هذه الغزوة في شهر المحرّم من السنة السّابعة الهجرية.

وشهد غزوة فتح (مكة) فاستعمله النبي ﷺ على أهل مكة يُعلِّمهم السُّنَنَ والفقه، ثم خرج عليه الصّلاة والسّلام مع الصّحابة إلى (حُنَيْن)[٢]، وكانت غزوة فتح مكّة في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية.

وبعد عودة النبيّ ﷺ بالمسلمين من غزوة (حُنَيْن) والطّائف إلى مكة، وعودته بهم من مكة إلى المدينة، خلّف معاذ بن جبل في مكة يعلّم الناس القرآن والفقه[٣]، فنهض بواجبه التعليمي على أحسن وجه.

وشهد معاذ غزوة (تَبُوك)، وكان الناس مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفاً، ومن الخيل عشرة آلاف فرس، وأمر رسول الله ﷺ كلّ بَطْنٍ من الأنصار أن يتخذوا راية، والقبائل من العرب فيها الرايات والألوية. وكان رسول الله ﷺ قد دفع راية بني مالك بن النَجَّار إلى عُمَارَة بن حَزْم، فأدرك رسول الله ﷺ زيدُ بن ثابت، فأعطاه الرّاية. قال عُمارة: «يا رسول الله! لعلّك وَجَدْتَ عليَّ! »[٤]، قال: «**لا والله! ولكن قدِّموا القرآن،وكان أكثرأخذاً للقرآن منك،والقرآن يُقدِّم،وان كان عبداً أسود مُجَدَّعا**»[٥]. وأمر في الأوس والخزرج أن يحمل راياتهم أكثرهم أخذاً للقرآن، وكان معاذ بن جبل يحمل راية بني سَلِمَة[٦].

---

(١) مغازي الواقدي (٦٨٩/٢ - ٦٩٠).
(٢) مغازي الواقدي (٨٨٩/٣) وطبقات ابن سعد (٣٤٨/٢) وأنساب الأشراف (٣٩٥/١) وابن الأثير (٢٧٢/٢).
(٣) مغازي الواقدي (٩٥٩/٣) وسيرة ابن هشام (١٤٩/٤).
(٤) وجد عليَّ: غضب على، انظر النهاية (١٩٦/٤).
(٥) الجدع: المقطوع الأنف، انظر النهاية (١٤٨/١).
(٦) مغازي الواقدي (٣/ ١٠٠٢ - ١٠٠٣).

وكان كعب بن مالك الأنصاري أحد الثلاثة الذي خُلّفوا، فلم يشهد غزوة تبوك مع رسول الله ﷺ. فذكر كعب قصة تخلّفه فقال: «... وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة- حين طابت الثار، وأُحِبَّت الظِّلال، فالناس إليها صُعْر[١]، فتجهّز رسول الله ﷺ وتجهّز المسلمون معه، وجعلتُ أغدو لأتجهّز معهم، فأرجع ولم أقض حاجة، فأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شَمَّرَ بالناس الجِدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهّز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم، فغدوتُ بعد أن فَصَلُوا لأتجهَّزَ، فرجعتُ ولم أقض شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتَفَرَّطَ[٢] الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت، فلم أفعل. وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطُفْتُ فيهم يُحْزنني أني لا أرى إلاّ رجلاً مَغْمُوْصاً عليه[٣] في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «**ما فعل كعب بن مالك**؟! فقال رجل من بني سَلِمَة: يا رسول الله! حَبَسَهُ بُرْداه والنَّظَر في عِطْفَيْهِ! فقال له معاذ: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا منه إلاّ خيراً»[٤].

وهكذا يدافع معاذ عن الحق بالحق، ولا يسكت عن غمز أحد إخوانه بدون حق.

---

(١) صعر: بضم فسكون. جمع أصعر. وهو المائل. ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تُصَعِّر خَدَّكَ للنّاس﴾، أي لا تعرض عنهم ولا تمل وجهك إلى جهة أخرى.

(٢) تفرّط الغزو: فات وسبقني. والفارط والفرط - كبطل - السّابق المتقدِّم. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «أنا فرطكم في الحوض».

(٣) مغموصاً عليه: مطعوناً عليه. تقول: غمصت الرجل: إذا طعنت عليه.

(٤) سيرة ابن هشام (٤/١٨٨ - ١٨٩).

ولما عاد النبيّ ﷺ بالمسلمين من تبوك إلى المدينة المنورة، فسأل كعب بن مالك عن سبب تخلّفه، فقال كعب: «..... والله ما كان لي عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك!». فقال رسول الله ﷺ: «**أما أنت، فقد صدقت، فَقُمْ حتى يقضي الله عزّ وجلّ فيك**»، فقام كعب، وقام معه رجال من بني سَلِمَة، فقالوا له: «والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا! وقد عجزت ألاّ تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المُخلَّفون، فقد كان كافيك ذَنْبك استغفار رسول الله ﷺ لك»، فما زالوا به يؤنبونه حتى أراد أن يرجع إلى رسول الله ﷺ فيكذِّب نفسه، ولكنه لقي معاذ بن جبل وأبا قتادة، فقالا له: «لا تُطِعْ أصحابك وأَقِمْ على الصِّدق، فإن الله سيجعل لك فرجاً ومخرجاً إن شاء الله!»[1].

وهكذا دافع معاذ عن الحق، وأمر بالصِّدق، وأنقذ صاحبه من الوقوع في الكذب، والنجاة في الصِّدق وحده.

وكانت غزوة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة الهجرية وكانت آخر غزوات النبيّ ﷺ، وقد شهد معاذ مع النبيّ ﷺ المشاهد كلها[2]، ولم يتخلّف عن مشهد من المشاهد، إلاّ غزوة حُنَيْن وغزوة الطائف، فقد خلَّفه النبيّ ﷺ في مكة المكرمة، لتعليم أهلها السُّنن[3].

ولقد ذكرنا الغزوات التي ورد ذكرٌ لمعاذ فيها، ولم يرد ذكره في الغزوات الأخرى التي شهدها مع النبيّ ﷺ، إذ لا يمكن أن تُذكر أسماء جميع الصّحابة الذين شهدوا كل غزوة من غزوات النبيّ ﷺ، وحَسْبُ

---

(١) مغازي الواقدي (١٠٥٠/٤)، وانظر سيرة أبي قتادة المفصّلة في كتابنا: قادة النبيّ ﷺ.

(٢) أسد الغابة (٣٧٦/٤) والاستيعاب (١٤٠٢/٣) والجامع (٤٩٣/٤).

(٣) أنساب الأشراف (٣٥٦/١).

أحدهم أن يذكر في بعض الغزوات، ثم يُذكر بأنّه شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، أو شهد قسماً منها ولم يشهد قسماً آخر منها لسبب أو لآخر.

وبذلك نال معاذ شرف الصُّحبة، وشرف الجهاد تحت لواء النبيّ ﷺ.

السَّفير

كتب النبيّ ﷺ إلى ملوك اليمن: الحارث، ومَسْروح، ونُعَيْم بن عبد كُلَاَل من حِمْيَر، يدعوهم إلى الإسلام.

وكان نصّ كتاب النبيّ ﷺ إليهم:

« **بسم الله الرحمن الرحيم**

إلى: الحارث ومسروح[١] (الصّواب شُرَحْبِيْل) ونُعَيْم بن عبد كُلَاَل.

سِلْمٌ أنتم ما آمَنْتُم بالله ورسوله، وان الله وحده لا شريك له، بعث موسى بآياته، وخلق عيسى بكلماته. قالت اليهود: عُزَيرٌ ابن الله، وقالت النصارى: الله ثالث ثلاثة، عيسى ابن الله »[٢].

علامة الختم: الله / رسول / محمد

---

(١) ليس لمسروح ذكر في المصادر المعتمدة، ولا أخ لأبناء عبد كلال بهذا الاسم، والأخ المعروف هو: شرحبيل، ويمكن أن يكون هذا التغيير من خطأ النسّاخ.

(٢) طبقات ابن سعد (١/٢٨٢ - ٢٨٣).

وقد حمل هذه الرِّسالة النبوية إلى هؤلاء الملوك اليمنيين المهاجر بن أُميّة المخزوميّ، كما أثبتنا ذلك في المقدمة، عند الحديث عن سفارة المهاجر إلى اليمن، وقد أُرسلت بعد فتح مكة لا قبل الفتح، لأنّ مكة كانت قبل فتحها بيد المشركين، وكانت الحاجز بين المنطقة الإسلامية التي مقرها المدينة، وبين المنطقة غير الإسلامية التي مقرها مكة، وتمتدّ إلى الجنوب لتشمل اليمن وجنوبي الجزيرة العربية.

وقد كاتب النبيّ ﷺ أهل اليمن سنة تسع الهجرية[1] لا قبلها.

وفي شهر رمضان من السنة التاسعة الهجرية، قدم على رسول الله ﷺ، كتاب ملوك حِمْيَر مقدمه من تبوك، وحمل كتاب ملوك حمير بإسلامهم: مالك بن مُرارة الرَّهاوِيّ، وهؤلاء الملوك هم: الحارث بن عبد كُلال، ونُعَيْم بن عبد كُلال، والنُّعمان قَيْل ذي رُعَيْن[2]، وهَمْدان[3]، ومَعَافِر[4]. كما بعث زُرْعة ذو يَزَن إلى النبيّ ﷺ مع مالك بن مُرارة الرَّهاوي أيضاً بإسلامه وإسلام ملوك اليمن من أبناء عبد كُلال ومفارقتهم الشِّرك وأهله[5].

---

(١) أسد الغابة (٣٦٨/٣).

(٢) رعين: مخلاف (محافظة) من مخاليف اليمن، سمّي بالقبيلة، اليمنيّة، باسم: ذي رعين، واسمه (يرين) بيائين مثناتين، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٦٣/٤).

(٣) همدان: قبيلة يمنيَّة مشهورة، النسبة إليها: هَمَدانيّ، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٣٩٣-٣٩٥) و(٤٧٥-٤٧٦).

(٤) معافر: مخلاف (محافظة) باليمن، تنسب إليه الثياب المعافِريّة، سمّي بالقبيلة اليمنيّة: معافر بن يعفُر بن مالك بن الحارث بن مُرَّة، ويمتد نسبه إلى سبأ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٩٢/٨).

(٥) طبقات ابن سعد (٣٥٦/١) وسيرة ابن هشام (٢٥٨/٤) والطبري (١٢٠/٣) وإعلام السّائلين لابن طولون (١٥) واليعقوبي (٨٧/٢) وإمتاع الأسماع للمقريزي (٤٩٥/١).

وقد كتب النبيّ ﷺ إلى أهل اليمن كتاباً يخبرهم فيه بشرائع الإسلام وفرائض الصّدقة والمواشي والأموال، ويوصيهم بأصحابه ورسله خيراً، وكان رسوله إليهم مُعَاذ بن جَبَل، ومالك بن مُرارة[1].

وقد حمل معاذ ومالك بن مُرارة هذه الرسالة النبوية إلى اليمن بعد شهر رمضان من السنة التاسعة الهجرية: في شهر شوّال أو شهر ذي القعدة من السنة التاسعة الهجرية، كما ذكرنا ذلك في مقدمة الكتاب، في الحديث على سفارة المهاجر بن أبي أُمَيّة المخزوميّ.

وقد ورد ذكر مالك بن مُرّة الرُّهاوي في قسم من المصادر المعتمدة التي بين أيدينا، والصواب أنه مالك بن مُرارة الرَّهاويّ[2]، منسوب إلى رَهاء بن مُنَبِّه بن حرب قبيلة من مَذْحِج[3].

وكتب رسول الله ﷺ إلى عدّة من أهل اليمن سمّاهم، منهم: الحارث بن عبد كلال، وشرَيْح بن عبد كُلال، ونُعَيْم بن عبد كُلال، ونُعمان قَيْل[4] ذي رعين، ومَعَافِر، وهَمَدان، وزُرْعَة ذي يزن، وكان قد أسلم من أوّل حِمْيَر، وأمرهم أن يجمعوا الصّدقة والجزية فيدفعوها إلى معاذ بن جبل ومالك بن مُرارة، رسول أهل اليمن إلى النبيّ ﷺ بإسلامهم وطاعتهم، فكاتب إليهم رسول الله ﷺ: «إنّ مالك بن مُرارة قد بلّغ الخبر وحفظ الغيب».

---

(١) انظر نصّ الكتاب في: الطبري (١٢١/٣ - ١٢٢) وسيرة ابن هشام (٢٥٩/٤-٢٦٠) واليعقوبي (٨٧/٢-٨٩) وأسد الغابة (٢٠٣/٢) والإصابة (٢٩٣/٤) والقسطلاني (٢٧٩/١)، وقد أخرجه أبو داود وابن حبّان والدارمي، انظر الإصابة (٢٩٣/٤)، وانظر النصّ في: كنز العمال (٤٩٤/٢-٤٩٦) على هامش مسند الإمام أحمد بن حنبل، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (١٤٤-١٤٨).

(٢) انظر سيرته في: أسد الغابة (٢٩٣/٤) والإصابة (٣١/٦) والاستيعاب (١٣٥٨/٣).

(٣) الإصابة (٣١/٦).

(٤) القيل: يقال هو الملك، ويقال به هو دون الملك الأعلى، وهذا هو الأكثر. وسمي بذلك لأنه ذو القول، أي: الذي إذا قال لم يرد أحد قوله.

وكتب رسول الله ﷺ إلى بني معاوية من كِنْدَة، بمثل ذلك.

وكتب رسول الله ﷺ إلى بني عمرو من حِمْيَر يدعوهم إلى الإسلام[1].

وكان نصّ جواب النبيّ ﷺ على كتاب ملوك اليمن الذي بعثوه إليه بإسلامهم:

بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمّد رسول الله النبيّ.

إلى: الحارث بن عبد كُلال، وإلى نُعَيْم بن عبد كُلاَل، وإلى النُّعْمان قَيْل ذي رُعَيْن ومَعَافِر وهَمْدان:

أما بعدَ ذلكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو.

أما بعد، فإنه قد وقع بنا رسولكم مُنْقَلَبنَا من أرض الرُّوم، فلقينا بالمدينة فبلّغ ما أرسلتُم به، وخبَّرَ ما قِبَلَكُم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وان الله قد هداكم بِهُداهُ إنْ أَصلحتُم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خُمُسَ الله وسهم النبيّ ﷺ وَصَفِيَّهُ[2] وما كتبه على المؤمنين من الصدقة من العقار[3] عشر ما سقت

(١) طبقات ابن سعد (١/٢٦٤-٢٦٥).

(٢) الصفي: ما يصطفيه الرئيس من الغنيمة قبل أن تقسم الغنائم، وهو فعيل بمعنى مفعول.

(٣) العقار - بزنة سحاب: هو ههنا الأرض التي تزرع.

العَيْنُ وسقت السماء، وعلى ما سقى الغَرْبُ[1] نصف العُشْر: إنّ في الإبل الأربعين ابنة لَبُوْن، وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذَكَرٌ[2]، وفي كلّ خمسة من الإبل شاة، وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل أربعين من البقر بَقَرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع[3] جَذَع[4] أو جَذَعة، وفي كل أربعين من الغَنَم سائمة وحدها شاة، وإنها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصدقة، فمن زاد خيراً فهو خير له، ومن أدّى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين[5] على المشركين فإنه من المؤمنين: له ما لهم، وعليه ما عليهم، وله ذمّة الله وذمة رسوله، وإنه من أسلم من يهوديّ أو نصرانيّ فإنه من المؤمنين: له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُردّ عنها وعليه الجزية[6] على كل حالم ذكرٍ أو أنثى حر أو عبد دينار واف من قيمة المعافر[7] أو عوضه ثياباً، فمن أدّى ذلك إلى رسول الله ﷺ فإن له ذمة الله ورسوله، ومن منعه فإنه عدوٌّ لله ولرسوله.

---

(١) الغرب – بفتح وسكون: هي الدلو العظيمة.

(٢) ابن لبون: ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة: لأن أمّه ولدت غيره فصار لها لبن، وهي ابنة لبون وبنت لبون.

(٣) التبيع: ولد البقرة.

(٤) الجذع: ما استكمل سنتين ودخل في الثالثة.

(٥) ظاهر المؤمنين: عاونهم وقوّاهم وكان معهم على من سواهم. عاون وآزر.

(٦) الجزية: خراج الأرض، وما يؤخذ من أهل الذمّة.

(٧) المعافر: ثياب من ثياب اليمن.

أما بعد، فإن رسول الله محمداً النبي أرسل إلى زُرْعَة ذي يَزَن أن إذا أتاكم رُسُلي فأوصيكم بهم خيراً: مُعَاذ بن جَبَل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عُبَادة، وعُقْبَة بن نَمِر، ومالك بن مُرَّة وأصحابهم، وأن اجمعوا ما عندكم من الصّدقة والجزية من مخاليفكم[1] وأبلغوها رُسُلي، وإنّ أميرهم معاذ بن جبل، فلا ينقلبنَّ إلاّ راضياً.

أما بَعْدُ، فإنَّ محمّداً يشهد أن لا إله إلا الله، وأنّه عبده ورسوله.

ثم إن مالك بن مُرَّة الرَّهاوي قد حدثني أنّك أسلمت من أوّل حِمْيَر، وقتلت المشركين، فأبشر بخيرٍ، وآمرك بحِمْيَر خيراً، ولا تخونوا، ولا تَخَاذَلُوا، فإن رسول الله ﷺ هو مولى غنيّكم وفقيركم، وإن الصدقة لا تحل لمحمّدٍ ولا لأهل بيته، إنما هي زكاةٌ يزكي بها على فقراء المسلمين وابن السبيل، وان مالكاً قد بلّغ الخبر وحَفِظَ الغَيْبَ، وآمركم به خيرا، وإني قد أرسلت إليكم من صالحي أهلي وأولي دينهم وأولي علمهم، وآمركم بهم خيراً، فإنهم منظورٌ إليهم، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته[2].

علامة الختم: الله / رسول / محمد

---

(١) المخاليف: جمع مِخْلاَف، وهي الكورة، وفي الاصطلاح الحديث: المحافظة.

(٢) نصّ كتاب النبيّ ﷺ من سيرة ابن هشام (٤/٢٥٨-٢٦٠)، وانظر الطبري (٣/١٢٠-١٢٢) واليعقوبي (٢/٦٤-٦٥)، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (١٤٤) وبعض الاختلاف في بعض النصوص في (١٤٧-١٤٨).

وحين بعث رسول الله ﷺ مُعَاذاً، أوصاه وعهد إليه، ثم قال: «**يَسِّرْ ولا تُعَسِّرْ، وبَشِّرْ ولا تُنَفِّرْ، وإنّك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك: ما مفتاح الجنة؟ فقل: شهادة ألا إله إلا الله وحده لا شريك له**»[١].

كما كتب النبيّ ﷺ إلى عَرِيْب بن عبد كُلال وهو أخو الحارث بن عبد كُلال، وكان إليهما أمر حِمْيَر[٢] في اليمن، وهذا الكتاب هو الكتاب النبوي الذي ذكرناه بدون شك.

وكتب النبي ﷺ إلى فَهْد الحِمْيَرِيّ من أقيال أهل اليمن ممن أسلم، وفيه يقول الشاعر:

ألا إنّ خير النّاس كلّهم فَهْدُ وعبد كُلال خير سائرهم بَعْدُ[٣]

وهذا الكتاب النبوي إلى فهد، هو الكتاب النبوي الذي ذكرناه قبل قليل بدون شك.

وكتب النبي ﷺ إلى عبد العزيز بن سَيْف بن ذي يَزَن الحِمْيَرِي، والمشهور أنّ النبيّ ﷺ كتب إلى أخيه زُرْعَة[٤]، وما يشمل أخاه يشمله بدون شك.

كما كتب النبي ﷺ إلى عُمَيْر ذي مَرَّان[٦] أحد رؤساء هَمْدان، وهو عُمَيَر بن أفْلَح بن شَرَاحيل بن ربيعة وهو ناعِظ، وقيل اسمه: عُمَيْرَة[٧]، والأول أصحّ.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢٦٠/٤).

(٢) أسد الغابة (٤٠٧/٣) والإصابة (١٠٦/٥).

(٣) الإصابة (٢١٩/٥).

(٤) أسد الغابة (٣٢٩/٣) والإصابة (١٨٩/٤).

(٥) انظر ترجمته في: أسد الغابة (١٤٧/٤).

(٦) جمهرة أنساب العرب (٣٩٣).

وكان نصّ الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب، من: محمّد رسول الله

إلى: عُمَيْر ذي مَرَّان، ومَنْ أسلم من هَمْدان

سِلْم أنتم. فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلاّ هو.

أما بَعْدَ ذلك: فإنّه بلغني إسلامكم مرجعنا من أرض الرُّوم، فابشروا فإن الله قد هداكم بهُداه. وإنكم إذا شهدتم أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً عبد الله ورسوله، وأقمتم الصّلاة، وآتيتم الزّكاة، فإن لكم ذمّة الله وذمّة رسوله، على دمائكم وأموالكم وأرض البور التي أسلتم عليها، سهلها وجبلها وعيونها وفروعها، غير مظلومين ولا مضيّق عليكم.

وإنّ الصَّدقة لا تحل لمحمّد ولا لأهل بيته، إنما هي زكاة تزكّونها عن أموالكم لفقراء المسلمين.

وإنّ مالك بن مُرَارة الرَّهاوي قد حفظ الغيب وبلّغ الخبر، فآمركم به خيراً، فإنه منظور إليه.

وكتب عليّ بن أبي طالب[1].

علامة الختم: الله
رسول
محمد

---

(١) أسد الغابة (١٤٧/٤) واليعقوبي (٦٥/٢)، وانظر المصادر والمراجع الأخرى في: مجموعة الوثائق السياسية (١٥٢ - ١٥٣).

لقد بعث النبي ﷺ مُعَاذ بن جَبَل إلى اليمن في شهر ربيع الآخر من السنة التاسعة الهجريّة[1]، والصواب أنه بعثه بعد غزوة (تَبوك)[2] التي كانت في شهر رجب من السنة التاسعة كما ورد في نص رسالة النبي ﷺ الجوابية إلى ملوك اليمن، فقد قدم المدينة رسولهم في رمضان المبارك بإسلامهم، فأجابهم النبي ﷺ وحمل رسالته إليهم معاذ.

وقد بعثه النبي ﷺ إلى اليمن سفيراً، وقاضياً، ومرشداً[3]، يعلّم الناس القرآن وشرائع الإسلام[4]، ويقبض الصدَقة من عمال اليمن[5].

وقد حمل ما بعث به النبي ﷺ من رسائل إلى ملوك اليمن، فبلّغ الملوك الرسائل وأدّى الأمانة، فكان نعم السفير.

ولكن لم يقتصر واجبه على السفارة، بل كان قاضياً يقضي بين الناس بالعدل، ومرشداً يرشدهم إلى طريق الحق، ومعلّماً يعلّم القرآن والسُّنن وشرائـع الإسلام، ووالياً يجبي الزكـاة والصـدقـة من العمال الآخرين.

لقد أدى معاذ واجبه بالرغم من ثقله وصعوبته على أحسن وجه.

في حرب ردّة اليَمَن

كان رسول الله ﷺ قد بعث معاذاً قاضياً إلى (الجَنَدِ)[6] من اليمن، يعلّم الناس القرآن وشرائع الإسلام، ويقضي بينهم، وجعل إليه قبض الصدقات من العُمَّال الذين باليمن.

---

(1) طبقات ابن سعد (٥٨٤/٣).

(2) الجامع (٤٩٢/٤).

(3) الجامع (٤٩٢/٤).

(4) الاستيعاب (١٤٠٣/٣).

(5) أنساب الأشراف (٥٢٩/١).

(6) الجند: أعظم أقسام اليمن. وهي من أرض السكاسك. وبين الجند وصَنْعَاء ثمانية وخمسون فرسخاً. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٤٧/٣ - ١٤٩).

وكان رسول الله ﷺ قد قسم اليمن على خمسة رجال: خالد بن سعيد[1] على صَنْعَاء، والمهاجر بن أبي أُمَيَّة[2] على (كِنْدَة)[3]، وزياد بن لبيد[4] على حَضْرَمَوْت، ومُعَاذ بن جَبَل على الجَنَد، وأبي موسى الأشعري[5] على (زَبِيْد)[6] وعَدَن والسّاحل[7]. وقال رسول الله ﷺ لمعاذ حين وجَّهه إلى اليمن: «بِمَ تَقضي؟»، قال: «بما في كتاب الله»، قال: «فإن لم تجد؟»، قال: «بما في سنة رسول الله»، قال: «فإن لم تجد؟»، قال: «اجتهد رأيي»، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله ﷺ لما يحب رسول الله ﷺ»[8] فكان معاذ على الجَنَد بخاصة، ولكنه كان معلماً يتنقّل في عمالة كلّ عامل باليمن وحَضْرَمَوْت[9].

(١) هو خالد بن سعيد بن العاص بن أميّة بن عبد شمس القرشي الأموي، انظر تفاصيل سيرته في: أسد الغابة (٨٢/٢ - ٨٤) والاستيعاب (٤٢٠/٢ - ٤٢٤) والإصابة (٩١/٢ - ٩٢).

(٢) المهاجر بن أبي أُمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشيّ المخزومي، انظر تفاصيل سيرته في: أسد الغابة (٤٢٢/٤ - ٤٢٣) والإصابة (١٤٤/٦ - ١٤٥).

(٣) كندة: مخلاف باليمن على اسم كندة القبيلة، انظر معجم البلدان (٢٨٤/٧)، وكندة قبيلة عظيمة من قبائل اليمن، وكندة اسمه ثور بن عُفَيْر بن عديّ بن الحارث بن مُرَّة ابن أُدَد بن زيد بن يَشْجُب بن عريب بن زيد بن كَهْلان بن سَبَأ، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٢٥ - ٤٢٩).

(٤) زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان الأنصاري الخزرجي، انظر تفاصيل سيرته في: أسد الغابة (٢١٧/٢) والاستيعاب (٥٣٣/٢ - ٥٣٤) والإصابة (٢٠/٣) وطبقات ابن سعد (٥٩٨/٣).

(٥) أبو موسى الأشعري: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح فارس (١٧٨ - ١٩٢).

(٦) زبيد: اسم واد به مدينة يقال لها: الحُصَيب، ثم غلب عليها اسم الوادي، فلا تعرف إلا به، وهي مدينة مشهورة باليمن وبإزائها ساحل المندب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٥/٤ - ٣٧٦).

(٧) الاستيعاب (١٤٠٣/٣) والطبري (٤٢٧/٣) وابن الأثير (٤٢١/٢) والمحبّر (١٢٦) وأنساب الأشراف (٥٢٩/١) وتاريخ خليفة بن خياط (٦٢/١)، وانظر طبقات ابن سعد (٥٨٦/٣).

(٨) رواه أبو داود وأحمد، انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث (٢٦٦/٧).

(٩) الطبري (٢٢٨/٣) وابن الأثير (٣٣٦/٢).

وكان الأسود العَنْسِيّ، واسمه: عيهلة بن كعب العَنْسِيّ، وعَنْس بطن من مَذْحج، وكان يلقب: ذا الخمار، لأنّه كان معتماً متخمِّراً أبداً[1].

ولما عاد النبي ﷺ من حجّة الوداع التي كانت سنة عشر الهجرية[2] إلى المدينة المنورة وتمرّض من السفر غير مرض موته، بلغ الأسود العَنْسي ذلك، فادّعى النبوّة، وكان مُشعبذاً يُريهم الأعاجيب، فاتبعته مَذْحج، وكانت رِدّة الأسود أوّل رِدَّة في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ، وغزا (نَجْران)[3] فأخرج عنها عمرو بن حَزْم[4] وخالد بن سعيد.

ووثب قيس بن عبد يغوث بن مَكْشُوح[5] على فَرْوة بن مُسَيْك[6] وهو على مُرَاد[7]، فأجلاه ونزل منزله.

وسار الأسود عن نجران إلى صَنْعاء، فخرج إليه شَهْر بن باذان[8] فلقيه، فقُتل شَهر لخمس وعشرين ليلة من خروج الأسود.

وانحاز معـــاذ بــأبي موسى الأشعري وهو بـ (مَــأْرِب)[9]، فلحقــا بحضرموت، ولحق بفَرْوَة بن مُسَيْك مَنْ تَمَّ على إسلامه من مَذْحج.

---

(١) ابن الأثير (٢/٣٣٩) وانظر جمهرة أنساب العرب (٤٠٥).

(٢) العبر (١/١٢).

(٣) نجران: من مخاليف اليمن من ناحية مكّة المكرّمة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٥٨ - ٢٦٥).

(٤) عمرو بن حزم بن زيد الأنصاري الخزرجي النجاري، انظر سيرته المفصلة في أسد الغابة (٤/٩٨) والإصابة (٤/٢٩٣) والاستيعاب (٣/١١٧٢).

(٥) قيس بن عبد يغوث بن مكشوح المرادي، انظر سيرته في أسد الغابة (٤/٢٢٢) و (٤/٢٢٧) والإصابة (٥/٢٦٥).

(٦) فروة بن مسيك المرادي، انظر سيرته المفصّلة في: أسد الغابة (٤/١٨٠) والإصابة (٥/٢٠٩) والاستيعاب (٣/١٢٦١).

(٧) مراد بن مالك بن أُدَد من مذحج، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٠٦).

(٨) شهر بن باذان: انظر سيرته المفصلة في أسد الغابة (٣/٦) والإصابة (٣/٢٢٦).

(٩) مأرب: بلاد الأزد باليمن، واسم قصر كان لهم، وقيل: هو اسم لكل ملك كان يلي سبأ، واسم سد في اليمن، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣٥٤).

واستتبَّ للأسود مُلْك اليمن، ولحق أمراء اليمن إلى الطّاهر بن أبي هالة[1]، والطّاهر بجبال (عَكّ)[2] وجبال صنعاء، وغلب الأسود على ما بين مفازة حضرموت إلى الطّائف إلى البحرين والأحساء إلى عَدَن، واستطار أمره كالحريق، وكان معه سبعمائة فارس يوم لقي شَهْراً سوى الركبان! ولكنّ أمره استغلظ، وكان خليفته على مَذْحج عمرو بن مَعْدِي كَرِب[3] وكان خليفته على جنده قيس بن عبد يغوث، وأمر الأبناء (الفُرْس) إلى فيروز وداذَوَيْه.

وكان الأسود تزوّج امرأة شَهْر بن باذان بعد قتله، وهي ابنة عم فيروز.

وخاف مَن بحضرموت من المسلمين أن يبعث الأسود إليهم جيشاً أو يظهر بها كذّاب مثل الأسود، فتزوّج معاذ إلى قبيلة السّكُون[4]، فعطفوا عليه.

وجاء إليهم وإلى مَنْ باليمن من المسلمين كُتُبَ النبيﷺ يأمرهم بقتال الأسود، فقام معاذ في ذلك، وقويت نفوس المسلمين، وكان الذي قدم بما كتب النبيﷺ وبُرَة بن يُحَنِّس الأزدِي[5]. قال جِشْنَس الدَّيْلَمي[6]: «فجاءتنا كتب النبيﷺ يأمرنا بقتاله إما مصادمةً أو

---

(١) الطّاهر بن أبي هالة الأسدي التميمي: انظر تفاصيل سيرته في أسد الغابة (٣/٥٠) والإصابة (٣/٢٨٣).

(٢) عك بن عدنان، انظر جمهرة أنساب العرب (٣٢٨)، وهي قبيلة يضاف إليها مخلاف باليمن، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٢٠٤).

(٣) عمرو بن معدى كرب الزُّبيدي:، انظر تفاصيل سيرته في أسد الغابة (٤/١٣٢) والإصابة (٥/١٨) والاستيعاب (٣/١٢٠١).

(٤) هي قبيلة السّكون بن أشرس بن كِنْدة اليمنيّة، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٢٩).

(٥) انظر سيرته المفصلة في: أسد الغابة (٥/٨٣) والإصابة (٦/٣١٤) والاستيعاب (٤/١٥٥١).

(٦) أحد الفرس الذين كانوا في اليمن حينذاك، والدّيلم من الفرس.

غيلة - يعني إليه وإلى فيروز وداذَويه - وأن نكاتب مَنْ عنده دِينٌ، فعملنا في ذلك، فرأينا أمراً كثيفاً. وكان الأسود قد تغيّر لقيس بن عبد يَغوث، فقلنا: إنّ قيساً يخاف على دمه، فهو لأول دعوة، فدعوناه وأبلغناه عن النبيﷺ، فكأنما نزلنا عليه من السّماء، فأجابنا. وكاتبنا النّاس، فدعا قيساً وأخبره أنّه يشك في أمره لأنه يميل إلى عدوّه، فحلف قيس للأسود: لأنتَ أعظم في نفسي من أن أُحدِّث نفسي بذلك.

«وأتانا قيس، فقال! يا جِشْنَس ويا فيروز ويا داذَوَيه: إنّ الأسود خامره الشك في أمري! فبينما نحن معه يحدّثنا، إذ أرسل إلينا الأسود يتهدّدنا، فاعتذرنا إليه ونجونا منه ولم نكَدْ وهو مرتاب بنا ونحن نحذره، فبينما نحن على ذلـك إذ جاءتنا كتب عامِر بن شَهْر[1] وذي زَوْدٍ وذي مُرَّان وذي الكلاَع وذي ظُلَيْم يبذلون لنا النّصر، فكاتبناهم وأمرناهم أن لا يفعلوا شيئاً حتى نُبْرِم أمرنا. وإنما اهتاجوا لذلك حين كاتبهم النبيﷺ، وكتب أيضاً إلى أهل نَجْران فأجابوه، وبلغ ذلك الأسود، وأحسّ بالهلاك.

« فدخلت على آزاد، وهي امرأته التي تزوّجها بعد قتل زوجها شهر ابن باذان، فدعوتها إلى ما نحن عليه، وذكرتها قتل زوجها شهر وإهلاك عشيرتها وفضيحة النساء، فأجابت: والله ما خلق اللهُ شخصاً أبغض إليّ منه، ما يقوم لله على حق ولا ينتهي عن مُحَرَّم، فأعلموني أمركم أخبركم بوجه الأمر.

«وخرجت وأخبرت فيروز وداذويه وقيساً، فجاء رجل دعا قيساً إلى الأسود، فدخل في عشرة من مذْحج وهَمَدان، فلم يقدر على قتله معهم، ولكنّه كشف له شكوكه في إخلاصه له، ولكنّ قيساً أكّد له إخلاصه له ».

---

(1) انظر سيرته في: أسد الغابة (٣/٨٣) والإصابة (٤/٩) والاستيعاب (٢/٧٩٢).

وأخيراً اتّفقوا على نقب الدار التي فيها الأسود، فدخلوا عليه: فيروز وداذوية وجِشْنَس وقيس، فقتل فيروزُ الأسود ليلاً، فلما طلع الفجر نادوا بالأذان: أشهد أن محمّداً رسول الله، وأنّ عَبْهلة كذّاب.

وتراجع أصحاب النبي ﷺ إلى أعمالهم، وكان معاذ يصلي بالمسلمين، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ في حياته بمقتل الأسود العَنْسِيَ.

وكان أوّل أمر العَنْسِي إلى آخره ثلاثة أشهر، وقيل: قريب من أربعة أشهر، وكان قدوم البشير بقتله في آخر ربيع الأول بعد موت النبي ﷺ، فكان أوّل بشارة أتت أبا بكر وهو بالمدينة[١].

وكان الأسود قد كتب إلى معاذ وعمال رسول الله ﷺ الآخرين: «أيها المتورِّدون علينا! أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفِّروا ما جمعتم، فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه»[٢]، فكان السبب المباشر لرِدَّته وكذبه هو طمعه في الصدقات ورغبته بالاستئثار بها دون المسلمين، فكان ذلك سبباً من أسباب اندحاره.

كما أنّه استخفّ بأقرب المقربين إليه الذين يتولّون قيادات رجاله: قيس بن عبد يغوث قائد جند الأسود، وفيروز وداذويه قائدي الفُرس في اليمن[٣]، مما أثار حفيظتهم وحقدهم وجعلهم صفاً واحداً ويداً واحدة عليه.

وكان لكتب النبي ﷺ أثر معنوي عظيم على المسلمين في اليمن: «إذ جاءتنا كُتُب النبي ﷺ يأمرنا فيها أن نبعث الرِّجال لمحاولته أو لمصاولته، ونُبْلِغ كلّ مَنْ رَجَا عنده شيئاً من ذلك عن النبي ﷺ، فقام

---

(١) أنظر التفاصيل في الطبري (٣/٢٢٧-٢٤٠) وابن الأثير (٢/٣٣٦-٣٤١).

(٢) الطبري (٣/٢٢٩).

(٣) الطبري (٣/٢٣٠).

معاذ في ذلك بالذي أُمِر به، فعرفنا القوّة ووثقنا بالنّصر »[1]، فكان أثر معاذ في القضاء على فتنة الأسود عظيماً.

وكان الأسود من أهل اليمن، وكان معاذ من أهل المدينة، ولكنّ الأسود لم يستطع أن يحوز على ثقة أحد من أهل اليمن، بينما كان معاذ موضع ثقة المسلمين كافة في اليمن، كما كانت له مكانة خاصة في قبيلة السَّكون، فقد تزوّج معاذ إلى بني بَكْرَة حيّ من السَّكون، امرأة أخوالها بنو زَنْكَبِيْلٍ يقال لها: رَمْلة، فَحَدِبوا لصهره على معاذ وعلى المسلمين أيضاً، وكان معاذ معجباً، فإنّه كان ليقول فيما يدعو الله به: « اللّهم ابعثني يوم القيامة مع السّكون »، ويقول أحياناً: « اللّهم اغفر للسَّكون »[2]، مما جعله موضع ثقة هذه القبيلة القويّة وموضع حمايتها له، واندفاعها في مصاولة أعداء المسلمين، فقد انحاز معاذ إلى السّكون[3] فعطفوا عليه[4] وعلى مَنْ معه من المسلمين.

كلّ هذه الأسباب جعلت الأسود العَنْسِيّ يخسر المعركة ويخسر حياته، أمام المسلمين في اليمن، فانتصر الحق وانهزم الباطل.

ولم تُرو نصوص كتب النبي ﷺ إلى معاذ وغيره من مسلمي اليمن، كما لم تُرْوَ نصوص الكتب التي كتبها معاذ وغيره من المسلمين إلى أنصارهم في اليمن للتعاون في حرب الأسود.

وحين انتصر المسلمون على الأسود كتبوا إلى رسول الله ﷺ بالخبر، ولم يُرْوَ نصّ الكتاب[5].

---

(١) الطبري (٣/٢٣١).
(٢) الطبري (٣/٢٣٠) وانظر ابن الأثير (٢/٣٣٨).
(٣) الطبري (٣/٢٣٠).
(٤) ابن الأثير (٢/٣٣٨).
(٥) انظر التفاصيل في: مجموعة الوثائق السياسية (٢٥٦ - ٢٥٨).

ولما قُتل الأسود عاد أمر المسلمين في اليمن كما كان، فأرسلوا إلى معاذ فصلّى بالمسلمين، وهم راجون مؤملون لم يبق شيء يكرهونه إلاّ شراذم من أصحاب الأسود، فأتى موت النبي ﷺ، فانتقضت الأمور واضطربت الأرض[١] من جديد، فقد كان الذين أسلموا في اليمن حديثي عهد بالجاهلية[٢]، أسلموا وما حسن إسلامهم بَعْدُ.

واستقرّ معاذ بعد القضاء على فتنة الأسود معلّماً يعلّم أهل اليمن، يتنقّل في عمل كلِّ عامل[٣]، يفقّه الناس في الدّين.

وحارب أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه المرتدَّة جميعاً بالرّسل والكتب، كما كان رسول الله ﷺ حاربهم، حتى رجع أُسامة بن زيد[٤] من الشام[٥]، فتيسّر لأبي بكر الصدِّيق أن يبعث لقتال المرتدين في اليمن قوات من المسلمين، فقدم عِكْرِمة بن أبي جَهْل[٦] اليمن من (مَهْرَة)[٧] وأقبل المهاجر بن أمية[٨] في جمع من أهل مكة والطائف وبَجِيْلة[٩] مع جرير بن عبد الله البَجَلِيِّ[١٠] إلى نَجْران، فانضمّ إلى قوات المُهاجر بعد قدومه فَرْوَة بن مُسَيْك المُرادِيّ بمن معه من مسلمي اليمن، فاستطاعت

---

(١) ابن الأثير (٢/٣٤١).

(٢) الطبري (٣/٢٣٩).

(٣) الطبري (٣/٣١٨).

(٤) انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٣٣-٥١).

(٥) الطبري (٣/٣١٩).

(٦) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٨٥ - ٩٥).

(٧) مهرة: اسم قبيلة يمنيّة تنسب إليها الإبل المهرية، ولهم مخلاف باليمن بينه وبين عُمان شهر وبينه وبين حضرموت شهر أيضاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢١١).

(٨) المهاجر بن أميّة المخزومي: انظر سيرته في أسد الغابة (٤/٤٢٢) والإصابة (٦/١٤٤).

(٩) بجيلة بن أنمار بن إراش بن عمرو الذي هو أخو الأزد، وهي قبيلة يمنيّة، انظر أسد الغابة (١/٢٤٢) والاستيعاب (١/٢٣٦).

(١٠) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٦ - ٣٧١) - ط ٢.

قوّات المسلمين أن تقضي على مقاومة المرتدين نهائياً، واستسلم قادتهم للمسلمين، وعاد المرتدون إلى حظيرة الإسلام، وكان ذلك سنة إحدى عشرة الهجريّة[1].

كما انتهت فتنة المرتدين في حضرموت وكِنْدة، وعاد المرتدون إلى الإسلام من جديد، وكان ذلك سنة إحدى عشرة الهجرية أيضاً[2].

ولما أكمل واجبه دعوةً وجهادا، وتعليماً وقضاء، في اليمن وما حولها من المناطق، واستقرّ الإسلام والمسلمون هناك، ونشأ فيها ناشئة من الدعاة والقضاء والمعلمين والجاهدين، آن لمعاذ أن يعود إلى عاصمة المسلمين الأولى، فانصرف معاذ من اليمن في سنة إحدى عشرة الهجرية من اليمن إلى المدينة المنوّرة[3]، فقد انتهى من واجباته في تلك المنطقة العربية الإسلامية، فعاد ليستأنف واجبات جديدة في مناطق أخرى، وكان قد تلقى واجباته الأولى من النبيّ ﷺ، فلما التحق عليه الصّلاة والسّلام بالرفيق الأعلى، استأنف معاذ واجباته الجديدة في خدمة الإسلام والمسلمين بإرشاد خلفاء النبي ﷺ.

لقد بقي معاذ في اليمن من رمضان سنة تسع الهجريّة إلى ذي الحجة سنة إحدى عشرة الهجريّة، أي أنّه بقي في اليمن سنتين وثلاثة أشهر تقريباً، فكان أول من غرس جذور علوم الدين حديثاً وفقهاً وقرآنا في اليمن السعيد، فبقي هذا القطر العربي الإسلامي متميّزاً في علوم الدين واللّغة العربية بفضل معلّمة الأول معاذ منذ أربعة عشر قرناً حتى اليوم، مما يدل على مبلغ عمق آثار معاذ في أهل اليمن ومبلغ إخلاصه النادر في

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٣/٣٢٣ - ٣٢٨) وابن الأثير (٢/٣٧٥ - ٣٧٨).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٣/٣٣٠ - ٣٤٢) وابن الأثير (٢/٣٧٨ - ٣٨٢).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/٥٨٥).

أداء واجباته على صعوبتها وضخامة مسؤولياتها وأهميتها لحاضر الإسلام والمسلمين ومستقبلهم في السّلام والحرب.

لقد أدّى واجبه قاضياً، ففرض العدالة والاستقامة والنزاهة المطلقة في قضائه، في مجتمع قبليّ صعب المراس. وأدّى واجبه معلماً للقرآن والحديث والفقه، فغرس بذور علوم الدين غرساً مباركاً طيِّباً نافعاً، وحمل السّيف مجاهداً في حرب المرتدين، فكان بحق ربّ السّيف والقلم، الداعية المجاهد، الموحِّد من أجل الجهاد، والمجاهد من أجل التوحيد.

الإنسان

١. العالم

كان معاذ مَن يُفْتي المدينة ويُقْتدى به من أصحاب رسول الله ﷺ على عهد رسول الله ﷺ وبعد ذلك[١]: عليّ بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عَوْف وأُبَيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعريّ، ومُعاذ ابن جَبَل، فكان من أصحاب الفتيا على عهد رسول الله ﷺ[٢].

وكان يُصَلِّي مع النبيّ ﷺ، ثمّ يجيىء فيؤم قومه[٣] بني سَلِمة وَمَنْ يُصلِّي معهم في مسجدهم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: «جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة كلّهم من الأنصار، أُبَيّ بن كعب[٤]، ومعاذ بن جبل، وزيد بن

---

(١) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٢/٣٣٤-٣٥٠).

(٢) أصحاب الفتيا - ملحق بجوامع السيرة (٣٢٠) وأسد الغابة (٤/٣٣٧).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/٣٨٦) والاستبصار (١٣٧).

(٤) انظر سيرته في طبقات ابن سعد (٢/٣٤٠-٣٤١).

ثابت[١]، وأبو زيد »[٢]، رواه البخاري ومسلم[٣].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: خذوا القرآن من أربعة: عبد الله بن مسعود[٤]، وسالم مولى أبي حُذَيْفة[٥]، ومعاذ بن جبل، وأُبيّ بن كعب » رواه البخاري ومسلم[٦].

لقد كان أحد حفاظ القرآن على عهد رسول الله ﷺ، ولم يقتصر جمع القرآن، بل كان يعلِّم المسلمين القرآن الكريم.

روى عن النبيّ ﷺ مائة حديث وسبعة وخمسين حديثاً، اتفق البخاري ومسلم على حديثين، وانفرد البخاري بثلاثة ومسلم بحديث، روى عنه ابن عمر وابن عبّاس وابن عمرو بن العاص وأبو قتادة وجابر ابن عبد الله وأبو أمامة الباهلي وأبو ثعلبة وعبد الرحمن بن سُمرة وآخرون من الصحابة رضوان الله عليهم وخلائق من التابعين[٧].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أرحم أمّتي لأمتي أبو بكر، وأشدّهم في أمر الله عمر، وأشدّهم حياءً عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام مُعاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت،

---

(١) انظر سيرته في طبقات ابن سعد (٢/٣٥٨-٣٦٢).
(٢) انظر سيرته في أسد الغابة (٥/٢٠٣-٢٠٤).
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٩٩) والإصابة (٦/١٠٦).
(٤) انظر سيرته في طبقات ابن سعد (٢/٣٤٢-٣٤٤).
(٥) انظر سيرته في تهذيب الأسماء واللغات (١/٢٠٦).
(٦) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (١/٦٠) وانظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/٩٩) وأسد الغابة (٤/٣٧٨) وأنساب الأشراف (١/٢٦٤) وحيلة الأولياء (١/٢٢٩).
(٧) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٩٨) وانظر تهذيب التهذيب (١٠/١٨٦-١٨٧) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣٧٩) وأسماء الصحابة الرواة ملحق بجوامع السيرة (٢٧٧).

وأقرأهم أُبي ولكلّ أمّة آمين، وأمين هذه الأمة أبو عُبيدة بن الجرّاح »[1] .

وقال رسول الله ﷺ: « أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل »[2] وقال: «معاذ بن جبل أعلم الناس بحلال الله وحرامه»[3] فهو أعلم الصّحابة عليهم رضوان الله.

وقال عليه الصلاة والسلام: « يأتي معاذ بن جبل يوم القيامة أمام العلماء بِرَتْوة »[4] ، والرَتْوة: رمية سهم، وقيل: ميل، وقيل: مدّ البَصَر[5] .

وقال عليه الصلاة والسلام: « معاذ بن جبل له نَبْذة بين يدي العلماء يوم القيامة »[6]، وقد خلّف معاذاً بمكّة حين وجَّه إلى حُنَيْن يفقِّه أهل مكّة ويُقرئهم القرآن كما ذكرنا.

وخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بـ(الجَابِيَة)[7] فقال: « مَنْ كان يريد أن يسأل عن الفقه، فليأت معاذ بن جبل ». وكان عمر بن الخطّاب يقول حين خرج معاذ إلى الشّام: «لقد أخَلَّ خروجه بالمدينة

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه بأسانيد صحيحة حسنة، وقال الترمذي: هو حديث حسن صحيح، انظر تهذيب الأسماء واللغات (٩٩/٢).

(٢) طبقات ابن سعد (٣٤٧/٢) و (٥٨٦/٣) والاستبصار (٤٨) و (١٣٦) وتهذيب التهذيب (١٨٧/١٠) والبداية والنهاية (٩٥/٧) وحلية الأولياء (٢٢٨/١).

(٣) حلية الأولياء (٢٢٨/١).

(٤) طبقات ابن سعد (٣٤٧/٢) وأسد الغابة (٣٧٨/٤) وتهذيب الأسماء واللغات (٩٩/٢) والاستبصار (١٣٦) وتهذيب التهذيب (١٨٧/١٠) وحلية الأولياء (٢٢٩/١).

(٥) انظر هامش اسد الغابة (٣٧٨/٤) نقلاً عن النهاية لابن الأثير.

(٦) طبقات ابن سعد (٣٤٧/٢).

(٧) الجابية: قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان، قرب مرج الصفّر في شمال حوران، انظر تفاصيل في معجم البلدان (٣٣/٣).

وأهلها في الفقه وما كان يُفتيهم به، ولقد كنتُ كلّمتُ أبا بكرٍ رحمه الله، أن يحبسه لحاجة الناس إليه، فأبى عليَّ وقال: رجل أراد وجهاً يريد الشهادة، فلا أحبسه! فقلت: والله إنّ الرّجل لَيُرزق الشهادة وهو على فراشه وفي بيته عظيمُ الغنى عن مِصْرِه » وقال كعب بن مالك: « كان معاذ بن جبل يُفتي بالمدينة في حياة رسول الله ﷺ وأبي بكر ». وقال عمر بن الخطاب: « إن العلماء إذا حضروا يوم القيامة، كان معاذ ابن جبل بين أيديهم قذفةً بحجر »[١].

وذكر أبو إدريس الخَوْلانيّ أنّه دخل مسجد دمشق، فإذا فتًى برّاق الثنايا، وإذا ناس معه إذا اختلفوا في شيءٍ أسندوه إليه وصدروا عن رأيه، فسأل عنه، فقالوا: هذا معاذ بن جبل، قال أبو إدريس: « فلما كان من الغد هجّرت[٢] فوجدته قد سبقني بالتّهجير، فوجدته يُصلّي، فانتظرته حتى قضى صلاته، ثمّ جئته من قِبَل وجهه، فسلّمت عليه، وقلتُ له: والله إني لأحبّك لله، فقال: اللهِ؟ فقلت: اللهِ، فقال: اللهِ؟ فقلت: الله، فأخذ بُحبوة[٣] ردائي فجذبني إليه وقال: أَبْشِر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تبارك وتعالى: **وَجَبتْ رحمتي للمتحابين فيّ والمتجالسين والمُتزاورين فِيّ** »[٤].

وذكروا أنّ رجلاً دخل مسجد حِمْص، فإذا بِحَلْقة فيهم رجل آدم[٥] جميل وضّاح الثنايا، وفي القوم مَنْ هو أسنّ منه، وهم مقبلون

---

(١) طبقات ابن سعد (٣٤٨/٢).

(٢) هجرتُ: سار في الهاجرة، وهجر النهار: انتصف واشتد حرّه، وهجَر إلى الشيء: بكر وبادر إليه.

(٣) الحبوة: بضم الحاء وفتحها وكسرها - ما يُحتبى به من ثوب وغيره.

(٤) طبقات ابن سعد (٥٨٦/٣-٥٨٧).

(٥) آدم: شديد السّمرة.

عليه يستمعون حديثه، فقال له الرجل: «مَنْ أنت؟»، فقال: «مُعاذ بن جبل»[1].

وذكر أبو مُسْلِم الخَوْلانيّ قال: «دخلت مسجد حِمْص، فإذا فيه نحواً من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبيّ ﷺ، وإذا فيهم شاب أكحل العينين برّاق الثنايا لا يتكلّم، فإذا امترى القوم في شيء اقبلوا عليه فسألوه، فقلت لجليس لي: مَنْ هذا؟ فقال: معاذ بن جبل رضي الله عنه، فوقع في نفسي حبّه، فكنت معهم حتى تفرّقوا».

وقال عايذ الله بن عبد الله[2]: «دخلت المسجد يوماً مع أصحاب رسول الله ﷺ في أول إمرة عمر بن الخطّاب، فجلست مجلساً فيه بضع وثلاثون كلّهم يذكرون حديثاً عن رسول الله ﷺ. وفي الحلقة فتًى شاب شديد الأدمة حلو المنطق وضيء، وهو اشبّ القوم سنّاً، فإذا اشتبه عليهم من أحاديث القوم شيء ردّوه إليه فحدّثهم، ولا يحدّثهم شيئاً إلاّ أن يسألوه قلت: مَنْ أنت يا عبد الله؟ قال: معاذ بن جبل».

وروي أيضاً: «أنّه دخل مسجد حمص، فإذا أنا بفتى حوله الناس، جَعْد[3]، قَطَط[4]، فإذا تكلّم كأنما يخرج من فِيْهِ نور ولؤلؤ، فقلت: مَنْ هذا؟ قالوا: معاذ بن جبل رضي الله عنه.

وقال شهر بن حَوْشب: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل، نظروا إليه هيبة له»[5].

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٥٨٧).

(٢) عايذ الله بن عبد الله ابو إدريس الخولاي: انظر ترجمته في: تاريخ مدينة دمشق - تحقيق د. شكرى فيصل (٤٨٥-٤٩٧).

(٣) جعد: يقال وجه جعد: مستدير قليل اللحم.

(٤) قطط: يقال: شعر قطط: قصير جعد.

(٥) انظر التفاصيل في حلية الأولياء (١/٢٣٠-٢٣١).

وكان شعار معاذ في تعلّم العلم وتعليمه، كما كان يوصي به مَنْ حوله من العلماء والمتعلمين وسائر الناس: «خُذ العِلْم أنّي أتاك»[1].

وقال رجل لمعاذ: «علّمني!»، قال: «وهل أنت مطيعي؟»، قال: «إني على طاعتك لحريص»، قال: صُمْ وافطر، وصَلِّ ونَمْ، واكتسب ولا تأثم، ولا تموتن إلاّ وأنت مسلم، وإياك ودعوة المظلوم»[2].

وكان يحثّ على أخذ العلم من منابعه الأصيلة ومن العلماء الثُّقاة، وينهي عن الانحراف والبدع، ومن اقواله في ذلك: «إنّ وراءكم فتناً يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن، حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرّجل والمرأة، والصغير والكبير، والحرّ والعبد. فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني، وقد قرأت القرآن! ما هم بمتّبعي حتى أبتدع لهم غيره! فإياكم وما يُبْتَدع، فإن ما ابتدع ضلالة، وأحذِّركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم. وقد يقول المنافق كلمة الحق!»، فقيل له: «ما يدريني رحمك الله أنّ الحكيم يقول كلمة الضلالة، وأنّ المنافق يقول كلمة الحق؟»، قال: «بلى، اجتنبْ من كلام الحكيم المستهترات التي يقال: ما هذه؟! ولا يثنيك ذلك عنه، فإنه لعلّه يرجع ويتبع الحق إذا سمعه، فإن على الحق نورا»[3]، فهو يريد من العلماء والمتعلمين أن يستعملوا عقولهم في تلقّي العلم، وألاّ يقاطعوا العالم إذا أخطأ مرّة، بل عليهم أن يعينوه على العودة إلى الصواب، فلا يخسره العلم ولا يخسره العلماء والمتعلمون.

---

(1) طبقات ابن سعد (٢/٣٥٠).

(2) حلية الأولياء (١/٢٣٣).

(3) حلية الأولياء (١/٢٣٢-٢٣٣) وورد قول معاذ في روايتين، الأولى رواها ابو ادريس الخولاني، والثانية رواها أبو يزيد الخولاني عن يزيد بن عميرة والروايتان متقاربتان في المعنى مختلفتان قليلاً في المبنى.

ومن أقواله: «وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان يقول في الحكيم كلمة الضلالة، وقد يقول المنافق كلمة الحق، فاقبلوا الحقّ، فإن على الحق نورا»، فقالوا: «وما يدرينا رحمك الله أنّ الحكيم قد يقول كلمة الضلالة؟ قال: «هي كلمة تنكرونها منه، وتقولون: ما هذه!!! فلا يثنيكم، فإنه يوشك أن يفيء ويراجع بعض ما تعرفون، وإنّ العلم والإيمان مكانهما إلى يوم القيامة، مَنْ ابتغاهما وجدهما»[1].

وجاء أحد طلاّب معاذ إليه، فجعل يبكي، فقال: «ما يبكيك؟!»، قال: «والله ما أبكي لقرابة بيني وبينك، ولا لدنْيا كنت أصيبها منك، ولكن كنتُ أصيب منك علماً، فأخاف أن يكون قد انقطع»، فقال معاذ: «فلا تبْكِ فإنّه مَنْ يرد العلم والإيمان يؤته الله تعالى كما آتى إبراهيم عليه السّلام، ولم يكن يومئذ علم ولا إيمان»[2]، وهذا دليل على شدة تعلّق طلاّبه وحبهم له، ودليل على إسداء النّصح والتوجيه لهم بما يفيدهم في حياتهم العلميّة والعملية أيضا.

وقال معاذ: «تعلّموا العلم، فإنّ تعلّمه لله تعالى خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قُرْبة، لأنّه معالم الحلال والحرام، ومنار أهل الجنّة، والأنس في الوحشة، والصّاحب في القربة، والمحدّث في الخلوة، والدليل على السّراء والضرّاء، والسّلاح على الاعداء، والدين عند الأجلاء، يرفع الله به أقواماً، ويجعلهم في الخير قادة وأئمة، تُقتبس آثارهم، ويُقتدى بفعالهم، ويُنتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم يستغفر لهم كلّ رطب ويابس، حتى الحيتان في البحر وهوامه، وسباع

---

(١) حلية الأولياء (١/٢٣٢-٢٣٣).

(٢) حلية الأولياء (١/٢٣٤).

الطير وأنعامه. لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلم، يبلغ بالعلم منازل الأخيار، والدرجة العليا في الدنيا والآخرة، والتفكير فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام به توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام، إمام العمّال والعمل تابعه، يلهمه السُّعداء، ويحرمه الأشقياء»[1] ولا أعرف عالماً من العلماء في مختلف العصور ومن مختلف الأجناس، كرّم العلم والعلماء والمتعلمين ووصفهم بأبلغ وصف وأشمله، وشجّع على العلم وأمر به وكرّمه ووضعه في الموضع اللائق به، كما فعل معاذ في كلماته القليلة عددا، الغزيرة مددا.

وعن معاذ رضي الله عنه قال: «تصدّيت لرسول الله ﷺ وهو يطوف، فقلت يا رسول الله! أرِنا شر الناس!!، فقال: **سلوا عن الخير ولا تسألوا عن الشرّ، شرار الناس شرار العلماء في الناس**»[2] رواه البزار عن معاذ[3].

وروى أنس بن مالك، قال: «أتاني معاذ بن جبل من عند رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً بها قلبه دخل الجنة، فذهبت إلى رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله! حدثني معاذ أنّك قلت: «مَنْ شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً بها قلبه دخل الجنة، قال: «**صدق مُعاذ صدق معاذ، صدق معاذ**»[4]، حديث حسن[5].

وكان الذين يفتون على عهد رسول الله ﷺ من المهاجرين عمر وعثمان وعليّ، وثلاثة من الأنصار: أُبَي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد

---

(١) حلية الأولياء (٢٣٩/١) وقد رواه عن معاذ رجاء بن حيوة.
(٢) حلية الأولياء (٢٤٢/١).
(٣) حديث حسن، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٦٤/٢).
(٤) أسد الغابة (٣٧٧/٤).
(٥) انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٣٠١/٢).

ابن ثابت[1]، وقد ذكرنا أنه كان من أصحاب الفتيا من الصحابة. وفي باب (ميراث الأخوات مع البنات عصبة) في كتاب (الفرائض) من صحيح البخاري: «قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ: النصف للابنة والنصف للأخت»[2].

لقد كان معاذ أفقه الناس، أعلم أُمة النبيّ ﷺ بالحلال والحرام[3]، وكانت له آراء اجتهاديّة في الدين مهمّة جداً، «.. فجاء معاذ فقال: لا أجده على حالٍ أبداً إلاّ كنت عليها ثم قضيت ما سبقني، فجاء وقد سبقه النبيّ ﷺ ببعضها (يريد الصّلاة)، فثبت معه، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، قام فقضى، فقال رسول الله ﷺ: «**إنّه قد سَنَّ لكم معاذ، فهكذا فاصنعوا**»[4]، فبقي اجتهاده معمولاً به منذ أظهره للناس حتى اليوم.

لقد كان مؤثّراً في علمه على عهد النبيّ ﷺ ومن بعده، فلما تُوفي معاذ أصبح قدوة صالحة للأجيال، فكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: «حدّثونا عن العاقلين: معاذ وأبي الدَّرْداء»[5]، وكان عبد الله بن عمر يقول: «حدّثونا عن العالمين العاملين: معاذ وأبي الدَّرْداء»[6].

---

(١) أسد الغابة (٣٧٧/٤).

(٢) فتح الباري بشرح البخاري (٢٠/١٢) وانظر دليل القارىء إلى مواضع الحديث في صحيح البخاري (٣٧٦) وانظر سنن الدارمي الكتاب ٢١ الباب ٤ ومفتاح كنوز السنة (٤٧٥-٤٧٦).

(٣) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل (١٨٤/٣) و (٢٨١/٣) والحديث الرقم (٢٠٩٦) من مسند الطيالسي، وانظر مفتاح كنوز السنة (٤٧٥).

(٤) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٦٤/٥) وانظر الاستبصار (١٣٧).

(٥) طبقات ابن سعد (٣٥٠/٢) والاستيعاب (١٤٠٦/٤) وفيه عبد الله بن عمر لا عبد الله بن عمرو.

(٦) الاستبصار (١٢٦) و (١٢٩).

وقال عمر بن الخطّاب يوماً لأصحابه: «تمنّوا!»، فتمنّى كلّ إنسان شيئاً، فقال عمر: «أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عُبَيْدة ابن الجَرَّاح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حُذَيْفة، وحُذَيْفة بن اليَمَان»[١].

وقال عمر بن الخطاب: «عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ولولا معاذ لهلك عمر»[٢] لأنه كان لا يتأخر في إسداء النّصح والمشورة له، إذا كان في المدينة أو خارجها على حدّ سواء.

فقد كتب معاذ وأبو عبيدة بن الجرّاح إلى عمر: «سلام عليك. أما بعد، فإنا عهدناك وأمر نفسك إليك مهم، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الشريف والوضيع، والعدو والصديق، ولكلٍّ حصّته من العدل، فانظر كيف أنت عند ذلك يا عمر! فإنّا نحذرك يوماً تعنى[٣] فيه الوجوه، وتجف[٤] فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج لحجّة ملك قهرهم بجبروته فالخلق زاخرون[٥] له يرجون رحمته ويخافون عقابه. وإنّا كنّا نتحدّث أنّ أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها إلى أن يكونوا إخوان العلانية أعداء السّريرة، وإنّا نعوذ بالله أن ينزل كتابنا إليك سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، فإنما كتبنا به نصيحة لك، والسلام عليك».

فكتب إليهما عمر: «من عمر بن الخطّاب، إلى أبي عُبَيْدة ومعاذ

---

(١) الاستبصار (١٣٨ ـ ١٣٩).

(٢) الإصابة (٦/١٠٧).

(٣) عنَا - عُنُوّاً: خضع وذلّ، وفي التنزيل العزيز: ﴿وعَنَتِ الوجوه للحيّ القيّوم وقد خاب من حمل ظلْماً﴾.

(٤) وجَفَ: اضطرب، ووجف القلب: خفق، وفي التنزيل العزيز: ﴿قلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ﴾.

(٥) داخرون، دخر: ذل وهان، وفي التنزيل العزيز: ﴿سُجّدا لله وهم داخرون﴾.

سلام عليكما. أما بعد! أتاني كتابكما تذكران أنكما عهدتماني وأمر نفسي لي مهم، فأصبحت قد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها يجلس بين يديّ الشريف والوضيع، والعدو والصديق، ولكلٍّ حصّته من العدل. كتبتما: كيف أنت عند ذلك يا عمر! وأنّه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك إلا بالله عزّ وجلّ. وكتبتما تحذراني ما حذرت الأمم قبلنا، وقديماً كان اختلاف اللّيل والنّهار بآجال الناس يقربان كلّ بعيد، ويبليان كلّ جديد، ويأتيان بكلّ موعود، حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة أو النار. كتبتما تحذراني أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها إلى أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة، ولستم بأولئك وليس هذا بزمان ذاك، وذلك زمان تظهر فيه الرّغبة والرّهبة،تكون رغبة الناس بعضهم لبعض لصلاح دنياهم. كتبتما تعوذاني بالله أن أنزل كتابكما سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما وأنكما كتبتما به نصيحة لي، وقد صدقتما، فلا تدعا الكتاب إليّ، فإنه لا غنى بي عنكما والسلام عليكما »[1].

وما كان عمر بحاجة إلى مَنْ يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وهو مَنْ هو علماً وورعاً واستقامة وإيمانا، ولكنّ معاذاً وأبا عبيدة بن الجراح وجدا من واجبهما أن يذكّرا الناس جميعاً ومن ضمنهم عمر، فتقبّل عمر نصحهما بالقبول الحسن، ورجاهما أن يدأبا على نصحه وتذكيره، لأنه بحاجة ماسة إلى هذا النّصح والتذكير، ولم يأنف من نصحهما وتذكيرهما أو يقابل كتابهما بالاعراض.

ولعلّ في هذا عبرة للحكّام والعلماء في كلِّ وقت وبكل مكان، إذ ينبغي أن يكون العالم يؤدي واجبه كاملاً، فيكون من علماء الرحمن،

---

(١) حلية الأولياء (١/٢٣٨).

ولا يسكت على الظلم والانحراف أو يغضّ الطرف عنه، فيكون من علماء السلطان، أو يشجع الظلم والانحراف، ويقتنص له المعاذير والمسوّغات، فيكون من علماء الشيطان، والسّاكت عن الحق شيطان أخرس إذا كان من سائر الناس، فكيف إذا كان من العلماء ؟!.

وقد كان لمعاذ جولات كلاميّة مع يهود المدينة يدعوهم إلى الله ويرشدهم، فقد كان يهود يَسْتَفْتِحُون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ وبِشْر بن البراء بن مَعْرور أخو بني سَلِمَة[1]: «يا معشر يهود! اتقوا الله وأسلِمُوا، فقد كنتم تَسْتَفْتِحون علينا بمحمد، ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنّه مبعوث، وتَصِفونه لنا بصفته» فقال سلام بن مِشْكَم أحد بني النّضِيْر من يهود: «ما جاءنا بشيءٍ نعرفه، وما هو بالذي كنّا نذكره لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنه الله على الكافرين﴾[2] الآية[3].

وسأل معاذ وجماعة من الأنصار نفراً من أحبار يهود عن بعض ما في التوراة، فكتموهم إيّاه، وأبوا أن يخبروهم عنه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾[4] الآية[5].

---

(١) انظر سيرته في طبقات ابن سعد (٣/٥٧٠-٥٧١) وتهذيب الأسماء واللغات (١/١٣٣-١٣٤) والاستبصار (١٤٣-١٤٤).

(٢) سورة البقرة. آية ٨٩.

(٣) سيرة ابن هشام (٢/١٧٣-١٧٤).

(٤) سورة البقرة. آية ١٥٩.

(٥) سيرة ابن هشام (٢/١٧٨-١٧٩).

وأتى رسولُ الله ﷺ جماعة من يهود، فكلّموه، وكلّمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوِّفنا يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النّصارى، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل: فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير**﴾[1].

ودعا رسول الله ﷺ يهود إلى الإسلام، ورغّبهم فيه، وحذّرهم غِيَرَ الله وعقوبته، فأبوا عليه، وكفروا بما جاءهم به، فقال لهم معاذ وسعد بن عُبادة[2] وعُقْبة بن وهب[3]: «يا معشر يهود! اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنّه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته»، فقال يهوديان منهم: «ما قلنا لكم هذا قط، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولها: ﴿**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير**﴾[4] ثم قصّ عليهم خبر موسى، وما لقي منهم، وانتقاضهم عليه، وما ردُّوا عليه من أمر الله، حتى تاهوا في الأرض أربعين سنة عقوبة[5].

وهكذا تعلّم معاذ، لينشر العلم ليس في المدينة فحسب بل جنوباً في

---

(١) سورة المائدة آية ١٨.

(٢) انظر سيرته في طبقات ابن سعد (٣/٦١٣-٦١٧) الاستبصار (٩٣-٩٧).

(٣) انظر سيرته في طبقات ابن سعد (٣/٥٤٥) والاستيعاب (٣/١٠٧٧) وأسد الغابة (٣/٤٢١) والاصابة (٤/٢٥٤) والاستبصار (١٨٧).

(٤) سورة المائدة، آية ١٩.

(٥) سيرة ابن هشام (٢/١٩٢-١٩٣).

اليمن وشمالاً في بلاد الشام، وليس بين المسلمين داعياً إلى الله فحسب، بل بين المسلمين وبين أهل الكتاب والمشركين، وليس على عهد النبيّ ﷺ فحسب، بل على عهده وعهد الشيخين أبي بكر الصدّيق وعمر بن الخطّاب رضي الله عنهما من بعده، حتى توفاه الله، يتعلم العلم ويعلّمه، ويدعو إلى الله على هدى وبصيرة فكان بحق الفقيه الفاضل الصالح[1]، الحكم للعمل، مقدام العلماء، القارىء القانت[2]، الإمام المقدّم في علم الحلال والحرام[3]: «نعم الرّجل معاذ»[4]، صدق رسول الله عليه أفضل الصّلاة والسّلام[5].

٢. القانت

بينما كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يحدِّث أصحابه ذات يوم، إذ قال: «إنّ معاذاً كان أمّةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين»، فقال له رجل: «يا أبا عبد الرحمن! نسيتها؟!»، وظنّ الرجل أنه أوْهَم، فقال ابن مسعود: «هل تدرون ما الأمة؟»، قالوا: «ما الأمة؟»، قال: «الذي يعلّم الناس الخير»، ثم قال: «هل تدرون ما القانت؟»، قالوا: «لا»، قال: «القانت المطيع لله»، وقال: «كنا نشبّه معاذاً بإبراهيم»[6] وابن مسعود كان يشير إلى الآية الكريمة: ﴿إن

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٩٨).
(٢) حلية الأولياء (١/٢٢٨).
(٣) الإصابة (٦/١٠٦).
(٤) رواه الترمذي والنسائي انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢/٩٩).
(٥) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٩٩).
(٦) طبقات ابن سعد (٣/٣٤٨-٣٤٩) وانظر حلية الأولياء (١/٢٣٠) واسد الغابة (٤/٣٧٨) والإصابة (٦/١٠٦) والاستبصار (١٣٨) وتهذيب التهذيب (١٠/١٨٧) والبداية والنهاية (٧/٩٥).

ابراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾[1]، وكان الصّحابة يشبِّهون مُعاذاً بإبراهيم عليه السلام في مزاياه المتميِّزة.

وتعليم الناس الخير، وطاعة الله، هما مفتاحا شخصية معاذ: الإيمان الرّاسخ، والعلم المتين.

والحديث على إيمان معاذ العميق وعقيدته الرّاسخة وتقواه وورعه حديث طويل، لأنّه يستغرق أهمّ جانب من حياته إنسانا ويمتدّ ليشمل من يوم إيمانه بالله ورسوله إلى أن فارق الحياة، لا يعمل إلا لآخرته في مجالي العلم والعبادة، وكان علمه ثمرة من ثمرات عبادته، فكان بحق يعتبر العلم (عبادة) من أفضل العبادات، فهو عالم في عبادته، عابد في علمه، يرى التعلم والتعليم من عبادة المؤمن الحق، الذي يريد أن يعبد الله على هدى وبصيرة لا على جهل وضلال.

ومن الصّعب حشد كلّ ما ورد عن ورع معاذ وتقواه في المصادر المعتمدة، فلا بدّ من اختيار الأمثلة مما سجّله المؤرخون وأصحاب السِّير والمحدِّثون، فالحديث عن روحانية معاذ تغذي الروح والإيمان.

كان معاذ إذا تهجد الليل قال: «اللّهم نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت حيّ قيوم اللهم طلبي الجنّة بطيء، وهروبي من النار ضعيف، اللهم اجعل لي عندك هدى ترده إليّ يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد»[2].

---

(١) سورة النحل، آية ١٢٠.

(٢) حلية الأولياء (٢٣٣/١) وأسد الغابة (٣٧٧/٤).

وكان لا يجلس مجلساً للذِّكر إلاّ قال حين يجلس: «الله حَكَمٌ قِسْطٌ[1]، تبارك اسمه هلك المرتابون»[2].

وقال معاذ لابنه: «يا بُنيّ! إذا صلّيت صلاةً فصلِّ صلاة مودِّع، لا تظنّ أنّك تعود إليها أبدا، واعلم يا بني أن المؤمن يموت بين حسنتين: حسنة قدّمها، وحسنة أخّرها».

وأتى رجل معاذاً ومعه أصحابه يسلِّمون عليه ويودِّعونه، فقال: «إ ني موصيك بأمرين إن حفظتهما حُفظت: أنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر. فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا، حتى تنتظمه لك انتظاماً، فتزول به معك أينما زلت»[3].

وكان معاذ يقول: «ما من شيءٍ أنجى لابن آدم من عذاب الله من ذكر الله عزّ وجلّ»، قالوا: «ولا السّيف في سبيل الله»، ثلاث مرات، قال: «ولا! إلاّ أن يضرب بسيفه في سبيل الله عزّ وجلّ حتى ينقطع». وقال: «ما عمل آدميّ عملاً أنجى من عذاب الله من ذكر الله»، قالوا: «يا أبا عبد الرحمن! ولا الجهاد في سبيل الله؟»، قال: «ولا! إلاّ أن يضرب بسيفه حتى ينقطع، لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ولذكر الله أكبر﴾»[4].

وقال معاذ: «مَنْ سَرّه أن يأتي الله عزّ وجلّ آمناً، فليأت هذه

---

(١) قسط: العدل، وهو من المصادر الموصوف بها، يوصف بها الواحد والجمع، يقال: ميزان قسط، وميزانان قسط، وموازين قسط، ومنه في التنزيل العزيز: ﴿ونضع الموازين القسْط ليوم القيَامة﴾.

(٢) حلية الأولياء (١/٢٣٣).

(٣) حلية الأولياء (١/٢٣٤).

(٤) سورة العنكبوت. آية ٤٥.

الصلوات الخمس حيث ينادي بهنّ، فإنهنّ من سنن الهدي، ومما سنّه لكم نبيّكم ﷺ، ولا يقل إن لي مُصلّى في بيتي فأصلي فيه، فإنكم إن فعلتم ذلك تركتم سُنّة نبيّكم، ولو تركتم سُنّة نبيّكم ﷺ لضللتم»[1].

وعن الأسود بن هلال قال: «كنّا نمشي مع معاذ، فقال لنا: اجلسوا بنا نؤمن ساعة»[2]، يريد أن يجلسوا لذكر الله سبحانه وتعالى.

وقال معاذ يوماً لأحد أصحابه: «إنّك تجالس قوماً لا محالة يخوضون في الحديث، فإذا رأيتهم غفلوا، فارغب إلى ربِّك عزّ وجلّ عند ذلك رغبات»، وكانوا يقولون: «آية الدعاء المستجاب، إذا رأيت الناس غفلوا، فارغب إلى ربِّك عند ذلك رغبات».

وقدم معاذ منطقة من مناطق المسلمين، فقال له قسم من أشياخ لمنطقة: «لو أمرت ننقل لك من هذه الحجارة والخشب، فنبني لك مسجداً»، فقال: «إني أخاف أن أُكلَّف حمله يوم القيامة على ظهري».

وقام يوماً في بني أَوْد[3]، فقال: «يا بني أَوْد! إني رسول رسول الله ﷺ، تعلمنّ أنّ المعاد إلى الله تعالى ثم إلى الجنة أو إلى النار، إقامة لا ظعن، وخلود في أجساد لا تموت»[4]، وبنو أَوْد من قبائل اليمن.

وكان معاذ يقول: «اعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يؤجركم الله بعلم حتى تعملوا»، وكان يقول: «تعلّموا ما شئتم إن شئتم أن تعلموا، فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا»[5]، إذ لا قيمة للعلم بدون عمل.

---

(١) حلية الأولياء (١/٢٣٥).

(٢) حلية الأولياء (١/٢٣٥).

(٣) أَوْد بن صَعْب بن سعد العشيرة بن مالك بن أُوَد بن زيد بن يَشْجُب بن عريب بن زيد ابن كَهْلان بن سَبَأ، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٠٧ و ٤١١).

(٤) حلية الأولياء (١/٢٣٦).

(٥) حلية الأولياء (١/٢٣٦).

وقال معاذ: «ابتُليتم بفتنة الضرّاء فصبرتم، وستبتلون بفتنة السرّاء، وأخوف ما أخاف عليكم فتنة النِّساء، إذا تسوّرنّ الذّهب والفِضَّة، ولبسن رِيَاط[١] الشّام، وعُصُب[٢] اليمن، فأتعبن الغني، وكلفن الفقير ما لا يجد».

وكان يقول: «ثلاث مَنْ فعلهنّ فقد تعرضّ للمقت: الضحك من غير عجب، والنوم من غير سهر، والأكل من غير جوع».

وأخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أربعمائة دينار فجعلها في صُرَّة، فقال للغلام: «اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم تلبّث ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع!»، فذهب بها الغلام فقال: «يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك»، فقال: «وصله الله ورحمه». ثم قال: «تعالي يا جارية! اذهبي بهذه السّبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان»، حتى أنفذها، فرجع الغلام إلى عمر رضي الله عنه وأخبره، فوجده قد أعدّ مثلها لمعاذ بن جبل، فقال: «اذهب بها إلى معاذ، وَتَلَهَّ في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع!»، فذهب بها إلى معاذ فقال: «يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك!»، فقال: «رحمه الله ووصله! تعالي يا جارية! اذهبي إلى بيت فلان بكذا، اذهبي الى بيت فلان بكذا»، فاطلعت امرأة معاذ فقال: «ونحن والله مساكين! فاعطِنا!»، ولم يبق في الخرقة إلاّ ديناران، فدحا[٣] بها إليها. ورجع الغلام إلى عمر رضي الله عنه، فأخبره، فسرّ بذلك وقال: «إنّهم أُخوة بعضهم من بعض»[٤].

---

(١) رياط الشام: جمع رائطة، وهي المُلاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة، وكل ثوب ليِّن رقيق.

(٢) عصب: جمع عصابة، وهي ما يشدّ به من منديل أو خرقة، والعمامة، والتاج.

(٣) دحا: دفع.

(٤) حلية الأولياء (١/٢٣٦ - ٢٣٧).

وذكر معاذ أن رسول الله ﷺ قال له: «يا معاذ! انطلق فأرحل راحلتك ثم إيتني أبعثك إلى اليمن»، فانطلق معاذ، فرحل راحلته ثم جاء ووقف بباب المسجد، حتى أذن له رسول الله ﷺ، فأخذ النبيّ ﷺ بيد معاذ، ثم مضى معه فقال: «يا معاذ! إني أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، ووفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، ورحمة اليتيم، وحفظ الجار، وكظم الغيظ، وخفض الجناح، وبذل السّلام، ولين الكلام، ولزوم الإيمان، والتفقّه في القرآن، وحبّ الآخرة، والجزع من الحساب، وقصر الأمل، وحسن العمل، وأنهاك أن تشتم مسلماً، أو تكذّب صادقا، أو تصدّق كاذباً، أو تعصي إماماً عادلا. يا معاذ! اذكر الله عند كلّ حجر وشجر، وأحدث مع كل ذنب توبة: السرّ بالسرّ، والعلانية بالعلانية».

ولما أراد النبي ﷺ أن يبعث معاذاً إلى اليمن، ركب معاذ رضي الله عنه، ورسول الله ﷺ يمشي الى جانبه يوصيه، فقال: «يا معاذ! أوصيك وصيّة الأخ الشّفيق، أوصيك بتقوى الله»، فذكر نحوه وزاد: «وَعِدْ المريض، وأسرع في حوائج الأرامل والضعفاء، وجالس الفقراء والمساكين، وانصف الناس من نفسك، وقل الحق، ولا تأخذك في الله لومة لائم»[1].

وكانت وصية النبي ﷺ هده لمعاذ، منهاج حياته العملية حتى ذهب إلى الله.

وقال معاذ: «أخذ رسول الله ﷺ يوماً بيدي، ثم قال: «يا معاذ! والله إني لأحبّك!، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! وأنا والله أحبّك. فقال: أوصيك يا معاذ! لا تدعنّ في دُبر كلّ صلاة أن تقول: اللهم

---

(١) حلية الأولياء (١/٢٤٠ - ٢٤١).

أعِنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[١]، فأوصى بها معاذ أصحابه.

ودخل معاذ على رسول الله ﷺ، فقال: «كيف أصبحت يا معاذ؟»، قال: «أصبحت مؤمناً بالله تعالى»، قال: «**إنّ لكلّ قولٍ مصداقا، ولكلّ حقٍّ حقيقة، فما مصداق ما تقول؟**»، قال: «يا نبيّ الله! ما أصبحت صباحاً قط، إلاّ ظننتُ أني لا أمسي، وما أمسيت مساءً قط إلاّ ظننت أني لا أصبح، ولا خطوت خطوةً إلاّ ظننت ألاّ أتبعها أُخرى، وكأني أنظر إلى كلّ أُمّة جاثية تُدعى إلى كتابها معها نبيّها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله، وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة»، قال: «**عرفت فالزم**»[٢].

ولما أصيب أبو عُبَيْدَة بن الجرّاح في طاعون (عَمَوَاس)[٣] استخلف معاذ بن جبل واشتدّ الوجع فقال الناس لمعاذ: «ادْعُ الله يرفع عنّا هذا الرِّجز»، قال: «إنّه ليس برجز، ولكنه دعوة نبيّكم ﷺ، وموت الصالحين قبلكم، وشهادة يختصّ بها الله مَنْ يشاء منكم. أيّها الناس! أربع خلال مَنْ استطاع أن لا يُدْرِكَه شيء منهنّ فلا يدركه»، قالوا: وما هي؟! قال: «يأتي زمان يظهر فيه الباطل، ويصبح فيه الرّجل على دِيْنٍ ويُمسي على آخَرَ، ويقول الرجل: والله ما أدري على ما أنا، لا يعيش على بصيرة ولا يموت على بصيرة، ويُعْطى الرّجل المال من مال الله على أن يتكلم بكلام الزّور الذي يُسْخِط الله. اللّهُمّ آتِ آل معاذ نصيبهم من

---

(١) حلية الأولياء (٢٤١/١).

(٢) حلية الأولياء (٢٤٢/١).

(٣) عمواس: كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس، وكانت القصبة في القديم، وهي ضيعة جليلة على ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٦/٦).

هذه الرّحمة »، فَطُعِن ابناه، فقال: «كيف تجدانكما؟»، قالا: «يا أبانا! ﴿الحَقُّ من رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ من المُمْتَرِين﴾[١] »، قال: «وأنا! سَتَجِداني ﴿إن شاء الله من الصابرين﴾[٢] ». ثم طعنت امرأتاه فهلكتا، وطُعن هو في إبهامه، فجعل يمسّها بفيه ويقول: «اللّهمّ إنها صغيرة، فبارك فيها، فإنك تبارك في الصغير»، حتى هلك.

وحضر أحد أصحابه ساعته الأخيرة، فقال: «إني لجالس عند معاذ ابن جبل وهو يموت، فهو يُغْمَى عليه مرّة ويُفيق مرّة، فسمعته يقول عند افاقته: «اخنُق خَنِقَكَ، فَوَعِزّتك إني لأحبّك».

وفي رواية أخرى، أن الطاعون أخذ معاذاً في حَلْقه، فقال: «يا رب! إنّك لتخنقني، وإنّك لتعلم اني أُحبّك »[٣].

ولما حضر معاذاً الموتُ، قال: «انظروا، أصبحنا؟»، فقيل له: «لم تُصبح»، فقال: «انظروا، أصبحنا؟»، فقيل له: «لم تُصبح»، حتى جاء الصباح، فقيل له: «قد أصبحت». فقال: «أعوذ بالله من ليلةٍ صباحها إلى النار! مرحباً بالموت مرحبا، زائر مُغِبّ، حبيب جاء على فاقة، اللّهمّ إني قد كنتُ أخافك، فأنا اليوم أرجوك. اللّهم إنّك تعلم أني لم أكن أحبّ الدنيا وطول البقاء فيها، لكرى الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة السّاعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذّكر »[٤].

وكانت لمعاذ امرأتان، فإذا كان يوم أحدهما لم يتوضأ في بيت الأخرى، ثم توفيتا في السّقم الذي أصابهما في طاعون عَمَوَاس والناس في

---

(١) سورة البقرة، آية ١٤٧.

(٢) سورة الصافات، آية ١٠٢.

(٣) طبقات ابن سعد (٣/٥٥٨ - ٥٨٩) وانظر حلية الاولياء (١/٢٤٠).

(٤) حلية الأولياء (١/٢٣٩) وأسد الغابة (٤/٣٧٧ - ٣٧٨).

شغل، فدفنتا في حفرة، فأسهم معاذ بينهما، أيتهما تقدّم في القبر[1]، وذلك لشدّة ورعه وتوخيه العدل في معاملتها وهما على قيد الحياة وبعد الموت.

وكان مثالاً في العدل بين زوجتيه في حياته، فقد كان تحت معاذ امرأتان، فإذا كان عند أحدهما لم يشرب من بيت الأخرى الماء[2].

وكان النبيّ ﷺ حين بعثه الى اليمن قال له: «**اخلص دينك يكفك القليل من العمل**»[3].

وأخلص معاذ دينه غاية الإخلاص، وعمل بما علم غاية العمل، وحاسب نفسه حساباً عسيراً حتى على أبسط الأمور في نظر قسم من المسلمين: «ما بزقت عن يميني منذ أسلمت»[4]، ملتزماً بها أشدّ الالتزام. فهو بحق: صحابيّ جليل كبير القدر[5]، من أفضل شباب الأنصار[6]، وأحد الأربعة الذين افتخر بهم الخزرج إذ جمعوا القرآن في عهد رسول الله ﷺ ولم يجمعه أحد غيرهم، وأحد الثلاثة الذين كسروا آلهة بني سَلِمَة[7].

وقد صوّر عمر بن الخطاب حصيلة حياة معاذ عالماً وقانتاً أحسن تصوير، فقال: «لو أدركت معاذ بن جبل فاستخلفته فسألني ربي عنه، لقلت: يا ربّي! سمعت نبيّك يقول: «إنّ العلماء إذا اجتمعوا يوم

---

(١) حلية الأولياء (١/٢٣٤).
(٢) حلية الأولياء (١/٢٣٤).
(٣) حلية الأولياء (١/٢٤٤).
(٤) طبقات ابن سعد (٣/٥٨٦).
(٥) البداية والنهاية (٧/٩٤).
(٦) الإصابة (٦/١٠٧).
(٧) الاستبصار (١٣٦ - ١٣٧).

القيامة، كان معاذ بن جبل بين أيديهم قَذْفَة حَجَر»[1].

ولم يكن سيِّد العلماء، بل كان سيِّد العلماء العاملين بعلمهم، حتى استحق بعلمه وعمله أن يتولى أعلى منصب قياديّ على المسلمين: منصب الخلافة، مرشحاً من شخصية نادرة لا تجامل ولا تحابي: عمر بن الخطّاب رضي الله عنه.

لقد كان معاذ عالماً جليلاً، عاملاً بعلمه، مخلصاً في عمله، محافظاً على كرامة العلم والعلماء.

وكان تقيًّا، ورعاً، قوّاماً، صوّاماً، أتعب نفسه في عبادة الله وطاعته، فكان من الأولياء الصالحين، والعُبّاد المتّقين، وكان مثالاً يُحتذى به في علمه وصلاحه وتقواه في أيامه، وبعد رحيله عن الدنيا، ما بقي للعلم منزلته، وللورع مكانته.

٣. الرَّجُل

بعد هجرة النبي ﷺ، آخى بين معاذ وعبد الله بن مسعود[2] لا اختلاف فيه عندنا[3]. وأما في رواية: أنّ النبيّ ﷺ آخى بين معاذ وجعفر بن أبي طالب[4]، فكيف يكون هذا؟ وإنما كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة وقبل غزوة بَدْرٍ، فلما كان يوم بَدْرٍ ونزلت آية الميراث، انقطعت المؤاخاة، وجعفر بن أبي طالب قد هاجر قبل ذلك من مكة الى الحبشة، فهو حين آخى رسول

---

(١) طبقات ابن سعد (٥٩٠/٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٥٨٤/٣) والاستيعاب (١٤٠٣/٤) وأنساب الأشراف (٢٧١/١) والاستبصار (١٣٦) وأسد الغابة (٣٧٦/٤).

(٣) طبقات ابن سعد (٥٨٤/٣).

(٤) سيرة ابن هشام (١٢٤/٢) وجوامع السيرة (٩٦) والدرر (٩٩).

(٥) طبقات ابن سعد (٥٨٦/٣).

الله ﷺ بين أصحابه كان بأرض الحبشة، وقدم بعد ذلك بسبع سنين[1].

وقد آثرت أن أضع مؤاخاة معاذ بابن مسعود في هذا المكان وليس في أيامه الأولى، لأشير إلى أن أكثر أخبار معاذ إنساناً رواها ابن مسعود، مما يدل على أثر هذه الأخوة في نفسيّة هذين الصحابيين الجليلين في حياتهما وبعد انتقالها إلى دار البقاء.

وكان معاذ على عهد النبيّ ﷺ شاباً جميلاً سمحاً من خير شباب قومه، لا يُسأل شيئاً إلاّ أعطاه، حتى أدان ديناً أغلق ماله، فكلّم رسول الله ﷺ غرماءه، فلم يضعوا له شيئاً من دينه الذي بذمته، فلو تُرك لكلام أحد لتُرك معاذ لكلام رسول الله ﷺ. ودعاه رسول الله ﷺ، فلم يبرح حتى باغ ماله وقسمه بين غرمائه، فقام معاذ لا مال له، فبعثه النبيّ ﷺ إلى اليمن ليجبره. وكان أوّل مَنْ حُجز عليه في هذا المال معاذ. وكان غرماء معاذ يهوداً، فلهذا لم يضعوا عنه شيئاً[2].

وتُوفّي النبيّ ﷺ، واستُخلف أبو بكر، ومعاذ على اليمن، وكان عمر بن الخطاب عامئذٍ على الحجّ، فجاء معاذ إلى مكّة، ومعه رقيق ووصفاء على حِدَةٍ. فقال له عمر: «يا أبا عبد الرحمن! لمن هؤلاء الوُصفاء؟»، قال: «هم لي»، قال: «من أين هم لك؟»، قال: «أُهْدوا لي»، قال: «أَطِعْني وأرسل بهم إلى أبي بكر، فإن طَيِّبهم لك، فهم لك»، قال: «ما كنت لأُطيعك في هذا! شيءٌ أُهْدي لي أُرسل بهم إلى أبي بكر؟!».

وبات معاذ ليلته ثم أصبح، فقال: «يا ابن الخطّاب! ما أراني إلاّ

(١) انظر سيرة جعفر بن أبي طالب في كتابنا: قادة النبي ﷺ.
(٢) حلية الأولياء (٢٣١/١ - ٢٣٢) وانظر طبقات ابن سعد (٥٨٤/٣).

مطيعك! إني رأيت الّليلة في المنام كأني أُجَرُّ أو أُقاد - أو كلمةً تشبهها - إلى النار، وأنت آخذ بحُجْزَتي»[١]، فانطلق بهم إلى أبي بكرٍ، فقال: «أنت أحقّ بهم»، فقال أبو بكر: «هم لك».

وانطلق بهم معاذ إلى أهله، فصفُّوا خلفه يُصلّون، فلما انصرف قال: «لمن تصلون؟»، قالوا: «لله تبارك وتعالى؟»، قال: «فانطلقوا فأنتم له»، وأعتقهم[٢].

ومن الواضح أن معاذاً كان مرهف الحسّ، نقيّ الضمير، صافي السّريرة، فأثّرت فيه نصيحة عمر، ولكنه تظاهر برفضها بالكلام، ثم عاد إلى قبولها بإيعاز من عقله الباطني، فلم يرضخ لموافقة أبي بكر على تطييب الهدايا له، بل تنازل عنها مختاراً، وحينذاك ارتاح ضميره نهائياً إلى هذا الحل الذي اقتلع الشك من جذوره، واطمأن اطمئنان التقيّ الورع الذي يبتعد عن الشبهات كما يبتعد عن المحرّمات.

وبعد التحاق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى، وانتصار الإسلام على المرتدين، واصل معاذ سيرته في الجهاد، فقاتل يوم اليرموك[٣] وشهد تلك المعركة الحاسمة التي كانت في سنة ثلاث عشرة الهجرية[٤]، إذ خرج إلى الشام[٥]، واختار ميدان جهاده هناك.

ولما أكمل المسلمون فتح بلاد الشام، واصل معاذ جهاده العلميّ في تلك البلاد، فكان له جولات علميّة في دمشق وحمص وغيرهما من

---

(١) الحجزة: موضع شد الإزار في الوسط، وموضع التكّة من السّراويل.
(٢) طبقات ابن سعد (٣/٥٨٥-٥٨٦) و (٣/٥٨٨) وانظر حلية الأولياء (١/٢٣٦). والاستيعاب (٤/١٤٠٥).
(٣) الاستيعاب (٤/١٤٠٢) والاستبصار (١٤٠).
(٤) الطبري (٣/٣٦٤).
(٥) الاستيعاب (٤/١٤٠٥).

الأمصار، وكان له طلاّب كثيرون ومدرسة خرّجت العديد من المحدِّثين والفقهاء والصالحين.

ومن مزايا معاذ غيرته الشديدة على عرضه، فقد دخل قبَّته، فرأى امرأته تنظر من خرق القُبَّة، فضربها. وكان معاذ يأكل تفّاحاً ومعه امرأته، فمرّ غلام له، فناولته امرأته تُفّاحة قد عضتها، فضربها مُعَاذ[1].

وكان معاذ شاباً جميلاً[2]، آدم[3] وضّاح الثنايا، أكحل العينين، طُوالاً أَبْيَضَ، حسن الثّغر، عظيم العينين، مجموع الحاجبين، جَعْداً، قَطَطا[4] من أجمل الرجال[5]، حسن الشعر والثّغر[6].

ويبدو أنّ الذي وصفه بأنه شديد السّمرة رآه في السّفر وهو يعاني وعثاء السفر، والذي وصفه بأنه أبيض رآه في الحضر وهي في نعيم الحضر، وصفاته البدنية تدل على أنه جميل القسمات يملأ الأعين قدراً وجلالا.

لقد كان من أحسن الناس وجهاً، وأحسنه خُلقاً، وأَسْمَحه كفًّا[7].

وكان أعرج[8]، فصلّى بالناس في اليمن، فبسط رجله: فبسط

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٥٨٦).
(٢) الإصابة (٦/١٠٦) والاستيعاب (٤/١٤٠٤).
(٣) آدم: شديد السمرة.
(٤) جعد قطط: يقال شعر قطط: قصير جعد، والجعد: كثير الشعر متجمعة، انظر طبقات ابن سعد (٣/٥٩٠).
(٥) الإصابة (٦/١٠٦).
(٦) البداية والنهاية (٧/٩٤).
(٧) طبقات ابن سعد (٣/٥٨٧).
(٨) المحبّر (٣٠٤) والمعارف (٥٨٣).

الناس أرجلهم، فلما صلّى قال: «قد أحسنتم، ولكن لا تعودوا، فإني إنما بسطت رجلي في الصّلاة، لأني اشتكيتها»[١].

وكان لمعاذ ابنان، أحدهما عبد الرحمن، ولم يُسَمّ الآخر، ويكنى معاذ: أبا عبد الرحمن[٢].

وله من الولد أيضاً: أم عبد الله، وهي من المبايعات[٣].

وكانت له زوجتان[٤]، وقد توفي معاذ بطاعون عَمَوَاس سنة ثماني عشرة الهجرية[٥] (٦٣٩ م)، وولد سنة عشرين قبل الهجرة[٦] (٦٠٣ م) وتوفي وهو ابن ثمان وثلاثين سنة قمرية[٧]، وست وثلاثين سنة شمسيّة، ودفن بالقصير المعيني في غور الأردن[٨]، كما توفي في هذا الطاعون قبله ولداه وزوجتاه، ولا عقب له[٩].

وكان معاذ من عمّال النبيّ ﷺ[١٠] وأبي بكر الصديق رضي الله عنه على اليمن، وعمر بن الخطاب على أرض الشام خلفاً لأبي عُبَيْدَة بن الجرّاح، فقد استخلفه أبو عُبَيْدَة فأقرّه عمر[١١]، ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى توفاه الله بطاعون عَمَوَاس[١٢].

---

(١) طبقات ابن سعد (٥٨٥/٣).
(٢) طبقات ابن سعد (٥٨٣/٣).
(٣) المعارف (٢٥٤).
(٤) حلية الأولياء (٢٣٤/١).
(٥) طبقات ابن سعد (٥٩٠/٣) والاستيعاب (١٤٠٥/٤).
(٦) الجامع (٤٩٢/٤).
(٧) المعارف (٢٥٤).
(٨) الجامع (٤٩٣/٤).
(٩) المعارف (٣٥٤) وانظر العبر (٢٢/١).
(١٠) الطبري (٤٢٧/٣).
(١١) ابن الأثير (٥٥٩/٢).
(١٢) البدء والتاريخ (١٨٦/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (١٠٩/١).

ورحل معاذ عن الدنيا، ولكن بقي علمه مسطّراً في كتب علوم القرآن والحديث والفقه، يتلقّاه الطلاّب ويتدارسه العلماء، وبقي القدوة الحسنة في تقواه وورعه واستقامته وزهده وخلقه الكريم.

لقد كان معاذ رجلاً في أُمّة، وأُمّةً في رجل، فلا عجب أن تعجز النساء أن تَلِدْنَ مثل معاذ، كما قال عمر بن الخطّاب[1] رضي الله عنه في معاذ.

السّفير

بعث النبيّ ﷺ مُعَاذ بن جَبَل إلى جُمْلَة اليمن، داعياً إلى الإسلام، فأسلم جميع ملوكهم[2].

وكانت مهمة معاذ في سفارته جزءاً من مهماته الكثيرة في اليمن، فقد كان سفيراً، وداعياً، وأميراً، وجابياً، وقاضياً، ومعلماً، ومجاهداً.

وقد تطرّقنا إلى ذكر نشاطه المتعدّد الجوانب في اليمن وجنوبي شبه الجزيرة العربية، وسأقتصر هنا على عوامل نجاحه سفيراً.

فقد كان معاذ من المسلمين الأولين الذين أثبتوا صدق ولائهم العميق وانتمائهم لعقيدتهم الجديدة واستعدادهم عملياً لحمايتها والدّفاع عنها وحماية حريّة نشرها بين الناس.

وكانت مهمته الأولى في اليمن دعوة ملوكها ورؤسائها إلى الإسلام، تمهيداً لنشر الإسلام في القبائل اليمنية من العرب وفي سكان اليمن الآخرين من غير العرب.

---

(١) تهذيب التهذيب (١٠/١٨٧).
(٢) جوامع السيرة (٣٠).

وهذه المهمة التي أُوكلت إليه، كانت بالنسبة إليه قضيته الأولى، التي يعيش من أجل تحقيقها، ولا يدّخر وسعاً بكلِّ طاقاته الماديّة والمعنوية في سبيل تحقيقها، فهي مهمّةٌ خلقت له وخُلق لها، ويعتبر نجاحه فيها أمنية من أعزّ أمانيه وأغلاها على الإطلاق.

لقد كانت له (قضيّة) يسعى حثيثاً لتحقيقها، وهي قضية الدعوة إلى الإسلام ونشره بين الناس، وكانت له (رسالة) واجبة الاداء للناس كافة، والذين لهم (قضيّة) يعيشون من أجلها و(رسالة) تستهوي قلوبهم وعقولهم معاً، هم الذين يكتب لهم النجاح أو التفوّق بالنجاح.

وكان الانتماء الكامل للإسلام، والإيمان الراسخ برسالته، السببين الحاسمين من عوامل توفيقه سفيراً.

وكان من عوامل نجاحه في سفارته، الفصاحة، والعلم، وحسن الخلق.

فقد كان معاذ فصيحاً متميِّزاً في فصاحته، والنماذج التي ذكرناها من أقواله تدلّ دلالة واضحة على بلاغة عبارته، وقوة حجّته، وسلامة أدلّته، ونصاعة بيانه، وسيطرته المطلقة على فنون القول.

وكان عالم الصحابة في علوم القرآن والحديث والفقه، وأحد حاملي القرآن في حياة النبيّ ﷺ، ومن أصحاب الفتيا والمجتهدين في الدين.

وقد أصبح بعد انتقال النبيّ ﷺ إلى الرفيق الأعلى، عالم العلماء، وصاحب مدرسة علميّة تُشدّ إليها الرِّحال.

وتفوّقه العلمي يدلّ على ذكائه المتفوِّق، وحرصه على مجالس العلم والعلماء، وعلى التعلُّم والتعليم.

أما حسن خلقه، فقد كان مثالاً رائعاً في حسن الخلق، قال معاذ: «كان آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ حين جعلت رجلي في

الغَرْز[1]: أن أحسن خُلُقَكَ مع الناس»[2]، يريد في رحلته إلى اليمن سفيراً.

وبقيت هذه الوصيّة السامية تتردّد في أعماق أعماق نفسه إلى آخر لحظة من لحظات حياته: يعمل بها، ويعلّمها للناس، ويحثّ على تطبيقها عمليا، والإسلام جاء ليتمّم مكارم الأخلاق.

لقد كان سيداً فاضلاً، عاملا، جواداً، كريماً[3].

وكان يتحلى بالصبر الجميل والحكمة البالغة، وهما سببان من أسباب نجاحه سفيراً.

والصبر الجميل مزيّة من مزايا الخلق الكريم، فقد صبر على ما عاناه في اليمن من مدٍّ وجَزْرٍ، واطمئنان واضطراب، وسلم وحرب، وأمن وخوف، وسعادة وشقاء، صبر المؤمنين المحتسبين الذين يعتبرون المؤمن بخير على كلّ حال، إذا أُعطي شكر، وإذا منع صبر.

وعالج أحداث اليمن في أيامه بما فيها من آلام وآمال بالحكمة والموعظة الحسنة، فلم يهن ولم يجزع في حالة الشِدّة، ولم يشتط ولم يتجبّر في حالة الرخاء، فكان حكيماً صابراً في حالتي الشِدّة والرخاء، لم ينسَ لحظة هدفه الحيويّ من سفارته، ولم يقنط أبداً من رحمة الله ونصره.

وكان يتحلّى بسعة الحيلة وبُعْد النظر. فعالج المشاكل بأسبابه الناجعة، في النصح والارشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحث على الابتعاد عن الفتن وبواعثها بالسياسة والعمل الصالح والقول

---

(1) الغرز: ركاب الرَّحْل من جلد مخروز يُعْتَمَدُ عليه في الركوب. وفي الحديث: «كان إذا وضع رجله في الغرز يريد السّفر يقول: باسم الله».

(2) طبقات ابن سعد (٣/٥٨٥).

(3) الاستبصار (١٣٦).

السديد. ولكن إخفاق وسائله السلميّة التي دلّت على سعة حيلته وبُعد نظره ورجاحة عقله والتزامه بتعاليم الدين الحنيف، لم تمنعه من إعلان الجهاد في الزمان والمكان الجازمين، فجاهد بعقله تارة، وبسيفه تارة أخرى، لإعلاء كلمة الله، فكان بحق أكبر من الأحداث، ولم تكن الأحداث أكبر منه، فسيطر عليها لمصلحة الإسلام والمسلمين، ولم تسيطر عليه لمصلحة الكفّار والمرتدّين.

وكما كان معاذ يتحلّى برواء المخبر، كان أيضاً يتحلّى برواء المظهر، فقد كان رجلاً طُوالاً، أبيض، حسن الثّغر، أكحل العينين، برّاق الثنايا[1]، حسن الشعر، عظيم العينين[2] جيلاً، من أفضل سادات قومه، سمحاً لا يمسك[3]، أحسن الناس وجهاً[4].

تلك هي مجمل عوامل نجاح معاذ في مهمته سفيراً، وهذه العوامل هي العوامل التي يجب أن تتوفّر في السفير المثالي في الإسلام، بل هي العوامل التي يجب أن تتوفر في كل سفير ناجح في كلِّ زمان ومكان وبكلِّ دين من الأديان السماوية والنزعات الأرضية أيضاً وفي مختلف الأمم والشعوب والأوطان.

وكلّ الدارسين الذين يتدبّرون سيرة معاذ، يستطيعون بسهولة ويسر استنتاج عوامل نجاحه سفيراً والمزايا التي كان يتمتّع بها السفراء المسلمون، وعلى هديها يجري اختيارهم للنهوض بواجبات السفارات الإسلامية. وبخاصة على عهد النبيّ ﷺ وخلفائه الراشدين.

---

(١) طبقات ابن سعد (٥٩٠/٣) وانظر الاستبصار (١٤٠).
(٢) الاستيعاب (١٤٠٣/٣).
(٣) الاستيعاب (١٤٠٤/٣).
(٤) أسد الغابة (٣٧٦/٤).

مُعَاذ في التّاريخ

يذكر التّاريخ لمعاذ، أنّه شهد العَقَبَة الثانية مع السبعين من الأنصار، فكان من المسلمين الأولين السّابقين إلى الإسلام من الأنصار.

ويذكر له، أنّه شهد بدراً وأُحُداً والخندق مع رسول الله ﷺ، فنال شرف الصُّحبة وشرف الجهاد تحت لواء الرسول عليه أفضل الصّلاة والسّلام.

ويذكر له، أنّه شهد حروب الردّة في اليمن، وشهد معركة اليرموك الحاسمة هو وولده عبد الرحمن.

ويذكر له، أنّه كان من سفراء النبي ﷺ ودعاته ومعلميه وقضاته وعمّاله، ومن عمال الشيخين أبي بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما من بعده.

ويذكر له، أنه جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ، فكان أحد أربعة من الأنصار جمعوا القرآن على عهده.

ويذكر له، أنه كان أحد أربعة من الصحابة أمر النبي ﷺ بأخذ القرآن عنهم.

ويذكر له، أنه كان أعلم المسلمين بالحلال والحرام، كما شهد له رسول الله ﷺ.

ويذكر له، أنّه كان أحد الذين كانوا يفتون على عهد رسول الله ﷺ، وهم ثلاثة من المهاجرين وثلاثة من الأنصار أحدهم معاذ.

ويذكر له، أنه كان إمام العلماء، وعالم الأئمة، ومن المجتهدين في الدين على عهد النبي ﷺ وبعد أن التحق بالرفيق الأعلى.

ويذكر له، أنّه كان أُمةً في رجل، ورجلاً في أمّة، وأحواله ومناقبه

غير منحصرة[1]، فكان أمّة قانتاً لله.

رضي الله عن الصحابي الجليل، العَقَبِيَ البَدْرِيَ، العالم العامل، المحدّث الفقيه، الحافظ القاضي، السفير المجاهد، مُعَاذ بن جَبَل الأنصاريّ الخزرجيّ.

---

(١) تهذيب الأسماء اللغات (٢/١٠٠).

أبو موسى الأَشْعَرِيّ
الصّحابيّ السّفير القائد

«سيِّد الفوارس أبو موسى»

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

نسبه

أبو موسى الأَشْعَرِيّ هو: عبد الله بن قَيْس بن سُلَيْم بن حَضَّار[١] بن حَرْب بن عامِر بن غَنْم بن بكر بن عامِر بن عَدِيّ[٢] بن وائل بن ناجِيَة ابن الجُماهِر بن الأَشْعَر، وهو نَبْت بن أُدَد بن زيد بن يَشْجُب بن عَرِيب ابن زَيْد بن كَهْلاَن بن سَبَأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان[٣].

أمّه: ظَبْيَة بنت وَهْب، من عَكّ[٤]، وقد كانت أسلمت وماتت بالمدينة[٥].

---

(١) طبقات ابن سعد (١٠٥/٤) والإستيعاب (٩٧٩/٣)، أما في: جمهرة أنساب العرب (٣٩٧) فورد: هَضّار.

(٢) جمهرة أنساب العرب (٣٩٧)، أما في طبقات ابن سعد (١٠٥/٤)، فورد: عَذَر.

(٣) طبقات ابن سعد (١٠٥/٤)، وانظر أنساب الأشراف (٢٠١/١) وجمهرة أنساب العرب (٣٩٧).

(٤) بنو عَك بن الدِّيث بن عَدْنان، انظر: جمهرة أنساب العرب (٣٢٨).

(٥) طبقات ابن سعد (١٠٥/٤) والاستيعاب (٩٧٩/٣)، وفي المعارف (٢٦٦): ان اسم أمّه: طُفية، وهو تصحيف من ظبية.

وكان لأبي موسى إخوة، منهم: أبو عامر بن قيس، وأبو بُرْدَة بن قيس، وأبو رُهْم بن قيس[1]، وإبراهيم بن قيس، ومَجْرِيّ[2]، ونعود إلى ذكر لمحات من سيرتهم في الحديث على: «أبي موسى إنساناً» في هذا البحث بعد قليل.

وأبو موسى من الأشْعَرِيّين، من اليمن[3]، وُلد بـ(زَبِيْد)[4] باليمن.

ولا نعرف شيئاً عن أيامه الأولى، ولا علم لنا بتفاصيل حياته قبل إسلامه، وقد بدأت تلك التفاصيل في الظهور بعد إسلامه لا قبل ذلك، فسجل له المؤرخون والمحدِّثون والفقهاء وكتاب السِّيرة كثيراً من الأحداث والحوادث قاضياً وسفيراً، ووالياً وقائداً، محدِّثاً وفقيهاً، وفاتحاً ومجاهداً، فهو بحق ابن الإسلام، عُرف بالإسلام، ولم يُعرف قبل اعتناقه.

مع النبيّ صلى الله عليه وسلم

١ . المهاجر المجاهد

قدمأبو موسى الأشعري مكّة مع إخوته في جماعة من الأشعريين، فحالف سعيد بن العاص بن أُمَيَّة أبا أُحَيْحَة[5]، ثمّ أسلم بمكة[6] وأسلم

(١) المعارف (٢٦٦).

(٢) في جمهرة أنساب العرب (٣٩٧) ذكر إخوته: ابو رهم: وإبراهيم، وعامر أبو بردة، ومجرىّ، وذكر المحقق في الهامش (٢): مجدي صوابه بالراء وإن رسم خطأ بالدال أيضاً في الإصابة (٧٧٢٣).

(٣) المعارف (٢٦٦).

(٤) زبيد: اسم وادٍ به مدينة غلب عليها اسم الوادي فلا تعرف إلا به، وهي مدينة باليمن مشهورة انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٥/٤).

(٥) سعيد بن العاص بن أمية: من أشراف قريش، وهو جد سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص الذي ورد ذكره في الإصابة (٩٨/٣) وأسد الغابة (٣٠٩/٢) والاستيعاب (٦٢١/٢)، وانظر نسب أبي أحيحة في: جمهرة أنساب العرب (٨٠).

(٦) طبقات ابن سعد (١٦/٦) وأسد الغابة (٢٤٥/٢) والإصابة (١١٩/٤) والاستيعاب (٩٧٩/٣).

إخوته معه[1]، وهاجر إلى أرض الحبشة[2]، وقيل: بل رجع إلى بلاده وقومه ولم يُهاجر إلى أرض الحبشة[3]. والصّحيح أنّ أبا موسى انصرف إلى قومه بعد إسلامه، فاقام بها، ثمّ قدم مع إخوته وبعض الأشعريين من قومه في نحو خمسين رجلاً في سفينة، فألقتهم الرِّيح إلى النَّجاشِي بأرض الحبشة، فوافقوا خروج جعفر بن أبي طالب منها عائدين إلى المدينة المنوّرة، فأتوا معهم. وقدمت السفينتان معاً: سفينة جعفر وأصحابه، وسفينة أبي موسى وأصحابه الأَشْعَريين، على النبيّ ﷺ، حين فتح خَيْبَر[4]. ولما علم النبي ﷺ بقدوم أبي موسى وجماعته من الأشعريين، بشَّر أصحابه بمقدمهم قائلاً: «يقدم عليكم أقوام هم أرق منكم قلوباً»، فقدم الأشعريّون فيهم أبو موسى. ولما دنوا من المدينة المنوّرة، جعلوا يرتجزون:

اليومَ نَلْقَى الأَحِبَّهْ ... مُحَمَّداً وصَحْبَهْ[5]

ولما نزلت الآية الكريمة: ﴿**فسوف يأتي الله بقوم، يحبهم ويحبونه**﴾[6]، قال الرسول ﷺ: «**هم قوم هذا**»، يعني: أبا موسى الأشْعَرِيّ[7].

وكانت خَيْبر أوّل مشاهد أبي موسى[8]، وكانت غزوة خيبر في شهر

(١) المعارف (٢٦٦).
(٢) سيرة ابن هشام (٣/٤١٦) وجوامع السيرة (٥٨).
(٣) أسد الغابة (٣/٢٤٥) والإصابة (٤/١١٩) والاستيعاب (٣/٩٨٠).
(٤) طبقات ابن سعد (٤/١٠٦) وأسد الغابة (٣/٢٤٥) والإصابة (٤/١١٩) والاستيعاب (٣/٩٨٠).
(٥) طبقات ابن سعد (٤/١٠٦).
(٦) سورة المائدة، آية ٥٤.
(٧) طبقات ابن سعد (٤/١٠٧).
(٨) طبقات ابن سعد (٦/١٦).

محرّم من السَّنَة السّابعة الهجريّة[١]، ولما فتح المسلمون خَيْبَر، كلم رسول الله ﷺ أن يُشْرِكوا جعفراً وأصحابه بالغنيمة، ففعلوا[٢].

نستطيع أن نتبيّن مما سَبَقَ، أنّ إسلام أبي موسى الأشعري وإخوته كان قديماً، فقد قدموا مكَّة للتكسُّب، وكانت مكّة مركزاً دينيّاً ومركزاً تجاريّاً، يجد فيها مَنْ لا يجد في بلده وسيلة للعيش وعملاً يعينه على كسب قوته وقوت مَنْ يعول، وكان أهل اليمن منذ القدَم حتى اليوم يقصدون مكّة للتكسّب بوسيلة أو بأخرى. وكان لا بُدّ لمن يلجأ إلى مكّة من موطنه، أن يُحالف أحد سادات قُريش ليعيش في كنفه آمناً مطمئناً، فحالف أبو موسى سعيد بن العاص أبا أحَيْحَة، فلما علم بأخبار النبي ﷺ التي شاعت بين الناس في مكّة وما حولها ومَنْ حولها، أسلم وأسلم إخوته الذين كانوا معه. ولم تقف قريش مكتوفة الأيدي تجاه الإسلام والمسلمين بعد تفشّي الإسلام في مكّة، فقاومت الإسلام والمسلمين مقاومة لا هوادة فيها ولا رحمة، فهاجر مَنْ هاجر من المسلمين إلى الحبشة وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب، وعاد أبو موسى أدراجه إلى بلده اليمن وإلى قومه، ليعيش بين ظهرانيهم آمناً مطمئناً، بعد أن انكشف اعتناقه للإسلام، وتعرّضه للأذى والتعذيب والإهانة بسبب إسلامه، فكان أمام مسلكين لا ثالث لهما: إما الهجرة إلى أرض الحبشة مع المسلمين الآخرين الذين اختاروها داراً لهم لأنّهم طوردوا في دارهم مكّة وطُردوا منها، فأصبحوا بلا دار، وإما العودة إلى بلده وقومه، حيث داره وأهله، فاختار الدار والأهل على الغُربة والتَّغَرُّب، وعاد إلى مستقرّه الأوّل ولو إلى حين.

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/٣٧٨) وجوامع السيرة (٢١١)، وفي طبقات ابن سعد (٢/١٠٦)، أنها كانت في شهر جادي الأولى من سنة سبع الهجرية، أما في أنساب الأشراف (١/٣٥٢)، فإنها كانت في شهر صفر من سنة سبع الهجرية.

(٢) طبقات ابن سعد (٢/١٠٨).

ولما علم أبو موسى بهجرة المسلمين إلى المدينة المنورة، واستدعاء المسلمين إليها لإكمال حشدهم في قاعدتهم الرئيسة، توجّه أبو موسى وإخوته والأشعرون وهم خمسون رجلاً ومعهم رجلان من بني عَكّ إلى المدينة المنوّرة، وقدموا في سفن في البحر، وكانت السّفن شراعيّة، فجرفتها الرياح إلى أرض الحبشة، حيث عاد أبو موسى وصحبه مع جعفر بن أبي طالب وصحبه. ولما وصلوا إلى المدينة، وجدوا رسول الله ﷺ في سفره بخَيْبَر ثم لقوا رسول الله ﷺ، فبايعوا وأسلموا، فقال رسول الله ﷺ: «**الأشعريون في النّاس، كصرّة فيها مِسْك**»[1].

وقد ذكر ذلك أبو بُرْدَة الأشعري أخو أبو موسى الأشعري، فقال: «خرجنا من اليمن في بضع وخمسين رجلاً من قومنا، ونحن ثلاثة إخوة: أبو موسى، وأبو رُهْم، وأبو بُرْدَة، فأخرجتنا سفينتنا إلى النجّاشيّ بأرض الحبشة وعنده جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فأقبلنا جميعاً في سفينتنا إلى النبي ﷺ حين افتتح خَيْبَر»[2].

وقال أبو موسى: «بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين أنا وأخوان لي أنا أصغرهما، أحدهما أبو بُرْدَة، والآخر أبو رُهم، وثلاثة وخمسون من قومي، فركبنا السفينة فألقتنا إلى النجّاشيّ بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر: إنّ رسول الله ﷺ بعثنا ها هنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيموا. فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر، فأسهم لنا، وما قسم لأحدٍ غاب عن خَيْبَر منها شيئاً إلاّ لمن شهد معه، إلا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه»، وهذا حديث صحيح[3]، وقال: «هاجرتم

---

(١) طبقات ابن سعد (٩٨/١ - ٤٩).
(٢) أسد الغابة (١٤٥/٥ - ١٤٦)
(٣) أسد الغابة (٣٠٩/٥) وانظر طبقات ابن سعد (١٠٥/٤ - ١٠٦).

مرتين: هاجرتم إلى النّجاشي، وهاجرتم إليّ»[١].

لقد أسلم أبو موسى وإخوته قديماً بمكّة، ثم رجعوا إلى بلاد قومهم، فلم يزالوا بها قدموا هم وناس من الأشعريين على رسول الله ﷺ[٢]، فإسلام أبي موسى وإخوته قديم، والذين قدموا معهم مسلمون أيضاً، وإلا لما رافقوهم في رحلتهم إلى الإسلام، لذلك كان إسلامهم من جديد في خَيْبَر تجديد للإسلام الذي اعتنقوه من قبل، ولم يكن إسلاماً جديداً، بل كان تجديداً للإسلام.

وبعد فتح مكة الذي كان في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية[٣]، خرج رسول الله ﷺ والمسلمون في شهر شوّال إلى غزوة (حُنين)[٤]، وبعد انهزام المشركين أرسل النبي ﷺ السرايا لمطاردة المشركين المنهزمين، وكان ممن أرسلهم أبا عامر الأشعري[٥] في آثار مَنْ توجّه إلى وادي أَوْطاس - بين مكّة والطّائف - وعقد له لواء، فكان معه في سريته سَلَمَة بن الأَكْوَع[٦]، فكان يُحدِّث قائلاً: «لما انهزمت هَوازِن، عسكروا بأَوْطَاس عسكراً عظيماً، تَفَرَّق منهم مَنْ تفرّق، وقُتِلَ مَنْ قتَل، وأُسر مَنْ أُسِر؛ فانتهينا إلى عسكرهم فإذا هم ممتنعون، فبرز رجل فقال: مَنْ يبارز؟ فبرز له أبو عامر فقال: اللّهم اشهدْ! فقتله أبو عامر، حتى قتل

---

(١) طبقات ابن سعد (١٠٦/٤).

(٢) أسد الغابة (٣٠٨/٥).

(٣) طبقات ابن سعد (١٣٤/٢) وجوامع السيرة (٢٢٦).

(٤) طبقات ابن سعد (١٤٩/٢).

(٥) أبو عامر الأشعري: انظر سيرته المفصلة في: أسد الغابة (٢٣٨/٥) والإصابة (١٢٠/٧) والاستيعاب (١٧٠٤/٤).

(٦) سلمة بن الأكوع: أنظر سيرته المفصلةفي: أسد الغابة (٣٣٣/٢) والإصابة (١١٨/٣) والاستيعاب (٦٣٩/٢ - ٦٤٠) وطبقات ابن سعد (٣٠٥/٤ - ٣٠٨) وأنساب الأشراف (٣٥١/١).

تسعة كذلك. فلما كان التّاسع، برز له فارس مُعْلِمٌ يَنْحُب[1] للقتال، فبرز له أبو عامر وقتله. فلما كان العاشر، برز رجل مُعْلِمٌ بعمامةٍ صفراء، فقال أبو عامر: اللّهم اشهد! فقال صاحب العمامة الصَّفراء: اللّهم لا تشهد! فضرب أبا عامر، فأثبته، فاحتملناه وبه رَمَق، واستخلف أبا موسى الأشعري، واخبر أبو عامر أبا موسى أنّ قاتله صاحب العمامة الصَّفراء». وأوصى أبو عامر إلى أبي موسى، ودفع إليه الراية وقال: «ادفع فرسي وسلاحي للنبي ﷺ». وقاتلهم أبو موسى، حتى فتح الله عليه، وقتل قاتل أبي عامر، وجاء بفرسه وتَرِكَتِه وفرسه إلى النبي ﷺ، وقال: «إنّ أبا عامر أمرني بذلك، وقال: قُلْ لرسول الله ﷺ يستغفر لي»، فقام رسول الله ﷺ فصلّى ركعتين، ثم قال: **«اللّهمّ اغفر لأبي عامر، واجعله من أعلى أمّتي في الجنّة»**، وامر بِتَرِكَةِ أبي عامرٍ، فدُفعت إلى ابنه. فقال أبو موسى: «إني أعلم أنّ الله قد غفر لأبي عامر يا رسول الله، قُتل شهيداً، فادْعُ الله لي»، فقال: **«اللّهم اغفر لأبي موسى، واجعله في أعلى أمّتي»**[2]، وقيل: إنّ أبا موسى قتل يومئذ تسعة إخوة من المشركين: «يدعو كلّ واحد إلى الإسلام، ثم يحمل عليه فيقتله[3]، فدعا النبي ﷺ له قائلاً: **«اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً»**[4].

ولما أراد النبي ﷺ العودة إلى المدينة المنوّرة، استعمل عتَّاب بن

---

(١) نحب: أجهد السير، انظر الصّحاح (٢٢٢).

(٢) مغازي الواقدي (٣/٩١٥ - ٩١٦) وانظر فتح الباري بشرح البخاري (٨/٣٥) حول دعاء النبي ﷺ لأبي موسى.

(٣) جوامع السيرة (٢٤١).

(٤) فتح الباري بشرح البخاري (٨/٣٥).

أَسِيْد[1] على مكّة، وخلف مُعاذ بن جَبَل[2] وأبا موسى الأشعري يعلّمان الناس القرآن والفِقه في الدِّين. وقال عليه الصلاة والسّلام لَعتَّاب: «أتدري على مَنْ استعملتك؟»، قال: «الله ورسوله أعلم!»، قال: «استعملتك على أهل الله! بلِّغ عني أربعاً: لا يَصْلُح شَرْطانِ في بَيْعٍ، ولا بَيْعٌ وسَلَفٌ، ولا بَيْعٌ مالم يُضْمَن، ولا تَأْكُلْ رِبْحَ ما ليس عندك»[3].

٢. السَّفير النَّبويّ

كتب النبيﷺ إلى ملوك اليمن من أبناء عبد كُلال من حِمْيَر، يدعوهم إلى الإسلام، وكان نصّ الكتاب النبويّ إليهم:

بسم الله الرحمن الرّحيم

إلى: الحارث ومسروح[4] (الصّواب شُرحَبِيْل) ونُعَيْم بن عبد كُلال.

سِلْمٌ أنتم ما آمَنْتُم بالله ورسوله، وأنّ الله وحده لا شريك له، بعث موسى بآياته، وخلق عيسى بكلماته، قالت اليهود: عُزَيْرٌ ابن الله، وقالت النّصارى: الله ثالث ثلاثة، عيسى ابن الله»[5].

علامة الختم: **الله رسول محمد**

---

(١) عتاب بن أسيد: انظر سيرته المفصلة في: اسد الغابة (٢٥٨/٣ - ٢٥٩) والإصابة (٢١١/٤ - ٢١٢) و الاستيعاب (١٠٢٣/٣ - ١٠٢٤) والمعارف (٢٨٣).

(٢) انظر سيرته المفصّلة في كتاب: سفراء النبيﷺ.

(٣) مغازي الواقدي (٩٥٩/٣).

(٤) ليس لمسروح ذكر في المصادر المعتمدة، ولا أخ لأبناء عبد كُلال بهذا الاسم، والأخ المعروف لأبناء عبد كلال هو: شرحبيل، ويمكن أن يكون هذا التغيير من خطأ النّساخ.

(٥) طبقات ابن سعد (٢٨٢/١-٢٨٣).

وقد حمل هذا الكتاب النبوي إلى هؤلاء الملوك اليمنيين من أبناء عبد كُلال المهاجر بن أُمَيّة المخزومي[1]، وقد أرسل الكتاب بعد فتح مكّة لا قبل الفتح، لأنّ مكّة كانت قبل فتحها بيد المشركين، وكانت الحاجز بين المنطقة الإسلامية التي مقرّها المدينة، وبين المنطقة غير الإسلاميّة التي مقرّها مكّة، وتمتد إلى الجنوب عمقاً لتشمل اليمن وجنوبيّ الجزيرة العربية.

وقد كاتب النبي ﷺ أهل اليمن سنة تسع الهجرة[2]، لا قبلها.

وفي شهر رمضان من السنة التّاسعة الهجرية، قدم على رسول الله ﷺ كتاب ملوك حِمْيَر مقدمه من غزوة تَبوك، وحمل كتاب ملوك حمير بإسلامهم، مالك بن مُرارة الرَّهاويّ، وهؤلاء الملوك هم: الحارث بن عبد كُلال، ونُعيم بن عبد كُلال، والنُّعمان قَيْل[3] ذي رُعَيْن[4]، وهَمْدَان[5]، ومَعَافِر[6]. كما بعث زُرْعة ذو يَزَن إلى النبيّ ﷺ مع مالك بن مُرارة الرَّهاوي أيضاً بإسلامه وإسلام ملوك اليمن من أبناء عبد كُلال ومفارقتهم الشِّرك وأهله[7].

---

(1) انظر سيرته المفصّلة في كتاب: سفراء النبي ﷺ.

(2) أسد الغابة (٣/٣٦٨).

(3) القيل: يقال هو الملك. ويقال هو دون الملك الأعلى، وهذا هو الأكثر وسمي بذلك لأنه ذو القول. أي الذي إذا قال لم يرد أحد قوله.

(4) رعين: مخلاف (محافظة) من مخاليف اليمن. سمي بالقبيلة اليمنية باسم: ذي رعين، واسمه:يرين بيائين. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٦٣).

(5) همدان: قبيلة يمنية مشهورة النسبة إليها: هَمَداني، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٣٩٣ - ٣٩٥) و (٤٧٥ - ٤٧٦).

(6) معافِر: مخلاف (محافظة) باليمن. تنسب إليها الثياب المعافريّة، سمى بالقبيلة اليمنية: معافر بن يعفُر بن مالك بن الحارث بن مُرّة. ويمتدّ نسبه إلى سبأ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٩٢)

(7) طبقات ابن سعد (١/٣٥٦) سيرة ابن هشام (٤/٢٥٨) والطبري (٣/١٢٠) وإعلام السائلين لابن طولون (١٥) واليعقوبي (٢/٨٧) وإمتاع الأسماع للمقريزي (١/٤٩٥).

وقد كتب النبي ﷺ إلى أهل اليمن كتاباً يُخبرهم فيه بشرائع الإسلام وفرائض الصَّدقة والمواشي والأموال، ويوصيهم بأصحابه ورسله خيراً، وكان رسوله إليهم مُعاذ بن جَبَل ومالك من مُرارة[1].

وقد حمل مُعاذ ومالك هذا الكتاب النبويّ إلى اليمن بعد شهر رمضان من السنة التاسعة الهجريّة: في شهر شَوّال أو شهر ذي القعدة من السنة التاسعة الهجرية، فهذا هو الوقت المناسب لإرسال هذا الكتاب النبوي الجوابي على رسالة ملوك اليمن التي حملت نبأ إسلامهم.

وفي سنة عشر الهجريّة، أسلم باذان عامل كسرى على اليمن وبعث إلى النبيّ ﷺ بإسلامه[2]، وكان رسول الله ﷺ قد جمع لباذان الفارسيّ حين أسلم وأسلمت اليمن عَمَل اليمن كلّها، وأمَّره على جميع مخاليفها، فلم يزل عامل رسول الله ﷺ أيّام حياته، فلم يعزله عنها ولا عن شيء منها، ولا أشرك معه شريكاً حتى مات باذان، فلما مات فرّق عَمَل اليمن بين جماعة من أصحابه، وكان ذلك سنة عشر الهجريّة بعد حجّة الوداع، فكان من عماله عليه الصّلاة والسلام أبو موسى الأشعري[3]، وبهذا أصبح أبو موسى عاملاً من عمّال النبيّ ﷺ[4].

---

(١) انظر نصّ الكتاب في: الطبري (٣/١٢١ - ١٢٢) وسيرة ابن هشام (٤/٢٥٩ - ٢٦٠) واليعقوبي (٢/٨٧ - ٨٩) وأسد الغابة (٢/٢٠٣) والإصابة (٤/٢٩٣) والقسطلاني (١/٢٧٩)، وقد أخرجه أبو داود وابن حبّان والدّارميّ، انظر الإصابة (٤/٢٩٣)، وانظر النص في: كنز العمّال (٢/٤٩٤ - ٤٩٦) على هامش مسند الإمام أحمد بن حنبل، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (١٤٤ - ١٤٨).

(٢) الطبري (٣/١٥٨)، وباذان: باذام، وانظر ما جاء على باذان في: أسد الغابة (١/١٦٣).

(٣) الطبري (٣/٢٢٧-٢٢٨).

(٤) انظر أسماء عماله عليه الصلاة والسلام في: أنساب الأشراف (١/٥٢٩).

ولكنّ أبا موسى الأشعري، قبل أن يصبح عاملاً من عُمّال النبيّ ﷺ، كان رسولاً من رسله إلى ملوك زمانه، أو ما نطلق عليه في المصطلحات السياسيّة الحديثة: سفيراً من سفراء النبيّ ﷺ، فقد «أرسل أبا موسى الأشعري ومُعاذ بن جَبَل إلى جملة اليمن داعين إلى الإسلام، فأسلم عامّة أهل اليمن: ملوكهم، وسوقتهم»[١]، نستدل من ذلك، أنّ أبا موسى كان في اليمن حين تُوفي باذان الفارسي، ففرّق النبيّ ﷺ عُمّاله على مخاليف اليمن، فالتحق أبو موسى بمنصبه الجديد عاملاً بالإضافة إلى واجبه الأصلي سفيراً وقاضياً ومرشداً وداعياً إلى الإسلام، يُعلِّم الناس القرآن وشرائع الإسلام، ويقبض الصّدقة، ويوزّعها على مستحقيها من أهل مخاليفه، ويرسل ما تَبَقّى منها إلى عامل العُمّال مُعاذ بن جَبَل[٢].

فمتى بعث النبيّ ﷺ أبا موسى سفيراً إلى اليمن؟

لقد بعثه النبيّ ﷺ مع مُعاذ بن جَبَل، الذي قصد اليمن في شهر شوّال أو شهر ذي القعدة من السنة التّاسعة الهجريّة، وقد رأينا أن أبا موسى كان مع مُعاذ في مكة بعد فتحها يُعلّمان النّاس القرآن والفِقْه في الدين[٣]، وأنّه أرسلهما معاً إلى جملة اليمن داعين إلى الإسلام كما ذكرنا ذلك قبل قليل، فمن المرجّح أنهما قصدا اليمن في وقت واحد، ليتعاونا في تأدية واجبهما في الدّعوة إلى الله، يؤيد ذلك ما جاء في حديث الإمام أحمد بن حنبل الذي يرد في بحث أبي موسى : القاضي.

وكان الكتاب النبويّ الذي حمله مُعاذ بن جبل إلى أهل اليمن يخبرهم فيه بشرائع الإسلام وفرائض الصّدقة والمواشي والأموال،

---

(١) تهذيب الأسماء واللّغات (١/٣٠).
(٢) أنساب الأشراف (١/٥٢٩).
(٣) مغازي الواقدي (٣/٩٥٩).

ويوصيهم بأصحابه ورسله خيراً[1]، هو الذي طبِّق في اليمن كلِّها لا في منطقة من مناطقها فحسب، وهو الذي أصبح سُنَّة نبويّة لا تزال تُطبق حتى اليوم، وقد نفذ ما جاء فيه نصّاً وروحاً جميع سفراء النبيّ ﷺ وعُمّاله، ولم يقتصر على مُعاذ ومَنْ جاء ذكرهم في ذلك الكتاب.

ولعلّ الدليل العملي على نجاح أبي موسى سفيراً في اليمن، هو إقراره على واجبه، وتكليفه بواجب إضافيّ جديد، هو أن يُصبح عاملاً من عُمّال النبيّ ﷺ على منطقة شاسعة من مناطق اليمن، ولو لم ينجح في مهمّته سفيراً لما أُقِرّ على عمله، وأُضيف إليه عَمَلٌ جديد.

٣. الثِّقة

كان أبو موسى موضع ثقة النبيّ ﷺ به، فقد كان أحد اثنين أُذِنا عليه[2]: الأول رَباح الأسود مولاه[3]، والثاني أبو موسى الأشعري، وهذا دليل على مبلغ ثقة النبيّ ﷺ بـه وبعقله وحسن تصرّفه وأمانته وصدقه.

ولما وُلد لأبي موسى غلام، أُتي به النبيّ ﷺ، فسمّاه: إبراهيم، وحنّكه بتمرة[4]، وهذا دليل على مبلغ حبّ النبيّ ﷺ لأبي موسى ومبلغ تقديره له.

ولما تُوفي باذان سنة عشر الهجريّة، وزّع النبيّ ﷺ عَمَل اليمن على قسم من اصحابه، وكان ذلك بعد حجّة الوَداع، فكان أبو موسى أحد

---

(١) انظر نص الكتاب في الطبري (٣/ ١٢١ ـ ١٢٢) وسيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠) واليعقوبي (٢/ ٨٧-٨٩).

(٢) جوامع السيرة (٢٧).

(٣) رباح الأسود: انظر سيرته في أسد الغابة (٢/ ١٩٠) والإصابة (٢/ ١٩٣) والاستيعاب (٢/ ٤٨٧).

(٤) طبقات ابن سعد (٤/ ١٠٧).

عمّاله، فولاّه زَبِيْد[1] وعَدَن[2] ورِمَع[3] والسَّاحِل[4]، فكان في هذه المنطقة الواسعة والياً وقاضياً ومعلّماً ومرشداً وداعياً، وهي موطنه الأصلي وبين قومه الذين استجابوا له وعاونوه على تحمّل أعباء واجباته وتعاونوا معه في معالجة ما صادفه من معضلات ومشاكل، وأعانوه على حلّها بسهولة ويُسر.

ولم يُعزل أبو موسى عن عمله في اليمن، كما لم يُعزل غيره من عمّالها في حياة النبيّ ﷺ[5]، حتى ظهر الأَسْوَدالعَنْسِيّ في اليمن، وارتد مَن ارتدّ معه، فانحاز أبو موسى مقتحماً حضرموت[6] حتى نزل السَّكاسِك[7]، حيث بدأ العمل مع إخوانه للقضاء على المرتدين[8].

---

(١) زَبِيْد: اسم وادٍ به مدينة يقال لها: الحُصَيْب، ثمّ غلب عليها اسم الوادي، فلا تُعرف إلا به، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٥/٤-٣٧٦)، وهي مدينة يمنية على وادٍ مشهور في اليمن.

(٢) عدن: مدينة مشهورة على ساحل بحر العرب من ناحية اليمن رديئة لا ماء بها ولا مرعى، وعدن مرفأ مراكب الهند وغيرها والتجار يجتمعون إليه، فإنها بلدة تجارة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٢٦/٦-١٢٨).

(٣) رمع: قرية أبي موسى ببلاد الأشعريين قرب غسّان وزبيد، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٨٥/٤).

(٤) السّاحل: موضع من أرض العرب بعينه، انظر معجم البلدان (٧/٥)، ويطلق على: ساحل المندب، انظر معجم البلدان (٣٧٦/٤)، وانظر تولية أبي موسى في: الإصابة (١١٩/٤) وجوامع السيرة (٢٣) والطبري (٢٢٨/٣) وابن الأثير (٣٣٦/٢) وأنساب الأشراف (٥٢٩/١) وتاريخ خليفة بن خياط (٦٢/١).

(٥) الطبري (٢٢٩/٣).

(٦) حَضْرَمَوْت: بلاد واسعة شرقي عدن بقرب البحر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٩٢/٣-٢٩٥).

(٧) بنو السكاسك بن أَشْرَس بن كِنْدة بن عدي بن الحارث بن مُرَّة بن أُدَد بن زيد بن يَشْجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٤١٨-٤٣١).

(٨) انظر التفاصيل في الطبري (٢٢٧/٣-٢٣٠).

كلّ ذلك يدلّ دلالة واضحة على أنّ أبا موسى كان موضع ثقة النبيّ ﷺ الكاملة به، فقرّبه واعتمد عليه في كثير من الأعمال.

لقد نال أبو موسى، شرف الصُّحبة، وشرف الجهاد تحت لواء النبيّ ﷺ وتحت ألوية الإسلام، وشرف العمل في الإدارة والقضاء والدعوة والإرشاد لخدمة الإسلام والمسلمين.

جهاده

١. في حرب الرِدَّة

أ. اسم الأسود العَنْسِيّ: عَيْهَلة بن كعب بن عَوْف العَنْسِيّ، وَعَنْس بطن من مَذْحِج وكان يُلَقّب: ذا الخِمار، لأنّه كان مُعْتَماً مُتَخَمِّرا أبداً.

وكان النبيّ ﷺ قد جمع لباذان حين أسلم وأسلم أهل اليمن عمل اليمن جميعه، وأمّره على جميع مخاليفه، فلم يزل عاملاً عليه حتى مات. فلما مات باذان فرّق رسول الله ﷺ أُمراءه في اليمن[1]، ومنهم كما ذكرنا - أبو موسى - وكان مُعاذ بن جَبَل يتنقّل في عمالة كلّ عامل باليمن وحَضْرموت.

ولما عاد رسول الله ﷺ من حجّة الوداع، وتمرّض من السَّفر غير مرضه الأخير، بلغ الأسود ذلك، فادّعى النبوّة، وكان مُشَعْبِذاً يريهم الأعاجيب، فاتبعته مَذْحِج، وكانت رِدّة الأسود أوّل ردّة في الإسلام، على عهد رسول الله ﷺ، وغزا الأسود نَجْران، فأخرج عنها مَنْ قاومه من المسلمين، وسار عن نجران إلى صنْعاء، فانحاز مُعاذ بن جبل إلى أبي موسى، فلحقا بحضرموت.

---

(١) انظر أسماء أمراء النبيّ ﷺ في اليمن وحضرموت في: الطبري (٣/٢٢٨-٢٢٩) وابن الاثير (٢/٣٣٦).

واستتب الأمر للأسود في اليمن، ولحق أمراء اليمن بجبال عَكّ وجبال صنعاء، وغلب الأسود على ما بين مفازة حضرموت إلى الطّائف إلى البحرين والأحساء وعدن، واستطار أمره كالحريق واستغلظ.

وكان الأسود قد تزوّج امرأة شهر بن باذان بعد قتله، وخاف مَنْ بحضرموت من المسلمين أن يبعث إليهم جيشاً أو يظهر بها كذّاب آخر، فتزوّج مُعاذ إلى السَّكُون[1]، فعطفوا عليه.

وجاء إليهم وإلى منْ باليمن من المسلمين، كتُب النبيّ ﷺ، يأمرهم بقتال الأسود، فقام مُعاذ بن جبل في ذلك، وقويت نفوس المسلمين، وعاونه أمراء النبيّ ﷺ والمسلمون في اليمن، فقتل فيروزُ[2] الأسود في بيت زوجته التي كانت امرأة شهر بن باذان وتزوجها الأسود من بعده، وهي ابنة عمّ فيروز، وتراجع المسلمون إلى أعمالهم، وعاد أبو موسى إلى عمله، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه، وذلك في حياته الكريمة. ولكن رُسل أهل اليمن قدمت المدينة، وقد تُوفي رسول الله ﷺ. وكان أوّل أمر العَنْسِيّ إلى آخره ثلاثة أشهر، وقيل: قريب من أربعة أشهر، وكان قدوم البشير بقتله في آخر ربيع الأول من سنة إحدى عشرة الهجريّة بعد موت النبيّ ﷺ، فكان أوّل بشارة أتت أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه وهو بالمدينة[3].

وهكذا انتهت فتنة الأسود العَنْسِيّ بالاخفاق الذّريع، وعادت الأمور في اليمن إلى مجراها الطبيعيّ.

---

(١) السَّكون بن أَشْرس بن كِنْدة بن عديّ بن الحارث بن مرَّة بن أُدَد بن زيد بن يَشْجُب ابن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ: انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٤١٨-٤٢٩).

(٢) انظر سيرته في: أسد الغابة (١٨٦/٤).

(٣) انظر التفاصيل في: الطبري (٢٢٧/٣-٢٤٠) وابن الأثير (٣٣٦/٢-٣٤١).

ب - ولما هلك الأسود العَنْسِيّ، بقي طائفة من أصحابه يتردّدون بين صنعاء ونَجْران، لا يأوون إلى أحد. ومات النبيّ ﷺ، فارتد الناس. وكان العَك أوّل منتقض ثم تجمّع عَكّ والأشعريون، فصاولهم مَنْ ثبت على الإسلام من عَكّ وانتصروا عليهم.

وأما أهل نَجْران، فلما بلغهم موت النبي ﷺ، أرسلوا وفداً ليجدّدوا عهدهم مع أبي بكر، فكتب بذلك كتاباً.

وأما بَجِيْلة، فإنّ أبا بكر ردّ جرير بن عبد الله البَجَلِيّ، وأمره أن يستنفر من قومه مَنْ ثبت على الإسلام، ويقاتل بهم مَنْ ارتدّ عن الإسلام، فخرج جرير وفعل ما أمره به أبو بكر فلم يقم له أحد إلا نفر يسير، فقتلهم وتتبّعهم.

وكان مصير مَنْ ارتد من أهل اليمن مصير مَنْ ارتد من بَجِيلة وعَكّ والأشعريين فعاد المرتدون إلى الإسلام بعد أن تكبّدوا خسائر فادحة بالأرواح والأموال[١]، وكان ذلك سنة إحدى عشرة الهجريّة وكان لثبات أبي موسى وأمراء النبيّ ﷺ الآخرين مع مَنْ ثبت على الإسلام أثر كبير في انتصار المسلمين على أهل الرِدّة من أهل اليمن وعودتهم إلى الإسلام.

وبقي أبو موسى على زَبِيْد ورِمَع وعَدَن والسَّاحل طيلة أيام أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه[٢].

٢. في الفتوح

أ. آثر أبو موسى بعد وفاة أبي بكر الصديق، أن يصبح غازياً على أن يبقى واليا، فحقّق له عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما أراد، ونقله من منصب القضاء، فقد كان قاضياً لعمر.

(١) انظر التفاصيل في: الطبري (٣/٣١٨-٣٤٢) وابن الأثير (٢/٣٧٤-٣٨٣).

(٢) الطبري (٣/٤٢٧) وابن الاثير (٢/٤٢١).

وكان ميدان جهاد أبي موسى، هو ميدان العراق، بقيادة سعد ابن أبي وقاص، وفي سنة سَبع عشرة الهجريّة، كتب عمر إلى سعد: «إذا فتح الله الشّام والعراق، فابعث جنداً إلى الجزيرة، وأمّر عليه خالد بن عُرْفُطة أو هاشم بن عُتَبة أو عياض بن غَنْم»[١]، فقال سعد: ما أخّر أمير المؤمنين عِيَاضاً إلا لأنّ له فيه هوىً، وأنا مولّيه»، فبعثه وبعث معه جيشاً فيه أبو موسى الأشعري.

وسار عياض ونزل بجنده على الرُّهاء[٢]، فصالحه أهلها على مثل صلح حَرَّان[٣]، وبعث أبا موسى إلى نَصِيْبِيْن[٤] فافتتحها[٥].

ولا نعلم بالضّبط، متى سمح عمر بن الخطّاب لأبي موسى بالتّخلّي عن ولايته في اليمن ومنصبه القضائي بالمدينة والاقبال على الجهاد في ساحاته، فقد تُوفي أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وأبو موسى أحد عمّاله في اليمن، وكانت وفاة أبي بكر في شهر ذي القعدة من سنة ثلاث عشرة الهجريّة[٦]، ولم يُذكر أبو موسى في سُوْح الجهاد إلاّ في سنة سبع عشرة، فهل بقي في اليمن هذه المدة، أم غادرها دون أن يذكر المؤرخون عن تاريخ مغادرته شيئاً؟ ومتى تولّى منصب القضاء في المدينة لعمر؟

---

(١) انظر سيرة خالد بن عرفطة وهاشم بن عتبة وعياض بن غنم في: قادة فتح العراق والجزيرة.

(٢) الرهاء: مدينة تقع على إحدى روافد نهر البَلِيخ، وكانت مدينة محصّنة.

(٣) حرَّان: تقع شرقي الفرات، قرب منبع نهر البَلِيخْ: وهي مدينة الصَّابئين، وهي مدينة نزهة عليها حصن من حجارة حسن البناء، وسورها مبنيّ بالحجارة بينها وبين الرُّهاء يوم، وبين الرّقة وبينها يومان.

(٤) نَصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل سبعة أيام، تقع على نهر الهرماس.

(٥) ابن الأثير (٥٣٣/٢) وانظر الطبري (٥٣/٤).

(٦) العبر (١٦/١).

كما أنّ أبا موسى لم يفتح نَصِيبين، ولم يكن مع عِياض بن غَنْم فاتح الجزيرة، وقد ذكرنا ذلك لإحقاق الحق، وفَتْحُ الجزيرة مبسوط في كتاب: قادة فتح العراق والجزيرة.

ولم يلتحق أبو موسى بأبي عُبيدة بن الجرّاح بأرض الشام بعد فتح الجزيرة، فشهد بعض فتوحات الشّام تحت لواء أبي عُبيدة[1]، كما لم يكن مع أبي عبيدة حين مات بالطّاعون[2]، لأنّه كان سنة سبع عشرة الهجرية وثماني عشرة الهجريّة والياً على البصرة وفي الفتوح في مناطق شرق العراق كما سنذكر ذلك وشيكا إذ كان أبو موسى حينذاك في البصرة ولم يكن في الشّام، وقد ذكرنا ما ذكرنا لِنُنَبِّه عليه[3].

ب. ولما عزل عمر بن الخطّاب المُغَيْرة بن شُعْبة[4] عن البصرة، استعمل أبا موسى الأشعري عليها، وذلك سنة سبع عشرة الهجريّة[5]، وكانت البصّرة حينذاك من أكبر القواعد الإسلامية في المشرق الإسلاميّ، منها تُسَيِّر الجيوش لفتوح المشرق.

وكتب كسرى يَزْدَجِرد إلى أهل فارس، وهو يومئذٍ بـ(مَرْوُ)[6] يذكِّرهم الأحقاد ويؤنِّبهم: «أنْ قد رضِيتم يا أهل فارس، أن قد غلبتكم العرب على السّواد وما والاه، والأهواز، ثم لم يرضوا بذلك

---

(١) الإصابة (١٢٠/٤).
(٢) الطبري (٦١/٤) وأسد الغابة (٢٤٦/٣).
(٣) ابن الأثير (٥٦٠/٢).
(٤) انظر سيرته المفصّلة في كتاب: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٣١-٤٥٥).
(٥) الطبري (٦٩/٤) وابن الأثير (٥٤٠/٢) وانظر طبقات ابن سعد (١٠٩/٤) والإصابة (١١٩/٤).
(٦) مرو: أشهر مدن خُراسان وقصبتها، وهي مَرْوُ الشّاهجان وهي مرو العظمى. ومَرْوُ الرُّوذ وهي قريبة من الأولى، انظر التفاصيل في: معجم البلدان (٣٢/٨-٣٨).

حتى توردّوكم في بلادكم وعُقْر داركم!!»، فتحرّكوا وتعاهدوا وتواثقوا على النصر.

وجاءت الأخبار إلى عمر بن الخطّاب والمسلمين في كلّ مكان، فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقّاص في الكوفة: «أنْ أبعث إلى الأهواز جنداً بعثاً كثيفاً مع النُّعمان بن مُقَرِّن[1]، وعَجِّلْ وابعث سُوَيْد بن مُقَرِّن[2]، وعبدالرحمن بن ذى السَّهْمين[3]، وجرير بن عبد الله الحِمَيْري[4]، وجرير بن عبد الله البَجَلي[5]، فلينزلوا بإزاء الهُرمزان[6] حتى يَتَبَيَّنوا أمره».

وكتب إلى أبي موسى في البصرة: «أنْ ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً، وأمِّر عليهم سَهْل بن عَدِيّ[7] - أخا سُهَيْل بن عُدِيّ[8] - وابعث معه البُراء بن مالك[9]، وعاصم بن عمرو[10]،

---

(١) انظر سيرته المفصّلة في: قادة فتح بلاد فارس (٩٧-١٠٧).

(٢) انظر سيرته المفصّلة في: قادة فتح بلاد فارس (١٩٥-٢٠١).

(٣) عبد الرحمن بن ذي السَّهْمين: من أبناء معاوية ذي السّهمين بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صعْصَعَة انظر جمهرة أنساب العرب (٢٨١).

(٤) جرير بن عبد الله الحميري: انظر سيرته في أسد الغابة (٢٧٩/١) والإصابة (٢٤٣/١).

(٥) جرير بن عبد الله البجلي: انظر سيرته في: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٦-٣٧١).

(٦) الهرمزان: قائد من قادة الفُرس، أُسِر، وعاش بالمدينة واتّهم بقتل عمر بن الخطاب، فقتله عبيدالله بن عمر بن الخطّاب.

(٧) سهل بن عدي: انظر سيرته في أسد الغابة (٣٦٨/٢) والإصابة (١٤١/٣).

(٨) سهيل بن عدي الأنصاري الخزرجي: انظر سيرته المفصّلة في: قادة فتح العراق والجزيرة.

(٩) البراء بن مالك: انظر سيرته في أسد الغابة (١٧٢/١) والإصابة (١٤٧/١) والاستيعاب (١٥٣/١).

(١٠) عاصم بن عمرو التّميمي: انظر سيرته المفصّلة في: قادة فتح فارس (٢٧٩-٢٨٩).

ومَجْزَأَة بن ثور[1]، وكعْب بن سُوْر[2]، وعَرْفَجَة بن هَرْثمة[3]، وحُذيفة بن مِحْصن[4]، وعبدالرحمن بن سهل[5]، والحُصين بن معبد[6]، وعلى أهل الكوفة وأهل البصرة جميعاً أبو سَبْرة بن أبي رُهْم[7]، وكلُّ مَنْ أتاه فمَدَدٌ له »[8].

وخرج النُّعمان بن مُقرِّن في أهل الكوفة، فأخذ وسط السَّواد حتى قطع دِجْلة بحيال مَيْسان[9]، ثم أخذ البَرَّ إلى الأهواز على البغال يجنبون[10] الخيل، وسار قُدما نحو الهُرمزان - والهُرمزان يومئذٍ برامَهُرْمُز[11] - فلما سمع الهرمزان بمسير النُّعمان إليه، بادره بالهجوم عليه، ورجا أن يهزمه، وطمع في نصر أهل فارس، وقد

---

(١) مجزأة بن ثور السَّدُوسي: انظر سيرته في أسد الغابة (٣٠٢/٤) والإصابة (٤٤/٦).

(٢) كعب بن سور الأزدي: انظر سيرته في أسد الغابة (٣٤٣/٤) والإصابة (٣٢٢/٥).

(٣) عرفجة بن هرثمة البارقي: انظر سيرته المفصّلة في قادة فتح العراق والجزيرة (٣٨٧-٣٩٤).

(٤) حذيفة بن محصن البارقي: انظر سيرته في أسد الغابة (٣٨٩/١).

(٥) عبد الرحمن بن سهل الأنصاري: انظر سيرته في أسد الغابة (٢٩٩/٣) والإصابة (١٦٢/٣-١٦٣).

(٦) الحصين بن معبد بن النعمان: قتل في معركة الجمل مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة ست وثلاثين الهجرية، انظر الطبري (٥١٥/٤)، وانظر أخباره في الطبري (٥٠٣/٣) و(٨٤/٤و٥١٥) وهو من أهل الكوفة.

(٧) أبو سبرة بن أبي رهم القُرشي العامري: انظر سيرته المفصّلة في: قادة فتح بلاد فارس (١٥٥-١٦٠).

(٨) الطبري (٨٣/٤-٨٤).

(٩) ميسان: كورة واسعة كثيرة القرى والنّخيل، تقع بين البصرة ومدينة واسط، انظر التفاصيل معجم البلدان (٢٢٤/٨).

(١٠) يقال: جنب الدابة، إذا قادها إلى جنبه.

(١١) رامهرمز: ومعنى رام بالفارسية المراد والمقصود وهرمز أحد الأكاسرة، فكأنّ هذه اللّفظة مركّبة معناها: مقصود هرمز أو مراد هرمز: وهي مدينة مشهورة بنواحي خوزستان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢١/٤) والمسالك والممالك (٦٤).

أقبلوا نحوه، ونزلت أوائل إمداداتهم قريباً منه. والتقى النُّعمان والهُرمزان بـ(أَرْبُك)[1]، فانتصر النُّعمان على الهرمزان، وأخلى رامَهُرْمز وتركها، ولحق بـ (تُسْتَر)[2]. وسار النُّعمان من أرْبك حتى نزل برامَهُرْمز، ثم صعد لإيْذَج[3]، فصالحه قائدها عليها، فقبل منه وتركه ورجع إلى رامَهُرْمز وأقام بها.

ولما سار النُّعمان في أهل الكوفة وسبق سهل بن عَدِيّ في أهل البصرة، قصد سهل ومَنْ معه تُسْتَر للقضاء على قوات الهرمزان فيها، ومال النّعمان إلى تُسْتر أيضاً، ونزلوا جميعاً: أهل البصرة، وأهل الكوفة، على تُسْتر، وقصدها معهم المسلمون الذين كانوا في الأهواز، وبها الهُرمزان وجنوده من أهل فارس وأهل الجبال والأهواز في الخنادق. وكتب المسلمون بذلك إلى عمر بن الخطّاب، واستمده أبو سَبْرة فأمدّهم بأبي موسى.

وكان على أهل الكوفة النُّعمان، وعلى أهل البصرة أبو موسى، وعلى الفريقين أبو سَبْرة، فحاصروهم أشهراً، وأكثروا فيهم القتل. وزاحفهم الفُرس في أيام تُسْتر ثمانين زحفاً في حصارهم: يكون عليهم مرّة، ولهم أخرى، وأخيراً هزمهم المسلمون حتى أدخلوهم خنادقهم، ثم اقتحموها عليهم، وطوّقوا مدينتهم تطويقاً كاملا، حتى فتحوا المدينة وأسروا الهُرمزان.

---

(١) أربك: بلد وناحية ذات قرى ومزارع من نواحي الأهواز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/١٧٢).

(٢) تستر: أعظم مدينة في الأهواز، وهي شوشتر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٨٦).

(٣) ايذج: كورة وبلد، بين خوزستان وأصبهان، وهي أجلّ مدن هذه الكورة، تقع وسط الجبال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٨٥).

وخرج أبو سَبْرة في أثر المنهزمين من الفُرس من تُسْتر يطاردهم، وكانت فلول الفُرس قد قصدت السُّوس[1]، وخرج بالنُّعمان وأبي موسى ومعهما الهُرمزان حتى طوّقوا السُّوْس، وكتبوا بذلك إلى عمر، فكتب عمر إلى أبي موسى فردّه إلى البصرة، فانصرف أبو موسى إلى البصرة [2].

وقبل فتح تُسْتَر، كان قد قدم وفد من وجوه أهل فارس إلى أبي موسى لمفاوضته، فقال رئيس الوفد لأبي موسى: «إنّا قد رغبنا في دينكم فنُسْلِم على أن نقاتل معكم العجم، ولا نقاتل معكم العرب، وإن قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه، ونزل حيث شئنا، ونكون فيمن شئنا منكم، وتلحقونا بأشراف العطاء، ويعقد لنا الأمير الذي فوقك بذلك»، فقال أبو موسى: «بل لكم ما لنا، وعليكم ما علينا!»، قالوا: «لا نرضى!». وكتب أبو موسى بذلك إلى عمر، فكتب عمر إلى أبي موسى: «أعْطِهم ما سألوك»، فكتب أبو موسى لهم، فأسلموا وشهدوا معه ومع المسلمين الآخرين حصار تُسْتَر، فألحقهم أبو موسى على قَدْر البلاء في أفضل العطاء، وأكثر شيء أخذه أحد من العرب، ففرض لمائة منهم في ألفين ألفين، وستة منهم في ألفين، وخمسمائة لقسم منهم، فقال الشاعر:

ولَما رأى الفاروقُ حُسْنَ بلائهم	وكـانبها يـأتي من الأمر أبصَرا
فَسَنّ لهم ألفَيْنِ فَرضاً وقد رأى	ثلاثمِئتينَ فَرْضَ عَكٍّ وحِمْيَرا[3]

---

(١) السوس: بلد بالأهواز، وهي تعريب الشّوش، ومعناها: الحسن والنزه والطيّب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧١/٥) والمسالك والممالك (٦٤).

(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٨٣/٤-٨٩) وابن الأثير (٥٤٥/٢-٥٥٠).

(٣) الطبري (٩٠/٤ - ٩١).

وهذا يدلّ على أنّ الذين يُسلمون من العجم، ويقاتلون مع المسلمين، يمكن أن ينالوا أوفر العطاء، وأن يحتلّوا أرفع المراكز.

وكان ذلك سنة سبع عشرة الهجريّة.

جـ. وفي سنة إحدى وعشرين الهجريّة شهد أبو موسى معركة نِهَاوَنْد[1] الحاسمة تحت لواء النُّعمان بن مُقَرِّن المُزَنِيّ، فلما انتصر المسلمون وفتحوا نِهَاوَنْد، بدأ أبو موسى مسيرته الظافرة الموفّقة بالفتوح.

وكان المسلمون يسمّون فتح نِهَاوَنْد: فتح الفتوح، لأنّه لم يكن للفرس بعده اجتماع، وملكَ المسلمون بلادهم.

وهذه المعركة الحاسمة التي حشد لها الفُرس خير جيوشهم وأبرز قادتهم، قُوبلت من المسلمين بحملة شديدة قادها النُعمان بن مُقَرِّن من الأمام، فكان في مقدّمة المهاجين على الفُرس، وانقضّت رايته انقضاض العقاب عليهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع السّامعون بوقعة كانت أشدّ منها، فما كان يُسمح إلاّ وقع الحديد. وصبر لهم المسلمون صبراً عظيماً، وانهزم الأعاجم وقُتل منهم ما بين الزّوال والإعتام ما طبق أرض المعركة دماً يُزلق النّاس والدّواب.

وزلق بالنُّعمان فرسه، فصُرع، وقيل: بل رمى بسهم في خاصرته فقتله. وسجّاه أخوه نُعَيْم بثوب، وأخذ الراية وناولها حُذَيْفة بن اليَمَان[2].

وقتل من العجم ثمانون ألفاً بالمطاردة وثلاثون ألفاً بالمعركة، وتكبدوا خسائر فادحة بالأموال، وانهارت معنوياتهم وارتفعت معنويات المسلمين،

---

(١) نهاوند: مدينة عظيمة قبلة همدان، بينها ثلاثة أيام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٢٩) والمسالك والممالك (١١٨) وآثار البلاد واخبار العباد (٤٧١).

(٢) انظر سيرته المفصلة في: قادة فتح بلاد فارس (١٠٨ - ١١٧).

وكان فتح نِهاوند فتحاً مبيناً حقاً[1].

د. ولما انصرف أبو موسى من نِهَاوند، مرّ بالدَّيْنَور[2]، فأقام عليها خمسة أيام، فصالحه أهلها على الجزية.

ومضى في طريقه، فصالحه أهل سِيْرَوَان[3] على مثل الدَّيْنَوَر. وبعث السَّائب بن الأقرع الثَّقَفِيّ[4] إلى الصَّيْمَرَة[5] مدينة مِهْرِجان قَذَقَ[6]، ففتحها صلحاً. وقيل: إنّه وجَّه السَّائب من الأهواز[7]، ففتح ولاية مِهْرِجَان قَذَق[8].

وأُرجِّح الرواية الأولى، لأنّ ولاية مِهْرِجان قَذَق في طريق عودته من نِهَاوند إلى البصرة.

وكان ذلك سنة إحدى وعشرين الهجريّة.

---

(١) انظر التفاصيل في: الطبري (٤/١١٤ - ١٣٧) وابن الأثير (٣/٥ - ١٦).

(٢) الدينور: مدينة من أعمال الجبل، قرب قرميسين، بين همذان والدينور نَيِّف وعشرون فرسخاً، ومن الدينور إلى شهرزور أربع مراحل، والدينور بمقدار ثلثي همذان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/١٨٨) والمسالك والممالك (١١٧).

(٣) سيروان: بلد بالجبل، وهي كورة أيضاً بالجبل، هي كورة ماسَبَذان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٩٦).

(٤) السائب بن الأقرع الثقفي: انظر سيرته المفصّلة في: قادة بلاد فارس (١١٨ - ١٢٢).

(٥) الصَّيمرة: مدينة بمهرجان قذق، وهي بلد بين ديار الجبل وديار الأهواز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٤٠٦).

(٦) مهرجان قذق: كورة حسنة واسعة ذات مدن وقرى قرب الصيمرة من نواحي الجبال عن يمين القاصد من حلوان العراق إلى همذان في تلك الجبال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٠٩).

(٧) الأهواز: منطقة واسعة مؤلفة من سبع كور بين البصرة وفارس، لكل كورة منها اسم، ويجمعهنّ اسم الأهواز، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٨٠)، ويقال لها: خوزستان، انظر: آثار البلاد وأخبار العباد (١٥٢).

(٨) ابن الأثير (٣/١٦) والبلاذري (٤٣٠ - ٤٣١).

هـ. وفي هذه السنة أيضاً، أي سنة إحدى وعشرين الهجريّة بعث عمر بن الخطّاب رضي الله عنه عبد الله بن عبد الله بن عِتْبان الأنصاري[1]، وكان شجاعاً من أشراف الصَّحابة ومن وجوه الأنصار، وأمدّه بأبي موسى، فساروا إلى نِهاوند، ثم سار منها عبد الله فيمن معه ومَن تبعه من جند النُّعمان بن مُقَرِّن المُزَني بِنِهاوند نحو أَصْبَهَان[2]. وكانت مقدمة أهل فارس برستاق لأصبهان، فهاجمها المسلمون وأجبروها على الهزيمة، وفتحوا الرستاق الذي كانت فيه مقدمة قوات الفرس، فكان أوّل رستاق أُخذ من أصبهان.

وسار المسلمون إلى أصبهان، وحاصروها وقاتلوا المدافعين عنها، فصالحهم قائدها على أصبهان، وأنّ على مَنْ أقام فيها الجزية، وأن يُجرَى مَنْ أُخذت أرضه عَنْوَة مجرى من يدفع الجزية، ومن أبى وذهب كان للمسلمين أرضه.

وقدم أبو موسى على عبد الله بن عبد الله من ناحية الأهواز وقد صالح، فدخل عبد الله وأبو موسي أصبهان فاتحين، وكتبوا بذلك إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه[3].

وبعد فتح أصبهان، فتح أبو موسى قُمّ[4] وقاشَان[5] قبل عودته إلى

---

(١) انظر سيرته المفصلة في: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٨٦ - ٤٩٢).

(٢) أصبهان: أو أصفهان، مدينة عظيمة كانت عاصمة من عواصم العراق العجميّ يطلق عليها اسمها، انظر معجم البلدان (١/٢٦٩).

(٣) انظر التفاصيل في: الطبري (١٣٩/٤ - ١٤٣) وابن الأثير (١٨/٣ - ٢٠).

(٤) قُم: مدينة تذكر مع قاشان، وهي مدينة مستحدثة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٥٩/٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٤٢).

(٥) قاشان: مدينة قرب أصبهان تذكر مع قُم، بينها وبين قم اثنا عشر فرسخاً، انظر معجم البلدان (١٣/٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٣٢).

البصرة[1] ،وفي سنة اثنتين وعشرين عاد أبو موسى إلى البصرة بأمر عمر ابن الخطاب[2]، ولكن عمر بن الخطاب أمَّره على الكوفة بطلبٍ من أهلها بعد عمّار بن ياسر[3]، فأقام على الكوفة سنة واحدة، ثم عزله عمر وصرفه إلى البصرة[4] من جديد في سنة اثنتين وعشرين الهجريّة[5]، مما يدلّ على أنّه بقي على الكوفة أقل من سنة كاملة، وليس سنة كاملة كما ذكروا.

وفي سنة ثلاث وعشرين الهجريّة، فتح أبو موسى وعثمان بن أبي العاص الثقفي[6] مدينة شِيْراز[7] وأرَّجان[8] وفتحا سِينِيْز[9] على الجزية والخراج[10].

وكان عثمان بن عفان بن أبي العاص الثقفي قد فتح مدينة سابور[11] سنة ثلاث وعشرين الهجريّة، إلاّ أنّها انتقضت وغدرت، فاستعاد أبو

---

(1) ابن الأثير (٣/٢٠) والبلاذري (٤٣٦).

(2) ابن الأثير (٣/٢٨).

(3) عمار بن ياسر: انظر سيرته في: طبقات ابن سعد (٣/٢٤٦) وأسد الغابة (٤/٤٣) والإصابة (٤/٢٧٣).

(4) ابن الأثير (٣/٣٢).

(5) ابن الأثير (٣/٣٨).

(6) عثمان بن أبي العاص الثّقفي: انظر سيرته المفصلة في: قادة فتح بلاد فارس (٢٦٢-٢٦٩).

(7) شيراز: مدينة في وسط بلاد فارس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٢٠).

(8) أرّجان: مدينة كبيرة بينها وبين البحر مرحلة، وبينها وبين شيرازستون فرسخاً، انظر معجم البلدان (٥/١٧٩).

(9) سينيز: بلد على ساحل الخليج العربي أقرب إلى البصرة من سيراف، انظر معجم البلدان (٥/٢٠١).

(10) ابن الأثير (٣/٤٠) والبلاذري (٥٤٦ - ٥٤٧).

(11) سابور: كورة واسعة، مدينتها سابور، وهي كورة مشهورة بأرض فارس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٤).

موسى فتحها عَنْوَة سنة ست وعشرين الهجرية، وكان على مقدمته عثمان بن أبي العاص الثقفي[1].

لقد أبلى أبو موسى بلاء حسناً في جهاده جنديّاً وقائداً، وكانت غايته الجهاد، ولا يعتبر المنصب إلاّ وسيلة لتحقيق غايته، فلم يكن يكترث أن يجاهد جندياً أو قائداً، ورئيساً أو مرؤوساً، ما دام يحقّق غايته في الجهاد من موقعه قائداً أو مقودا، لذلك أثمر جهاده ثمرات يانعة في ساحة بلاد فارس بخاصة، وحسبنا أن نذكر له، أنّه فاتح الأهواز والسُّوس وأُصبَهان والدَّيْنَوَر وماسَبَذان وقُمّ وقاشان، واستعاد فتح سابور من جديد، هذا بالإضافة إلى المعارك الكثيرة التي شهدها بقيادة غيره، مثل معركة فتح الفتوح في نِهاوند، وبالإضافة إلى المناطق الشاسعة الكثيرة التي وجّه إليها قادته لفتحها أو وجّه إليها رجاله من أهل البصرة لفتحها أو المعاونة على فتحها.

لقد كان جهاد أبي موسى بحق عظيماً.

الإنسان

١ . العالم

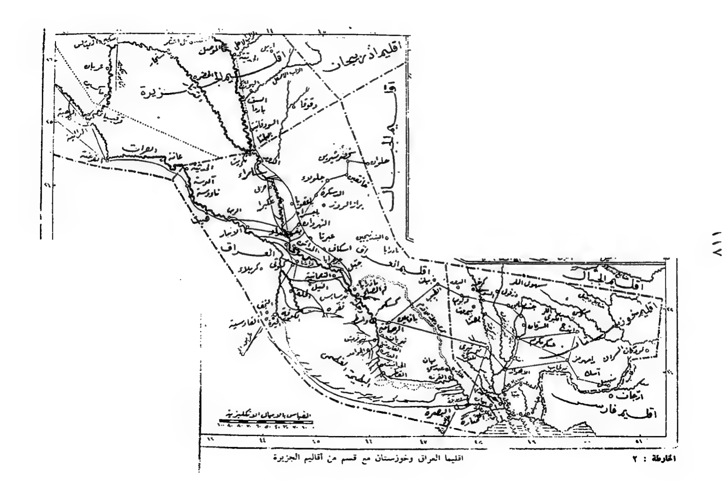
١ . كان أبو موسى يُفْتِي بالمدينة، ويُقْتَدَى به، من أصحاب رسول الله ﷺ، على عهد رسول الله ﷺ، وبعد ذلك[2]، وقد سمع رسول الله ﷺ قراءة أبي موسى فقال: «**لقد أُوتي هذا من مزامير آل داود**»[3].

---

(١) البلاذري (٥٤٧).

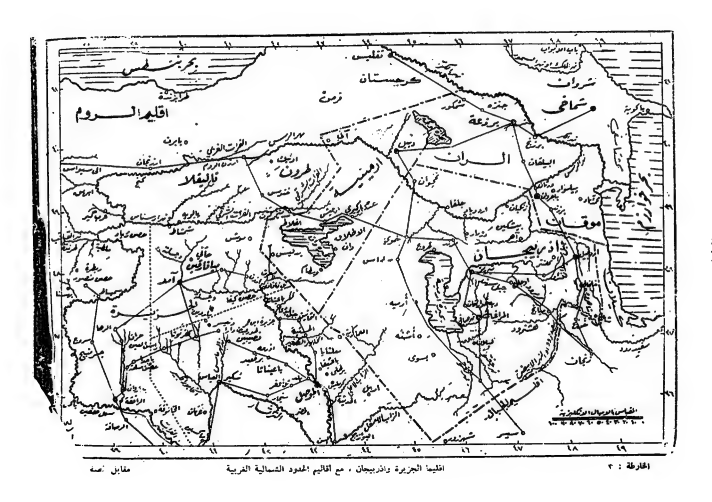
(٢) انظر اسماءهم في طبقات ابن سعد (٣٣٤/٢ - ٣٥٤)، وانظر أصحاب الفتيا لابن حزم - ملحق بجوامع السيرة (٣٢٠).

(٣) طبقات ابن سعد (٣٤٤/٢)، وانظر تفاصيل روايته في طبقات ابن سعد (١٠٧/٤ - ١٠٨).

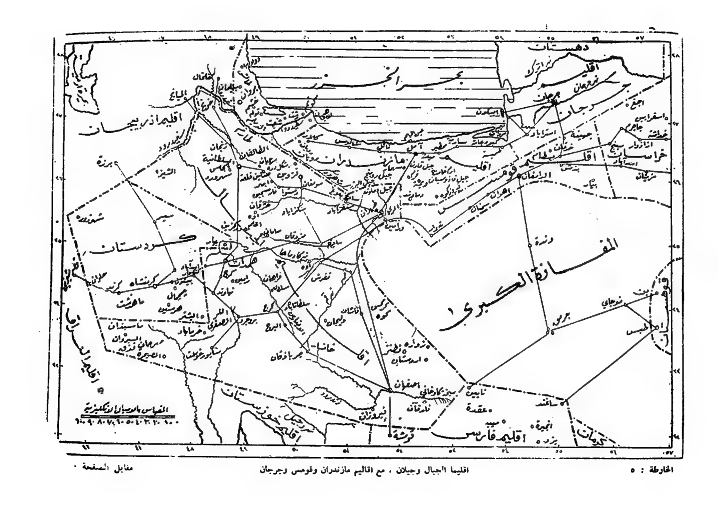


الخارطة : ٢

اقليما العراق وخوزستان مع قسم من أقاليم الجزيرة



الخارطة : ٣ — اقليما الجزيرة واذربيجان ، مع اقاليم الحدود الشمالية الغربية — مقابل صفحة



الخارطة : ٥ — اقليما الجبال وجيلان ، مع اقاليم مازندران وقومس وجرجان — مقابل الصفحة ٠

وقام أبو موسى ليلةً يُصلّي، فسمع أزواج النبي ﷺ صوته، وكان حلوَ الصَّوْت، فقُمْنَ يَسْتَمِعْنَ، فلما أصبح قيل له: «إنّ النِّساء كَنّ يَسْتَمِعْنَ»، فقال: «لو علمتُ لحبّرتكنّ تحبيراً ولشوّقتكنّ تشويقاً»[1].

ووصف أحد الصحابة صوت أبي موسى بالقرآن، فقال: «لم أسمع صوتَ صَنْجٍ قطّ، ولا بَرْبَط[2] قط، كان أحسن منه»، يصف صوته بقراءة القرآن الجهريّة في الصلاة[3].

وبالطّبع فإنّ استقطاب الآراء وإجماعها على الاعجاب بصوت أبي موسى بالقرآن، لا لأنه جميل الصّوت حسب، بل لإتقانه تجويد القرآن وحفظه والتأثير به في النفوس والعقول معاً. لذلك خلّف النبي ﷺ أبا موسى ومُعَاذ بن جَبَل في مكّة بعد فتحها وانقضاء غزوتي حُنَيْن والطّائف يُعَلِّمان النّاس القرآن والفقْه في الدِّين[4]، وأرسلها إلى جملة اليمن داعين إلى الإسلام، فأسلم عامَّة أهل اليمن: ملوكهم، وسوقتهم[5].

وكان عمر بن الخطّاب إذا رأى أبا موسى قال: «ذكِّرنا يا أبا موسى»، فيقرأ عنده[6] القرآن، وقال عمر لأبي موسى: «شوِّقنا إلى ربنا»، فقرأ القرآن، فقالوا: «الصلاة!»، فقال عمر: «أَوَلَسْنا في صلاة!»[7]. قال عمر لأبي موسى: «ذكِّرْنا ربَّنا»، فقرأ عليه أبو موسى، وكان حسن الصّوت بالقرآن[8].

---

(1) طبقات ابن سعد (٢/٣٤٥)و (٤/١٠٨).
(2) بربط: العود (من الآلات الموسيقية)، ومعناه: صدر البط (ج): بَرابِط.
(3) طبقات ابن سعد (٤/١٠٨).
(4) مغازي الواقدي (٣/٩٥٩).
(5) تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٠).
(6) طبقات ابن سعد (٤/١٠٩).
(7) طبقات ابن سعد (٤/١٠٩).
(8) طبقات ابن سعد (٤/١٠٩).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بعثني الأشعريّ إلى عمر - حين كان على البصرة، فقال: كيف تركت الأشعري؟ فقلت له: تركته يعلّم الناس القرآن. فقال: أما إنه كَيِّس، ولا تُسْمِعْها إيّاه»[١].

وقال الإمام الشّعْبيّ: «انتهى العلم إلى ستّة»، وذكر أبا موسى فيهم. وقال الحسن البصري: ما أتاها - يريد البصرة - راكب خير منه»، يعني أبا موسى[٢].

وكان دقيقاً غاية الدِّقّة في تحري العلم: في نقله بصدق، وفي تعليمه بأمانة، وهو القائل: «مَنْ علّمه الله علماً، فليعلِّمه، ولا يقولنّ ما ليس له به علم، فيكون من المتكلّفين ويمرق من الدِّين»[٣].

وحين ولاّه عمر بن الخطّاب البصرة، قال لأهل البصرة: «إنّ أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم أُعلِّمكم كتاب ربّكم عزّ وجلّ، وسُنّة نبيّكم ﷺ، وأُنظِّف لكم طرقكم»[٤]، وكان أبو موسى هو الذي فقّه أهل البصرة وأقرأهم[٥] القرآن الكريم، وسكن الكوفة وتفقه به أهلها[٦].

وجمع أبو موسى القرّاء في البصرة يوماً، وقال: «لا تُدخلوا علي إلا مَنْ جمع القرآن»، فدخل عليه زهاء ثلاثمائة، فعظم القرآن وقال: إنّ هذا القرآن كائن لكم أجرا، وكائن عليكم وزرا، فاتبعوا القرآن ولا يتبعنّكم

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٣٤٥).
(٢) الإصابة (٤/١٢٠).
(٣) طبقات ابن سعد (٤/١٠٩).
(٤) حلية الأولياء (١/٢٥٧).
(٥) الإصابة (٤/١٢٠).
(٦) الإصابة (٤/١٢٠).

القرآن، فإنه مَنْ اتَّبع القرآن هبط به على رياض الجنّة، ومَنْ تبعه القرآنُ زُجّ في قفاه فقذفه في النار »[1].

وكان أبو رَجَاء العُطَارِدي يقول: «كان أبو موسى الأشعري يطوف علينا في هذا المسجد، مسجد البصرة، يقعد حَلَقاً، فكأني أنظر إليه بين بُرْدَين أبيضين يُقرئني القرآن، ومنه أخذت هذه السورة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾[2]، فكانت أوّل سورة أُنزلت على محمّد رسول الله ﷺ »[3].

ووصفوا حديثه الحاسم الجازم في العلم، فقالوا: «ما كنّا نشبّه كلام أبي موسى إلاّ بالجزّار الذي لا يُخطىء المِفصَل »[4].

وكان عبد الله بن مَسْعود[5] يقرأ القرآن فجاء حُذَيْفَة بن اليَمَان فقال: «قراءة ابن أمّ عَبْد، وقراءة ابي موسى الأشعري، والله إن بقيت حتى أتى أمير المؤمنين - يعني عثمان - لأمرته بجعلها قراءة واحدة. وقال حذيفة، «يقول أهل الكوفة: قراءة عبد الله - يعني عبد الله بن مسعود -، ويقول أهل البصرة: قراءة أبي موسى، والله لئن قدمت على أمير المؤمنين لأمرته أن يفرقها »[6]، يريد: أن يضع حداً للاختلاف في القراءات، وذلك بجمع القرآن، وفعل حُذَيفة ما وعد به، وجمع عثمان القرآن[7].

---

(١) صفوة الصفوة (٢٢٦/١) وانظر حلية الأولياء (٢٥٧/١).

(٢) سورة العلق، آية ١.

(٣) حليـة الأوليـاء (٢٥٦/١ - ٢٥٧) وانظر أنساب الأشراف (١١٠/١).

(٤) طبقات ابن سعد (١١١/٤).

(٥) عبد الله بن مسعود: انظر سيرته في طبقات ابن سعد (٣٤٢/٢) و (١٥٠/٣) وأسد الغابة (٢٥٦/٣) والإصابة (١٢٩/٤) والاستيعاب (٩٨٧/٣) وأنساب الأشراف (٢٠٤/١) وتهذيب الأسماء واللغات (٢٨٨/١).

(٦) كتاب المصاحف (١٣).

(٧) كتاب المصاحف (١٤ - ١٦) والرياض النضرة (١٣٥/٢ - ١٣٦).

لقد بلغ أبو موسى في القرآن وفي علومه مبلغاً جعله موضع ثقة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده في تولي واجب الداعية المختار والمعلّم الأول في ركب تعليم القرآن وعلومه، حتى أصبحت له مدرسة تُعرف باسمه في البصرة والكوفة بخاصة والمشرق الإسلامي كلّه بعامة.

ب. حَفظ أبو موسى كثيراً من أحاديث رسول الله ﷺ، وقد روى ابنه أبو بُرْدَة قال: «كان لأبي موسى تابع، فقال لي: يوشك أبو موسى أن يذهب ولا يُحْفَظ حديثه فاكتب عنه. قلت: نِعْمَ ما رأيت، فجعلت أكتب حديثه، فحدَّث حديثاً فذهبت أكتبه كما كنت أكتب، فارتاب بي، وقال: لعلّك تكتب حديثي؟ قلت: نَعَم! قال: فأْتِني بكل شيء كتبتَه! فأتيتُه به، فمحاه ثمّ قال: احفظ كما حفظتُ»[1]، فقد كان ألمعيّ الذّكاء، يحفظ ما يسمعه بسرعة ويُسر وإتقان.

ولأبي موسى ثلاثمائة وستون حديثاً[2]، اتفق البخاري ومُسْلِم على خمسين حديثاً، وانفرد البخاري بأربعة أحاديث، ومسلم بخمسة وعشرين حديثاً[3].. روى عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، وعن عبد الله بن عبّاس وأُبَيّ بن كَعْب وعَمَّار بن ياسِر ومُعَاذ بن جَبَل رضي الله عنهم. وروى عنه أولاده: إبراهيم وأبو بكر وأبو بُرْدَة وموسى، وامرأته أمّ عبد الله، وأنس بن مالك وأبو سعيد الخُدْريّ وطارق بن شِهاب. ومن كبار التّابعين فمن بعدهم زيد بن وَهْب وأبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ وعُبَيْد بن عُمَيْر وقيس بن أبي حازم وأبو الأسود الدؤلي وسعيد

---

(١) طبقات ابن سعد (١١٢/٤).

(٢) أسماء الصّحابة الرواة لابن حزم - ملحق بجوامع السيرة (٢٧٦) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣١٠).

(٣) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣١٠)، وفي تهذيب الأسماء واللّغات (٢٦٩/٢): أن البخاري انفرد بخمسة عشر ومسلم بخمسة عشر.

بن المُسَيِّب وزَرّ بن حُبَيْش وأبو عثمان النَّهْدي وأبو رافع الصَّائغ وأبو عُبَيْدَة بن عبد الله بن مَسْعود ومَسْروق بن أَوْس الحَنْظَلِيّ وغيرهم كثيرون(١).

هكذا كان أبو موسى، يسّر له ذكاؤه وحرصه وحبّه لهذا الدِّين، أن يصبح عالماً بالكتاب وعلومه، محدِّثاً يروي حديث رسول الله ﷺ وعن أبرز أصحابه، ويروى عنه الصحابة والتابعون ومَنْ تبعهم بإحسان حتى لحق بالله، فقضى أيامه معلِّماً ومتعلِّماً، ومسترشداً ومُرشداً، ولم يبخل على أحد بعلمه، وكان يعتبر العلم عبادة من أجلِّ العبادات، يسهر على تعلّمه كما يسهر على تعليمه، لذلك تخرّج في مدرسته طلاّب كثيرون، لا ينفكّون يفخرون بعلمه الذي لم يرد به إلاّ وجه الله، ولم يرد به سمعة ولا مالا، فبقي علمه ينتفع به الناس ويمكث في الأرض، ومضى محبو السّمعة والمال وما حرصوا عليه من سمعة ومال، فإذا بالعلم وحده هو الباقي، وإذا بالسّمعة والمال سراب.

٢. القاضي

قضاة الأمّة أربعة: عمر، وعليّ، وأبو موسى، وزيد بن ثابت(٢)، رضي الله عنهم، ومن أقواله في القضاء: «لا ينبغي للقاضي أن يقضيَ حتى يتبيّن اللّيل من النّهار»، فبلغ قوله عمر بن الخطاب فقال: «صدق أبو موسى»(٣).

---

(١) الإصابة (٤/١٢٠) وتهذيب التهذيب (٥/٣٦٢).

(٢) الإصابة (٤/١٢٠) والعقد الفريد (٢/٢٣١).

(٣) طبقات ابن سعد (٢/٣٤٥) و(٤/١١٣).

وقال يوماً وهو يخطب في البصرة : «إنّ باهِلَة كانت كُراعاً فجعلناها ذراعا»، فقام رجل فقال: «ألا أُنبئك بألأَمَ منهم؟»، قال: «مَنْ؟!»، قال: «عَكّ والأشعريون»، قال: «أولئك وأبيك آبائي! يا سَابّ أميره، تعال»، فضرب عليه فسطاطاً، فراحت عليه قصعةٌ، وغدت عليه أخرى، فكان ذلك سِجْنه[1]. وكان آباؤه من الأشعريين، وكانت أمّه من عكّ، وكان أميراً على البصرة ولكنّه لم يظلم الذي سبّه علناً، فعامله بالحسنى لتأديبه لا للانتقام به، معاملة القاضي العادل لا الحاكم المستبد الغاشم.

وهذا هو كتاب عمر بن الخطّاب إلى أبي موسى، وهو الكتاب المشهور بكتاب سياسة القضاء وتدبير الحكم:

بسم الله الرحمن الرحيم

من: عبد الله عمر أمير المؤمنين

إلى: عبد الله بن قيس (يعني أبا موسى الاشعريّ)

سلام عليك، أما بعد، فإنّ القضاء فريضة محكمة وسُنَّة متَّبعة، فافهم إذا أُدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلّم بحقّ لانفاذ له. آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حَيْفك[2]، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البيِّنة على مَنْ ادّعى، واليمين على مَنْ أنكر، والصُّلح جائز بين الناس، إلاّ صلحاً أحلّ حراماً، أو حرّم حلالا. ولا يمنعنّك قضاء قضيته بالأمس، فراجعتَ فيه نفسك، وهُديت لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق لا يُبطله شيء، واعلم أنّ مراجعة الحقّ خير

---

(١) طبقات ابن سعد (١١٣/٤).

(٢) حاف عليه - حَيْفاً: جار وظلم، وفي التنزيل العزيز: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يحيف اللهُ عَلَيْهِمْ ورَسُوله﴾ ولا يطمع شريف في حيفك: في جورك وظلمك.

من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سُنّة. واعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأمور بعد ذلك، ثم اعمد لأحبِّها إلى الله وأشبهها بالحقّ فيما ترى. اجعل لمن ادّعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيِّنة أخذ بحقّه، وإلاّ استحللت عليه القضاء. والمسلمون عُدول في الشهادة إلاّ مجلوداً بحد، أو مجرّباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة. إنّ الله تولّى منكم السّرائرُ، ودرأ عنكم بالبيِّنات. وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويُحسن الذخر، فإنّه مَنْ صلحت سريرته فيما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومَنْ تزيّن للدنيا بغير ما يعلم الله منه شَنَأَه اللهُ، والسلام[1].

وهذا الكتاب العمري يفيد كل قاضٍ وكلّ إداريّ في كلّ زمان ومكان، وهو واضح لا يحتاج إلى شرح.

وهذا نص كتاب عمري آخر، إلى أبي موسى، يفيد كلّ قاضٍ، وكلّ اداريّ أيضاً:

«أما بعد: فإنّ للناس نَفْرة من سلطانهم، فالله الله أن تدركني وإيّاك عمياء مجهولة وضغائن محمولة، أرقمْ الحدود ولو ساعةً من نهار.

«وإذا عرض لك أمران، أحدهما لله، والآخر للدنيا، فآثر نصيبك من الله، فإنّ الدنيا تنفد، والآخرة تبقى».

---

(١) عيون الأخبار (١/٦٦) والبيان والتبيين (١/٦٩) والكامل للمبرد (٩) والأحكام السلطانية للماوردي (١١٩-١٢١) ومقدمة ابن خلدون (١/١٨٤) والعقد الفريد (١/٨٦) وإعلام الموقعين لابن القيم، والمبسوط للسرخسي (١٦/٦٠-٦٥) وفيه المتن وشرحه، والسنن الكبرى للبيهقي (١٠/١٨٤) وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (٣١٦-٣١٩) الوثيقة الرقم (٣٢٧) وانظر: أخبار القضاة لوكيع (١/٢٨٣-٢٨٤).

«واخيفوا الفُسَّاق واجعلوهم يداً يداً ورجلاً رجلاً، وعُدْ مرضى المسلمين، واشهد جنائزهم وافتح لهم بابك، وباشر أمورك بنفسك، فإنّما أنت رجلٌ منهم، غير أنّ الله جعلك أثقلهم حملا».

«وقد بلغني أنه قد فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك: ليس للمسلمين مثلها، فإيّاك يا عبدالله أن تكون بمنزلة البهيمة، مرّت بوادٍ خصيب، فلم يكن لها همّ إلاّ السّمن، وإنّما حتفها في السّمن».

«واعلم أنّ العامل إذا زاغ زاغت رعيّته، وأشقى الناس مَنْ شقي الناس به، والسّلام»[1].

وما ذكره عمر بن الخطّاب في كتابه إلى أبي موسى حول ما طرأ عليه وعلى أهل بيته من بوادر النّعمة التي لم تكن لديهم من قبل، يذكره عمر في كتبه لكلّ عمّاله بدون استثناء، حتى لو علم إنّ تلك النّعمة الطّارئة لا وجود لها، فقد كان أسلوب عمر أن يخوّف من الانحراف قبل وقوعه، خوفاً من وقوع العامل فيه فلا ينفع التخويف والتّحذير، فقد كان أبو موسى أسوةً حسنةً لأهله ومَنْ حوله ومَنْ يحكم باستقامته المطلقة وتقشّفه وأمانته، ومع ذلك فالتّحذير العمري في كتابه لا يخلو من فائدة خاصة وعامة، إذا لم تقتصر على أبي موسى، فقد تشمل غيره ممن معه في السّلطة والرعيّة.

لقد كان أبو موسى من قضاة النبيّ ﷺ، فقد وجّهه إلى اليمن أميراً وقاضياً. كما وجّه مُعاذ بن جبل أميراً وقاضياً[2]، وكان من واجب

---

(١) عيون الأخبار (١/١١)، وانظر: مجموعة الوثائق السياسية (٣١٩-٣٢٠)، الوثيقة الرقم (٣٢٨) وانظر العقد الفريد (١/٨٨-٨٩).

(٢) أخبار القضاة (١/١٠٠).

الأمير في حينه أن يقضي بين الناس أيضاً إضافة إلى واجباته الأخرى، وقد روى الأمام أحمد بن حنْبل، أنّ النبيّ ﷺ بعث مُعاذاً وأبا موسى إلى اليمن، فقال: «بشّروا ولا تُنفروا، ويسِّروا ولا تُعسِّروا، وتطاوعا ولا تختلفا»[1].

وقد بقي على القضاء في اليمن إلى زمن عمر بن الخطّاب[2]، ثم نُقِل إلى منصب القضاء لعمر[3] بالمدينة.

ولما تولى أبو موسى البصرة من قِبَل عمر بن الخطّاب، كان معه قاضٍ في البصرة، فلما تولى عثمان بن عفان أقرّ أبا موسى على صلاة البصرة وأحداثها وعزل قاضيها عن القضاء، وولّى أبا موسى القضاء[4] أيضا.

لقد كان أبو موسى من قضاة المسلمين الأولين الذين أصبحت أقضيتهم أسوة حسنة لقضاة المسلمين والقضاء المثالي العادل، وحسبه أن يعمل في القضاء على عهد النبيّ ﷺ وخلفائه: أبي بكر وعمر وعثمان، فلما تولّى عليّ تولّى في عهده أعظم مهمّة قضائيّة في حينه، هي مهمّة: التحكيم، وهي مهمّة قضائية في جوهرها بلا مراء.

٣. الحكَم

بدأت معركة صِفِّين[5] بين قوات عليّ بن أبي طالب من جهة وقوات معاوية بن أبي سُفْيان من جهة ثانية في اليوم الاول من شهر صَفَر من

(١) أخبار القضاة (١٠١/١).
(٢) أخبار القضاة (١٠٢/٢).
(٣) المعارف (٥٩٠).
(٤) أخبار القضاة (٢٨٣/١).
(٥) صفين: موضع بقرب الرقّة، على شاطىء الفرات، من الجانب الغربيّ، بين الرقّة وبالس، انظر معجم البلدان (٣٧٠/٥).

سنة سبع وثلاثين الهجرية[١] واستمر القتال بين الطرفين عنيفاً تساقط خلاله القتلى والجرحى من الطرفين، فقُتل في الحرب بينها سبعون ألفاً، منهم من أصحاب عليّ خمسة وعشرون ألفاً، ومن أصحاب معاويّة خمسة واربعون ألفاً، وقتل مع عليّ خمسة وعشرون صحابيّاً بدريّاً، وكان مدّة المقام بصِفّين مائة يوم وعشرة أيام، وكانت الوقائع تسعين وقعة[٢].

ولما رأى عمرو بن العاص أنّ أمر العراق قد اشتدّ، وأنّ كفّة أصحاب عليّ في القتال هي الرّاجحة، قال لمعاوية: «هل لك في أمرٍ أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فُرْقة؟»، قال: «نَعم»، قال: «نرفع المصاحف ثمّ نقول لما فيها: هذا حكم بيننا وبينكم، فإن أبّى بعضهم أن يقبلها وجدتَ فيهم مَنْ يقول: ينبغي لنا أن نقبل، فتكون فرقة بينهم، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنّا إلى أجل»[٣].

وحين وافق أصحاب عليّ على التّحكيم، اختلفوا على الحكم الذي يمثّلهم، وكان أبو موسى مرشّح الأكثريّة، فنزل عليّ على رأيهم واختار أبا موسى حكما[٤]، كما اختار معاويةُ عمرو بن العاص عن أهل الشّام حكما[٥].

وكان نصّ وثيقة التحكيم:

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقاضى عليه عليُّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان،

---

(١) الطبري (١٢/٥) وابن الأثير (٢٩٤/٣).

(٢) معجم البلدان (٣٧٠/٥) والتنبيه والإشراف للمسعودي (٢٥٦) ومروج الذهب (٣٥٢/٢).

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٤٨/٥-٦٣) وابن الأثير (٣١٦/٣-٣٢٦).

(٤) الطبري (٥١/٥) وابن الأثير (٣١٩/٣).

(٥) الطبري (٥٢/٥) وابن الأثير (٣١٨/٣).

قاضي عليّ مع أهل الكوفة ومَنْ معهم، وقاضي معاوية مع أهل الشّام ومَنْ معهم، إنّنا ننزل عند حكم الله وكتابه، وأن لا يجمع بيننا غيره، وأنّ كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته نُحيي ما أحيا ونُميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله، وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص، عملا به، وما لم يجداه في كتاب الله فالسُنَّة العادلة الجامعة غير المفرِّقة. وأخذ الحكمان من عليّ ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق أنّهما آمنان على أنفسهما وأهليهما، والأمّة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه. وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمّة، لا يردّاها في حرب ولا فُرقة حتى يُعصيا، وأجلُ القضاء إلى رمضان، وإن أحبّا أن يؤخّرا ذلك أخراه، وإن مكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام»[1]

ولما جاء وقت اجتماع الحكمين: ارسل عليّ مع أبي موسى أربعمائة رجل، وأرسل معهم عبد الله بن عبّاس ليصلّي بالناس ويلي أمورهم.

وأرسل معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشّام، حتى توافوا من دُومَة الجَنْدَل[2] بأَذْرُح[3].

واجتمع الحكمان، فقال عمرو لأبي موسى: «ألست تعلم أنّ معاوية وآل معاوية أولياء عثمان؟»، قال: «بلى»، قال: «فما يمنعك منه، وبيته في قريش كما قد علمتَ؟ فإن خفتَ أن يقول الناس: ليست له سابقة،

---

(١) الطبري (٥/٥٣-٥٤) وابن الأثير (٣/٣٢٠) وانظر الأخبار الطوال للدينوري (١٩٦-١٩٩).

(٢) دومة الجندل: حصن وقرى بين الشّام والمدينة: انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/١٠٦-١٠٩).

(٣) أذرح: اسم بلد بأطراف الشّام من أعمال الشّراة ثم من نواحي البلقاء، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/١٦١-١٦٢).

فقل: وجدته وليَّ عثمان الخليفة المظلوم والطّالب بدمه، الحسن السياسة والتدبير، وهو أخو أُمّ حَبِيْبَةَ زوج رسول الله ﷺ، وكاتبه، وقد صحبه»، وعَرّض لأبي موسى بسلطان.

وقال أبو موسى: «يا عمرو! اتَّقِ الله! فأما ما ذكرت من شرف معاوية، فإن هذا ليس على الشّرف تولاّه أهله، ولو كان على الشّرف لكان لآل أَبْرهة بن الصبَّاح[1]، وإنما هو لابن الدِّين والفضل، مع أني لو كنتُ معطية أفضل قريش شرفاً أعطيته علي بن أبي طالب. وأما قولك: إن معاوية وليّ دم عثمان فولِّهِ هذا الأمر، فلم أكن لأوليّه وأدع المهاجرين الأولين. وأما تعريضك لي بالسلطان، فوالله لو خرج لي معاوية من سلطانه كلّه لما وُلّيتُه، وما كنتُ لأرتشيَ في حكم الله! ولكنّك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطّاب رحمه الله».

فقال له عمرو: «فما يمنعك من ابني، وأنت تعلم فضله وصلاحه؟»، فقال: «إنّ ابنك رجل صدق، ولكنّك قد غمسته في هذه الفتنة».

وجرت المناقشة على هذا المنوال، ممّا لا مجال لذكره هنا، وقد ذكرت ما ذكرت لأبرز اتّجاه أبي موسى في حرصه على المصلحة العليا للمسلمين، وخلّوه من كل اتّجاه آخر.

وكان عمرو، قد عوّد أبا موسى أن يقدّمه في الكلام، يقول له: «أنت صاحب رسول الله ﷺ، وأسنّ مني، فتكَلَّمْ»، وتعوّد ذلك أبو موسى، وأراد عمرو بذلك كلِّه أن يقدِّمه في خلع عليّ.

ولما أراده عمرو على ابنه وعلى معاوية، فأبى، وأراد أبو موسى ابنَ عمر، فأبَى عمرو، قال له عمرو: «خَبِّرني ما رأيك؟»، قال: «أرى أن

---

(١) انظر نسبه في جمهرة أنساب العرب (٤٣٥) وهو من حِمْير بن سبأ.

نخلع هذين الرّجلين، ونجعل الأمر شورى، فيختار المسلمون لأنفسهم مَنْ أحبّوا»، فقال عمرو: «الرأي ما رأيت».

وأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون، فقال عمرو: «يا أبا موسى! أَعلمهم أنّ رأينا قد اتّفق».

وتكلّم أبو موسى فقال: «إنّ رأينا قد اتّفق على أمر نرجو أن يُصلح الله به أمر هذه الأمّة»، فقال عمرو: «صدقَ وبَرّ، تقدّمْ يا أبا موسى فتكلّم».

وتقدم أبو موسى، فقال: «أيها الناس! إنّا قد نظرنا في أمر هذه الامّة، فلم نرَ أصلح لأمرها ولا ألمّ لشَعَثِها من أمرٍ قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ويولي الناس أمرهم مَنْ أحبّوا، وإني قد خلعتُ علّياً ومعاوية، فاستقبلوا أمركم وولّوا عليكم مَنْ رأيتموه أهلا»، ثم تَنَحَّى.

وأقبل عمرو، فقام، وقال: «إن هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأُثبِّت صاحبي معاوية، فإنه وليّ ابن عفّان، والطّالب بدمه، وأحقّ الناس بمقامه».

والتمس أهل الشّام أبا موسى، فهرب إلى مكة، ثم انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية، فسلّموا عليه بالخلافة.

ورجع ابن عبّاس ومَنْ معه من أهل العراق إلى عليّ في الكوفة[1].

وقد غمز أبا موسى كثيرون، ولكني ننصفه بالحكم له أو عليه، لا بد من معرفة ظروفه التي أحاطت به، وموقفه منها.

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٥/٦٧-٧١) وابن الأثير (٣/٣٢٩-٣٣٤).

لقد بقي أبو موسى والياً على البصرة حتى مقتل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فأقرّه عثمان عليها ثمّ صرفه[١] ثم عاد فولاّه الكوفة نزولاً عند رغبة أهلها[٢].

وعندما أثار الشَّغب على عثمان قسم من أهل الكوفة، قام أبو موسى فيهم خطيباً فقال: «لا تنفروا في مثل هذا: ولا تعودوا لمثله. الزموا جماعتكم والطّاعة، وإياكم والعجلة»، فقال الذين شغبوا على عثمان: «فَصَلِّ بنا»، فقال: «لا ! إلاّ على السّمع والطّاعة لعثمان بن عفّان»، فقالوا: «السَّمع والطَّاعة لعثمان»[٣].

وهكذا ضرب أبو موسى مثلاً رائعاً رفيعاً في العمل للمصلحة العامّة الإسلامية ونكران الذات، إذ لم يُفكِّر لحظة واحدة في الشَّغب على عثمان انتقاماً منه على عزله عن البصرة دون مسوِّغ لهذا العزل، وبذل غاية جهده لعدم إشعال نيران الفتنة بين المسلمين. ولما علم بتجمّع الحاقدين على عثمان من الأمصار في المدينة المنوّرة، أرسل القَعْقاع بن عمرو التَّميمي[٤] على رأس جيش من أهل الكوفة لإنقاذ عثمان مما حاق من أخطار[٥].

ولكنّ عثمان قُتل قبل أن يدركه جيش القَعْقاع أو تدركه جيوش الأمصار الأخرى[٦]، فسبق السَّيف العَذَل[٧].

---

(١) أسد الغابة (٢٤٦/٣) والإصابة (١٢٠/٤) والاستيعاب (٩٣٠/٣) وانظر ابن الأثير (٩٩/٣).

(٢) الطبري (٣٣٦/٤) وابن الأثير (١٤٨/٣).

(٣) الطبري (٣٣٢/٤) وابن الأثير (١٤٩/٣).

(٤) انظر سيرته المفصّلة في: قادة فتح العراق والجزيرة (٣٣١-٣٥٥).

(٥) الطبري (٣٥٢/٤) و(٣٨٥/٤).

(٦) الطبري (٣٨٥/٤).

(٧) مثل عربيّ يُضرب لما قد فات ولا يستدرك.

وكان أبو موسى على الكوفة حين قُتل عثمان[١]، فكتب إلى عليّ بن أبي طالب بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم له، وبيّن الكاره منهم للذي كان والرَّاضي ومَنْ بيْن ذلك، حتى كأنّ عليّ بن أبي طالب يشاهدهم[٢].

ومع ذلك، كان من رأي أبي موسى القعود عن الفتنة الكبرى، وقد سأل عليٌّ رجلاً قدم من الكوفة عن أبي موسى، فقال الرّجل: «إن أردت الصُّلْحَ فأبو موسى صاحبه، وإن أردت القتال فليس بصاحبه»[٣].

وسأل أهل الكوفة أبا موسى عن رأيه في الاقتتال: «ما ترى في الخروج؟»، فأجابهم: «القعود سبيل الآخرة، والخروج سبيل الدنيا، فاختاروا»[٤].

وخطب بالكوفة، فكان ممّا قاله: «هذه فتنة صَمَّاء، النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الرّاكب، والراكب خير من السّاعي فكونوا جرثومة من جرائم العرب، فاغرروا السيوف، وانصلوا الأسّنة، واقطعوا الأوتار، وآووا المظلوم والمضطهد، حتى يلتئم هذا الأمر، وتَنْجلي هذه الفتنة»[٥].

وأرسل عليّ بن أبي طالب ابنه الحسن وعَمَّار بن ياسر إلى أبي موسى، فخرج أبو موسى ولقي الحسن فضمّه إليه، فقال الحسن لأبي

---

(١) الطبري (٤/٤٢٢) وابن الأثير (٣/١٨٦).
(٢) الطبري (٤/٤٤٣) وابن الأثير (٣/٢٠٢).
(٣) الطبري (٤/٤٨٠) وابن الأثير (٣/٢٢٥).
(٤) الطبري (٤/٤٨١) وابن الأثير (٣/٢٢٧).
(٥) الطبري (٤/٤٨٢) وابن الأثير (٣/٢٢٧).

موسى: «لِمَ تُثَبِط عنّا؟ فوالله ما أردنا إلاّ الإصلاح، ولا مثل أمير المؤمنين يُخاف على شيء»، فقال أبو موسى: «صدقت بأبي أنت وأمي، ولكنّ المستشار مؤتمن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب**». وقد جعلنا الله عزّ وجلّ إخوانا، وحرّم علينا أموالنا ودماءنا، وقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن يكون تجارة عن تراض منكم، ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما**﴾[١]. وقال عزّ وجل: ﴿**ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما**﴾[٢] فعزل عليّ بن أبي طالب أبا موسى عن الكوفة[٣]، وكان قد أقرّه قبل ذلك، بينما عزل غيره من عمّال عثمان[٤].

واعتزل أبو موسى الفتنة الكبرى، ولكنه لم يفارق عليّاً، ولم يغادر الكوفة إلى مكان آخر، بل بقي مع عليّ وفي ظلّه وسلطته، مقرًّا له بالخلافة، ولكنّه لا يقاتل مسلماً ولا يرضى بقتل مسلم، فاعتزل الفتنة كما اعتزلها غيره من كبار الصّحابة مثل سعد بن أبي وقّاص وعبدالله بن عمر بن الخطّاب وأُسامة بن زيد حِبّ رسول الله وابن حِبّه ومحمّد بن مَسْلَمَة، وهذا هو سرّ اعتزال أبي موسى: لا يقتل مسلماً، ولا يرضى بقتل مسلم.

لقد كان أبو موسى، يحرص أشدّ الحرص، على إخماد نيران الفتنة بين المسلمين، فدم المسلم على المسلم حرام، وهو يريد أن تكون سيوف

---

(١) سورة النساء،آية ٢٩.

(٢) سورة النساء، آية ٩٣، وانظر الطبري (٤/٤٨٢-٤٨٣) وابن الأثير (٣/٢٢٨).

(٣) ابن الأثير (٣/٢٣١) وأسد الغابة (٣/٢٤٦).

(٤) اليعقوبي (٢/١٥٥).

المسلمين على أعدائهم لا عليهم، وأن يكون المسلمون إخوة في الله، يحبّ الأخ لأخيه ما يحبّه لنفسه. ولست أشك في أنه كان يعمل لآخرته أكثر ممّا كان يعمل لدنياه، وكان راغباً عن الفتنة كارهاً لقتال المسلمين، وكانت حجّته الواضحة لتسويغ موقفه الجازم الحازم الصلب الذي لا يتزعزع عنه قيد أنملة، هو أنه لا يمكن أن يقاتل قوماً يؤمنون بالله ورسوله، وأنّ السبيل لوضع حدّ للاختلاف، هو التفاوض بين الأطراف المختلفة وليس أن يقتل الأخ أخاه.

ولا مجال أبداً، لزعم قسم من المؤرخين، أنّ أبا موسى كان مغفّلاً لا علم له بالسياسة، لذلك غدر به عمرو بن العاص، فقد كانت القضية مكشوفة للغاية وليست معقّدة، كما أنّه كان يعرف عمرو بن العاص ويعرف دهاءه، ولم يكن يجهل مكانه ومكانته؛ ولكنّ أبا موسى كان يريد الله بكلّ أعماله، وكان يرى أنّ إيقاف الاقتتال بين المسلمين ووضع حدّ لنزيف دماء المسلمين بأيديهم لا بأيدي أعدائهم، أهم بكثير من مصير رجلين من المسلمين، هما: عليّ ومعاوية. لقد كان يعتقد أنّ مصير الإسلام والمسلمين، أهمّ بكثير من مصير شخصين، وأن المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، أهم بكثير من المصلحة الشخصية، ولو كان غير عمرو بن العاص معه في التحكيم، لما تبدّل موقفه، فهذا هو موقفه الذي لم يفرضه عليه عمرو ولا غيره، بل فرضه عليه إيمانه الرّاسخ بتعاليم الإسلام، وحرصه الشديد على اتّباع تلك التّعاليم نصّاً وروحاً، حتى ولو لحق الضّرر بمصالحه الشخصية، فخسر منصبه، وخسر مكانته، وخسر حتى متاعه الذي نهبه الناس[1]، ولكنّه ربح نفسه، ولا يمكن أن تعتبر الخسارة المادية، إلى جانب الخسارة المعنوية، عند أصحاب المبادىء والمُثل العُليا، شيئاً مذكوراً.

---

(١) الطبري (٤/٤٨٧) وابن الاثير (٣/٢٣١).

إنّ دراسة حياة هذا الصّحابي الجليل بإمعان، تؤكّد أنّه لم يكن مغفّلاً وتنفي عنه الغفلة نفياً قاطعاً، وإلا لما ولاّه الرسولﷺ وأبو بكر وعمرو وعثمان، ولولا موقفه من الفتنة لما تخلّى عن الاستعانة بكفاءته عَلِيٌّ أيضاً، ولما اختاره أهل الكوفة لولاية مصرهم في عهد عثمان حين بدأت بوادر الفتنة، ولكنه كان رجلاً ورعاً تقيًّا سمح النفس رضي الخلق، لا يبيع دينه بدنياه، ولا يفرِّط بمصلحة المسلمين من أجل مصلحته.

لقد كان يطبِّق مبدأ: السّمع والطاعة، للخليفة القائم، ولا يرضى بالفتنة ولا يشارك بها بقلبه ولا بلسانه ولا بسيفه، ولا يسكت عن الذين يثيرونها عن حسن نية أو عن سوء نيّة ويقاومهم ولا يخشى في الحق لومة لائم، فإذا استنفذ كل طاقاته في إطفاء نيران الفتنة دون جدوى، اعتزل الفتنة وأصحابها حتى ولو خلّف وراءه كلّ ما يملك من منصب ومال ومتاع، فأصبح فجأةً رجلاً بلا غد، فذلك أهون عليه من أن يقتل مسلماً أو يقاتل مسلماً، مهما تكن الأسباب الداعية لهذا الاقتتال.

وقد اجتهد أبو موسى لنفسه ولمن حوله، فصدع بالرأي الذي استقرّ عليه اجتهاده ولم يُخفِه عن أحد مسؤولاً أو غير مسؤول، وللمجتهد إذا أصاب أجران، فإذا أخطأ فله أجر واحد، فهو مأجور على كلّ حال.

وما كان أبو موسى يشكّ لحظة واحدة في أفضليّة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولا بأحقيته بالخلافة، ولكن كان في نفسه شيء من قضيّة الاقتتال بين المسلمين.

ولا يمكن لمسلم أن يشكّ في إخلاص عليّ للإسلام والمسلمين ولا أن يُشكِّك به، ولكنه كان مجتهداً، فساقه اجتهاده إلى ما ساقه إليه، وللمجتهد أجره في كلّ حال.

لقد كان أبو موسى على درجة عالية من الذّكاء والفطنة، فما غلبه

على أمره عمرو بن العاص، ولكنّه انْصَاع لاجتهاده، فكان ما كان.

٤ . الإداريّ

أ . كتب النبيّ ﷺ إلى أهل اليمن كتاباً يخبرهم فيه بشرائع الإسلام وفرائض الصَّدقة والمواشي والأمول، ويوصيهم بأصحابه ورسله خيراً، وكان رسوله إليهم مُعَاذ بن جَبَل ومالِك بن مُرارة الرَّهاوي[١].

وقد حمل مُعاذ ومالِك هذا الكتاب النبويّ إلى اليمن في شهر شوّال أو شهر ذي القعدة من السَّنة التَّاسعة الهجرية.

وبعث النبي ﷺ أبا موسى مع مُعاذ أميراً وقاضياً[٢]، وقال لهما: «بَشِّروا ولا تُنَفِّروا، ويسِّروا ولا تعَسِّروا، وتطاوعا ولا تختلفا»[٣].

وفي السنة العاشرة الهجريّة، أسلم باذان الذي كان عامل كسرى على اليمن، وبعث إلى النبي ﷺ بإسلامه[٤]، وكان رسول الله ﷺ قد جمع لباذان الفارسيّ حين أسلم وأسلمت اليمن، عمل اليمن كلّها، وأمّره على جميع مخاليفها، فلم يزل عامل رسول ﷺ على اليمن أيام حياته، ولم يعزله عنها ولا عن شيءٍ منها، ولا أشـرك معه شريكاً حتى مات باذان، فلما ماتَ فرّق عَمَل اليمن بين جماعة من أصحابه، وكان ذلك بعد حَجَّة الوَداع سنة عشر الهجريّة، فكان من عماله عليه الصّلاة

---

(١) انظر نصّ الكتاب في: الطبري (١٢١/٣ - ١٢٢) وسيرة ابن هشام (٢٥٩/٤-٢٦٠) واليعقوبي (٨٧/٢ - ٨٩). وانظر الإصـابـة (٢٩٣/٤) وأسد الغـابـة (٢٠٣/٢) والقسطلاني (٢٧٩/١). وقد أخرجه أبو داود وابن حبان والدارمي، وانظر النص الكامل في: كنز العمال (٤٩٤/٢ - ٤٩٦) على مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤٩٤/٢)

(٢) أخبار القضاء (١٠٠/١).

(٣) أخبار القضاة (١٠١/١).

(٤) الطبري (١٥٨/٣).

والسّلام أبو موسى الأشعري[١]، وبهذا أصبح أبو موسى عاملاً من عُمَّال النبي ﷺ[٢]، بالإضافة إلى واجباته الأخرى، فولاّه عليه الصّلاة والسّلام: زَبِيْد[٣] وعَدَن[٤] ورِمَع[٥] والسّاحِل[٦].

ولم يُعْزل عن عمله في اليمن، كما لم يُعزل غيره من عمالها في حياة النبي ﷺ[٧].

وبقي أبو موسى على زَبِيْد وعَدَن ورِمَع والسَّاحل طيلة أيام أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه[٨].

وآثر أبو موسى بعد وفاة أبي بكر الصِّديق أن يصبح غازياً على أن يبقى والياً، ولكن لا ندري بالضّبط متى ترك ولايته في اليمن، وأوّل ما ورد اسمه في الولاية، هو توليته البَّصْرَة بعد عزل المُغِيْرة بن شُعْبَة عنها، وكان ذلك سنة سبع عشرة الهجرية. فقد بعث عمر بن الخطّاب

---

(١) الطبري (٣/٢٢٧-٢٢٨).

(٢) أنساب الأشراف (١/٥٢٩) وجوامع السيرة (٢٣).

(٣) زبيد: اسم وادٍ به مدينة يقال لها: الحُصَيْب، ثم غلب عليها اسم الوادي، فلا تُعرف إلا به، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣٧٥ - ٣٧٦)، وهي مدينة يمانية على وادٍ مشهور في اليمن.

(٤) عدن: مدينة مشهورة على ساحل بحر العرب من ناحية اليمن، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/١٢٦ - ١٢٨).

(٥) رمع: قرية أبي موسى ببلاد الأشعريين قرب غَسّان وزبيد، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٨٥).

(٦) الساحل: موضع من بلاد العرب بعينه، يطلق على ساحل مضيق باب المندب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣٧٦) و (٥/٧)، وانظر عن تولية أبي موسى في: الإصابة (٤/١١٩) وجوامع السيرة (٢٣) والطبري (٣/٢٢٨) وابن الأثير (٢/٣٣٦) وتاريخ خليفة بن خياط (١/٦٢) وأنساب الأشراف (١/٥٢٩).

(٧) الطبري (٣/٢٢٩).

(٨) الطبري (٣/٤٢٧) وابن الأثير (٢/٤٢١).

إلى أبي موسى، فقال: «يا أبا موسى! إني مستعملك، إني أبعثك إلى أرضٍ قد باضَ بها الشّيطان وفرَّخ، فالزم ما تعرف، ولا تستبدل فيَسْتبدل الله بك»، فقال: «يا أمير المؤمنين! أعني بعدّة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، فإني وجدتهم في هذه الأمّة وهذه الأعمال كالملح لا يصلح الطّعام إلاّ به»، فقال له: «خُذ مَنْ أَحْبَبْتَ» فاستعان بتسعة وعشرين رجلاً، منهم أَنَس بن مالك وعِمْران بن حُصَيْن وهشام بن عامِر. وخرج أبو موسى، حتى أناخ بالمِرْبَدْ[1]، فبلغ المغيرة أنّ أبا موسى قد أناخ بالمِرْبَد فقال: «والله ما جاء أبو موسى زائراً، ولا تاجراً، ولكنه جاء أميراً». وجاء أبو موسى إلى المغيرة بن شُعْبَة، ودفع إليه كتاباً من عمر، وإنّه لأوجز كتاب كَتب به أحد من النّاس: أربع كلِم، عزل فيها، وعاتب، واستحثّ، وأمر، وهذا نصّ الكتاب:

«أما بعد. فإنه بلغني نبأ عظيم، فبعثت أبا موسى أميراً، فسلِّم إليه ما في يدك، والعَجَل».

وكتب عمر مع أبي موسى كتاباً هذا نصّه، موجّه إلى أهل البصرة:

«أما بعد، فإني قد بعثت أبا موسى أميراً عليكم، ليأخذ لضعيفكم من قويّكم، وليقاتل بكم عدوّكم، وليدفع عن ذمّتكم، وليُحصي لكم فيئكم ثمّ ليقسمه بينكم، ولينقي لكم طرقكم»[2].

وفي أيام أبي موسى على البصرة، خرج رجل من أهل البصرة، يقال له: أبو عبد الله، وهو نافع أبو عبد الله بن كَلَدَة الثَّقفيّ إلى المدينة

---

(١) المربد: موضع سوق الإبل بالبصرة، ثم أصبح سوقاً وشارعاً، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/١١-١٣).

(٢) الطبري (٤/٧٠ - ٧١) وابن الأثير (٢/٥٤٠ - ٥٤١)، وانظر طبقات ابن سعد (٤/١٠٩) والإصابة (٤/١١٩).

المنوّرة، فقال لعمر بن الخطاب: «إنّ قَبِلنا أرضاً بالبصرة ليست من أرض الخَراج، ولا تضّر بأحدٍ من المسلمين، فإن رأيت أن تقطعنيها، اتّخذ فيها قَضْباً[1] لخيلي، فافعل»، وكان أبو عبدالله أوّل من افتلى الفلا[2]، فكتب عمر إلى أبي موسى: «إن كان كما يقول، فاقطعها له»، وفي رواية أنّ كتاب عمر كان: «إنّ أبا عبدالله سألني أرضاً على شاطىء دجلة، فإن لم تكن أرض جزية ولا أرضاً يُجرى إليها ماء جزية، فأعطها إياه»[3].

وكان أبو موسى قد فتح أَصْبَهَان سنة إحدى وعشرين الهجرية برفقة عبدالله بن عبدالله بن عِتْبَان، فعقدا مع أهلها هذه المعاهدة:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب من عبد الله للفاذوسفان وأهل أَصْبهان وحواليها:

إنّكم آمنون ما أدّيتم الجزية بقدر طاقتكم في كلّ سنة، تؤدونها إلى الذي يَلي بلادكم عن كلّ حالم، ودلالة المسلم، وإصلاح طريقه، وقِراه يوماً وليلة، وحُملان الراجل إلى مرحلة، لا تسلطوا على مسلم. وللمسلمين نُصحكم وأداء ما عليكم، ولكم الأمان ما فعلتم، فإذا غيَّرتُم شيئاً أو غيره مُغَيِّر منكم ولم تُسلِّموه، فلا أمان لكم، ومَنْ سبّ مسلماً بُلِغ منه، فإن ضربه قتلناه.

وكتب عبد الله بن قيس وشهد، وعبد الله بن وَرْقاء، وعِصْمَة بن عبد الله[4].

---

(١) القضب: شجر ترعاه الإبل والخيل.
(٢) افتلى المكان: رعاه. والفَلا: جمع فَلاَة، وهي الأرض الواسعة المقفرة.
(٣) انظر المصادر في: مجموعة الوثائق السياسية (٣٣٠) وانظر فتوح البلدان (٤٨٩ - ٤٩٠) وكتاب عمر مؤرخ في صفر من سنة سبع عشرة الهجرية.
(٤) الطبري (١٤١/٤).

وفي سنة اثنتين وعشرين الهجريّة أمّره عمر بن الخطّاب على الكوفة بطلب من أهلها بعد عمّار بن ياسر، فأقام على الكوفة عاماً أو بعض عام، ثم عزله وصرفه إلى البصرة[1] من جديد، في سنة اثنتين وعشرين الهجريّة[2]، مما يدلّ على بقائه في الكوفة أقلّ من عام.

وبقي أبو موسى على البصرة إلى وفاة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه سنة ثلاث وعشرين الهجريّة[3]، وقد كتب عمر في وصيته لمن يتولّى الخلافة من بعده: «لا يُقرّ لي عامل أكثر من سنة، وأقرّوا الأشعريّ أربع سنين»[4]، وهذا دليل على أنّ عمر كان يثق به ثقة مطلقة، وأن ثقته به أعظم من ثقته بعمّاله الآخرين.

وفي سنة تسع وعشرين الهجرية، عزل عثمان بن عفان رضي الله عنه أبا موسى عن البصرة بعبد الله بن عامِر بن كُرَيز القُرشي العَبْشَمي[5]، وقيل كان ذلك لثلاث سنين مضت من خلافة عثمان، وأرجح الرواية الأولى، فقد عمل لعثمان على البصرة ست سنين[6]، وما كان عثمان ليعزله بعد ثلاث سنين خلافاً لوصية عمر. فلما خرج من البصرة حين نُزع عنها، لم يكن معه إلا ستمائة درهم عطاء عياله[7]، ولكن كان معه ما هو أثمن من كلّ مادة في الدنيا، هي قولة الحسن البصري فيه: «ما أتاها - يعني

---

(١) ابن الأثير (٣/٣٢).

(٢) ابن الأثير (٣/٣٨).

(٣) الطبري (٤/١٩٠) وابن الأثير (٣/٤٩) والعبر (١/٢٧)، وانظر الطبري (٤/٢٤١) وابن الأثير (٣/٧٧).

(٤) الإصابة (٤/١٢٠).

(٥) أنظر سيرته في: المعارف (٣٢٠ - ٣٢٢).

(٦) الطبري (٤/٢٦٤) وابن الأثير (٣/٩٩) والعبر (١/٣٠)، وفيه: عزل عثمان أبا موسى عن البصرة سنة تسع وعشرين الهجرية.

(٧) طبقات ابن سعد (٤/١١١).

البصرة - راكب خير لأهلها منه »[١]، فقد ذهبت المادة، وبقي هذا الثناء المستطاب.

ولما عزل عن البصرة، سار منها إلى الكوفة، فلم يزل بها حتى أخرج أهل الكوفة سعيد بن العاص، وطلبوا من عثمان أن يستعمله عليهم، فاستعمله[٢]، وكان قد سكن الكوفة بعد خروجه من البصرة، فتفقّه أهل الكوفة به[٣]، وقد استعمله عثمان على الكوفة بعد سعيد بن العاص، نزولاً عند رغبة أهل الكوفة، وكتب إليها:

« بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فقد أمرّتُ عليكم مَنْ اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرُشنّكم[٤] عرضي، ولأبذلُنّ لكم صبري، ولأستصلحنّكم بجهدي، فلا تدَعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصَى الله فيه إلاّ سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه لا يُعصَى الله فيه إلاّ استعفيتم منه، أنْزِلْ فيه عندما أحببتم، حتى لا يكون لكم عليّ حجّة »[٥]، وكان ذلك سنة أربع وثلاثين الهجريّة[٦]. ومعنى ذلك أنّ أبا موسى، بقي بلا عمل للخليفة عثمان نحو أربع سنوات، قضاها في تعليم القرآن وتحفيظه وفي تفقيه أهل الكوفة.

وكان أبو موسى، حين أعاد أهل الكوفة سعيد بن العاص من الطريق قبل دخول الكوفة إلى عثمان، قد جمع أهل الكوفة الحانقين على سعيد وغير الحانقين عليه، وخطبهم، وأمرهم بالجماعة وبلزوم الجماعة

---

(١) الإصابة (٤/١٢٠).
(٢) أسد الغابة (٣/٢٤٧) و (٥/٣٠٩) والإصابة (٤/١٢٠).
(٣) الإصابة (٤/١٢٠).
(٤) في ابن الأثير والنويري: «لأقرضنّكم».
(٥) الطبري (٤/٣٣٦) وابن الأثير (٣/١٤٨ - ١٤٩).
(٦) الطبري (٤/٣٣٦) وابن الأثير (٣/١٤٨).

وبطاعة لعثمان »، قالوا: « نعم »، فصلّى بهم، وأتاه ولايتهم من عثمان، فوليهم[1].

ولم يزل أبو موسى على الكوفة، حتى استخلف عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه سنة خمس وثلاثين الهجريّة[2]، فأقره عليّ بن أبي طالب عليها. فلما سار عليّ إلى البصرة ليمنع طَلْحَة و الزُّبير عنها، أرسل إلى أهل الكوفة يدعوهم لينصروه، فمنعهم أبو موسى وأمرهم بالقعود في الفتنة، فعزله عليّ عنها[3]، وكان قد أقرّه عليها قبل ذلك، بينما عزل غيره من عمال عثمان[4].

ب. فما هي إنجازات أبي موسى، كما يعبِّر عن ذلك المحدِّثون؟

كتب أبو موسى إلى عمر: « إنه يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ »، فجمع عمر الناس للمشورة، فقال بعضهم: « أرِّخ لمبعث النبي ﷺ »، وقال بعضهم: « لمهاجرة رسول الله ﷺ »، فقال عمر: « نؤرخ لمهاجرة رسول الله ﷺ، فإنّ مهاجرته فَرَقٌ بين الحق والباطل »[5].

لقد كان لأبي موسى فضل المطالبة بوضع التأريخ للمسلمين، فكان التاريخ الهجري الذي بدأ العمل به عهد عمر بن الخطّاب، ولا يزال معمولاً به حتى اليوم.

---

(١) ابن الأثير (١٤٩/٣).

(٢) الطبري (٤٢٧/٤) وابن الأثير (٣/ ١٩٠).

(٣) ابن الأثير (٢٣١/٣) وأسد الغابة (٢٤٦/٣) و (٣٠٩/٥)، وانظر مروج الذهب (٣٥٩/٢).

(٤) اليعقوبي (١٥٥/٢).

(٥) ابن الأثير (١٠/١).

وكان عمر بن الخطّاب أوّل مَنْ سُمّي بأمير المؤمنين، وكان أبو موسى أوّل مَنْ دعا له بهذا الاسم على المنبر، وأوّل مَنْ كتب إليه: لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من أبي موسي الأشعري، فلما قُرِئَ ذلك على عمر قال: «إني لعبد الله ، وإني لعمر، وإني لأمير المؤمنين، والحمد لله ربّ العالمين»[1].

وأصبحت السُّنة التي سنّها أبو موسى متَّبعة في الدُّعاء وفي الأسلوب الكتابي أيضاً.

وفي سنة ثمان عشرة الهجرية، أصاب الناس مجاعة شديدة وجدب وقحط، وهو عام الرّمادة، وكانت الرِّيح تُسفي تُراباً كالرَّماد، فسمي: عام الرّماد، واشتد الجوع حتى جعلت الوحش تأوى إلى الإنس، وحتى جعل الرّجل يذبح الشّاة فيعافها من قُبحها، وإنّه لمقفر[2].

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى وهو على البصرة: «إنّ العرب هلكت، فابعث إليّ بطعام»، فبعث إليه بطعام، وكتب إليه: «إني قد بعثْتُ إليك بكذا وكذا من الطعام، فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الأمصار، فيجتمعون في يوم، فيخرجون فيه، فيستسقون»، فكتب عمر إلى أهل الأمصار، فخرج أبو موسى فاستسقى ولم يُصَلّ[3]. وهذا دليل على أنّ الزراعة والانتاج الزراعي كان بازدهار بحيث يغطّي حاجة المنطقة ويفيض على ما تحتاج إليه، فتصدّر إلى المناطق الأخرى.

ولا عجب في ازدهار الزراعة والمحاصيل الزِّراعيّة في ولاية البصرة

---

(١) مروج الذهب للمسعودي (٣٠٥/٢) - ط ٢ - بيروت - ١٣٩٣ هـ.
(٢) الطبري (٩٨/٤) وابن الأثير (٥٥٥/٢).
(٣) طبقات ابن سعد (١١٠/٤).

على عهد أبي موسى، فقد كان يهتم بالريّ الذي هو العمود الفقري للزراعة، وبخاصة في الأرض السَّبْخية التي تُسقى بمياه النهر ولا تزدهر بدونه، فقد قاد أبو موسى نهر الأُبُلَّة[1] من موضع الإجانَة[2] إلى البصرة، وكان شرب الناس قبل ذلك من مكان يقال له: دير قاووس[3]، فُوَّهته في دجلة فوق الأبلّة بأربعة فراسخ، يجري في سباخ لا عمارة على حافاته، وكانت الأرواح[4] تدفنه[5].

ولم يقتصر نشاط أبي موسى في الري على حفر نهر الأُبُلَّة، بل امتدّ إلى حفر نهرين آخرين سجلها له البلدانيون العرب، ولا ندري عدد الأنهار التي حفرها ولم يُسجِّلها البلدانيون له.

فقد قدم الأحنف بن قيس التَّميمي[6] على عمر بن الخطاب في أهل البصرة، فجعل عمر يسألهم رجلاً رجلاً، والأحنف لا يتكلّم، فقال له عمر: «ألك حاجة؟»، فقال: «بلى يا أمير المؤمنين! إنّ مفاتيح الخير بيد الله، وإن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأُمم الخالية بين المياه العذبة والجنان الملتفّة، وإنّا نزلنا أرضاً نشّاشة[7] لا يجفّ

---

(١) الأبلّة: بلدة على شاطىء نهر البصرة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى البصرة، وهي مدينة قديمة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٩/١). ونهر الأبلة: نهر باسم المدينة، يتصل بالبصرة، انظر معجم البلدان (٩٠/١).

(٢) الإجانة: إناء تغسل فيه الثياب، سمي به نهر الإجانة، لأن الناس كانوا يغسلون فيه ثيابهم في أجاجين فيه، انظر معجم البلدان (٣٣٩/٨).

(٣) لم أجد له ذكراً في المصادر التي تتحدّث على الأديرة.

(٤) الأرواح: جمع ريح، وهو الهواء إذا تحرّك.

(٥) البلاذري (٤٩٨).

(٦) انظر سيرته في: قادة فتح بلاد فارس (٢١٧ - ٢٤٦).

(٧) نشّ الشيء: جف وذهب ماؤه. ونشـش هو، وهي نشّاشة. ويقال: سَبَخة نشّاشة: لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها.

مرعاها، ناحيتها من قِبَل المشرق البحر الأُجاج، ومن ناحية المغرب الفلاة والعجاج، فليس لنا زرع ولا ضرع. تأتينا منافعُنا وميرتُنا في مثل مَرْى النَّعامة، يخرج الرّجل الضّعيف منّا فيستعذب الماء من فرسخين، والمرأة كذلك فتَربُق[1] ولدها رَبْق العنز تخاف بادرة العدو وأكل السَّبُعُ؛ فإلاّ ترفع خسَيستنا وتجبر فاقتنا، نكُنْ كقوم هلكوا»، فألحق عمر ذراري أهل البصرة في العطاء، وكتب إلى أبي موسى يأمره أن يحفر لهم نهراً، فذكر جماعة من أهل العلم أنّ دجلة العوراء، وهي دجلة البصرة، كانت خَوْراً[2]، والخور طريق للماء لم يحفره أحد، تجري إليه الأمطار ويتراجع ماؤها فيه عند المدّ وينضب في الجزر، وكان يحدّه مما يلي البصرة خَوْرٌ واسع كان يسمى في الجاهلية: الإجّانة، وتسميه العرب في الإسلام: خَزَّاز، وهو على مقدار ثلاثة فراسخ من البصرة، ومنه يبتدأ النّهر الذي يعرف اليوم بنهر الإجانة. فلما أمر عمر أبا موسى بحفر نهر، ابتدأ بحفر نهر الإجانة ففأره[3] ثلاثة فراسخ، حتى بلغ به البصرة[4] وكان أهل البصرة قبل حفر النهر يستقون ماءهم من الأُبُلَّة، وكان يذهب رسولهم إذا قام المتهجّدون من الليل، فيأتي بالماء من الغد صلاة العصر[5].

وهكذا يسّر أبو موسى ماء الشِّرب لأهل البصرة من جهة، ويسّر لهم ماء السّقي من جهة أخرى.

أمّا النّهر الثالث الذي حفره أبو موسى بالبصرة، فهو نهر مَعْقِل، نسبة إلى الصّحابيّ الجليل مَعْقِل بن يَسار بن عبد الله المُزَنِيّ، وهو نهر

---

(١) رَبَقَهُ: ربطه بالرِّبق. والرِّبق: حبل ذوي عُرىً، والحبل والخيط.

(٢) الخَوْر: مصب الماء في البحر، والمنخفض من الأرض بين مرتفعين، والخليج.

(٣) فأر فلان: حَفَر حَفْر الفأر.

(٤) معجم البلدان (٣٣٤/٨).

(٥) معجم البلدان (٣٣٥/٨).

معروف بالبصرة، فمه عند فم نهر الإجَّانة الذي ذكرناه قبل قليل. فقد أمر عمر بن الخطاب أبا موسى أن يحفر نهراً بالبصرة، وأن يُجْرِيَه على يد مَعْقِل[1] بن يَسار المُزَني فنُسب إليه. وفي رواية أخرى أنّ زياد بن أبي سفيان[2] هو الذي حفره[3]، ولا تناقض بين الروايتين، فأبو موسى حفره، وزياد جدّد حفره، لأنّ الأنهار في تلك المناطق تحتاج إلى إدامة حفرها باستمرار، وإلا طُمرت واندرست، فخلط الذين كتبوا على هذا النهر بين الجهدين: جهد أبي موسى، وجهد زياد.

تلك ثلاثة أنهار للبصرة عُرفت لأبي موسى، حفرها على عهد الفاروق عمر وحده، وقد كان على البصرة في عهد عمر خمس سنوات امتدت من سنة سبع عشرة الهجرية إلى سنة ثلاث وعشرين الهجرية، أمضى منها سنة على الكوفة بعيداً عن البصرة، وقد بقي على البصرة ست سنوات في عهد عثمان بن عفان، ولا بدّ أنّه بذل نشاطاً باهراً في حفر أنهار جديدة وفي تطهير أنهار قديمة، ولا عبرة بسكوت الذين سجّلوا نشاط أبي موسى في حفر الأنهار عن تسجيل ما حفره من أنهار، فما كلّ شيءٍ جرى سُجِّل، ولكن إذا افترضنا أنّ هذه الأنهار الثلاثة هي كلّ ما حفره أبو موسى في سنّي ولايته على عهد عمر، وأنه لم يحفر أنهاراً إضافيّة بعد عمر لسبب أو لآخر، فإن حفر ثلاثة أنهار ليس قليلاً، وبخاصة إذا تذكرنا الوسائل البدائية المستعملة أيام أبي موسى بالحفر، وأن القادرين على الحفر شُغل شاغل عن الحفريات بالجهاد والفتوح.

---

(١) معقل بن يسار بن عبدالله المزني: انظر سيرته في أسد الغابة (٣٩٨/٤) والإصابة (١٢٦/٦) والاستيعاب (١٤٣٢/٣) المعارف (٢٩٧).

(٢) زياد بن أبي سفيان: انظر سيرته في تهذيب ابن عساكر (٤٠٩/٥).

(٣) معجم البلدان (٣٤٥/٨ - ٣٤٦).

وكان من ثمرات نشاط أبي موسى في حفر الأنهار، أنّ البصرة أصبحت مصدِّرة للطعام إلى المسلمين المحتاجين إليه، واكتفى المسلمون ذاتياً بما لديهم، ولم يبقوا محتاجين إلى استيراد الطّعام من الاجانب، فلا شيء بلا ثمن، وثمنه الضغط السياسيّ كما هو معلوم، كما كان يمارسه الأجانب على العرب في الجاهلية وبخاصة في سنوات القحط والجفاف.

ولم يكن أبو موسى متفرِّغاً للقضايا الادارية في البصرة. بل كان مسؤولاً مسؤولية مباشرة عن الجهاد والفتوح بما فيه حشد الرجال وقيادتهم، فالأمير يومها إداريٌّ قائد.

فقد تولى البصرة سنة سبع عشرة الهجريّة لعمر، فحشد الرجال بأمر عمر لفتوح المشرق، فشاركوا في فتح رَامَهُرْمُز، بقيادة أحد قادته المرؤوسين، ثم شهد فتح تُسْتَر قائداً لمجاهدي البصرة، فلما فُتحت المدينة انصرف أبو موسى إلى البصرة.

وبقي سنة ثمان عشرة الهجرية وتسع عشرة الهجرية وعشرين الهجرية يحشد الرجال لفتوح أرض فارس في المشرق، وفي سنة إحدى وعشرين شهد معركة نِهَاوند وهي معركة فتح الفتوح، على أهل البصرة، فلما فتح المسلمون نِهاوند، انصرف أبو موسى ففتح الدِّيْنَور صلحاً وسِيْرَوان صلحاً أيضاً، ووجّه أحد رجاله ففتح الصَّيْمَرة مدينة مِهْرِجان قذق صلحا. كما شارك أبو موسى في هذه السنة، أي سنة إحدى عشرين الهجرية في فتح أَصْبَهان، كما فتح قُمْ وقاسان قبل عودته إلى البصرة.

ونقل أبو موسى إلى الكوفة سنة اثنتين وعشرين الهجرية، فبقي فيها عاماً أو بعض عام، ثم أعيد سنة اثنتين وعشرين الهجرية أيضا إلى البصرة.

وفي سنة ثلاث وعشرين الهجرية، شارك أبو موسى في فتح شِيراز

وأَرَّجان وسِينِيزْ، واستعاد فتح مدينة سابور سنة ست وعشرين الهجرية على عهد عثمان.

لقد فتح أبو موسى الأهواز والسُّوس وأصبهان والدِّيْنَور وماسَبَذان و سِيْرَوان وقُمْ وقاشان، وشارك في فتح تُسْتَر ونِهاوند، واستعاد فتح سابور.

ويتضاعف إعجابنا بأبي موسى وتقديرنا لنشاطه في خدمة الإسلام والمسلمين، إذا ذكرنا فتوحه الواسعة إلى جانب أعماله الإدارية فنخير بأيهما نكون أكثر اعجاباً: بأعماله العسكرية، أم أعماله الإدارية.

وما يخطر على البال هو: كيف تيسّر له الوقت الكافي للنهوض بكلّ هذه الأعمال الكبيرَة؟!.

لقد كان أبو موسى حصيفاً في ادارته وقيادته، يتمتّع بعقليّة متّزنة وفكر صائب ورأي سديد، يدلّنا على ذلك ما رواه عنه طارق بن شهاب البَجَلي، قال: «أتينا أبا موسى، وهو بداره بالكوفة، لنتحدّث عنده، فلما جلسنا قال: لا عليكم أن تخفّوا، فقد أصيب في الدار إنسان بهذا السّقم، ولا عليكم أن تَنَزَّهُوا عن هذه القرية فتخرجوا في فسيح بلادكم ونَزِهها حتى يُرفع هذا الوباء. سأُخبركم بما يُكره ممّا يُتّقي، من ذلك أن يَظنّ منْ خرج أنه لو أقام مات، ويَظن مَنْ أقام فأصابه ذلك لو أنه لو خرج لم يصبه فإذا لم يظن هذا المرء المسلم فلا عليه أن يخرج، وأن يتنزّه عنه»[1]، فهو يفسح المجال للابتعاد عن المرض والأخذ بالوسائل، مع الثقة المطلقة بقضاء الله عزّ وجلّ وقدره.

---

(١) الطبري (٤/٦٠) وابن الاثير (٢/٥٥٨).

ومما يدل على عقليته المتّزنة الرّاجحة، بقاؤه في البصرة والكوفة بدون مشاكل خطيرة مع أهل هذين البلدين، وقد كان لهما مشاكل - وبخاصة الكوفة - مع مَنْ سبق أبي موسى في ولايتها ومع من لحقه أيضاً كما هو معروف.

ولم تخلُ إمارته على البصرة والكوفة من مشاكل فحسب، بل العكس هو الذي حدث، فقد كان أهل البلدين يطالبون الخليفة بعودته إليهما كلّما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

فقد سأل عمر أهل الكوفة: «من تريدون؟»، قالوا: «أبا موسى»، فأمّره عليهم بعد عَمّار بن ياسر، وكان ذلك في سنة اثنتين وعشرين الهجريّة[1].

وقد اختاره أهل الكوفة والياً عليهم في عهد عثمان، فنزل عثمان على ارادة أهل الكوفة، وولّيَ على الكوفة أبا موسى[2]، وكان ذلك سنة أربع وثلاثين الهجريّة[3]، ومن النّادر أن يرضى أهل الكوفة عن أمير!!.

ولما بعث عليّ بن أبي طالب عُمارة بن شهاب[4] وكانت له هجرة، والياً على الكوفة خلفاً لأبي موسى، علم وهو في طريقه إليها، أنّ أهلها لا يريدون بأميرهم أبي موسى بديلاً، فرجع عمارة إلى عليّ بن أبي طالب بالخبر[5]، كما اختير من الناس ليمثّل أهل العراق في التّحكيم، ولم يكن اختياره من عليّ كما ذكرنا، كلّ ذلك يدلّ على مبلغ ثقة الناس بأبي

---

(١) الطبري (١٦٤/٤) وابن الاثير (٣٢/٣).
(٢) الطبري (٣٣٦/٤) وابن الأثير (١٤٨/٣) وانظر أسد الغابة (٢٤٧/٣) و(٣٠٩/٥) والإصابة (١٢٠/٤).
(٣) العبر (٣٤/١-٣٥).
(٤) عمارة بن شهاب: انظر سيرته في الإصابة (٢٧٦/٦).
(٥) الطبري (٤٤٢/٤-٤٤٣) وابن الاثير (٢٠٢/٣).

موسى ومقدار شعبيّته الطّاغية، فهو أمير وقائد شعبيّ بحقّ، كما نعبِّر عن أمثاله اليوم، إن كان له أمثال!.

تلك هي مجمل إنجازات أبي موسى إدارياً: تعليم القرآن والحديث النبوي والفِقه، وتحفيظ للقرآن الكريم حتى بلغ الحفّاظ عشرات المئآت، فهو قائد مدرسة علميَّة فذّة.

وإصلاح زراعي، وتعمير وإرواء، وبناء: بنى أبو موسى مسجد البصرة ودار الإمارة بلبن وطين[1]، وعدل واستقرار، فهو إداري حازم حصيف.

وجهاد، وفتوح عشرة مناطق شاسعة أحدها الأهواز، فهو قائد لامع قدير.

لا عجب أن يقول عمر عن أبي موسى: «إنه كَيِّس»[2]، ويقول عنه الحسن البصري: «ما أتاها راكب - يعني البصرة - خير لأهلها منه»[3].

ومضت القرون الطويلة، والكلمات التي قيلت في أبي موسى باقية، لأنّها كلمات صادقة، ولأن الذي قيلت فيه يستحقّها.

إنّ في ذلك لعبرة، فهل من مُعتَبر!!.

---

(١) البلاذري (٤٨٨).
(٢) طبقات ابن سعد (٣٤٥/٢).
(٣) الإصابة (١٢٠/٤).

٥. الوَرِعُ[١]

صنفان من الناس يصعب الكتابة عنهم: الذين لهم ثروة عظيمة من الأعمال العظيمة، والذين لم يصنعوا شيئاً في حياتهم له قيمة ماديّة أو معنوية. والصُّعوبة في الصنف الأول الحيرة في انتقاء الأعمال التي يمكن أن توصف، والصُّعوبة في الصنف الثاني الحيرة في إخفاء الخواء الذي لا يمكن أن يُعرف.

وأبو موسى من الصِّنف الأول الذي تتّسم كلّ حياته بالورع، فما يدري الذي يكتب سيرته ما يأخذ وما يدع، وقد حسبت أنّ أبسط فقرة من فقرات سيرته هي الحديث عن ورعه، ولكنّني أخترتُ حين وصلت هذه الفقرة لتزاحم أعماله التي كانت نتيجة من نتائج ورعه، فما أدري ما أغفل ولا أدري ما أُسجل.

لقد كان أبو موسى بعد إسلامه وإقباله على تعلّم القرآن الكريم، معلِّماً للقرآن الكريم وللفقه الإسلاميّ، وظلّ معلِّماً. وهو أمير ومجاهد وقائد، لم تُشغله واجبات الإمارة والجهاد والقيادة عن واجبه الأصليّ وهو التعليم، فكان معلِّماً في بيته، معلِّماً في ديوانه، معلِّماً مع رفقائه في السِّلاح، معلِّماً في قيادته، وكما كان يُعلِّم القرآن الكريم والسُنَّة النبويَّة المطهَّرة والفقه الإسلامي، كان يعلِّم الورع في بيته وفي ديوانه، ومع المجاهدين، وفي مقرّ قيادته.

والورَع لا يمكن أن يُعلِّم بالافكار النظرية، بل يُعلَّم بالسُّلوك العمليّ،

---

(١) وَرَعَ يَرَعُ وَرْعاً ووَرَعاً ورِعَة: تحرّج وتوقّي عن المحارم، ثم استعير للكفّ عن الحلال المباح، فهو وَرِع، وهي وَرِعة. وَوَرِع تَرِع وَيَوْرِع وَرَعاً ورِعة: صار وَرِعاً. وَوَرُع يورع ورُوْعاً ووَراعةً: وَرَع، تورّع من الأمر، وعنه تحرّج، والوَرِع: المتحرِّج من المحارم، المتوقي عن المحارم.

فهو مما لا يمكن تعليمه بالكتب، بل بالقدوة الحسنة، فتنتقل سمات الورع من نفس إلى نفسٍ بالعدوى التي تنبعث عن القدوة الحسنة، كما ينتقل العلم من عقل إلى عقل بالتلقي التي تصدر عن الكتب، فكان أبو موسى معلّم كتّاب يصقل العقول بالعلم، ومعلّم تقوى يصقل النفوس بالورع.

ومضى أبو موسى إلى ربّه، وبقي منه ورعه المسجّل في الكتب، ولا تفيد كُتُب الورع كما يفيد شيوخ الورع، لأنّ الكتب تخاطب العقول، والشيوخ يناغون القلوب، وليس مَنْ رأى كَمَنْ سمع، ولكن عسى أن ينتفع بورع أبي موسى المكتوب أهل القلوب، وما لا يُدْرك كلُّه لا بأس بالانتفاع ببعضه، فشيء مهما يقلّ أفضل من لا شيء.

فقد جعل أبو موسى من نفسه اسوة حسنة لأهله، قال أنس بن مالك: «قال الأشعري وهو على البصرة: جهِّزني فإني خارج يوم كذا وكذا، فجعلتُ أُجهِّزه فجاء ذلك اليوم وقد بقي من جهازه شيء لم أفرُغ منه، فقال: يا أنس إني خارج، فقلت: لو أقمْتَ حتى أفرُغ من بقيّة جهازك فقال: إني قد قلتُ لأهلي: إني خارج يومَ كذا وكذا، وإني إنْ كذبت أهلي كذبوني، وإنْ خُنْتهم خانوني، وإنْ أخلفْتهم أخلفوني. فخرج وقد بقي من حوائجه بعض شيءٍ لم يُفْرغْ منه»[1].

وفي الصّحيحين: البُخاري ومُسلم، من حديث أبي موسى قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزَاةٍ، ونحن ستَّةُ نَفَر على بعيرٍ نَعْتَقِبُه[2]، فنَبِقَت أقدامنا، وَنَقِبتْ[3] قدمي وسقطت أظْفاري، فكنّا نَلُفُّ على

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/١١١) وحلية الأولياء (١/٢٥٩).

(٢) نعتقبه: أي نركبه عقبة بأن يركب هذا قليلاً ثم ينزل، فيركب الآخر بالنوبة، حتى يأتي على آخرهم.

(٣) نقبت اقدامنا: أي رقّت، غال: نقب البعير: إذا رقّ خفّه، وذلك من الحفاء.

أَرْجُلنا الخَرِق، فسمِّيت: غَزْوة ذات الرِّقاع، لما كنّا نَعْصِب على ارجلنا من الخَرِق»[١]. قال أبو بُرْدة بن أبي موسى: «فحدَّث أبو موسى بهذا الحديث، ثم كره ذلك وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره، كأنه كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه»[٢]، وما أفشى أبو موسى شيئاً من عمله ليفاخر به أو لينال سمعةً وشرفا، فقد كان ذلك معروفاً مشهوراً، ولكنّه أراد أن يعلِّم أهله والمسلمين كيف كان حال النبيّ ﷺ وحال أصحابه من فقر وتقشّف، وكيف أصبح عليه حال المسلمين بعد الفتوح من غنى وترف، فهو يريد لهم التقشّف ويحذِّرهم التّرف الذي يؤدي بهم إلى التفسُّخ والانحلال.

وعن القدوة الحسنة في الجليس الصّالح، خطب أبو موسى يوماً فقال: «إنّ الجليس الصّالح خير من الوحدة، والوحدة خير من الجليس السّوء، وَمَثَل الجليس الصّالح كمثل صاحب العِطْر إلاّ يحذك يعبق بك من ريحه، ألا وإنّ مثل الجليس السّوء كمثل صاحب الكِيْر إلاّ يحرق ثيابك يعبق من ريحه. ألا وإنما سُمِّي القَلْب من تقلّبه، وإنّ مثل القلب كمثل ريشة بأرض فضاء تضربها الريح ظهراً لبطنٍ، ألا وإن من ورائكم فتناً كقِطَع اللّيل المظلم، يصبح الرّجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، والقاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب»، قالوا: «فما تأمرنا؟»، قال: «كونوا أحلاس[٣] البيوت»[٤]، فكلّ قرين بقرينه يقتدي، منه يقتبس وبه يتأثر.

---

(١) صفة الصفوة (١/٢٢٥-٢٢٦) واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٤٧٤).

(٢) كأنّه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه: لأنّ كتمان العمل أفضل من إفشائه، إلا لمصلحة راجحة، كأن يكون ممن يقتدى به، انظر صفة الصفوة (١/٢٢٥-٢٢٦) واللؤلؤ والمرجان (٤٧٤) وحلية الأولياء (١/٢٦٠).

(٣) أحلاس: جمع حِلْس، يقال: حِلْس بيته: لا يبرحه.

(٤) صفة الصفوة (١/٢٦٦).

وعن أبي بُرْدة بن أبي موسى قال: «حدّثتني أمّي قالت: خرج أبو موسى حين نُزِع عن البصرة، وما معه إلا ستمائة درهم عطاء عياله»(١)، وهذا مثال رفيع للنزاهة، ينبغي أن يقتدى به أهله والمسلمون كافة حكّاماً ومحكومين، وبخاصة وأنّه كان أمير البصرة وقائداً لجيوشها في أيام مدّ الفتح الإسلامي، حيث اصبح المجاهدون في يُسر وغنى، بعد أن كان آباؤهم في عسر وفقر.

وكان أبو موسى يقول: «إنما أهلك مَنْ كان قبلكم هذا الدينار والدرهم، وهما مهلكاكم»(٢) فما خرّب ضمائر كثير من الناس غير المال والحرام.

وبلغ أبا موسى، أنّ ناساً يمنعهم من صلاة الجمعة أن لا ثياب لهم، فلبس عباءة ثم خرج فصلّى بالناس(٣)، وهو أمير.

وعن أنس بن مالك أنّه قال: «كنّا مع أبي موسى في مسيرٍ له، فسمع الناس يتحدثون فسمع فصاحة فقال: ما لي يا أنس! هَلُمَّ فلنذكر ربَّنا، فإن هؤلاء لا يكاد أحدهم أن يُفْرى الأديم(٤) بلسانه. ثم قال: يا أنس! ما أبطأ بالنّاس عن الآخرة، وما ثبرهم عنها(٥)؟ قلت: الشّهوات والشّيطان. قال: لا والله! ولكن عجلت لهم الدنيا وأُخرت الآخرة، ولو عاينوا ما عدلوا وما ميّلوا»(٦). وصدق أبو موسى، فالناس أو أكثرهم يحبّون العاجلة، وقديماً قالوا: «عصفور في اليد، خير من عشرة على

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/١١١).
(٢) حلية الأولياء (١/٢٦١).
(٣) طبقات ابن سعد (٤/١١٢-١١٣) وحلية الأولياء (١/٢٥٩).
(٤) يفري الشيء: شقّه، فَتَته الأديم: الجلد، ويفرى الأديم: يشقه، يفتّته.
(٥) ثبرهم عنها: صدّهم عنها ومنعهم من طاعة الله. والثبر: الحبس.
(٦) حلية الأولياء (١/٢٥٩).

الشّجرة »، والمؤمن كأبي موسى، يؤثر الآخرة على الدنيا، وما عند الله على ما عند الناس.

وذكر أحد التقاة الذين صاحبوا أبا موسى في سفره، فقال: «كنّا مع أبي موسى الاشعري رضي الله تعالى عنه في سفر، فآوانا اللّيل إلى بستان حرث فنزلنا فيه، فقام أبو موسى من اللّيل يصلي - وذكر من حسن صوته ومن حسن قراءته - ثم قال: وجعل لا يمرّ بشيءٍ إلا قاله ثم قال: اللّهمّ أنت السّلام ومنك السّلام، وأنت المؤمن تحبّ المؤمن، وأنت المهيمن تحبّ المهيمن، وأنت الصّادق تحبّ الصّادق»[1] وقد كان أبو موسى مؤمناً صادقاً حقاً.

وكان ابو موسى يتوخّى اليوم الحار الشديد الحرّ الذي يكاد ينسلخ فيه الإنسان، فيصومه[2]، تقرباً إلى الله.

وصام أبو موسى، حتى عاد كأنّه خِلال[3]، فقيل له: «لو أَجْمعت نفسك»[4]، فقال: «أَيْهاتِ[5] إنما يسبق من الخيل المُضْمَرة»[6]، وربما خرج من منزله فيقول لامرأته: «شُدّي رَحْلك فليس على جسر جهنم مَعْبِر»[7]، يريد: أنّ العمل الصّالح هو السبيل للنّجاة من جهنم، ولا يكون إلا بالتعب والدّأب والإيمان.

---

(١) حلية الأولياء (٢٥٩/١)، وقد ذكر ذلك مسروق.

(٢) حلية الأولياء (٢٦٠/١) وصفة الصفوة (٢٢٧/١).

(٣) الخلال: العود الذي يُتَخَلّل به، أي أنه أصبح ضعيفاً كالخلال.

(٤) أجمعت نفسك: أراح نفسه فذهب إعياؤها.

(٥) أَيْهَاتِ: هيهات.

(٦) ضمر: هزل وقلّ لحمه، وأضمر: جعله يضمر.

(٧) صفة الصفوة (٢٢٧/١) والمُعْبر: الشطّ المهّيأ للعبور، والمِعْبَر: ما يعبر به النهر من قنطرة أو سفينة.

وكان إذا نام، لبس ثياباً عند النوم مخافة أن تنكشف عورته[1]، وكان يقول: «إني لأغتسل في البيت المظلم، فأحني ظهري حياءً من ربي»، وكان إذا صلّى في بيت مظلم، تجاذب وحنى ظَهْرَه حتى يأخذ ثوبه ولا ينتصب قائماً، وكان يقول: «إني لأغتسل في البيت الخالي، فيمنعني الحياء من ربي أن أقيم صُلْبي». ورأى قوماً يقفون في الماء بغير أُزُر، فقال: «لأن أموت ثم أُنْشَر، ثم أموت ثم أُنْشر، ثم أموت ثم أُنْشر، أحبّ إليّ من أن أفعل مثل هذا»[2] وهذا دليل على شدّة حيائه.

وكان أبو موسى ممّن يُتْقنون قراءة القرآن من الصّحابة، ويتميّز بحسن صوته في القراءة، وقد مرّ النبيّ ﷺ ومعه عائشة رضي الله عنها ذات ليلة، وأبو موسى يقرأ في بيته فقاما فاستمعا لقراءته، ثم أنّهما مضيا. فلما أصبح لقي أبو موسى النبيّ ﷺ، فقال له: «يا أبا موسى! مررت بك البارحة ومعي عائشة وأنت تقرأ في بيتك، فقمنا فاستمعنا لقراءتك»، فقال أبو موسى: «يا نبيّ الله! أما إني لو علمتُ بمكانك، لَحبَّرْتُ[3] لك القرآن تحبيراً»[4]، وقد أصبح معلّماً للقرآن الكريم على عهد النبيّ ﷺ ومن بعده، وأصبحت له مدرسة في القراءة القرآنية في البصرة، يتمسّكون بها، ويدافعون عنها، ويتحيّزون لها.

وكان لشدّة ورعه يقول: «لئن يمتلىء منْخَري من ريح جيفةٍ، أحبّ إليّ من أن يمتلىء من ريح امرأة»[5]، بالحرام طبعا، أما بالحلال فالأمر مختلف جدا.

---

(١) طبقات ابن سعد (١١١/٤).
(٢) طبقات ابن سعد (١١٣/٤-١١٤).
(٣) حبَّر الشيء: زينّه ونمّقه.
(٤) حلية الأولياء (٢٥٨/١).
(٥) طبقات ابن سعد (١١٤/٤).

وقال أبو موسى لرجل: «ما لي أرى عينك نافرةً؟!»، فقال: «إني التفتّ التفاتةً، فرأيت جارية لبعض الجيش، فلحظتها لحظةً، فصككتها[1] صكّة، فنفرت، فصارت إلى ما ترى»، فقال: «استغفر ربَّك، ظلمت عينك، إن لها أول نظرة، وعليك ما بعدها»[2]، يريد الابتعاد عن إمعان النظر في أعراض الناس خوف الفتنة، ومَنْ حامَ حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

وقال أبو بُرْدة بن قيس أخو أبي موسى: «قلت لأبي موسى الاشعري في طاعون وقع: أخرُجْ بنا إلى وابق[3] نبدو[4] بها، فقال أبو موسى: «إلى الله آبق[5]، لا إلى وابق»[6]، فهو متوكّل على الله وهو حسبه، والتَوكّل مزيّة من مزايا الوَرِع والوَرَع وحال من أحواله.

وطالما أتحف الناس من حوله بوعظه ومواعظه في دروسه وخطبه، فمن خطبه في البصرة قوله: «أيها الناس أبكوا، فإن لم تبكوا فَتَبَاكُوا، فإن أهل النّار يبكون الدّموع حتى تنقطع ثم يبكون الدّماء حتى لو أُجْرِيَ فيها السُّفن لسارتْ»[7] يريد أن يخوّفهم من أهوال النار، ليشجّعهم على العمل الصالح الذي يُدخلهم الجنّة.

وجمع أبو موسى القُرَّاء يوماً، فقال: «لا تدخلوا عليّ إلا مَن جمع القرآن»، فدخل عليه زهاء ثلاثمائة من القُرَّاء، فوعظهم قائلا: «أنتم

---

(١) صكّه: دفعه بقوّة ويريد: نظرت إليها بقوّة. وفي التنزيل العزيز: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: لطمته تعجبا.

(٢) حلية الأولياء (١/٢٦١).

(٣) وابق: لم أجد لها ذكراً في معجم البلدان، ويبدو أنها اسم موضع في البادية القريبة.

(٤) نبدو: نخرج إلى البادية.

(٥) أبق: هرب، فهو آبق وأبوق.

(٦) طبقات ابن سعد (٤/١١١).

(٧) طبقات ابن سعد (٤/١١٠).

قرّاء أهل البلد، فلا يطولنّ عليكم الأمد، فتقسو قلوبكم كما قست قلوب أهل الكتاب »[١]، فقد نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حُمِّلوا الكتاب من قبلهم لمّا تطاول عليهم الأمد، بدّلوا كتاب الله الذي بأيدهم واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلّدوا الرّجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعدٍ ولا وعيد[٢]، فهو يشير بموعظته إلى الآية الكريمة: ﴿... ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾[٣].

ومن مواعظه قوله: «تخرج نفس المؤمن وهي أطيب ريحاً من المِسْك فتصعد بها الملائكة الذين يتوفّونها، فتلقاهم ملائكة دون السّماء، فيقولون: مَنْ هذا معكم؟ فيقولون: فلان، ويذكرونه بأحسن عمله، فيقولون: حيّاكم الله وحيّا مَنْ معكم، فتنفتح له أبواب السَّماء، فيشرق وجهه، فيأتي الربّ عزّ وجلّ ولوجهه برهان مثل الشمس، وأما الآخر، فتخرج روحه وهي أنتن من الجيفة، فتصعد بها الملائكة الذين يتوفونها، فتلقاهم ملائكة دون السّماء، فيقولون: مَنْ هذا معكم؟! فيقولون: فلان، ويذكرونه بأسوأ عمله، فيقولون: ردّوه فما ظلمه الله شيئاً »[٤]، وقرأ أبو موسى: ﴿لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط﴾[٥].

وصلّى أبو موسى يوماً، ثم خرج إلى الناس، فقال: « يا أيها الناس!

---

(١) حلية الأولياء (٢٥٧/١).
(٢) تفسير ابن كثير (٢٣٢/٨-٢٣٣).
(٣) سورة الحديد، آية ١٦.
(٤) حلية الأولياء (٢٦٢/١).
(٥) سورة الأعراف، آية ٤٠، وانظر حلية الأولياء (٢٦٢/١).

إنّكم اليوم في زمان، للعامل فيه لله تعالى أجر، وسيكون بعدكم زمان يكون للعامل فيه لله تعالى أجران»[١]، يريد أنكم من التّابعين، قريبون من عهد النبيّ ﷺ، ورأيتم قسماً من أصحابه، فأنتم متأثرون بذلك فلكم أجر واحد، لأنّ ظروفكم أفضل من زمان يدبّ إليه الفساد فيكون للعامل فيه أجران، لقلّة العاملين، وسوء ظروفهم، وفساد الناس.

وكثيراً ما كان يعتمد الأسلوب القصصيّ في مواعظه، ليعمّق تأثيرها في العقول والنفوس معاً، فلما حضرته الوفاة قال: «يا بَنِي! اذكروا صاحب الرّغيف! كان رجل يتعبَّد في صومعة أزاء سبعين سنة، لا ينزل إلا في يوم واحد، فشُبِّه الشيطان في عينه امرأة، فكان معها سبعة أيام أو سبع ليالٍ. ثم كُشف عن الرّجل غِطاؤه، فخرج تائباً، فكان كلّما خطا خُطوة صلّى وسجد. فآواه اللّيل إلى دُكّان كان عليه اثني عشر مسكيناً، فأدركه العياء، فرمى بنفسه بين رجلين منهم. وكان ثَمّ راهب يبعث إليهم كلّ ليلة بأرغفة، فيعطي كلّ إنسان رغيفاً، فجاء صاحب الرّغيف فأعطى كلّ إنسان رغيفاً، ومرّ على ذلك الرجل الذي خرج تائباً، فظنّ أنّه مسكين فأعطاه رغيفا. فقال المتروك لصاحب الرّغيف: ما لكَ لم تُعطِ رغيفي ما كان بك عنه غنى؟ فقال: أتراني أمسكته عنك، والله لا أعطيك الليلة شيئاً، فعمد التائب إلى الرّغيف الذي دفعه إليه، فدفعه إلى الرجل الذي ترك، فأصبح التائب ميتاً، فوزنت السبعون سنة بالسبع الليالي، فرجحت السّبع الليالي، ثم وزنت السبع الليالي بالرغيف، فرجح الرغيف! فيا بَنِيّ، اذكروا صاحب الرغيف!»[٢].

---

(١) حلية الأولياء (١/٢٦٤).

(٢) حلية الأولياء (١/٢٦٣) وصفة الصفوة (١/٢٢٧-٢٢٨).

ومن أقواله: «وما ينتظر من الدنيا، إلاّ كَلاًّ[1] مُحزناً، أو فتنة تنتظر»[2]، في وصف الدنيا التي لا تأتي إلاّ بالمصائب والأحزان، ولا يجدي معها إلاّ الصَّبر الجميل.

ولا يمكن التّخلّي عن فقرة ورعه، دون تذكّر موقفه من الفتنة الكبرى واعتزاله القتال، دون أن يتخلّى عن عليّ بن أبي طالب لأنّه الخليفة، ولا عن الكوفة لأنّها مقر الخلافة، فكان ولاؤه لعليّ في كلّ شيءٍ إلا القتال، لأنّ الاقتتال كان بين المسلمين، وورعه يحول دون أن يقاتل مسلماً أو يقتل مسلماً، أو يشجِّع على الاقتتال بين المسلمين، أو يسكت عن هذا الاقتتال ولا يأمر بأعلى صوته وبأحرج عباراته بالكفّ عن الاقتتال.

وقد ضحّى بسبب اعتزاله الفتنة، وأمره بالابتعاد عنها ومقاومتها، بمنصبه وحُظوته وبكلّ المظاهر الدنيويّة، لأنّ التزامه بالورع كان أغلى عليه من كلّ ما في الدنيا من مناصب ومظاهر ومتاع.

كما أنّ موقفه في التّحكيم، أملاه عليه ورعه، وما غلبه عمرو بن العاص، بل غلبه ورعه، فخسر كلّ ما يملك، وهام على وجهه هارباً، حتى استقرّ في مكّة، مبتعداً عن العدوّ والصّديق، إن كان قد أبقى له قول الحقّ صديقا.

كتب معاوية بن أبي سفيان إلى أبي موسى: «سلام عليك، أما بعد، فإن عمرو بن العاص قد بايعني على الذي قد بايعني عليه، وأُقْسِمُ بالله لئن بايعتني على ما بايعني عليه، لأبعثنّ بنيْك أحدهما إلى الكوفة

---

(١) الكلّ: من لا ولد له ولا والد، ومَن يكون عبئاً على غيره، والضّعيف وفي التنزيل العزيز: ﴿وَهُو كَلٌّ على مَوْلاهُ﴾ والثقيل لا خير فيه.

(٢) حليّة الأولياء (١/٢٦٠).

والآخر على البصرة، ولا يُغْلَقُ دونك بابٌ، ولا تُقْضى دونك حاجة، وإني كتبتُ إليك بخط يدي، فاكتب إليّ بخط يدك»، فكتب إلى معاوية: «أما بعد، فإنّك كتبتَ إليّ في جسيم أمر أمّة محمدﷺ، لا حاجة لي فيا عرضت عليّ»، قال: «فلما ولّى أتيته، فلم يُغْلق دوني باب، ولم تكن لي حاجة إلاّ قُضيتْ»[١]. وما رضي بالعمل مع معاوية من قبل، لأنّ الخليفة القائم يومها ليس معاوية بل عليّ، والخروج عن ولائه لا يرتضيه ورعه حتى إذا جفاه عليّ وابتعد عنه وباعده، ولكنّه أتى معاوية بعد استشهاد عليّ، لأنه أصبح هو الخليفة القائم، فهو يوالي معاوية تطبيقاً لمبدأ: السّمع والطّاعة، الذي يفرضه عليه ورعه.

ولم يحقد معاوية على أبي موسى، لأنّه كان متيقّناً أنه كان يتصرّف بوحي ورعه، فحفظ له حرمته في حياته وبعد موته. قال أبو بُرْدة[٢]: «دخلت على معاوية بن أبي سفيان حين أصابته قَرْحَتُه، فقال: هلمّ يا ابن أخي، تحوّل فانظر. فتحوّلت فنظرت فإذا هي قد سُبِرَت[٣] - يعني قرحته - فقلت: ليس عليك بأس يا أمير المؤمنين، فدخل يزيد ابن معاوية، فقال له معاوية: إن وليت من أمر الناس شيئاً، فاسْتَوْصي بهذا، فإنّ أباه كان أخاً لي، غير أني قد رأيت من القتال ما لم يرَ»[٤].

وكان أبو موسى قد أتى معاوية وهو بالنُخيلة[٥]، وعليه عِمامة سوداء، وجُبَّة سوداء، ومعه عصاً سوداء»[٦]، ليؤدي واجبه في الولاء

---

(١) طبقات ابن سعد (١١١/٤-١١٢).

(٢) أبو بردة بن أبي موسى الاشعري.

(٣) سبرت: غارت.

(٤) طبقات ابن سعد (١١٢/٤).

(٥) النُّخلية: موضع قرب الكوفة على سمت الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٦/٨-٢٧٧).

(٦) طبقات ابن سعد (١١٣/٤).

للخليفة القائم، دون أن يتنازل حتى المظهر عن ولائه للخليفة الشّهيد. وكان السّواد شعار العلويين، وكان مجرّد ارتدائه يومذاك ذنباً عظيماً.

وهذا هو منتهى الاستقامة والثبات على المبدأ، لا يميل مع الرّيح حيث تميل، ولكن يبقى مع الحق وحده، مهما يتحمّل في سبيل الحق من أهوال.

هذا هو مبلغ ورع أبي موسى، لذلك كان موضع ثقة النبيّ ﷺ والخلفاء من بعده، وقد كتب عمر في وصيّته: «أن لا يُقَرّ لي عامل أكثر من سنة، إلاّ أبا موسى فليُقَرّ أربع سنين»[1]. كما كان موضع ثقة الناس به، وقد يكون أوّل عامل اختاره الناس عاملاً على بلدهم بعد أن رفضوا استقبال عاملهم السّابق، وحَمَلوا الخليفة على توليته عليهم وإعفاء عاملهم الذي كان قبله.

والقول بأنّ المناصب تُوَلّى لذوي الكفايات العالية، بحيث يكون الرّجل المناسب في المنصب المناسب، قول لا غبار عليه يتّفق اتفاقاً كاملاً مع ما كان عليه الأمر على عهد النبيّ ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده.

ولكن هذا القول لا يُغني عن كلّ قول، فالواقع أنّ الذي يُوَلّي لا بدّ أن يتيسّر فيه شرطان الكفاية العالية، والوَرع المطلق، فلا بدّ من أن يكون الوالي ذا كفاية وورعا.

وهذان الشّرطان في أبي موسى، هما اللّذان جعلاه موضع ثقة رؤسائه ومرؤوسيه في وقت واحد، ولم يُيَسّرا له النجاح في واجباته الكثيرة المتشابكة فحسب، بل يَسّرا له التّميُّز في النّجاح.

---

(١) البداية والنهاية (٨/٦٠).

وقد ذكرنا ما فيه الكفاية عن كفاءة أبي موسى في الحديث عن أبي موسى: الإداريّ، وبقي أن نتحدّث عن ورع أبي موسى بإيجاز شديد، بعد أن تحدّثنا على أدلة ذلك الورع الأصيل.

إن الورع درجات، أعلاها هو أن يطبِّق الورِع على نفسه أولاً أحوال الورع، وأن يأمر به غيره من الناس، ويكون مثالاً شخصياً يُقتدى به في اقتباس أحوال الورع، وأن يكون مستعداً أن يضحي بكلّ ما يملك من غالٍ ونفيس من أجل ورعه، ولا يضحي بورعه من أجل ما يملك من غالٍ ونفيس.

ذلك هو الورَع في أعلى درجاته، وهذا هو ما طبَّقه أبو موسى على نفسه حاكماً ومحكوماً، ورئيساً ومرؤوساً، وقائداً وجندياً، ومرشداً وقاضياً، فكان بحق كما وصفوه: «العامل المعلِّم صاحب القراءة والمِزمار، الرابض نفسه بالسياحة في المضمار. كان بالأحكام والأقضية عالما، وفي أودية المحبّة والمشاهدة هائما، وبقراءة القرآن في الحنادس[1] مترنِّماً وقائماً، وفي طول الأيام والحرور طاوياً وصائماً»[2].

لقد أتعب أبو موسى نفسه في حياته، وأتعب مَنْ جعله أسوة حسنة له في حياته وبعد رحيله، وخسر كل شيءٍ ماديّ يملكه، ولكنّه ربح نفسه، وقد مات كثير من أصحاب السّلطان والأموال وهم أحياء، فلا ذكر لهم بالخير والثناء، لأنّهم ربحوا السُّلطة والمال، وخسروا أنفسهم، وبقي ذكر أبي موسى عَطِراً في التاريخ وبين الناس، وتلك هي عبرته لأصحاب القلوب العامرة بالإيمان، ولأصحاب الجيوب المتخمة نفوسهم بالظلام.

وهل يستوي أصحاب القلوب وأصحاب الجيوب؟

---

(١) الحِنْدس: الظلمة، والليل الشديد الظلمة، وأسود حِنْدس: شد السواد (ج): حنادس.

(٢) حلية الأولياء (٢٥٦/١).

٦. الرَّجُل

نزل أبو موسى الكوفة، وابتنى بها داراً، وله بها عَقِب[١]، وقد نزل الكوفة بعد أن عزله عثمان بن عفان عن البصرة سنة تسع وعشرين الهجريّة كما ذكرنا.

وبعد التحكيم الذي كان فيه ممثلاً لعليّ بن أبي طالب وأهل العراق، وعمرو بن العاص ممثلاً لمعاوية بن أبي سفيان وأهل الشّام، هرب أبو موسى من مَثابة التحكيم مباشرة إلى مكّة المكرّمة، خوفاً من أنصار عليّ المتحمِّسين له، ولكنّه عاد إلى الكوفة بعد استشهاد عليّ بن أبي طالب ومبايعة معاوية بن أبي سفيان بالخلافة ودخول الكوفة سنة إحدى وأربعين الهجريّة[٢]، فاستقبل معاوية أبا موسى بالنُّخيلة، وعلى أبي موسى عمامة سوداء وجُبَّة سوداء ومعه عصا سوداء[٣] كما ذكرنا ذلك قبل قليل.

ولما حضر أبا موسى الموت، جمع بنيه فقال: «انظروا إذا أنا مِتّ، فلا تُؤذِنُنّ بي أحداً، ولا يَتْبَعَني صوت ولا نار، وليكن مُمْشى أحدكم بجذاء رُكْبتي من السرير». ولما أُغْمي عليه بكت ابنة الدَّوْميّ أمّ أبي بُرْدة، فقال: «أبْرأ إليكم من حلَق وسَلَق وخرَق»[٤]. وأَغْمَى عليه، فبكوا عليه، فقال: «أما علمتم ما قال رسول الله ﷺ؟»، فذكروا ذلك لامرأته، فسألته، فقال: «مَنْ حلَق وخرَق وسَلَق»، وأُغمِيَ على أبي موسى فبكوا عليه فأفاق وقال: «إني أبْرأ إليكم مما برىء منه رسول الله ﷺ: مَنْ حلَق وخرَق وسَلَق». وأُغْمي عليه في مرضه،

---

(١) طبقات ابن سعد (٦/١٦).

(٢) العبر (١/٤٨-٤٩).

(٣) طبقات ابن سعد (٤/١١٣).

(٤) حلق الرأس: أزال الشعر عنه. سَلَق: صاحَ ورفع صوته. خرق: خَرَق الشيء: شقّه ومزّقه.

فصاحت عليه أم بُرْدة، فأفاق، فقال: «إني بريء ممن حلق وسلق وشقّ»، يقول ذلك للخامِشة وجْهَها. وقال: «إذا حفرتم لي، فأعْمِقوا لي قَعْره»، وقال: «أعمقوا لي قبري»[1].

ومات أبو موسى سنة ثِنْتَين وخمسين الهجريّة في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وقال بعض أهل العلم: «إنّه مات قبل هذا الوقت بعشر سنين، سنة ثنتين وأربعين الهجريّة[2]. وقيل: مات سنة أربع وأربعين الهجرية[3]، وقيل: سنة خمسين الهجرية أو سنة اثنتين وخمسين الهجرية[4]، وأكثر المصادر تتفق على أنّ وفاته كانت سنة ثنتين وأربعين الهجرية أو سنة أربع وأربعين الهجرية[5]، وهي المصادر القديمة ومصادر المحدِّثين: القديمة منها قريبة العهد من الذين سجّلت سِيَرهم، والمحدِّثون الموثوق بهم معروفون بصدقهم ودقّتهم. يؤيِد ذلك ما جاء في مصادر المحدِّثين، أنّه مات وهو ابن ثلاث وستين سنة[6]، ولو مات في الخمسينات، لكان مولده سنة ثلاث عشرة قبل الهجرة، فمتى أسلم في مكّة، والمعروف أنّه أسلم قديما، فإذا قدّرنا أنّه أسلم في السنة الخامسة من الرِّسالة، أو السنة الثامنة قبل الهجرة، فمعنى ذلك أنه أسلم وهو في الخامسة من عمره، وهذا غير منطقي ولا معقول. فلا بدّ أنّه توفي سنة اثنتين وأربعين الهجرية أو سنة أربع وأربعين الهجرية[7]، وأرجِّح ما

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/١١٥-١١٦).
(٢) طبقات ابن سعد (٤/١١٦) و(٦/١٦).
(٣) العبر (١/٥٢) وصفة الصفوة (١/٢٢٨).
(٤) الطبري (٥/٢٤٠) وابن الاثير (٣/٤٧١) وانظر البداية والنهاية (٨/٦٠).
(٥) أنساب الأشراف (١/٢٠١) وطبقات ابن سعد (٤/١١٦) والعبر (١/٥٢) وصفة الصفوة (١/٢٢٨) وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٦٩) وتهذيب التهذيب (٥/٣٦٣).
(٦) تهذيب التهذيب (٥/٣٦٣) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/٢٦٩).
(٧) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٦٩).

اقتنع به البخاري من أنّ وفاته سنة أربع وأربعين الهجرية، لأنّ البخاري شيخ المحدِّثين وأكثرهم دقّة وتوثيقا، فيكون مولد أبي موسى سنة تسع عشرة قبل الهجرة، أي قبل البعثة النبويّة بست سنوات، فإذا أسلم في السنة الخامسة من البعثة، فمعنى ذلك أنه أسلم في الحادية عشرة من عمره، وأن النبيّ ﷺ بعثه إلى اليمن في السنة التاسعة الهجرية وهو ابن ثمان وعشرين سنة، وأنّه عاش ثلاثاً وستين سنة قمرية، وعاش إحدى وستين سنة شمسية (٦٠٣م - ٦٦٤م)».

ويبدو أنّه كان ميسور الحال في مكّة، فقد كان يمتلك بئراً فيها بالمَعْلاَة[١]، ولم يكن في حينه يمتلك بئراً من الآبار المعدودة غير الميسورين.

تزوّج أمّ كلثوم بنت الفَضْل بن العبّاس بن عبد المطّلب[٢]، كما تزوّج ابنة الدَّوْميّ[٣]، ولا نعرف عن زوجاته الأخريات شيئاً.

وأكبر أولاده: إبراهيم، قال أبو موسى: «وُلد لي غلام، فأتيت به رسول الله ﷺ، فسمّاه: إبراهيم، وحنّكه بتمرة»[٤]. وأبو بكر بن أبي موسى، واسمه كنيته، وكان أسنّ من أبي بُرْدة. وأبو بُرْدة بن أبي موسى، وأُمّه ابنة الدَّوْميّ. وموسى بن أبي موسى، وأُمّه أمّ كلثوم بنت الفضل بن العبّاس بن عبد المُطَّلب[٥]، وكان أبو بكر أحول، فهو معدود من الحُوْلان الأشراف[٦]، وكان أبو بُرْدة بن أبي موسى قاضياً للحجّاج

---

(١) المعلاة: موضع بين مكة وبدر، انظر معجم البلدان (٩٩/٨)، ويبدو أن البئر في مكّة، انظر البلاذري (٦٨).

(٢) المعارف (١٢١) والمحبّر (٤٣٩).

(٣) طبقات ابن سعد (١١٥/٤).

(٤) طبقات ابن سعد (١٠٧/٤).

(٥) المعارف (٢٦٧).

(٦) المحبّر (٣٠٣).

ابن يوسف الثّقفي، ولاّه بعد شُرَيْح[1]، واسم أبي بُرْدة: عامر. ومحمد بن أبي موسى، وعبدالله بن أبي موسى، ولأولاد أبي موسى في البصرة والكوفة عَدَد، ومنهم بالأندلس[2].

وأبو موسى رجل خفيف الجسم، قصير، أَثطّ[3].

وقد مات أبو موسى بالكوفة، وقيل: إنّه مات بمكّة[4]، والأول أصحّ، لأنه لقي معاوية بالنُّخيلة قبل موته بقليل، والنُّخيلة قريبة من الكوفة كما ذكرنا، وقد مات بداره في الكوفة[5]، ودفن بـ(الثَّوِيّة)[6] بالكوفة.

وكان قد نزل الكوفة، وابتنى بها داراً[7]، ليأوي إليها أهله وولده، ولا نعلم أنّه خلّف غير هذا الدار في الكوفة، ويبدو أنّه كان ميسوراً قبل إسلامه، فقد كان من أصحاب الآبار المعروفة[8] في حينه، وكانت في تلك الأيام غالية الثمن، تدرّ على صاحبها المال الوفير، مما يدلّ على أنه لم يَزْدَدْ بعد إسلامه غنى، بل أنفق ما كان يملك قبل إسلامه، بعد اسلامه في سبيل الله، وقد رأينا كيف خرج من البصرة حين نُزع عنها وما معه إلا ستمائة درهم عطاء عياله، مما يدلّ على نزاهته المثالية

---

(١) المحبّر (٣٧٨).

(٢) جمهرة أنساب العرب (٣٩٧-٣٩٨).

(٣) طبقات ابن سعد (١١٥/٤) والمعارف (٢٦٦) وانظر المحبّر (٣٠٥)، والثط: هو الذي لا لحية له، وهو الكوسج، والسناط.

(٤) اسد الغابة (٣٠٩/٥) والاستيعاب (٩٨١/٣).

(٥) الاستيعاب (٩٨٠/٣).

(٦) الثوية: موضع قريب من الكوفة، وقيل: بالكوفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٨/٣)، وهو موضع مقبرة بالكوفة.

(٧) طبقات ابن سعد (١٦/٦).

(٨) طبقات ابن سعد (١١١/٤).

المطلقة، وكان بمقدوره أن يصبح غنّياً من عطائه أميراً ومن الغنائم في الفتوح، ولكنّه كان كما يبدو لا يُبْقي لديه شيئاً.

ومناقب أبي موسى كثيرة[1]، ذكرنا بعضها في سيرته إنسانا. فإذا لم يُخَلِّف شيئاً من متاع الدنيا، فقد خلّف الذِّكر المُسْتَّطاب ومضى الذين خلّفوا المتاع، ومضى متاعهم، وبقي الذين خلّفوا الذِّكر الحسن بما خلّفوه، وشَتَّان بين الذِّكر الباقي والمتاع الفاني، وتلك هي عبرة العمل الصالح في هذه الحياة للذين يريدون أن يعملوا قبل الرّحيل.

القائد

«**سيِّد الفوارس أبو موسى**»[2]، تلك هي قولة رسول الله ﷺ في أبي موسى الأشعري، وهي شهادة تقلِّد أبا موسى أرفع وسام معروف من أوسمة الشّجاعة الخارقة.

وكانت هذه الشّهادة النبويّة، نتيجة من نتائج المواقف البطولية لأبي موسى، فقد ولّى النبيّ ﷺ أبا عامر الأشعري عمّ أبي موسى سرية لمطاردة المنهزمين من المشريكن في غزوة حُنَيْن، فقتل تسعة من أبطال المشركين في المبارزة، ثم قتله العاشر، لأنّه كان بطل أبطالهم، ولكنّ أبا موسى قتل قاتل عمّه[3]، وقاد رجال السريّة إلى نصر حاسم، كان يمكن أن يؤدي قتل قائدها أبي عامر الأشعري إلى هزيمة شنعاء، كما كان يحدث في الحروب القديمة عند قتل القائد، إذ تنهار معنويات رجاله، ويهربون من ساحة القتال.

---

(١) تهذيب التهذيب (٣٦٣/٥).

(٢) طبقات ابن سعد (١٠٧/٤).

(٣) مغازي الواقدي (٣/٩١٥-٩١٦).

كما أنّه قتل في معركة واحدة تسعة من المشركين[1]، فكان يضرب لرجاله بشجاعته في القتال أروع الأمثال.

لقد كانت الحروب القديمة بحاجة إلى قائد يتميز بالشجاعة والإقدام، لأنّه كان عليه أن يتقدّم الصفوف ويبارز أعداءه إذا ما دُعي للمبارزة، فإذا لم يُدْع إليها واقتضت ظروف المعركة أن يرفع معنويات رجاله ويزعزع معنويات عدوّه بالدّعوة إلى مبارزة قائد أعدائه أو أبطالهم، فلا بدّ أن يبادر هو بالدّعوة إلى المبارزة، وهذا ما يحتاج إلى الشجاعة والإقدام.

وقد كان أبو موسى بحقّ شجاعاً مقداماً، أثبتت أيّامه في المعارك أنّه ليس فارساً فحسب، بل هو سيِّد الفوارس، في أيام كانت الشجاعة فيها هي القاعدة والجبن هو الاستثناء.

ولكنّه لم يكن يعتمد الشجاعة وحدها في قتاله، بل كان يعتمد الشّجاعة والعقل: يبدأ بالعقل فيحاول أن يحقِّق أهدافه من عدوه بالمفاوضات وعقد الصّلح وإشاعة السّلام والتعاون الوثيق بين الغالب والمغلوب، نتيجة للمعاملة بالحُسْنى وتحكيم المنطق والعقل. ولكن إذا لم ينجح في عروضه السّلمية للصلح ووضع حدّ للقتال، ولم يبق أمامه إلاّ الأسِنَّة مركبا، أقدم على ركوبها غير متردِّد، بشجاعة وإقدام: «نزل ابو موسى بأَصْبهان، فعرض عليهم الإسلام، فأبوا، فعرض عليهم الجِزْية، فصالحوه على ذلك، فباتوا على صُلْح، حتى إذا أصبحوا أصبحوا على غدْرٍ، فبارزهم القتال، فلم يكن أسرع من أن أظهره الله عليهم»[2].

---

(١) جوامع السِّيرة (٢٤١).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/١١٠).

تلك هي سياسته في القيادة، وذلك هو منهجه القياديّ: العقل أولاً، والشجاعة ثانياً، وتلك هي تعاليم الإسلام الجازمة في القتال: الإسلام، أو الجزية، أو القتال، طبّقها أبو موسى كأحسن ما يكون التّطبيق قائدا.

وكانت الحروب القديمة بخاصة، بحاجة إلى قادة، يعملون بعقولهم وسيوفهم: بعقولهم، لإعداد الخطط العسكرية، وتبليغها، وتنفيذها، وإدارة المعارك، ومفاوضة الأعداء قبل نشوب القتال للصّلح، وفرض السّلام بالحكمة والحُسنى والمنطق، ويعملون بسيوفهم في المعركة: يبارزون الأبطال، ويصاولون الأعداء.

والحقّ أنّ أبا موسى كان مثالاً رائعاً للقائد المتميِّز الذي يعمل بعقله وسيفه معاً في آن واحد، العقل أولاً، والسيف ثانياً وأخيراً، لذلك انتصر في كلّ معاركه التي خاضها، ولم ينكص له لواء واحد طيلة حياته العسكريّة الطويلة، التي امتدت أكثر من عشرين سنة متواصلة.

وليس من الغريب أن يفتح أبو موسى تسع مناطق صلحاً، ومنطقة واحدة عَنْوةً، فهذا دليل قاطع على أنّه كان يعمل بعقله أولاً وقبل كل شيء، والسّيف ثانياً وأخيراً، والقول أنّ ما عمله هو مجرّد تطبيق عمليّ لتعاليم القتال في الإسلام حقّ لا ريب فيه، ولكنّ تطبيق هذه التّعاليم بمثل هذا النّجاح الباهر والنسبة العالية من الصلح لا يقدر عليه كلّ مسلم حقّ، ولا يقدر عليه إلاّ من تميّز بالعقل الرّاجح والإيمان العميق، وهو ما تميّز به أبو موسى في هذا المجال.

وعقليته المتميِّزة، جعلته سريع القرار سليمه، والسّرعة في إصدار القرار ضرورية في القتال، لتطور أحوال المعركة بسرعة خاطفة في كثير من الأحيان، مما يجعله قادراً على مواكبة المعركة في الوقت والمكان الجازمين.

وكان ذا إرادة قويّة، إذا قرّر فلا بدّ من أن يضع قراره في حيِّز

التنفيذ، فيصبح عملاً ولا يبقى كلاما.

وكان ذا شخصية رصينة، فلا يُصدر أمراً لا يمكن تنفيذه، بل يصدر أوامر قابلة للتنفيذ بسهولة ويسر، أو بصعوبة وعسر، على كلّ فهي أوامر يمكن تنفيذها وكفى، وشخصيّته الرصينة كفيلة بعمل رجاله الذين صدرت الأوامر إليهم والمسؤولين عن تنفيذها، على وضعها في حيِّز التطبيق العملي الجادّ المثمر بما يمكن من السّرعة والاتقان.

وكان يتحلّى بمزايا الضّبط المتين، ويؤمن بمبادىء السّمع والطاعة، فلا مخالفة، ولا تردّد في التنفيذ، ولا دعوة إلى فتنة ولا مشاركة فيها باللّسان أو اليد أو السّيف أو بها جميعاً، ولا التّشجيع عليها من قريب أو بعيد ولا بالتلميح أو التّصريح. وكما فرض على نفسه مختاراً مبدأ السّمع والطاعة للخليفة القائم، فكان دائماً مع الخلفاء على أعدائهم، كذلك فرض على رجاله السّمع والطّاعة لقيادته، فلم نسمع عن مخالفة واحدة لأوامره قائداً وإدارياً، مع أنّه كان على البصرة والكوفة وعلى جيش البصرة وجيش الكوفة، والبصرة والكوفة لا ترضيان عن قائد ولا أمير، ولا يرضى عنها قائد ولا أمير.

وكان يتحمّل المسؤولية إلى الحدود التي لا مخالفة في تحمّلها لأوامر رؤسائه، إذ هو لا يطيق خلاف ذوي الأمر المسؤول أمامهم مباشرة كالخليفة أو قائده العام، فهو من هذه الناحية قائد مُتَّبِعٌ وليس قائداً مُبْتدِعاً. وإذا اقتضى الأمر مخالفة أوامر رئيسه المباشر، فهو يعرض الأمر للرئيس ويعرض له ظروفه ويبسط له عذره، ثم يَنْتَظر جواب رئيسه ويعمل بما يأمره به نصاً وروحاً، بدون مخالفة ولا خلاف.

وكانت له نفسية لا تتبدّل في حالتي الرّخاء والشدّة، فهو بخير في الحالتين، إذا أصابه الخير شكر، وإذا أصابه الشر صبر، لا يُبْطِرْ الرّخاء، ولا تجزعه الشِدّة.

وكان يعرف نفسيّات رجاله وقابلياتهم، فيُكلّف كل واحد منهم بما يتفق مع نفسيّة ويناسب قابليته، ولا يحمله ما يكره أو ما لا يطيق.

وكان موضع ثقة رؤسائه من خلفاء وأمراء وقادة، لأنّه كان مطيعاً بعيداً عن خلق المشاكل، وكان يبادلهم الثقة بثقة مثلها، فيخلص في عمله وفي أداء واجبه فيرضيهم بالأعمال كما يرضيهم بالطّاعة المطلقة. وكان موضع ثقة رجاله، لا يستطيعون إلاّ الإعجاب به والتقدير له، لأنّه يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الآخرون، ولا يفعل في الخفاء ما لا يفعله في العلن. كما كان يثق برجاله كما يثقون به، والثقة المتبادلة من عوامل النصر، لأنّ التعاون بين القائد ورجاله يكون صادراً عن القلب، فيكون تعاوناً وثيقاً إلى أبعد الحدود.

وكان موضع حبّ رؤسائه ومرؤوسيه: موضع حب رؤسائه، لأنّه مطيع وبعيد عن الفتنة، ويؤدي واجبه على أحسن ما يرام. وموضع حبّ مرؤوسيه، لأنّه لا يظلمهم، ولا يغمط حقوقهم، ويعرف لهم اقدارهم، ولا يحرم أحدهم من منصب ولا عطاء يستحقّه، ولا يتأثّر بالحسوبيّة والمنسوبية والوساطات لتقديم مَن لا يستحق التقدّم، فيحرم المستحق ويُقدّم غير المستحق، فهو دائماً يصون حقوق رجاله مادّياً ومعنوياً. وبدوره يبادل رؤساءه ومرؤوسيه حبّاً بحب، ويحب لهم ما يحبّه لنفسه.

وكانت له قابليّة بدنيّة متميّزة تعينه على تحمل المشاق العسكريّة، فكان إذا مطرت السّماء، قام فيها حتى تُصيبه السّماء، كأنّه يُعجبه ذلك[1]، ولا يتستّر من المطر خوف البلل. وكان متقشّفاً بطبعه في مأكله وملبسه ومسكنه، يكتفي منها بالنّزر القليل الذي يسدّ الحاجة ويستر

---

(١) طبقات ابن سعد (١١٠/٤).

العورة، ولا يميل إلى الترف والمترفين، ولا إلى السّرف والمسرفين، ولا يميل إلى الرّاحة والدَّعة ولذيذ العيش. وكانت له طاقة نفسيّة عجيبة على مغالبة اليأس والقنوط والجزع، والركون إلى الصبر الجميل على المكاره والمصائب والآلام. كلّ ذلك جعله يفضِّل أن يكون في ساحات القتال على أن يكون بين أهله آمناً مطمئناً، لهذا نراه قد قضى أكثر حياته مجاهداً، لأنّه كان يعتبر الجهاد في سبيل الله من أعظم العبادات: لا يبالي في جهاده أن يكون قائداً عاماً، أو قائداً مرؤوساً يضع نفسه بأمرة غيره من القادة - حتى القادة الذين ولاّهم هو وبعث بهم إلى ساحات القتال، وهذا ما لا يقدر عليه إلاّ المجاهدون الصّادقون الصابرون المحتسبون الصّادقون.

وكان يتميز بعقل متّزن ورأي سديد، ومن أقواله التي تدلّ على اتّزان عقله وسداد رأيه قوله: «إنّ الإمرة ما اؤتُمر فيها، وإن المُلْكَ ما غُلب عليه بالسَّيْف»[1]، وصدق أبو موسى فإن الإمرة في أيامه يتولاّها مَنْ يتولاّها بالشُورى والاختيار الحرّ المُبَرَّأ من الضغط والإكراه، فذلك أمير الناس وعلى الناس وبالناس. أما الملك فيؤخذ بالسّيف، كما تؤخذ الدنيا غِلابا، فهو بالقهر لا بالاختيار، وهو ملك الناس وعلى الناس بالقوّة لا بالنّاس، كما كان يعبِّر عن ذلك الأقدمون، للناس هم الشعب كما نصطلح عليه اليوم.

وما شخّصه أبو موسى، في الحكم والسياسة، ينطبق على ما يقوله رجال القانون والسياسة في القرن الاخير نتيجة دراساتهم الجامعية وتجاربهم العملية ونضوجهم الفكري، ولكن أبا موسى أرسل قولته تلك نتيجة عقليته المتّزنة ورأيه السّديد وحكمته وتجاربه في حياته العمليّة.

---

(١) طبقات ابن سعد (١١٣/٤).

وهذه المزايا الفكرّية والعقليّة، جعلت قيادته تنجح بالصّلح مع الأعداء، في تسع مناطق، وتنجح بالقتال في منطقة واحدة. أي أنّ تسعين بالمائة من نجاحه قائداً كان بالصّلح، وعشرة بالمائة فقط نجاحه قائداً بالقتال، وهذا حقّق له أهدافه بخسائر قليلة جدا بالأرواح، ولو انعكس الأمر لتضاعفت خسائره لتحقيق تلك الأهداف.

وهذا هو فضل العقل المتّزن والرأي السديد بالنسبة للقائد، فالخير لا يقتصر عليه، بل يشمل رجاله كافة، فلا يتكبدون خسائر فادحة دون مسوّغ، إذ يحقّق لهم قائدهم أهدافهم من القتال كاملة، ويحفظ لهم أرواحهم، فلا عجب أن يكون أبو موسى موضع ثقة رجاله ثقة بلا حدود.

وعند مقارنة أعماله العسكريّة بمبادىء الحرب، نجد أنّه: (يختار مقصده ويديمه) ولا يحيد عنه، فهو يعرف ما يريد، ويبذل جهده لتحقيقه، ولا يستطيع عدوّه أن يجبره على تبديل رأيه بشكل أو بآخر مثلاً إذا قصد هدفه السّوْقي، فحاول عدوّة افتعال معركة جانبيّة لصرفه عن هدفه السّوْقي إلى هدف تعبويّ، ولا قيمة للهدف التّعبوي إلى جانب الهدف السّوْقيّ كما هو معروف، إلا أن أبا موسى لم يكن من أولئك القادة الذين يُصْرفون عن تحقيق مقصدهم تلك الأساليب، فكان يمضي قُدماً لتحقيق هدفه المختار، غير ملتفتٍ إلى ألاعيب خصمه.

وكانت معارك أبي موسى كلّها (تعرّضية)، فلا نعرف له معركة واحدة دفاعية أو انسحابية، فهو قائد تعرّضي، يقدِّر قيمة التعرّض في رفع معنويات رجاله من جهة، وزعزعة معنويات أعدائه من جهة أخرى.

وكان في تعرّضه يحاول أن: (يباغت) عدوّه إذا استطاع إلى ذلك سبيلا، وقد أفلح في تحقيق هذا المبدأ الحيوي في كثير من عمليّاته

العسكرية، فأجبر عدوّه على قبول الصُّلح أو الفرار من ميدان القتال، والمباغتة كما نعلم من أهم مبادىء القتال على الإطلاق.

وكان يعمل على (تحشيد قُوّته) للمعركة، وقد أدّى حين كان على البَصْرة دورين مهمّين لهما علاقة مباشرة بالناحية العسكريّة من حياة أبي موسى العامة، هما: دور حشد القوة وإرسالها إلى ميادين القتال بقيادة أحد القادة المرؤوسين، ودور قيادة رجاله من أهل البصرة الذين حشدهم للقتال. ولا بدّ أنْ نعرف أنّ واجب التّحشد الذي نهض به أبو موسى في تلك الأيام، كان في أوج مدّ الفتح الإسلامي العظيم، وأن أهل البصرة كان لهم الأثر الحاسم في فتوح المشرق الإسلامي، مما يشير إلى دور أبي موسى المتميِّز في تحشيد القوّة، فقد بذل قصارى جهده بأحسن طريقة وأسلوب في حشد المجاهدين وتسييرهم إلى ميادين الجهاد بالعدَدَ والعُدَد الكاملين وبالقيادات المتمرِّسة المقتدرة.

وكان يطبِّق مبدأ: (الإقتصاد بالجهود) فلا يُعطي خسائر بالأرواح دون مسوِّغ، وقد لمسنا بوضوح نجاحه في إقرار الصّلح في أكثر أيام قيادته وعدم اللّجوء إلى السّلاح إلا مضطراً، وكان أهمّ أسباب هذا المسلك الذي سلكه في قيادته هو الاقتصاد بالجهود، في تحقيق أهدافه من القتال بالسّلام لا بالحرب، حفاظاً على أرواح الرِّجال أن ترهق بدون استنفاذ الجهود كافة في بقائها على قيد الحياة.

وكان: (يتعاون) تعاوناً وثيقاً صادقاً مع غيره من القادة المسلمين بكلّ رحابة صدر وعن طيبة خاطر، كما أنه يحمل قواته على التّعاون فيما بينها تعاوناً وثيقاً صادقا، وبدون تعاون وثيق يصعب إحراز النّصر.

وكان يطبِّق مبدأ: (الأمن) تطبيقاً مثالياً، فقد حمى رجاله بشتّى الوسائل والأساليب، لكي لا يباغتهم عدوّهم، ولا نعرف أنّ رجاله

بُوغتوا من عدوهم في يوم من الأيام. كما بذل قصارى جهده لمنع عدوّه من الحصول على المعلومات عن قوّاته، فحرم عدوّه من رصد حركاتها ونيّاتها.

وكانت خططه العسكرية التي يُعِدها لتحقيق أهدافه من القتال تَتَّسِم: (بالمرونة)، صالحة للتطبيق في كلّ وقت، كما أنها صالحة للتحوير في حالة تبدّل الموقف من حال إلى حال. فقد كان يسبق النّظر، ويحسب لكلّ ما يتوقّع حسابه، ويدخل في خططه أسوأ الاحتمالات فإذا وقعت كان مستعداً لها بالمعالجة المدروسة المستحضرة، وإذا لم تقع لم يخسر شيئاً في استعداداته الرّصينة.

وإذا كان أبو موسى يطبِّق كل هذه المبادىء القتالية، فهو بدون شك: (يديم المعنويات) إدامة مستمرة بالنصر، والمعنويات ترتكز على أساسين: الإيمان، والنصر، وقد تيسّرا في أيام أبي موسى تيسّرا عظيما، فلا عجب أن ترتفع المعنويات إلى عنان السماء.

وقد كان أبو موسى يُديم معنويات رجاله، بشجاعته الشّخصيّة النّادرة، وقيادته الحكيمة المتَّزنة، ومواعظه الحسنة المستمرَّة، وبمثاله الشخصيّ لرجاله في الورع والتقوى، وبانتصاراته المتعاقبة الباهرة.

وكان يطبِّق مبدأ: (الأمور الإداريّة)، فلا ينقص رجاله ما يأكلون ويلبسون ولا ما يتسلّحون به ولا ما يُحملون عليه، وتصل أعطياتهم إلى مَنْ يعولون، فلا يكون المجاهد في ميدان الجهاد، ويبقى قلقاً على أهله وذويه في شيء. وبعد النّصر كان يَقسم بالسويّة، فينال كلّ مجاهد ما يستحق من الغنائم: للفارس حقّه، وللراجل حقّه، بموجب تعاليم الدّين الحنيف.

لقد كان أبو موسى يطبِّق كلّ مبادىء القتال تطبيقاً سليماً.

وكان أبو موسى يتمتّع بماضٍ ناصع مجيد، فهو صحابي جليل،

قديم الإسلام، ومن أصحاب الأيام، شجاع مقدام، قاض ومعلّم، ومحدِّث وفقيه. والرجل الذي يُقاتل تحت راية قائد له ماضٍ ناصع مجيد، غير الرّجل الذي يقاتل تحت راية قائد ليس له في سجِّل الباقيات الصالحات ذِكر مستطاب أو ليس له أيّ ذكر على الإطلاق.

وكان بالإضافة إلى كلّ تلك المزايا، يُساوي نفسه برجاله، بل كان يستأثر دونهم بالخطر ويؤثرهم بالأمن، ويؤثرهم على نفسه بالخير المادّي، ويكتفي هو بالقليل القليل.

وكان يستشير رجاله بكلّ أمر من أموره وبكلّ موقف من مواقفه، فإذا استقرّ الرأي على قرار، عمل بمشورتهم وعزا الفضل لذوي الفضل.

لقد كان أبو موسى قائداً لامعاً حقاً.

السَّفير

كان أبو موسى من سفراء النبي ﷺ، أرسله ومُعَاذ بن جَبَل إلى جملة اليمن داعين إلى الإسلام، فأسلم عامة أهل اليمن: ملوكهم، وسوقتهم[١]، وكان إرسالها إلى اليمن معاً في وقت واحد[٢]، وروى الإمام أحمد بن حَنْبَل، أنّ النبي ﷺ بعث مُعاذاً وأبا موسى إلى اليمن فقال لهما: «بشِّروا ولا تُنَفِّروا، ويَسِّروا ولا تُعَسِّروا، وتَطَاوَعا ولا تَخْتَلِفا»[٣]، وقصدا اليمن في شهر شوّال أو شهر ذي القعدة من السّنة التّاسعة الهجريّة، كما ذكرنا ذلك من قبل.

فما هي المزايا التي اجتمعت في أبي موسى، فأهّلته ليُصبح سفيراً نبويّاً؟

---

(١) تهذيب الأسماء واللّغات (٣٠/١).

(٢) أخبار القضاة (١/ ١٠٠ - ١٠١).

(٣) أنظر أخبار القضاة (١٠١/١).

من مزاياه الإيمان الراسخ بالإسلام، والانتماء القاطع لهذا الدِّين، وإثبات إيمان أبي موسى وانتمائه حديث مُعاذ، فهو معروف بإيمانه، لا يجادل في صدق إيمانه اثنان، ويتّفق مَن يُحبُّه ومَنْ لا يُحبّه بأنّه مؤمن صادق الإيمان، وأنّه ربط مصيره بالإسلام، يخلص له أكثر مما لأُمِّه وابيه وأولاده وذويه وصاحبته التي تأويه، وولاؤه كُلُّه للإسلام، فإذا تعارض ولاؤه لدينه بولائه لأقرب المقرّبين إليه، فضلّ دون تردّد ولاءه للإسلام على ولائه لأقرب المقرّبين إليه: بل إذا تناقض ولاؤه لمصلحته الذاتية بولائه لدينه، لم يختر إلاّ الولاء لدينه حتى إذا سُحقت مصلحته الذاتيّة من أجل المصلحة العامة للمسلمين، فإنّه لا يتردد لحظة في سحق مصلحته الذاتية إعلاء لكلمة الله، لتكون كلمة الله هي العليا.

ومن مزاياه سفيراً نبوياً، الفصاحة، والعلم وحسن الخلق، وقد كانت الفصاحة في أيام أبي موسى، وهو من العرب الذين نشأوا في محيط عربيّ خالص، بعيد عن الاختلاط بالعجم، هي السائدة بين العرب، وكان اللّحن قليلاً بينهم، وهو الذي قيل في وصف فصاحته: «ما كنّا نُشَبِّه كلام أبي موسى إلاّ بالجَزَّار الذي لا يُخْطِىءُ المفْصَل»[١].

وكتب أبو موسى إلى رجل من المسلمين: «أما بعد، فإني عاهدتُك على أمرٍ وبَلغني أنك تغيّرت، فإن كنتَ على ما عَهدْتُك فاتّقِ الله ودُمْ، وإنْ كنتَ على ما بلغني فاتّقِ الله وعُدْ»[٢]، وفصاحته بالإضافة إلى حكمته واضحة في هذا الكتاب.

وقال أحدهم لأبي موسى في طاعون وقع: «اخْرُج بنا إلى وابِق نبدو بها»، فقال: «إلى الله آبق لا إلى وابق»[٣]، وفصاحته في هذا الخطاب

(١) طبقات ابن سعد (١١١/٤).
(٢) العقد الفريد (١٥١/٣).
(٣) طبقات ابن سعد (١١١/٤).

واضحة، وإيجازه البليغ واضح أيضاً.

وقد كان أبو موسى عالِماً كما فصّلنا ذلك في فقرة: (العالم) خلال الحديث عنه إنسانا، فقد كان من العلماء الأُمّة المعدودين، ومن الذين يفتون على عهد النبي ﷺ ومن قضاته وقضاة الخلفاء الراشدين الأربعة ومن أبرز معلمي القرآن الكريم والفقهاء والمحدِّثين، وقد خلّفه النبي ﷺ في مكّة بعد غزوة الطائف يعلِّم أهلها القرآن ويُفقِّههم في الدِّين، وبعثه إلى اليمن داعياً وقاضياً، وكان يُفتي في المدينة ويُقتدى به على عهد رسول الله ﷺ[1]، وكل ذلك إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على علمه وفضله، فقد كان من قادة الفكر الإسلاميّ الأوّلين الذين بنوا صرحه العظيم على عهد النبي ﷺ وخدموه بكلّ أمانة وصدق وإخلاص، فانتشر الذين تلقّوا العلم عليهم في البلاد، ونشروا علمهم شرقاً وغربا.

وكان على جانب عظيم من حسن الخُلق، تتمثّل فيه المُثُل العُليا الإسلامية التي وردت في الكتاب العزيز وفي السّنة النبويّة، فكان أبو موسى حَسَنُ الخُلق تمثّل بشراً سوياً، يمشي على الأرض، ويرتاد الأسواق، ويأكل الطّعام، ولكنّه أسوة حسنة لغيره في الخُلق الكريم.

ومن مزاياه سفيراً نبوياً، الصّبر الجميل، والحكمة البالغة. لقد وردت كلمة: صَبَر، ومشتقاتها في أربع ومائة آية من آيات الذكر الحكيم[2]، ومن الطبيعي أن يتأثّر أبو موسى بتعاليم القرآن التي تأمر بالصّبر وتبشّر الصّابرين، وتنهي عن الجزع واليأس والقنوط وتخوِّف الذين يجزعون وييأسون ويقنطون، وسيرته تدل على أنّه كان من أكابر

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٣٣٤-٣٥٤) وانظر أصحاب الفتيا لابن حزم - ملحق بجوامع السيرة - (٣٢٠).

(٢) انظر التفاصيل في المعجم المفهرس (٣٩٩ - ٤٠١).

الصابرين، فقد صبر على أيام العسر والشِدَّة في حياته، وما أكثرها وأعسرها وأشدها، ولا نعلم في سيرته موقفاً واحداً انهار فيه، فقد صبر في الضّراء صبر المؤمنين المحتسبين الشاكرين، فكان شاكراً في السّراء والضّراء وجبن البأس لأنّه كان من الصابرين.

ويبدو أنه بالإضافة إلى تأثّره البالغ بتعاليم الإسلام في الصّبر الجميل، كان بطبيعته له استعداد على الصّبر، فهو هادىء الطبع رضي النفس غير متسرِّع ولا عصيّ المزاج، فهو من أولئك النفر الصابرين بطبعهم فزادته تعاليم الإسلام في الصّبر نوراً على نور.

أما تمتّعه بالحكمة البالغة، فيكفي أن ندلّل على ذلك بنجاحه الباهر في أعماله الكثيرة داعياً قاضياً ووالياً ومعلّماً ومرشداً ومجاهداً وجندياً وإنساناً، وفي السّلم والحرب.

فقد بعثه النبي ﷺ إلى اليمن قاضياً وأميراً ومعلّماً، وبعد عام تقريباً أضاف إليه واجباً جديداً هو توليته جزء من اليمن، ولو لم ينجح في واجباته الأولى لما أضاف إليه واجبات جديدة.

وبقي على عمله في اليمن أيّام أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، ثم أصبح قاضياً لعمر بن الخطاب ووالياً على البصرة وعلى الكوفة ثم على البصرة، فلما رحل عمر كان في وصيته إقرار أبي موسى أربع سنوات على عمله وإقرار عماله الآخرين سنة واحدة، وهذا التّمييز في المدّة دلالة على نجاحه في عهد عمر بن الخطاب نجاحاً لم يصل إليه غيره من الولاة.

وبقي على البصرة أيام عثمان بن عفّان، فلما أُعفي من ولاية البصرة وآوى إلى الكوفة، اختاره أهل الكوفة أميراً عليهم وحملوا عثمان على إقرار اختيارهم له، وهو أوّل والٍ في الإسلام يولّى باختيار الناس له لا بتوليته من الخليفة.

وكان بإمكانه أن يبقى على الكوفة في عهد عليّ بن أبي طالب، ولكنه اختار لنفسه الاعتزال عن الفتنة، فنُحِيّ عن الكوفة، ولكن أهل الكوفة اختاروه ليمثّلهم في التّحكيم، وحملوا علياً على إقرار هذا الاختيار.

أما نجاحه في القتال، فيكفي أن نذكر، أنّه فتح تسع مناطق بالصُّلح، وفتح منطقة واحدة بالقتال.

ونجاح أبي موسى في أعماله الكثيرة في أيام السّلام، وبخاصة في البصرة والكوفة، وهما المصران اللّذان لا يرضيان عن والٍ ولا يرضي عنهما والٍ، وإدارتها من أصعب الأمور وأعقدها، دليل على حكمته البالغة.

ونجاحه في أعماله العسكرية حشداً وجهاداً وقيادة، وتحقيق أهدافه بالصّلح في تسعين بالمائة من المناطق التي فتحها، وبذلك أنجز فتوحه بخسائر في الأرواح لا تكاد تذكر، دليل على حكمته البالغة.

ومن مزاياه سفيراً نبوياً، سعة الحيلة، فقد كان ألمعيّ الذكاء، متّزن العقل، سديد الرأي، يتّسم بالأناة والصبر والحكمة، لذلك كان واسع الحيلة، يجد لكلّ معضلة مخرجا، ولكل مشكلة حَلاً مناسباً، وبخاصة وهو يستعين بالشُّورى على إيجاد الحلول المناسبة، فلا يستقلّ بإعطاء القرار دون رجاله، ويشاركهم في وضع الحلول للمشاكل والمعضلات.

ومن مزاياه سفيراً نبوياً، رواء مظهره، فقد كان شكله إنساناً ليس جميلاً، ولكنّه مقبول غير منفِّر على العموم، بسيط الثياب ولكنّها نظيفة، نظيف البدن يديم نظافته بالوضوء.

وعلى كلّ حال، فقد كانت سفارته إلى اليمن، لا إلى دولة أجنبية كالفُرس والرّوم، أو إلى عرب لهم صلة مباشرة بالفُرس الرّوم، فقد كان رواء مظهر سفراء النبيﷺ إلى أولئك الملوك والأُمراء متميِّزاً. أما

سفراء النبي ﷺ إلى ملوك العرب وأمرائهم في الجزيرة العربية، فلم يكن رواء المظهر للسفير النبويّ شرطاً أساسياً، وما كان أهل اليمن بحاجة إلى سفير نبوي يتّسم برواء المظهر، وصدق الشّاعر:

منــــذُ دخلـــتُ اليمنـــا لم أَرَ وَجْهـــاً حَسَنَـــا
فيـــا شقـــاء بلـــدة أجمل مَنْ فيهـــا أَنَـــا

وكان الشّاعر ليس جميل الوجه، فلما دخل اليمن اكتشف إنّه جميل، بالنّسبة لمن حوله من الناس، أو هكذا خُيِّل إليه، أو ساقه حظّه العاثر إلى لقاء الوجوه التي لا تتّسم بالجمال.

لقد كان أبو موسى سفيراً، راسخ الانتماء للدين الحنيف، عميق الإيمان بالإسلام، فصيحاً، عالماً، حسن الخلق، صابراً، حكيماً، يتّسم بسعة الحيلة، ورواء مظهره مقبول، لذلك نجح في سفارته نجاحاً كبيرا.

أبو موسى في التاريخ

يذكر التاريخ لأبي موسى، أنّه كان من المسلمين الأولين الذين اعتنقوا الإسلام بمكة المكرّمة قبل الهجرة إلى الحبشة.

وأنّه له فضيلة ليست لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ: هاجر ثلاث هجرات، هجرة من اليمن إلى رسول الله ﷺ بمكّة، وهجرة إلى الحبشة من بلده اليمن، وهجرة من الحبشة إلى المدينة[1].

ويذكر له، أنه نال شرف الصُّحْبَة، وشرف الجهاد تحت لواء النبي ﷺ.

ويذكر له، أنّه علّم أهل مكّة القرآن والفقه في الدّين بعد عودة النبي ﷺ من غزوة الطّائف إلى المدينة المنوّرة.

(١) تهذيب الأسماء واللّغات (٢/٢٦٨).

ويذكر له، أنّ النبي ﷺ أرسله ومُعَاذ بن جَبل إلى اليمن داعين إلى الإسلام، فأسلم عامّة أهل اليمن.

ويذكر له، أنّه كان من عُمَّال النبيّ ﷺ وقضاته ودعاته.

ويذكر له، أنّه كان يُفتى بالمدينة المنوّرة، ويقتدى به، من أصحاب رسول الله ﷺ، على عهد رسول الله ﷺ، وبعد ذلك.

ويذكر له، أنه كان من عُمّال الخلفاء الراشدين الأربعة، ومن قادة الفتح الإسلامي العظيم.

ويذكر له، أنّه أوّل عامل في الإسلام، اختاره الناس عاملاً لهم، وحملوا الخليفة على إقرار اختيارهم.

ويذكر له، أنّه فتح عشر مناطق واسعة من بلاد فارس، تسع مناطق منها صلحاً، ومنطقة واحدة بالقتال.

ويذكر له، أنّه كان أحد الحكمين في التحكيم بين عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان لإيقاف الاقتتال بين المسلمين.

ويذكر له، أنه اعتزل الفتنة الكبرى مع مَن اعتزل من كبار الصّحابة، فلم يشارك فيها بلسانه ولا بيده ولا بسيفه.

ويذكر له، أنّه كان أحد علماء الأمة الستّة، وأحد قضاة الأمة الأربعة[١]، وأحد معلمي القرآن الكريم الكبار، وأحد المحدِّثين الأولين، وأحد أساطين الفكر الإسلامي والعلوم الإسلامية الأقدمين.

ويذكر له، أنّه كان من ألمع ولاة المسلمين الأولين، ومن أقدر الإداريين حكماً وبناءً وفتحا.

---

(١) تهذيب التهذيب (٥/٣٦٣).

ويذكر له، أنه كان إماماً في علوم القرآن وتعليمه، إماماً في الحديث النبوي الشّريف، إماماً في الورع والتقوى، إماماً في القضاء، إماماً في الإدارة، وأنّ مناقبه كثيرة جداً.

ويذكر له، أنّه كان يُصدر في كلّ أعماله عن عقيدة راسخة يؤمن بها أعمق الإيمان، ويضحي من أجلها كلّ التّضحية، فلا يميل مع الهوى، ولا يرجو لنفسه من متاع الدنيا ما يرجوه لأنفسهم أكثر الناس، فاعتزل الفتنة خوفاً من الله لا خوفاً على نفسه، فخسر كلّ شيء وربح نفسه.

ويذكر له، أنّه عاش فقيراً ومات مُعْدَما، وكل سلواه أنّه خدم الإسلام والمسلمين بصدق وإخلاص، وسخّر نفسه لعقيدته وإخوته، ولم يسخّر عقيدته وإخوته لنفسه.

رضي الله عن الصحابيّ الجليل، المؤمن الصّادق، الورع التقيّ، العالم المحدّث الفقيه، القاضي العادل، الإداري الحازم، البطل الشجاع، المجاهد الصابر، القائد الفاتح، أبي موسى الأَشْعَرِيّ.

عمرو بن حَزْم الأنصاري الخَزْرَجيّ
الصّحابيّ السفير

نسبه وأيامه الأولى

هو عمرو بن حَزْم بن زَيْد بن لَوْذان بن حارثة بن عَدِي بن زيد ثَعْلَبة بن زيد مَنَاة بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن جُشم بن الحارث الخَزْرج الأَنْصاري[1] الخزرجيّ.

وفي رواية أخرى، أنّه: عمرو بن حَزْم بن زيد بن لَوْذان بن عمرو ابن عبد عوف بن غَنْم بن مالك بن النّجار الأنصاري[2].

وأكثر مَنْ ينسبه يتّفق مع النّسب الثاني،لذلك يمكن ترجيحه على النّسب الأول.

أوّل مشاهد عمرو الخندق[3]، وكانت هذه الغزوة في شهر شوّال من السنة الخامسة الهجرية، وسبب تأخره عن الجهاد هو صغر سنّه لا تخلّفه. ولا ذِكر له في المشاهد الأخرى، وليس معنى ذلك أنّه لم يشهد غزوات النبي ﷺ بعد الخندق، إذ لا يمكن ذكر كلّ الصّحابة في كلّ غزوة، بل يُذكر قسم منهم حسب سير الحوادث وأثرهم فيها. وأُرجِّح أنّه كان صغيراً في سنّه، فلم يبرز في تلك المشاهد كما برز أصحاب التجربة في القتال،

---

(١) تهذيب التهذيب (٢٠/٨) والاستبصار (٦٩ و ٧٤).

(٢) الإصابة (٢٧٥/٤) وأسد الغابة (٩٨/٤) والاستيعاب (١١٧٢/٣) وتهذيب الأسماء واللغات (٢٦/٢) والاستيعاب (١١٧٣/٣).

فقد ولاّه رسـول الله ﷺ على نجْران[1] وهو ابن سبع عشر سنة، وذلك في السنة العاشرة الهجرية[2]. وهذا يدلّ على أنّه كان صغيراً على تحمّل أعباء الغزوات وعلى التأثير في أحداثها، وسأناقش هذا التّوقيت وشيكاً.

وقد كانوا لا يفسحون المجال للمسلم أن يشارك في الغزوات قبل الخامسة عشرة من سنّه كما هو معلوم، وكانوا يردّون الصغار الذين لم يبلغوا الخامسة عشرة ولا يسمحون لهم بخوض غمرات القتال. وقد كانت غزوة الخندق من الغزوات الدفاعية، وكانت حول المدينة المنوّرة، كما كان المسلمون يدافعون عن مصيرهم ومصير الإسلام تجاه قوات المشركين المتفوّقين على المسلمين فواقاً ساحقاً، إذ كان تَعداد المسلمين نحو ثلاثة آلاف مجاهد، وكان تعداد المشركين عشرة آلاف مقاتل عدا يهود المدينة الذين خانوا العهد وانقلبوا على المسلمين وظاهروا المشركين من الأحزاب، لذلك حشد النبي ﷺ كلّ المسلمين، ليقاتل القادرون على القتال، وليكثّر السّواد من غير القادرين على القتال ويعملوا في القضايا الإدارية والحراسات، فشهد عمرو غزوة الخندق، ولمّا يبلغ الخامسة عشرة من عمره، بموجب التوقيت المذكور.

ومع ذلك، فهناك نص: «أنّه شهد الخندق وما بعدها»[3]، ولكنّه لم تكن له بصمات واضحة في تلك الغزوات التي شهدها، لأنّه كان صغير السِّن، قليل التجربة العملية.

---

(١) نجران: من مخاليف اليمن من ناحية مكة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٨/٨ - ٢٦٥)، وهي اليوم ضمن العربية السّعودية.

(٢) أسد الغابة (٩٩/٤) والاستيعاب (١١٧٣/٣).

(٣) الإصابة (٢٩٣/٤).

أمّه من بني ساعدة[1]، يُكنى: أبا الضّحاك[2].

لقد نال عمرو بن حزم شرف الصحبة، وشرف الجهاد تحت لواء الرسول عليه الصلاة والسّلام.

السّفير النَّبَويّ

بعث النبي ﷺ إلى بني الحارث بن كعب[3] في نَجْران بعد أن ولّى وفدهم عائداً من المدينة إلى نجران، في بقيّة شهر شوال أو في صدر ذي القعدة من السنة العاشرة الهجريّة، ولّى عمرو بن حَزْم الأَنْصَارِي أحد بني النّجار، ليفقههم في الدِّين ويعلِّمهم السّنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم[4].

وكان النبي ﷺ قد أرسل خالد بن الوليد في شهر شوّال من السنة العاشرة الهجريّة[5] إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثاً، فإن أجابوا أقام فيهم وعلمهم شرائع الإسلام، وإن لم يفعلوا قاتلهم. وخرج خالد إليهم في سريّة مؤلّفة من أربعمائة مجاهد[6] ودعاهم إلى الإسلام، فأجابوا وأسلموا. وأقام خالد فيهم، وكتب إلى رسول الله ﷺ يُعلمه إسلامهم[7]، وكان نص كتاب خالد إلى النبي ﷺ:

---

(١) الاستيعاب (١١٧٣/٣) وأسد الغابة (٩٨/٤).

(٢) أسد الغابة (٩٨/٤) والإصابة (٢٩٣/٤) والاستيعاب (١١٧٣/٣).

(٣) بنو الحارث بن كعب بن عمرو بن عُلَة بن جَلَد بن مالك بن أُدَد بن زيد بن يَشْجُب ابن عريب بن زيد كَهْلان بن سَبَأ، انظر: جمهرة أنساب العرب (٤٠٧ و ٤١٦).

(٤) انظر التفاصيل في: الطبري (١٢٦/٣ - ١٢٨) وابن الأثير (٢٩٣/٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٥٨/١).

(٥) طبقات ابن سعد (١٦٩/٦).

(٦) الطبري (١٢٦/٣).

(٧) ابن الأثير (٢٩٣/٢).

« بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم

من: خالد بن الوليد

السّلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته

فإنّي أَحْمَد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو. أما بعد يا رسول الله ﷺ، بعثتني إلى بني الحارث بن كَعْب، وأمرتني إذا أتيتُهم أَلاّ أُقاتلَهم ثلاثة أيام، وأن أَدْعُوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا قبلتُ منهم وعلّمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنّة نبيِّه، وإن لم يُسْلموا قاتلتهم. وإني قدمتُ عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله ﷺ، وبعثت فيهم ركباناً قالوا: يا بني الحارث! أَسْلِموا تَسْلَموا، فأسلَموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيمٌ بين أظهرهم، وآمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عمّا نهاهم الله عنه، وأعلِّمهم معالم الإسلام وسنّة النبي ﷺ حتى يكتب إليَّ رسول الله.

والسّلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته »[1].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢٦٣/٤) والطبري (١٢٦/٣ - ١٢٧) وعمر الموصلي (٢٩/٨ب - ٣٠ ألف) وإمتاع الأسماع للمقريزي (٥٠١/١)، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (١٠٠) الوثيقة رقم (٧٩).

وكتب رسول الله ﷺ إلى خالد بن الوليد جواباً على رسالته ما نصّه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد النبي رسول الله

إلى: خالد بن الوليد

سلام عليك

فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنّ كتابك جاءني مع رسُلك بخبر أنّ بني الحارث قد أسلموا قبل أن يُقَاتَلوا[1]، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام وشهادة أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه، فبشِّرهم وأنذِرْهم، وأقْبِلْ ولْيُقْبِلْ معك وفدهم.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»[2].

علامة الختم: الله
رسول
محمد

وأقبل خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ، وأقبل معه وفد بني الحارث بن كعب، وأعلنوا إسلامهم، واجتمعوا بالنبي ﷺ، ثم عادوا

(١) في سيرة ابن هشام (٤/٢٦٣): «تقاتلهم».

(٢) سيرة ابن هشام (٤/٢٦٣) والطبري (٣/١٢٧) صبح الأعشى للقلقشندي (٦/٣٧٦) وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (١٠١) الوثيقة الرقم (٨٠).

أدراجهم في بقيّة شوّال أو في صدر ذي القعدة من السنة العاشرة الهجريّة[1] كما ذكرنا ذلك قبل قليل.

وقد تعمّدت ذكر رسالة خالد بن الوليد إلى النبي ﷺ، وجواب النبي ﷺ على رسالة خالد، وعودة خالد من اليمن إلى المدينة المنوّرة ومعه وفد بني الحارث بن كعب، لإعطاء صورة واضحة عن الوضع السّائد في اليمن، عندما توجّه إلى أهلها عمرو بن حَزْم الأنصاري ليفقّههم في الدين، ويُعلِّمهم السُّنّة النبويّة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم[2]، وبعثه عليه الصّلاة والسّلام بعد أن عاد وفد بني الحارث ابن كعب إلى نَجْران باليمن[3]، فغادر المدينة إلى نجران في شهر ذي القعدة من سنة عشر الهجرية، ومع عمرو بن حزم كتاب نبويّ هذا نصّه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد رسول الله (ﷺ)

إلى: شُرَحْبِيْل بن عبد كُلال، والحارث بن عبد كُلال، ونُعَيْم بن عبد كُلال قَيْل[4] ذي رُعَيْن[5] ومَعَافِر[6] وهَمْدان[7].

---

(1) الطبري (٣/١٢٨).

(2) الطبري (٣/١٢٨) والاستيعاب (٣/١١٧٣) والاستبصار (٧٤).

(3) الطبري (٣/١٢٨).

(4) القَيل: الملك النافذ القول والأمر (ج): اقيال: انظر: لسان العرب (٤/٩٤).

(5) رعين: مخلاف (محافظة) من مخاليف اليمن، سمّي بالقبيلة، وهو ذو رعين، واسمه (يرين) بياءين مثناتين، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٦٣).

(6) معافر: مخلاف باليمن. تنسب إليه الثياب المعافريّة، سمّي بالقبيلة اليمنيّة: معافر بن يعفُر بن مالك بن الحارث بن مُرَّة. ويمتدّ نسبه إلى سبأ. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٩٢).

(7) همدان: قبيلة يمنيّة مشهورة. النسبة إليها: هَمَدَانيّ. انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٣٩٣ - ٣٩٥) و (٤٧٥ - ٤٧٦).

أما بعد، فقد رجع رسولكم، وأعطيتم من المغانم خُمس الله وما كُتب على المؤمنين من العشر في العَقَار(١)، ما سقت السّماء أو كان سَيْحاً أو كان بَعْلاً(٢) ففيه العُشر إذا بلغت خمسة أَوْسُق(٣)، وما سقى الرّشاء(٤) والدالية(٥) ففيه نصف عشر إذا بلغ خمسة أَوْسُق.

وفي كلّ خمس من الإبل سائمة، شاة، إلى أن تبلغ أربعاً وعشرين، فإن زادت واحدة على أربع وعشرين، ففيها بنت مَخَاض(٦)، فإن لم توجد ابنة مخاض فابن لَبون ذكر، إلى أن تبلغ خمساً وثلاثين. فإن زادت واحدة على خمسة وثلاثين، ففيها ابنة لَبون إلى أن تبلغ خمسة وأربعين، فإن زادت واحدة على خمسة وأربعين، ففيها حِقَّة(٧) - طروقة الفحل - إلى

---

(١) العقار: الأرض التي تُزرع.

(٢) البعل: الأرض المرتفعة التي لا يسقيها إلاّ المطر، والزّرع يشرب بعروقه فيستغني عن السّقي.

(٣) الوسق: مكيلة معلومة، وهي ستّون صاعاً، والصّاع خمسة أرطال وثلث. وحِمْل البعير أو السّفينة، (ج): أوساق ووسوق وأَوْسُق.

(٤) الرّشاء: الحَبْل، أو حَبْل الدَّلو ونحوها.

(٥) الدالية، الدلو ونحوها، وخشبة تثبَّت برأس الدّلو، ثمّ يُشدّ بها طرف حبل، وطرفه الآخر بجذع قائم على رأس البئر يُستقى بها.

(٦) بنت مخاض: هي التي دخلت في الثانية، وإن لم تكن أمّها حاملا. وابن مخاض: الذّكر من الإبل الذي دخل في الثانية وإن لم تكن أمّه حاملاً، والجمع: بنات مخاض للذكور والإناث، انظر الإفصاح (٢/٧٢٠).

(٧) الحقّة من الإبل: هو الحِق، ما دخل في السنة الرابعة وأمكن ركوبه أو الحمل عليه (ج): حِقَق، وحِقاق.

أن تبلغ ستين. فإن زادت واحدة، ففيها جَذَعَة[1]، إلى أن تبلغ خمساً وسبعين. فإن زادت واحدة ففيها ابنتا لَبون، إلى أن تبلغ تسعين، ففيها حِقَّتان - طروقتا الفحل - إلى أن تبلغ عشرين ومائة. فما زاد عن عشرين ومائة، ففي كلّ أربعين ابنة لَبون، وفي كلّ خمسين حِقَّة طروقة الفحل.

وفي كل ثلاثين باقورة[2] تَبِيْع، جَذَع أو جَذَعة، وفي كلّ أربعين باقورة بقرة.

وفي كلّ أربعين شاة سائمة، شاة إلى أن تبلغ عشرين ومائة، فإن زادت واحدة ففيها شاتان، إلى أن تبلغ مائتين. فإن زادت واحدة، ففيها ثلاث شياه، إلى أن تبلغ ثلاث مائة، فإن زادت، ففي كلّ مائة شاة، شاة.

ولا تؤخذ في الصّدقة هَرِمَة، ولا عَجْفَاء، ولا ذات عُوار[3]، ولا تَيْس[4] الغنم إلاّ أن يشاء المصدّق.

---

(١) الجذع: من الخيل والبقر، ما استكمل سنتين ودخل الثالثة. ومن الضان: ما بلغ ثمانية أشهر أو تسعة. ومن الإبل: الذي أتت عليه الخامسة، هي جذعة (ج): جذاع، وأجذاع، وجُذْعَان.

(٢) الباقورة: بلغة أهل اليمن، البقرة، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (١٠٧/١).

(٣) العوار: العيب، والخرق والشق في الثوب.

(٤) التّيس: الذكر من المَعْز والظّباء والوعول إذا أتى عليه حول.

ولا يُجْمَع بين مُتفرِّق، ولا يُفَرّق بين مجتمع، خشية الصَّدَقة، وما أُخذ من الخليطين فإنّهما يراجعان بالسويَّة.

وليس في رقيق ولا مزرعة ولا عُمَّالها شيء إذا كانت تؤدي صدقتها من العشر، وليس في عَبْدِ مسلم ولا فيفرسه شيء.

(قال: وكان في الكتاب):

إنّ أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة: الشِّرك، وقتل النّفس المؤمن بغير حقّ، والفرار في سبيل الله يوم الزّحــف، وعقوق الوالــدين، ورمي المحصنــات، وتعلّم السِّحر، وأكل الرِّبا، وأكل مال اليتيم.

وإنّ العُمْرَة الحجّ الأصغر، ولا يَمَسّ القرآن إلاّ طاهر، ولا طلاق قبل الإملاك[١]، ولا عِتَاق[٢] حتى يُبْتاع، ولا يُصَلِيَنَّ أحدكم في ثوب واحد ليس على منكبه شيء منه.

(وكان في الكتاب):

إنّ مَنْ اعتبط[٣] مؤمناً، قتله عن بيِّنة، فإنّه قَوَّد[٤]، إلا أن يرضي أولياء المقتول.

---

(١) أملك المرأة: تزوّجها. ولا طلاق قبل الإملاك: قبل الزواج.

(٢) أعتق العبد: حرّره. ولا عتاق: لا تحرير.

(٣) اعتبط مؤمناً: ذبحه بلا جناية ولا جريرة.

(٤) القود: القصاص، ومعناه أنّ القاتل يُقتل به ويُقاد، انظر شرح السيوطي على سنن النسائي (٢/٢٥٢).

وإنّ في النّفس الديّة، مائة من الإبل، وفي الأنف الذي أُوْعَبَ[١] جَدْعَه[٢] الدّية، وفي الصُّلب الدِّية، وفي العينين الديّة، وفي الرّجلين الديّة، والواحدة نصف الديّة. في المأمومة[٣] ثلث الديّة، وفي الجائفة[٤] ثلث الديّة، وفي المُنَقِّلة[٥] خمس عشرة من الإبل، وفي كلّ إصبع من اصابع اليد أو الرِّجل عَشْر من الإبل، وفي السِنّ خمس من الإبل، وفي المُوْضِحَة[٦] خمس من الإبل، وإنّ الرّجل يُقْتَل بالمرأة »[٧].

علامة الختم: الله رسول محمد

---

(١) أوعب جدعة: استأصله. قطعة جميعه. انظر شرح السيوطي على سنن النسائي (٢/٢٥٢).

(٢) جدعة: قطعه.

(٣) المأمومة: الشجّة التي بلغت أمّ الرأس، وهي الجلدة التي تجمع الدماغ، انظر النهاية لابن الأثير (١/٥٣).

(٤) الجائفة: الطعنة التي تبلغ جوف الرأس أو جوف البطن، انظر شرح السيوطي على سنن النسائي (٢/٢٥٢).

(٥) المنقلة: الشجّة التي تنقّل منها فراش العظام، وهي قشور تكون على العَظْم دون الّلحم، انظر ترتيب القاموس المحيط (٤/٣٨٧) والمنقلة من الجراح: ما ينقل العظم من موضعه، وهي شجّة يخرج منها صغار العظم وينقل عن أمكانها. وقيل: هي التي تنقل العظم، أي تكسره، انظر شرح السيوطي على سنن النسائي (٢/٢٥٢).

(٦) الموضحة: الشجّة كشطت عن العظم من موضعه، وهي جراحة بلغت العظم فأوضحت عنه.

(٧) الأهدل - نثر الدرر المكنون في فضائل اليمن الميمون (٦٧) عن صحيح ابن حبّان ج ٥، ومجمع الزوائد ج ٣، وانظر الزّرقاني (٣/٣٣٣) والدّارمي (٢٩٣) والطبري (٣/١٢٨ - ١٣٩) وسنن النسائي (٢/٢٥٢)، وانظر النص كاملاً في: مجموعة الوثائق السياسية (١٤٩ - ١٥٢) في الوثيقة الرقم (١١٠ ج).

هذا هو الكتاب النبوي، الذي حمله عمرو بن حزم، فيه الفرائض والسّنن والصّدقات والدّيات[1]، أخرجه أبو داود والنّسائي وابن حبّان والدّارمي[2]، وكتابه هذا مشهور في كتب السنن، ولم يستوفِه أحد منهم، وأكملهم لـه روايـــة النّسائي[3] بعنوان: «ذكر حـــديـــث عمرو بن حَزْم»[4]، وكتاب عمرو بن حزم مشهور تحتجّ به العلماء، وشهرته أقوى من الإسناد[5].

وفي هذا الكتاب النبوي، الذي لم يقتصر أثره وتأثيره في وقته واليمن، بل امتدّ حتى اليوم، وسيبقى ما بقيت تعاليم الدين الحنيف في كلّ قطر وكلّ مكان فيه مسلمون في أرجاء العالم. وفيه دروس قيّمة جداً ومن دروسه تنظيم جباية الأرض المزروعة السّيح منها والتي تُروي بالمجهود الذاتيّ، وزكاة الإبل والبقر والضأن بالتفصيل، ويذكر مَنْ يُعفى من الزّكاة من الرقيق والعبيد لأنّهم أحقّ بالرأفة من غيرهم وأجدر أن يشملهم الإعفاء.

ثم يسلّط الضوء على الكبائر، ويُعدِّدها، ويحذِّر من اقترافها.

ويشير إلى قسم من العبادات، وقسم من القضايا الاجتماعية المهمّة التي تطهّر الفرد وتفيد المجتمع وتجعله متماسكاً كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً.

وأخيراً ينصّ على العقوبات الرادعة التي تجعل المسلم الحق لا يقترفها أبداً، ليرفل الفرد والمجتمع بالأمان والاطمئنان والسّلام.

---

(١) أسد الغابة (٤/٩٩) والاستيعاب (٣/١١٧٣) والاستبصار (٧٤).
(٢) الإصابة (٤/٢٩٣).
(٣) تهذيب الأسماء واللّغات (٢/٢٦).
(٤) سنن النسائي (٢/٢٥٢).
(٥) الاستبصار (٧٤).

تلك هي الخطوط العريضة للأهداف الرفيعة الباقية لهذا الكتاب النبوي الكريم، الموجّه إلى أهل اليمن ثمّ أصبح للمسلمين كافة في كلّ مكان ولكل زمان: أفراداً وجماعات، وفقراء وأغنياء، وحكّاماً ومحكومين، من أجل تنظيم المجتمع الإسلامي على هدى وبصيرة، فالكلّ يعرف ما عليه من واجبات تجاه نفسه، وتجاه أخيه المسلم وتجاه كلّ إنسان، وتجاه المجتمع الإسلامي، وكما يعرف واجباته يعرف حقوقه على نفسه، وعلى أخيه المسلم وعلى كلّ إنسان، وعلى المجتمع الإسلامي. ومن المعلوم، أنّ الفرد والجماعة، والغني والفقير، والحاكم والمحكوم، إذا عرفوا ما عليهم من واجبات ومالهم من حقوق، فأدّوا واجباتهم كاملة، وأخذوا حقوقهم كاملة أيضاً، فإنّ التعاون والمحبّة والسّلام والسعادة والرخاء والنّصر يشمل الفرد والمجتمع في السّلام والحرب، وفي مختلف الظروف والأحوال.

لقد أدّى عمرو بن حزم واجباته في سفارته خير أداء.

الإنسان

بعث النبيّ ﷺ عمرو بن حزم بعد انصراف وفد بني الحارث بن كعب من المدينة إلى اليمن، وكان انصراف وفدهم في بقيّة شوّال أو في صدر ذي القعدة من السنة العاشرة الهجرية، كما ذكرنا.

وتُوفي رسول الله ﷺ وعمرو بن حزم عامله بنجران[1]، أو على الأصح في منطقة نجران كلها على بني الحارث بن كعب[2] في رواية، وعلى نَجران[3] في رواية أخرى، وأرجِّح الرواية الثانية، لأنّ سير الحوادث التي ستُذكر وشيكاً تدلّ على ذلك.

---

(١) الطبري (١٣٠/٣) وابن الأثير (٢٩٢/٢).

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (٦٢/١).

(٣) الطبري (١٣٠/٣) وابن الأثير (٢٩٢/٢) و(٣٣٦/٣).

ولما ارتدّ أهل الردّة في اليمن بقيادة ذي الخِمار عَبْهلة بن كعب - وهو الأسود العَنْسِيّ، وكان الأسود كاهناً شِعْباذا[1]، وكان يُرى من حوله الأعاجيب، ويسبي قلوب مَن سمع منطقه، فكاتبته مَذْحِج وواعدته نَجْران، فوثبوا بها وأخرجوا عمرو بن حزم[2]، كما أخرجوا غيره من عُمّال النبيّ ﷺ في اليمن[3]، فرجع عمرو إلى المدينة المنوّرة[4] بعد انتقال النبيّ ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

واستقر عمرو في المدينة، وكانت داره فيها مجاورة لدار عُثمان بن عفّان رضي الله عنه[5].

وقد روى عن النبيّ ﷺ[6] خمسة أحاديث[7]. قال عمرو بن حزم «رآني رسول الله ﷺ على قبرٍ فقال: **انزل لا تؤذي صاحب هذا القبر**»[8]. ووفد عمرو بن حزم إلى معاوية أبي سفيان في خلافته. فقال له: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ الله لم يسترع عبداً رعيّة إلا وهو سائله عنها**»[9]، وكلّم عمرو معاوية في أمر بيعته ليزيد بكلام قويّ[10]، وروي لمعاوية ولعمرو بن العاص حديث: «يقتل عمّاراً الفئةُ

---

(١) شعباذا: مُشعبذا، والشعبذة والشعوذة: أخذ بالسِّحر يرى الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين.

(٢) الطبري (٣/١٨٥) وابن الأثير (٢/٣٣٧).

(٣) الطبري (٣/٢٣٠) وابن الأثير (٢/٣٣٧-٣٣٨).

(٤) الطبري (٣/٢٣٠) و(٣/٣١٩).

(٥) الطبري (٣/٣٧٩).

(٦) تهذيب التهذيب (٨/٢٠).

(٧) جوامع السيرة - أسماء الصحابة الرواة وما لكلّ واحد من العدد (٢٨٩).

(٨) أسد الغابة (٤/٩٩).

(٩) تهذيب التهذيب (٨/٢١)، رواه أبو يعلى في مسنده.

(١٠) رواه أبو يعلى في مسنده بسندٍ رجاله ثقاة، انظر الإصابة (٤/٢٩٣) وأسد الغابة (٤/٩٩).

الباغية»[١]، وروي لعمرو بن العاص لما قُتل عَمَّار بن ياسر، أنّ رسول الله ﷺ قال: «**تقتله الفئة الباغية**»[٢].

وقد روى عنه ابنه محمّد، وامرأته سَوْدة بنت حارثة، وابن ابنه أبو بكر محمّد ولم يدركه، وزياد بن نُعَيْم الحَضْرميّ والنّضر بن عبد الله السّلمي[٣].

واستعمله النبيّ ﷺ على نَجْران باليمن وهو ابن سبع عشرة سنة[٤]، وقد استعمله النبيّ ﷺ سنة عشر الهجريّة على نجران باليمن كما ذكرنا ذلك في الحديث على سفارته، ومعنى ذلك أنه ولد سنة سبعٍ قبل الهجرة.

ومات بالمدينة المنورة سنة إحدى وخمسين الهجرية، وقيل: سنة ثلاث وخمسين الهجرية، وقبل سنة أربع وخمسين الهجرية[٥].

وجزم خليفة بن خياط في تاريخه، أنّه مات سنة إحدى وخمسين الهجرية[٦]، دون أن يذكر مكان موته. كما جزم ابن الاثير في تاريخه، أنه مات سنة ثلاث وخمسين الهجرية[٧]، دون أن يذكر مكان موته أيضاً.

---

(١) رواه الطبراني، انظر الإصابة (٢٩٣/٤).
(٢) أسد الغابة (٩٩/٤).
(٣) تهذيب التهذيب (٢٠/٨) وانظر الاستيعاب (١١٧٣/٣) وأسد الغابة (٩٩/٤) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢٦/٢) والاصابة (٢٩٣/٤).
(٤) أسد الغابة (٢٩٣/٤) والاستيعاب (١١٧٣/٣) وتهذيب التهذيب (٢٠/٨) وتهذيب الأسماء واللغات (٢٦/٢).
(٥) تهذيب الأسماء واللغات (٢٦/٢) وأسد الغابة (٩٩/٤) والاستيعاب (١١٧٣/٣) وتهذيب التهذيب (٢٠/٨).
(٦) تاريخ خليفة بن خياط (٢٠٥/١).
(٧) ابن الأثير (٤٩٦/٣).

وعلى كل حال، فهو قد مات بعد الخمسين، وليس كما ذكرت بعض المصادر بأنّه مات في خلافة عمر بن الخطّاب[1] رضي الله عنه، والصحيح أنه مات بعد الخمسين، لأنه وفد على معاوية بن أبي سفيان في أيام خلافته كما ذكرت المصادر التي تحدثت عنه كافة.

فإذا كان عمرو بن حزم، قد وُلد سنة سبع قبل الهجرة، وتوفّي بعد الخمسين الهجريّة، فمعنى ذلك، أنه عاش ثمانٍ وخمسين سنة أو تسعاً وخمسين سنة أو ستين سنة أو إحدى وستين سنة قمرية (٧ق هـ - ٥١هـ أو ٥٢ هـ أو ٥٣ هـ أو ٥٤ هـ).

ذلك هو عُمْر عمرو بن حزم، بموجب المصادر التي بين أيدينا.

ولكنّ مصدراً من تلك المصادر[2]، حين ذكر استعمال عمرو بن حزم على نجران، لم يذكر أنّه كان في السّابعة عشرة من عمره حين استعمله النبيّ ﷺ على نجران، كما نص على ذلك غيره من المصادر الأخرى، مما يدلّ على أنه لم يقتنع بأنّ عمرو بن حزم كان في السّابعة عشرة من عمره حقّاً.

وأنا مع صاحب هذا المصدر وهو الإمام ابن حَجَر العَسْقلانيّ، وهو مَنْ هو علماً وورعاً وصدقاً وتدقيقاً وتحقيقا، مع أنه كان متأخراً عن اصحاب أكثر المصادر الأخرى، ولكنه لم ينقل عنها ما نصتّ عليه حول عُمْر عمرو بن حزم حين تولّى نجران سنة عشر الهجريّة، بل تغاضى عن نقل ذلك التوقيت، مما يدلّ على شكّه في صحّة الخبر.

لقد ردّ النبيّ ﷺ يوم أُحُد أُسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر بن

---

(١) الإصابة (٢٩٣/٤).

(٢) جوامع السيرة (١٥٩).

الخطّاب، وعمرو بن حزم، وغيرهم، وكان لعبد الله بن عمر بن الخطّاب يوم أُحُد أربعة عشر عاماً، وكان سائر مَنْ ردّ معه في هذه السنّ ايضاً. وأجاز عليه الصلاة والسّلام في تلك الغزوة سَمُرة بن جُنْدب الفَزَارِيّ، ورافع بن خَديج ولهما خمسة عشر عاما[1]. أي أنّ عُمْر عمرو بن حزم كان في يوم أحُد أربع عشرة سنة. وقد أجاز النبيّ ﷺ الذين ردّهم يوم أُحُد، بعد ذلك بسنة عام الخندق، أي أنّ عُمْر عمرو بن حزم بعد سنة من أُحد صار خمس عشرة سنة، فأجيز يوم الخندق كما أجيز أقرانه.

نستنتج أنّ عمرو بن حزم كان له خمسة عشر سنة يوم الخندق، وكانت غزوة الخندق في السنة الخامسة الهجريّة، فيصبح عمرهُ في السنة العاشرة الهجرية عشرين سنة، أي أنّه وُلد في السنة العاشرة قبل الهجرة، وتوفي سنة إحدى وخمسين أو اثنتين وخمسين أو ثلاث وخمسين أو أربع وخمسين الهجرية (٨ق هـ - ٥١هـ أو ٥٢هـ أو ٥٣هـ أو ٥٤هـ)، أي أنّ عمره يوم توفي كان إحدى وستين أو اثنتين وستين أو ثلاثاً وستين أو أربعاً وستين سنة، وكان في العشرين حين تولّى نجران سنة عشر الهجرية.

إنّه إذا تولّى نجران في السّنة العاشرة الهجرية، وكان له حينذاك سبع عشرة سنة، فمعنى ذلك أنه شهد غزوة الخندق، وكان له اثنتا عشرة سنة، وهذا ما لا يستقيم، كما أن توليه نجران وله سبع عشرة سنة لا يستقيم أيضاً، فهو صغير جداً على واجب مهم ثقيل على المسؤولين، والقول بأنّ النبيّ ﷺ ولىّ أُسامة بن زيد قيادة جيش وله عشرون سنة[2] وهو لأن واجب أُسامة إجراء غارة خاطفة والانسحاب إلى

(١) جوامع السيرة (١٥٩).
(٢) تهذيب الأسماء واللّغات (١/١١٥).

المدينة، وهذه المهمّة تحتاج إلى شاب يتّسم بالشجاعة والاقدام وتحمّل المشاق، وهذا ما يناسب أسامة المتميِّز بالشجاعة والاقدام وتحمل المشاق، فهو في ريعان الشّباب. وليس هذا الواجب كواجب عمرو بن حزم السّفير الإداري القائد الفقيه، الذي يحتاج إلى الأناة والمرونة والذكاء والصبر في مهمة قد تطول كثيراً فتمتد الى سنين، يصادف فيها معضلات سياسيّة وإدارية وحربية وعلميّة وتربوية لا حصر لها، فلا يستقيم أن يتولى مثل هذا المنصب الخطير شاب في السابعة عشرة من عمره، حتى ولو كان متميزاً بالذكاء الخارق والتفقّه بالدين وبالشجاعة والاقدام، كما كان عمرو بن حزم متميزاً بكل تلك الصفات.

وحتى لو تولّى منصبه على نجران وأهلها ومَنْ حولها في العشرين من عُمْره، فإنه صغير جداً على منصبه الخطير في ظروف التغيير الاجتماعي والعقيدي الخطيرة، ولكنّه دليل ملموس على تميّزه بالذكاء الخارق والتفقّه بالدين والشجاعة والاقدام. وبالقابلية الإدارية والقيادية والسياسية الفذّة، وبالدأب على العمل والمرونة في مواجهة المشكلات، والخُلق الكريم الذي يمكن أن يكون أسوة حسنة لأمثاله من الشباب ولغير الشباب أيضاً من مختلف الذكور والإناث.

لقد كان عمرو بن حزم مثالاً للصحابي الجليل.

السَّفير

قضى عمرو بن حزم في جران سفيراً وواليا ومعلّماً وقائداً وجابياً، خمسة أشهر في منصبه الخطير، منذ التحاقه في مقرِّ عمله بنجران، إلى أن التحق النبيّ ﷺ بالرفيق الأعلى، وكان الأسود العنْسي قد ارتدّ وارتد معه غير قليل من أهل اليمن، فأُخرج عمرو بن حزم من نجران قسراً، وعاد إلى المدينة المنوّرة مضطراً.

وعلى الرّغم من قِصَر المدة التي مكثها عمرو في نجران سفيراً بالإضافة إلى واجباته الأخرى، إلا أنّ سِمات سفارته كانت واضحة للعيان، ولو لم يكن يتميّز بتلك السِّمات، لما ولاّه النبيّ ﷺ مثل هذا المنصب الرّفيع.

وأول سِمات سفارته، أنّه كان مخلص الانتماء للمجتمع الإسلاميّ الجديد إخلاصاً أخذ بمجامع عقله وقلبه معاً، فقد كان في انتمائه لهذا المجتمع جندياً مندفعاً إلى أبعد الحدود، يحرص على خدمة الإسلام والمسلمين حرصاً لا مزيد عليه، ويجنِّد طاقاته الماديّة والمعنوية للعمل في سبيل الخدمة العامة للإسلام والمسلمين، بعيداً عن كلِّ مطمع ذاتي أو عائليّ فكان مستعداً أن يبذل كلّ ما يمكن بذله لتكون كلمة الله هي العليا.

والحافز الأول والأخير، لانتماء عمرو للإسلام والمسلمين، هو إيمانه الرّاسخ، فقد نشأ في بيت إسلاميّ من الأنصار، ونشأ وترعرع برعاية النبيّ ﷺ ورعاية الأنصار والمهاجرين الأولين، فلا عجب أن يكون مؤمنا حقّاً يسخِّر طاقاته لخدمة عقيدته، ويرى تلك العقيدة أعزّ عليه من روحه وماله وولده وأهله وأغلى ولعلّ الحديث عن إيمان الصحابة الراسخ لا يحتاج دليل.

لقد كان عمرو يتحلّى بالانتماء المطلق والإيمان العميق.

وكان عمرو فصيحاً يؤثِّر في سامعيه أبلغ الأثر، فيجذبهم بمنطقه القوي إلى الإسلام، وقد كان فصيحاً في عرض الرِّسالة النبويّة وفي حمل أهل نجران على تنفيذ ما جاء فيها من أحكام نصاً وروحاً.

وكان عالماً بالقرآن والسنّة، متفقِّهاً بالدين الحنيف، وكان المرجع لمن حوله من أهل نجران في الدّعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر.

وكان على جانب عظيم من حسن الخلق، حتى كان أسوة حسنة لغيره من المسلمين باستقامته وورعه وتقواه، وفي قوله الحق الذي يعتقده بكلّ أمانة وإخلاص، فلا يخاف في الحق لومة لائم.

وكان يتميز بالصّبر الجميل، وبالحكمة البالغة في القول والعمل، وفي توجيه الأمور في نجران وما حولها ومَنْ حولها، فعالج المعضلات بأناة وتغلّب على المشاكل بالصبر والحكمة.

ولولا تصرفه الحكيم، لصعب عليه أن ينجو بنفسه، بعد احتلال الاسود العَنْسي لنجران، فاستطاع ان يتخلّص من خطر داهم، حتى وصل إلى المدينة المنوّرةسالما.

وكان واسع الحيلة، لأنّه كان ألمعيّ الذكاء، يتحلّى بالمرونة، فكان يجد لكلّ مشكلة حَلاً، ولكل معضلة مخرجا.

ولا نعلم شيئاً عن تمتعه برواء المظهر، وقد يكون المظهر الجذّاب ضرورياً بالنسبة للسفير في دولة غير عربية، أما بالنسبة للدول العربية، فقد لا يكون رواء المظهر ضرورياً، ولكنه كان شابا في ريعان الشباب، لا يخلو مظهره من رواء، بالرّغم من سكوت المصادر عن مظهره.

تلك هي مجمل سمات سفارة عمرو بن حزْم، وهي سمات سهّلت له مهماته سفيراً، ومهماته الأخرى والياً وجابياً وقائداً ومعلّماً، فنجح في تحمّل أعباء واجباته في تلك المجالات.

لقد كان عمرو يتحلّى بالانتماء والإيمان، وبالفصاحة والعلم وحسن الخلق، وبالصبر والحكمة، وبسعة الحيلة، ورواء المظهر، وتلك هي سمات السفير المتميّز في كلّ زمان ومكان.

عمرو بن حزم في التاريخ

يذكر التاريخ له، أنّه كان من شباب الأنصار الذين يحرصون على الموت في ميدان الجهاد، على الحياة في الميادين الأخرى.

ويذكر له، أنه شهد غزوة الخندق، وما بعدها من الغزوات، وهو في ريعان الشباب.

ويذكر له، أنّه كان سفيراً نبوياً ووالياً وجابياً ومعلّماً، فنهض بكل هذه الواجبات بكل نجاح.

ويذكر له، أنّه كان لا يخاف في الحق لومة لائم، ولا يكتم قولة الحق خوفاً من السلطة والسلطان.

ويذكر له، أنّه نال شرف الصُّحبة، وشرف الجهاد تحت لواء الرّسول القائد عليه الصلاة والسلام.

رضي الله عن الصحابيّ السفير، القائد الوالي، العالم الجابي، عمرو بن حَزْم الأنصاري.

فهرس الجزء الأول